الضوء المنير على التفسير

جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده

علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله

١٣٣٣هـ - ١٤١٥هـ

من كتاب الإمام المحدث المفسر الفقيه

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي

المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله

المجلد الأول

الفاتحة والبقرة

تحقيق

صبري بن سلامة شاهين

دار القبس للنشر والتوزيع

الضَّوءُ المُنِيرُ

عَلَى

التَّفْسِيرِ

المُجَلَّدُ الأَوَّلُ

ح دار القبس للنشر والتوزيع ، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصالحي، علي الحمد
الضوء المنير على التفسير./علي الحمد الصالحي- ط٢- الرياض، ١٤٣٦هـ
ردمك ٣-٠-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٠-٦-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)
١-القرآن - تفسير أ- شاهين، صبري سلامة (محقق) ب- العنوان
ديوي ٢٢٧،٣ رقم الإيداع ١٤٣٦/١٥

طبعة جديدة مصححة ومحققة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الموقع الرسمي للمؤلف: www.assalehi.com - البريد الإلكتروني: assalehi@hotmail.com
هاتف: ٩٦٦١١٤١١٨٨٩٨+ ، ٩٦٦١١٤١١٨٨٧٤+ ؛ فاكس: ٩٦٦١١٤١٣١٤٧٤+
جوال: ٩٦٦٥٠٥٤٦٥١٩٣+
العنوان البريدي: المملكة العربية السعودية ص.ب: ٢١١٧٠ الرياض:١١٤٧٥

إنَّ الوَفاء وبذل المعروف من العمل الصَّالح، وإنَّ الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً. أخي الحبيب، وإن كان لديك معلومات أو وثائق عن والدنا: الشيخ علي الحمد المحمَّد الصَّالحي رحمه الله، نرجو التكرم والتفضّل بالاتصال علينا على العنوان أعلاه. نسأل الله للجميع التَّوفيق والسَّداد؛ لما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأن يجعلَ لنا ولكم لسانَ صدق في الآخرين، والحمد لله ربِّ العالمين.

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه أو نسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكّن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من المؤلف.

بسم الله الرحمن الرحيم

صف وتصميم وإخراج
دار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ـ الرياض
شارع الأمير سطام بن عبدالعزيز
هاتف: ٢٦٨١٠٤٥ ـ فاكس: ٤٣٥١٣٩٥
جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٢٩٣٩٣٨
darulqabas@yahoo.com

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي نزَّل الفرقان ليكون للعالمين نذيرًا، ووفق عباده لفهم كتابه وتفسير آياته أحسن تفسيرًا. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فحريٌّ بنا أن ندرك أن القرآن كتاب كريم، غنيٌّ في دلائله ومعانيه، ثريٌّ في حقائقه ومبانيه، قويٌّ في أهدافه ومراميه، معجزٌ في نظمه وبيانه، متجددٌ في عطائه وهباته.

لقد تتابع عليه المفسرون من لدن الصحابة إلى يومنا هذا، فوجد كُلٌّ ضالته، لأنه معين لا ينضب ولو كثر عليه الشاربون، وكنوزه ثمينة مذخورة لا تنفد ولو تتابع عليها المغترفون، وظلاله ممتدة واسعة لا تزول، ولو توافد عليها المتفيئون، وخيراته متجددة متنوعة ولو تكاثر عليها المتزاحمون، وأنواره مشعة متلألئة لا تخبو ولو طال عليها الزمن وامتدت بها السنون.

إنه حبل الله الممدود، وعهده المعهود، وظله العميم، وصراطه المستقيم، وحجته الكبرى، هو الواضح سبيله، الراشد دليله، الذي من استضاء بمصابيحه أبصر ونجا، ومن أعرض عنها زل وهوى. وهو حجة الله وعهده، ووعيده ووعده. بشير بالثواب، ونذير بالعقاب، وشفاء للصدور، وجلاء الأمور.

إن عطاء القرآن متجدد لا يبلى، وكنوزه وفوائده لا تفنى، وأنواره وضَّاءة لن تخبو، فقد قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقد تصدى لتفسير القرآن العظيم أساطين الأمة، وتولى تيسير معضلاته سلاطين الأئمة من الصحابة والتابعين، وأئمة اللغة والنحويين، ثلة من الأولين وأمة من الآخرين، فغاصوا في بحار لججه، وخاضوا في أنهار ثبجه، فنظموا في سلك التقرير فرائده، وأبرزوا

في معرض التحرير فوائده، وألفوا كتبًا جليلة المقدار، وصنفوا زبرًا جميلة الآثار.

إن هذا التفسير وإن كبر حجمه فقد كثر علمه، وتوافر من التحقيق قسمه، وأصاب غرض الحق سهمه، وقد اشتمل على بدائع الفوائد مع زوائد الفرائد وقواعد شوارد، من صحيح الرواية وصريح الدراية. وحوى علومًا جليلة في مهمات العقيدة، ومسائل محكمات في الفقه والسيرة، وفنونًا أثيرة في علاج أمراض القلوب وتهذيب الأخلاق، وفوائد كثيرة من الأحاديث النبوية الشريفة.

ولا غرو، فإن المصنف الجليل المعروف بابن قيم الجوزية هو الحبر الهمام، والعلامة الإمام شيخ الإسلام المقدام الذي حاز قصب السبق في جل علوم الشريعة والطريقة النبوية المرضية، فقد غاص في بحار العلوم، فاستخرج منها فوائد الدرر، وسبر محاسنها فجمع منها أحاسن الغرر. وجاء بحمد الله كتابه كنزًا مدفونًا من جواهر الفوائد، وبحرًا مشحونًا بنفائس الفرائد.

إن هذا الكتاب عظيم الشأن، ساطع البيان، مؤسس بحسن ترتيب، وجودة نظام، على أحسن جواهر القواعد، مرصع بأجمل فرائد الفوائد والعوائد، إنه بحر لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائبه.

وإذا كان ابن القيم هو صاحب هذه العلوم والفوائد والمباحث المنشئ لها، فإن الشيخ علي الصالحي رحمه الله هو صاحب الفضل في إبرازها وخروجها بهذه الصورة التامة البديعة، فقد مكث سنين طويلة يقرأ ويبحث ويفتش عن كل آية، ويختار ما يناسبها، ثم يصحح ما فيها من خطأ مطبعي، ويراجع المخطوطات والمطبوعات حتى يستقيم الكلام ويصلح المعنى، ولك أيها القارئ الكريم أن تتخيل حجم المعاناة وهو يرتب الآيات كل آية ثم يعقبها بالآية التي تليها، حتى ينتهي من جميع آيات السورة، فإذا انتهى من جمع تفسير سورة الفاتحة بدأ في جمع وترتيب تفسير سورة البقرة، ثم آل عمران، ثم النساء، وهكذا دواليك حتى أتى على نهاية سور المصحف الشريف. إن هذا العمل لا يقدر عليه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العالية

والمقاصد المنيفة والرغبات السامية، هكذا نحسبه والله حسيبه وهو يتولى الصالحين. وأرجو الله ﷻ وهو المان بفضله أن ينشر من فوائده وفرائده ما تقر به الأعين، وتلذ به الأنفس، وتسعد به الخواطر.

وها نحن مع علم من أعلام المسلمين العظماء، شيخ الإسلام الثاني: ابن قيم الجوزية رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، كان يستخلص من الآيات الحكم والعظات، والفوائد واللطائف، والعبر والدرر، والفرائد المهمات، فذخرت كتبه بأنواع العلوم والمعارف التي قد لا تحصل عليها عند غيره، وظلت هذه الكنوز جلّها أو أكثرها مستورة مدفونة ردحًا من الزمن، حتى أتى **فضيلة الشيخ الجليل أبو محمد علي الحمد المحمد الصالحي** رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته فاستخرج هذه الكنوز، وكشف عن دررها وفوائدها، ووفقه ربه فأتى لنا بهذا الكتاب المبارك «**الضوء المنير على التفسير**» الذي ظل خلال خمسة عشر عامًا يبحث وينقب، ويقف على كل آية، ويرتب وينظم، حتى خرج هذا الكتاب في ستة مجلدات كبار، وطبّع طبعة أولى في دار السلام بالرياض سنة ١٤١٥هـ، وعندما كنت أعمل في هذا الكتاب مدققًا ومصححًا وكان الشيخ علي رحمه الله آنذاك حيًّا معنا يتابع عمله بنفسه، ويباشر كل صغيرة وكبيرة، حتى إني كنت أذهب إليه في المستشفى وهو مريض ملازم للفراش، يتابع معي آخر ما عملت ولم يوقفه المرض عن المتابعة الدقيقة.

ومن نافلة القول: إن هذا الكتاب سبقه إلى النور كتابان: الأول: التفسير القيم، جمعه الشيخ/ محمد أويس الندوي في مجلد واحد، والثاني: بدائع التفسير، جمعه/ يسري السيد محمد في خمس مجلدات، ويمتاز الضوء المنير عنهما بسعته وشموله وكثرة مادته العلمية، واحتوائه على كثير من الآيات التي فاتت كلا من الندوي ويسري السيد، جزى الله الجميع خيراً على ما قدموه، خدمة لكتاب الله، وإثراء للمكتبة الإسلامية، وطلبة العلم، وعامة المسلمين.

إن هذا الكتاب عزيز عليَّ، وله في نفسي مسارب ومداخل، فقد عشت بين

صفحاته شهورًا عديدة قرابة السنة، عندما كنت أعمل في دار السلام، فأثَّر فيَّ تأثيرات عميقة، وعالج عندي إشكاليات كبيرة، وأزاح عني عللًا خطيرة، وأرسىٰ في نفسي قواعد وأصولًا عظيمة، فأحببت ابن القيم حبًّا جميلًا، وعظمته تعظيمًا جليلًا، وهو بشر يخطئ ويصيب ولكن خطأه قليل، والله يغفر لي وله ولجميع موتىٰ المسلمين.

وصدق ابن نباتة المصري، حيث قال رحمه الله:

وَإِذَا الحَبِيبُ أَتَىٰ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ   جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعِ[١]

انتهيت من تحقيق هذا الكتاب في سنتين وشهرين تامَّين مع كثرة شواغلي ومعوقاتي وزحمة أوقاتي، فجاء بحمد الله في صورة أزهىٰ وأجمل وأحسن مما كان عليه من قبل.

والحق أقول: أنا مدين للشيخ علي الصالحي رحمه الله بهذا الفضل بعد الله عز وجل، ومدين أيضًا لابنَي الشيخ علي رحمه الله: إبراهيم وسليمان اللذين أسندا إليَّ العمل في هذا الكتاب، فلا حرمهم الله الأجر والمثوبة جرَّاء ما قاما به. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[٢].

وصدق الحُطيئة حين قال:

مَنْ يَفْعَلِ الخَيرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَــهُ   لَا يَذْهَبُ العُرفُ بَيْنَ اللهِ والنَّاسِ[٣]

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، وقائله: أبو بكر جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي المصري، شاعر عصره، كان صاحب سر السلطان الناصر حسن، مات ٧٦٨هـ. ذكر البيت ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ١٧٠) والمباركفوري في تحفة الأحوذي (٩/ ١٤٢).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٨/ ١٩٨ رقم ٣٤٠٧) وأبو داود (رقم ٤٨١١) والترمذي (رقم ١٩٥٤) وأحمد (٢/ ٢٩٥) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢١٨) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٧٧٦ رقم ٤١٦).

(٣) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلىٰ الحُطيئة: جرول بن أوس العبسي شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، كان هجَّاءً عنيفًا، لم يكد يسلم من لسانه أحد، ويقال: إنه هجا أمه وأباه، وهجا نفسه، وسجنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسبب هجائه الزبرقان بن بدر. فاستعطف عمرَ بأبيات فأخرجه من السجن ونهاه عن هجاء الناس، مات سنة ٤٥هـ. ذكر البيت أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني في الزهرة (٢/ ٧٧٠) وهو في ديوان الحطيئة (ص ٢٨٣).

نعم، إن الحياة مع القرآن وتفسير آياته وتدبر معانيه نعمة جليلة، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه. وإنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعة، ولا بركة، ولا طهارة إلا بالرجوع إلى الله، بالرجوع إلى فهم كتابه وتدبر معانيه والوقوف على تفسيره والعيش بين أكنافه والتفيء تحت ظلاله، هروبًا من جحيم الماديات والعصريات الحديثة المهلكة.

إن هذا «الضوء» لو رآه مؤلفه الحافظ ابن القيم أو رآه جامعه الشيخ الفاضل علي الصالحي أو وقف عليه أي منصف لأقر أعينهم وشرح صدورهم وطابت أنفسهم، هكذا أظن، والله حسيبي، فأسأله سبحانه أن يتقبله منا بقبول حسن، وينفع به عباده وألا يحرمنا جميعًا الأجر الجميل والثواب الجزيل.

وما ينبغي لي أنْ أنسى الأخ أبا حذيفة: محمد سليمان محمد أمين مسؤول قسم النشر بدار القبس - حفظه الله ورعاه وأتمَّ عليه العافية والمعافاة - الذي لا يدِّخر وسعاً، ولا يألو جهداً في إخراج مطبوعاته في أعلى درجات الجودة، وغاية الإتقان، هكذا عهدناه، وما زال، فهذا كتاب «الضوء المنير على التفسير» في سبع مجلدات كبار، عكف عليه الرجل ليلاً ونهاراً، لكي يخرج في أحلى زينة وأجمل حلية، فيتابع كل شيء بنفسه، ولا يكل هذا الأمر لغيره ممن يعمل معه، أو يثق فيهم ممن لهم اليد الطولى في إتقان مثل هذه الأمور، ويحسن القيام بمثل هذه الأعمال فجزاه الله خير الجزاء.

كتبها

صبري بن سلامة شاهين آل حسين

بمدينة الرياض في ليلة الثالث من شهر ذي القعدة

سنة ١٤٣١هـ الموافق ١٠/ ١٠/ ٢٠١٠م

مقدمة الواقف

الحمد لله مسبغ النعم واسع العطايا، أنعم علينا بنعم عظيمة، منها نعمة القرآن خاتم كتبه، والصلاة والسلام على عبده ورسوله نبينا محمد، مبلغ وحي ربه خير بلاغ، صاحب المقام المحمود والشفاعة العظمى، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى أثره.

أما بعد:

فلا يخفى أن شرف العلوم منوط بشرف المعلوم، ولهذا لما ارتبط علم التفسير بالقرآن الكريم علا شرفه، وبان فضله، وكان من خير ما تقضى فيه الأوقات، وتصرف فيه الأعمار. وقد قام علماء هذه الأمة بجهود محمودة في هذا المضمار، ففتح الله عليهم من العلوم في تفسير كتابه، فصنفوا في ذلك المصنفات البديعة بين مختصر ومطول، كما دونوا روائع الكلم في تفاسيرهم في ثنايا كتبهم. وكان من بينهم العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله وأجزل مثوبته، فقد عُرف عنه براعة عباراته ودقة ألفاظه، مع رقة قلبه ورجاحة عقله. وبالرغم من أنه لا يُعرف له تفسير مستقل، إلا أن كثرة مؤلفاته تضمنت نفائس في التفسير، ونوادر في التأويل، زانت المكتبة الإسلامية، وأغنت طلبة العلم بالعلوم النافعة الماتعة، من أجل هذا سمت همة الوالد الشيخ علي الحمد المحمد الصالحي -تغمده الله بواسع رحمته وأسكنه الفردوس- لجمع تفسير لابن القيم رحمه الله من خلال مقاربة استيعاب كلامه المتفرق عن التفسير في كتبه، التي وقعت في يد الوالد، وقد بلغت ستة وعشرين كتاباً. وقد استغرق هذا الجمع سنين عدة. حرص فيها على تتبع إحالات

العلامة ابن القيم بين كتبه بخصوص التفسير. وقد أوضح الوالد منهجه في الجمع في مقدمته، وأنه اقتصر على كلام ابن القيم دون سواه، إلا فيما نقله عن غيره. كما أنه قد يختصر أو يوضح فيجعله بين قوسين حسب الحاجة. وامتاز جمعه بالإحالة إلى موضع النقل من مؤلفات ابن القيم.

وقد طبع هذا المصنف في ست مجلدات عام ١٤١٥هـ في مكتبة دار السلام بالرياض، ولاقى قبولاً ولله الحمد والمنة. وقد نفدت هذه الطبعة منذ حين، لذا رأينا الحاجة ماسة إلى إعادة طبعه وإخراجه بعد معالجة ما بلغنا من ملحوظات على الطبعة الأولى. فأوكلنا مهمة تحقيقه وتصحيحه إلى أخينا/ صبري بن سلامة شاهين آل حسين، الذي بذل في ذلك جهده، شكر الله له صنيعه، وجزاه خير الجزاء على ما قدم، وحرصنا نحن القائمين على وقف الوالد رحمه الله على أن يخرج الكتاب في حلة بديعة، وطبعة أنيقة، في أحلى صورة، وأبهى زينة، فاخترنا أجود أنواع الورق، والتجليد الفاخر، والإخراج الرائع، ليخرج في صورة تسر الناظرين، وأسندنا مهمة طباعته إلى دار القبس، التي تميزت بجودة العمل وإخراجه في حلة قشيبة مشرقة مبهجة، راجين بذلك أن يجعل الله هذا السفر من العلم النافع، الذي يعود بالخير العميم والجزاء المبارك على العلامة ابن القيم والوالد الحبيب، رحمهما الله رحمة واسعة، وجعل مآلهما الفردوس الأعلى من الجنة، في صحبة الحبيب محمد ﷺ، وكما نرجو الخير والجزاء الجميل لكل من ساهم في إخراج هذا العمل إلى النور، سواء المحقق والواقف على وقف الوالد والناشر وكل من أشار علينا بنصيحة وتوجيه، وأن يتقبله الله بقبول حسن.

جهد الوالد رحمه الله تعالى في عمله المبارك هذا:

إن الوالد كان شغوفًا بتراث ابن القيم لما له من حس مرهف وقلب ذكي وبراعة في تناول النصوص القرآنية وتأويلها وفق مراد الله ومراد رسوله ﷺ، فجاءت كتاباته ماتعة رائعة رائقة، تقر الأعين، وتشرح الصدور، وتشفي النفوس، وتعالج الخواطر والنزعات، التي تعتلج في حنايا النفس البشرية، فكان موفقا في عرضه للآيات وتأويله لها، وفق منهج أهل السنة والجماعة، مجانبا أهل الأهواء من المبتدعة والزائغين، ولما لم يكن لابن القيم تفسير يرجع إليه طلبة العلم والعلماء، ولعلها كانت أمنية له، ولم يتيسر له أن يصنف في التفسير، حيث قال رحمه الله في نهاية تفسير المعوذتين، الذي قصد تفسيرهما، حيث وضع عنوانا صريحا واضحا يوحي بذلك بقوله: تفسير المعوذتين فقال متمنيا: فهذا ما مَنَّ الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين، وله الحمد والمنَّة، وعسى الله أن يساعد بتفسير على هذا النمط، فما ذلك على الله بعزيز، والحمد لله رب العالمين. أهـ.

من هنا رأى الوالد رحمه الله أن يحقق له هذه الأمنية الغالية، وهذا دأب العلماء العاملين الناصحين، فعمد إلى مصنفاته، فأبحر فيها عبر عقد ونصف من الزمن، حتى جاد بهذه التحفة القيمة، ومن هنا كان حرص الوالد رحمه الله على إرث ابن القيم العلمي، فظل سنين عدة يبحث وينقب ويطالع ويغوص في أعماق هذا البحر الزخار، وكابد الأيام والليالي والشهور والأعوام، يهضم هذا التراث وينتقي، ويتخير أطايب العبارات والفقرات، ويصل الليل بالنهار في مصاحبة ابن القيم، إلى أن اختلط بلحمه ودمه، وصار يتمثله في مدخله ومخرجه، وفي عطائه ومنعه، حتى كأنه هو، وهذا لعمر الحق مزية صحبة الصالحين ومرافقة أولياء الله المتقين.

إن جهود الوالد رحمه الله في عمله هذا يعد مفخرة لنا، نبديها من باب إبراز الفضائل

ونشرها لطلبة العلم قبل غيرهم، ليحتذوا حذوه، وينهجوا نهجه، عسى ربنا أن يجعل له في العالمين ذكرا حسنا، يكون سببا لدعوة صادقة خالصة تناله بركتها وأجرها، فهذا أملنا من تعداد مزاياه ونشر مناقبه وكشف محامده، آملين من كل من يقف على سيرة الوالد أن يخصه بدعوة لعلها ترفع شأنه عند ربه، ونحن ما ذكرنا ذلك إلا من باب البر الذي أمرنا به ربنا عز وجل في محكم التنزيل، وبه أيضا نستجلب رضا مولانا سبحانه وتعالى، لأنفسنا في دنيانا وآخرتنا، فما استجلب نعيم الدارين إلا بمثل البر، سائلين الله تعالى أن يجعل عملنا هذا في صحائف أعمالنا، وترتفع به منازلنا عند ربنا، إنه جواد كريم ودود رحيم.

ولكي ندرك حجم الجهد الذي بذله الوالد رحمه الله في جمع هذه المادة العلمية من كتب ابن قيم الجوزية رحمه الله، فنحيل القارئ الكريم إلى مقدمته لهذا الكتاب، حيث بين فيها مقدار ما لاقى من عنت ومشقة في سبيل إخراج هذا الكنز المدفون، فقد قال رحمه الله: فأنا أذكر لك حسب ما ظهر لي من قراءتي لكتب الشيخ رحمه الله أنه يحيل على الكتاب بعدة أسماء بما يقارب اسمه أو موطن كتابته نسياناً منه لما سماه به؛ لتزاحم الواردات عليه مما يحيط به هو وشيخه في عصرهما من خصومهما.

أما منهج المحقق حفظه الله: فقد تقيد بأسلوب المحققين وطريقة عملهم، من حيث تصحيح النص وإخراجه بصورة جيدة، معتمدا على خبرته العلمية والعملية، فحرص أشد الحرص على صحة المتن في المقام الأول، ثم زيَّن الكتاب بالحواشي، فقد قيل: لا يضيء الكتاب حتى يُظلم. أي بالحواشي، فجاءت هذه الحواشي لتضيف على الكتاب زينة وجمالا، يقف عليها كل منصف، فخرَّج الأحاديث، ونقل كلام أهل العلم على الحكم على الأحاديث، وعزا الأبيات الشعرية إلى قائليها، وذكر أماكن وجودها في مصادرها من كتب أهل اللغة وكتب الأدب، والكتب الشرعية، وقد

عزا كثيرا من النقولات إلى مصادرها من كتب أهل العلم، وقد رأينا أن الأولى حذف التعليقات التي كانت موجودة في الطبعة السابقة التي نقلها الوالد ﵀ عن محققي كتب ابن القيم التي اعتمد عليها، لأنها ليست من صنيع الوالد ﵀، وأشير علينا بذلك فاستحسنا الفكرة، أما الحواشي التي ذيلت بـ(ج) فأبقيناها لأنها من صنيع الوالد ﵀، وقد تجد أيها القارئ الكريم أن الوالد ﵀ قد يذكر في تفسير الآية الواحدة أكثر من نقل من أكثر من مصدر، حرصًا منه أن يؤدي أمانته في جمع المادة العلمية حول كل آية، وخاصة إذا كان فيها زيادة فائدة.

وصف هذه الطبعة:

تتميز هذه الطبعة عن سابقتها بمميزات عدة: أنها مخرجة الأحاديث ومصححة تصحيحات مدققة من قبل الأخ المحقق ومن باب الاطمئنان على سلامة الكتاب من الأخطاء، كلفنا مدققين لغويين آخرين لمراجعة الكتاب كاملًا، لكي نضمن دقة العمل وجودته، حرصاً منا على أن تكون هذه الطبعة أقرب إلى الصواب، حيث لا يخلو عمل بشر من أخطاء، وتم حذف العناوين المأخوذة من كتب ابن القيم لأن الوالد ﵀ كان ينقل النص كما هو بعنوانه، حتى صار الكتاب لا يشبه كتب التفسير، فرأينا حذف هذه العناوين، لكي يأخذ الكتاب طابع كتب التفسير، فذكرنا قبل النص الآية أو الآيات التي سيشرع في تفسيرها والكلام حولها، وجعلناها من مصحف المدينة، لكي نتجنب أي خطأ يقع في كتابة الآيات، وبذلك زاد حجم الكتاب المحقق على الكتاب الأصلي بمجلد، حيث صار سبع مجلدات بدلا من ست في طبعته السابقة، هذا ونرجو الله تعالى أن يتقبل عملنا، ويجعله من العمل الصالح المبرور، الذي نأمل أجره وثوابه لنا ولوالدينا وإخواننا وذرياتنا، ولكل من يمت لنا بصلة قرابة أو مصاهرة، أو يكن لنا محبة ومودة، راجين ربنا - وهو المان بفضله- ألا يحرمنا

الأجر، وألا يقطع عنا ثوابه ما بقيت عين تطرف أو عرق ينبض أو لسان يذكر، وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد وآل بيته الأطهار، وأتباعه الأبرار، اللهم آمين.

إبراهيم بن علي حمد الصالحي
عنيزة - القصيم
١/ ١/ ١٤٣٥هـ

ترجمة فضيلة الشيخ
علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله
١٣٣٣-١٤١٥هـ

أولاً: نسبه ومولده ونشأته:

هو العالم الجليل والشيخ الفاضل النبيل، علي بن حمد بن محمد بن صالح بن عبد الله الصالحي، ولد هذا العالم في مدينة عنيزة سنة ١٣٣٣هـ، وكان الجد الثالث له قد نزح من خب البصر إلى عنيزة، ولا يزال فيها بنو عم لهم، ولهم أملاك فيها.

نشأ شيخنا رحمه الله نشأة صالحة حسنة، ورباه والده أحسن تربية، واعتنى به عناية فائقة، ولما بلغ سن التمييز أدخله والده كتاتيب بلده عنيزة، فتعلم فيها مبادئ القرآن والكتابة، ثم شغف بطلب العلم منذ صباه، فأدخله والده مدرسة القرزعي: لصاحبها صالح وعبد الرحمن العبد الله السالم القرزعي، فحفظ القرآن عن ظهر قلب، وتعلم مبادئ العلوم وقواعد الخط والحساب، فمهر فيهما، وشرع في طلب العلوم الشرعية بهمة عالية ونشاط ومثابرة، فحفظ كثيرًا من المتون في علوم الشريعة، ودرس أمهات الكتب وهو في سن مبكرة، وقد لازم شيخه فضيلة الشيخ: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ولما رأى الشيخ السعدي فيه المثابرة والملازمة أمره أن يجلس لتدريس صغار الطلاب في الأوقات التي لا يفوته فيها دروس شيخه، حتى استفاد منه عدد غير قليل، وسيأتي بيانهم إن شاء الله.

ولما فتحت المعاهد العلمية في الرياض، وصار من بعدها كلية الشريعة واللغة، لم ترض همته إلا الالتحاق بالمعهد العلمي بالرياض، ونال شهادته سنة ١٣٧٦هـ، ثم انتسب إلى كلية الشريعة فأكمل دراستها وحصل على الشهادة سنة ١٣٨٢هـ، ثم انتسب إلى المعهد العالي للقضاء، فتخرج منه، وكان لا يمل ولا يسأم من تكرير الدروس وحفظها وتفهمها.

وكان رحمه الله في كل ذلك مثال الجد والاجتهاد، والحيوية والنشاط، فدرس ودرَّس، وأجاد وأبدع وأفاد، وحسن مدخله ومخرجه، غفر الله له.

ثانيًا: شيوخه:

لازم الشيخ عليٌّ رحمه الله كثيرًا من العلماء، منهم الشيخ العلامة صالح بن عثمان القاضي، والشيخ عثمان بن صالح، والشيخ عبد الله بن محمد بن مانع قاضي عنيزة، والشيخ سليمان العمري، والشيخ عبد العزيز الخريدلي، وكان من أهم وأقرب شيوخه إليه والذين أثروا في حياته العلمية والعملية، هو فضيلة الشيخ العلامة السعدي، بل هو أكثر مشائخه نفعًا له وملازمة له. قرأ عام ١٣٦٢هـ على الشيخ محمد ابن عبد العزيز المانع في الحرم المكي، وكذا قرأ على الشيخ بهجة البيطار، ولما عاد إلى عنيزة لازم مشائخه مدة إقامته فيها، ولما رحل إلى الرياض لازم كلا من: سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وفضيلة الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ، وفضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي، وممن أخذ عنهم ودرس عليهم فضيلة الشيخ عبد الله بن حميد رحم الله الجميع.

ثالثًا: تلاميذه:

لما أتيحت الفرصة للشيخ أن يدرس لصغار طلبة العلم بتكليف من شيخه العلامة السعدي، قام الشيخ علي رحمه الله بذلك خير قيام، وكان عند حسن ظن شيخه به، فأحسن تدريس هؤلاء الطلاب، وأفادهم، وكانوا جمعًا غفيرًا، من أبرزهم وأشهرهم وأفضلهم ـ فيما نحسب والله حسيبهم ـ: فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله، والشيخ علي المحمد الزامل، وسليمان الأشقر الزامل، وعبد الله الصالح اليحيا، والشيخ حمد المحمد المرزوقي، والشيخ عبد العزيز العلي المساعد، والأستاذ عبد الرحمن اليوسف الشبل، والأستاذ عبد العزيز الإبراهيم الغرير، والشيخ محمد العثمان القاضي، والأستاذ محمد الحمد الونين، والأستاذ صالح الحمد الونين،

والأستاذ إبراهيم المحمد السبيل، والأستاذ عبد الله السليمان القاضي، والأستاذ عبد العزيز السليمان القاضي، وغيرهم كثير.

رابعًا: أعمالـه:

لقد كان رحمه الله له همة عالية ونشاط منقطع النظير في أمور الدنيا والدين، ومن ذلك:

١- إن أول مكتبة عامة في نجد هو الذي اهتم بتأسيسها، فإنه في عام ١٣٥٨هـ قام بتأسيس مكتبة جامع عنيزة، فقد كتب معروضًا لوزير المالية الشيخ عبد الله السليمان الحمدان، جمع فيه توقيع علماء عنيزة وأعيانها، وأيده من قاضيها الشيخ عبد الله المانع، ومن أميرها عبد الله الخالد السليم، وسافر به إلى الوزير في مكة، فأمر بنسخة من كل كتاب من مطبوعات الحكومة السعودية، كما أنه أمر أن يشتري من جميع الكتب الموجودة في سوق الكتب (باب السلام)، ثم طلب من الشيخ السعدي أن يكتب لأعيان بلده لبناء المكتبة، فكلهم استجابوا، وتم بناؤها، وقام الصالحي بجهود مضنية بجلب الكتب والأثاث لها، وأتى بالمخطوطات من مظانها في مناطق المملكة كلها، ومن جمعيات أخرى من فاعل خير، حتى اجتمع في هذه المكتبة ما يقارب أربعين ألف كتاب في شتى الفنون، من أصول الدين وفروعه والحديث والتفسير والمراجع اللغوية والتاريخ والسير والأدب ودواوين الشعر، حتى أخذت مصافها معادلة أكبر مكتبة في نجد بوقت التأسيس، وصارت هذه المكتبة فيما بعد مكان إلقاء دروس العلامة السعدي، ومحل البحث والاجتماع لطلابه.

٢- أنشأ الشيخ علي رحمه الله مؤسسة النور للطباعة والتجليد، والتي تعتبر من أقدم المطابع في المملكة، فقد كان لهذه المطبعة بعد فضل الله الأثر الكبير في إعادة طباعة أمهات الكتب، وطبع فيها كتبًا لا حصر لها في فنون عديدة من كتب الأصول والفروع والتواريخ، وغير ذلك من كتب العلم النافع.

٣- كان رحمه الله شجاعًا لا يهاب أحدًا في الله، وكانت تأخذه غيرة وحمية إذا تعدى أحد على منهج السلف، ونشر ما يخالف عقيدة أهل السنة والجماعة، وكانت له مواقف بطولية رائعة فيما يعتقد أن في ذلك قمع فساد أو إحقاق حق، فلقد كان أحد العلماء المصريين الذين وفدوا إلى عنيزة للتدريس في معهدها يُدرِّس في أحد المساجد، فأيّد في درسه بعض المسائل المخالفة لمذهب السلف، فشاع خبر هذا المدرس ودرسه الذي ألقاه، وانقسم أهل عنيزة قسمين بين معالج الأمر بجو هادئ، وبين منكر ومطالب إبعاد هذا المدرس، فكان الشيخ علي رحمه الله هو رئيس القسم الأخير، وعظَّم أمر المسألة، وما زال يتصل بالمسؤولين من العلماء والأمراء، حتى استبعد هذا المدرس، وأزيل خطره عن منهج السلف وعقيدة أهل السنة.

٤- وكان رحمه الله نصوحًا يحب الخير للجميع، ولا يأل جهدًا في إبداء النصح لولاة الأمور إذا علم أمرًا يوجب النصح، فلم يمنعه شيء في إيصال الخير إلى الولاة والعلماء، عملًا بقول رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة» ويرد على المبطلين، ويدحض حججهم، ويفنّد شبهاتهم، ويكشف عوارهم، نصرة للحق ودفاعاً عن الدين والعرض والوطن.

خامسًا: مؤلفاته ونشاطه العلمي:

لم يكن الشيخ علي رحمه الله تاجرًا فحسب، بل كان عالمًا فاضلاً، له منهج واضح في طباعة الكتب، فقد كان حريصًا على طباعة كتب السلف وكتب العقيدة الصحيحة، ولم يكن همه مثل هم كثير من الناشرين وأصحاب المطابع، يطبع كل ما هب ودب، طالما يدر عليه أموالاً طائلة، لم يكن الشيخ من هذا الصنف، بل كان رحمه الله من العلماء الحريصين على نشر العلم النافع، يظهر ذلك جليًا من خلال الكتب التي تولى نشرها وطباعتها، ومن خلال المقدمات التي كان يحرص عليها في بداية كل كتاب، فمن يقرأ هذه المقدمات يعلم يقينًا أن الشيخ كان داعية للعلم قبل أن يكون تاجرًا للكتب.

١- «**الضوء المنير على التفسير**» من أعظم ما خلفه من كتب في ستة أجزاء كبار، فقد قام الشيخ رحمه الله بجمع كلام العلامة السلفي ابن قيم الجوزية من خلال جميع مصنفاته المطبوعة والمخطوطة في تفسير آيات القرآن الكريم، ورتبها حسب ترتيب المصحف، واستمر عمله هذا قرابة خمسة عشر عامًا، حتى جمع هذا السفر الجليل، وطبع سنة ١٤١٤هـ ويطبع قريبًا بإذن الله بتحقيقي وتهذيبي.

٢- كتاب «**التنبيهات حول المقام ومنى واقتراحات**»، طبع هذا الكتاب سنة ١٣٩٤هـ وعرض هذا الكتاب على هيئة كبار العلماء بالمملكة لدراسته والنظر فيما تضمنه، وخلصت الهيئة إلى صحة ما في الكتاب، وأجازته الهيئة، وأثنت عليه خيرًا، وأعده الشيخ لطبعة ثانية سنة ١٤١٤هـ، ولكن حال مرض الشيخ وموته دون طباعته، ويطبع قريبًا طبعة جديدة بتحقيقي.

٣- كتاب «**العطار والقاسم في الميزان**»، دافع فيه الشيخ على الحق الذي دعا إليه الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار رحمه الله، وأبطل الباطل الذي نادى به المدعو عبد الرحمن القاسم الحاصل على ليسانس حقوق، الفارغ من العلم الشرعي، وليس لديه حجة دينية في دعواه، فلم يأل الشيخ جهدًا في الدفاع عن الحق، وإظهار المحق من المبطل، وقدم لهذا الكتاب فضيلة الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله، وطبع سنة ١٣٨٤هـ.

٤- كتاب «**دعوة المسلمين إلى احترام شعائر الدين**»، طبع سنة ١٤١٣هـ وترجم إلى الإنجليزية.

٥- كتاب «**كشف الشبهات**» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، قام الشيخ علي رحمه الله بتفصيله وكتابة الترجمة والمقدمة والتعليق، طبع الطبعة الأولى سنة ١٣٨٣هـ والطبعة الثالثة سنة ١٣٨٨هـ.

ومن الكتب التي طبعها الشيخ الصالحي في مطبعته:

١- كتاب البلبل في أصول الفقه، تأليف الإمام سليمان الطوفي الصرصري الحنبلي الطبعة الأولى سنة ١٣٨٣هـ.

٢- تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، تأليف الأمير الصنعاني، طبعه الشيخ علي رحمه الله سنة ١٣٨٩هـ، وطبعه مرة ثانية سنة ١٣٩٦هـ.

٣- الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، الجزء الثاني عشر، الكتاب الخاص بتراجم أصحاب الرسائل والأجوبة.

٤- «تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان»، تأليف فضيلة الشيخ إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن، قدم له الشيخ الصالحي مقدمة هامة، أشار فيها إلى أن هذا الكتاب سيكون في خمسة أجزاء متوسطة حسب تجزئة مؤلفه.

٥- كتاب التوحيد ومعه القول السديد للسعدي، وطبع أكثر من طبعة وقدم له الصالحي، ط١ سنة ١٣٨٢هـ، وط٢ سنة ١٣٨٤هـ، وط٣ سنة ١٣٩٠هـ.

٦- القول المحرر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تأليف الشيخ حمود بن عبد الله التويجري، قام بتصحيحه والإشراف على طبعه الشيخ الصالحي رحمه الله.

٧- الفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم السنة والكتاب، تأليف الشيخ أحمد بن ناصر بن عثمان المعمري، طبعه الشيخ الصالحي في مطبعته.

٨- مبادئ الإسلام، تأليف الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، طبعه الشيخ الصالحي باللغة العربية والإنجليزية في كتاب واحد، وذلك سنة ١٣٨٩هـ طبعة رابعة.

٩- رسالة الإمام عبد العزيز الأول ابن الإمام محمد بن سعود رحمه الله، قدم لها الشيخ الصالحي بمقدمة هامة، وترجم له ترجمة مختصرة، طبعت سنة ١٣٨٢هـ.

١٠- رسالة الإمام عبد العزيز الثاني أو حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بقلم حفيده العلامة محمد بن عبد اللطيف، قدم لها الشيخ الصالحي بمقدمة هامة.

١١- تحذير أهل الإيمان عن الحكم بغير ما أنزل الرحمن، تأليف إسماعيل بن إبراهيم الخطيب الحسني الأسعردي الأزهري، قدم له الشيخ الصالحي رحمه الله وطبعه في مطبعته.

١٢- الأدلة الكاشفة لأخطاء بعض الكتاب، للشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الرحمن الفريان، قدم لها الشيخ الصالحي رحم الله الجميع.

١٣- الانتصار على من أزرىٰ بالنبي والمهاجرين والأنصار، للشيخ حمود التويجري، ذيلها الشيخ الصالحي بخاتمة ونداء.

١٤- مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

١٥- الدرة الثمينة في الفرائض، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تأليف سليمان ابن عبد الرحمن الحمدان رحمه الله، سنة ١٣٩٢هـ.

١٦- الرد الجميل على أخطاء ابن عقيل، تأليف الشيخ حمود التويجري، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٢هـ.

١٧- دليل الحجاج الكرام إلى بيت الله الحرام، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز بن سليمان بن سحمان، الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ.

١٨- المنهج لمريد العمرة والحج، تأليف الشيخ محمد الصالح العثيمين رحمه الله، الطبعة الثانية.

١٩- واجب المسلمين، تأليف الشيخ عبد الرحمن السعدي، قدم لها الشيخ الصالحي، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٠هـ.

٢٠- الإرشاد في القطع بمقبول الآحاد، تأليف الشيخ إسماعيل الأنصاري.

٢١- شفاء الصدور في الرد على الجواب المشكور، أصدرته دار الإفتاء العامة.

٢٢- أصول الأحكام، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله، الطبعة الثانية.

٢٣- أبو الحسن الأشعري، تأليف الشيخ حماد الأنصاري، الطبعة الثانية، سنة ١٣٨٢هـ.

٢٤- تحفة الإخوان بما جاء في الموالاة والمعاداة والحب والبغض والهجران، تأليف الشيخ حمود التويجري، الطبعة الأولى.

٢٥- إيضاح المحجة في الرد على صاحب طنجة، تأليف الشيخ حمود التويجري، الطبعة الأولى، سنة ١٣٨٥هـ.

٢٦- زيارة القبور الشرعية والشركية، تأليف محيي الدين محمد البركوي رحمه الله.

٢٧- تسهيل الوصول إلى علم الأصول، وفق المنهج المقرر تدريسه في المعاهد العلمية ومعهد الجامعة الإسلامية، تأليف: عطية محمد سالم، وعبد المحسن العباد، وحمود بن عقلا، مراجعة الشيخ عبد الرزاق عفيفي.

٢٨- نصحية من سماحة مفتي البلاد السعودية محمد بن إبراهيم آل الشيخ بمناسبة صلاة الاستسقاء، يوم الاثنين الموافق ٢٧/ ١٠/ ١٣٨٦هـ.

٢٩- أذكار الصباح والمساء، ويليها مختصر ثلاثة أصول، تأليف الشيخ عبد العزيز ابن محمد الشثري، الطبعة الثانية.

٣٠- الإحكام في أصول الأحكام، تأليف الإمام علي بن محمد الآمدي، قام بالتعليق عليه الشيخ عبد الرزاق، عفيفي، وقام بتصحيحه الشيخان: عبد الله ابن غديان وعلي الحمد الصالحي، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧هـ.

٣١- النظام الداخلي للمدرسة الابتدائية، سنة ١٣٨٤هـ.

٣٢- قوائم بأسماء الكتب والمطبوعات الممنوعة، قدم له مفتي البلاد السعودية سنة ١٣٨٦هـ.

٣٣- فوائد السواك ومنافعه، تأليف الشيخ أبي بكر الجراعي الحنبلي رحمه الله، سنة ١٣٨٦هـ.

٣٤- رسالة في دية النفس وغيرها، تأليف مفتي الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله، سنة ١٣٧٤هـ.

٣٥- الدخان في نظر الإسلام، تأليف الشيخ صالح بن عبد العزيز بن إبراهيم آل منصور، الطبعة الأولى.

٣٦- العجالة السنية على ألفية السيرة النبوية، تأليف عبد الرزاق المناوي، قام بتصحيحه والتعليق عليه الشيخ إسماعيل الأنصاري.

٣٧- في سبيل الحق، تأليف الشيخ عبد الرحمن الحماد العمر، سنة ١٣٨٣هـ.

٣٨- الإرشاد إلى توحيد رب العباد، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن حماد بن عمر، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٤هـ.

٣٩- الإرشاد إلى طريق النجاة، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن حماد آل عمر، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٦هـ.

٤٠- اللآلئ البهية في شرح لامية شيخ الإسلام ابن تيمية، تأليف أحمد بن عبد الله المرداوي الحنبلي، قدم لها الشيخ الصالحي وذكر في مقدمته أنه طبعه على أصل خطي، واعتنى بتصحيحه، طبع سنة ١٣٨٦هـ.

٤١- نقد الاشتراكية، صدرت من دار الإفتاء بالرياض، قام بالإشراف على طبعها وتصحيحها محمد السليمان البسام وعلي الحمد الصالحي، طبع في مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، سنة ١٣٨١هـ.

٤٢- كتاب الفتن والملاحم وهو النهاية من تاريخ الحافظ عماد الدين ابن كثير، تصحيح وتعليق الشيخ إسماعيل الأنصاري، قدم للطبعة الأولى الشيخ علي الحمد الصالحي، وكذا للطبعة الثانية سنة ١٤٠٣هـ وأعده الشيخ الصالحي لطبعة ثالثة، أضاف لها زيادات في المقدمة بخط يده، وهذا الكتاب طبع بالاشتراك بين مؤسسة النور ومكتبة الحرمين.

٤٣ رسالة الحسن بن أيوب، أخذها الشيخ علي من الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية، ولكن وافته المنية، وحالت دون طباعتها.

وقد قام الشيخ رحمه الله بطباعة بعض الكتب على نفقته الخاصة، منها:

- كتاب تنبيه الغافلين سنة ١٤١١هـ.
- وكتاب مجموع ابن رميح سنة ١٤١٤هـ.
- والربع الأول من تفسير القرآن الكريم باللغة الإنجليزية.
- وتفسير معاني القرآن كاملًا باللغة الإنجليزية.

سادسًا: صفاته وأخلاقه:

كان رحمه الله جم الخلق حسن الطباع، كريمًا يبذل المعروف ويدعو إليه، ويكف عن الشر ويحذر منه، ويحب إصلاح ذات البين، ويصل الرحم، ويكرم الضيف، ويعطف على الفقراء والمحاويج واليتامى، وكان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة والصفات الحسنة والشمائل الكريمة، مستقيمًا في دينه وخلقه، قويًّا صبورًا حازمًا نشيطًا، مع زهد وإقبال على الآخرة، ولا يخشى في الله لومة لائم، وكان تقيًّا محسنًا صدوقًا، وكان مربوعًا، أسمر اللون، متوسط الجسم والشعر، يجمع فضائل كثيرة وشمائل حسنة وصفات جليلة، نحسبه كذلك والله حسيبه.

سابعًا: مراسلاته لولاة الأمر:

دأب الشيخ رحمه الله على التواصل مع ولاة الأمر من الملوك والأمراء والعلماء، عملاً بقول رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة» ثلاثاً، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم».

من هنا كان الشيخ حريصًا على الكتابة لولاة الأمر، فقد كتب لكل من:

- جلالة المللك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله.
- وجلالة الملك خالد بن عبد العزيز رحمه الله.
- وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز رحمه الله.
- وصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز حفظه الله.

وكان له تواصل مع كل من العلماء يراسلهم ويراسلونه، منهم: سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز وأصحاب الفضيلة الشيوخ: عبد الله بن حميد وعبد الرحمن الدوسري ومحمد بن عثيمين وبكر أبو زيد وسليمان الصنيع وعبد الله بن عبدان وأحمد عبد الغفور عطار وجودت سعيد وإسماعيل الأنصاري ومحمد نصيف رحمهم الله جميعًا.

نماذج من مراسلات الشيخ الصالحي رحمه الله:

* كتب لجلالة الملك خالد رحمه الله، فقال: صاحب الجلالة إن الحامل على هذا الكتاب النصيحة التي أوجبها الله لكم، والنصح أغلى ما يبذل ويوهب، لأننا نعتقد أن الله سبحانه قد وكل لكم رعاية خلقه رعاية عامة على ضوء كتاب الله وسنة رسوله فيما يختص بكم، ورعاية خاصة وهو القيام على حفظ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بالعمل والاحترام، وبذلك يكتب الله لكم أجر المجاهدين في سبيله، وخاصة أمام هذه التيارات الجارفة والفتن المظلمة المغرية ودعاة السوء، التي أخبر عنها الصادق ﷺ، وحذر منها في أحاديث كثيرة لا يتسع المقام لذكرها.

ثم طفق الشيخ يسرد على جلالة الملك بعض الملاحظات والسلبيات التي بدأت تنتشر، فقال لجلالته: والواجب يحتم علينا مصارحتكم فاعذرونا، لأننا ملزمون بذلك شرعًا وطبعًا لمحبتنا لكم وخوفنا عليكم وعلى المسلمين.

وختم هذا الخطاب بقوله رحمه الله: وختاماً أرجو الله أن يتولاكم بولايته، ويحميكم بحمايته، وينصركم بنصره، ويجعلكم عونًا لحزبه، وأن يعزكم بالإسلام، ويعز الإسلام بكم، وأن يجعلكم ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، هذا ما أردناه لكم، والخير أردناه، والله يتولى الصالحين.

* وكتب أيضًا لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد رحمه الله، فقال: إن مواقفكم المشرفة من نشر الإسلام والاهتمام به في الداخل والخارج ليدفعنا إلى الشكر لكم

والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى بأن يحفظكم حصنًا للإسلام من أعدائه الذين يتربصون به الدوائر، كما أن ذلك يدفعنا إلى مناصحتكم، لأن الله سبحانه قد أخذ علينا الميثاق بأن نبين الحق، ونناصح أئمة المسلمين وعامتهم.

يا إمام المسلمين بالرغم من أن حكومتكم والحمد لله هي الحكومة التي تطبق شريعة الله التي أهملها كثير من حكام المسلمين اليوم، فإن هناك بعض الملاحظات التي يجب أن نصارحكم فيها، وهي في صالحكم وصالح المسلمين.

ثم طفق الشيخ في عرض هذه الملاحظات وإبداء بعض المقترحات، ثم قال رحمه الله: هذه ملاحظات نعتبرها من أسس هذا الدين، ولا تبرأ ذمتنا حتى نطلعكم عليها: معذرة لنا يوم نقف بين يدي الله يوم القيامة، ورغبة منا في الإصلاح، وشفقة عليكم، لأننا على ثقة أنكم المسؤول الأول يوم القيامة بين يدي الله عز وجل عن هذه الأخطاء، لأن الله قد استرعاكم على هذه الأمة، وقد عرفناكم حفظكم الله بالاستقامة والصلاح، سائلين الله سبحانه أن يعينكم على تحمل هذه المسؤولية.

* وكتب للأمير سلمان حفظه الله، فقال: أرجو الله أن يحفظكم، ويحفظ بكم الإسلام وتعاليمه العظام، ثم إن الداعي لهذا ما رأيته من تكرار الإعلانات حول المساكن المؤجرة، ولعلمي أنكم أهل فطرة وحق أذكركم والذكرى تنفع المؤمنين، يا صاحب السمو إن هذه الشكاوى والمشورات التي تقدم لسموكم من المستأجرين فيها غش وغصب وظلم في الحقيقة: غش لكم بالذات وللدولة عامة.

أيها الأمير، إن الشرع الذي شرفكم الله بحمايته لا يظلم أحدًا، والخروج عنه هو الحيف والظلم.

ثم قال رحمه الله: فإن الحكم لله العلي الكبير، والرجوع عند التنازع إليه في كتابه وسنة رسوله، وهي محفوظة، قد شرفكم الله بحمايتها، ولازلتم والحمد لله تنعمون بوارف ظلها، فلا تغبنوا ذلك بوسوسة شياطين الإنس الذين هم يحسدونكم على نعمة الله عليكم.

أيها الأمير، إن كنت أطلت عليكم إشفاقًا ونصحًا، فالنصح أغلى ما يوهب، والواجب علينا وعليكم التقيد بما رسمه الله من الشرع، هذا ما نريده لكم والخير أردناه، والله يتولى الصالحين.

وكتب له سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله في ٢٣/ ١١/ ١٤٠٢هـ، فقال: فقد وصلني كتابكم الكريم بشأن وضع الأئمة في المسجد الحرام، وما ذكرتم فيه كان معلومًا، فأشكركم على غيرتكم الإسلامية، وما بذلتموه من النصح في هذا السبيل، زادكم الله صلاحاً وتوفيقًا.

وكتب له فضيلة الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله، فقال: وصلني كتابكم المكرم، وسرني لإفادته صحتكم واستقامة أحوالكم، تابع الله على الجميع وافر نعمه، وصرف عنا وعنكم أسباب سخطه ونقمه، سؤالكم عما تم حول بحثكم المحال لهيئة كبار العلماء، فقد جرى النظر فيه، وحصل الاتفاق فيه بالإجماع على جواز نقل المقام إلى موضع مسامت لمكانه من الناحية الشرقية ما لم ير ولي الأمر تأجيل ذلك لأمر مصلحي، إلى آخر خطابه رحمه الله تعالى.

وممن كتب له الأستاذ جودت سعيد الكاتب المعروف، فقال في رسالته المؤرخة في ٢٤/ ١/ ١٣٧٩هـ: وصلني كتابك فسرني سرورًا بالغًا، وشكر الله لك جميل ودادك، وحسن عتابك الأخوي، الله يعلم أني أشعر بالحاجة إلى قربك، وأن أكون عضدًا لك في جهادك الذي ملأ قلبي، وجرأتك في مواطن الحق، أكثر الله من أمثالك، وأعاننا على قضاء ما وجب.

وقال له في رسالة أخرى: فيا أيها الأخ الكريم ما أدري مقدار ما أجد من السعادة والسرور حين أفكر في شخصكم الكريم، أدام الله نشاطك وجهادك، إن أحوج ما تحتاج إليه الدعوة إلى الله في كل وقت الرجال المخلصون الذين امتلئوا حماسة وشجاعة، لا يخافون مما يخاف منه الناس، إن ما رأيته فيك من الشجاعة في الحق جعلني أنظر إليك: أن المسؤولية قد عظمت عليك لما

فضلك الله، ولما أسبغ عليك من نعمة الاعتزاز بالله، واليوم قد تضاعفت مسؤوليتك بعد أن فرغت من ا لدراسات المقيدة.

ثامنًا: مرضه ووفاته:

أصيب رحمه الله بتليف في الرئة، واشتد عليه المرض، وطال معه حتى أنهكه، ووافاه الأجل وهو منهمك في مراجعة كتابه «الضوء المنير على التفسير» في الأجزاء الأخيرة منه، وفارق الدنيا في يوم الأربعاء الموافق ٢١ من شهر جمادى الآخرة سنة ١٤١٥هـ بعد حياة حافلة بالجد والعمل الدؤوب، وله من العمر ثلاثة وثمانون عامًا، وصلِّي عليه في جامع عنيزة، ودفن في مقابر الشهوانية، وحزن عليه عارفو فضله.

خلف مكتبة نفيسة عامرة بأمهات الكتب والمراجع الهامة والنادرة، وفيها مخطوطات قيمة، وقد قام أبناؤه حفظهم الله بإهداء هذه المكتبة لدارة الملك عبد العزيز وجامعة القصيم لينتفع بها أكثر عدد ممكن من طلاب العلم.

كما خلّف أبناء نجباء بررة، ما يزالون إلى الآن في سعي حثيث لإيصال الخير والنفع لأبيهم في قبره، ينشرون علمه ويحيون أعماله، هم في الحقيقة امتداد لأجوره، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[(١)] وقال أيضًا ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علمًا علَّمه ونشره، وولدًا صالحًا تركه...»[(٢)]. هذا ما نحسبه فيهم والله حسيبهم.

وكان رحمه الله يقول: أنا لم أعرف اللعب واللهو في حياتي، ولا أضيع أوقاتي فيما لا يفيد، فإما في عمل الدنيا، وإما في عمل الآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٦٣١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٤٢)، وحسنه المنذري والألباني كما في صحيح الترغيب والترهيب (رقم ٧٤).

وبالجملة ففقده خسارة فادحة لا تعوض، وثلمة لا تسد، إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفًا من كل هالك، ودركًا من كل فائت، فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد: ٤١] قال: خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها، وكذا قال مجاهد أيضًا: هو موت العلماء(١).

وصدق القائل:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها ... متى يمت عالم منها يموت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها ... وإن أبى عاد في أكنافها التلف(٢)

رحم الله الشيخ عليًّا رحمة واسعة، وجعل مستقره دار كرامته، وأسكنه فسيح جنته، ونفع الله بعلومه وجهوده، وأحيا أعماله إلى يوم الدين، وجعل له لسان ذكر في العالمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين(٣).

❁❁❁

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢١).

(٢) ذكر البيتين الحافظ ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٣٧/ ٢٥٦) وعزاهما إلى أحمد بن غزال، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢١).

(٣) انظر في ترجمة الشيخ رحمه الله: علماء نجد خلال ثمانية قرون، للبسام (٥/ ١٨٠-١٨٤ رقم ٥٨٥)، وروضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، لمحمد بن عثمان القاضي (٣/ ٢٠٥-٢٠٧ رقم ٤٦٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لجامعه: علي بن حمد بن محمد الصالحي

الحمد لله حمداً كثيراً كما يحبه ويرضاه، على فضله وكرمه وجزيل عطاياه، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي اختاره واصطفاه، والذي أرسله بكتابه المبين رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه وأتباعه السائرين على هديه إلى يوم الدين.

وبعد: فقد رأيت أن أذكر لك أخي سبب اعتناقي لهذا العمل وما لي فيه من الصنع؛ راجياً من الله أن ينفعني وإياك بما علمنا إنه جواد كريم.

ذلك بعد أن هداني الله لقراءة كتاب «مفتاح دار السعادة» لشمس الدين ابن القيم ـ رحمه الله ـ فراقني ما احتوى عليه من الفوائد المنوعة، وما أشبهه بجنة حَوَتْ جميع أنواع الفواكه والثمرات، ثم أعدت قراءته مرة ثانية فزادت رغبتي فيه، فرأيتني مشدوداً بالرغبة لقراءة بقية كتبه الموجودة، فكان ذلك والحمد لله.

ثم رأيت أن أكشف عن ناحية من هذا الكنز المدفون والفلك المشحون بأنواع العلوم والفنون، فأرشدني الله بهدايته إلى قسم التفسير، فسرت في جمعه وقت فراغي عدة سنين، حرصاً على الإفادة والاستفادة، ولم أتمكن من استيعاب ما طرقه الشيخ من فن التفسير، ولكني قاربت.

وقد صرفت النظر عن التكرار وعن مقارعة الشيخ للمبتدعة، إلا ما رأيت فيه كبير فائدة، كذلك صرفت النظر عن ترجمة الشيخ اختصاراً للوقت، حيث قد تناولتها الأقلام قديماً وحديثاً.

ثم اعلم أخي أنه بمراجعتي لكتب الشيخ ـ رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء ـ تبين لي أنه يحيل على مؤلفات لم تكن موجودة في محيطنا، وقد حاولت البحث عنها فلم أعثر على شيء منها سوى "كتاب السماع" وقد طبع والحمد لله.

وقد بحثت مع طائفة من علمائنا المعاصرين وعلى رأسهم شيخنا (عبد العزيز بن عبد الله بن باز) فاتفق رأيهم على أن هذه الكتب لو كانت موجودة لوصلت إلينا عيناً أو خبراً، ويقوي هذا أن فهارس مكتبات العالم وصلت إلينا ولم تذكر شيئاً عنها، ويقوي هذا أيضاً أنه في وقت متقدم وجدت طائفة تبحث عن مؤلفات الشيخ فتشتريها؛ وتحرقها؛ خشية انتشارها، في وقت كان الاعتماد على المخطوطات في تدوين العلوم.

ومهما يكن فأنا أذكر لك حسب ما ظهر لي من قراءتي لكتب الشيخ ـ رحمه الله ـ أنه يحيل على الكتاب بعدة أسماء بما يقارب اسمه أو موطن كتابته نسياناً منه لما سماه به؛ لتزاحم الواردات عليه مما يحيط به هو وشيخه في عصرهما من خصومهما بدليل ما يلي:

ذكر في «مفتاح دار السعادة» في صحيفة ٤٧ من المطبوعة ما نصه: (وسميته «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة» إذ كان هذا من بعض النزل والتحف التي فتح الله بها عليّ حين انقطاعي عند بيته) إلى آخر ما ذكره مما يشير إلى مضمون «مفتاح دار السعادة» ومما يشير أيضًا إلى «روضة المحبين» في سطور.

والشيخ رحمه الله أحال على أسماء كتب توحي بهذه الألفاظ؛ لأنه ألفه بمكة.

وتوضيحاً لما ذكرته فقد أحال في كتابه «بدائع الفوائد» ص ٦٢ ج٢ في بحثه على قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ثم قال: وقد بسطنا هذا في كتابنا «التحفة المكية» وذكرنا فيها من الأسرار والفوائد ما لا يكاد يشتمل عليه مصنف.

وبالرجوع إلى كتاب المفتاح ص ١٠٢ و١٠٣ و١٠٤ ج١ نجد البحث موسعاً فيه الفائدة التامة حول هذه الآية وغيرها مما يدور حول مخاطبة الله لأهل الكتاب، ومن ذلك أحال في كتاب «بدائع الفوائد» أيضاً ص١١٩ ج١ بقوله: (وقد قررت هذا المعنى، وبينت شواهده من القرآن... وكونه على الصراط المستقيم الخ...) في كتاب «التحفة المكية» اهـ. وقد بحثه في المفتاح ص ٧٩ ج٢.

ومن ذلك أحال في البدائع أيضاً صحيفة ١٣٧ ج٤ في بحثه على الحكمة في خلق

الله آدم على كتابه «التحفة المكية»، وذكر أنه ذكر من الحكم قريباً من أربعين حكمة، وهي موجودة في أول المفتاح متوالية.

وبحثها أيضاً بإيجاز في «شفاء العليل» ص٢٤١ في الوجه السابع والعشرين، وأحال في البدائع ص٢١٥ ج٢ على «الفوائد المكية» وينطبق على ما في المفتاح ص ١٠٢ وص١٠٣ وص١٠٤ ج١ وهنا سماه «الفوائد المكية» وسبق قريباً أنه سماه «التحفة المكية» ومن ذلك أحال في كتابه «مدارج السالكين» ص٤٩٠ ج٣ ولفظه، وقد ذكرنا هذه المسألة في كتاب «مفتاح دار السعادة» وذكرنا هناك نحواً من ستين وجهاً، تبطل قول من نفى التقبيح العقلي إلى آخر ما ذكر، وقد ذكر هذا في المفتاح ص ٦٢ ج٢ حتى ص ١١٠، وقبلها ذكر مقدمة مطولة، ثم ذكرها واحداً وستين وجهاً. قال في آخرها: فهذه مجامع طرق العالم إلى آخر كلامه.

ثم إننا نجده أحال في المدارج ص٢٣ ج١ ولفظه: (وقد بينا بطلان هذا المذهب من ستين وجهاً في كتابنا المسمى «تحفة النازلين» وأشبعنا الكلام في هذه المسألة هناك، وذكرنا جميع ما احتج به أرباب هذا المذهب، وبينا بطلانه والبحث في مسألة التحسين والتقبيح التي مرّت بك قريباً).

وهناك إحالات كثيرة لم يتسن لي تطبيقها بوضوح، لكنها في رأيي ـ والحقيقة يعلمها الله ـ أنها ترجع إلى كتاب المفتاح، وهي إحالات باسم «الفتح المكي» و«التحفة المكية» و«تحفة النازلين» و«الأمالي المكية» و«الفوائد المكية».

وأيضاً فهناك إحالات باسم «الفتوحات القدسية» في مشاهد الخلق في مواقعة الذنب، وأخرى بنفس البحث باسم «سفر الهجرتين» يترجح عندي أنها تنطبق على «طريق الهجرتين» وعلى «مفتاح دار السعادة».

ومن ذلك أحال في «الجواب الكافي» رقم ٤٥ على كتاب «أيمان القرآن» عند قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩].

وأحال فيه أيضاً رقم ٢٧٣ ولفظه: وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الإقسام به في كتاب

«أقسام القرآن» علماً بأن هذا الكتاب يسمى «التبيان في أقسام القرآن» وهذا الكتاب لم يُبدأ بمقدمة، ولم يرتب على نسق سور القرآن، فلعله جزء من كتاب فهذه ثلاثة أسماء الظاهر أنها على مسمى واحد.

وأيضاً ذكر في كتاب المفتاح حكم داود وسليمان ـ عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ وذكر أنه رجح الحكم السليماني من وجوه في كتابه «الاجتهاد والتقليد» وبمراجعتي لـ «أعلام الموقعين» وجدت البحث في فصل مستقل طبقاً للعناصر التي ذكرها في المفتاح ص ٣٢٦ ج١ ثم إني رجعت إلى مقدمة الأعلام فلم أجد المؤلف سماه بأي اسم، فلا أدري كيف التوفيق؟ بينما ذكره في المفتاح وبين ما اشتهر بين الناس من تسميته بـ «أعلام الموقعين» وتمر على إحالات باسم «المعالم» يظهر لي أنها تنطبق على «أعلام الموقعين» من ذلك ما ذكره في «إغاثة اللهفان» ص٢٢ ج١ إحالة على كتاب «المعالم» وذلك في أسرار المثلين المائي والناري، والشيخ قد بحث المثلين وغيرهما من أمثال القرآن في «أعلام الموقعين» بتوسع، وبعضها في «اجتماع الجيوش الإسلامية».

ومن الغريب أن البعض نقل هذه الأمثال حرفيًا، وجعلها كتاباً مستقلاً، وتناقلها الناس ظنّاً منهم أنها تأليف مستقل، ونقل البعض أيضًا من «بدائع الفوائد» تفسير المعوذتين، وطبعت مستقلة.

ونقل البعض أيضًا من «إغاثة اللهفان» رسالة سماها: «الزيارة الشرعية والزيارة الشركية» وبما ذكرت كان لي شبه اقتناع أن الشيخ يحيل بما في ذاكرته أو قريباً منها دون الرجوع إلى ما كتبه، ويمكن أن يكون بعض هذه الكتب مأخوذة من كتبه التي لم تصل إلينا، أو أن أحداً تصرف في تسميتها غيره بعد وفاته أو قبلها، لأنه كان مسجوناً مع شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية حتى توفي الشيخ رحمه الله.

وبما ذكرته ألقيت عصا الترحال، وأقمت للشيخ العذر لما عرفته من واقع حياته التي تغلي بالمشاكل مع خصومه وخصوم شيخه، أضف إلى ذلك ما هو مهتم به من

الكتابة، وإيجاد البحوث، ومقارعة الخصوم، دون مراجعة ما يكتبه أملاً أن يمدّ الله في عمره، ويراجع ما كتب، ويؤيد ذلك أن له تمنيات في كتابة بحوث لم يتمكن منها أو لم تصل إلينا، وله بحوث في «زاد المعاد» وإحالات على مواضع لم توجد، والظاهر أن هذا الكتاب من آخر ما كتب.

وأعتقد اعتقاداً قويّاً أن المشاكل ومقارعة الخصوم الحاقدين والحاسدين، حالت دون مراجعة ما كتب، وأنسته الأسماء المطابقة لواقع ما سماها به، زد على ذلك أنه سُجن تبعاً لشيخه ولا تخفى حالة السجين، وزد على ذلك أنه كان يكتب في السفر والحضر، وغير خافٍ ظروف الأسفار في وقته.

ففي هذه الأحوال يُعذر ويشكر على ما بذله من جهد في البحث والتأليف المثمر، فجزاه الله خير الجزاء، وضاعف له المثوبة والعطاء. والذي يهمني من هذا التقديم أن محبي ما أثر عن الشيخ يصرفون النظر عن المفقود، ويمعنون في الموجود، ويأخذ كل واحد منهم بنصيب، لأن كتابات الشيخ كنوز تنتظر من يكشف عنها. ففيها بحوث التوحيد والتفسير، والحديث، والفقه، وبحوث القواعد المنوعة، والطب والسلوك، وغير ذلك من الفنون.

فنرجو الله أن يهيء لها من شباب الإسلام من يعتني بها لتمام الانتفاع بها، إنه كريم جواد، ثم اعلم ـ أيها القارئ الكريم ـ أن ما جمعته ينقصه الربط في بعض المواضع، وذلك بسبب أني التزمت أن لا أدخل فيما جمعته غير كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ إلا ما نقله هو عن غيره وهو نادر جداً، وقد أبحت لنفسي الحذف والاختصار حسبما رأيته.

وقد تلجؤني الضرورة نادراً إلى إيضاح ضروري، أضعه بين قوسين، مثل إيضاح إشارة، أو ضمير يعودان إلى ما تقدم، ثم اعلم أن من سبقني[1] من جمع تفسير الشيخ لم

---

(١) يقصد الشيخ رحمه الله بمن سبقه صاحب «التفسير القيم»، وهو عبارة عن مجلد واحد، جمعه الشيخ محمد أويس الندوي، وراجعه وقام بتحقيقه الشيخ محمد حامد الفقي، وفي أثناء طباعة الضوء المنير =

يفِ بالغرض، فحاولت رأب الصدع بجهدي ولا أدعي الإحاطة وقد تم بحمد الله ما قصدت.

ثم اعلم أيضاً أنه كان بودي أن أعود إلىٰ مراجعة كتب الشيخ، ولكن شمس الحياة قد شارفت علىٰ الغروب، راجياً من الله أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، مقرباً لرضوانه وإلىٰ جنات النعيم، ثم إني أرجو منك دعوة صالحة بظهر الغيب تعود عليك، كما أرجو منك الإشارة لما تراه من خلل.

كما أني أرجو منك أخي القارئ أن تنظر إليه بعين الرضا والتغاضي، لأن التسامح من شيم الكرام، وأعوذ بالله من شر كل حاسد أو مغالط أو غامط، وقد سميت هذا المجموع: «**الضوء المنير علىٰ التفسير**».

أخي القارئ ستجد أول البحث إن كان له سابق (...) وستجد في آخره (...) إن كان له بقية في الأصل الذي نقل منه، وستجد في الحاشية رقم الصحيفة، ورقم الجزء إن كان الكتاب ذا أجزاء.

وستجد بعض الإرشادات والإحالات علىٰ البحث، إن كان له بقية، لأنه ليس من هدفي نقل جميع ما كتبه الشيخ خشية التطويل وإملال القراء، والإحالة كفيلة برغبة القارئ.

وستجد بعض التعليقات، فإن كانت من الأصول المأخوذ عنها فسأبقيها علىٰ ما هي عليه[1]، وإن كان لي شيء منها ذكرت في آخره (ج) رمزاً لي، ولا يفوتني أن أذكر لك ـ أخي الكريم ـ أن الأرقام للصفحات والأجزاء تنطبق علىٰ الطبعات التي نقلتُ منها، وها أنا أذكر لك أسماء الطبعات وأسماء الكتب التي نقلتُ منها، وما نقلته من

= صدر كتاب بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية جمع وتحقيق: يسري السيد محمد وهو في خمس مجلدات ثم طبع طبعة جديدة في ثلاث مجلدات.

(١) لما أسند إليَّ الأخ الكريم سليمان ابن الشيخ علي الصالحي تحقيق هذا الكتاب رأيت أن أحذف هذه التعليقات والحواشي، وعرضت عليه الأمر فأبدىٰ موافقته مشكورًا، لأنها ليست من صنيعي ولا صنيع الشيخ علي رحمه الله، أما ما كان من صنع الشيخ فأبقيته كما هو مذيلًا بحرف (ج) رمزًا له رحمه الله.

غير ما ذكرته هنا أحيل عليه في موضعه.

	اسم الكتاب	عدد مجلداته	إيضاحات
١	إغاثة اللهفان	٢	دار المعرفة ـ بيروت
٢	أحكام أهل الذمة	٢	دار العلم للملايين
٣	أعلام الموقعين	٤	مطبعة السعادة
٤	التبيان في أقسام القرآن	١	طباعة دار الإفتاء
٥	الجواب الكافي	١	طبعه الشيخ عبد الظاهر أبو السمح
٦	جلاء الأفهام	١	دار الطباعة المحمدية
٧	تحفة المودود	١	المطبعة الهندية على نفقة علي بن ثاني
٨	حادي الأرواح	١	طُبع على نفقة الشيخ قاسم بن ثاني
٩	شفاء العليل	١	المطبعة الحسينية
١٠	الفوائد	١	طُبع على نفقة عمر بن عبد الجبار
١١	بدائع الفوائد	٢	المطبعة المنيرية
١٢	الفروسية	١	مطبعة الأنوار
١٣	زاد المعاد	٤	مطبعة السنة المحمدية
١٤	روضة المحبين	١	طُبع على نفقة الملك عبد العزيز
١٥	الروح	١	الطبعة الثالثة، مطبعة الإدارة
١٦	طريق الهجرتين	١	طُبع على نفقة محمد الصالح
١٧	كتاب الصلاة	١	الطبعة الخامسة لدار الإفتاء
١٨	المنار المنيف	١	تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة
١٩	مختصر الصواعق	١	طباعة دار الإفتاء
٢٠	مفتاح دار السعادة	١	دار الكتب العلمية
٢١	مدارج السالكين	١	مطبعة السنة المحمدية

	اسم الكتاب	عدد مجلداته	إيضاحات
٢٢	عدة الصابرين	١	المطبعة السلفية بمصر
٢٣	الطرق الـحُكمية	١	مطبعة السنة المحمدية
٢٤	اجتماع الجيوش الإسلامية	١	مطبعة الإمام
٢٥	تهذيب مختصر أبي داود	٨	مطبعة السنة المحمدية
٢٦	هداية الحيارىٰ	١	مؤسسة مكة للطباعة

وهناك كتب أخرىٰ ذكرها بعض المترجمين للشيخ ابن القيم:

منها كتاب «أخبار النساء» منسوباً إلىٰ الشيخ ابن القيم، فالله يكافئ من نسبه إليه، ولم يذكر أحد من المحققين أنه له.

ومنها: «أمثال القرآن»، وقد نوهنا عنه أنه منقول من أعلام الموقعين حرفيّاً.

ومنها: «إغاثة اللهفان في طلاق الغضبان» ولم آخذ منه.

وذكر بعض المترجمين أن له كتباً أخرىٰ لم نعرف وجودها، وقد نوهنا عن رأينا عنها فيما سبق.

وختاماً نرجوا الله أن ينفعنا بما علمنا، وأن لا يجعله وبالاً علينا، كما نرجوا الله أن يرد المسلمين إليه ردًّا جميلاً، وأن يهدي ولاتهم لتحكيم كتابه وسنة نبيه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلىٰ الله وسلَّم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه وعلىٰ من سار علىٰ هديه إلىٰ يوم الدين.

الجامع

علي الحمد المحمد الصالحي

مُقَدِّمَةٌ
في آداب قراءة القرآن الكريم

فصل[١] في هديه ﷺ في قراءة القرآن واستماعه وخشوعه، وبكائه عند قراءته واستماعه، وتحسين صوته به وتوابع ذلك. كان له ﷺ حزب يقرؤه ولا يخل به، وكانت قراءته ترتيلًا، لا هذًّا ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفاً حرفاً وكان يقطع قراءته آية آية. وكان يمد عند حروف المد، فيمد الرحمن، ويمد الرحيم[٢]، وكان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في أول قراءته، فيقول: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، وربما كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم: من همزه، ونفخه، ونفثه**»[٣] وكان تعوذه قبل القراءة. وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره، وأمر عبدالله بن مسعود فقرأ عليه وهو يسمع[٤] وخشع ﷺ لسماع القرآن منه حتى ذرفت عيناه. وكان ﷺ يقرأ القرآن قائماً وقاعداً ومضطجعاً ومتوضئاً ومحدثاً، ولم يكن يمنعه من قراءته إلا الجنابة. وكان ﷺ يتغنى به، ويرجِّع صوته به أحياناً، كما رجَّع يوم الفتح في قراءته ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾. وحكى عبدالله بن مغفل ترجيعه «آ آ آ» ثلاث مرات[٥]، ذكره البخاري.

---

(١) ٢٧٧ زاد المعاد ج١.

(٢) سئل أنس ﷺ: كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مدًّا، ثم قرأ: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يمد ببسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم، أخرجه البخاري (رقم ٥٠٤٦).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٣٦٠ رقم ٨٥٨) وابن حبان في صحيحه (٦/ ٣٣٦ رقم ٢٦٠١) وابن خزيمة (١/ ٢٣٨ رقم ٤٦٧) وأبو داود (رقم ٧٧٥) وابن ماجه (رقم ٨٠٧) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٤ رقم ٢١٧٩) والدارمي (رقم ١٢٣٩) وصححه الحاكم. وانظر: تحفة الأحوذي (٢/ ٤٣) وعون المعبود (٢/ ٣٣٨) وفيض القدير (٥/ ٩٩).

(٤) فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال لي النبي ﷺ: «**اقرأ عليَّ القرآن**» قلت: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟! قال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**» أخرجه البخاري (رقم ٥٠٤٩) ومسلم (رقم ٨٠٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ٩٩) وعمدة القاري (١٨/ ١٧٤) وتحفة الأحوذي (٨/ ٣٠١).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٧٥٤٠) ومسلم (رقم ٧٩٤).

وإذا جمعت هذه الأحاديث إلى قوله: «زينوا القرآن بأصواتكم»[١] وقوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[٢]، وقوله: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن»[٣]. علمت أن هذا الترجيع منه ﷺ كان اختياراً لا اضطراراً، لهز الناقة له، فإن هذا لو كان لأجل هز الناقة لما كان داخلاً تحت الاختيار، فلم يكن عبدالله بن مغفل يحكيه ويفعله اختياراً، ليؤتسى به، وهو يرى هز الراحلة له، حتى ينقطع صوته، ثم يقول: كان يرجع في قراءته. فنسب الترجيع إلى فعله، ولو كان من هز الراحلة لم يكن منه فعل يسمى ترجيعاً. وقد استمع ليلة لقراءة أبي موسى الأشعري فلما أخبره بذلك قال: «لو كنت أعلم أنك تسمعه لحبرته لك تحبيراً»[٤] أي حسنته وزينته بصوتي تزييناً، وروى أبو داود في سننه عن عبدالجبار بن الورد قال: سمعت ابن أبي مليكة يقول: قال عبدالله ابن أبي يزيد: مر بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته، فإذا رجل رث الهيئة، فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع[٥].

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «الماهر بالقرآن مع الكرام البررة» (ص ١٤٤١) والحاكم (١/ ٧٦١ رقم ٢٠٩٨) وابن حبان (٣/ ٢٥رقم ٧٤٩) وابن خزيمة (٣/ ٢٦ رقم ١٥٥٦) وأبو داود (رقم ١٤٦٨) وابن ماجه (رقم ١٣٤٢) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٥١٩) وشرح النووي (٦/ ٧٩) وعمدة القاري (٢٥/ ١٩٢) والديباج على مسلم (٢/ ٣٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٥٢٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٨-٦٩) وشرح النووي (٦/ ٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٥٤٤) ومسلم (رقم ٧٩٢) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٥٠٢) وعمدة القاري (٢٥/ ١٩٣).

(٤) أخرجه أبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح مسلم (٢/ ٣٨٤ رقم ١٨٠٣) والبيهقي في الكبرى (٣/ ١٢ رقم ٤٤٨٤) (١٠/ ٢٣٠ رقم ٢٠٨٤٣) وفي الشعب (٢/ ٥٢٦ رقم ٢٦٠٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٩٣) وتحفة الأحوذي (١٠/ ٢٤١) والنهاية في غريب الحديث (٢/ ٣٢٦).

(٥) أخرجه أبو داود (رقم ١٤٧١) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٥٤ رقم ٢٢٥٧) (١٠/ ٢٣٠ رقم ٢٠٨٣٩) وفي الصغرى (رقم ١٠٢٥) وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٣/ ٤٥٠ رقم ١٩٠٣) والطبراني في الكبير (٥/ ٣٤ رقم ٤٥١٤).

وكان ﷺ يقطع قراءته، ويقف عند كل آية، فيقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ويقف ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ويقف ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[(١)]، وذكر الزهري أن قراءة رسول الله ﷺ كانت آية آية. وهذا هو الأفضل، الوقوف على رؤوس الآيات، وإن تعلقت بما بعدها، وذهب بعض القراء إلى تتبع الأغراض والمقاصد والوقوف عند انتهائها، واتباع هدي النبي ﷺ وسنته أولى، وممن ذكر ذلك البيهقي في شعب الإيمان وغيره، فإنه يرجح الوقوف على رؤوس الآي وإن تعلقت بما بعدها[(٢)]. وكان ﷺ يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها[(٣)]. وقام بآية يرددها حتى الصباح[(٤)].

وقد اختلف الناس في الأفضل من الترتيل وقلة القراءة أو السرعة مع كثرة القراءة، أيهما أفضل؟ على قولين: فذهب ابن مسعود وابن عباس وغيرهما إلى أن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها، واحتج أرباب هذا القول بأن المقصود من القراءة فهمه وتدبره، والفقه فيه، والعمل به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه، كما قال بعض السلف: نزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً[(٥)].

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٠٠١) والترمذي (رقم ٢٩٢٧) والحاكم (٢/ ٢٥٢ رقم ٢٩٠٩، ٢٩١٠) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٤٤ رقم ٢٢١٢) وفي الشعب (٢/ ٤٣٥ رقم ٢٣١٩) والدارقطني (١/ ٣١٢ رقم ٣٧) وأحمد (٦/ ٣٠٢) والترمذي في الشمائل (رقم ٣١٧) وصححه الحاكم وقال الدارقطني: إسناده صحيح وكلهم ثقات، وانظر: عمدة القاري (٥/ ٢٨٧) وتحفة الأحوذي (٨/ ١٩٨) وعون المعبود (١١/ ٢٤) وفيض القدير (٥/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٥٢٠ رقم ٢٥٨٧) وانظر: فيض القدير (٥/ ٢٣٨).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٧٣٣) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٤٤) (٣/ ٢٣) وعمدة القاري (٧/ ١٦٤، ١٨٩) والتمهيد (٦/ ٢٢٠-٢٢٣) وتحفة الأحوذي (٢/ ٣١١) وشرح الزرقاني (١/ ٤٠١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (رقم ٤٧، ٤٨) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٤٧) وأحمد (٥/ ١٧٧) والبغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (١/ ٤٨٧) والعراقي في أماليه (ص ١٢١) وقال: هذا حديث حسن، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٧٣): رواه أحمد والبزار ورجاله ثقات.

(٥) أخرجه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل (رقم ١١٦) من قول الفضيل رحمه الله، وجاء فيه:
=

ولهذا كان أهل القرآن هم العالمون به، والعاملون بما فيه، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب. وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم. قالوا: ولأن الإيمان أفضل الأعمال، وفهم القرآن وتدبره، هو الذي يثمر الإيمان، وأما مجرد التلاوة من غير فهم ولا تدبر، فيفعلها البر والفاجر والمؤمن والمنافق، كما قال النبي ﷺ: **«ومثل المنافق الذي يقرأ: القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر»**(١) والناس في هذا أربع طبقات:

أهل القرآن والإيمان، وهم أفضل الناس.

والثانية: من عدم القرآن والإيمان.

الثالثة: من أوتي قرآناً، ولم يؤت إيماناً.

الرابعة: من أوتي إيماناً ولم يؤت قرآناً.

قالوا: فكما أن من أوتي إيماناً بلا قرآن أفضل ممن أوتي قرآناً بلا إيمان، فكذلك من أوتي تدبراً وفهماً في التلاوة أفضل ممن أوتي كثرة قراءة وسرعتها بلا تدبر، قالوا: وهذا هدي النبي ﷺ، فإنه كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها، وقام بآية حتى الصباح. وقال أصحاب الشافعي: كثرة القراءة أفضل. واحتجوا بحديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»**(٢)

= قال: قيل: كيف العمل به؟ قال: أي ليحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٢٠) ومسلم (رقم ٧٩٧) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٣٧-٣٨) وتحفة الأحوذي (٨/ ١٣٤) وفيض القدير (٥/ ٥١٣).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٩١٠) وابن أبي شيبة (٦/ ١١٨ رقم ٢٩٩٣٣) والطبراني في الأوسط (١/ ١٠١-١٠٢ رقم ٣١٤) وفي الكبير (١٨/ ٧٦ رقم ١٤١) والبزار (٧/ ١٩٢ رقم ٢٧٦١) والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٤١ رقم ١٩٨٣) والضياء المقدسي في فضائل الأعمال (رقم ٥٢٣) وقال الترمذي: حسن صحيح. وانظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٢٦٣).

[رواه الترمذي وصححه]. قالوا: ولأن عثمان بن عفان ﷺ قرأ القرآن في ركعة[١]. وذكروا آثاراً عن كثير من السلف في كثرة القراءة[٢]. والصواب في المسألة أن يقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل وأرفع قدراً، وثواب كثرة القراءة أكثر عدداً. فالأول: كمن تصدق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبداً قيمته نفسية جداً. والثاني: كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عدداً من العبيد قيمتهم رخيصة. وفي صحيح البخاري عن قتادة قال: سألت أنساً عن قراءة النبي ﷺ فقال: «كان يمد مداً»[٣]. وقال شعبة: حدثنا أبو جمرة قال: قلت لابن عباس: إني رجل سريع القراءة، وربما قرأت القرآن في ليلة مرة أو مرتين. فقال ابن عباس: لأن أقرأ سورة واحدة أعجب إليَّ من أن أفعل ذلك الذي تفعل فإن كنت فاعلاً ولابد، فاقرأ قراءة تسمع أذنيك، ويعيها قلبك[٤]. وقال إبراهيم: قرأ علقمة على ابن مسعود، وكان حسن الصوت فقال: رتل فداك أبي وأمي،

---

(١) ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٤/ ٤٨) وعزاه إلى أبي عبيدة، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٤٣ رقم ٨٥٩١) وانظر: مختصر كتاب الوتر للمقريزي (ص ٦٤).

(٢) ورد أن تميمًا الداري رحمه الله قرأ القرآن في ركعة، أخرجه البيهقي في الكبرى (٣/ ٢٥ رقم ٤٥٦٥) وفي الشعب (٢/ ٣٩٨ رقم ٢١٨٤) وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٢١٩) وسير أعلام النبلاء (٩/ ٧٧) وتاريخ مدينة دمشق (١١/ ٧٥).

وورد أن سعيد بن جبير قرأ القرآن في ركعة، أخرجه الترمذي (رقم ٢٩٤٦) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٤٨) وابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (رقم ٣٣٦) وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٢١٩) وصفة الصفوة (٣/ ٧٩).

وورد أيضًا أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما كان يقرأ القرآن في ركعة، أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٤٨) وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٢١٩).

وذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء (٦/ ٤٠١) أن مسعر بن كدام قال: رأيت أبا حنيفة قرأ القرآن في ركعة.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٤٥) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٥١٩) وعمدة القاري (٢٠/ ٥٤).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣٩٦ رقم ٣٨٦٧) (٣/ ١٣ رقم ٤٤٩١) وفي شعب الإيمان (٢/ ٣٩٢ رقم ٢١٥٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ٨٩).

فإنه زين القرآن[١]. وقال ابن مسعود: لا تهذوا القرآن هذَّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة[٢]. وقال عبدالله أيضاً: إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فاصغ لها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تصرف عنه[٣]...

وكان رسول الله ﷺ يسر بالقراءة في صلاة الليل تارة، يجهر بها تارة[٤]، ويطيل القيام تارة، ويخففه تارة، ويوتر آخر الليل وهو الأكثر، وأوله تارة، وأوسطه تارة.

وأما التأمل في القرآن فهو تحديق نظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٥٤ رقم ٢٢٥٩) وفي الشعب (٢/ ٣٩٢ رقم ٢١٦٠) وسعيد بن منصور (١/ ٢٢٥ رقم ٥٤) وابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٥ رقم ٨٧٢٤) (٦/ ١٤٠ رقم ٣٠١٥٢) والطبراني في الكبير (٩/ ١٤٠ رقم ٨٦٩٥) والبخاري في خلق أفعال العباد (ص ٦٩) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٩٩) (٤/ ٢٣٦) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤١/ ١٧٢) وابن سعد في الطبقات (٦/ ٨٦)، وانظر: فتح الباري (٩/ ٩٠).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٣ رقم ٤٤٩٢) وفي الشعب (٢/ ٣٦٠ رقم ٢٠٤٢) والديلمي عن ابن عباس مرفوعًا في مسند الفردوس (٥/ ٣٦٠-٣٦١ رقم ٨٤٣٨) وقال السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٣١٤): وأخرج الديلمي بسند واهٍ عن ابن عباس مرفوعًا، بينما ذكره ابن كثير في تفسيره عن ابن مسعود موقوفًا وعزاه إلى البغوي (٤/ ٤٣٥).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور (١/ ٢١١ رقم ٥٠) (٤/ ١٦٦٠ رقم ٨٤٨) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٥).

(٤) عن عبد الله بن أبي قيس قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن وتر رسول الله ﷺ فقلت: كيف كانت قراءته، أكان يسر بالقرآن أم يجهر؟ قالت: ربما كان يسر وربما جهر. أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد) (ص ٨٣).

تَعۡقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣].

وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً. فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع الفكر فيه على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتُتِلُّ في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار، وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق، واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

(١) وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أن من أحب حبيباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه.

❁❁❁

(١) ٢٢٣ الجواب الكافي.

فصل في هديه ﷺ في سجود القرآن[(١)]

كان ﷺ إذا مرّ بسجدة كبّر وسجد، وربما قال في سجوده: «سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته»[(٢)]، وربما قال: «اللهم احطط عني بها وزراً، واكتب لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود»[(٣)] ذكرهما أهل السنن.

ولم يذكر عنه أنه كان يكبر للرفع من هذا السجود، ولذلك لم يذكره الخرقي ومتقدمو الأصحاب، ولا نقل فيه عنه تشهد ولا سلام البتة، وأنكر أحمد والشافعي السلام فيه، فالمنصوص عن الشافعي أنه لا تشهد فيه ولا تسليم، وقال أحمد: أما التسليم فلا أدري ما هو[(٤)]. وهذا هو الصواب الذي لا ينبغي غيره. وصح عنه أنه سجد في «الٓمٓ تَنْزِيلُ» وفي «صٓ» وفي «النَّجم» وفي ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ وفي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

---

(١) ٩٧ زاد المعاد ج١.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ١٤١٤) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٢٣٩ رقم ٢١١٤) والصغرىٰ (رقم ١١٢٩) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٣٢٥ رقم ٣٥٩٤) والترمذي (رقم ٥٨٠، ٣٤٢٥) والدارقطني (١/ ٤٠٦ رقم ٢) وابن أبي شيبة (١/ ٣٨٠ رقم ٤٣٧٢) والطبراني في الأوسط (٤/ ٩ رقم ٣٤٧٦) وأحمد (٦/ ٣٠، ٢١٧) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٣٤١ رقم ٧٩٩) وابن حبان (٦/ ٤٧٣ رقم ٢٧٦٨) وفي الموارد (رقم ٦٩١) وابن خزيمة (١/ ٢٨٢ رقم ٥٦٢) وابن ماجه (رقم ١٠٥٣) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٣٢٠ رقم ٣٥٧٠) والترمذي (رقم ٥٧٩) وقال: هذا حديث حسن غريب. والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٩ رقم ١١٢٦٢) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ١٥٨) وقال المباركفوري رحمه الله: ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه، وأقره الذهبي، علىٰ تصحيحه، كذا في المرقاة.وقال الحاكم: هذا حديث صحيح، رواته مكيون، لم يذكره واحد منهم بجرح، وهو من شرط الصحيح ولم يخرجاه. وانظر، تحفة الأحوذي (٣/ ١٤٧-١٤٨).

(٤) انظر: التمهيد (١٩/ ١٣٤) والمغني (١/ ٣٦٠).

وذكر أبو داود عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة منها: ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان[١]. وأما حديث أبي الدرداء سجدت: مع رسول الله ﷺ إحدى عشرة سجدة، ليس فيها من المفصل شيء «الأعراف» و«الرعد» و«النحل» و«بني إسرائيل» و«مريم» و«الحج» و«سجدة الفرقان» و«النمل» و«السجدة» و«صٓ» و«سجدة الحواميم»[٢] فقال أبو داود: رُوي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ: إحدى عشرة سجدة. وإسناده واهٍ[٣]. وأما حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لم يسجد في المفصل منذ تحول إلى المدينة[٤]. رواه أبو داود، فهو حديث ضعيف، في إسناده أبو قدامة الحارث بن عبيد، لا يحتج بحديثه، قال الإمام

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٣٤٥ رقم ٨١١) والبيهقي في الصغرى (رقم ٨٩٤) وفي الكبرى (٢/ ٣١٤ رقم ٣٥٢٥) وأبو داود (رقم ١٤٠١) وابن ماجه (رقم ١٠٥٧) والدارقطني (١/ ٤٠٨ رقم ٨) وانظر: عمدة القاري (٣/ ٩٦، ١٠٢)، وقال المباركفوري (٣/ ١٢٧): سكت عنه أبو داود والمنذري وقال الحافظ في التلخيص: حسنه المنذري والنووي وضعفه عبد الحق وابن القطان... ثم قال: والظاهر أن هذا الحديث حسن، وانظر: تلخيص الحبير (٢/ ٩ رقم ٤٨٨) وخلاصة البدر المنير (١/ ١٦٨ رقم ٥٦٧) ونصب الراية (٢/ ١٨٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٠٥٦) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣١٣ رقم ٣٥٢١) والترمذي (رقم ٥٦٨) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٥٣) وأحمد (٥/ ١٩٤) (٦/ ٤٤٢) وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٢٧) وانظر: عمدة القاري (٧/ ١٠٢).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٤٠١) وانظر: التمهيد (١٩/ ١٢٠) وتحفة الأحوذي (٣/ ١٢٧) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ٧٤) وتنقيح تحقيق أحاديث التعليق (١/ ٤٥٦) والدراية في تخريج أحاديث الهداية (١/ ٢١١) ونصب الراية (٢/ ١٨٢).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ١٤٠٣) وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٢٨٠ رقم ٥٥٩) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣١٢ رقم ٣٥١٧) والطبراني في الكبير (١١/ ٣٣٤ رقم ١١٩٢٤) قال ابن عبد البر في الاستذكار (٢/ ٥٠٥): وهذا حديث منكر، وانظر: التمهيد (١٩/ ١٢٠) وقال ابن حجر في الفتح (٢/ ٥٥٥): فقد ضعفه أهل العلم بالحديث لضعف في بعض رواته واختلاف في إسناده، وانظر: شرح النووي (٥/ ٧٦-٧٧) وعمدة القاري (٧/ ١٠٥) وشرح الزرقاني (٢/ ٣٠) وعون المعبود (٤/ ١٩٦) وفيض القدير (٤/ ٤٤٠) وتلخيص الحبير (٣/ ٨) وخلاصة البدر المنير (١/ ١٦٧) ونصب الراية (٢/ ١٨٢) ونيل الأوطار (٣/ ١١٧).

أحمد: أبو قدامة مضطرب الحديث، وقال يحيى بن معين: ضعيف، وقال النسائي: صدوق عنده مناكير، وقال أبو حاتم البستي: كان شيخاً صالحاً ممن كثُر وهمه[(١)]، وعلله ابن القطان بمطر الوراق. وقال: كان يشبه في سوء الحفظ محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى، وعِيبَ على مسلم إخراج حديثه، انتهى كلامه.

ولا عيب على مسلم في إخراج حديثه، لأنه ينتقي من أحاديث هذا الضرب ما يعلم أنه حفظه، كما يطرح من أحاديث الثقة ما يعلم أنه غلط فيه، فغلط في هذا المقام من استدرك عليه إخراج جميع حديث الثقة، ومن ضعّف جميع حديث سيء الحفظ. فالأولى: طريقة الحاكم وأمثاله، والثانية: طريقة أبي محمد بن حزم وأشكاله. وطريقة مسلم هي طريقة أئمة هذا الشأن، والله المستعان.

وقد صح عن أبي هريرة أنه سجد مع النبي ﷺ في ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، وفي ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ وهو إنما أسلم بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بست سنين أو سبع. فلو تعارض الحديثان من كل وجه، وتقاوما في الصحة، لتعين تقديم حديث أبي هريرة، لأنه مثبت معه زيادة علم خفيت على ابن عباس، فكيف وحديث أبي هريرة في غاية الصحة، متفق على صحته، وحديث ابن عباس فيه من الضعف ما فيه؟ والله أعلم[(٢)].

[(٣)]المثال الثامن والستون: رد السنة الثابتة في إثبات سجدات المفصل، والسجدة الأخيرة من سورة الحج، كما روى أبو داود في السنن: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البرقي: ثنا سعيد بن أبي مريم: أخبرنا نافع بن يزيد، عن الحارث بن سعيد العتقي، عن عبد الله بن منير، عن عمرو بن العاص: «أن النبي ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن،

---

(١) انظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (١/ ٤٥٥-٤٥٦) والتحقيق في أحاديث الخلاف (١/ ٤٣٠) وذيل القول المسدد (ص ٦٩) وتهذيب التهذيب (٢/ ١٣٠ رقم ٢٥٤) وميزان الاعتدال (٢/ ١٧٤ رقم ١٦٣٤) والمجروحين (١/ ٢٢٤ رقم ٢٠٠) وحاشية ابن القيم (٤/ ١٩٦).

(٢) انظر: عون المعبود (٤/ ١٩٦-١٩٧).

(٣) ٣٨٧ أعلام جـ٢.

منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان» تابعه محمد بن إسماعيل السلمي عن سعيد بن أبي مريم، وقال ابن وهب: أنا ابن لهيعة، عن مشرح بن عاهان، عن عقبة ابن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «**فُضِّلَتْ سورة الحج بسجدتين، فمن لم يسجد فيهما فلا يقرأهما**»[١] وحديث ابن لهيعة يحتج منه بما رواه عنه العبادلة: كعبد الله بن وهب، وعبد الله بن المبارك، وعبد الله بن يزيد المقري، قال أبو زرعة: ابن لهيعة كان ابن المبارك وابن وهب يتبعان أصوله، وقال عمرو بن علي: من كتب عنه قبل احتراق كتبه مثل ابن المبارك وابن المقري أصح ممن كتب عنه بعد احتراقها، وقال ابن وهب: كان ابن لهيعة صادقًا، وقد انتقى النسائي هذا الحديث من جملة حديثه، وأخرجه واعتمده، وقال: ما أخرجت من حديث ابن لهيعة قط إلا حديثًا واحدًا، أخبرناه هلال بن العلاء: ثنا معافى بن سليمان، عن موسى بن أعين، عن عمرو بن الحارث، عن ابن لهيعة، فذكره.

وقال ابن وهب: حدثني الصادق البار ـ والله ـ عبد الله بن لهيعة. وقال الإمام أحمد: من كان مثل ابن لهيعة بمصر في كثرة حديثه وضبطه وإتقانه؟! وقال ابن عيينة: كان عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع. وقال أبو داود: سمعت أحمد يقول: ما كان محدث مصر إلا ابن لهيعة. وقال أحمد بن صالح الحافظ: كان ابن لهيعة صحيح الكتاب طالبًا للعلم.

وقال ابن حبان: كان صالحاً، لكنه يدلس عن الضعفاء، ثم احترقت كتبه، وكان أصحابنا يقولون: سماع من سمع منه قبل احتراق كتبه مثل العبادلة: ابن وهب، وابن المبارك والمقري والقعنبي فسماعهم صحيح[٢]، وقد صح عن أبي هريرة؛ أنه سجد

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٣٤٣ رقم ٨٠٥) والديلمي في مسند الفردوس (٣/ ١٢٤ رقم ٤٣٣٥) قال ابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية (١/ ٢١٠): وفي إسناده ابن لهيعة قال الترمذي: ليس إسناده بقوي، وضعف سنده الصنعاني في سبل السلام (١/ ٢٠٨).

(٢) انظر: شرح علل الترمذي (ص ٤٢٥) وتهذيب الأسماء (١/ ٢٦٧ رقم ٣٢٨) وتاريخ مدينة دمشق (٣٢/ ١٣٦-١٥٨ رقم ٣٤٧٤) وتهذيب الكمال (١٥/ ٤٨٧-٥٠٢ رقم ٣٥١٣).

مع النبي ﷺ في ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾، وصح عنه ﷺ أنه سجد في «النجم» ذكره البخاري. فردت هذه السنن برأي فاسد، وحديث ضعيف:

أما الرأي فهو أن آخر الحج السجود فيها سجود الصلاة لاقترانه بالركوع، بخلاف الأولى؛ فإن السجود فيها مجرد عن ذكر الركوع، ولهذا لم يكن قوله تعالى: ﴿ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣] من مواضع السجدات بالاتفاق.

وأما الحديث الضعيف فما رواه أبو داود: ثنا محمد بن رافع: ثنا أزهر بن القاسم: ثنا أبو قدامة، عن مطر الوراق، عن عكرمة، عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة». فأما الرأي فيدل على فساده وجوه: منها أنه مردود بالنص.

ومنها أن اقتران الركوع بالسجود في هذا الموضع، لا يخرجه عن كونه موضع سجدة، كما أن اقترانه بالعبادة التي هي أعم من الركوع لا يخرجه عن كونه سجدة، وقد صح سجوده ﷺ في النجم، وقد قرن السجود فيها بالعبادة، كما قرنه بالعبادة في سورة الحج، والركوع لم يزده إلا تأكيدًا.

ومنها أكثر السجدات المذكورة في القرآن متناولة لسجود الصلاة؛ فإن قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد: ٦٢]. يدخل فيه سجود المصلين قطعًا، وكيف لا وهو أجل السجود وأفرضه؟ وكيف لا يدخل هو في قوله: ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ [النجم: ٦٢]. وفي قوله: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩ ﴾ [العلق: ١٩] وقد قال قبل: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ ﴾ [العلق: ٩، ١٠]. ثم قال: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩ ۝ ﴾ [العلق: ١٩] فأمره بأن يفعل هذا الذي نهاه عنه عدو الله، فإرادة سجود الصلاة بآية السجدة لا تمنع كونها سجدة، بل تؤكدها وتقويها.

يوضحه أن مواضع السجدات في القرآن نوعان: إخبار، وأمر.

فالإخبار خبر من الله تعالى عن سجود مخلوقاته له عمومًا أو خصوصًا، فسُنَّ

للتالي والسامع وجوبًا أو استحبابًا: أن يتشبه بهم عند تلاوة آية السجدة أو سماعها. وآيات الأوامر بطريق الأولى. وهذا لا فرق فيه بين أمر وأمر، فكيف يكون الأمر بقوله: ﴿ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴾ [النجم: ٦٢] مقتضيًا للسجود دون الأمر بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ ﴾ [الحج: ٧٧] فالساجد إما متشبه بمن أخبر عنه، أو ممتثل لما أمر به، وعلى التقديرين يُسَنُّ له السجود في آخر الحج، كما يسن له السجود في أولها؛ فلما سوَّت السنة بينهما سوى القياس الصحيح والاعتبار الحق بينهما، وهذا السجود شرعه الله ورسوله عبودية عند تلاوة هذه الآيات واستماعها، وقربة إليه، وخضوعًا لعظمته، وتذللًا بين يديه، واقتران الركوع ببعض آياته مما يؤكد ذلك ويقويه، لا يضعفه ويوهيه، والله المستعان.

وأما قوله تعالى: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣] فإنما لم يكن موضع سجدة؛ لأنه خبر خاص عن قول الملائكة لامرأة بعينها أن تديم العبادة لربها بالقنوت، وتصلي له بالركوع والسجود؛ فهو خبر عن قول الملائكة لها ذلك، وإعلام من الله تعالى لنا أن الملائكة قالت ذلك لمريم، فسياق ذلك غير سياق آيات السجدات.

وأما الحديث الضعيف فإنه من رواية أبي قدامة ـ واسمه الحارث بن عبيد ـ قال الإمام أحمد ﷺ: هو مضطرب الحديث، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال الأزدي: ضعيف، وقال ابن حبان: لا يحتج به إذا انفرد. قلت: وقد أنكر عليه هذا الحديث وهو موضع الإنكار. فإن أبا هريرة ﷺ شهد سجوده ﷺ في المفصل في ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ و﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ ذكره مسلم في صحيحه، وسجد معه[1]، حتى لو صح خبر أبي قدامة هذا لوجب تقديم خبر أبي هريرة عليه؛ لأنه مثبت، فمعه زيادة علم، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٧٨) وانظر: شرح النووي (٥/ ٧٦-٧٧) والتمهيد (١٩/ ١٢١-١٢٢).

المثال التاسع والستون: رد السنة الثابتة الصحيحة في سجود الشكر، كحديث عبد الرحمن بن عوف؛ أن رسول الله ﷺ خرج نحو أحد فخرَّ ساجدًا فأطال السجود، ثم قال: «**إن جبريل أتاني وبشرني فقال: إن الله تعالى يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه، فسجدت لله تعالى شاكرًا**»(١) وكحديث سعد بن أبي وقاص في سجوده ﷺ شاكرًا لربه، لما أعطاه ثلث أمته، ثم سجد ثانية فأعطاه الثلث الآخر، ثم سجد ثالثة فأعطاه الثلث الباقي(٢)، وكحديث أبي بكرة أن رسول الله ﷺ «كان إذا جاءه أمر يُسَرُّ به خر ساجداً شكراً لله تعالى(٣)، وأتاه بشير يبشره بظفر جُنْدٍ لهم على عدوهم، فقام وخر ساجدًا»(٤).

وسجد كعب بن مالك لما بشر بتوبة الله عليه(٥)، وسجد أبو بكر حين جاءه قتل مسيلمة الكذاب(٦)، وسجد علي كرَّم الله وجهه حين وجد ذا الثُّدَية في الخوارج الذين قتلهم(٧)، ولا أعلم شيئًا يدفع هذه السنن والآثار مع صحتها وكثرتها غير رأي فاسد،

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٣/ ١٢٦ رقم ٩٢٦) وحسنه محققه، والحاكم (١/ ٧٣٥ رقم ٢٠١٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٧١ رقم ٣٧٥٣) وعبد بن حميد في مسنده (رقم ١٥٧) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٨٧): رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٣/ ١٧٩-١٧٠ رقم ٩٧٢) وضعفه المحقق وانظر: نيل الأوطار (٣/ ١٢٩).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٤١١ رقم ١٠٢٥) وقال: هذا حديث صحيح وإن لم يخرجاه، والبيهقي في الصغرى (رقم ٩١٢) وفي الكبرى ٢/ ٣٧٠ رقم ٣٧٤٩) وأبو داود (رقم ٢٧٧٤) وابن ماجه (رقم ١٣٩٤) والدارقطني (١/ ٤١٠ رقم ٢، ٣) (٤/ ١٤٧ رقم ١٧) والمحاملي في أماليه (رقم ٣٨٧) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ١٣٥).

(٤) أخرجه الحاكم (١/ ٣٢٣ رقم ٧٧٨٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وشاهده على شرط الشيخين، وأحمد (٥/ ٤٥) وابن عدي في الكامل (٢/ ٤٣).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٤١٨) ومسلم (رقم ٢٧٦٩).

(٦) انظر: الأم (١/ ٢٨٩) وعزاه ابن القيم في حاشيته على سنن أبي داود إلى سعيد بن منصور في سننه.

(٧) انظر: عون المعبود (٧/ ٣٢٨) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ١٠٠) وتنقيح تحقيق أحاديث التعليق (١/ ٤٦٠) ونيل الأوطار (٣/ ١٢٩).

وهو: أن نعم الله ﷻ لا تزال واصلة إلى عبده، فلا معنى لتخصيص بعضها بالسجود، وهذا من أفسد رأي وأبطله؛ فإن النعم نوعان: مستمرة، ومتجددة، فالمستمرة شكرها بالعبادات والطاعات، والمتجددة شرع لها سجود الشكر؛ شكرًا لله عليها، وخضوعًا له، وذلًا في مقابلة فَرْحة النعم وانبساط النفس لها، وذلك من أكبر أدوائها؛ فإن الله سبحانه لا يحب الفَرِحين ولا الأشِرين؛ فكان دواء هذا الداء الخضوع والذل والانكسار لرب العالمين، وكان في سجود الشكر من تحصيل هذا المقصود ما ليس في غيره، ونظير هذا السجود عند الآيات التي يُخوف الله بها عباده كما في الحديث: «إذا رأيتم آية فاسجدوا»(١)، وقد فزع النبي ﷺ عند رؤية انكساف الشمس إلى الصلاة(٢)، وأمر بالفزع إلى ذكره، ومعلوم أن آياته تعالى لم تزل مشاهدة معلومة بالحس والعقل، ولكن تجددها يُحدث للنفس من الرهبة والفزع إلى الله ما لا تحدثه الآيات المستمرة، فتجدد هذه النعم في اقتضائها لسجود الشكر كتجدد تلك الآيات في اقتضائها للفزع إلى السجود والصلوات، ولهذا لما بلغ فقيه الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس موت ميمونة زوج النبي ﷺ خرَّ ساجدًا، فقيل له: أتسجد لذلك؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم آية فاسجدوا» وأي آية أعظم من ذهاب أزواج النبي ﷺ من بين أظهرنا؟ فلو لم تأت النصوص بالسجود عند تجدد النعم لكان هو محض القياس، ومقتضى عبودية الرغبة، كما أن السجود عند الآيات مقتضى عبودية الرهبة، وقد أثنى الله سبحانه على الذين يسارعون في الخيرات ويدعونه رغباً ورهباً، ولهذا فرق الفقهاء بين صلاة الكسوف وصلاة الاستسقاء بأن هذه الصلاة رهبة، وهذه صلاة رغبة، فصلوات الله وسلامه على من جاءت سنته وشريعته بأكمل ما جاءت به شرائع الرسل وسننهم وعلى آله.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ١١٩٧) والترمذي (رقم ٣٨٩١).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٩٠٦).

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١]فاتحة الكتاب: وأم القرآن، والسبع المثاني، والشفاء التام، والدواء النافع، والرقية التامة، ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظة القوة، ودافعة الهم والغم، والخوف والحزن لمن عرف مقدارها، وأعطاها حقها، وأحسن تنزيلها على دائه، وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها، والسر الذي لأجله كانت كذلك.

ولما وقع بعض الصحابة على ذلك رقى بها اللديغ، فبرأ لوقته، فقال له النبي ﷺ: «وما أدراك أنها رقية»[٢].

ومن ساعده التوفيق، وأُعِين بنور البصيرة حتى وقف على أسرار هذه السورة، وما اشتملت عليه: من التوحيد، ومعرفة الذات والأسماء والصفات والأفعال، وإثبات الشرع والقدر والمعاد، وتجريد توحيد الربوبية والإلهية، وكمال التوكل والتفويض إلى من له الأمر كله، وله الحمد كله، وبيده للخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، والافتقار إليه في طلب الهداية، التي هي أصل سعادة الدارين، أغنته عن كثير من الأدوية والرقى.

[٣]ولما كانت «التوبة» هي رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم، ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده، فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام، وتضمنتها أبلغ تضمن، فمن أعطى الفاتحة حقها ـ علمًا وشهودًا وحالاً ومعرفة ـ علم أن لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النَّصوح، فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا

---

(١) ٣٧٣ زاد المعاد جـ ٣.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٣٦) ومسلم (رقم ٢٢٠١).
(٣) ١٧٩ مدارج جـ ١.

تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها، فإن الأول جهل ينافي معرفة الهدى، والثاني غيٌّ ينافي قصده وإرادته، فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخرًا.

(1) والعبد إذا عزم على فعل أمر فعليه أن يعلم أولاً: هل هو طاعة لله أم لا؟ فإن لم يكن طاعة فلا يفعله إلا أن يكون مُباحًا يستعين به على الطاعة، وحينئذ يصير طاعة. فإذا بان له أنه طاعة فلا يُقْدِمُ عليه حتى ينظر هل هو مُعان عليه أم لا؟ فإن لم يكن معانًا عليه فلا يقدم عليه فيذل نفسه. وإن كان مُعانًا عليه بقي نظر آخر، وهو أن يأتيه من بابه؛ فإن أتاه من غير بابه أضاعه أو فرط فيه أو أفسد منه شيئًا.

فهذه الأمور الثلاثة أصل سعادة العبد وفلاحه، وهي معنى قول العبد: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾ [الفاتحة: ٥، ٦].

فأسعد الخلق أهل العبادة، والاستعانة، والهداية إلى المطلوب، وأشقاهم من عدم الأمور الثلاثة.

ومنهم من يكون له نصيب من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ونصيبه من ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ من معدوم أو ضعيف؛ فهذا مخذول مهينٌ محزون.

ومنهم من يكون نصيبه من ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قويًّا ونصيبه من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ضعيفًا أو مفقودًا؛ فهذا له نفوذ وتسلط وقوة، ولكن لا عاقبة له، بل عاقبته أسوأ عاقبة.

ومنهم من يكون له نصيب من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ولكن نصيبه من الهداية إلى المقصود ضعيف جدًّا، كحال كثير من العُبَّاد، والزهاد الذين قل علمهم بحقائق ما بعث الله به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق.

(2) صلاح العبد وسعادته في تحقيق معنى قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فإن

---

(١) ١٦٠ أعلام جـ ٢.

(٢) ٢٧ إغاثة جـ ١.

العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب.

فالأول: من معنى ألوهيته، والثاني: من معنى ربوبيته، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب: محبة، وإنابة، وإجلالاً، وإكراماً، وتعظيمًا، وذُلًّا، وخضوعًا، وخوفًا، ورجاءً، وتوكلاً، والرب هو الذي يُربي عبده، فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى مصالحه، فلا إله إلا هو، ولا رب إلا هو، فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل، فكذلك إلهية ما سواه...

[1]ثم قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها وهي بيده، فإن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها.

والهداية معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله تعالى عالـمًا بالحق عاملاً به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو سبحانه المتفرد بالهداية الموجبة للاهتداء، التي لا يتخلف عنها، وهي جعل العبد مريدًا للهدى، محبًّا له، مؤثرًا له، عاملاً به، فهذه الهداية ليست إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهي التي قال سبحانه فيها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] مع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. فهذه هداية الدعوة والتعليم والإرشاد، وهي التي هدى بها ثمود فاستحبوا العمى عليها، وهي التي قال تعالى فيها: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فهداهم هدى البيان الذي تقوم به حجته عليهم، ومنعهم الهداية الموجبة للاهتداء، التي لا يضل من هداه بها، فذاك عدله فيهم، وهذا حكمته، فأعطاهم ما تقوم به الحجة عليهم، ومنعهم ما ليسوا له بأهل ولا يليق بهم...

والمقصود ذكر بعض ما يدل على إثبات هذه المرتبة الرابعة من مراتب القضاء

---

(١) ٥٣ شفاء العليل.

والقدر، وهي خلق الله تعالى لأفعال المكلفين، ودخولها تحت قدرته ومشيئته، كما دخلت تحت علمه وكتابه.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝﴾ [الزمر: ٦٢]، وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم: أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته، وليس مخصوصًا بذاته وصفاته، فإنه الخالق بذاته وصفاته وما سواه مخلوق له، واللفظ قد فرق بين الخالق والمخلوق، وصفاته سبحانه داخلة في مسمى اسمه.

فإن الله سبحانه اسم للإله الموصوف بكل صفة كمال، المنزه عن كل صفة نقص ومثال، والعالم قسمان: أعيان وأفعال، وهو الخالق لأعيانه وما يصدر عنها من الأفعال، كما أنه العالم بتفاصيل ذلك، فلا يخرج شيء منه عن علمه، ولا عن قدرته، ولا عن خلقه ومشيئته.

[(١)]والهداية هي العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره، فالمهتدي هو العامل بالحق المريد له، وهي أعظم نعمة لله على العبد.

ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصراط المستقيم، كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس، فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق، الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق، فيجعل إرادته في قلبه، ثم إلى من يقدره على فعله، ومعلوم أن ما يجهله العبد أضعاف أضعاف ما يعلمه، وأن كل ما يعلم أنه حق لا تطاوعه نفسه على إرادته، ولو أراده لعجز عن كثير منه، فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل.

أما الماضي فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه، وهل وقع على السداد؛ فيشكر الله عليه ويستديمه، أم خرج فيه عن الحق؛ فيتوب إلى الله تعالى منه، ويستغفره ويعزم على أن لا يعود.

---

(١) ٨٣ مفتاح جـ١.

وأما الهداية في الحال فهي مطلوبة منه، فإنه ابن وقته، فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال: هل هو صواب أم خطأ؟

وأما المستقبل فحاجته فيه إلى الهداية أظهر، ليكون سيره على الطريق.

وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شيء اضطرارًا إليها.

وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد، وهو: إنا إذا كنا مهتدين فأي حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا؟! وهل هذا إلا تحصيل الحاصل؟ أفسد سؤال وأبعده عن الصواب، وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا أحاط علمًا بحقيقتها ومسماها، فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى: ثبتنا على الهداية وأدمها لنا.

ومن أحاط علمًا بحقيقة الهداية وحاجة العبد إليها علم أن الذي لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له، وأنه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة.

لاسيما والله تعالى خالق أفعال القلوب والجوارح، فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية خاصة، ثم إن لم يصرف عنه الموانع والصوارف التي تمنع الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها، فإن الحكم لا يكفي فيه وجود مقتضيه، بل لابد من عدم مانعه ومنافيه.

[1]للإنسان قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية والإرادية.

واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها. فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها.

واستكمال القوة العملية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه ـ سبحانه ـ على العبد، والقيام بها إخلاصًا وصدقًا، ونصحًا وإحسانًا، ومتابعة وشهودًا لمنته عليه

---

(١) ١٨ فوائد.

وتقصيره هو في أداء حقه، فهو مستحيي من مواجهته بتلك الخدمة، لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه، ودون دون ذلك، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته، فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم؛ الذي هدى إليه أولياءه وخاصته، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط، إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب. فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور، وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام.

فإن قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾ [الفاتحة: ١-٤] يتضمن الأصل الأول، وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.

والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى؛ وهي اسم الله، والرب، والرحمن، فاسم الله متضمن لصفات الألوهية، واسم الرب متضمن لصفات الربوبية، واسم الرحمن متضمن لصفات الإحسان والجود والبر، ومعاني أسمائه تدور على هذا.

وقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانته على عبادته.

وقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته.

وقوله: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل.

فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته، والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته، فلا يكون إلا رحيماً منعمًا، وذلك من موجبات إلهيته، فهو الإله الحق وإن جحده الجاحدون وعدل به المشركون، فمن تحقق بمعاني الفاتحة علمًا ومعرفة وعملاً وحالاً، فقد فاز من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة، الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين، والله المستعان.

(١)ولما كان تمامُ النعمة على العبد إنما هو بالهدى والرحمة، كان لهما ضدان: الضلال والغضب.

فأمرنا الله سبحانه أن نسأله كل يوم وليلة مرات عديدة أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، وهم أولو الهدى والرحمة، ويجنبنا طريق المغضوب عليهم، وهم ضد المرحومين، وطريق الضآلين هم ضد المهتدين، ولهذا كان هذا الدعاء من أجمع الدعاء، وأفضله وأوجبه، وبالله التوفيق.

(٢)إذا عرفت هذه المقدمات: فالجمع الصحيح ـ الذي عليه أهل (الاستقامة) ـ هو جمع توحيد الربوبية، وجمع توحيد الإلهية، فيشهد صاحبه قيومية الرب تعالى فوق عرشه، يدبر أمر عباده وحده، فلا خالق ولا رازق، ولا معطي ولا مانع، ولا مميت ولا محيي، ولا مدبر لأمر المملكة ـ ظاهرًا وباطناً ـ غيره، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يجري حادث إلا بمشيئته ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه، وأحاطت بها قدرته، ونفذت بها مشيئته واقتضتها حكمته، فهذا جمع توحيد الربوبية.

---

(١) ١٧٥ إغاثة.

(٢) ٥١٠ مدارج جـ٣.

وأما جمع توحيد الإلهية، فهو: أن يجمع قلبه وهمه وعزمه على الله، وإرادته، وحركاته على أداء حقه تعالى، والقيام بعبوديته سبحانه، فتجتمع شؤون إرادته على مراده الديني الشرعي.

هذان الجمعان: هما حقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإن العبد يشهد من قوله: ﴿ إِيَّاكَ ﴾ الذات الجامعة لجميع صفات الكمال، التي لها كل الأسماء الحسنى. ثم يشهد من قوله: ﴿ نَعْبُدُ ﴾ جميع أنواع العبادة ظاهرًا وباطنًا، قصدًا وقولاً وعملاً وحالاً واستقبالاً. ثم يشهد من قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ جميع أنواع الاستعانة والتوكل، والتفويض، فيشهد منه جمع الربوبية، ويشهد من: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ جمع الإلهية. ويشهد من: ﴿ إِيَّاكَ ﴾ الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى.

ثم يشهد من ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ عشر مراتب، إذا اجتمعت حصلت له الهداية:

المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان، فيجعله عالمًا بالحق مدركًا له.

الثانية: أن يقدره عليه، وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة: أن يجعله مريدًا له.

الرابعة: أن يجعله فاعلاً له.

الخامسة: أن يثبته على ذلك، ويستمر به عليه.

السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.

السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة، أخص من الأولى. فإن الأولى هداية إلى الطريق إجمالاً، وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيلاً.

الثامنة: أن يُشهد المقصود في الطريق، ويُنبهه عليه، فيكون مطالعًا له في سيره، ملتفتًا إليه، غير محتجب بالوسيلة عنه.

التاسعة: أن يُشهده فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يشهده الطريقين المنحرفين عن طريقها، وهما طريق أهل الغضب،

الذين عدلوا عن اتباع الحق قصدًا وعنادًا، وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلاً وضلالاً، ثم يشهد جمع ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله، وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

فهذا هو الجمع الذي عليه رسل الله وأتباعهم، فمن حصل له هذا الجمع فقد هدي إلى الصراط المستقيم، والله أعلم.

(1) إذا كان كل عمل فأصله المحبة والإرادة، والمقصود به التنعم بالمراد المحبوب، فكل حي إنما يعمل لما فيه تنعمه ولذته، فالتنعم هو المقصود الأول من كل قصد وكل حركة، كما أن العذاب والتألم هو المكروه المقصود أولاً بكل بغض وكل امتناع وكف، ولكن وقع الجهل والظلم من بني آدم بمعنيين: بالدين الفاسد، والدنيا الفاجرة، طلبوا بهما النعيم، وفي الحقيقة فإنما فيهما ضده، ففاتهم النعيم من حيث طلبوه، وآثروه، ووقعوا في الألم والعذاب من حيث هربوا منه.

وبيان ذلك: أن الأعمال التي يعملها جميع بني آدم إما أن يتخذوها دينًا: أو لا يتخذونها دينًا، والذين يتخذونها ديناً إما أن يكون الدين بها دين حق، وإما أن يكون دينًا باطلاً.

فنقول: النعيم التام: هو في الدين الحق علماً وعملاً، فأهله هم أصحاب النعيم الكامل. كما أخبر الله تعالى بذلك في كتابه في غير موضع، كقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝ ﴾ وقوله عن المتقين المهتدين بالكتاب: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [البقرة: ٥]، وقوله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣]، وفي الآية الأخرى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ

---

(١) ١٧٦ إغاثة جـ ٢.

﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] والقرآن مملوء من هذا.

فوعد أهل الهدى والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة، ووعيد أهل الضلال والفجور بالشقاء في الدار الآخرة مما اتفقت عليه الرسل، من أولهم إلى آخرهم، وتضمنته الكتب. ولكن نذكر ههنا نكتة نافعة.

وهي: أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيرًا من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب، وما ينال كثيرًا من الكفار والفجار والظلمة في الدنيا من الرياسة والمال، وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفجار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل.

وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة في الدنيا تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين، فإذا سمع في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨]، وقوله: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٣]، وقوله: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ونحو هذه الآيات، وهو ممن يصدق بالقرآن، حمل ذلك على أن حصوله في الدار الآخرة فقط، وقال: أما الدنيا فإنا نرى الكفار والمنافقين يغلبون فيها، ويظهرون، ويكون لهم النصر والظفر، والقرآن لا يرد بخلاف الحس.

ويعتمد على هذا الظن إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين، أو الفجرة الظالمين، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى، فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق، فيقول: أنا على الحق، وأنا مغلوب، فصاحب الحق في هذه الدنيا مغلوب مقهور، والدولة فيها للباطل.

فإذا ذُكِّر بما وعده الله تعالى من حسن العاقبة للمتقين والمؤمنين، قال: هذا في الآخرة فقط، وإذا قيل له: كيف يفعل الله تعالى هذا بأوليائه وأحبائه وأهل الحق؟

فإن كان ممن لا يعلل أفعال الله تعالى بالحكم والمصالح، قال: يفعل الله في ملكه ما يشاء، ويحكم ما يريد ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وإن كان

ممن يعلل الأفعال، قال فعل بهم هذا ليعوضهم بالصبر عليه بثواب الآخرة وعلو الدرجات، وتوفية الأجر بغير حساب.

ولكل أحد مع نفسه في هذا المقام مباحثات وإيرادات وإشكالات وأجوبة، بحسب حاصله وبضاعته، من المعرفة بالله تعالى وأسمائه وصفاته وحكمته، والجهل بذلك، فالقلوب تغلي بما فيها، كالقدر إذا استجمعت غلياناً...

(١)وقد جاء في السنة ما هو أخص من الحمد، وهو الثناء الذي هو تكرار المحامد، كما في قول النبي ﷺ لأهل قبا: «ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به؟»(٢)، فإذا كان قد أثنى عليهم والثناء حمد متكرر، فما يمنع حمده لمن شاء من عباده، ثم الصحيح في تسمية النبي ﷺ محمدًا أنه الذي يحمده الله وملائكته وعباده المؤمنون، وأما من قال: الذي يحمده أهل السماوات وأهل الأرض فلا ينافي حمد الله تعالى، بل حمد أهل السماوات والأرض له بعد حمد الله له، فلما حمده الله حمده أهل السموات والأرض.

وبالجملة فإذا كان الحمد ثناء خاصًا على المحمود لم يمتنع أن يحمد الله من يشاء من خلقه كما يثني عليه، فالصواب في الفرق بين الحمد والمدح أن يقال: الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخباراً مجردًا من حب وإرادة أو مقرونًا بحبه وإرادته، فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد، فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، ولهذا كان خبرًا يتضمن الإنشاء بخلاف المدح فإنه خبر مجرد، فالقائل إذا قال: الحمد لله، أو قال: ربنا لك الحمد، تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد

---

(١) ٩٣ بدائع جـ ٢.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٢٥٨ رقم ٥٥٥) (١/ ٢٩٩ رقم ٦٧٢) وقال في الموضع الثاني: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٤٥ رقم ٨٣) والبيهقي في الصغرى (رقم ٥٦) وفي الكبرى (١/ ١٠٥ رقم ٥١٤) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٣١ رقم ٣٠٠٧) وفي الكبير (٨/ ١٢١ رقم ٧٥٥٥) (١١/ ٦٧ رقم ١١٠٦٥) ومسند الشاميين (١/ ٤١٥ رقم ٧٣٠) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٢١٢): رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن إلا أن ابن إسحاق مدلس وقد عنعنه.

الحمد المحققة والمقدرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه وهو الحميد المجيد، ولما كان هذا المعنى مقارنًا للحمد لا تقوم حقيقته إلا به، فسره من فسره بالرضى والمحبة، وهو تفسير له بجزء مدلوله، بل هو رضاء ومحبة مقارنة للثناء؛ ولهذا السر ـ والله أعلم ـ جاء فعله على بناء الطبائع والغرائز، فقيل: حمد لتضمنه الحب الذي هو بالطبائع والسجايا أولى وأحق من فهم وحذر وسقم ونحوه بخلاف الإخبار المجرد عن ذلك وهو المدح؛ فإنه جاء على وزن فعل فقالوا: مدحه لتجرد معناه من معاني الغرائز والطبائع، فتأمل هذه النكتة البديعة وتأمل الإنشاء الثابت في قولك: ربنا لك الحمد، وقولك: الحمد لله كيف تجده تحت هذه الألفاظ؟ ولذلك لا يقال: موضعها المدح لله، ولا ربنا لك الحمد، وسره ما ذكرت لك من الأخبار بمحاسن المحمود إخباراً مقترناً بحبه وإرادته وإجلاله وتعظيمه، فإن قلت: فهذا ينقض قولكم: إنه لا يمتنع أن يحمد الله تعالى من شاء من خلقه؛ فإن الله تعالى لا يتعاظمه شيء، ولا يستحق التعظيم غيره، فكيف يعظم أحدًا من عباده؟ قلت: المحبة لا تنفك عن تعظيم وإجلال للمحبوب، ولكن يضاف إلى كل ذات بحسب ما تقتضيه خصائص تلك الذات، فمحبة العبد لربه تستلزم إجلاله وتعظيمه، وكذلك محبة الرسول تستلزم توقيره وتعزيره وإجلاله، وكذلك محبة الوالدين والعلماء وملوك العدل.

وأما محبة الرب عبده فإنها تستلزم إعزازه لعبده وإكرامه إياه والتنويه بذكره وإلقاء التعظيم والمهابة له في قلوب أوليائه، فهذا المعنى ثابت في محبته وحمده لعبده، سُمِّي تعظيمًا وإجلالاً أو لم يسم.

ألا ترى أن محبته سبحانه لرسله كيف اقتضت أن نوَّه بذكرهم في أهل السماء والأرض، ورفع ذكرهم على ذكر غيرهم، وغضب على من لم يحبهم ويوقرهم ويجلهم، وأحل به أنواع العقوبات في الدنيا والآخرة، وجعل كرامته في الدنيا والآخرة لمحبيهم وأنصارهم وأتباعهم؟

أولا ترىٰ كيف أمر عباده وأولياءه بالصلاة، التي هي تعظيم وثناء علىٰ خاتمهم وأفضلهم صلوات الله عليه وسلامه؟ أفليس هذا تعظيمًا لهم وإعزازًا وتكريمًا وإكرامًا؟ فإن قيل: فقد ظهر الفرق بين الحمد والمدح، واستبان صبح المعنىٰ، وأسفر وجهه، فما الفرق بينهما وبين الثناء والمجد؟

قيل: قد تعدينا طورنا فيما نحن بصدده، ولكن نذكر الفرق تكميلاً للفائدة، فنذكر تقسيمًا جامعاً لهذه المعاني الأربعة، أعني: الحمد، والمدح، والثناء، والمجد.

فنقول: الإخبار عن محاسن الغير له ثلاثة اعتبارات:

اعتبار من حيث المخبر به، واعتبار من حيث الإخبار عنه بالخبر، واعتبار من حيث حال المخبر.

فمن حيث الاعتبار الأول ينشأ التقسيم: إلىٰ الحمد، والمجد فإن المخبر به: إما أن يكون من أوصاف العظمة والجلال والسعة وتوابعها، أو من أوصاف الجمال والإحسان وتوابعها، فإن كان الأول فهو المجد، وإن كان الثاني فهو الحمد، وهذا لأن لفظ (م ج د) في لغتهم يدور علىٰ معنىٰ الاتساع والكثرة، فمنه قولهم: (أمجد الدابة علفًا)[1] أي: أوسعها علفًا، ومنه مجد الرجل فهو ماجد إذا كثر خيره وإحسانه إلىٰ الناس قال الشاعر:

أنت تكون ماجد نبيل ... إذا تهب شمأل بليل

ومنه قولهم في كل شجر نار: واستمجد المرخ[2] والعفار[3]. أي كثرت النار فيهما[4].

(١) هذا قول الأصمعي رحمه الله، انظر: لسان العرب (٣/ ٣٩٦).
(٢) المرخ: شجر سريع الوري أي الوقود.
(٣) والعفار كسحاب: شجر يتخذ منه الزناد.
(٤) انظر: القاموس المحيط (ص ٤٠٦) وغريب الحديث للخطابي (٢/ ١٤٧) ولسان العرب (٣/ ٥٤، ٣٩٦) (٤/ ٥٨٩) ومختار الصحاح (ص ٢٥٧) ومعجم البلدان (٤/ ١٣١) وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٨٣).

ومن حيث اعتبار الخبر نفسه ينشأ التقسيم إلى الثناء والحمد، فإن الخبر عن المحاسن؛ إما متكرر أو لا، فإن تكرر فهو الثناء، وإن لم يتكرر فهو الحمد، فإن الثناء مأخوذ من الثني وهو العطف، ورد الشيء بعضه على بعض، ومنه ثنيت الثوب، ومنه التثنية في الاسم، فالمثني مكرر لمحاسن من يثني عليه مرة بعد مرة.

ومن جهة اعتبار حال المخبر ينشأ التقسيم إلى المدح والحمد، فإن المخبر عن محاسن الغير؛ إما أن يقترن بإخباره حب له وإجلال أو لا، فإن اقترن به الحب فهو الحمد، وإلا فهو المدح، فحصل هذه الأقسام وميزها.

ثم تأمل تنزيل قوله تعالى، فيما رواه عنه رسول الله ﷺ حين يقول العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ فيقول الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال: أثنى عليَّ عبدي. لأنه كرر حمده فإذا قال: ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ قال: مجدني عبدي[1] فإنه هو وصفه بالملك والعظمة والجلال.

فاحمد الله على ما ساقه إليك من هذه الأسرار والفوائد عفوًا، لم تسهر فيها عينك، ولم يسافر فيها فكرك عن وطنه، ولم تتجرد في تحصيلها عن مألوفاتك، بل هي عرائس معان، تجلى عليك وتزف إليك، فلك لذة التمتع بها، ومهرها على غيرك، لك غنمها، وعليه غرمها.

قاعدة شريفة عظيمة القدر[2]

حاجة العبد إليها أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب والنَّفسِ؛ بل وإلى الروح التي بين جنبيه.

اعلم أن كل حي سوى الله فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، والمنفعة للحي من جنس النعيم، واللذة والمضرة من جنس الألم والعذاب، فلابد من أمرين:

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٩٥).
(٢) ٥٥ طريق الهجرتين.

أحدهما: هو المطلوب المقصود المحبوب، الذي ينتفع به، ويتلذذ به.

والثاني: هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود، والمانع لحصول المكروه، والدافع له بعد وقوعه، فهاهنا أربعة أشياء: أمر محبوب مطلوب الوجود، والثاني: أمر مكروه مطلوب العدم، والثالث: الوسيلة إلى حصول المحبوب. الرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه. فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكل حي سوى الله، لا يقوم صلاحه إلا بها.

إذا عرف هذا فالله سبحانه هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له، وهو وحده المعين للعبد على حصول مطلوبه، فلا معبود سواه ولا معين على المطلوب غيره، وما سواه هو المكروه المطلوب بعده، وهو المعين على دفعه، فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه، وهذا معنى قول العبد ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فإن هذه العبادة تتضمن المقصود المطلوب على أكمل الوجوه.

والمستعان هو الذي يستعان به على حصول المطلوب ودفع المكروه، فالأول من مقتضى ألوهيته، والثاني من مقتضى ربوبيته، لأن الإله هو الذي يُؤله، فيُعبد محبةً وإنابةً وإجلالاً وإكرامًا، والرب هو الذي يرب عبده فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى جميع أحواله ومصالحه، التي بها كماله، ويهديه إلى اجتناب المفاسد، التي بها فساده وهلاكه، وفي القرآن سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين:

أحدها: قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

الثاني: قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٠].

الثالث: قوله تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالى: ﴿ عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ [الممتحنة: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ [الفرقان: ٥٨].

السادس: قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

السابع: قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾ [المزمل: ٨، ٩].

ومما يقرر هذا: أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أحب إليهم من الإيمان به، ومحبتهم له، ومعرفتهم به، وحاجتهم إليه في عبادتهم له وتألههم له كحاجتهم إليه، بل أعظم في خلقه وربوبيته لهم ورزقه لهم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة، التي بها سعادتهم وفوزهم، وبها ولأجلها يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة ولا سرور بدون ذلك بحال، فمن أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكًا، ويحشره يوم القيامة أعمى.

ولهذا لا يغفر الله لمن يشرك به شيئًا، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ولهذا كانت «لا إله إلا الله» أفضل الحسنات[(١)]، وكان توحيد الإلهية الذي كلمته «لا إله إلا الله» رأس الأمر.

فأما توحيد الربوبية الذي أقر به كل المخلوقات فلا يكفي وحده، وإن كان لابد منه، وهو حجة على من أنكر توحيد الألوهية، فحق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقهم عليه إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وأن يكرمهم إذا قدموا عليه[(٢)].

---

(١) فعن أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله! أوصني قال: «إذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تمحها» قال: قلت: يا رسول الله أمن الحسنات: لا إله إلا الله؟ قال: «هي أفضل الحسنات» أخرجه أحمد (٥/ ١٦٩) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٨١): رواه أحمد ورجاله ثقات إلا شمر بن عطية حدَّث به عن أشياخه عن أبي ذر ولم يسم أحدًا منهم. وانظر: فيض القدير (١/ ٤٠٦-٤٠٧).

(٢) فعن معاذ ﷺ قال: كنت ردف النبي ﷺ على حمار يقال له عفير، فقال: «يا معاذ هل تدري حق الله على عباده؟ وما حق العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا» فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر =

وهذا كما أنه غاية محبوب العبد ومطلوبه، وبه سروره ولذته ونعيمه، فهو أيضًا محبوب الرب من عبده ومطلوبه الذي يرضى به، ويفرح بتوبة عبده إذا رجع إليه وإلى عبوديته وطاعته أعظم من فرح من وجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في أرض مهلكة، بعد أن فقدها وأيس منها(١)، وهذا أعظم فرح يكون، وكذلك العبد لا فرح له أعظم من فرحه بوجود ربه وأنسه به وطاعته له وإقباله عليه وطمأنينته بذكره وعمارة قلبه بمعرفته والشوق إلى لقائه، فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه، ومن عبد غيره وأحبه - وإن حصل له نوع من اللذة والمودة والسكون إليه والفرح والسرور بوجوده - ففساده به ومضرته وعطبه أعظم من فساد أكل الطعام المسموم اللذيذ الشهي، الذي هو عذبٌ في مبدئه عذاب في نهايته، كما قال القائل:

مـــآرب كانـــت في الـــشباب لأهلـــها عِـــذابًا، فـــصارت في المـــشيب عَـــذابا

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فإن قوام السماوات والأرض والخليقة بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما إله آخر غير الله لم يكن إلهًا حقًّا، إذ الإله الحق لا شريك، له ولا سمِيَّ له، ولا مثل له، فلو تألهت غيره لفسدت كل الفساد بانتفاء ما به صلاحها، إذ صلاحها بتأليه الإله الحق، كما أنها لا توجد إلا باستنادها إلى الرب الواحد القهار، ويستحيل أن تستند في وجودها إلى ربين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند في بقائها وصلاحها إلى إلهين متساويين.

به الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا». أخرجه البخاري (رقم ٢٨٥٦) ومسلم (رقم ٣٠).

(١) عن ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت. فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده» أخرجه البخاري (رقم ٦٣٠٨) ومسلم (رقم ٢٧٤٤).

إذا عرف هذا: فاعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا: في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، أعظم من حاجة الجسد إلى روحه، والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به.

فإن حقيقة العبد روحه وقلبه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه فملاقيته، ولابد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها، ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت ثم يعذب ولابد في وقت آخر.

وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذ، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك، وإنما يحصل له بملابسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الأظفار التي تحكه، فهي تدمي الجلد وتخرقه وتزيد في ضرره، وهو يؤثر ذلك لما له في حكها من اللذة. وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله، هو عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة، لا تزيد لذته على لذة حك الجرب، والعاقل يوازن بين الأمرين، ويؤثر أرجحهما وأنفعهما، والله الموفق المعين، وله الحجة البالغة كما له النعمة السابغة.

والمقصود: أن إله العبد الذي لابد له منه في كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين، هو الإله الحق الذي كل ما سواه باطل، والذي أينما كان فهو معه، وضرورته وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة، بل هي فوق كل ضرورة، وأعظم من كل حاجة، ولهذا قال إمام الحنفاء: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] والله أعلم.

[(١)] أول سورة في القرآن وهي الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والأرواح من جملة العالم فهو ربها.

الثاني: قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالأرواح عابدة له مستعينة، ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعاناً بها.

الثالث: أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها، تسأله أن يهديها صراطه المستقيم.

الرابع: أنها منعم عليها مرحومة، ومغضوب عليها، وضالة شقية، وهذا شأن المربوب المملوك لا شأن القديم غير المخلوق، ونحن بعون الله ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن، وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة في هذه المطالب، وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال، وما تضمنته من منازل السائرين ومقامات العارفين، بالفرق بين وسائلها وغاياتها ومواهبها وكسبياتها، وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها، ولا يسد مسدها، ولذلك لم ينزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها[(٢)].

والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

[(٣)] اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن. فاشتملت على التعريفات بالمعبود ـ تبارك وتعالى ـ بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي «الله، والرب، والرحمن».

---

(١) ١٨١ كتاب الروح.

(٢) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لأبي بن كعب: «أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟» قال: نعم يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «كيف تقرأ في الصلاة؟» قال: فقرأ أم القرآن، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته» أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٧٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤ رقم ١١١٤١).

(٣) ٧ مدارج السالكين جـ١.

وبنيت السورة على الإلهية، والربوبية، والرحمة فـ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مبني على الإلهية، و﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة، فهو المحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته، والثناء والمجد كمالان لجده.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل، وكل هذا تحت قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ . وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة:

أحدها: كونه رب العالمين، فلا يليق به أن يترك عباده سُدىً هملاً، لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به، وما قدره حق قدره من نسبه إليه.

الثاني: أخذها من اسم «الله» وهو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه «الرحمن»، فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم، فمن أعطى اسم «الرَّحمن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ، وإخراج الخبء، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح، أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الألباب أمراً وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحدًا قبل إقامة الحجة عليه، والحجة إنما قامت برسله وكتبه[1]، وبهم اسْتُحق الثواب

(١) فقد قال رسول الله ﷺ: «ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين» أخرجه البخاري رقم (٧٤١٦) ومسلم (رقم ١٤٩٩).

والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسيق الأبرار إلى النعيم، والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فإن ما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه، وعبادته ـ وهي شكره وحبه وخشيته ـ فطري ومعقول للعقول السليمة، لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم، وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول، يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع، فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسِل، ولم يؤمن به، ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفرًا به.

الموضع السادس: من قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فالهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعلُ الإيمان في القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه في القلب، وجعله مؤثرًا له، راضيًا به راغباً فيه.

وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهرًا وباطنًا، ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم، ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه ـ مما نريده ـ كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام[1].

(١) تقدم هذا البحث نقلاً عن المفتاح ص (٢٦) بأوسع من هذا (ج).

وللهداية مرتبة أخرىٰ ـ وهي آخر مراتبها ـ وهي الهداية يوم القيامة إلىٰ طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها، فمن هُدي في هذه الدار إلىٰ صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه، هُدي هناك إلىٰ الصراط المستقيم الموصل إلىٰ جنته ودار ثوابه.

وعلىٰ قدر ثبوت قدم العبد علىٰ هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار؛ يكون ثبوت قدمه علىٰ الصراط المنصوب علىٰ متن جهنم.

وعلىٰ قدر سيره علىٰ هذا الصراط؛ يكون سيره علىٰ ذاك الصراط، فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعىٰ سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبو حبوًا، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكدوس في النار[(١)].

فلينظر العبد سيره علىٰ ذلك الصراط من سيره علىٰ هذا، حَذْو القذة بالقذة، جزاءً وفاقًا[(٢)] ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره علىٰ هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

---

(١) فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوًا؟» وفيه: «ثم يؤتىٰ بالجسر، فيجعل بين ظهري جهنم» قلنا: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «مدحضة مزلة، عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة، لها شوكة عقيفاء، تكون بنجد يقال لها: السعدان، المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم وناج مخدوش ومكدوس في نار جهنم، حتىٰ يمر آخرهم يسحب سحبًا» إلخ الحديث أخرجه البخاري (رقم ٧٤٣٩) ومسلم (رقم ١٨٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ١٥) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٧، ١٠٣) (٢/ ١٧٥، ٥٢٨) (٣/ ٤١٤، ٤٦١) والتخويف من النار (ص ١٣٢) وتحفة الأحوذي (٨/ ٢١٥) وفيض القدير (١/ ٣٦٦).

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

الموضع السابع: من معرفة نفس المسؤول، وهو الصراط المستقيم.

ولا تكون الطريق صراطًا حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب وسعته للمارين عليه، وتعينه طريقًا للمقصود، ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما تعوج طال وبعد، واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود، ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته، وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال، يستلزم تعينه طريقًا.

والصراط تارة يضاف إلى الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]. وتارة يضاف إلى العباد، كما في الفاتحة، لكونهم أهل سلوكه، وهو المنسوب لهم، وهم المارون عليه.

الموضع الثامن: من ذكر المنعم عليهم، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال، فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة، لأن العبد؛ إما أن يكون عالـمًا بالحق، أو جاهلاً به، والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفًا له، فهذه أقسام المكلفين، لا يخرجون عنها البتة.

فالعالم بالحق العامل به: هو المنعم عليه، وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو المفلح ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ ﴾ [الشمس: ٩].

والعالم به المتبع هواه: هو المغضوب عليه. والجاهل بالحق: هو الضال، والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل، والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم

الموجب للعمل، فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به. ومن ههنا كان اليهود أحق بـه، وهو متغلظ في حقهم، كقوله تعـالى في حقهـم: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ [البقرة: ٩٠] وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٦٠].

والجاهل بالحق: أحق باسم الضلال، ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة: ٧٧]. فالأولى: في سياق الخطاب مع اليهود، والثانية: في سياقه مع النصارى. وفي الترمذي وصحيح ابن حبان، من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «**اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون**»(١).

ففي ذكر المنعَم عليهم ـ وهم من عرف الحق واتبعه ـ والمغضوب عليهم ـ وهم من عرفه واتبع هواه ـ والضالين ـ وهم من جهله ـ: ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة، لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود، وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة، وأضاف النعمة إليه، وحذف فاعل الغضب لوجوه:

منها: أن النعمة هي الخير والفضل، والغضب من باب الانتقام والعدل، والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين، وأسبقهما وأقواهما، وهذه طريقة

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٩٥٣، ٢٩٥٤) والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٨ رقم ٢٣٦) والطيالسي (رقم ١٠٤٠) وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح كما ذكر ذلك المباركفوري في تحفة الأحوذي (٨/ ٢٣١).

القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه، وحذف الفاعل في مقابلتهما، كقول مؤمني الجن: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠]. ومنه: قول الخضر في شأن الجدار واليتيمين: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ [الكهف: ٨٢]. وقال في خرق السفينة: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: ٧٩]، ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ [الكهف: ٨٢].

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] ثم قال: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٤]. وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة؛ ما دل علىٰ أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم، وأما مطلق النعمة: فعلىٰ المؤمن والكافر، فكل الخلق في نعمه، وهذا فصل النزاع في مسألة: هل لله علىٰ الكافر من نعمة أم لا؟

فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان، ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والنعمة من جنس الإحسان، بل هي الإحسان، والرب تعالىٰ إحسانه علىٰ البر والفاجر، والمؤمن والكافر. وأما الإحسان المطلق: فللذين اتقوا والذين هم محسنون.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، فأضيف إليه ما هو منفرد به، وإن أضيف إلىٰ غيره فلكونه طريقًا ومجرىٰ للنعمة. وأما الغضب علىٰ أعدائه: فلا يختص به تعالىٰ، بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه، فكان في لفظة «المغضوب عليهم» بموافقة أولياءه له: من الدلالة علىٰ تفرده بالإنعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده، هو المنفرد بها؛ ما ليس في لفظة «المنعم عليهم».

الوجه الثالث: إن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه، وتحقيره وتصغير شأنه؛ ما ليس في ذكر فاعل النعمة، من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره، ورفع قدره، ما ليس في حذفه.

فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه ورفع قدره، فقلت: هذا الذي أكرمه السلطان، وخلع عليه وأعطاه ما تمناه، كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك: هذا الذي أُكْرِم وخُلِعَ عليه وشُرِّفَ وأُعْطِيَ.

وتأمل سرًّا بديعًا في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره، فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية، التي هي العلم النافع والعمل الصالح، وهي الهدىٰ ودين الحق، ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء، فهذا تمام النعمة، ولفظ «أنعمت عليهم» يتضمن الأمرين، وذكر غضبه علىٰ المغضوب عليهم يتضمن أيضًا أمرين:

الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية العذاب والهوان.

والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه، فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال، فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم، وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم، فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله، وغضب الله عليه.

فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة، وحذفه في أهل الغضب، وإسناد الفعل إلىٰ السبب في أهل الضلال.

وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة، والغضب والضلالة، فذكر «المغضوب عليهم» و«الضالين» في مقابلة المهتدين المنعم عليهم، وهذا كثير في القرآن، يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدىٰ والفلاح.

فالثاني كقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]،

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]. والأول كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ ﴾ [القمر: ٤٧]، وقوله: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [البقرة: ٧].

وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] فهذا الهدى والسعادة. ثم قال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦] فذكر الضلال والشقاء.

فالهدى والسعادة متلازمان، والضلال والشقاء متلازمان.

وذكر «الصراط المستقيم» مفردًا معرفًا تعريفين: تعريفًا باللام، وتعريفًا بالإضافة، وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد.

وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فوحد لفظ «الصراط» و«سبيله» وجمع «السبل» المخالفة له.

وقال ابن مسعود: «خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا، وقال: «هذا سبيل الله»، ثم خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال: «هذه سبل، على كل سبيل شيطان، يدعو إليه»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1]، وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق،

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٨ رقم ٣٢٤١) وصححه وابن حبان (١/ ١٨٠ رقم ٦، ٧) وفي موارد الظمآن (رقم ١٧٤١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٣ رقم ١١١٧٤) والدارمي (رقم ٢٠٢) وسعيد بن منصور في سننه (رقم ٩٣٥) وأحمد (١/ ٤٣٥) والبزار (٥/ ١١٣-١١٤ رقم ١٦٩٤) والمروزي في السنة (رقم ١١، ١٢).

ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله، موصل إلى الله، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الحجر: ٤١]. قال الحسن: معناه صراط إليَّ مستقيم. وهذا يحتمل أمرين:

أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة «على» مقام «إلى».

والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى، وهو الأشبه بطريق السلف، أي: صراط موصل إليَّ.

وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه[1]، لا يعرج على شيء. وهذا مثل قول الحسن، وأبين منه، وهو من أصح ما قيل في الآية.

وقيل: «عليَّ» فيه للوجوب، أي: عليَّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه.

والقولان نظير القولين في آية النحل، وهي: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النحل: ٩]، والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر: أن السبيل القاصد ـ وهو المستقيم المعتدل ـ يرجع إلى الله، ويوصل إليه، قال طُفيل الغنوي:

مَضَوا سَلفًا، قصد السبيل عليهم ... وصرفُ المنايا بالرجال تقلَّبُ[2]

أي: ممرنا عليهم، وإليهم وصولنا، وقال الآخر:

فهن المنايا: أي واد سلكته ... عليها طريقي، أو عليَّ طريقها

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التي هي للانتهاء، لا أداة

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحجر (ص ٩٠٢) والطبري في تفسيره (١٤/ ٣٣) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٧٩) وعمدة القاري (١٩/ ٦) والدر المنثور (٥/ ٧٩).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى الطفيل الغنوي الشاعر الجاهلي الفحل، كان من الشجعان. وذكر البيت ابن منظور في لسان العرب وعزاه إلى طفيل الغنوي يرثي قومه (٩/ ١٥٩) وكذا ذكره أبو منصور الجواليقي في شرح أدب الكاتب (ص ٧٥).

«على» التي هي للوجوب، ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ [يونس: ٧٠]، وقال: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقال لما أراد الوجوب: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢٦]، وقال: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٧]، وقال: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]، ونظائر ذلك؟

قيل: في أداة «على» سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى، وهو حق، كما قال في حق المؤمنين: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٥]، وقال لرسوله: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل: ٧٩]، والله ﷻ هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة «على» على هذا المعنى ما ليس في أداة «إلى» فتأمله، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر «على» في ذلك أيضًا، وكيف يكون المؤمن مستعليًا على الحق، وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة «على» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته.

وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه يؤتى فيه بأداة «في» الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسسه فيه، كقوله تعالى: ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقوله: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، وقوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ١١٠].

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤]، فإن طريق الحق تأخذ علوًّا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سُفلاً، هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

وفي قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الحجر: ٤١] قول ثالث: وهو قول

الكسائي: إنه على التهديد والوعيد، نظير قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤]، كما يقال: طريقك عليَّ، وممرك عليَّ، لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك، ولا معجز(١)، والسياق يأبى هذا، ولا يناسبه لمن تأمله، فإنه قاله مجيبًا لإبليس الذي قال: ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠] فإنه لا سبيلَ لي إلى إغوائهم، ولا طريق لي عليهم.

فقرر الله ﷻ ذلك أتم التقرير، وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم، فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط، لأنه صراط عليَّ، ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط، ولا الحوم حول ساحته، فإنه محروس محفوظ بالله، فلا يصل عدو الله إلى أهله. فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل، ولينظر إلى هذا المعنى، ويوازن بينه وبين القولين الآخرين، أيهما أليق بالآيتين، وأقرب إلى مقصود القرآن وأقوال السلف؟

وأما تشبيه الكسائي له بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر: ١٤] فلا يخفى الفرق بينهما سياقاً ودلالة، فتأمله. ولا يقال في التهديد: هذا طريق مستقيم عليَّ، لمن لا يسلكه، وليست سبيل المهدَّد مستقيمة، فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم، وسبيله التي هو عليها ليست مستقيمة على الله، فلا يستقيم هذا القول البتة.

وأما من فسره بالوجوب، أي عليّ بيان استقامته والدلالة عليه، فالمعنى صحيح، لكن في كونه هو المراد بالآية نظر، لأنه حذف في غير موضع الدلالة، ولم يؤلف الحذف المذكور، ليكون مدلولاً عليه إذا حذف، بخلاف عامل الظرف إذا وقع صفة، فإنه حذف مألوف معروف، حتى إنه لا يذكر البتة.

فإذا قلت: له درهم عليَّ، كان الحذف معروفًا مألوفًا، فلو أردت: عليَّ نقده، أو عليَّ وزنه وحفظه، ونحو ذلك، وحذفت: لم يسغ، وهو نظير: عليَّ بيانه، المقدر في الآية،

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٤/ ٣٣).

مع أن الذي قال السلف أليق بالسياق، وأجلُّ المعنيين وأكبرهما.

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ﷺ يقول: وهما نظير قولـه تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [الليل: ١٢، ١٣] قال: فهذه ثلاثة مواضع في القرآن في هذا المعنى.

قلت: وأكثر المفسرين لم يذكر في سورة ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ إلا معنى الوجوب. أي: علينا بيان الهدى من الضلال.

ومنهم من لم يذكر في سورة «النحل» إلا هذا المعنى كالبغوي، وذكر في «الحجر» الأقوال الثلاثة، وذكر الواحدي في بسيطه المعنيين في سورة «النحل» واختار شيخنا قول مجاهد والحسن في السور الثلاث.

والصراط المستقيم: هو صراط الله، وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه، كما ذكرنا. ويخبر سبحانه أنه على الصراط المستقيم، وهذا في موضعين من القرآن، في هود، والنحل. قال في هود: ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦]. وقال في النحل: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل: ٧٦].

فهذا مثل ضربه الله للأصنام التي لا تسمع، ولا تنطق ولا تعقل، وهي كَلٌّ على عابدها، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده، ويضعه ويقيمه ويخدمه، فكيف يسوونه في العبادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد؟ وهو قادر متكلم، غني، وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله، فقوله صدق ورشد ونصح وهدى، وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة.

هذا أصح الأقوال في الآية، وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره، ومن ذكر غيره قدمه على الأقوال، ثم حكاها بعده، كما فعل البغوي، فإنه جزم به، وجعله تفسير الآية، ثم قال: وقال الكلبي: يدلكم على صراط مستقيم.

قلت: ودلالته لنا على الصراط هي من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم، فإن دلالته بفعله وقوله، وهو على الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله، فلا يناقض قول من قال: إنه سبحانه على الصراط المستقيم.

قال: وقيل: هو رسول الله ﷺ يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.

قلت: وهذا حق لا يناقض القول الأول، فالله على الصراط المستقيم، ورسوله عليه، فإنه لا يأمر ولا يفعل إلا مقتضاه وموجبه، وعلى هذا يكون المثل مضروبًا لإمام الكفار وهاديهم، وهو الصنم الذي هو أبكم، لا يقدر على هدى ولا خير، ولإمام الأبرار، وهو رسول الله ﷺ الذي يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم.

وعلى القول الأول: يكون مضروبًا لمعبود الكفار ومعبود الأبرار، والقولان متلازمان، فبعضهم ذكر هذا، وبعضهم ذكر هذا، وكلاهما مراد من الآية.

قال: وقيل: كلاهما للمؤمن والكافر، يرويه عطية، عن ابن عباس.

وقال عطاء: الأبكم أبي بن خلف. ومن يأمر بالعدل، حمزة وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون.

قلت: والآية تحتمله، ولا يناقض القولين قبله، فإن الله على صراط مستقيم، ورسوله وأتباع رسوله، وضد ذلك: معبود الكفار وهاديهم، والكافر التابع والمتبوع والمعبود، فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع، وبعضهم ذكر الهادي، وبعضهم ذكر المستجيب القابل، وتكون الآية متناولة لذلك كله، ولذلك نظائر كثيرة في القرآن.

وأما آية هود: فصريحة لا تحتمل إلا معنى واحدًا، وهو أن الله سبحانه على صراط مستقيم، وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم، فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥] وأفعاله كلها مصالح وحكم، ورحمة وعدل وخير، فالشر لا يدخل في أفعاله ولا أقواله البتة، لخروج الشر عن الصراط المستقيم، فكيف يدخل في أفعال من هو على الصراط

المستقيم، أو أقواله؟ وإنما يدخل في أفعال من خرج عنه وفي أقواله[١].

وفي دعائه عليه الصلاة والسلام: «**لبيك وسعديك، والخير كله بيديك، والشر ليس إليك**»[٢] ولا يلتف إلىٰ تفسير من فسره بقوله: والشر لا يُتقرب به إليك، أو لا يصعد إليك، فإن المعنىٰ أجل من ذلك، وأكبر وأعظم قدرًا، فإن مَنْ أسماؤه كلها حسنىٰ، وأوصافه كلها كمال، وأفعاله كلها حكم، وأقواله كلها صدق وعدل: يستحيل دخول الشر في أسمائه أو أوصافه، أو أفعاله أو أقواله، فطابق بين هذا المعنىٰ وبين قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٦] أي هو ربي، فلا يُسلمني ولا يضيعني، وهو ربكم فلا يسلطكم عليّ ولا يمكنكم مني، فإن نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئًا بدون مشيئته، فإن ناصية كل دابة بيده، لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه، فهو المتصرف فيها، ومع هذا، فهو في تصرفه فيها وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها: علىٰ صراط مستقيم، لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة، ولو سلطكم عليَّ فله من الحكمة في ذلك ما له الحمد عليه، لأنه تسليط من هو علىٰ صراط مستقيم، لا يظلم ولا يفعل شيئًا عبثًا بغير حكمة. فهكذا تكون المعرفة بالله، لا معرفة القدرية المجوسية، والقدرية الجبرية، نفاة الحكم والمصالح والتعليل، والله الموفق سبحانه[٣].

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثرُ الناس ناكبون عنه، مريدًا لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزة، والنفوس مجبولة علىٰ وحشة التفرد،

---

(١) لعله: من خرج عنه في أفعاله وفي أقواله (ج).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٧٧١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٩٩، ٤٢٢) وشرح النووي (٦/ ٥٩) والديباج علىٰ مسلم (٢/ ٣٨٠) وتحفة الأحوذي (٦/ ٤٣٦) (٩/ ٢٦٧) وشرح الزرقاني (٢/ ٣٢٧).

(٣) سيأتي إن شاء الله البحث فيما ذكره في سورة هود والنحل والحجر اهـ (ج).

وعلى الأنس بالرفيق، نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم الذين ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه.

وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط: هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له، فإنهم هم الأقلون قدرًا، وإن كانوا الأكثرين عددًا.

كما قال بعض السلف: «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين»(١).

وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم، فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك.

وقد ضربت لذلك مثلين، فليكونا منك على بال.

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة، لا يريد غيرها، فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس، فألقى عليه كلامًا يؤذيه، فوقف ورد عليه، وتماسكا، فربما كان شيطان الإنس أقوى منه، فقهره، ومنعه عن الوصول إلى المسجد، حتى فاتته الصلاة، وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول، وكمال إدراك الجماعة، فإن التفت إليه أطمعه في نفسه، وربما فترت عزيمته، فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والجمز بقدر التفاته أو أكثر، فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت: لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

---

(١) أخرجه البيهقي في كتاب الزهد الكبير عن الفضيل بن عياض (٢/ ١٣١ رقم ٢٤٠) بلفظ قريب.

المثل الثاني: الظبي أشد سعيًا من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه، فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد أن في ذكر هذا الرفيق: ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم، وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت «اللهم اهدني فيمن هديت»(١) أي أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه، وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أي قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيبًا من هذه النعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاء المنعم عليهم، فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق عليّ في جملة من تصدقت عليهم، وعلمني في جملة من علمته، وأحسن إليّ في جملة من شملته بإحسانك.

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب، ونيله أشرف المواهب: علَّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء. ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم، اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه، والإمام أحمد والترمذي.

أحدهما: حديث عبد الله بن بُريدة، عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو، ويقول: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد» فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ١٤٢٥) والترمذي (رقم ٤٦٤) والنسائي (رقم ١٧٤٥) وابن ماجه (رقم ١١٧٨) وحسنه الترمذي.

إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى»[١] قال الترمذي: حديث صحيح.

فهذا توسل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالوحدانية، وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد». وهو كما قال ابن عباس: «العالم الذي كمل علمه، القادر الذي كملت قدرته». وفي رواية عنه: «هو السيد الذي قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد»[٢]. وقال أبو وائل: «هو السيد الذي انتهى سؤدده»[٣]. وقال سعيد بن جبير: «هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله».

وبنفي التشبيه والتمثيل عنه بقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة، والتوسل بالإيمان بذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثاني: حديث أنس: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنَّان، بديع السماوات والأرض، ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم»، فقال: «لقد سأل الله باسمه الأعظم»[٤] فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين، وهما التوسل بالحمد، والثناء عليه وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده، ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرغائب، وهو الهداية ـ بعد الوسيلتين، فالداعي به حقيق بالإجابة.

ونظير هذا: دعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل، رواه البخاري

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٦٨٤ رقم ١٨٥٩) وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٧٤رقم ٨٩٢) وابن ماجه (رقم ٣٨٥٧) والترمذي (رقم ٣٤٧٥) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٧ رقم ٢٩٣٦٠) وأحمد (٥/ ٣٤٩، ٣٦٠) والضياء المقدسي في فضائل الأعمال (رقم ٦٠٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ قبل حديث (رقم ٤٩٧٥)، وانظر: سلاح المؤمن في الدعاء (ص ٢٦٣) وفتح الباري (٨/ ٧٤٠) وعمدة القاري (٢٠/ ٩) وتحفة الأحوذي (٩/ ٣٤٢) وتغليق التعليق (٤/ ٣٨٠).

(٤) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٨٥٨) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٧ رقم ٢٩٣٦١) وابن بشكوال في غوامض الأسماء المبهمة (١/ ٣١٤).

في صحيحه، من حديث ابن عباس: «اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت»[1] فذكر التوسل إليه، بحمده والثناء عليه وبعبوديته له، ثم سأله المغفرة.

فصل في اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد، ونوع في الإرادة والقصد، ويسمى الأول: التوحيد العلمي، والثاني: التوحيد القصدي الإرادي، لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة، والثاني بالقصد والإرادة، وهذا الثاني أيضًا نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية، فهذه ثلاثة أنواع.

فأما توحيد العلم: فمداره على إثباب صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص، وقد دل على هذا شيئان: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فإثبات الحمد له سبحانه، وأما المفصل: فذكر صفة الإلهية والربوبية، والرحمة والملك، وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات.

فأما تضمن الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له، فلا يكون حامدًا من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له، وكلما كانت صفات

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٢٠) ومسلم (رقم ٧٦٩) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٣٠) وعمدة القاري (٧/ ١٦٥) (٢٢/ ٢٨٧).

كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها، ولهذا كان الحمد كله لله حمدًا لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولأجل هذا لا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه، لما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه.

ولهذا ذمَّ الله تعالى آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها، فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تتكلم ولا تهدي، ولا تنفع ولا تضر، وهذه صفة إله الجهمية، التي عاب بها الأصنام، نسبوها إليه، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاهدون علوًّا كبيرًا.

فقال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم ﵇ في محاجَّته لأبيه: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤٢]. فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة والمثابة لقال له آزر: وأنت إلهك بهذه المثابة، فكيف تنكر عليّ؟ لكن كان - مع شركه - أعرف بالله من الجهمية. وكذلك كفار قريش كانوا - مع شركهم - مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلوه على خلقه.

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، فلو كان إله الخلق سبحانه كذلك لم يكن في هذا إنكار عليهم، واستدلال على بطلان الإلهية بذلك، فإن قيل: فالله تعالى لا يكلم عباده.

قيل: بلى قد كلمهم، فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب، منه إليه بلا واسطة، كموسى، ومنهم من كلمه الله على لسان رسوله الملكي، وهم الأنبياء.

وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله، فأنزل عليهم كلامه الذي بلغته رسله عنه، وقالوا لهم: هذا كلام الله الذي تكلم به، وأمرنا بتبليغه إليكم.

ومن ههنا قال السلف: من أنكر كون الله متكلمًا فقد أنكر رسالة الرسل كلهم؛ لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذي تكلم به إلى عباده، فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة.

وقال تعالىٰ في سورة طه عن السامري: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٨، ٨٩]، ورجع القول: هو التكلم والتكليم.

وقال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦].

فجعل نفي صفة الكلام موجبًا لبطلان الإلهية، وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية: أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهًا، ولا مدبرًا، ولا ربًّا، بل هو مذموم، معيب ناقص، ليس له الحمد، لا في الأولىٰ، ولا في الآخرة، وإنما الحمد في الأولىٰ والآخرة لمن له صفات الكمال، ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد.

ولهذا سمى السلف كتبهم التي صنفوها في السنة، وإثبات صفات الرب وعلوه علىٰ خلقه، وكلامه وتكليمه: توحيدًا لأن نفي ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع، وجحد له، وإنما توحيده، إثبات صفة كماله، وتنزيهه عن التشبيه والنقائص، فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيدًا، وجعلوا إثباتها لله تشبيهًا وتجسيمًا وتركيبًا، فسموا الباطل باسم الحق، ترغيبًا فيه، وزخرفًا يُنَفِّقونه به، وسموا الحق باسم الباطل تنفيرًا عنه.

والناس أكثرهم مع ظاهر السِّكَّة، ليس لهم نقد النقاد ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

والمحمود لا يحمد علىٰ العدم والسكوت البتة، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص، تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لا حمد فيه، ولا مدح ولا كمال.

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه، وتعبيد كل شيء له، فاتخاذ الولد ينافي ذلك، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨].

وحمد نفسه على عدم الشريك، المتضمن تفرده بالربوبية والإلهية، وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره، فيكون شريكًا له، فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه، لأن الموجود أكمل من المعدوم.

ولهذا لا يحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمنًا لثبوت كمال. كما حمد نفسه بكونه لا يموت لتضمنه كمال حياته. وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم، لتضمن ذلك كمال قيوميته. وحمد نفسه بأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، لكمال علمه وإحاطته. وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحدًا، لكمال عدله وإحسانه. وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار، لكمال عظمته، يُرى ولا يدرك، كما أنه يُعلم ولا يُحاط به علمًا.

فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال، لأن العدم لا يرى، فليس في كون الشيء لا يرى كمال البتة، وإنما الكمال في كونه لا يُحاط به رؤية ولا إدراكًا، لعظمته في نفسه، وتعاليه عن إدراك المخلوق له. وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان، لكمال علمه.

فكل سلب في القرآن حمد الله به نفسه فلمضادته لثبوت ضده، ولتضمنه كمال ثبوت ضده، فعلمت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال، وأن نفيها نفي لحمده، ونفي الحمد مستلزم لثبوت ضده.

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات. وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهي «الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك» فمبني على أصلين:

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء، وهي أوصاف، وبذلك كانت حُسْنَى، إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام

والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت المنتقم. واللهم أعطني، فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها. قال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٨٠].

ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن «القوي» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة.

وكذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قويًّا ولا عزيزًا. وكذلك قوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: **«إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط يرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**[(١)] فأثبت المصدر الذي اشتقَّ منه اسمه «البصير». وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها: **«الحمد لله الذي سمع سمعه الأصوات»**[(٢)] وفي الصحيح حديث الاستخارة **«اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك»**[(٣)] فهو قادر بقدرة.

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٩) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٧٤، ٤٣١) وشرح النووي (٣/ ١٣) والديباج على مسلم (١/ ٢٢٥) وتحفة الأحوذي (٧/ ٢٢٦) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ١٨) وفيض القدير (٢/ ٢٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (ص ١٤٠٨) والنسائي (رقم ٣٤٦٠) وابن ماجه (رقم ١٨٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١١٦٢).

وقال تعالىٰ لموسىٰ: ﴿ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾ [الأعراف: ١٤٤] فهو متكلم بكلام. وهو العظيم الذي له العظمة، كما في الصحيح عنه ﷺ: «**يقول الله تعالىٰ: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي**»[(١)]. وهو الحكيم الذي له الحكم ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢].

وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله، أو سمعه، أو بصره، أو قوته، أو عزته، أو عظمته انعقدت يمينه وكانت مكفرة، لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماؤه. وأيضًا لو لم تكن أسماؤه مشتملة علىٰ معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها، فلا يقال: يسمع ويرىٰ، ويعلم ويقدر ويريد، فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها، فإذا انتفىٰ أصل الصفة استحال ثبوت حكمها. وأيضًا فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان، وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة، التي لم توضع لمسماها باعتبار معنىً قام به، فكانت كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها، وهذا مكابرة صريحة، وبُهتٌ بَيِّنٌ.

فإن من جعل معنىٰ اسم «القدير» هو معنىٰ اسم «السميع، البصير» ومعنىٰ اسم «التواب» هو معنىٰ اسم «المنتقم» ومعنىٰ اسم «المعطي» هو معنىٰ اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها: والإلحاد فيها أنواع، هذا أحدها.

الثاني: تسمية الأوثان بها، كما يسمونها آلهة، وقال ابن عباس ومجاهد: «عدلوا بأسماء الله تعالىٰ عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا، فاشتقوا اللات من الله، والعزىٰ من العزيز، ومناة من المنان»[(٢)]. وروي عن ابن عباس: ﴿ يُلْحِدُونَ فِي

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٢٠) وانظر: عون المعبود (٣/ ٨٩) (١١/ ١٠١) وفيض القدير (٤/ ٤٨٤).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٠).

أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾: «يكذبون عليه»[١]، وهذا تفسير بالمعنى.

وحقيقة الإلحاد فيها: العدول بها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها، وإخراج حقائق معانيها عنها، هذا حقيقة الإلحاد، ومن فعل ذلك فقد كذب على الله، ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب، أو هو غاية الملحد في أسمائه تعالى، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها، وخرج بها عن حقائقها، أو بعضها، فقد عدل بها عن الصواب والحق، وهو حقيقة الإلحاد.

فالإلحاد: إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها،وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات، كإلحاد أهل الاتحاد، فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها، حتى قال زعيمهم: «وهو المسمى بكل اسم ممدوح عقلاً، وشرعًا وعرفًا، وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعًا وعرفًا» تعالى الله عما يقول الملحدون علوًّا كبيرًا.

الأصل الثاني: أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة، فإنه يدل عليه دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم.

فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة. ويدل على الصفة الأخرى باللزوم، فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدها، وعلى السمع وحده بالتضمن، ويدل على اسم «الحي» وصفة الحياة بالالتزام، وكذلك سائر أسمائه وصفاته.

ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه. ومن ههنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام، فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة؛ أثبت

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٠).

من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

فإن اسم «العظيم» له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها. وكذلك اسم «العلي» واسم «الحكيم» وسائر أسمائه، فإن من لوازم اسم «العلي» العلو المطلق بكل اعتبار، فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه «العلي».

وكذلك اسمه «الظاهر»، من لوازمه: أن لا يكون فوقه شيء، كما في الصحيح، عن النبي ﷺ: «**وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء**»[1] بل هو سبحانه فوق كل شيء، فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه «الظاهر» ولا يصح أن يكون «الظاهر» هو من له فوقية القدر فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج، لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكن المفوَّق أظهر من الفائق فيها،ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهرًا بالقهر والغلبة، لمقابلة الاسم بـ «الباطن» وهو الذي ليس دونه شيء، كما قابل «الأول» الذي ليس قبله شيء، بـ «الآخر» الذي ليس بعده شيء.

وكذلك اسم «الحكيم» من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه، فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه، وكذلك سائر أسمائه الحسنى.

إذا تقرر هذان الأصلان، فاسم «الله» دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدلالات الثلاث، فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفي أضدادها عنه.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧١٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٢٣) وشرح النووي (١٧/ ٣٦) والتمهيد (٢٤/ ٥١-٥٣) وعون المعبود (١٣/ ٢٦٧).

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله تعالىٰ سائر الأسماء الحسنىٰ إلىٰ هذا الاسم العظيم، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقال: «الرحمن، والرحيم، والقدوس، والسلام، والعزيز، والحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزيز» ونحو ذلك.

فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنىٰ، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنىٰ تفصيل وتبيين لصفات الإلهية، التي اشتق منها اسم «الله»، واسم «الله» دال علىٰ كونه مألوهًا معبودًا، تأله الخلائق محبة وتعظيمًا وخضوعًا، وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات، كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله، وصفات الجلال والجمال، أخص باسم «الله».

وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع، والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة، وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم «الرب».

وصفات الإحسان، والجود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللطف: أخص باسم «الرحمن» وكرر إيذانًا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته.

فالرحمن: الذي الرحمة وصفه، والرحيم: الراحم لعباده، ولهذا يقول تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجئ رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم «الرحمن» الذي هو علىٰ وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوب جميع معناه الموصوف به.

ألا ترىٰ أنهم يقولون: غضبان، للممتلئ غضبًا، وندمان وحيران وسكران ولهفان، لمن ملئ بذلك، فبناء فَعْلان للسعة والشمول.

ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات، قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شيء. وفي الصحيح، من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش، إن رحمتي تغلب غضبي» وفي لفظ: «فهو عنده على العرش»(١).

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى، إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم.

وصفات العدل، والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر، والحكم، ونحوها: أخص باسم «الملك» وخصه بيوم الدين، وهو الجزاء بالعدل، لتفرده بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، وما قبله كساعة، ولأنه الغاية، وأيام الدنيا مراحل إليه.

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة، وهي: «الله، والرب، والرحمن» كيف نشأ عنها الخلق والأمر، والثواب، والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع، ولها الفرق.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٤) ومسلم (رقم ٢٧٥١) وانظر: عمدة القاري (٢٥/ ١٠٠) والديباج على مسلم (٦/ ٩٧) وتحفة الأحوذي (٩/ ٣٧٠) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ٣١٨) وفيض القدير (٢/ ٢٥٩).

فاسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألَّهه وحده السعداء، وأقروا له طوعًا بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل، والرجاء والخوف، والحب والإنابة والإخبات والخشية، والتذلل والخضوع إلا له.

وهنا افترق الناس، وصاروا فريقين: فريقًا مشركين في السعير، وفريقًا موحدين في الجنة، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية. فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.

والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية. فالدين والشرع، والأمر والنهي ـ مظهره، وقيامه ـ من صفة الإلهية. والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار، من صفة الملك.

وهو ملك يوم الدين، فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته، وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله، وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

وأما الرحمة: فهي التعلق، والسبب الذي بين الله وبين عباده، فالتأليه منهم له والربوبية منه لهم، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته بـ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] مطابق لقوله: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣]، فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها، فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه ربًّا للعالمين ما يدل على علوه على خلقه، وكونه فوق كل شيء، كما يأتي بيانه إن شاء الله.

فصل في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها: ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في

ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٠]، ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧] فالغنى صفة كمال، والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضًا، وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضًا، وقدرته كمال، ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال، وكذلك العفو بعد القدرة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، واقتران العلم بالحلم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

وحملة العرش أربعة: اثنان يقولان: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك» واثنان يقولان: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»[١] فما كل من قدر عفا، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حليمًا، ولا كل حليم عالم، فما قُرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة، ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩].

ومن ههنا كان قول المسيح ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، أي إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة، وهي كمال القدرة، وعن حكمة، وهي كمال العلم، فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني [لا يكون

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٩/ ٧) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٢٧ رقم ٣٦٤) وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٥٤ رقم ٤٨١) وانظر: تفسير الصنعاني (٣/ ٣١٥) وتفسير السيوطي (٧/ ٢٧٤) وتفسير ابن كثير (١/ ٥٧٢) (٣/ ٣١٧) (٤/ ٧٣) وعمدة القاري (١٢/ ٢٩١).

قادرًا حكيمًا عليمًا، بل لا يكون ذلك إلا عجزًا[1]] فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها.

فهذا أحسن من ذكر «الغفور الرحيم» في هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها، وقد فاتت، فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، كان في هذا ـ من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها ـ ما ينزه عنه منصب المسيح ﷺ، لاسيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام ممن جعل لله ولدًا، واتخذه إلهًا من دونه، فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة.

وهذا بخلاف قول الخليل ﷺ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦] ولم يقل: فإنك عزيز حكيم، لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أي إن تغفر لهم وترحمهم، بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، كما في الحديث «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[2]. وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كلَّ اسم يناسب ما ذكر معه، واقترن به، من فعله وأمره، والله الموفق للصواب.

فصل في مراتب الهداية الخاصة والعامة، وهي عشر مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله ﷻ لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

---

(١) ما بين المربعين زدناه ليتصل الكلام، هذا كلام الطابع الأول (ج).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٧٧) ومسلم (رقم ١٧٩٢) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢١) (٧/ ٣٧٢-٣٧٣) (٨/ ٥٠٨) (١١/ ١٩٦) وشرح النووي (١٢/ ١٥٠) (١٦/ ١٥٢) وعمدة القاري (١٦/ ٦٠) (٢٣/ ١٩) وتحفة الأحوذي (٨/ ٤٠١).

فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه، وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية.

ثم أكده بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر «كلم» وهو «التكليم» رفعًا لما يتوهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام، أو إشارة، أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم، فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز.

قال الفراء: العرب تسمي ما يوصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل، ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالإرادة، يقال: فلان أراد إرادة، يريدون حقيقة الإرادة، ويقال: أراد الجدار، ولا يقال: إرادة، لأنه مجاز غير حقيقة. هذا كلامه.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وهذا التكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلى فرعون، وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر، لا في الأول، وفيه أعطي الألواح، وكان عن مواعدة من الله له، والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة، وفيه قال الله له: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤] أي بتكليمي لك بإجماع السلف.

وقد أخبر سبحانه في كتابه: أنه ناداه، وناجاه، فالنداء من بُعد، والنجاء من قرب، تقول العرب: إذا كبرت الحلقة فهو نداء، أو نجاء[1]، وقال له أبوه آدم في محاجته:

---

(١) ذكره الذهبي في السير عن الشعبي رحمه الله (٤/ ٣١٤) وابن سعد في الطبقات (٦/ ٢٥٤) والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٦٤ رقم ١١٩٢) والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٤٢) وابن الأثير في النهاية (٥/ ٢٥) وابن منظور في اللسان (١/ ٣٠) (١٥/ ٣٠٨).

«أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده؟»[١].

وكذلك يقول له أهل الموقف، إذا طلبوا منه الشفاعة إلى ربه.

وكذلك في حديث الإسراء، في رؤية موسى في السماء السادسة أو السابعة، على اختلاف الرواية، قال: «وذلك بتفضيله بكلام الله»[٢] ولو كان التكليم الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به في هذه الأحاديث معنى، ولا كان يسمى «كليم الرحمن».

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ٥١]. ففرق بين تكليم الوحي، والتكليم بإرسال الرسول، والتكليم من وراء حجاب.

المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء، قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٣] وقال: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] فجعل الوحي في هذه الآية قسمًا من أقسام التكليم، وجعله في آية النساء قسيمًا للتكليم، وذلك باعتبارين، فإنه قسيم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة[٣].

والوحي في اللغة: هو الإعلام السريع الخفي، ويقال في فعله: وَحَى، وأوحى، قال رؤبة، (وحى لها القرار فاستقرت)[٤] وهو أقسام، كما سنذكره.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٠٩، ٧٥١٥) ومسلم (رقم ٢٦٥٢) وأبو داود (رقم ٤٧٠١) وابن ماجه (رقم ٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٥١٧) انظر: فتح الباري (١٣/ ٤٨٢-٤٨٣) وعمدة القاري (٢٥/ ١٧٠-١٧٢).

(٣) سيأتي له بحث بأطول من هذا في سورة النساء إن شاء الله تعالى (ج).

(٤) انظر: لسان العرب (١٥/ ٣٨٠-٣٨١) وعمدة القاري (١/ ١٤).

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري، فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه، فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم.

ثم هذا الرسول الملكي قد يتمثل للرسول البشري رجلاً، يراه عيانًا ويخاطبه(١)، وقد يراه على صورته التي خلق عليها(٢)، وقد يدخل فيه الملك، ويوحي إليه ما يوحيه، ثم يفصم عنه(٣)، أي يقلع، والثلاثة حصلت لنبينا ﷺ.

المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث، وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب ﷺ، كما قال النبي ﷺ: «إنه كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب»(٤).

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله يقول: جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا، وعلق وجودهم في هذه الأمة: بـ «إن» الشرطية، مع أنها أفضل الأمم، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدَّث ولا مُلْهَم، ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يومًا بارزًا للناس إذ آتاه رجل يمشي، فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر» ثم سأله عن الإسلام وعن الإحسان وعن الساعة وفي نهاية الحديث قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» أخرجه البخاري (رقم ٤٧٧٧) ومسلم (رقم ٩).

(٢) فعن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: فأين قوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ قالت: ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسدَّ الأفق، أخرجه البخاري (رقم ٣٢٣٥) ومسلم (رقم ١٧٧) وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾، قال: رأى جبريل في صورته، له ستمائة جناح، أخرجه مسلم (رقم ١٧٤).

(٣) فعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحيانًا يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ، ثم يفصم عني وقد وعيته، وأحيانًا ملك في مثل صورة الرجل فأعي ما يقول»، أخرجه مسلم (رقم ٢٣٣٣)، وانظر: شرح النووي (١٥/ ٨٨).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٩٨) وانظر: قواعد التحديث (ص ١٧١) ومشارق الأنوار (ص ١٨٣).

لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها.

والمحدث: هو الذي يحدَّث في سره وقلبه بالشيء، فيكون كما يحدث به.

قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث، لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف، فإنه قد سَلَّم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول، فاستغنى به عما منه.

قال: وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول، فإن وافقه قبله، وإلا رده، فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات «حدثني قلبي عن ربي»(١) فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عمَّن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: «حدثني قلبي عن ربي» كان مسندًا الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب.

قال: ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوَّه به يومًا من الدهر، وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك، بل كتب كاتبه يومًا «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب» فقال: «لا، أُمْحُه، واكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب، فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأً فمن عمر، والله ورسوله منه بريء»(٢) وقال في الكلالة: «أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان»(٣).

فهذا قول المحدث بشهادة الرسول ﷺ وأنت ترى الاتحادي والحلولي والإباحي الشطاح، السماعي: مجاهر بالقِحَة والفرية، يقول: «حدثني قلبي عن ربي». فانظر إلى

(١) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١/ ٢٢٢): وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال: أنا لا آخذ عن الموتى، وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت، وكذا قال آخر: أنا آخذ عن قلبي عن ربي، وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع، وقال رحمه الله في الفتح (١١/ ٣٤٥): وأما من بالغ منهم فقال: حدثني قلبي عن ربي، فإنه أشد خطأ، فإنه لا يأمن أن يكون قلبه إنما حدثه عن الشيطان.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (١٠/ ١١٦ رقم ٢٠١٣٥) وصحح إسناده الحافظ ابن حجر رحمه الله في تلخيص الحبير (٤/ ١٩٥) وانظر: معتصر المختصر (٢/ ١٢) والإحكام للآمدي (٤/ ١٩٣-١٩٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٢٨٤) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٦١) وعون المعبود (٩/ ٣٧١).

ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين، وأعط كل ذي حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئًا واحدًا.

المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام. قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]. فذكر هذين النبيَّيْن الكريمين، وأثنى عليهما بالعلم والحكم، وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة.

وقال علي بن أبي طالب ـ وقد سئل: «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟» ـ فقال: «لا، والذي فَلَق الحبة وبرأ النَّسمة، إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه، وما في هذه الصحيفة، وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يُقْتَلَ مسلم بكافر»[1].

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «والفهم الفهم فيما أُدلي إليك»[2] فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه، يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه وفهم أصل معناه.

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتى عُدَّ ألف بواحد، فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ وما خص ابن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٤٧) ومسلم (رقم ١٣٧٠) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٦١)، وعمدة القاري (١٤/ ٣١، ٢٩٥) (٢٤/ ٦٦، ٧٣).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٥ رقم ٢٠١٣٤) (١٠/ ١٥٠ رقم ٢٠٣٢٤) والدارقطني (٤/ ٢٠٦ رقم ١٥، ١٦) وعمر بن شبة في أخبار المدينة (رقم ١٣٢٥) وانظر: الاستذكار (٧/ ١٠٣) والحجة (٢/ ٥٧٠) وتاريخ مدينة دمشق (٣٢/ ٧٠-٧١) والإحكام لابن حزم (٧/ ٤٤٢) وسبل السلام (٤/ ١١٩).

عباس من فهمه منها «أنها نَعْي الله سبحانه نبيه إلى نفسه» وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك(١)، وخفائه عن غيرهما من الصحابة، وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنًّا، وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله، لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره، ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه، وأما في حق صاحب الفهم: فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها.

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام: وهو تبيين الحق وتميزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهودًا للقلب، كشهود العين للمرئيات.

وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه، التي لا يعذب أحدًا ولا يضله إلا بعد وصوله إليها، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥].

فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدًا قط إلا بعد هذا البيان. وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب، وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥]، فالأول: كفر عناد: والثاني: كفر طبع، وقوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٠] فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه، بأن قلَّب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل، فإنه موضع عظيم.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٩٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ٢٠).

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]، فهذا هدىً بعد البيان والدلالة، وهو شرط لا موجب، فإنه إن لم يقترن به هدىً آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء، وهو هدى التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوَّه، وبيان بالآيات المشهودة المرئية، وكلاهما أدلة على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه، ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر في آياته المشهودة ويحضهم على التفكر في هذه وهذه، وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل، وجُعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، وبعد ذلك يضل الله من يشاء. قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]. فالرسل تبين، والله هو الذي يضل من يشاء، ويهدي من يشاء بعزته وحكمته.

المرتبة السابعة: البيان الخاص، وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية البتة. قال تعالى في هذه المرتبة: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧]. وقال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦] فالبيان الأول شرط، وهذا موجب.

المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ١٩-٢٣].

وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ، فإن ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجة عليهم، لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب، فإن الكلام له لفظ

ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب، وتعلق بهما. فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب، فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء: ٢].

وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها، وأما مقصود السماع وثمرته، والمطلوب منه: فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلاً للحاضر معه: ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [محمد: ١٦].

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام: أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن، ومرتبة الإفهام أعم، فهي أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه.

ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر، وهي أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته. ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب ويترتب على هذا السماع سماع القبول.

فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن، وسماع القلب، وسماع القبول والإجابة.

المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس:٧، ٨] وقال النبي ﷺ: «**قل: اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي**»(١). وقد جعل صاحب المنازل «الإلهام» هو مقام المحدثين.

قال: وهو فوق مقام الفراسة، لأن الفراسة ربما وقعت نادرة، واستصعبت على صاحبها وقتًا، أو استعصت عليه، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد.

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٨٣) وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٤/ ٣٢٣ رقم ٢٣٥٥) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٨٠ رقم ١٩٨٥) وفي الكبير (١٨/ ١٧٤ رقم ٣٩٦) والبزار (٩/ ٥٣ رقم ٣٥٨٠) وانظر: الوابل الصيب (ص٢٣٣) وتحفة الأحوذي (٩/ ٣٢٠).

قلت: التحديث أخص من الإلهام، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان. فأما التحديث: فالنبي ﷺ قال فيه: «إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر» يعني من المحدثين، فالتحديث إلهام خاص، وهو الوحي إلىٰ غير الأنبياء. إما من المكلفين، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]. وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾ [المائدة: ١١١]. وإما من غير المكلفين، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]، فهذا كله وحي إلهام.

وأما جعله فوق مقام الفراسة: فقد احتج عليه بأن الفراسة ربما وقعت نادرة كما تقدم، والنادر لا حكم له، وربما استعصت علىٰ صاحبها، واستصعبت عليه، فلم تطاوعه، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد، يعني في مقام القرب والحضور.

والتحقيق في هذا: أن كل واحد من «الفراسة» و«الإلهام» ينقسم إلىٰ عام وخاص، وخاص كل واحد منهما فوق عام الآخر، وعام كل واحد قد يقع كثيرًا، وخاصه قد يقع نادرًا، ولكن الفرق الصحيح: أن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل وأما الإلهام فموهبة مجردة، لا تنال بكسب البتة.

قال: وهو علىٰ ثلاث درجات:

الدرجة الأولىٰ: نبأ يقع وحيًا قاطعاً مقرونًا بسماع، إذ مطلق النبأ الخبر الذي له شأن، فليس كل خبر نبأ، وهو نبأ خبر عن غيب معظم. ويريد بالوحي والإلهام: الإعلام الذي يقع من وصل إليه بموجبه، إما بواسطة سمع، أو هو الإعلام بلا واسطة.

قلت: أما حصوله بواسطة سمع: فليس ذلك إلهامًا، بل هو من قبيل الخطاب، وهذا يستحيل حصوله لغير الأنبياء، وهو الذي خُصَّ به موسىٰ، إذ كان المخاطب هو الحق ﷻ. وأما ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع: فهو من أحد وجوه ثلاثة لا رابع لها.

أعلاها: أن يخاطبه الملك خطابًا جزئيًّا، فإن هذا يقع لغير الأنبياء، فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام، فلما اكتوىٰ تركت خطابه، فلما ترك الكي عاد إليه خطاب ملكي، وهو نوعان:

أحدهما: خطاب يسمعه بأذنه، وهو نادر بالنسبة إلىٰ عموم المؤمنين.

والثاني: خطاب يلقىٰ في قلبه يخاطب به الملك روحه، كما في الحديث المشهور: «**إن للملك لمة بقلب ابن آدم، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان: إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد**» ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨]. وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢] قيل: في تفسيرها: قووا قلوبهم، وبشروهم بالنصر.

وقيل: احضروا معهم القتال، والقولان حق، فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم، ومن هذا الخطاب: واعظ الله ﷻ في قلوب عباده المؤمنين.

كما في جامع الترمذي ومسند أحمد من حديث النواس بن سمعان عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالىٰ ضرب مثلاً: صراطًا مستقيمًا، وعلىٰ جنبتي الصراط سوران، لهما أبواب مفتحة، وعلىٰ الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو علىٰ رأس الصراط، وداع يدعو فوق الصراط، فالصراط المستقيم: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، فلا يقع أحد في حد من حدود الله حتىٰ يكشف الستر، والداعي علىٰ رأس الصراط: كتاب الله، والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن**»[1] فهذا الوعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة. وأما وقوعه بغير

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٥٩) وحسنه والحاكم (١/ ١٤٤ رقم ٢٤٥) وصححه وأحمد (٤/ ١٨٢) والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ١٧٧ رقم ٢٠٢٤) وحسنه المنذري في الترغيب (٣/ ١٧١ رقم ٣٥٣٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٤٥ رقم ٧٢١٦) وابن أبي عاصم في السنة (رقم ١٩) والمروزي في السنة (رقم ١٦).

واسطة، فمما لم يتبين بعد، والجزم فيه بنفي أو إثبات موقوف على الدليل، والله أعلم.

النوع الثاني من الخطاب المسموع: خطاب الهواتف من الجان، وقد يكون المخاطب جنيًّا مؤمنًا صالحاً، وقد يكون شيطانًا، وهذا أيضًا نوعان:

أحدهما: أن يخطابه خطاباً يسمعه بأذنه.

والثاني: أن يلقى في قلبه عندما يلمُّ به، ومنه وعده وتمنيته حين يعدُ الإنسي ويمنيه،ويأمره وينهاه، كما قال تعالى: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١٢٠]، وقال: ﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وللقلب من هذا الخطاب نصيب، وللأذن أيضًا منه نصيب، والعصمة منتفية إلا عن الرسل ومجموع الأمة.

فمن أين للمخاطب أن هذا الخطاب رحماني، أو ملكي؟ بأي برهان؟ أو بأي دليل؟ والشيطان يقذف في النفس وحيه، ويلقى في السمع خطابه، فيقول المغرور المخدوع «قيل لي، وخوطبت» صدقت، لكن الشأن في القائل لك والمخاطِب، وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ لغيلان بن سلمة ـ هو من الصحابة لما طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه ـ: «إني لأظن الشيطان ـ فيما يسترق من السمع ـ سمع بموتك، فقذفه في نفسك»[1] فمن يأمن القراء بعدك يا شهر؟.

المرتبة العاشرة من مراتب الهداية: الرؤيا الصادقة، وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»[2].

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٩/ ٤٦٣ رقم ٤١٥٦) وفي موارد الظمآن (رقم ١٢٧٧) وعبد الرزاق (٧/ ٦٦ رقم ١٢٢١٦) وأبو يعلى (٩/ ٣٢٥ رقم ٥٤٣٧) وأحمد (٢/ ١٤) والطبراني في مسند الشاميين (٤/ ٢٣٢ رقم ٣١٦٠)، قال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٤/ ٢٣٤): والموقوف على عمر هو الذي حكم البخاري بصحته عن الزهري عن سالم عن أبيه، بخلاف أول القصة.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٩٨٩) ومسلم (رقم ٢٢٦٣) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٦٢-٣٧٤) وشرح النووي (١٥/ ٢٠-٢١) وعمدة القاري (٧/ ١٧٠) (٩/ ٢٠٢) (٢٤/ ١٣١-١٤١).

وقد قيل: في سبب هذا التخصيص المذكور: إن أول مبتدأ الوحي كان هو الرؤيا الصادقة، وذلك نصف سنة، ثم انتقل إلى وحي اليقظة مدة ثلاث وعشرين سنة، من حين بعث إلى أن توفي، صلوات الله وسلامه عليه، فنسبة مدة الوحي في المنام من ذلك، جزء من ستة وأربعين جزءًا، وهذا حسن، لولا ما جاء في الرواية الأخرى الصحيحة: «**إنها جزء من سبعين جزءًا**»[(١)].

وقد قيل: في الجمع بينهما: إن ذلك بحسب حال الرائي، فإن رؤيا الصديقين من ستة وأربعين، ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين، والله أعلم.

والرؤيا: مبدأ الوحي، وصدقها بحسب صدق الرائي، وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثًا، وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطئ، كما قال النبي ﷺ، وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها، فيتعوض المؤمنون بالرؤيا، وأما في زمن قوة نور النبوة: ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا. ونظير هذه الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة، ولم تظهر عليهم، لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم، واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم، وقد نص أحمد على هذا المعنى.

وقال عبادة بن الصامت: «**رؤيا المؤمن كلام، يكلم به الرب عبده في المنام**»[(٢)].

وقد قال النبي ﷺ: «**لم يبق من النبوة إلا المبشرات**»، قيل: وما المبشرات، يا رسول الله؟ قال: «**الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو تُرى له**»[(٣)] وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٦٥) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٦٢) وشرح النووي (١٥/ ٢١) وعمدة القاري (٢٤/ ١٣١) والتمهيد (١/ ٢٨١-٢٨٢).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة مرفوعًا إلى النبي ﷺ (٨/ ٢٧٥ رقم ٣٣٧) والديلمي في الفردوس (٢/ ٢٧٢ رقم ٣٢٦٥) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٣٩٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٧٤): رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه. وانظر: فتح البخاري (١٢/ ٣٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٩٩٠) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٧٥) وعمدة القاري (٢٤/ ١٣٤) والتمهيد (٥/ ٥٥) وشرح الزرقاني (٤/ ٤٥١) وعون المعبود (١١/ ٣١٢) وفيض القدير (٣/ ٥٦٧) (٥/ ٢٩٣).

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه لما أروا ليلة القدر في العشر الأواخر قال: «**أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر، فمن كان منكم متحريها فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان**»(١). والرؤيا كالكشف، منها رحماني، ومنها نفساني، ومنها شيطاني.

وقال النبي ﷺ: «**الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة، فيراه في المنام**»(٢).

والذي هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التي من الله خاصة. ورؤيا الأنبياء وحي، فإنها معصومة من الشيطان، وهذا باتفاق الأمة، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا. وأما رؤيا غيرهم: فتعرض على الوحي الصريح، فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة، أو تواطأت؟

قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي، بل لا تكون إلا مطابقة له، منبهة عليه، أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمه، لم يعرف الرائي اندراجها فيه، فيتنبه بالرؤيا على ذلك. ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال، والمحافظة على الأمر والنهي، ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة، يذكر الله حتى تغلبه عيناه، فإن رؤياه لا تكاد تكذب البتة.

وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار، فإنه وقت النزول الإلهي، واقتراب الرحمة والمغفرة، وسكون الشياطين، وعكسه رؤيا العتمة، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية. وقال عبادة بن الصامت ﷺ: «**رؤيا المؤمن كلام، يكلم به الرب عبده في**

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٥٨) ومسلم (رقم ١١٦٥) إلا أن عنده: «في السبع الأواخر» وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٨٠) وعمدة القاري (١١/ ١٣١) (٢٤/ ١٣٧) والتمهيد (٢١/ ٢١٥) (٢٢/ ٢٩٥) (٢٣/ ٣٨٢-٣٨٣) والمغني (٣/ ٦٠) وسبل السلام (٢/ ١٧٥) ونيل الأوطار (٤/ ٣٧١).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٦٣) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٤٠٧) والتمهيد (١/ ٢٨٦-٢٨٧) وعون المعبود (١٣/ ٢٤٦).

المنام». وللرؤيا ملك مؤكل بها، يُريها العبد في أمثال تناسبه وتشاكله، فيضربها لكل أحد بحسبه. وقال مالك: «الرؤيا من الوحي وحي» وزَجَر عن تفسيرها بلا علم، وقال: «أتتلاعب بوحي الله».

ولذكر الرؤيا وأحكامها وتفاصيلها وطرق تأويلها مظان مخصوصة بها، يخرجنا ذكرها عن المقصود، والله أعلم.

فصل في بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين: شفاء القلوب، وشفاء الأبدان.

فأما اشتمالها على شفاء القلوب: فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال، فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم، وفساد القصد. ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلال والغضب. فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد.

وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها، فهداية الصراط المستقيم: تتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية: أفرض دعاء على كل عبد، وأوجبه عليه كل يوم وليلة، في كل صلاة، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.

والتحقق بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ علمًا ومعرفة، وعملاً وحالاً، يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل، فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسدًا.

وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبة غير الله وعبوديته: من المشركين، ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل، فإذا جاء الحق معارضًا في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بدًّا أعطوه السكة والخطبة وعزلوه عن التصرف والحكم

والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم، وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين، لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم، وانتصارهم به ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۝ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات، وهم أعظم الناس ندامة وتحسرًا، إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح، والسعادة، وهذا يظهر كثيرًا في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء، إذا حقت الحقائق، وفاز المحقون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فياله هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه.

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه، فحاله أيضًا كحال هذا، وكلاهما فاسد القصد، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾.

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء:

(١) عبودية الله لا غيره.

(٢) بأمره وشرعه.

(٣) لا بالهوى.

(٤) ولا بآراء الرجال وأوضاعهم، ورسومهم، وأفكارهم.

(٥) بالاستعانة على عبوديته به.

(٦) لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هي أجزاء ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإذا ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر. ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولابد، وهما الرياء، والكبر، فدواء الرياء بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء الكبر بـ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ومن مرض الكبرياء والعجب بـ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه و﴿ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحُق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين: أن يُستَشْفَى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، كما سنبينه، فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله[(١)] كلامه، وفهمت عنه فهمًا خاصًّا، اختصها به، من معاني هذه السورة. وسنبين ـ إن شاء الله تعالى ـ تضمنها للرد على جميع أهل البدع بأوضح البيان وأحسن الطرق.

وأما تضمنها لشفاء الأبدان، فنذكر منه ما جاءت به السنة، وما شهدت به قواعد الطب، ودلت عليه التجربة.

---

(١) كذا في الأصل، والظاهر أن الواو زائدة (ج).

فأما ما دلت عليه السنة: ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري «أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ مروا بحي من العرب، فلم يقروهم، ولم يضيفوهم، فلُدغ سيد الحي، فأتوهم، فقالوا: هل عندكم من رُقية، أو هل فيكم من راقٍ؟ فقالوا: نعم، ولكنكم لم تقرونا، فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً، فجعلوا لهم على ذلك قطيعاً من الغنم، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب، فقام كأن لم يكن به قلبة، فقلنا: لا تعجلوا حتى نأتي النبي ﷺ، فأتيناه فذكرنا له ذلك، فقال: «**ما يدريك أنها رقية؟ كلوا، واضربوا لي معكم بسهم**»[(١)] فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه، فأغنته عن الدواء وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء. هذا مع كون المحل غير قابل، إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم فكيف إذا كان المحل قابلاً.

وأما شهادة قواعد الطب بذلك: فاعلم أن اللدغة تكون من ذوات الحمات والسموم، وهي ذوات الأنفس الخبيثة، التي تتكيف بكيفية غضبية، تثير فيها سمية نارية، يحصل بها اللدغ، وهي متفاوتة بحسب تفاوت خبث تلك النفوس وقوتها وكيفيتها، فإذا تكيفت أنفسها الخبيثة بتلك الكيفية الغضبية أحدث لها ذلك طبيعة سمية، تجد راحة ولذة في إلقائها إلى المحل القابل، كما يجد الشرير من الناس راحة ولذة في إيصال شره إلى من يوصله إليه.

وكثير من الناس لا يهنأ له عيش في يوم لا يؤذي فيه أحدًا من بني جنسه، ويجد في نفسه تأذيًا بحمل تلك السمية والشر الذي فيه، حتى يفرغه في غيره، فيبرد عند ذلك أنينه، وتسكن نفسه، ويصيبه في ذلك نظير ما يصيب من اشتدت شهوته إلى الجماع، فيسوء خلقه وتثقل نفسه حتى يقضي وطره، هذا في قوة الشهوة، وذاك في قوة الغضب.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٤٩) ومسلم (رقم ٢٢٠١) وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٥٧) وشرح النووي (١٤/ ١٨٨) وعمدة القاري (١٢/ ٩٨-١٠٠) والتمهيد (٢١/ ١١٣) وتحفة الأحوذي (٦/ ١٩٠-١٩٣).

وقد أقام الله تعالى بحكمته السلطان وازعًا لهذه النفوس الغضبية[١]، فلولا هو لفسدت الأرض وخربت ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وأباح الله ـ بلطفه ورحمته ـ لهذه النفوس من الأزواج وملك اليمين ما يكسر حدتها.

والمقصود أن هذه النفوس الغضبية إذا اتصلت بالمحل القابل أثرت فيه، ومنها ما يؤثر في المحل بمجرد مقابلته له، وإن لم يمسه، فمنها ما يطمس البصر، ويسقط الحبل[٢]. ومن هذا نظر العائن، فإنه إذا وقع بصره على المعين حدثت في نفسه كيفية سمية أثرت في المعين بحسب عدم استعداده، وكونه أعزل من السلاح، وبحسب قوة تلك النفس.

وكثير من هذه النفوس يؤثر في المعين إذا وصف له، فتتكيف نفسه وتقابله على البعد فيتأثر به، ومنكر هذا ليس معدودًا من بني آدم إلا بالصورة والشكل.

فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التي فيها غضب وحمية للحق هذه النفوس الخبيثة السمية، وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها، وما تضمنته من التوحيد والتوكل، والثناء على الله، وذكر أصول أسمائه الحسنى، وذكر اسمه الذي ما ذكر على شر إلا أزاله ومحقه، ولا على خير إلا نماه وزاده، دفعت هذه النفس بما تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية، فحصل البرء.

فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده، وحفظ الشيء بمثله، فالصحة تحفظ بالمثل، والمرض يدفع بالضد، أسباب ربطها بمسبباتها الحكيم العليم خلقًا وأمرًا،

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٣/ ٦٠): وفي الحديث: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

(٢) فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «اقتلوا ذا الطفيتين، فإنه يلتمس البصر ويصيب الحبل» وأخرجه البخاري (رقم ٣٣٠٨) ومسلم (رقم ٢٢٣٢) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٤٨).

ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة، وقبول من الطبيعة المنفعلة، فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية، ولم تقو نفس الراقي على التأثير، لم يحصل البرء.

فهنا أمور ثلاثة: موافقة الدواء للداء، وبذل الطبيب له، وقبول طبيعة العليل، فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء، وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولابد بإذن الله ﷻ.

ومن عرف هذا كما ينبغي تبين له أسرار الرقي، وميز بين النافع منها وغيره، ورقى الداء بما يناسبه من الرقى، وتبين له أن الرقية براقيها وقبول المحل، كما أن السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع، وهذه إشارة مطلعة على ما وراءها لمن دق نظره، وحسن تأمله، والله أعلم.

وأما شهادة التجارب بذلك، فهي أكثر من أن تذكر، وذلك في كل زمان، وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أمورًا عجيبة، ولاسيما مدة المقام بمكة، فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة، بحيث تكاد تقطع الحركة مني، وذلك في أثناء الطواف وغيره، فأبادر إلى قراءة الفاتحة، وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط، جربت ذلك مراراً عديدة، وكنت آخذ قدحًا من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مراراً فأشربُهُ فأجدُ بِهِ من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء، والأمر أعظم من ذلك، ولكن بحسب قوة الإيمان، وصحة اليقين، والله المستعان.

فصل في اشتمال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل، والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة.

وهذا يعلم بطريقين: مجمل، ومفصل:

أما المجمل: فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق وإيثاره، وتقديمه على غيره، ومحبته والانقياد له، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان.

والحق: هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما جاء به علمًا وعملاً في باب صفات الرب سبحانه، وأسمائه وتوحيده، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وفي حقائق الإيمان، التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى، وكل ذلك مسلَّم إلى

رسول الله ﷺ، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم.

فكل علم أو عمل أو حقيقة، أو حال أو مقام خرج من مشكاة نبوته، وعليه السكة المحمدية، بحيث يكون من ضرب المدينة، فهو من الصراط المستقيم، وما لم يكن كذلك فهو من صراط الغضب والضلال، فما ثَمَّ خروج عن هذه الطرق الثلاث:

طريق الرسول ﷺ وما جاء به.

وطريق أهل الغضب، وهي طريق من عرف الحق وعانده.

وطريق أهل الضلال: وهي طريق من أضله الله عنه.

ولهذا قال عبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله ﷺ: «الصراط المستقيم: هو الإسلام»[١]. وقال عبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: «هو القرآن»[٢]. وفيه حديث مرفوع في الترمذي وغيره، وقال سهل بن عبد الله: «طريق السنة والجماعة» وقال بكر بن عبد الله المزني: «طريق رسول الله ﷺ».

ولا ريب أن ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه علمًا وعملاً وهومعرفة الحق وتقديمه، وإيثاره على غيره، فهو الصراط المستقيم.

وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له. فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ما خالفه فباطل، وهو من صراط الأمتين: الأمة الغضبية، وأمة أهل الضلال[٣].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٧٥) والحاكم (٢/ ٢٨٤ رقم ٣٠٢٤) (٢/ ٤٨٤ رقم ٣٦٦٨) وصححه في الموضعين والمروزي في السنة (رقم ٢٥) وانظر: الدر المنثور (١/ ٣٨) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١١٢٥ رقم ٦٣٢٧) (٤/ ١٢٨٧ رقم ٧٢٦٥) والحاكم (٢/ ٢٨٤ رقم ٣٠٢٣) والمروزي (رقم ٢٤).

(٣) تفصيل الرد على المبطلين، وهم أنواع كثيرة من ملاحدة وجبرية وجهمية وغيرهم تركناه اختصاراً ما عدا الرافضة، وهو موجود في الأصل من المدارج الجزء الأول لمن أراده (ج).

[(١)]فصل في بيان تضمنها للرد على الرافضة وذلك من قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] إلى آخرها. ووجه تضمنه إبطال قولهم: إنه سبحانه قسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

«منعم عليهم» وهم أهل الصراط المستقيم، الذين عرفوا الحق واتبعوه.

و«مغضوب عليهم» وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه.

و«ضالون» وهم الذين جهلوه فأخطؤوه.

فكل من كان أعرف للحق، وأتبع له: كان أولى بالصراط المستقيم.

ولا ريب أن أصحاب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم: هم أولى بهذه الصفة من الروافض، فإنه من المحال أن يكون أصحاب رسول الله ﷺ ـ ورضي الله عنهم ـ جهلوا الحق وعرفه الروافض، أو رفضوه وتمسك به الروافض.

ثم إنا رأينا آثار الفريقين تدل على أهل الحق منهما، فرأينا أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا بلاد الكفر، وقلبوها بلاد إسلام، وفتحوا القلوب بالقرآن والعلم والهدى، فآثارهم تدل على أنهم هم أهل الصراط المستقيم.

ورأينا الرافضة بالعكس في كل زمان ومكان، فإنه قطُّ ما قام للمسلمين عدو من غيرهم إلا كانوا أعوانهم على الإسلام، وكم جَرُّوا على الإسلام وأهله من بليَّة!! وهل عاثت سيوف المشركين عُبّاد الأصنام ـ من عسكر هولاكو وذويه من التتار ـ إلا من تحت رءوسهم؟ وهل عطلت المساجد، وحرقت المصاحف، وقتل سروات المسلمين وعلماؤهم وعبادهم وخليفتهم، إلا بسببهم ومن جَرّائهم؟ ومظاهرتهم للمشركين والنصارى معلومة عند الخاصة والعامة، وآثارهم في الدين معلومة، فأي الفريقين أحق بالصراط المستقيم؟ وأيهم أحق بالغضب والضلال، إن كنتم تعلمون.

ولهذا فسر السلف الصراط المستقيم وأهله: بأبي بكر وعمر، وأصحاب رسول

(١) ٧٢ مدارج جـ١.

الله ﷺ، ورضي الله عنهم، وهو كما فسروه، فإنه صراطهم الذي كانوا عليه، وهو عين صراط نبيهم، وهم الذين أنعم الله عليهم، وغضب على أعدائهم، وحكم لأعدائهم بالضلال.

وقال أبو العالية ـ رفيع الرياحي ـ والحسن البصري، وهما من أجل التابعين: «الصراط المستقيم: رسول الله ﷺ وصاحباه»[١].

وقال أبو العالية أيضًا في قوله ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾: «هم آل رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر»، وهذا حق، فإن آله وأبا بكر وعمر على طريق واحدة، ولا خلاف بينهم، وموالاة بعضهم بعضًا، وثناؤهم عليهما، ومحاربة من حاربا، ومسالمة من سالما: معلومة عند الأمة، خاصها وعامها.

وقال زيد بن أسلم: «الذين أنعم الله عليهم: هم رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر» ولا ريب أن المنعم عليهم: هم أتباعه، والمغضوب عليهم: هم الخارجون عن اتباعه، وأتبع الأمة له وأطوعهم: أصحابه وأهل بيته، و أتبع الصحابة له: السمع والبصر، أبو بكر وعمر، وأشد الأمة مخالفة له: هم الرافضة، فخلافهم له معلوم عند جميع فرق الأمة، ولهذا يبغضون السنة وأهلها، ويعادونها ويعادون أهلها، فهم أعداء سنته ﷺ، وأهل بيته وأتباعه من بنيهم أكمل ميراثًا، بل هم ورثته حقًّا. فقد تبين أن الصراط المستقيم، طريق أصحابه وأتباعه، وطريق أهل الغضب والضلال: طريق الرافضة. وبهذه الطريق ـ بعينها ـ يرد على الخوارج، فإن معاداتهم الصحابة معروفة.

وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب: انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٧٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٧٢١ رقم ٣٩٠٥) (٣/ ٩٩٧ رقم ٥٥٧٣) والمروزي في السنة (رقم ٢٧) والحاكم (٢/ ٢٨٤ رقم ٣٠٢٥) وصححه. وابن عدي في الكامل (٣/ ١٦٣) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٨/ ١٧٠). وانظر: الدر المنثور (١/ ٤٠) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٩).

كتب، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين، فنصفهما له تعالى وهو ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ونصفهما لعبده وهو: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه.

و«العبادة» تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع. والعرب تقول: طريق معبد أي مذلل، والتعبد: التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابدًا له، ومن خضت له بلا محبة، لم تكن عابدًا له، حتى تكون محبًّا خاضعًا[1].

ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبًا لهم، بل هو غاية مطلوبهم ـ ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم ـ: منكرين لكونه إلهاً، وإن أقروا بكونه ربًّا للعالمين وخالقًا لهم، فهذا غاية توحيدهم، وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]. وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٨]، ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ...﴾ إلى قوله: ﴿... سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩] ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه.

و«الاستعانة» تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره ـ مع ثقته به ـ لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه ـ مع عدم ثقته به ـ لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٦) وعمدة القاري (١/ ٢٨٥) وفيض القدير (١/ ٥٠) (٦/ ٧٣) ومختار الصحاح (ص ١٧٢).

و«التوكل» معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وهذان الأصلان ـ وهما التوكل، والعبادة ـ قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها، هذا أحدها.

والثاني: قول شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

والخامس: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝﴾ [المزمل: ٨، ٩].

السادس: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، و«الاستعانة» وسيلة إليها. ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه «الله». و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه «الرب» فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة. ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به. و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكان من الشطر الذي له، وهو ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة.

ولأن «العبادة» المطلقة: تتضمن «الاستعانة» من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة: مستعين به ولا ينعكس، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على

شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت قسم الرب.

ولأن «الاستعانة» جزء من «العبادة» من غير عكس، ولأن «الاستعانة» طلب منه، و«العبادة» طلب له، ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، و«الاستعانة» تكون من مخلص ومن غير مخلص، ولأن «العبادة» حقه الذي أوجبه عليك، و«الاستعانة» طلب العون على العبادة. وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه: أهم من التعرض لصدقته.

ولأن «العبادة» شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، و«الإعانة» فعله بك وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقِّهَا أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببًا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

و«العبودية» محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبدًا، حتى يقضي العبد نحبه.

ولأن ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ له، و﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ به، وما له مقدم على ما به. ولأن ما له متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي، والمتعلق بمحبته، طاعاتهم وإيمانهم، فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدًا، وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته.

فبهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص، المسمى بالحصْر فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدمًا، وسيبوبه نص على الأهم، ولم ينف

غيره. ولأنه يقبح من القائل: أن يعتق عشرة أعبد مثلاً، ثم يقول لأحدهم: إياك أعتقت، ومن سمعه أنكر ذلك عليه، وقال: وغيره أيضًا أعتقت، ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام، ولا حسن إنكاره.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠]، و﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤١] كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي؟ وكذلك ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ هو في قوة: لا نعبد غيرك ولا نستعين بسواك، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق.

ولا عبرة بجدل من قلَّ فهمه، وفتح عليه باب الشك والتشكيك، فهؤلاء هم آفة العلوم، وبلية الأذهان والفهوم، مع أن في ضمير «إِيَّاكَ» من الإشارة إلى نفس الذات والحقيقة ما ليس في الضمير المتصل، ففي: إياك قصدت، وأحببت: من الدلالة على معنى: حقيقتك وذاتك قصدي، ما ليس في قولك: قصدتك وأحببتك، وإياك أعني، فيه معنى: نفسك وذاتك وحقيقتك أعني.

ومن ههنا قال من قال من النحاة: إن «إيَّا» اسم ظاهر مضاف إلى الضمير المتصل، ولم يردَّ عليه بردٍّ شاف.

ولولا أنَّا في شأن وراء هذا لأشبعنا الكلام في هذه المسألة، وذكرنا مذاهب النحاة فيها، ونصرنا الراجح، ولعلنا أن نعطف على ذلك بعون الله.

وفي إعادة «إياك» مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين، ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه، فإذا قلت للملك مثلاً: إياك أحب، وإياك أخاف، كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته، والاهتمام بذكره، ما ليس في قولك: إياك أحب وأخاف. إذا عرفت هذا؛ فالناس في هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام:

أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعنيهم عليها، ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب

تبارك وتعالى: الإعانة على مرضاته، وهو الذي علَّمه النبي ﷺ، لِحِبِّه معاذ بن جبل ﷺ، فقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دُبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[١].

فأنفع الدعاء: طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

ومقابل هؤلاء: القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السماوات والأرض: يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمدُّ هؤلاء وهؤلاء. وأبغض خلقه: عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها، ولكن لما لم تكن عونًا له على مرضاته، كانت زيادة له في شقوته، وبعده عن الله وطرده عنه. وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عونًا على طاعته: كان مبعدًا له عن مرضاته، قاطعًا له عنه ولابد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ١٥٢٢) والحاكم (١/ ٤٠٧ رقم ١٠١٠) وابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٦٤ رقم ٢٠٢٠) وابن خزيمة (١/ ٣٦٩ رقم ٧٥١) والبيهقي في الصغرى (رقم ١٧) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٦) (٦/ ٣٢ رقم ٩٩٣٧) في الصغرى (رقم ١٣٠٣) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٠ رقم ١١٠) والبزار (٥/ ٤٣٨ رقم ٢٠٧٥) وعبد بن حميد (١/ ٧١ رقم ١٢٠) وصححه الحاكم، وقال الزيلعي في نصب الراية (٢/ ٢٣٥): قال النووي في الخلاصة: إسناده صحيح.

له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظًا، لا بخلاً. وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه. فيظن ـ بجهله ـ أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله والإنسان على نفسه بصيره، وعلامة هذا حمله على الأقدار، وعتابه الباطن لها، كما قيل:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا[(١)]

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمر ليس إليَّ؟ والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئًا معينًا خيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لم نجد من سؤاله بُدًّا، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، بل إن وُكل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عونًا لك على طاعته وبلاغًا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته. ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه؛ ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله وهو من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه، ولد بالبصرة وعاش فقيرًا صابرًا مغمورًا لا يعرف، ثم ذاع صيته باختراعه علم العروض، له كتاب العين في اللغة ومات سنة ١٧٠هـ في البصرة.
ذكر البيت ابن عبد ربه في العقد الفريد (١/ ١٠٣) والثعالبي في المنتحل (ص ٢٧٢) وابن عبد البر في بهجة المجالس (١/ ٦٧٤) وابن قتيبة في عيون الأخبار (١/ ٨٦).

أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الفجر: ١٥-١٧]. أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليّ، ولكنه ابتلاء مني، وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخوِّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه عليّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لإهانته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا وعلى هذا. وهو الغني الحميد.

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾.

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة، وهؤلاء نوعان:

أحدهما: القدرية، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره من إعانة له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة، فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء، ولكنَّ أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد، أوجب لهم الإيمان، وخذل هؤلاء بأمر آخر، أوجب لهم الكفر، فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة، لا استعانة معه، فهم موكولون إلى أنفسهم، مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض**

تكذيبه توحيده»[١].

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد: ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في ضمنه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير لها، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب، ومن الآلة إلى الفاعل، فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقل نصيبهم من «إياك نستعين» ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف، فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورًا بإزالته، لأزاله.

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير، والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مليٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مليان بهما، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما، فهذه حال المتوكل، و من كان هكذا مع الله، فالله كافيه ولابد. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٢٢٤) وابن المستفاض في القدر (رقم ٢٠٥) والعقيلي في الضعفاء (٤/ ١٤٥) وذكره الذهبي في السير (٥/ ٣٤٣) من قول ابن شهاب. وعزاه السيوطي في الدر (٢/ ٢٣) إلى ابن المنذر عن ابن عباس.

عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣]، أي كافيه. و«الحسب» الكافي، فإن كان ـ مع هذا ـ من أهل التقوىٰ كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوىٰ فهو.

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعان به علىٰ حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به، فقضيت له، وأسعف بها، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهًا عند الخلق، أو أحوالاً من كشف وتأثير وقوة وتمكين، ولكن لا عاقبة له، فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال، لا تستلزم الإسلام، فضلاً عن الولاية والقرب من الله، فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فمن استدل بشيء من ذلك علىٰ محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين، فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه، فالحال من الدنيا، فهو كالملك والمال، إن أعان صاحبه علىٰ طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره: ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال علىٰ صاحبه، ومبعد له عن الله، وملحق له بالملوك الظلمة، والأغنياء الفجرة.

إذا عرف هذا: فلا يكون العبد متحققًا بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إلا بأصلين عظيمين: أحدهما: متابعة الرسول ﷺ. والثاني: الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾. والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضًا إلىٰ أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة، هم أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ حقيقة، فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هربًا من ذمهم، بل قد عَدُّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعاً، ولا موتًا ولا حياة ولا نشوراً.

فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم: لا يكون من عارف بهم البتة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه.

فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم. وكذلك أعمالهم كلها وعباداتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي بلا عباده بالموت والحياة لأجله. قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك:٢]، وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض: «العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه»، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا: لم يقبل، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا، لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: ما كان لله. والصواب: ما كان على السنة(١). وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠]. وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه ـ أحوج ما هو إليه ـ هباء منثورًا. وفي الصحيح: من حديث عائشة عن النبي ﷺ: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٢). وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدًا، فإن الله تعالى إنما يُعبد بأمره، لا بالآراء والأهواء.

(١) انظر: حلية الأولياء (٨/ ٩٥) وجامع العلوم والحكم (١/ ٣٨).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٩٧) ومسلم (رقم ١٧١٨).

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة، فليس عمله موافقًا لشرع، وليس هو خالصًا للمعبود، كأعمال المتزينين للناس، المرائين لهم بما لم يشرع الله ورسوله، وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلى الله ﷻ، ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص، وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف ـ من المتسبين إلى العلم والفقر والعبادة ـ عن الصراط المستقيم، فإنهم يرتكبون البدع والضلالات، والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم، فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال العبَّاد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره، واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله، كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة، وأمثال ذلك.

الضرب الرابع: مَنْ أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله كطاعة المرائين، وكالرجل يقاتل ريا وحميَّة وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير صالحة، فلا تقبل ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥]. فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر، والإخلاص له في العبادة، وهم أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. ثم أهل مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق، فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها. قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد. قالوا: والأجر على قدر المشقة، ورووا حديثًا لا أصل له: «**أفضل الأعمال أحمزها**»(1) أي أصعبها وأشقها، وهؤلاء: هم أهل المجاهدات والجور على النفوس. قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك، إذ طبعها الكسل والمهانة، والإخلاد إلى الأرض، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، وإطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها، ثم هؤلاء قسمان: فعوامهم: ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه، ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها. وخواصهم: رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته، فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله، ودوام ذكره بالقلب واللسان، والاشتغال بمراقبته، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء: قسمان، فالعارفون المتبعون منهم: إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه، ولو فرَّقهم وأذهب جمعيتهم، والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية

---

(1) قال إبراهيم بن محمد الحسيني في البيان والتعريف (١/ ١٢١ رقم ٣١٠): أخرجه بمعناه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها ولفظه: «إنما أجرك على قدر نصبك». وهو في نهاية ابن الأثير بهذا اللفظ منسوب إلى ابن عباس رضي الله عنهما عنه بلفظ: سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: أحمزها، وهو بالمهملة والزاي: أي: أقواها وأشدها. وأنكر إسناده أبو الحجاج المزي، وقال المزي: هو من غرائب الأحاديث، ولم يرد في شيء من الكتب الستة.

وذكره الهروي في المصنوع (ص ٣٣) والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ١٧٥رقم ٤٥٩) وابن الأثير في النهاية (١/ ٤٤٠) وانظر: غريب الحديث لابن سلام (٤/ ٢٣٣) وغريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٢٧٠) وغريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٢٤٢) ولسان العرب (٥/ ٣٣٩) ومختار الصحاح (ص ٦٥) وعمدة القاري (٥/ ١٦٩) (٢٢/ ٢٩٣) وعون المعبود (١٤/ ١١٦).

القلب على الله، فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه، وربما يقول قائلهم:

يطالب بالأوراد من كان غافلاً ... فكيف بقلب كل أوقاته ورد؟

ثم هؤلاء أيضًا قسمان: منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته.

ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته.

وسأل بعض هؤلاء شيخًا عارفًا، فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله، فإن قمت وخرجت تفرقت، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي، فما الأفضل في حقي؟ فقال: إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم، وأجب داعي الله، ثم عد إلى موضعك،وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب، وإجابة الداعي حق الرب، ومن آثر حظ روحه على حق ربه فليس من أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها: ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل، فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله»[1]. رواه أبو يعلى، واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفاع متعد إلى الغير وأين أحدهما من الآخر؟ قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمْر النعم»[2] وهذا

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٣٥٦ رقم ٥٥٤١) وفي الكبير (١٠/ ٨٦ رقم ١٠٠٣٣) وأبو يعلى (٦/ ٦٥ رقم ٣٣١٥) (٦/ ١٠٦ رقم ٣٣٧٠) (٦/ ١٩٤ رقم ٣٤٧٨) والشاشي في مسنده (١/ ٤١٩ رقم ٤٣٥) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٥٥ رقم ١٣٠٥، ١٣٠٦) قال الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٥/ ٧٠٠ رقم ٩٧٧): تفرد به يوسف وهو ضعيف جدًا. وقال الحافظ الهيثمي في المجمع (٨/ ١٩١): رواه أبو يعلى والبزار وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو متروك، وقال أيضًا: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عمير وهو أبو هارون القرشي متروك.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٤٢، ٣٠٠٩) ومسلم (رقم ٢٤٠٦) وانظر: شرح النووي (١٥/ ١٧٨) وعمدة القاري (١٤/ ٢١٣-٢١٤) والتمهيد (٢/ ٢١٨).

التفضيل إنما للنفع المتعدي، واحتجوا بقوله ﷺ: «من دعا إلى هُدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[(١)]. واحتجوا بقوله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير»[(٢)]. وبقوله ﷺ: «إن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في البحر، والنملة في جحرها»[(٣)]. واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله، ما دام نفعه الذي نسب إليه[(٤)]. واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب، ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس[(٥)]، ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله، ونفع عباده، والإحسان إليهم، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٧٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٢٧) (١٣/ ٣٠٢) وشرح النووي (١٦/ ٢٢٦-٢٢٧) وعمدة القاري (٢٥/ ٥٣) والتمهيد (٢٤/ ٣٢٦) وتحفة الأحوذي (٧/ ٣٦٤) وتنوير الحوالك (١/ ١٧٠) وشرح الزرقاني (٢/ ٦٢) وعون المعبود (١٢/ ٢٣٦) وفيض القدير (٦/ ١٢٥-١٢٧).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٣/ ١١٦) وتمام في فوائده (٢/ ٩٨ رقم ١٢٤٣) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٢٤): رواه الطبراني في الكبير وفيه القاسم أبو عبد الرحمن وثقه البخاري وضعفه أحمد.

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في فضائل الأعمال (رقم ٥٧٦) وابن ماجه (رقم ٢٣٩) والترمذي (رقم ٢٦٨٥) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٣٤ رقم ٧٩١٢) وقال المنذري في الترغيب (١/ ٥٦ رقم ١٣٠): رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ونقل النووي في رياض الصالحين (ص ٣١٤) تحسين الترمذي.

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٦٣١) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٣٧) (١١/ ٥٨٤) (١٢/ ٤١١) وشرح النووي (١/ ٩٠) (١١/ ٨٥).

(٥) فعن أنس ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» أخرجه البخاري (رقم ٥٠٦٣) ومسلم (رقم ١٤٠١).

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.

فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل، والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن[1].

الأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك[2].

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك[3].

---

(١) فعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلّت له شفاعتي يوم القيامة» أخرجه البخاري (رقم ٦١٤).

(٢) فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه...» الحديث أخرجه مسلم (رقم ٢٦٩٩).

(٣) فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ نهى عن صوم يوم عرفة بعرفة، أخرجه أبو داود (رقم ٢٤٤٠) وابن ماجه (رقم ١٧٣٢)، والحاكم (١/ ٦٠٠ رقم ١٥٨٧) وصححه وابن خزيمة (٣/ ٢٩٢ رقم ٢١٠١).

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين(١).

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم(٢)، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه(٣)، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه(٤).

---

(١) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام العشر» قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء» أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٠ رقم ٣٢٤) وابن خزيمة (٤/ ٢٧٣ رقم ٢٨٦٥) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٢٨٤ رقم ٨١٧٥) والدارمي (رقم ١٧٧٣).

(٢) فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان أخرجه البخاري (رقم ٢٠٢٥) ومسلم (رقم ١١٧١).

(٣) فعن البراء بن عازب ﷺ قال: «أمرنا النبي ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع. أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القسم، ورد السلام، وتشميت العاطس...» الحديث أخرجه البخاري (رقم ١٢٣٩) ومسلم (رقم ٢٠٦٦).

(٤) فعن شيخ من أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٠٧) وابن ماجه (رقم ٤٠٣٢) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٨٩ رقم ١٩٩٦٢) والطبراني في الأوسط (٦/ ١٠٩-١١٠ رقم ٥٩٥٣) وابن الجعد في مسنده (رقم ٧٤٥) وأحمد (٢/ ٤٣) (٥/ ٣٦٥) والطيالسي (رقم ١٨٧٦) والبخاري في =

والأفضل خلطتهم في الخير، فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه. وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره.

فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد، رأيته معهم. وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم. وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم، فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه.

فهذا هو المتحقق بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ حقًّا، القائم بهما صدقًا، ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث

= الأدب المفرد (رقم ٣٨٨) وهناد في الزهد (٢/ ٥٨٨ رقم ١٢٤٦) وابن أبي الدنيا في مداراة الناس (رقم ١) وحسن إسناد ابن ماجه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٥١٢).

انتهى به المكان ووجده خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أني توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل مُحقٍّ، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكها(١)، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها، فواهًا له! ما أغربه بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان، وعليه التكلان.

ثم للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرق أربعة، وهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: نفاة الحكم والتعليل، الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة، وصرف الإرادة، فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر، من غير أن تكون سببًا لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سببًا لنجاة، وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة.

كما قالوا في الخلق: إنه لم يخلق ما خلقه لعلة، ولا لغاية هي المقصودة به، ولا

---

(١) فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي إنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هي النخلة» أخرجه البخاري (رقم ٦١) ومسلم (رقم ٢٨١١).

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ١٤٥-١٤٦): وبركة النخلة موجودة في جميع أجزائها، مستمرة في جميع أحوالها، فمن حين تطلع إلى أن تيبس تؤكل أنواعًا، ثم بعد ذلك ينتفع بجميع أجزائها، حتى النوى في علف الدواب، والليف في الحبال، وغير ذلك مما لا يخفى، وكذلك بركة المسلم عامة في جميع الأحوال، ونفعه مستمر له ولغيره حتى بعد موته.

لحكمة تعود إليه منه، وليس في المخلوقات أسباب مقتضيات لمسبباتها، ولا فيها قُوى ولا طبائع، فليست النار سببًا للإحراق، ولا الماء سببًا للإرواء والتبريد، وإخراج النبات، ولا فيه قوة ولا طبيعة تقتضي ذلك، وحصول الإحراق والري ليس بهما، لكن بإجراء العادة الاقترانية على حصول هذا عند هذا، لا بسبب ولا بقوة قامت به. وهكذا الأمر عندهم في أمره الشرعي سواء، لا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا، من غير أن يقوم بالمأمور به صفة اقتضت حسنه، ولا المنهي عنه صفة اقتضت قبحه.

ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة فاسدة، وقد ذكرناها في كتابنا الكبير المسمى «مفتاح دار السعادة ومطلب أهل العلم والإرادة»[1] وبينا فساد هذا الأصل من نحو ستين وجهاً وهو كتاب بديع في معناه، وذكرناه أيضًا في كتابنا المسمى «سفر الهجرتين، وطريق السعادتين»[2].

وهؤلاء لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها، ولا يتنعمون بها، وليست الصلاة قرة أعينهم، وليست الأوامر سرور قلوبهم، وغذاء أرواحهم وحياتهم، ولهذا يسمونها «تكاليف» أي قد كلفوا بها، ولو سمى مُدَّع لمحبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفًا، وقال: إني إنما أفعله بكلفة: لم يعده أحد محبًا له. ولهذا أنكر هؤلاء ـ أو كثير منهم ـ محبة العبد لربه، وقالوا: إنما يحب ثوابه وما يخلقه له من النعيم الذي يتمتع به، لا أنه يحب ذاته، فجعلوا المحبة لمخلوقه دونه.

وحقيقة العبودية هي كمال المحبة، فأنكروا حقيقة العبودية ولُبَّها. وحقيقة الإلهية: كونه مألوهًا محبوبًا بغاية الحب المقرون بغاية الذل والخضوع، والإجلال

---

(١) هكذا سماه المصنف رحمه الله هنا بهذا الاسم، بينما اسم الكتاب المطبوع المتداول: «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة».

(٢) اسم الكتاب المطبوع المتداول بين الناس: «طريق الهجرتين وباب السعادتين» هكذا نص على اسمه في مقدمة الكتاب.

والتعظيم، فأنكروا كونه محبوبًا، وذلك إنكار لإلهيته.

وشيخ هؤلاء: هو الجعد بن درهم الذي ضحَّى به خالد بن عبد الله القسري في يوم أضحى، وقال: «إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً»(١).

وإنما كان إنكاره، لكونه تعالى محبوبًا محبًّا، لم ينكر حاجة إبراهيم إليه، التي هي الخلة عند الجهمية، التي يشترك فيها جميع الخلائق، فكلهم أخلاء الله عندهم.

وقد بينا فساد قولهم هذا وإنكارهم محبة الله من أكثر من ثمانين وجهًا في كتابنا «قرة عيون المحبين، وروضة قلوب العارفين»(٢) وذكرنا فيه وجوب تعلق المحبة بالحبيب الأول من جميع طرق الأدلة النقلية والعقلية والذوقية والفطرية وأنه لا كمال للإنسان بدون ذلك البتة، كما أنه لا كمال لجسمه إلا بالروح والحياة، ولا لعينه إلا بالنور الباصر، ولا لأذنه إلا بالسمع، وأن الأمر فوق ذلك وأعظم.

الصنف الثاني: القدرية النفاة، الذين يثبتون نوعًا من الحكمة، والتعليل، ولكن لا يقوم بالرب، ولا يرجع إليه، بل يرجع إلى مجرد مصلحة المخلوق ومنفعته. فعندهم: أن العبادات شرعت أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير. قالوا: ولهذا يجعلها الله تعالى عوضًا كقوله: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقوله: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]، وقوله: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٠]. وقوله ﷺ ـ فيما يحكي عن ربه ﷻ ـ: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها»(٣)

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٥ رقم ٢٠٦٧٦) وأبو بكر النجاد في الرد على من يقول القرآن مخلوق (رقم ٧٢) والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ٦٤ رقم ١٤٣) والذهبي في السير (٥/ ٤٣٢) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٧١) (١٣/ ٣٤٥) ولسان الميزان (٢/ ١٠٥ رقم ٤٢٧) وميزان الاعتدال (٢/ ١٢٥ رقم ١٤٨٤) وتهذيب الكمال (٨/ ١١٨) وتاريخ مدينة دمشق (٥٢/ ٢٥٥).

(٢) اسم الكتاب المطبوع المتداول بين الناس: «روضة المحبين ونزهة المشتاقين».

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٧٧).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]. قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاء وأجرًا وثوابًا، لأنه يثوب إلىٰ العامل من عمل، أي يرجع إليه منه. قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاءً ولا أجرًا ولا ثواباً معنى. قالوا: ويدل عليه الوزن، فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها، وكونها كالأثمان لها، لم يكن للوزن معنى. وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل، وبينهما أعظم التباين.

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطًا بالجزاء البتة، وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره في طاعته، وينعم من أفنى عمره في معصيته، وكلاهما بالنسبة إليه سواء، وجوزت أن يرفع صاحب العمل القليل علىٰ من هو أعظم منه عملاً، وأكثر وأفضل درجات، والكل عندهم راجع إلىٰ محض المشيئة، من غير تعليل ولا سبب، ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب، وهذا بالعقاب.

والقدرية أوجبت علىٰ الله سبحانه رعاية الأصلح، وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمنًا لها، وأن وصول الثواب إلىٰ العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال منة الصدقة عليه بلا ثمن.

فقاتلهم الله: ما أجهلهم بالله وأغرَّهم به! جعلوا تفضله وإحسانه إلىٰ عبده بمنزلة صدقة العبد علىٰ العبد، حتىٰ قالوا: إن إعطاءه ما يعطيه أجرة علىٰ عمله أحب إلىٰ العبد وأطيب له من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة، ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء البتة.

والطائفتان جائرتان، منحرفتان عن الصراط المستقيم، الذي فطر الله عليه عباده، وجاءت به الرسل، ونزلت به الكتب.

وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلىٰ الثواب والعقاب، مقتضية لهما كاقتضاء سائر

الأسباب لمسبباتها. وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومنه، وصدقته على عبده، أن أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحبَّبها إليه، وزينها في قلبه، وكرَّه إليه أضدادها، ومع هذا فليست ثمنًا لجزائه وثوابه، ولا هي على قدره، بل غايتها ـ إذا بذل العبد فيها نُصحه وجهده، وأوقعها على أكمل الوجوه ـ أن تقع شكرًا له على بعض نعمه عليه، فلو طالبه بحقه لبقي عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها، فلذلك لو عذّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ[(١)].

ولهذا نفى ﷺ دخول الجنة بالعمل، كما قال: «**لن يدخل أحدًا منكم الجنة عمله**». وفي لفظ: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**». وفي لفظ: «**لن ينجي أحدًا منكم عمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[(٢)].

وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل، كما في قوله: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]. ولا تنافي بينهما إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد، فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال، وكون الأعمال ثمنًا وعوضًا لها، ردًّا على القدرية المجوسية، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله، وأغلظهم عنه حجابًا، وحُقَّ لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة[(٣)]. ويكفي في جهلهم بالله: أنهم لم يعلموا أن أهل سماواته وأرضه

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩) وابن ماجه (رقم ٧٧) وابن حبان في صحيحه (٢/ ٥٠٥-٥٠٦ رقم ٧٢٧) وفي الموارد (رقم ١٨١٧) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٤ رقم ٢٠٦٦٣) والطبراني في الكبير (٥/ ١٦٠ رقم ٤٩٤٠) (١٠/ ٢٣٢ رقم ١٠٥٦٤) (١٨/ ٢٢٣ رقم ٥٥٦) وأحمد (٥/ ١٨٢، ١٨٥، ١٨٩) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٨-١٩٩): رواه الطبراني بإسنادين ورجال هذه الطريق ثقات. وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٨٩).

(٣) فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**» أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٩١) وابن ماجه (رقم ٩٢) والبيهقي في الكبرى =

في منته، وأن من تمام الفرح والسرور، والغبطة واللذة: اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة، وأعظمهم منه منزلة، وأقربهم إليه: أعرفهم بهذه المنة، وأعظمهم إقراراً بها، وذكرًا لها، وشكرًا عليها، ومحبة له لأجلها، فهل يتقلب أحد قط إلا في منته؟

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

واحتمال منة المخلوق: إنما كانت نقصًا لأنه نظيره، فإذا مَنَّ عليه استعلى عليه، ورأى الممنون عليه نفسه دونه. هذا مع أنه ليس في كل مخلوق، فلرسول الله ﷺ المنة على أمته، وكان أصحابه يقولون: «الله ورسوله أمن»[(١)] ولا نقص في منة الوالد على ولده، ولا عار عليه في احتمالها، وكذلك السيد على عبده. فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق في بحر منته عليهم، ومحض صدقته عليهم، بلا عوض منهم ألبتة؟ وإن كانت أعمالهم أسبابًا لما ينالونه من كرمه وجوده، فهو المنان عليهم، بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها، وأعانهم عليها، وكملها لهم، وقبلها منهم على ما فيها؟ وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]. فهذه باء السببية، ردًّا على القدرية والجبرية، الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال والجزاء، ولا هي أسباب له، وإنما غايتها أن تكون أمارات. قالوا: وليست أيضًا مطردة، لتخلف الجزاء عنها في الخير والشر، فلم يبق إلا محض الأمر الكوني والمشيئة.

(١٠/ ٢٠٣ رقم ٢٠٦٥٨) والطبراني في الأوسط (٣/ ٦٥ رقم ٢٤٩٤) وفي الصغير (رقم ٦١٥، ٨٠٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٥): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير هارون بن موسى الغروي وهو ثقة، وانظر: عون المعبود (١٢/ ٢٩٥) وفيض القدير (١/ ٤٢١) (٢/ ٥٢٠) (٤/ ٥٣٤).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٣٠) ومسلم (رقم ١٠٦١) وانظر: عمدة القاري (١٧/ ٣٠٧).

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء، كما هي مبطلة لقول أولئك، وأدلة المعقول والفطرة أيضًا تبطل قول الفريقين، وتبين لمن له قلب ولب: مقدار قول أهل السنة، وهم الفرقة الوسط، المثبتون لعموم مشيئة الله، وقدرته، وخلقه العباد وأعمالهم، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها، وانعقادها بها شرعًا وقدراً، وترتيبها عليها عاجلاً وآجلاً.

وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعًا من الحق، وارتكبت لأجله نوعًا من الباطل، بل أنواعاً. وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة: رياضة النفوس، واستعدادها لفيض العلوم عليها، وخروج قواها عن قوى النفوس السبعية والبهيمية، فلو عطلت عن العبادات لكانت من جنس نفوس السباع والبهائم، والعبادات تخرجها عن مألوفاتها وعوائدها، وتنقلها إلى مشابهة العقول المجردة، فتصير عالمة قابلة لانتقاش صور العلوم والمعارف فيها، وهذا يقوله طائفتان.

إحداهما: من يقرب إلى النبوات والشرائع من الفلاسفة، القائلين بقدم العالم، وعدم انشقاق الأفلاك، وعدم الفاعل المختار.

الطائفة الثانية: من تفلسفت من صوفية الإسلام، وتقرب إلى الفلاسفة، فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس وتجردها، ومفارقتها العالم الحسي، ونزول الواردات والمعارف عليها.

ثم من هؤلاء من لا يوجب العبادات إلا لهذا المعنى، فإذا حصل لها بقي مخيرًا في حفظه أو رده، أو الاشتغال بالوارد عنها. ومنهم من يوجب القيام بالأوراد والوظائف، وعدم الإخلال بها، وهم صنفان أيضًا.

أحدهما: من يوجبونه حفظًا للقانون وضبطًا للنفوس.

والآخرون: الذين يوجبونه حفظًا للوارد، وخوفًا من تدرج النفس ـ بمفارقتها له ـ إلى حالتها الأولى من البهيمة. فهذه نهاية أقدام المتكلمين على طريق السلوك، وغاية معرفتهم بحِكَمِ العبادة وما شرعت لأجله، ولا تكاد تجد في كتب القوم غير هذه الطرق الثلاثة، على سبيل الجمع، أو على سبيل البدل.

وأما الصنف الرابع: فهم الطائفة المحمدية الإبراهيمة، أتباع الخليلين، العارفون بالله وحكمته في أمره وشرعه وخلقه، وأهل البصائر في عبادته، ومراده بها. فالطوائف الثلاث محجوبون عنهم بما عندهم من الشبه الباطلة، والقواعد الفاسدة، ما عندهم وراء ذلك شيء، قد فرحوا بما عندهم من المحال، وقنعوا بما ألفوه من الخيال. ولو علموا أن وراءه ما هو أجل منه وأعظم، لما ارتضوا بدونه، ولكن عقولهم قصرت عنه، ولم يهتدوا إليه بنور النبوة، ولم يشعروا به، ليجتهدوا في طلبه، ورأوا أن ما معهم خير من الجهل، ورأوا تناقض ما مع غيرهم وفساده.

فتركب من هذه الأمور إيثار ما عندهم على ما سواه، وهذه بلية الطوائف، والمعافى من عافاه الله.

فاعلم أن سر العبودية، وغايتها وحكمتها: إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب ﷻ، ولم يعطلها، وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلهًا، بل هو الإله الحق، وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل، وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود. فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها، وما شرعت لأجله؟

وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق، والتي لها خلقوا، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها: نسبة لله إلى مالا يليق به، ويتعالى عنه مَنْ خلق السماوات والأرض بالحق، ولم يخلقهما باطلاً، ولم يخلق الإنسان عبثًا ولم يتركه سُدًى مهملاً. قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أي لغير شيء ولا حكمة، ولا لعبادتي ومجازاتي لكم.

وقد صرح تعالى بهذا في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] فالعبادة: هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها، قال الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ [القيامة: ٣٦] أي مهملاً.

قال الشافعي: لا يؤمر ولا يُنْهى[1]، وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب.

والصحيح: الأمران، فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهي، والأمر والنهي طلب العبادة وإرادتها، وحقيقة العبادة امتثالهما. وقال تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨٥]. وقال: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٢].

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق، المتضمن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه فإذا كانت السماوات والأرض وما بينهما خلقت لهذا، وهو غاية الخلق، فكيف

(١) أخرجه الطبري من قول مجاهد في تفسيره (٢٩/ ٢٠١) وذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٥٣) من قول مجاهد والشافعي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وانظر: أحكام القرآن للشافعي (١/ ٣٦) (٢/ ١٢٣) وسنن البيهقي الكبرى (١٠/ ١١٣).

يقال: إنه لا علة له، ولا حكمة مقصودة هي غايته؟ أو إن ذلك لمجرد استئجار العباد حتى لا ينكد عليهم الثواب بالمنة، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية، وارتياضها بمخالفة العوائد؟

فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريح الوحي يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته. فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها. فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، وتحققه بتحققه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله. ودل على أن متابعة الرسول ﷺ: هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما، فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله. ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه البتة، ولا يهديه الله.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحدهم على معاملة الله: فهو ممن ليس الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وإن قاله بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه.

وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله.. فذلك المقدّم عنده أحبُّ إليه من الله ورسوله، لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه، أو طاعته أو مرضاته، ظنًّا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول. فيطيعه، ويحاكم إليه، ويتلقى أقواله كذلك، فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك. وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول، وعرف أن غير من اتبعه هو أولى به مطلقًا، أو في بعض الأمور، ولم يلتفت إلى الرسول ولا إلى من هو أولى به، فهذا الذي يخاف عليه، وهو داخل تحت الوعيد، فإن استحل عقوبة من خالفه وأذله، ولم يوافقه على اتباع شيخه، فهو من الظلمة المعتدين، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

وبنى ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع: فأصحاب ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضا به وعنه، والموالاة فيه، والمعادة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير من أعمال القلوب التي فرضُها أفرضُ من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك[(١)].

فـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، و﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها.

وجميع الرسل إنما دعوا إلى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلى آخرهم. فقال نوح لقومه: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [المؤمنون: ٢٣]. وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم. قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢].

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه. فقال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. وهذا يبين أن

---

(١) انظر: عمدة القاري (١/ ١٨٦) وفيض القدير (٦/ ٢٩١) ونيل الأوطار (١/ ١٦٢).

الوقف التام في قوله في سورة الأنبياء ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنبياء: ١٩] ههنا. ثم يبتدئ: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠] فهما جملتان تامتان مستقلتان، أي إن له من في السماوات ومن في الأرض عبيدًا وملكًا. ثم استأنف جملة أخرىٰ فقال: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ [الأنبياء: ١٩].

يعني أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته، يعني لا يأنفون عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون - يقال: حسر واستحسر، إذا تعب وأعيىٰ - بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم.

فالأول: وصف لعبيد ربوبيته، والثاني: وصف لعبيد إلهيته.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] إلىٰ آخر السورة، وقال: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان: ٦]. وقال: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ [ص: ١٧]. وقال: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ [ص: ٤١]. وقال: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [ص: ٤٥]. وقال عن سليمان: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]. وقال عن المسيح: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: ٥٩]، فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارىٰ، ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ [الكهف: ١] فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله. وقال: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن: ١٩]، فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه. وقال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١] فذكره بالعبودية في مقام الإسراء.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(١).

وفي الحديث: «**أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**»(٢).

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو قال: «قرأت في التوراة صفة محمد ﷺ: محمد رسول الله، عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر»(٣).

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده، فقال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وجعل الأمن المطلق لهم فقال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٨، ٦٩].

وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به، فقال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

وجعل النبي ﷺ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو الإحسان، فقال في حديث جبريل ـ وقد سأله عن الإحسان ـ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٩٠) وعمدة القاري (١٦/ ٣٧) وفيض القدير (٣/ ١٢٩).

(٢) أخرج البيهقي في الكبرى الجزء الأول منه (٧/ ٢٨٣ رقم ١٤٤٢٨) وأخرجه كاملًا أبو يعلى في مسنده (٨/ ٣١٨ رقم ٤٩٢٠) وعبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤١٥ رقم ١٩٥٤٣) والبيهقي في الشعب (٥/ ١٠٧ رقم ٥٩٧٥) وحسن إسناد أبي يعلى الحافظ الهيثمي في المجمع (٩/ ١٩) وحسن إسناده العجلوني في كشف الخفاء (١/ ١٧ رقم ١٥). وانظر: فيض القدير (١/ ٥٥) (٢/ ٥٧١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٣٨) وانظر: عمدة القاري (١١/ ٢٤٢) (١٩/ ١٧٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٩، ١٠) انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٧١، ٤٨٠) (١٣/ ٤٢٥) وشرح النووي (١/ ١٥٧) وعمدة القاري (١/ ١٢٩، ٢٨٣-٢٨٦) (١٩/ ١١٢).

فصل في لزوم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لكل عبد إلى الموت

قال الله تعالىٰ لرسوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وقال أهل النار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٦، ٤٧] واليقين هٰهنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير.

وفي الصحيح ـ في قصة موت عثمان بن مظعون ﷺ ـ: أن النبي ﷺ قال: «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه»[(١)]، أي الموت وما فيه، فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في دار التكليف. بل عليه في البرزخ عبودية أخرىٰ لما يسأله الملكان: من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله ﷺ. ويلتمسان منه الجواب[(٢)]. وعليه عبودية أخرىٰ يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلىٰ السجود، فيسجد المؤمنون، ويبقىٰ الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٢٤٣، ٧٠٠٣).

(٢) فعن البراء بن عازب ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلىٰ القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن علىٰ رؤوسنا الطير... وفيه: «...فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان يجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله...» الحديث أخرجه أبو داود (رقم ٤٧٥٣) والنسائي (رقم ٢٠٥٠، ٢٠٥١) وأحمد (٣/ ٢٣٣) (٤/ ٢٨٧) والطيالسي (رقم ٧٥٣) والبيهقي في الشعب (١/ ٣٥٥ رقم ٣٩٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٢١٩).
قال المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٥-١٩٧ رقم ٥٣٩٦): قال الحافظ: هذا الحديث حديث حسن رواته محتج بهم في الصحيح، وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٥٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٣٤).

(٣) فعن أبي سعيد ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، فيبقىٰ كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا» أخرجه البخاري (رقم ٤٩١٩) ومسلم (رقم ١٨٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٥١) وعمدة القاري (١٩/ ٢٥٧) (٢٥/ ١٢٨).

فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم، لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه، بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه. ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ - بل على جميع الرسل - أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أولي العزم: أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولي العلم: أعظم من الواجب على من دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته.

فصل في انقسام العبودية إلى عامة وخاصة

العبودية نوعان: عامة، وخاصة، فالعبودية العامة: عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٣]، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ﴾ [الفرقان: ١٧] فسماهم عباده مع ضلالهم، لكن تسمية مقيدة بالإشارة. وأما المطلقة: فلم تجئ إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه - إن شاء الله -. وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

وقال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨] فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف:٦٨]، وقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، وقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى عن إبليس: ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، فقال تعالى عنهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢].

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته، هم عبيد إلهيته. ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقًا إلا لهؤلاء. وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية: فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه:

إمَّا منكَّرًا، كقوله: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣].

والثاني: معرفًا باللام، كقوله: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣١] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٨].

الثالث: مقيدًا بالإشارة أو نحوها، كقوله: ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الفرقان: ١٧].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر، كقوله: ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم، كقوله: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقد يقال: سمَّاهم عباده إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع، إنما يقال «طريق معبَّد» إذا كان مُذللاً بوطء الأقدام[(١)]، و«فلان عبَّده الحب» إذا ذلله، لكنْ أولياؤه خضعوا له وذلوا طوعًا واختياراً، وانقيادًا لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهرًا ورغمًا.

ونظير انقسام العبودية إلى خاصة وعامة: انقسام «القنوت» إلى خاص وعام، و«السجود» كذلك. قال تعالى في القنوت الخاص: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩] وقال في حق مريم: ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾ [التحريم: ١٢] وهو كثير في القرآن. وقال في القنوت العام: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴾ [الروم: ٢٦] أي خاضعون أذلاء.

وقال في السجود الخاص: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. وقال: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾ [مريم: ٥٨] وهو كثير في القرآن. وقال في السجود العام: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۩ ﴾ [الرعد: ١٥].

ولهذا كان هذا السجود الكُرْه غير السجود المذكور في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ١٨] فخص بالسجود هنا كثيرًا من الناس، وعمَّهم بالسجود في سورة النحل: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ [النحل: ٤٩]، وهو سجود الذل والقهر والخضوع، فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته، مقهور تحت سلطانه تعالى.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٦) وعمدة القاري (١/ ٢٨٥) وفيض القدير (١/ ٥٠) (٦/ ٧٣) ومختار الصحاح (ص ١٧٢).

فصل في مراتب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ علماً وعملاً

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل، فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما: العلم بالله، والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان، إحداهما: دينه الأمري الشرعي، وهو الصراط المستقيم الموصل إليه. والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه، وقد دخل في هذا العلم العلمُ بملائكته وكتبه ورسله. وأما مراتبها العملية، فمرتبتان: مرتبه لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين، فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية، فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة، ومن دونهم يترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات، ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله.

ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كمَّلها كمَّل مراتب العبودية. وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح[1].

---

(١) بقية البحث في الأصل بتفصيل في الجزء الأول من مدارج السالكين ص ١٠٩ لمن أراده (ج).

[1]قوله تعالىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ فيها عشرون مسألة.

أحدها: ما فائدة البدل في الدعاء والداعي مخاطب لمن لا يحتاج إلىٰ البيان، والبدل القصد به بيان الاسم الأول؟

الثانية: ما فائدة تعريف (الصراط المستقيم) باللام، وهلا أخبر عنه بمجرد اللفظ دونها كما قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾؟ [الشورى: ٥٢].

الثالثة: ما معنى الصراط: ومن أي شيء اشتقاقه ولم جاء علىٰ وزن فعال، ولم ذكر في أكثر المواضع في القرآن بهذا اللفظ وفي سورة الأحقاف ذكر بلفظ الطريق، فقال: ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾؟ [الأحقاف: ٣٠].

الرابعة: ما الحكمة في إضافته إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ بهذا اللفظ، ولم يذكرهم بخصوصهم، فيقول: صراط النبيين والصديقين، فلم عدل إلىٰ لفظ المبهم دون المفسر؟

الخامسة: ما الحكمة في التعبير عنهم بلفظ الذين مع صلتها دون أن يقال: المنعم عليهم، وهو أخصر، كما قال: ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وما الفرق؟

السادسة: لِـمَ فرق بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم، فقال في أهل النعمة: الذين أنعمت، وفي أهل الغضب: المغضوب بحذف الفاعل؟

السابعة: لِـمَ قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فعدىٰ الفعل بنفسه، ولم يعده بإلىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾؟ [الأنعام: ٨٧].

---

(١) ٩ بدائع الفوائد جـ ٢.

الثامنة: أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يقتضي أن نعمته مختصة بالأولين دون المغضوب عليهم ولا الضالين، وهذا حجة لمن ذهب إلى أنه لا نعمة له على كافر، فهل هذا استدلال صحيح أم لا؟

التاسعة: أن يقال: لم وصفهم بلفظ (غير)؟ وهلا قال تعالى: لا المغضوب عليهم، كما قال: ولا الضالين؟ وهذا كما تقول مررت بزيد لا عمرو، وبالعاقل لا الأحمق.

العاشرة: كيف جرت (غير) صفة على الموصول، وهي لا تتعرف بالإضافة، وليس المحل محل عطف بيان، إذ بابه الإعلام، ولا محل لذلك إذ المقصود في باب البدل هو الثاني والأول توطئة، وفي باب الصفات المقصود الأول والثاني بيان، وهذا شأن هذا الموضع، فإن المقصود ذكر المنعم عليهم ووصفهم بمغايرتهم نوعي الغضب والضلال.

الحادية عشرة: إذا ثبت ذلك في البدل فالصراط المستقيم مقصود الإخبار عنه بذلك، وليس في نية الطرح، فكيف جاء صراط الذين أنعمت عليهم بدلاً منه، وما فائدة البدل هنا؟

الثانية عشرة: إنه قد ثبت في الحديث الذي رواه الترمذي والإمام أحمد وأبو حاتم، تفسير المغضوب عليهم بأنهم اليهود، والنصارى بأنهم الضالون[1]، فما وجه هذا التقسيم والاختصاص، وكل من الطائفتين ضال مغضوب عليه؟

الثالثة عشرة: لم قدم المغضوب عليهم في اللفظ على الضالين؟

الرابعة عشرة: لم أتى في أهل الغضب بصيغة مفعول المأخوذة من فعل، ولم يأت في أهل الضلال بذلك فيقال: المضلين بل أتى فيهم بصيغة فاعل المأخوذة من فعل؟

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٩٥٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣١ رقم ٤١) والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٨ رقم ٢٣٦) والطيالسي (رقم ١٠٤٠) وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح، انظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٢٣١) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٠).

الخامسة عشرة: ما فائدة العطف بلا هنا، ولو قيل: المغضوب عليهم والضالين لم يختل الكلام وكان أوجز؟

السادسة عشرة: إذ قد عطف بها فيأتي العطف بها مع الواو للمنفي نحو ما قام زيد ولا عمرو، وكقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ [التوبة: ٩١] إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٩٢]، وأما بدون الواو فبابها الإيجاب نحو: مررت بزيد لا عمرو فهذه ستة عشرة مسألة في ذلك.

السابعة عشرة: هل الهداية هنا هداية التعريف والبيان أو هداية التوفيق والإلهام؟

الثامنة عشرة: كل مؤمن مأمور بهذا الدعاء أمرًا لازمًا، لا يقوم غيره مقامه ولابد منه، وهذا إنما نسأله في الصلاة بعد هدايته، فما وجه السؤال لأمر حاصل، وكيف يطلب تحصيل الحاصل؟

التاسعة عشرة: ما فائدة الإتيان بضمير الجمع في ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ والداعي يسأل ربه لنفسه في الصلاة وخارجها، ولا يليق به ضمير الجمع، ولهذا يقول: رب اغفر لي وارحمني وتب عليّ.

العشرون: ما حقيقة الصراط المستقيم الذي يتصوره العبد وقت سؤاله؟ فهذه أربع مسائل حقها أن تقدم أولاً، ولكن جر الكلام إليها بعد ترتيب المسائل الستة عشر، فالجواب بعون الله وتعليمه، فإنه لا علم لأحد من عباده إلا ما علمه، ولا قوة له إلا بإعانته.

أما المسألة الأولى: وهي ما فائدة البدل من الدعاء، أن الآية وردت في معرض التعليم للعباد والدعاء وحق الداعي أن يستشعر عند دعائه ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به، إذ الدعاء مخ العبادة، والمخ لا يكون إلا في عظم، والعظم لا يكون إلا في لحم ودم، فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء وجب أن يكون الطلب ممزوجًا بالثناء، فمن ثم جاء لفظ الطلب للهداية والرغبة فيها مشوبًا

بالخبر؛ تصريحًا من الداعي بمعتقده وتوسلاً منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلىٰ ربه، فكأنه متوسل إليه بإيمانه واعتقاده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم، وأنه صراط الذين اختصهم بنعمته وحباهم بكرامته، فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ والمخالفون للحق يزعمون أنهم علىٰ الصراط المستقيم أيضًا، والداعي يجب عليه اعتقاد خلافهم وإظهار الحق الذي في نفسه، فلذلك أبدل وبين لهم، ليمرن اللسان علىٰ ما اعتقده الجنان.

ففي ضمن هذا الدعاء المهم الإخبار بفائدتين جليلتين:

إحداهما: فائدة الخبر، والفائدة الثانية، فائدة لازم الخبر، فأما فائدة الخبر فهي الإخبار عنه بالاستقامة، وأنه الصراط المستقيم الذي نصبه لأهل نعمته وكرامته. وأما فائدة لازم الخبر فإقرار الداعي بذلك وتصديقه وتوسله بهذا الإقرار إلىٰ ربه.

فهذه أربع فوائد، الدعاء بالهداية إليه، والخبر عنه بذلك، والإقرار والتصديق لشأنه، والتوسل إلىٰ المدعو إليه بهذا التصديق، وفيه فائدة خامسة، وهي أن الداعي إنما أمر بذلك لحاجته إليه، وأن سعادته وفلاحه لا تتم إلا به، فهو مأمور بتدبر ما يطلب وتصور معناه، فذكر له من أوصافه ما إذا تصور في خلده وقام بقلبه كان أشد طلبًا له وأعظم رغبة فيه وأحرص علىٰ دوام الطلب والسؤال له، فتأمل هذه النكت البديعة.

وأما المسألة الثانية: وهي تعريف الصراط باللام هنا، فاعلم أن الألف واللام إذا دخلت علىٰ اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره.

ألا ترىٰ أن قولك: جالس فقيهًا أو عالمًا. ليس كقولك: جالس الفقيه أو العالم. ولا قولك: أكلت طيبًا، كقولك: الطيب، ألا ترىٰ إلىٰ قوله ﷺ: «**أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق**» ثم قال: «**ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق**»[1] فلم يدخل الألف

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٤٢) ومسلم (رقم ٧٦٩) وانظر: شرح النووي (٦/ ٥٥) وعمدة القاري (٢٥/ ١٦٠).

واللام على الأسماء المحدثة، وأدخلها على اسم الرب تعالىٰ ووعده وكلامه.

فإذا عرفت هذا فلو قال: اهدنا صراطًا مستقيمًا لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلىٰ صراط ما، مستقيم على الإطلاق، وليس المراد ذلك، بل المراد الهداية إلىٰ الصراط المعين، الذي نصبه الله تعالىٰ لأهل نعمته، وجعله طريقًا إلىٰ رضوانه وجنته، وهو دينه الذي لا دين له سواه، فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن، لا شيء مطلق منكر، واللام هنا للعهد العلمي الذهني، وهو أنه طلب الهداية إلىٰ سر معهود[1]، قد قام في القلوب معرفته والتصديق به وتميزه عن سائر طرق الضلال، فلم يكن بد من التعريف.

فإن قيل: لِـمَ جاء منكرًا في قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١].

فالجواب: عن هذه المواضع بجواب واحد، وهو أنها ليست في مقام الدعاء والطلب، وإنما هي في مقام الإخبار من الله تعالىٰ عن هدايته إلىٰ صراط مستقيم، وهداية رسوله إليه، ولم يكن للمخاطبين عهد به ولم يكن معروفًا لهم، فلم يجئ معرفًا بلام العهد المشيرة إلىٰ معروف في ذهن المخاطب قائم في خلده، ولا تقدمه في اللفظ معهود تكون اللام مصروفة إليه، وإنما تأتي لام العهد في أحد هذين الموضعين، أعني أن يكون لها معهود ذهني أو ذكري لفظي، وإذ لا واحد منهما في هذه المواضع فالتنكير هو الأصل، وهذا بخلاف قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن لله صراطًا مستقيمًا هدىٰ إليه أنبياءه ورسله، وكان المخاطب سبحانه المسؤول عن هدايته عالماً به دخلت اللام عليه، فقال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

---

(١) كذا في الأصل، ولعله «إلىٰ صراط معهود» وفي المخطوط «إلىٰ معهود» اهـ. (ج).

وقال السهيلي: إن قوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢]، نزلت في صلح الحديبية، وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح، ورأوا أن الرأي خلافه وكان الله تعالى عما يقولون ورسوله ﷺ أعلم، فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآية فلم يرد صراطًا مستقيمًا في الدين، وإنما أراد صراطًا في الرأي والحرب والمكيدة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: تهدي من الكفر والضلال إلى صراط مستقيم، ولو قال في هذا الموطن: إلى الصراط المستقيم لجعل للكفر والضلال حظًّا من الاستقامة، إذ الألف واللام تنبئ أن ما دخلت عليه من الأسماء الموصولة أحق بذلك المعنى مما تلاه في الذكر أو ما قرن به في الوهم، ولا يكون أحق به إلا والآخر فيه طرف منه. وغير خاف ما في هذين الجوابين من الضعف والوهن.

أما قوله: إن المراد بقوله: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢] في الحرب والمكيدة فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذي امتن الله به على رسوله. وأخبر النبي ﷺ، أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها، ومتى سمى الله الحرب والمكيدة صراطًا مستقيمًا؟ وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك.

بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق الذي، أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ونصب دينًا هنا على البدل من الجار والمجرور أي هداني دينًا قيمًا، أفتراه يمكنه ههنا أن يقول: إنه الحرب والمكيدة؟ فهذا جواب فاسد جدًّا. وتأمّل ما جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا وذلك خمسة أشياء:

أحدها: الفتح المبين. **والثاني**: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر. **والثالث**: هدايته الصراط المستقيم. **والرابع**: إتمام نعمته عليه. **والخامس**: إعطاءه النصر العزيز.

وجمع سبحانه له بين الهدىٰ والنصر؛ لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح، فإن الهدىٰ هو العلم ودينه والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العلم النافع والعمل الصالح، والنصر والقدرة التامة علىٰ تنفيذ دينه، بالحجة والبيان والسيف والسنان، فهو النصر بالحجة واليد قهر قلوب المخالفين بالحجة وقهر أبدانهم باليد، وهو سبحانه كثيرًا ما يجمع بين هذين الأصلين، إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه علىٰ الدين كله كقوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[1] في موضعين من سورة براءة وفي سورة الصف[2].

وقال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، فهذا الهدىٰ ثم قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد: ٢٥] فهذا النصر، فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر، وقال تعالىٰ: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١-٤] فذكر إنزال الكتاب الهادي والفرقان، وهو النصر الذي يفرق بين الحق والباطل.

وسر اقتران النصر بالهدىٰ أن كلًّا منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل، ولهذا سمىٰ تعالىٰ ما ينصر به عباده المؤمنين فرقانًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ [الأنفال: ٤١]، فذكر الأصلين ما أنزله علىٰ رسوله يوم الفرقان، وهو يوم بدر، وهو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم.

ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

---

(١) التوبة: ٣٣، والصف: ٩.

(٢) والثالث في سورة الفتح (ج).

[الأنبياء: ٤٨]، فالفرقان نصره له على فرعون وقومه، والضياء والذكر التوراة، هذا هو معنى الآية. ولم يصب من قال: إن الواو زائدة وأن ضياء منصوب على الحال، كما بينا فساده في (الأمالي المكية) فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين: الهدى والنصر، وأنه لا يصح فيها غير ذلك البتة.

وأما جوابه الثاني عن قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] بأنه لو عُرِّف لجعل للكفر والضلال حظًّا من الاستقامة. فما أدرى من أين جاء له هذا الفهم مع ذهنه الثاقب وفهمه البديع رحمه الله تعالى؟ وما هي إلا كبوة جواد ونبوة صارم، أفترى قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٧، ١١٨] يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة، وما ثم غيره إلا طرق الضلال، وإنما الصراط المستقيم واحد، وهو ما هدى الله إليه أنبياءه ورسله أجمعين، وهو الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم، وكذلك تعريفه في سورة الفاتحة، هل يقال: إنه يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة؟ بل يقال: تعريفه ينبئ أن لا يكون لغيره حظ من الاستقامة، فإن التعريف في قوة الحصر، فكأنه قيل الذي لا صراط مستقيم سواه، وفهم هذا الاختصاص من اللفظ أقوى من فهم المشاركة، فتأمله هنا وفي نظائره.

وأما المسألة الثالثة: وهي اشتقاق الصراط، فالمشهور أنه من صرطت الشيء أصرطه، إذا بلعته بلعًا سهلاً، فسمى الطريق صراطًا لأنه يسترط المارة فيه[1].

والصراط: ما جمع خمسة أوصاف: أن يكون طريقًا مستقيماً، سهلاً، مسلوكًا، واسعًا، موصلاً إلى المقصود، فلا تسمى العرب الطريق المعوج صراطًا، ولا الصعب المشق ولا المسدود غير الموصل. ومن تأمل موارد الصراط في لسانهم واستعمالهم

---

(١) انظر: لسان العرب (٧/ ٣١٣-٣١٤) ومختار الصحاح (ص ١٢٥).

تبين له ذلك، قال جرير:

أميـــر المـــؤمنين علـــى صـــراط إذا اعـــوج المـــوارد مـــستقيم(١)

وبنوا الصراط على زنة فِعَال، لأنه مشتمل على سالكه اشتمال الحلق على الشيء المسروط. وهذا الوزن كثير في المشتملات على الأشياء كاللِحاف والخِمار والرِّداء والغطاء والفراش والكتاب إلى سائر الباب، يأتي لثلاثة معان:

أحدها: المصدر كالقتال والضراب.

والثاني: المفعول نحو الكتاب، والبناء، والغراس.

والثالث: أنه يقصد به قصد الآلة التي يحصل بها الفعل، ويقع بها كالخمار والغِطاء والسِّداد لما يخمر به ويغطى ويسد به، فهذا آلة محضة والمفعول هو الشيء المخمر المغطى والمسدود، ومن هذا القسم الثالث: إله بمعنى مألوه.

وأما ذكره له بلفظ الطريق في سورة الأحقاف خاصة، فهذا حكاية الله تعالى لكلام مؤمني الجن، أنهم قالوا لقومهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وتعبيرهم عنه ههنا بالطريق فيه نكتة بديعة، وهي أنهم قدموا قبله ذكر موسى، كالنبأ عن رسول الله ﷺ في قوله لقومه: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] أي: لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض، بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم، وإنما بعثت مصدقًا لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان، فقال مؤمنو الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠] أي: إلى سبيل مطروق قد مرت عليه الرسل قبله، وأنه ليس

---

(١) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى جرير أشعر أهل عصره، عاش عمره كله يناضل شعراء زمانه ويساجلهم، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وكان من أغزل الناس شعرًا، مات سنة ١١٠هـ. وذكر البيت ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٧٣) وابن كثير في تفسيره (١/ ٢٨) والخطابي في غريب الحديث (١/ ١٠٨) وابن منظور في لسان العرب (٣/ ٤٥٩) (٧/ ٣١٣).

ببدع، كما قال في أول السورة نفسها، فاقتضت البلاغة والإعجاز لفظ الطريق؛ لأنه فعيل بمعنى مفعول أي مطروق، مشت عليه الرسل والأنبياء قبل، فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم، أن يؤمن به ويصدقه، فذكر الطريق ههنا إذًا أولى، لأنه أدخل في باب الدعوة، والتنبيه على تعين اتباعه، والله أعلم. ثم رأيت هذا المعنى بعينه قد ذكره السهيلي، فوافق فيه الخاطرُ الخاطرَ.

وأما المسألة الرابعة: وهي إضافته إلى الموصول المبهم، دون أن يقول صراط النبيين والمرسلين، ففيه ثلاث فوائد:

إحداها: إحضار العلم وإشعار الذهن عند سماع هذا؛ فإن استحقاق كونهم من المنعم عليهم هو بهدايتهم إلى هذا الصراط؛ فبه صاروا من أهل النعمة، وهذا كما يعلق الحكم بالصلة دون الاسم الجامد لما فيه من الإنعام باستحقاق ما علق عليها من الحكم بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٣]. وهذا الباب مطرد، فالإتيان بالاسم موصولاً على هذا المعنى من ذكر الاسم الخاص.

الفائدة الثانية: فيه إشارة إلى أن نفي التقليد عن القلب واستشعار العلم بأن من هدي إلى هذا الصراط فقد أنعم عليه، فالسائل مستشعر سؤاله الهداية وطلب الإنعام من الله عليه.

والفرق بين هذا الوجه والذي قبله، أن الأول: يتضمن الإخبار بأن أهل النعمة هم أهل الهداية إليه، والثاني: يتضمن الطلب والإرادة وأن تكون منه.

الفائدة الثالثة: أن الآية عامة في جميع طبقات المنعم عليهم، ولو أتى باسم خاص لكان لم يكن فيه سؤال الهداية إلى صراط جميع المنعم عليهم، فكان في الإتيان بالاسم العام من الفائدة أن المسؤول الهدى إلى جميع تفاصيل الطريق التي سلكها كل من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذا أجل مطلوب وأعظم مسئول.

ولو عرف الداعي قدر هذا السؤال لجعله هجيراه، وقرنه بأنفاسه، فإنه لم يدع شيئًا من خير الدنيا والآخرة إلا تضمنه، ولما كان بهذه المثابة فرضه الله على جميع عباده فرضًا متكررًا في اليوم والليلة لا يقوم غيره مقامه، ومن ثم يعلم تعين الفاتحة في الصلاة، وأنها ليس منها عوض يقوم مقامها.

وأما المسئلة الخامسة: وهي أنه قال: ﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ولم يقل: المنعم عليهم، كما قال: المغضوب عليهم.

فجوابها وجواب **المسألة السادسة** واحد وفيه فوائد عديد:

أحدها: أن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن، وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله ﷻ، فيذكر فاعلها منسوبة إليه ولا يبني على الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفاعل وبنى الفعل معها للمفعول أدبًا في الخطاب، وإضافته إلى الله أشرف قسمي أفعاله، فمنه هذه الآية، فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول، فقال: ﴿ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾، وقال في الإحسان: ﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾. ونظيره قول إبراهيم الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٠]، فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى، ولما جاء إلى ذكر المرض قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضۡتُ ﴾ ولم يقل: أمرضني، وقال: ﴿ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾.

ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدۡرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠] فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب، وحذفوا فاعل إرادة الشر، وبنوا الفعل للمفعول.

ومنه قول الخضر عليه الصلاة والسلام في السفينة: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: ٧٩]، فأضاف العيب إلى نفسه. وقال في الغلامين: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ [الكهف: ٨٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧] فحذف الفاعل وبناه للمفعول. وقال: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] لأن في ذكر الرفث ما يحسن منه أن لا يقترن بالتصريح بالفاعل، ومنه: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى آخرها.

ومنه وهو ألطف من هذا وأدق معنى قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] إلى آخرها ثم قال: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٤]. وتأمل قوله: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٠] كيف صرح بفاعل التحريم في هذا الموضع وقال في حق المؤمنين: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة: ٣].

الفائدة الثانية: أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها، وأصل الشكر ذكر المنعم والعمل بطاعته، وكان من شكره إبراز الضمير المتضمن لذكره تعالى، الذي هو أساس الشكر، وكان في قوله: ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٧] من ذكره وإضافة النعمة إليه ما ليس في ذكر المنعم عليهم لو قاله، فضمن هذا اللفظ الأصلين، وهما الشكر والذكر، والمذكوران في قوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

الفائدة الثالثة: أن النعمة بالهداية إلى الصراط لله وحده، وهو المنعم بالهداية دون أن يشركه أحد في نعمته؛ فاقتضى اختصاصه بها أن يضاف إليه بوصف الإفراد فيقال: أنعمت عليهم أي أنت وحدك المنعم المحسن المتفضل بهذه النعمة.

وأما الغضب فإن الله سبحانه غضب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط، وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم، وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم عليهم، فموافقته تعالى تقتضي أن يغضب على من غضب عليه؛ ويرضى

عمن رضي عنه؛ فيغضب لغضبه، ويرضىٰ لرضاه، وهذا حقيقة العبودية.

واليهود قد غضب الله عليهم فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم، فحذف فاعل الغضب، وقال: المغضوب عليهم لما كان للمؤمنين نصيب من غضبهم علىٰ من غضب الله عليه بخلاف الإنعام؛ فإنه لله وحده، فتأمل هذه النكتة البديعة.

الفائدة الرابعة: أن المغضوب عليهم في مقام الإعراض عنهم وترك الالتفات إليهم، والإشارة إلىٰ نفس الصفة التي لهم والاقتصار عليها، وأما أهل النعمة فهم في مقام الإشارة إليهم وتعيينهم والإشادة بذكرهم.

وإذا ثبت هذا فالألف واللام في المغضوب، وإن كانتا بمعنىٰ الذين فليست مثل الذين في التصريح والإشارة إلىٰ تعيين ذات المسمىٰ، فإن قولك: الذين فعلوا. معناه: القوم الذين فعلوا، وقولك: الضاربون والمضروبون، ليس فيه ما في قولك: الذين ضَرَبُوا أو ضُرِبُوا... فتأمل ذلك، فالذين أنعمت عليهم إشارة إلىٰ تعريفهم بأعيانهم وقصد ذواتهم بخلاف المغضوب عليهم؛ فالمقصود التحذير من صفتهم والإعراض عنهم وعدم الالتفات إليهم والمعول عليه من الأجوبة ما تقدم.

وأما المسألة السابعة: وهي تعدية الفعل هنا بنفسه دون حرف إلىٰ.

فجوابها: أن فعل الهداية يتعدىٰ بنفسه تارة، وبحرف إلىٰ تارة، وباللام تارة، والثلاثة في القرآن.

فمن المعدي بنفسه هذه الآية، وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢].

ومن المعدىٰ بـإلىٰ قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١].

ومن المعدي باللام قول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

والفروق لهذه المواضع تدق جدًّا عن أفهام العلماء، ولكن نذكر قاعدة تشير إلىٰ

الفرق، وهي أن الفعل المعدىٰ بالحروف المتعددة لابد أن يكون له مع كل حرف معنىٰ زائد علىٰ معنىٰ الحرف الآخر، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف، فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق، نحو: رغبت عنه ورغبت فيه، وعدلت إليه وعدلت عنه، وملت إليه وعنه، وسعيت إليه وبه، وإن تفاوت معنىٰ الأدوات عسر الفرق نحو: قصدت إليه، وقصدت له، وهديته إلىٰ كذا، وهديته لكذا.

وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنىٰ الآخر. وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة، بل يجعلون للفعل معنىٰ مع الحرف ومعنىٰ مع غيره، فينظرون إلىٰ الحرف وما يستدعي من الأفعال، فيشربون الفعل المتعدي به معناه.

هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه رحمه الله تعالىٰ، وطريقة حذاق أصحابه يضمنون الفعل معنىٰ الفعل، لا يقيمون الحرف مقام الحرف.

وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار تستدعي فطنة ولطافة في الذهن، وهذا نحو قوله تعالىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] فإنهم يضمنون يشرب معنىٰ يروي، فيعدونه بالباء التي تطلبها، فيكون في ذلك دليل علىٰ الفعلين: أحدهما بالتصريح به، والثاني: بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصار، وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها.

ومنه قوله في السحاب: شربن بماء البحر حتىٰ روين، ثم ترفعن[(١)] وصعدن.

وهذا أحسن من أن يقال: يشرب منها، فإنه لا دلالة فيه علىٰ الري، وأن يقال: يروىٰ بها لأنه لا يدل علىٰ الشرب بصريحه بل باللزوم، فإذا قال: يشرب بها دل علىٰ الشرب بصريحه، وعلىٰ الري بحرف الباء فتأمله.

ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ﴾ [الحج: ٢٥] وفعل الإرادة لا

(١) ذكر شطر البيت أبو عمر ابن عبد البر في الاستذكار (٢/ ٤٤١) ونسبه إلىٰ أبي ذؤيب الهذلي. وكذا ذكره ابن منظور في لسان العرب (١/ ٤٨٧) (٥/ ١٦٢) وانظر: تفسير الطبري (٢٩/ ٢٠٧) وعمدة القاري (٢/ ٢٣٦) وغريب الحديث للحربي (٣/ ٩٧٠).

يتعدىٰ بالباء، ولكن ضمن معنىٰ: يهم فيه بكذا، وهو أبلغ من الإرادة، فكان في ذكر الباء إشارة إلىٰ استحقاق العذاب عند الإرادة وإن لم تكن جازمة، وهذا باب واسع لو تتبعناه لطال الكلام فيه، ويكفي المثالان المذكوران.

فإذا عرفت هذا ففعل الهداية، متىٰ عُدِّي بإلىٰ تضمن الإيصال إلىٰ الغاية المطلوبة فأتىٰ بحرف الغاية، ومتىٰ عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب، فأتىٰ باللام الدالة علىٰ الاختصاص والتعيين.

فإذا قلت: هديته لكذا فهم معنىٰ: ذكرته له وجعلته له وهيأته ونحو هذا. وإذا تعدىٰ بنفسه تضمن المعنىٰ الجامع لذلك كله، وهو التعريف والبيان والإلهام.

فالقائل إذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] هو طالب من الله أن يعرفه إياه ويبينه له ويلهمه إياه ويقدره عليه، فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه، فجرد الفعل من الحرف، وأتىٰ به مجردًا معدىٰ بنفسه، ليتضمن هذه المراتب كلها، ولو عُدِّي بحرف تعين معناه وتخصص بحسب معنىٰ الحرف، فتأمله فإنه من دقائق اللغة وأسرارها.

وأما المسألة الثامنة: وهي أنه خص أهل السعادة بالهداية دون غيرهم، فهذه مسألة اختلف الناس فيها، وطال الحجاج من الطرفين، وهي أنه هل لله علىٰ الكافر نعمة أم لا؟

فمن ناف محتج بهذه وبقوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، فخص هؤلاء بالإنعام فدل علىٰ أن غيرهم غير منعم عليه، وبقوله لعباده المؤمنين: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٠]. وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة، فأي نعمة علىٰ من خُلِقَ للعذاب الأبدي؟

ومن مثبت محتج بقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقوله

لليهود: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ٤٠، ٤٧، ١٢٢] وهذا خطاب لهم في حال كفرهم. وبقوله في سورة النحل التي عدد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ۝ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨١-٨٣] وهذا نص صريح لا يحتمل صرفًا.

واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمة الله، وكل أحد مقر لله تعالى بأنه إنما يعيش في نعمته، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم، إلا من كابر وجحد حق الله تعالى وكفر بنعمته.

وفصل الخطاب في المسألة: أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان لا يشركهم فيها سواهم، ومطلق النعمة عام للخليقة كلهم؛ برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم.

فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم، فهذه غير مشتركة، ومطلق النعمة عام مشترك، فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة أصاب، وإن أراد سلب مطلق النعمة أخطأ، وإن أراد المثبت إثبات النعمة المطلقة للكافر أخطأ، وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب، وبهذا تتفق الأدلة، ويزول النزاع، ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب، والله الموفق للصواب.

(1) وأما قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ٤٠، ٤٧، ١٢٢]، فإنما يذكرهم بنعمته على آبائهم، ولهذا يعددها عليهم واحدة واحدة: بأن أنجاهم من آل فرعون، وأن فرق بهم البحر، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده ثم تاب عليهم وعفا عنهم، وبأن ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم، فأمرهم أن

---

(١) هذا يأتي في سورة البقرة مكرراً في موضعه (ج).

يذكروها ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله ولم ينقد لدينه وطاعته.

وكانت نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكرًا، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولي وتكذيبكم له ومعاداتكم إياه؟ وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم في حال كفرهم، والله أعلم.

وأما المسألة التاسعة: وهي أنه قال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ﴾ ولم يقل: لا المغضوب عليهم.

فيقال: لا ريب أن «لا» يعطف بها بعد الإيجاب، كما تقول: جاءني زيد لا عمرو، وجاءني العالم لا الجاهل.

وأما «غير» فهي تابع لما قبلها، وهي صفة ليس إلا كما سيأتي، وإخراج الكلام هنا مخرج الصفة أحسن من إخراجه مخرج العطف، وهذا إنما يعلم إذا عرف فرق ما بين العطف في هذا الموضع والوصف.

فنقول: لو أخرج الكلام مخرج العطف، وقيل: صراط الذين أنعمت عليهم لا المغضوب عليهم؛ لم يكن في العطف بها أكثر من نفي إضافة الصراط إلى المغضوب عليهم، كما هو مقتضى العطف، فإنك إذا قلت: جاءني العالم لا الجاهل، لم يكن في العطف أكثر من نفي المجيء عن الجاهل وإثباته للعالم.

وأما الإتيان بلفظ «غير» فهي صفة لما قبلها، فأفاد الكلام معها وصفهم بشيئين: أحدهما: أنهم منعم عليهم، والثاني: أنهم غير مغضوب عليهم، فأفاد ما يفيد العطف مع زيادة الثناء عليهم ومدحهم، فإنه يتضمن صفتين: صفة ثبوتية وهي كونهم منعمًا عليهم، وصفة سلبية وهي كونهم غير مستحقين لوصف الغضب، وأنهم مغايرون لأهله، ولهذا لما أريد بها هذا المعنى جرت صفة على المنعم عليهم، ولم تكن صفة منصوبة على الاستثناء، لأنها يزول منها معنى الوصفية المقصود.

وفيها فائدة أخرىٰ، وهي: أن أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ ادعوا أنهم هم المنعم عليهم دون أهل الإسلام، فكأنه قيل لهم: المنعم عليهم غيركم لا أنتم، وقيل للمسلمين: المغضوب عليهم غيركم لا أنتم، فالإتيان بلفظة «غير» في هذا السياق أحسن وأدل علىٰ إثبات المغايرة المطلوبة فتأمله.

وتأمل كيف قال: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ولم يقل: اليهود والنصارىٰ مع أنهم هم الموصوفون بذلك تجريدًا لوصفهم بالغضب والضلال، الذي به غايروا المنعم عليهم، ولم يكونوا منهم بسبيل؛ لأن الإنعام المطلق ينافي الغضب والضلال، فلا يثبت لمغضوب عليه ولا ضال.

فتبارك من أودع كلامه من الأسرار ما يشهد بأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأما المسألة العاشرة: وهي جريان «غير» صفة علىٰ المعرفة وهي لا تتعرف بالإضافة، ففيه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن «غير» هنا بدل لا صفة، وبدل النكرة من المعرفة جائز، وهذا فاسد من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن باب البدل المقصود فيه الثاني، والأول توطئة له ومهاد أمامه، وهو المقصود بالذكر، فقوله تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧]، المقصود هو أهل الاستطاعة خاصة، وذكر الناس قبلهم توطئة، وقولك: أعجبني زيد علمه، إنما وقع الإعجاب علىٰ علمه، وذكرت صاحبه توطئة لذكره، وكذا قوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، المقصود إنما هو السؤال عن القتال في الشهر الحرام لا عن نفس الشهر، وهذا ظاهر جدًّا في بدل البعض وبدل الاشتمال، ويراعىٰ في بدل الكل من الكل، ولهذا سمي بدلاً إيذانًا بأنه المقصود.

فقوله: ﴿ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ [العلق: ١٥، ١٦] المقصود:

لنسفعن بالناصية الكاذبة الخاطئة، وذكر المبدل منه توطئة لها. وإذا عرف هذا؛ فالمقصود هنا ذكر المنعم عليهم وإضافة الصراط إليهم، ومن تمام هذا المقصود وتكميله الإخبار بمغايرتهم للمغضوب عليهم، فجاء ذكر غير المغضوب مكملًا لهذا المعنى ومتممًا ومحققًا؛ لأن أصحاب الصراط المسؤول هدايته هم أهل النعمة، فكونهم غير مغضوب عليهم وصف محقق، وفائدته فائدة الوصف المبين للموصوف المكمل له، وهذا واضح.

الوجه الثاني: أن البدل يجري مجرى توكيد المبدل وتكريره وتثنيته، ولهذا كان في تقدير تكرار العامل وهو المقصود بالذكر كما تقدم، فهو الأول بعينه ذاتًا ووصفًا، وإنما ذكر بوصف آخر مقصود بالذكر كقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، ولهذا يحسن الاقتصار عليه دون الأول، ولا يكون مخلًّا بالكلام، ألا ترى أنك لو قلت في غير القرآن: لله حج البيت على من استطاع إليه السبيل. لكان كاملاً مستقيمًا لا خلل فيه؟ ولو قلت في دعائك: ربِّ اهدني صراط من أنعمت عليه من عبادك. لكان مستقيمًا؟

وإذا كان كذلك فلو قدر الاقتصار على (غير) وما في حيزها لاختل الكلام وذهب معظم المقصود منه؛ إذ المقصود إضافة الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم لا إضافته إلى غير المغضوب عليهم؛ بل أتى بلفظ (غير) زيادة في وصفهم والثناء عليهم، فتأمله.

الوجه الثالث: أن (غير) لا يعقل ورودها بدلاً، وإنما ترد استثناء أو صفة أو حالاً. وسر ذلك أنها لم توضع مستقلة بنفسها، بل لا تكون إلا تابعة لغيرها، ولهذا قلما يقال: جاءني غير زيد، ومررت بغير عمرو، والبدل لابد أن يكون مستقلًّا بنفسه، كما تبين أنه المقصود.

ونكتة الفرق أنك في باب البدل قاصد إلى الثاني متوجه إليه، قد جعلت الأول سلمًا

ومرقاةً إليه، فهو موضع قصدك ومحط إرادتك، وفي باب الصفة بخلاف ذلك، إنما أنت قاصد الموصوف موضح له بصفته، فاجعل هذه النكتة معياراً علىٰ باب البدل والوصف، ثم زن بها غير المغضوب عليهم، هل يصح أن يكون بدلاً أو وصفاً.

الجواب الثاني: أن (غير) ههنا صح جريانه صفة علىٰ المعرفة؛ لأنها موصولة والموصول مبهم غير معين، ففيه رائحة من النكرة بإبهامه؛ فإنه غير دال علىٰ معين فصلح وصفه بـ(غير) لقربه من النكرة، وهذا جواب صاحب الكشاف قال: (فإن قلت): كيف صح أن يقع (غير) صفة للمعرفة وهو لا يتعرف وإن أضيف إلىٰ المعارف؟ قلتُ: الذين أنعمت عليهم لا توقيت فيه، فهو كقوله:

ولقد أمرُّ علىٰ اللئيم يسبُّني ... فمضيتُ ثمتَ قلتُ لا يعنيني(١)

ومعنىٰ قوله: لا توقيتَ فيه، أي: لا تعيين لواحد من واحد كما تعين المعرفة، بل هو مطلق في الجنس، فجرىٰ مجرىٰ النكرة، واستشهاده بالبيت معناه: أن الفعل نكرة وهو يسبني، وقد أوقعه صفة للئيم المعرفة باللام؛ لكونه غير معين فهو في قوة النكرة، فجاز أن ينعت بالنكرة، وكأنه قال: علىٰ لئيم يسبني، وهذا استدلال ضعيف؛ فإن قوله: يسبني، حال منه لا وصف، والعامل فيه فعل المرور، والمعنىٰ: أمرَّ علىٰ اللئيم سابًّا لي، أي أمر عليه في هذه الحال فأتجاوزه ولا أحتفل بسبه.

الجواب الثالث: وهو الصحيح أن (غير) ههنا قد تعرفت بالإضافة؛ فإن المانع لها من تعريفها شدة إبهامها أو عمومها في كل مغاير للمذكور، فلا يحصل بها تعيين، ولهذا تجري صفة علىٰ النكرة، فتقول: رجل غيرك يقول كذا ويفعل كذا، فتجري صفة

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلىٰ شمر الحنفي من شعراء بني حنيفة باليمامة، روىٰ صاحب الأغاني أن شمرًا قتل المنذر بن ماء السماء غيلة سنة ٥٦٤م، وذكر البيت ابن منظور في لسان العرب (٨٢/١٢) (٢٩٧/١٥) والرازي في مختار الصحاح (ص ٣٧) وابن جرير الطبري في تفسيره (٤٢٠/١) والعيني في عمدة القاري (١٨٩/٩).

للنكرة مع إضافتها إلىٰ المعرفة، ومعلوم أن هذا الإبهام يزول لوقوعها بين متضادين بذكر أحدهما، ثم تضيفها إلىٰ الثاني، فيتعين بالإضافة ويزول الإبهام الذي يمنع تعريفها بالإضافة، كما قال:

نحن بنو عمرو الهجان الأزهر النسب المعروف غير المنكر (١)

أفلا تراه أجرىٰ (غير المنكر) صفة علىٰ النسب، كما أجرىٰ عليه (المعروف) أنهما صفتان معينتان، فلا إبهام في (غير) لأن مقابلها (المعروف) وهو معرفة، وضده المنكر متميز متعين كتعين المعروف، أعني تعين الجنس.

وهكذا قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفاتحة: ٦]، فالمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم، فإذا كان الأول معرفة كانت غير معرفة لإضافتها إلىٰ محصل متميز غير مبهم فاكتسب منه التعريف.

وينبغي أن تتفطن هنا لنكتة لطيفة في (غير) تكشف لك حقيقة أمرها: فأين تكون معرفة وأين تكون نكرة؟ وهي أن غيرًا هي نفس ما تكون تابعة له وضد ما هي مضافة إليه، فهي واقعة علىٰ متبوعها وقوع الاسم المرادف علىٰ مرادفه فإن (المعروف) هو تفسير (غير المنكر) والمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم هذا حقيقة اللفظة.

فإذا كان متبوعها نكرة لم تكن إلا نكرة، وإن أضيفت، كما إذا قلت: رجل غيرك فعل كذا وكذا. وإذا كان متبوعها معرفة، لم تكن إلا معرفة كما إذا قيل: المحسن غير المسيء محبوب معظّم عند الناس، والبر غير الفاجر مهيب، والعادل غير الظالم مجاب الدعوة. فهذا لا تكون فيه غير إلا معرفة، ومن ادّعىٰ فيها التنكير هنا غلط، وقال ما لا دليل عليه؛ إذ لا إبهام فيها بحال فتأمله.

فإن قلت: عدم تعريفها بالإضافة له سبب آخر، وهي: أنها بمعنىٰ مغاير اسم فاعل

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، ولم أقف علىٰ قائله، وذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٩٤) وفيه زيادة، بينما ذكر صدره الحافظ ابن حجر في الإصابة (٤/ ٦٨١).

من غاير، كمثل بمعنى مماثل، وشبه بمعنى مشابه، وأسماء الفاعلين لا تعرف بالإضافة، وكذا ما ناب عنها.

قلت: اسم الفاعل إنما لا يتعرف بالإضافة، إذا أضيف إلى معموله لأن الإضافة في تقدير الانفصال، نحو: هذا ضارب زيد غدًا، وليست غير بعاملة فيما بعدها عمل اسم الفاعل في المفعول حتى يقال: الإضافة في تقدير الانفصال، بل إضافتها إضافة محضة كإضافة غيرها من النكرات، ألا ترى أن قولك: غيرك بمنزلة قولك: سواك، ولا فرق بينهما، والله أعلم.

وأما المسألة الحادية عشرة: وهي: ما فائدة إخراج الكلام في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، مخرج البدل مع أن الأول في نية الطرح؟

فالجواب: أن قولهم: الأول في البدل في نية الطرح. كلام لا يصح أن يؤخذ على إطلاقه، بل البدل نوعان:

نوع يكون الأول في نية الطرح، وهو بدل البعض من الكل، وبدل الاشتمال، لأن المقصود هو الثاني لا الأول، وقد تقدم.

ونوع لا ينوي فيه طرح الأول، وهو بدل الكل من الكل، بل يكون الثاني بمنزلة التذكير والتوكيد وتقوية النسبة، مع ما تعطيه النسبة الإسنادية إليه من الفائدة المتجددة الزائدة على الأول، فيكون فائدة البدل التوكيد والإشعار بحصول وصف المبدل للمبدل منه، فإنه لما قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فكأن الذهن طلب معرفة ما إذا كان هذا الصراط مختصًا بنا أم سلكه غيرنا ممن هداه الله؟ فقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

وهذا كما إذا دللت رجلاً على طريق لا يعرفها، وأردت توكيد الدلالة وتحريضه على لزومها وأن لا يفارقها، فأنت تقول: هذه الطريق الموصلة إلى مقصودك، ثم تزيد ذلك

عنده توكيدًا وتقوية، فتقول: وهي الطريق التي سلكها الناس والمسافرون وأهل النجاة.

أفلا ترىٰ كيف أفاد وصفك لها بأنها طريق السالكين الناجين، قدرًا زائدًا علىٰ وصفك لها بأنها طريق موصلة وقريبة سهلة مستقيمة؟ فإن النفوس مجبولة علىٰ التأسي والمتابعة، فإذا ذكر لها من تتأسىٰ به في سلوكها أنست واقتحمتها فتأمله.

وأما المسألة الثانية عشرة وهي: ما وجه تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارىٰ مع تلازم وصفي الغضب والضلال؟

فالجواب: أن يقال: هذا ليس بتخصيص يقتضي نفي كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرىٰ، فإن كل مغضوب عليه ضال، وكل ضال مغضوب عليه، لكن ذكر كل طائفة بأشهر وصفيها وأحقها به وألصقه بها، وأن ذلك هو الوصف الغالب عليها، وهذا مطابق لوصف الله اليهود بالغضب في القرآن والنصارىٰ بالضلال، فهو تفسير للآية بالصفة التي وصفهم بها في ذلك الموضع.

أما اليهود فقال تعالىٰ في حقهم: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠] وفي تكرار هذا الغضب هنا أقوال:

أحدها: أنه غضب متكرر في مقابلة تكرر كفرهم برسول الله ﷺ والبغي عليه، ومحاربته فاستحقوا بكفرهم غضبًا، وبالبغي والحرب والصد عنه غضبًا آخر. ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨] فالعذاب الأول بكفرهم، والعذاب الذي زادهم إياه بصدهم الناس عن سبيله.

القول الثاني: إن الغضب الأول بتحريفهم وتبديلهم وقتلهم الأنبياء، والغضب الثاني بكفرهم بالمسيح.

والقول الثالث: إن الغضب الأول بكفرهم بالمسيح، والغضب الثاني بكفرهم بمحمد ﷺ.

والصحيح في الآية: أن التكرار هنا ليس المراد به التثنية التي تشفع الواحد؛ بل المراد غضب بعد غضب، بحسب تكرر كفرهم وإفسادهم وقتلهم الأنبياء، وكفرهم بالمسيح وبمحمد ﷺ ومعاداتهم لرسل الله، إلىٰ غير ذلك من الأعمال التي كل عمل منها يقتضي غضبًا علىٰ حدته. وهذا كما في قوله: ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ [الملك:٣، ٤]، أي كرة بعد كره لا مرتين فقط، وقصد التعدد في قوله: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠] أظهر.

ولا ريب أن تعطيلهم ما عطلوه من شرائع التوراة وتحريفهم وتبديلهم يستدعي غضباً، وتكذيبهم الأنبياء يستدعي غضبًا آخر، وقتلهم إياهم يستدعي غضبًا آخر، وتكذيبهم المسيح وطلبهم قتله، ورميهم أمه بالبهتان العظيم يستدعي غضبًا، وتكذيبهم النبي ﷺ يستدعي غضبًا، ومحاربتهم له وأذاهم لأتباعه يقتضي غضبًا، وصدهم من أراد الدخول في دينه عنه يقتضي غضبًا، فهم الأمة الغضبية أعاذنا الله من غضبه، فهي الأمة التي باءت بالغضب المضاعف المتكرر، وكانوا أحق بهذا الاسم والوصف من النصارىٰ. وقال تعالىٰ في شأنهم: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [المائدة: ٦٠]. فهذا غضب مشفوع باللعنة والمسخ، وهو أشد ما يكون من الغضب. وقال تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨-٨٠].

وأما وصف النصارىٰ بالضلال ففي قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن

سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة: ٧٧].

فهذا خطاب للنصارى لأنه في سياق خطابه معهم بقوله: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ...﴾ [المائدة: ٧٢] إلى قوله: ﴿... وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

فوصفهم بأنهم قد ضلوا أولاً، ثم أضلوا كثيرًا وهم أتباعهم، فهذا قبل مبعث النبي ﷺ، حيث ضلوا في أمر المسيح، وأضلوا أتباعهم، فلما بعث النبي ﷺ ازدادوا ضلالاً آخر بتكذيبهم له وكفرهم به، فتضاعف الضلال في حقهم، هذا قول طائفة منهم الزمخشري وغيره، وهو ضعيف فإن هذا كله وصف لأسلافهم الذين هم لهم تبع، فوصفهم بثلاث صفات:

أحدها: قد ضلوا من قبلهم. والثاني: أنهم أضلوا أتباعهم. والثالث: أنهم ضلوا عن سواء السبيل، فهذه صفات لأسلافهم.. الذين نُهي هؤلاء عن اتباع أهوائهم، فلا يصح أن يكون وصفًا للموجودين في زمن النبي ﷺ، لأنهم هم المنهيون أنفسهم لا المنهي عنهم، فتأمله.

وإنما سر الآية أنها اقتضت تكرار الضلال في النصارى ضلالاً بعد ضلال؛ لفرط جهلهم بالحق، وهي نظير الآية التي تقدمت في تكرار الغضب في حق اليهود، ولهذا كان النصارى أخص بالضلال من اليهود.

ووجه تكرار هذا الضلال: أن الضال قد أخطأ نفس مقصوده فيكون ضالًّا فيه فيقصد ما لا ينبغي أن يقصده، ويعبد من لا ينبغي أن يعبده، وقد يصيب مقصودًا حقًّا، لكن يضل في طريق طلبه والسبيل الموصلة إليه. فالأول ضلال في الغاية، والثاني: ضلال في الوسيلة، ثم إذا دعا غيره إلى ذلك فقد أضله.

وأسلاف النصارى اجتمعت لهم الأنواع الثلاثة، فضلوا عن مقصودهم، حيث لم يصيبوه وزعموا أن إلههم بشر يأكل ويشرب ويبكي، وأنه قُتل وصلب وصفع، فهذا

ضلال في نفس المقصود حيث لم يظفروا به، وضلوا عن السبيل الموصلة إليه، فلا اهتدوا إلىٰ المطلوب ولا إلىٰ الطريق الموصل إليه، ودعوا أتباعهم إلىٰ ذلك، فضلوا عن الحق وعن طريقه وأضلوا كثيرًا، فكانوا أدخل في الضلال من اليهود، فوصفوا بأخص الوصفين.

والذي يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد وإيثار ما كان لهم علىٰ قومهم؛ من السُّحت والرياسة فخافوا أن يذهب بالإسلام، فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق، فإنهم كانوا يعرفون أن محمدًا رسول الله كما يعرفون أبناءهم.

ولهذا لم يوبخهم الله تعالىٰ ويقرعهم إلا بإرادتهم الفاسدة؛ من الكبر والحسد وإيثار السحت والبغي وقتل الأنبياء. ووبخ النصارىٰ بالضلال والجهل الذي هو عدم العلم بالحق؛ فالشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة، ومن عدم إرادته والعمل بها أخرىٰ يتركب منها.

فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به، وإيثار غيره عليه بعد معرفته فلم يكن ضلالاً محضًا. وكفر النصارىٰ نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه، فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه؛ أشبهوا الأمة الغضبية وبقوا مغضوبًا عليهم ضالين.

ثم لما كان الهدىٰ والفلاح والسعادة لا سبيل إلىٰ نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره علىٰ غيره، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق، والبغي يمنعه من إرادته كان العبد أحوج شيء إلىٰ أن يسأل الله تعالىٰ كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم تعريفًا وبيانًا، وإرشاداً وإلهامًا وتوفيقًا وإعانة فيعلمه ويعرِّفه، ثم يجعله مريدًا له قاصدًا لاتباعه، فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه علىٰ عمد وعلم، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال.

وكان السلف يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من

عبادنا ففيه شبه من النصارىٰ[1]. وهذا كما قالوا؛ فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه، وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه، وحسد من آتاه الله من فضله وطلب قتله وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، ويدعونهم إلىٰ كتاب ربهم وسنة نبيهم إلىٰ غير ذلك من الأخلاق التي ذم بها اليهود: من الكبر واللي والكتمان والتحريف والتحيل علىٰ المحارم وتلبيس الحق بالباطل، فهذا شبهه باليهود ظاهر.

وأما من فسد من العبّاد فعبد الله بمقتضىٰ هواه، لا بما بعث به رسوله ﷺ وغلا في الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية، وجاوز ذلك إلىٰ نوع من الحلول أو الاتحاد، فشبهه بالنصارىٰ ظاهر، فعلىٰ المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد.

ومن تصور الشبهين والوصفين وعلم أحوال الخلق، علم ضرورته وفاقته إلىٰ هذا الدعاء الذي ليس للعبد دعاء أنفع منه؛ ولا أوجب منه عليه وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلىٰ الحياة والنفس؛ لأن غاية ما يقدر بفوتهما موته، وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. آمين، إنه قريب مجيب.

وأما المسألة الثالثة عشرة: وهو تقديم المغضوب عليهم علىٰ الضالين فلوجوه عديدة:

أحدها: أنهم متقدمون عليهم بالزمان.

الثاني: أنهم كانوا هم الذين يَلُون النبي ﷺ من أهل الكتابين، فإنهم كانوا جيرانه في المدينة، والنصارىٰ كانت ديارهم نائية عنه؛ ولهذا تجد خطاب اليهود والكلام معهم في القرآن أكثر من خطاب النصارىٰ، كما في سورة البقرة والمائدة وآل عمران وغيرها من السور.

---

(١) هذا قول سفيان بن عيينة، انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥١) وفيض القدير (٥/ ٢٦١).

الثالث: أن اليهود أغلظ كفرًا من النصارى، ولهذا كان الغضب أخص بهم واللعنة والعقوبة، فإن كفرهم عن عناد وبغي كما تقدم؛ فالتحذير من سبيلهم والبعد منها أحق وأهم بالتقديم، وليس عقوبة من جهل كعقوبة من علم وعاند.

الرابع: وهو أحسنها أنه تقدم ذكر المنعم عليهم والغضب ضد الإنعام، والسورة هي السبع المثاني التي يذكر فيها الشيء ومقابله، فذكر المغضوب عليهم مع المنعم عليهم فيه من الازدواج والمقابلة ما ليس في تقديم الضالين، فقولك: الناس منعم عليه ومغضوب عليه، فكن من المنعم عليهم أحسن من قولك: منعم عليه وضال.

وأما المسألة الرابعة عشرة: وهي أنه أتى في أهل الغضب باسم المفعول، وفي الضآلين باسم الفاعل، فجوابهما ظاهر.

فإن أهل الغضب من غضب الله عليهم وأصابهم غضبه فهم مغضوب عليهم.

وأما أهل الضلال فإنهم هم الذين ضلوا وآثروا الضلال واكتسبوه، ولهذا استحقوا العقوبة عليه، ولا يليق أن يقال: ولا المضلين مبنيًّا للمفعول؛ لما في رائحته من إقامة عذرهم، وأنهم لم يكتسبوا الضلال من أنفسهم، بل فُعل فيهم. ولا حجة في هذا للقدرية، فإنا نقول: إنهم هم الذين ضلوا وإن كان الله أضلهم، بل فيه رد على الجبرية الذين لا ينسبون إلى العبد فعلاً إلا على جهة المجاز لا الحقيقة، فتضمنت الآية الرد عليهم كما تضمن قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] الرد على القدرية، ففي الآية إبطال قول الطائفتين، والشهادة لأهل الحق أنهم هم المصيبون، وهم المثبتون للقدر توحيدًا وخلقًا، والقدرة لإضافة أفعال العباد إليهم عملًا وكسبًا، وهو متعلق الأمر والعمل، كما أن الأول متعلق الخلق والقدرة.

فاقتضت الآية إثبات الشرع والقَدر والمعاد والنبوة، فإن النعمة والغضب هو ثوابه وعقابه، فالمنعم عليهم رسله وأتباعهم ليس إلا، وهدي أتباعهم إنما يكون على أيديهم، فاقتضت إثبات النبوة بأقرب طريق وأبينها وأدلها على عموم الحاجة وشدة الضرورة

إليها، وأنه لا سبيل للعبد أن يكون من المنعم عليهم إلا بهداية الله له، ولا تُنال هذه الهداية إلا على أيدي الرسل، وأن هذه الهداية لها ثمرة، وهي النعمة التامة المطلقة في دار النعيم، ولخلافها ثمرة وهي الغضب المقتضي للشقاء الأبدي.

فتأمل كيف اشتملت هذه الآية مع وجازتها واختصارها على أهم مطالب الدين وأجلها، والله الهادي إلى سواء السبيل، وهو أعلم.

وأما المسألة الخامسة عشرة: وهي ما فائدة زيادة (لا) بين المعطوف والمعطوف عليه؟ ففي ذلك أربع فوائد:

أحدها: أن ذكرها تأكيد للنفي الذي تضمنه (غير)، فلولا ما فيها من معنى النفي لما عطف عليها بلا مع الواو، فهو في قوة: لا المغضوب عليهم ولا الضالين، أو: غير المغضوب عليهم وغير الضالين.

الفائدة الثانية: أن المراد المغايرة الواقعة بين النوعين وبين كل نوع بمفرده، فلو لم يذكر (لا) وقيل: غير المغضوب عليهم والضالين أوهم أن المراد ما غاير المجموع المركب من النوعين، لا ما غاير كل نوع بمفرده، فإذا قيل: ولا الضالين كان صريحًا في أن المراد صراط غير هؤلاء وغير هؤلاء.

وبيان ذلك أنك إذا قلت: ما قام زيد وعمرو، فإنما نفيت القيام عنهما ولا يلزم من ذلك نفيه عن كل واحد منهما بمفرده.

الفائدة الثالثة: رفع توهُّم أن الضالين وصف للمغضوب عليهم، وأنهما صنف واحد وصفوا بالغضب والضلال، ودخل العطف بينهما كما دخل في عطف الصفات بعضها على بعض نحو قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٣] إلى آخرها فإن هذه صفات المؤمنين، ومثل قوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ١-٣] ونظائره.

فلما دخلت (لا) علم أنهما صنفان متغايران مقصودان بالذكر، وكانت (لا) أولى بهذا المعنى من (غير) لوجوه:

أحدها: أنها أقل حروفًا.

الثاني: التفادي من تكرار اللفظ.

الثالث: الثقل الحاصل بالنطق بـ (غير) مرتين من غير فصل إلا بكلمة مفردة، ولا ريب أنه ثقيل على اللسان.

الرابع: أن (لا) إنما يُعطف بها بعد النفي، فالإتيان بها مؤذن بنفي الغضب عن أصحاب الصراط المستقيم، كما نفى عنهم الضلال، و(غير) ـ وإن أفهمت هذا ـ (فلا) أدخل في النفي منها. وقد عرف بهذا جواب المسألة السادسة عشرة: وهي أن (لا) إنما يُعطف بها في النفي.

وأما المسألة السابعة عشر: وهي: أن الهداية هنا من أي أنواع الهدايات؟ فاعلم أن أنواع الهداية أربعة:

أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]، أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيأته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال. وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته؛ إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره. وهداية الجماد المسخر لما خلق له، فله هداية تليق به، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وصورها.

وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدى الرِّجلين للمشي، واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه.

ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو، فتبارك الله رب العالمين، وهدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومن الأبنية، ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصي عليها، ثم تأوي إلى بيوتها، وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه والائتمام به أين توجه بها، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء.

ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم، وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة، بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة.

فإن لم يهمل هذه الحيوانات سُدًى، ولم يتركها معطلة؛ بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها، كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني، الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضله على كثير من خلقه؛ مهملاً وسدى معطلًا لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته؛ بل يتركه معطلاً لا يأمره ولا ينهاه ولا يثيبه ولا يعاقبه؟ وهل هذا إلا مناف لحكمته ونسبته إلى ما يليق بجلاله؟ ولهذا أنكر ذلك على من زعمه، ونزَّه نفسه عنه وبيَّن أنه يستحيل نسبة ذلك إليه، وأنه يتعالى عنه، فقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] فنزه نفسه عن هذا الحسبان، فدل على أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة، وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل، وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع كما هو أصح الطريقين في ذلك.

ومن فهم هذا فهم سر اقتران قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨] بقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة، وأن من لم يهمل أمر كل دابة في الأرض ولا

طائر يطير بجناحيه، بل جعلها أممًا وهداها إلى غاياتها ومصالحها، كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم؟! فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا انتفى الهدى معها كقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]، أي بينًا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا. ومنها قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام، وهي الهداية المستلزمة للاهتداء، فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [النحل: ٣٩]. وفي قوله: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧]. وفي قوله النبي ﷺ: «من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له». وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦] فنفى عنه هذه الهداية، وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

الرابع: غاية هذه الهداية، وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩] وقال أهل الجنة فيها: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقال تعالى عن أهل النار: ﴿ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. إذا عُرف هذا فالهداية المسؤولة في قوله: ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة، فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام.

فإن قيل: كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له، وكذلك الإلهام والتوفيق؟

قيل: هذه هي المسألة الثامنة عشرة، وقد أجاب عنها من أجاب بأن المراد التثبيت

ودوام الهداية، ولقد أجاب وما أجاب، وذكر فرعًا لا قوام له بدون أصله، وثمرة لا وجود لها بدون حاملها. ونحن نبين بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به، وأعظم من ذلك بحول الله: فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور، وهو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها:

الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوبًا للرب تعالى مرضيًا له فيؤثره، وكونه مغضوبًا له مسخوطًا عليه فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريدًا لجميع ما يحب الله منه أن يفعله، عازمًا عليه، ومريدًا لترك جميع ما نهى الله عنه عازمًا على تركه بعد خطوره بالبال مفصلاً، وعازمًا على تركه من حيث الجملة مجملاً، فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائماً به فعلاً وتركاً، فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه.

فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية، ويتعبها ثلاثة هي من تمامها وكمالها:

أحدها: أمور هُدي إليها جملة، ولم يهتد إلى تفاصيلها، فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها.

الثاني: أمور هدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها، لتكمل له هدايتها.

الثالث: الأمور التي هدي إليها تفصيلاً من جميع وجوهها، فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها.

فهذه ستة أصول تتعلق بما يعزم على فعله وتركه، ويتعلق بالماضي أمر سابع، وهو أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها. وإذا كان كذلك فإنما يقال: كيف يسأل الهداية وهي موجودة له؟ ثم يجاب

عن ذلك بأن المراد التثبيت والدوام عليها، إذا كانت هذه المراتب الست حاصلة له بالفعل فحينئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام.

فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه، وما لا يريده من رشده أكثر مما يريده، ولا سبيل له إلىٰ فعله إلا بأن يخلق الله فاعلية فيه، فالمسؤول هو أصل الهداية علىٰ الدوام تعليمًا وتوفيقًا وخلقًا للإرادة فيه وإقدارًا له، وخلقًا للفاعلية وتثبيتًا له علىٰ ذلك، فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلىٰ سؤال الهداية أصلها وتفصيلها علمًا وعملاً، والتثبيت عليها، والدوام إلىٰ الممات.

وسر ذلك أن العبد مفتقر إلىٰ الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره، أصلًا وتفصيلاً وتثبيتًا، ومفتقرًا إلىٰ مزيد العلم بالهدىٰ علىٰ الدوام فليس له أنفع ولا هو إلىٰ شيء أحوج من سؤال الهداية، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يثبت قلوبنا علىٰ دينه.

أما المسألة التاسعة عشرة: وهي الإتيان بالضمير في قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾ ضمير جمع، فقد قال بعض الناس في جوابه: إن كل عضو من أعضاء العبد وكل حاسة ظاهرة وباطنة مفتقرة إلىٰ هداية خاصة به، فأتىٰ بصيغة الجمع تنزيلاً لكل عضو من أعضائه منزلة المسترشد الطالب لهداه. وعرضت هذا الجواب علىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه؛ فاستضعفه جدًّا. وهو كما قال، فإن الإنسان اسم للجملة، لا لكل جزء من أجزائه وعضو من أعضائه. والقائل إذا قال: اغفر لي وارحمني واجبرني وأصلحني واهدني، سائل من الله ما يحصل لجملته ظاهره وباطنه، فلا يحتاج أن يستشعر لكل عضو مسألة تخصه يفرد لها لفظة.

فالصواب: أن يقال: هذا مطابق لقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم، فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلىٰ الرب تعالىٰ، وإقرار بالفاقة إلىٰ عبوديته واستعانته وهدايته، فأتىٰ به بصيغة ضمير الجمع، أي نحن معاشر عبيدك مُقرون لك بالعبودية.

وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك، وتحت طاعتك، ولا نخالف أمرك؛ فيكون هذا أحسن وأعظم موقعًا عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك. ولهذا لو قال: أنا وحدي مملوكك، استدعى مقته، فإذا قال: أنا وكل من في البلد مماليكك وعبيدك وجند لك كان أعظم وأفخم؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدًّا وأنا واحد منهم، وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك، فقد تضمن ذلك من الثناء على الرب بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائليه الهداية، ما لا يتضمنه لفظ الإفراد، فتأمله.

وإذا تأملت أدعية القرآن، رأيت عامتها على هذا النمط نحو: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١]. ونحو دعاء آخر البقرة، وآخر آل عمران وأولها وهو أكثر أدعية القرآن.

وأما المسألة العشرون وهي: ما هو الصراط المستقيم؟

فنذكر فيه قولاً وجيزًا، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته.

وحقيقته شيء واحد، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده على ألسن رسله، وجعله موصلاً لعباده إليه، ولا طريق لهم إليه سواه؛ بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا.

وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحدًا في عبوديته، ولا يشرك برسوله أحدًا في طاعته، فيجرد التوحيد ويجرد متابعة الرسول.

وهذا معنى قول بعض العارفين: إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين: صدق محبته، وحسن معاملته، وهذا كله مضمون شهادة: أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فأي شيء فسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين.

ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله، وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه، ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته، والأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا الله، والثاني يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمدًا رسول الله.

وهذا هو الهدىٰ ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل به، وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به، فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها، وهي معنىٰ قول من قال: علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مشكاة النبوة.

ومعنىٰ قول من قال: متابعة رسول الله ظاهرًا وباطنًا علمًا وعملاً، ومعنىٰ قول من قال: الإقرار لله بالوحدانية والاستقامة علىٰ أمره.

وأما ما عدا هذا من الأقوال كقول من قال: الصلوات الخمس. وقول من قال: حب أبي بكر وعمر، وقول من قال: هو أركان الإسلام الخمس التي بني عليها.

فكل هذه الأقوال تمثيل وتنويع، لا تفسير مطابق له، بل هي جزء من أجزائه، وحقيقته الجامعة ما تقدم. والله أعلم.

❁❁❁

سُورَةُ البَقَرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾.

[1]تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدىٰ اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره، وكذلك الضلال؛ فأعمال البر تثمر الهدىٰ، وكلما ازداد منها ازداد هدىٰ، وأعمال الفجور بالضد. وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر، فيجازي عليها بالهدىٰ والفلاح، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء. وأيضًا فإنه البَرُّ، ويحب أهل البِرِّ، فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر، ويبغض الفجور وأهله، فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور.

فمن الأصل الأول، قوله تعالىٰ: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١، ٢] وهذا يتضمن أمرين:

أحدهما: أنه يهدي من اتقىٰ مساخطه قبل نزول الكتاب، فإن الناس علىٰ اختلاف مللهم ونحلهم قد استقر عندهم، أن الله ـ سبحانه ـ يكره الظلم والفواحش والفساد في الأرض، ويمقت فاعل ذلك، ويحب العدل والإحسان، والجود والصدق، والإصلاح في الأرض، ويحب فاعل ذلك، فلما نزل الكتاب أثاب ـ سبحانه ـ أهل البر، بأن وفقهم للإيمان به جزاء لهم علىٰ برهم وطاعتهم، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم، بأن حال بينهم وبين الاهتداء به.

***

(١) ١٢٨ فوائد.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

[١]وكما يقرن ـ سبحانه ـ بين الهدىٰ والتقىٰ والضلال والغي، فكذلك يقرن بين الهدىٰ والرحمة والضلال والشقاء، فمن الأول قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥]، وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧] وقال عن المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨] وقال أهل الكهف: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴾ [الكهف: ١٠] وقال: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

[١]والأمر الثاني: أن العبد إذا آمن بالكتاب، واهتدىٰ به مجملاً، وقبل أوامره، وصدّق بأخباره، كان ذلك سببًا لهداية أخرىٰ تحصل له علىٰ التفصيل؛ فإن الهداية لا نهاية لها، ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرىٰ، وفوق تلك الهداية هداية أخرىٰ، إلىٰ غير غاية. فكلما اتقىٰ العبد ربه ارتقىٰ إلىٰ هداية أخرىٰ، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوىٰ[٢].

وكلما فوت حظًّا من التقوىٰ، فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقىٰ زاد هداه، وكلما اهتدىٰ زادت تقواه، قال تعالىٰ: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦] وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴾ [الأعلىٰ: ١٠]، وقال: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

(١) ١٣١ فوائد.

(٢) كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها، انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١٩) (٤/ ١١٥، ٥١٩)، وجامع العلوم والحكم (١/ ٣٤٢).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ [يونس: ٩]، فهداهم أولاً للإيمان، فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية. ونظير هذا قوله: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦]. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩].

ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعز، الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل، فسر الفرقان بهذا وبهذا، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سبأ: ٩]، وقال: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى: ٣٣] في سورة لقمان، وسورة إبراهيم، وسبأ، والشورى.

فأخبر عن آياته المشهودة العيانية، أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر، كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية، أنها إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والإنابة، ومن كان قصده اتباع رضوانه، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه، كما قال: ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ١-٣]، وقال في الساعة: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٥] وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها، فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية، ولهذا لما ذكر ـ سبحانه ـ في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل، وما حل بهم في الدنيا من الخزي، قال بعد ذلك: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [هود: ١٠٣] فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف الآخرة، وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها، فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، وإذا سمع ذلك، قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعيم والبؤس، والسعادة والشقاوة، وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية.

وإنما كان الصبر والشكر سببًا لانتفاع صاحبهما بالآيات ينبني على الصبر والشكر؛ فنصفه صبر ونصفه شكر، فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه[1]، وآيات

---

(١) قال العيني رحمه الله في عمدة القاري (٢١/ ٨٠): وقال الطيبي: ورد الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، وانظر: فيض القدير (٤/ ٢٨٥) والفتح السماوي (٣/ ٩٨٢).

الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك إجابة داعي الهوى؛ فإذا كان مشركًا متبعًا هواه لم يكن صابرًا ولا شكوراً، فلا تكون الآيات نافعة له، ولا مؤثرة فيه إيماناً(١).

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

(٢)ومن هذا إخباره سبحانه بأنه طبع على قلوب الكافرين، وخَتم عليها، وأنه أصمّها عن الحق وأعمى أبصارها عنه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة: ٦، ٧] والوقف التام هنا. ثم قال: ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [البقرة: ٧]، كقوله: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥]. وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١]، ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٧٤]، ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٠]. وأخبر سبحانه أن على بعض القلوب أقفالاً، تمنعها من أن تنفتح لدخول الهدى إليها. وقال: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤] فهذا الوقر والعمى حال بينهم وبين أن يكون لهم هدى وشفاء. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [غافر: ٣٧] قرأها الكوفيون

---

(١) الأصل الثاني يأتي على قوله: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦] إن شاء الله (ج).
(٢) ٨٢ شفاء العليل.

وصُدَّ بضم الصاد حملاً على زُيِّنَ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨] وقال: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الصف: ٧] ومعلوم أنه لم ينفِ هدى البيان والدلالة الذي تقوم به الحجة، فإنه حجته على عباده.

والقدرية ترد هذا كله إلى المتشابه، وتجعله من متشابه القرآن، وتتأوله على غير تأويله، بل تتأوله بما يقطع ببطلانه وعدم إرادة المتكلم له كقول بعضهم: المراد من ذلك تسمية الله العبد مهتديًا وضالًّا، فجعلوا هداه وإضلالاً مجرد تسمية العبد بذلك، وهذا مما يعلم قطعًا أنه لا يصح حمل هذه الآيات عليه.

وأنت إذا تأملتها وجدتها لا تحتمل ما ذكروه البتة، وليس في لغة أمة من الأمم فضلاً عن أفصح اللغات وأكملها: هداه بمعنى: سماه مهتديًا، وأضله: سماه ضالًّا. وهل يصح أن يقال: علمه إذا سماه عالـمًا، وفهمه: إذا سماه فهـمًا. وكيف يصح هذا في مثل قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

فهل فهم أحد غير القدرية المحرفة للقرآن من هذا: ليس عليك تسميتهم مهتدين، ولكن الله يسمي من يشاء مهتديًا؟

وهل فَهم أحد قط من قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦]: لا تسميه مهتديًا، ولكن الله يسميه بهذا الاسم؟ وهل فهم أحد من قول الداعي: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، وقوله: اللهم اهدني من عندك ونحوه، اللهم سمني مهتديًا؟ وهذا من جناية القدرية على القرآن ومعناه، نظير جناية إخوانهم من الجهمية على نصوص الصفات وتحريفها عن مواضعها، وفتحوا للزنادقة والملاحدة جنايتهم على نصوص المعاد وتأويلها بتأويلات إن لم تكن أقوى من تأويلاتهم لم تكن دونها، وفتحوا للقرامطة والباطنية تأويل نصوص الأمر والنهي بنحو تأويلاتهم.

فتأويل التحريف الذي سلكته هذه الطوائف أصل فساد الدنيا والدين وخراب العالم، وسنفرد إن شاء الله كتابًا نذكر فيه جناية المتأويين على الدنيا والدين، وأنت إذا

وازنت بين تأويلات القدرية والجهمية والرافضة، لم تجد بينها وبين تأويلات الملاحدة والزنادقة من القرامطة الباطنية وأمثالهم كبير فوق.

والتأويل الباطل يتضمن تعطيل ما جاء به الرسول والكذب على المتكلم أنه أراد ذلك المعنى؛ فتتضمن إبطال الحق وتحقيق الباطل، ونسبة المتكلم إلى ما لا يليق به من التلبيس والإلغاز مع القول عليه بلا علم أنه أراد هذا المعنى.

(١) ومما ينبغي أن يُعلم: أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل، حصول الإيمان بأن يفك الذي ختم على القلب، وطبع عليه، وضرب عليه القفل، ذلك الختم والطابع والقفل، ويهديه بعد ضلاله، ويعلمه بعد جهله، ويرشده بعد غيّه، ويفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده، حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر لم يمتنع أن يمحوها ويكتب عليه السعادة والإيمان.

وقرأ قارئ عند عمر بن الخطاب: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وعنده شاب فقال: اللهم عليها أقفالها ومفاتيحها بيدك لا يفتحها سواك. فعرفها له عمر وزادته عنده خيرًا، وكان عمر يقول في دعائه: اللهم إن كنت كتبتني شقيًّا فامحني واكتبني سعيدًا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت(٢)، فالرب تعالى فعَّال لما يريد لا حجْر عليه.

وقد ضل ههنا فريقان: القدرية حيث زعمت أن ذلك ليس مقدورًا للرب، ولا يدخل تحت فعله، إذ لو كان مقدورًا له ومنعه العبد لناقض جوده ولطفه، والجبرية

---

(١) ٩٠ شفاء العليل.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ١٦٨) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٢٠٧) وانظر: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (ص٧). وأخرجه الطبري أيضًا من قول ابن مسعود ﷺ، انظر: تفسير الطبري (١٣/ ١٦٨) والطبراني في الكبير عن ابن مسعود (٩/ ١٧١ رقم ٨٨٤٧) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٨٥): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا قلابة لم يدرك ابن مسعود. وأخرجه أبو طاهر السلفي في معجم السفر من قول شقيق بن سلمة رحمه الله (رقم ١٢٣٩).

حيث زعمت أنه سبحانه إذا قدر قدرًا أو علم شيئًا فإنه لا يغيره بعد هذا، ولا يتصرف فيه بخلاف ما قدره وعلمه، والطائفتان حجرت على من لا يدخل تحت حجر أحد أصلا، وجميع خلقه تحت حجره شرعًا وقدرًا وهذه المسألة من أكبر مسائل القدر، وسيمر بك إن شاء الله في باب المحو والإثبات ما يشفيك فيها.

والمقصود: أنه مع الطبع والختم والقفل لو تعرض العبد أمكنه فك ذلك الختم والطابع، وفتح ذلك القفل يفتحه من بيده مفاتيح كل شيء وأسباب الفتح مقدورة للعبد غير ممتنعة عليه، وإن كان فك الختم وفتح القفل غير مقدور له كما أن شرب الدواء مقدور له، وزوال العلة وحصول العافية غير مقدور، فإذا استحكم به المرض وصار صفة لازمة له لم يكن له عذر في تعاطي ما إليه من أسباب الشفاء، وإن كان غير مقدور له ولكن لما ألف العلة وساكنها ولم يحب زوالها ولا آثر ضدها عليها مع معرفته بما بينها وبين ضدها من التفاوت، فقد سد على نفسه باب الشفاء بالكلية.

والله سبحانه يهدي عبده إذا كان ضالا وهو يحسب أنه على هدى، فإذا تبين له الهدى لم يعدل عنه لمحبته وملاءمته لنفسه، فإذا عرف الهدى فلم يحبه ولم يرض به وآثر عليه الضلال مع تكرر تعريفه منفعة هذا وخيره ومضرة هذا وشره، فقد سد على نفسه، باب الهدى بالكلية.

فلو أنه في هذه الحال تعرض وافتقر إلى من بيده هداه، وعلم أنه ليس إليه هدى نفسه وأنه إن لم يهده الله فهو ضال، وسأل الله أن يقبل بقلبه وأن يقيه شر نفسه وفقه وهداه، بل لو علم الله منه كراهية لما هو عليه من الضلال وأنه مرض قاتل إن لم يشفه منه أهلكه، لكانت كراهته وبغضه إياه مع كونه مبتلى به مكن أسباب الشفاء والهداية، ولكن من أعظم أسباب الشقاء والضلال محبته له ورضاه به وكراهته الهدى والحق، فلو أن المطبوع على قلبه المختوم عليه كره ذلك ورغب إلى الله في فك ذلك عنه وفعل مقدوره، لكان هداه أقرب شيء إليه، ولكن إذا استحكم الطبع والختم حال بينه وبين كراهة ذلك وسؤال الرب فكه وفتح قلبه.

[١]فإن قيل: فإذا جوَّزتم أن يكون الطبع والختم والقفل، عقوبة وجزاء على الجرائم والإعراض والكفر السابق على فعل الجرائم.

قيل: هذا موضع يغلط فيه أكثر الناس، ويظنون بالله سبحانه خلاف موجب أسمائه وصفاته. والقرآن من أوله إلى آخره، إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بينه له؛ وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه والتأكيد في البيان والإرشاد، وتكرار الإعراض منهم والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك، والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع بل كان اختيارًا، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية.

فتأمل هذا المعنى في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [البقرة: ٦، ٧] ومعلوم أن هذا ليس حكمًا يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارًا قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم.

فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردةً وخنازيرَ، وبعضهم بالطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب، كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت، ثم يعافي عبده ويهديه، كما يعاقب بالعذاب كذلك[٢].

***

---

(١) ٩١ شفاء العليل.

(٢) بعد هذا ذكر فصلاً مطولاً مجموعًا فيه فائدة كبيرة جدًا لمن أراده، وسنذكره مفرقًا في محله إن شاء الله (ج).

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾.

[(١)]فأخبر ﷺ: أن هؤلاء المخادعين مخدوعون، وهم لا يشعرون أن الله تعالى خادع من خدعه، وأنه يكفي المخدوع شر من خدعه.

والمخادعة: هي الاحتيال، والمراوغة بإظهار الخير مع إبطان خلافه، ليحصل مقصود المخادع، وهذا موافق لاشتقاق اللفظ في اللغة، فإنهم يقولون: طريق خيدع. إذا كان مخالفًا للقصد لا يشعر به، ولا يفطن له، ويقال للسراب: الخيدع[(٢)]، لأنه يغر من يراه، وضب خدع، أي: مراوغ كما قالوا: أخدع من ضبّ[(٣)]، ومنه: «**الحرب** خدعة»[(٤)] وسوق خادعة، أي: متلونة، وأصله: الإخفاء والستر. ومنه سميت الخزانة مخدعًا.

فلما كان القائل: «آمنت» مظهرًا لهذه الكلمة، غير مريد حقيقتها المرعية المطلوبة شرعًا، بل مريد لحكمها وثمرتها فقط؛ مخادعًا كان المتكلم بلفظ «بعت» و«اشتريت» و«طلقت» و«نكحت» و«خالعت» و«آجرت» و«ساقيت» و«أوصيت» غير مريد لحقائقها الشرعية المطلوبة منها، شرعًا، بل مريد لأمور أخرى غير ما شرعت له، أو ضدّ ما شرعت له؛ مخادعًا، ذاك مخادعٌ في أصل الإيمان، وهذا مخادع في أعماله وشرائعه. قال شيخنا: وهذا ضرب من النفاق في آيات الله تعالى وحدوده. كما أن الأول نفاق في أصل الدين.

---

(١) ٣٤٠ إغاثة جـ١.

(٢) انظر: لسان العرب (٨/ ٦٤) وتهذيب الأسماء (٣/ ٨٤) وعمدة القاري (١٤/ ٢٥٧).

(٣) انظر: لسان العرب (٨/ ٦٥) والقاموس المحيط (ص ٩١٩).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٣٠) ومسلم (رقم ١٧٣٩) وانظر: فتح الباري (٦/ ١٥٨) وشرح النووي (٧/ ١٦٩) (١٢/ ٤٥) وعمدة القاري (١٣/ ٢٦٩) (١٤/ ٢٧٤-٢٧٦)، والديباج على مسلم (٣/ ١٦٨) (٤/ ٣٤٣) وتحفة الأحوذي (٥/ ٢٦١-٢٦٢).

يؤيد ذلك: ما رواه سعيد بن منصور، عن ابن عباس رضي الله عنهما «أنه جاءه رجل فقال: إن عمي طلّق امرأته ثلاثًا، أيحلها له رجل؟ فقال: «من يخادع الله يخدعه»[(١)].

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝﴾.

[(٢)]وأما المرض فقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وقال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١]، ومرض القلب خروج عن صحته واعتداله، فإن صحته أن يكون عارفًا بالحق محبًّا له، مؤثرًا له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه، فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غي وشهوة، وقد سمّى الله سبحانه كلًّا منهما مرضًا، قال ابن الأنباري: أصل المرض في اللغة الفساد، مرض فلان فسد جسمه وتغيرت حاله، ومرضت بالمرض تغيرت وفسدت، قالت ليلى الأخيلية:

إذا هبط الحَجَّاجُ أرضًا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها[(٣)]

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٣٣٧ رقم ١٤٧٥٨) وعبد الرزاق في مصنفه (٦/ ٢٦٦ رقم ١٠٧٧٩) وانظر: الدر المنثور (١/ ٦٨٠) والمحلى (١٠/ ١٨١) والمدونة الكبرى (٤/ ١٥٣) (٥/ ٤٢١) والكبائر (ص ١٣٩).

(٢) ٩٨ شفاء.

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى ليلى بنت عبد الله بن الرحال الأخيلية، كانت شاعرة فصيحة ذكية، تلي طبقة الخنساء، وكان بينها وبين النابغة الجعدي مهاجاة، ماتت سنة ٨٠هـ. وذكره الخطابي في غريب الحديث (١/ ٥٤٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٧٠/ ٦٤) وذكر قصة لقاء ليلى بالحجاج وشعرها في مديحه والثناء عليه، إلى أن قالت:

فما ولد الأبكار والعون مثله ببحر ولا أرض يجف ثراها

فقال الحجاج: قاتلها الله ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلت العراق غيرها. انظر: المنتظم لابن الجوزي (٦/ ١٧٥).

وقال آخر:

ألم تـــر أن الأرض أضـــحت مريـــضة لفقـد الحـسين والبـــلاد اقـشعرت[(١)]

والمرض يدور على أربعة أشياء: فساد، وضعف، ونقصان، وظلمة، ومنه مرض الرجل في الأمر إذا ضعف فيه ولم يبالغ، وعين مريضة النظر أي فاترة ضعيفة، وريح مريضة إذا هب هبوبها كما قال:

راحت لأربعــك الــرياح مـريضـــة

أي لينة ضعيفة حتى لا يعفى أثرها.

وقال ابن الأعرابي: أصل المرض النقصان، ومنه بدن مريض أي: ناقص القوة، وقلب مريض ناقص الدين[(٢)]، ومرض في حاجتي إذا نقصت حركته.

وقال الأزهري، عن المنذري، عن بعض أصحابه: المرض إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها، قال: والمرض الظلمة[(٣)]، وأنشد:

وليلـــة مرضـــت مـــن كـــل ناحيـــة فـــما يـــضيء لهـــا شـــمس ولا قمـــر[(٤)]

هذا أصله في اللغة، ثم الشك، والجهل، والحيرة، والضلال، وإرادة الغي وشهوة الفجور في القلب تعود إلى هذه الأمور الأربعة، فيتعاطى العبد أسباب المرض حتى يمرض، فيعاقبه الله بزيادة المرض لإيثاره أسبابه وتعاطيه لها.

[(٥)]**المرض نوعان:** مرض القلوب، ومرض الأبدان، وهما مذكوران في القرآن.

---

(١) ذكر هذا البيت الذهبي في السير (٣/ ٣١٩) والمزي في تهذيب الكمال (٦/ ٤٤٨) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٢٦٠) وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٣٩٤).

(٢) انظر: لسان العرب (٧/ ٢٣٢) وعمدة القاري (٢/ ١٠٧).

(٣) انظر: لسان العرب (٧/ ٢٣٢) والقاموس المحيط (ص ٨٤٣).

(٤) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى أبي حية النميري: الهيثم بن الربيع، شاعر مجيد فصيح راجز من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية توفي سنة ١٨٣هـ. وذكره ابن منظور في لسان العرب (٧/ ٢٣٢) من قول أبي حية، وفيه: نجم بدل شمس.

(٥) ١٣٤ زاد المعاد جـ٣.

ومرض القلوب نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغي، وكلاهما في القرآن، قال تعالى في مرض الشبهة: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر: ٣١]. وقال تعالى في حق من دُعي إلى تحكيم القرآن والسنة فأبى وأعرض: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۝ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [النور: ٤٨-٥٠] فهذا مرض الشبهات والشكوك.

وأما مرض الشهوات فقال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢] فهذا مرض شهوة الزنا. والله أعلم.

الوجه السابع والثمانون: أن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه، إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته، وهما: مرض الشهوات ومرض الشبهات، هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين في كتابه.

أما مرض الشبهات وهو أصعبهما وأقتلهما للقلب، ففي قوله في حق المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٣]، فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة.

وأما مرض الشهوة ففي قوله: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، أي: لا تلن في الكلام فيطمع الذي في قلبه فجور وزنا، قالوا: والمرأة ينبغي لها إذا خاطبت الأجانب أن تغلظ كلامها وتقويه ولا تلينه وتكسره؛ فإن ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها.

وللقلب أمراض أخر؛ من الرياء والكبر والعجب والحسد والفخر والخيلاء وحب الرياسة والعلو في الأرض، وهذا مرض مركب من مرض الشبهة والشهوة؛ فإنه لابد فيه من تخيل فاسد وإرادة باطلة، كالعجب والفخر والخيلاء والكبر المركب من تخيل عظمته وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم، فلا يخرج مرضه عن شهوة أو شبهة أو مركب منهما.

وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم، كما قال النبي ﷺ في حديث صاحب الشجة الذي أفتوه بالغسل فمات: «**قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، إنما شفاء العي السؤال**»[(١)] فجعل العي وهو عي القلب عن العلم، واللسان عن النطق به مرضًا، وشفاؤه سؤال العلماء، فأمراض القلوب أصعب من أمراض الأبدان؛ لأن غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت، وأما مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي، ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم، ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧] ولهذا السبب نسبة العلماء إلى القلوب كنسبة الأطباء إلى الأبدان، وما يقال للعلماء: أطباء القلوب فهو لقدر ما جامع بينهما، وإلا فالأمر أعظم، فإنَّ كثيرًا من الأمم يستغنون عن الأطباء ولا يوجد الأطباء إلا في اليسير من البلاد، وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلى طبيب. وأما العلماء بالله

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٣٦، ٣٣٧) وابن ماجه (رقم ٥٧٢) والبيهقي في الكبرى (١/ ٢٢٧ رقم ١٠١٦) والدارقطني (١/ ١٨٩ رقم ٣) والدارمي (رقم ٧٥٢) وعبد الرزاق (١/ ٢٢٣ رقم ٨٦٧) والطبراني في الكبير (١١/ ١٩٤ رقم ١١٤٧٢) وأبو يعلى (٤/ ٣٠٩ رقم ٢٤٢٠) وأحمد (١/ ٣٣٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٩١ رقم ١١٦٣) والحاكم (١/ ٢٨٥ رقم ٦٣٠) وانظر: عون المعبود (١/ ٣٦٧-٣٦٨) ونيل الأوطار (١/ ٣٢٣) وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ١٤٧ رقم ٢٠٠): وصححه ابن السكن.

وأمره، فهم حياة الوجود وروحه، ولا يُستغنى عنهم طرفة عين؛ فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس في الهواء بل أعظم.

وبالجملة فالعلم للقلب مثل الماء للسمك إذا فقده مات، فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها، وكنسبة سمع الأذن، وكنسبة كلام اللسان إليه، فإذا عدمه كان كالعين العمياء والأذن الصماء واللسان الأخرس.

ولهذا يصف سبحانه أهل الجهل بالعمى والصم والبكم، وذلك صفة قلوبهم حيث فقدت العلم النافع، فبقيت على عماها وصممها وبكمها، قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧٢]، والمراد عمى القلب في الدنيا...

***

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

(١)وأما النفاق: فالداء العضال الباطن الذي يكون الرجل ممتلئًا منه، وهو لا يشعر؛ فإنه أمر خفي على الناس، وكثيرًا ما يخفى على من تلبس به، فيزعم أنه مصلح وهو مفسد، وهو نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله، مكذب به، لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولًا للناس، يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم في القرآن، وجلّى لعباده أمورهم؛ ليكونوا منها ومن أهلها على حذر.

---

(١) ٣٤٧ مدارج جـ١.

وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية، لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدًّا، لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة. يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه!! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه!! وكم من علم له قد طمسوه!! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه!! وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها!! وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها!!

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢]، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨]. اتفقوا على مفارقة الوحي فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ولأجل ذلك ﴿ ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

درست معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها. ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفلت كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحيونها، وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها، لم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله، ولم يرفعوا به رأسًا، ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسًا، خلعوا نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين، نزلت عليهم نزول

الضيف على أقوام لئام، فقابلوها بغير ما ينبغي لها من القبول والإكرام، وتلقوها من بعيد، ولكن بالدفع في الصدور منها والأعجاز، وقالوا: ما لك عندنا من عبور ـ وإن كان لابد ـ فعلى سبيل الاجتياز. أعدوا لدفعها أصناف العدد وضروب القوانين، وقالوا ـ لما حلت بساحتهم ـ: ما لنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئًا من اليقين، وعوامهم قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه خلفنا من المتأخرين، فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين، وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور، ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر، ولكن صرفوا هممهم إلى فعل المأمور وترك المحظور، فطريقة المتأخرين؛ أعلم وأحكم، وطريقة السلف الماضين؛ أجهل، لكنها أسلم.

أنزلوا نصوص السنة والقرآن، منزلة الخليفة في هذا الزمان، اسمه على السكة وفي الخطبة فوق المنابر مرفوع، والحكم النافذ لغيره، فحكمه غير مقبول ولا مسموع. لبسوا ثياب أهل الإيمان، على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران. فالظواهر ظواهر الأنصار، والبواطن قد تحيّزت إلى الكفار، فألسنتهم ألسنة المسالمين، وقلوبهم قلوب المحاربين، ويقولون: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨].

رأس مالهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والختر، وعندهم العقل المعيشي: أن الفريقين عنهم راضون، وهم بينهم آمنون ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [البقرة: ٩].

***

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت القصود السيئة على إراداتهم ونياتهم فأفسدتها، ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنه الأطباء العارفون ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٠].

من علقت مخالب شكوكهم بأديم إيمانه مزقته كل تمزيق. ومن تعلق شرر فتنتهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق، ومن دخلت شبهات تلبيسهم في مسامعه حال بين قلبه وبين التصديق، ففسادهم في الأرض كثير، وأكثر الناس عنه غافلون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة: ١١، ١٢] المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر، مبخوس حظه من المعقول، والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفارًا، فهمه في حمل المنقول، وبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة، وما هو عندهم بمقبول، وأهل الاتباع عندهم سفهاء فهم في خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣].

لكل منهم وجهان، وجه يلقى به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين، وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٤].

قد أعرضوا عن الكتاب والسنة استهزاءً بأهلهما واستحقارًا، وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين؛ فرحًا بما عندهم من العلم الذي لا ينفع الاستكثار منه أشرًا واستكبارًا، فتراهم أبدًا بالمتمسكين بصريح الوحي يستهزئون ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥].

خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات، فركبوا مراكب الشبه والشكوك تجري بهم في موج الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف، فألقتها بين سفن الهالكين ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦].

***

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

أضاءت لهم نار الإيمان فأبصروا في ضوئها مواقع الهدى والضلال، ثم طفىء ذلك النور، وبقيت نارا تأجج ذات لهب واشتعال، فهم بتلك النار معذبون، وفي تلك الظلمات يعمهون ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر؛ فهي لا تسمع منادي الإيمان، وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى؛ فهي لا تبصر حقائق القرآن، وألسنتهم بها خرس عن الحق فهم به لا ينطقون ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة:١٨].

صاب عليهم صيِّب الوحي، وفيه حياة القلوب والأرواح؛ فلم يسمعوا منه إلا رعد التهديد والوعيد والتكاليف التي وظِّفت عليهم في المساء والصباح؛ فجعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشَوا ثيابهم، وجدوا في الهرب، والطلب في آثارهم والصياح، فنودي عليهم على رءوس الأشهاد، وكشفت حالهم للمستبصرين، وضرب لهم مثلان

بحسب حال الطائفتين منهم: المناظرين، والمقلدين، فقيل: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٩].

ضعفت أبصار بصائرهم عن احتمال ما في الصيب من بروق أنواره وضياء معانيه، وعجزت أسماعهم عن تلقي رعود وعوده وأوامره ونواهيه، فقاموا عند ذلك حيارىٰ في أودية التيه، لا ينتفع بسمعه السامع، ولا يهتدي ببصره البصير ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٠].

لهم علامات يُعرفون بها، مبينة في السنة والقرآن، بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان، قام بهم ـ والله ـ الرياء، وهو أقبح مقام قامه الإنسان، وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن، فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلاً ﴿ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢]. أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين، تيعر إلىٰ هذه مرة وإلىٰ هذه مرة، ولا تستقر مع إحدىٰ الفئتين[(١)]، فهم واقفون بين الجمعين، ينظرون أيهم أقوىٰ وأعز قبيلًا ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٣].

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن، فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم تكن معكم؟ وأقسموا علىٰ ذلك بالله جهد أيمانهم، وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب، قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم، وأن النسب بيننا قريب؟

---

(١) فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلىٰ هذه مرة، وإلىٰ هذه مرة» أخرجه مسلم (رقم ٣٧٨٤) وانظر: شرح النووي (١٧/ ١٢٨) وعمدة القاري (١٦/ ٦٩) وشرح السيوطي لسنن النسائي (٨/ ١٢٤).

فيا من يريد معرفتهم، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين، فلا تحتاج بعده دليلًا ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه، ويشهد الله على ما في قلبه من كذبه ومينه[(١)]، فتراه عند الحق نائمًا. وفي الباطل على الأقدام، فخذ وصفهم من قول القدوس السلام: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤].

أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد، ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد، وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥].

فهم جنس بعضه يشبه بعضًا، يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه، ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه، كم ذكَّرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه، وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه، فاسمعوا أيها المؤمنون: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧].

[(٢)]وإذا تأملت القرآن وتدبرته وأعرته فكرًا وافياً اطلعت فيه من: أسرار المناظرات، وتقرير الحجج الصحيحة، وإبطال الشبه الفاسدة، وذكر النقض والفرق

---

(١) المين: الكذب. انظر: لسان العرب (١٣/ ٤٢٥).

(٢) ١٣٠ بدائع جـ ٤.

والمعارضة والمنع على ما يشفي ويكفي لمن بصَّره الله، وأنعم عليه بفهم كتابه. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

فهذه مناظرة جرت بين المؤمنين والمنافقين، فقال لهم المؤمنون: لا تفسدوا في الأرض. فأجابهم المنافقون بقولهم: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين، ومنع المنافقون ما ادعى عليهم أهل الإيمان من كونهم مفسدين، وأن ما نسبوهم إليه إنما هو صلاح لا فساد، فحكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن أسجل على المنافقين أربع إسجالات.

أحدها: تكذيبهم.

والثاني: الإخبار بأنهم مفسدون.

والثالث: حصر الفساد فيهم بقوله: ﴿ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾.

والرابع: وصفهم بغاية الجهل، وهو أنه لا شعور لهم البتة بكونهم مفسدين.

وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع، ثم نفى عنهم العلم في قولهم: ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣]. فنفى علمهم بسفههم وشعورهم بفسادهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل؛ أن يكون الرجل مفسدًا ولا شعور له بفساده البتة، مع أن أثر فساده مشهور في الخارج مرئي لعباد الله، وهو لا يشعر به، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه.

وكذلك كونه سفيهًا، والسفه غاية الجهل وهو مركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاده وإرادته بخلافه، فإذا كان بهذه المنزلة وهو لا يعلم بحاله كان من أشقى النوع الإنساني، فنفي العلم عنه بالسفه الذي هو فيه متضمن لإثبات جهله، ونفي الشعور عنه بالفساد الواقع منه متضمن لفساد آلات إدراكه، فتضمنت الآيتان: الإسجال عليهم بالجهل، وفساد آلات الإدراك؛ بحيث يعتقدون الفساد صلاحًا والشر خيرًا.

وكذلك المناظرة الثانية معهم أيضًا، فإن المؤمنين قالوا لهم: ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ فأجابهم المنافقون بقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

وتقرير المناظرة من الجانبين، أن المؤمنين دعوهم إلى الإيمان الصادر من العقلاء بالله ورسوله، وأن العاقل يتعين عليه الدخول فيما دخل فيه العقلاء الناصحون لأنفسهم، ولاسيما إذا قامت أدلته وصحت شواهده، فأجابهم المنافقون بما مضمونه: إنا إنما يجب علينا موافقة العقلاء، وأما السفهاء الذين لا عقل لهم يميزون به بين النافع والضار فلا يجب علينا موافقتهم. فرد الله تعالى عليهم وحكم للمؤمنين وأسجل على المنافقين بأربعة أنواع:

أحدها: تسفيههم.

الثاني: حصر السفه فيهم.

الثالث: نفي العلم عنهم.

الرابع: تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من الإخبار عن سفه أهل الإيمان. وخامس أيضاً وهو: تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من دعواهم التنزيه من السفه.

...[1]ومن هذا ما وقع في القرآن من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون؛ فإنها تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، كقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ...﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٧-٢٠].

---

(١) ١٥٠ أعلام جـ ١.

فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين: مثلاً ناريًّا، ومثلاً مائيًّا، لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة؛ فإن النار مادة النور، والماء مادة الحياة.

وقد جعل الله سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء متضمنًا لحياة القلوب واستنارتها، ولهذا سمَّاه روحًا ونورًا، وجعل قابليه أحياء في النور، ومن لم يرفع به رأسًا أمواتًا في الظلمات، وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلىٰ حظِّهم من الوحي وأنهم بمنزلة من استوقد نارًا لتضيء له وينتفع بها، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به، وانتفعوا به، وآمنوا به، وخالطوا المسلمين، ولكن لما لم يكن لصحبتهم مادة من قلوبهم من نور الإسلام طفئ عنهم، وذهب الله بنورهم، ولم يقل: بنارهم؛ فإن النار فيها الإضاءة والإحراق، فذهب الله بما فيها من الإضاءة، وأبقىٰ عليهم ما فيها من الإحراق، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فهذا حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه، فهو لا يرجع إليه، ولهذا قال: ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

ثم ذكر حالهم بالنسبة إلىٰ المثل المائي، فشبههم بأصحاب صيب ـ وهو المطر الذي يصوب أي: ينزل من السماء ـ فيه ظلمات ورعد وبرق، فلضعف بصائرهم وعقولهم؛ اشتدت عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه وخطابه الذي يشبه الصواعق، فحالهم كحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فلضعفه وخوره جعل أصبعيه في أذنيه، وغمض عينيه خشية من صاعقة تصيبه.

وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثيرًا من مخانيث تلاميذ الجهمية والمبتدعة، إذا سمعوا شيئاً من آيات الصفات وأحاديث الصفات المنافية لبدعتهم رأيتهم عنها معرضين، كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة؛ ويقول مخنثهم: سدوا عنا هذا الباب، واقرأوا شيئًا غير هذا، وترىٰ قلوبهم مولية وهو يجمحون؛ لثقل معرفة الرب ﷻ وأسمائه وصفاته علىٰ عقولهم وقلوبهم.

وكذلك المشركون على اختلاف شركهم، إذا جُرِّد لهم التوحيد، وتُلِيَتْ عليهم النصوص المبطلة لشركهم اشمأزت قلوبهم، وثقلت عليهم، ولو وجدوا السبيل إلى سد آذانهم لفعلوا. ولذلك تجد أعداء أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا نصوص الثناء على الخلفاء الراشدين، وصحابة رسول الله ﷺ ثقل ذلك عليهم جدًّا، وأنكرته قلوبهم؛ وهذا كله شبه ظاهر، ومثل محقق من إخوانهم من المنافقين في المثل الذي ضربه الله لهم بالماء؛ فإنهم لما تشابهت قلوبهم تشابهت أعمالهم.

(١)يذكر سبحانه هذين المثلين في القرآن في غير موضع لأوليائه وأعدائه، كما ذكرهما في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨].

شبه سبحانه أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا نارًا لتضيء لهم وينتفعوا بها، فلما أضاءت لهم النار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين، فهم كقوم سفر ضلوا عن الطريق، فأوقدوا النار تضيء لهم الطريق، فلما أضاءت لهم فأبصروا وعرفوا طفئت تلك الأنوار وبقوا في الظلمات لا يبصرون، قد سدت عليهم أبواب الهدى الثلاث.

فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه، وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى فلا تسمع قلوبهم شيئًا ولا تبصره ولا تعقل ما ينفعها.

وقيل: لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة من لا سمع له ولا بصر ولا عقل. والقولان متلازمان، وقال في صفتهم: ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ لأنهم قد رأوا في ضوء النهار وأبصروا الهدى، فلما طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا،

---

(١) ٢١ اجتماع الجيوش.

وقال ﷺ: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ولم يقل: ذهب نورهم، وفيه سر بديع، وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التي هي للمؤمنين من الله تعالى، فإن الله تعالىٰ مع المؤمنين، وإن الله مع الصابرين، وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فذهاب الله بذلك النور انقطاع لمعيته التي خص بها أولياءه، فقطعها بينه وبين المنافقين فلم يبق عندهم بعد ذهاب نورهم ولا معهم، فليس لهم نصيب من قوله: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] ولا من ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾ كيف جعل ضوءها خارجًا عنه منفصلاً، ولو اتصل ضوؤها به ولابسه لم يذهب، ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة، وكان الضوء عارضًا والظلمة أصلية، فرجع الضوء إلىٰ معدنه وبقيت الظلمة في معدنها، فرجع كل منهما إلىٰ أصله اللائق به، حجة من الله قائمة، وحكمة بالغة، تعرَّف بها إلىٰ أولي الألباب من عباده.

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ولم يقل: بنارهم ليطابق أول الآية، فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب بما فيها من الإشراق وهو النور، وأبقىٰ عليهم ما فيها من الإحراق وهو النارية.

وتأمل كيف قال: بنورهم، ولم يقل: بضوئهم مع قوله: ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾ لأن الضوء هو زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم؛ لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهابًا بالشيء وزيادته. وأيضا فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم، وأيضًا فإن الله تعالىٰ سمىٰ كتابه، نورًا ورسوله نورًا، ودينه نورًا، وهداه نورًا، ومن أسمائه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله.

وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦]، كيف طابق هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة، والرضىٰ بها، وبذل الهدىٰ في

مقابلتها، وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضى بها بدلاً عن النور الذي هو الهدى والنور، فبدلوا الهدى والنور وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة، فيا لها من تجارة ما أخسرها! وصفقة ما أشد غبنها!

وتأمل كيف قال الله تعالى: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ فوحَّده ثم قال: ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ فجمعها، فإن الحق واحد وهو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادته وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله ﷺ، من الهدى ودين الحق، بخلاف طرق الباطل، فإنها متعددة متشعبة.

ولهذا يفرد سبحانه الحق ويجمع الباطل، كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فجمع سبل الباطل ووحَّد سبيل الحق، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦]، فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد وصراطه المستقيم، فإن طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد، وسبيل واحد، وهي سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه خطَّ خطًّا مستقيمًا وقال: «**هذا سبيل الله**» ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله وقال: «**هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] [الأنعام: ١٥٣].

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ١٨٠ رقم ٦) وفي الموارد (رقم ١٧٤١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٣ رقم ١١١٧٤) والدارمي (رقم ٢٠٢) وسعيد بن منصور (٢/ ١١٢ رقم ٩٣٥) وأحمد =

وقد قيل: إن هذا مثل للمنافقين وما يوقدونه من نار الفتنة التي يوقعونها بين أهل الإسلام، ويكون بمنزلة قول الله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: ٦٤]. ويكون قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ مطابقًا لقوله تعالى: ﴿أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾، ويكون تخييبهم وإبطال ما راموه، هو تركهم في ظلمات الحيرة لا يهتدون إلى التخلص مما وقعوا فيه، ولا يبصرون سبيلًا، بل هم صم بكم عمي.

وهذا التقدير - وإن كان حقًا - ففي كونه مرادًا بالآية نظر، فإن السياق إنما قصد لغيره. ويأباه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾ وموقد نار الحرب لا يضيء ما حوله أبدًا. ويأباه قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وموقد نار الحرب لا نور له. ويأباه قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ وهذا يقتضي أنهم انتقلوا من نور المعرفة والبصيرة إلى ظلمة الشك والكفر.

قال الحسن - رحمه الله -: هو المنافق أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ولهذا قال: ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي: لا يرجعون إلى النور الذي فارقوه، وقال تعالى في حق الكفار: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فسلب العقل عن الكفار إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان، وسلب الرجوع عن المنافقين؛ لأنهم آمنوا ثم كفروا، فلم يرجعوا إلى الإيمان.

ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلًا آخر مائيًا، فقال تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٩].

فشبه نصيبهم مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ من النور والحياة بنصيب المستوقد النار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها، وذهب نوره وبقي في الظلمات حائرًا تائهًا لا يهتدي سبيلاً، ولا يعرف طريقًا، وبنصيب أصحاب الصيب وهو المطر الذي يصوب أي: ينزل من علو إلى أسفل.

=

(١/ ٤٣٥) والبزار (٥/ ١١٣-١١٤ رقم ١٦٩٤).

فشبه الهدىٰ الذي هدىٰ به عباده بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، ونصيب المنافقين من هذا الهدىٰ بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وإن تلك الظلمات التي فيه وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلىٰ كمال الانتفاع بذلك الصيب، فالجاهل لفرط جهله يقتصر علىٰ الإحساس بما في الصيب: من ظلمة ورعد وبرق، ولوازم ذلك: من برد شديد، وتعطيل مسافر عن سفره، وصانع عن صنعته، ولا بصيرة له تنفذ إلىٰ ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام، وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل، لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلىٰ ما وراءه من كل محبوب.

وهذه حال أكثر الخلق إلا من صحت بصيرته، فإذا رأىٰ ضعيف البصيرة ما في الجهاد: من التعب والمشاق والتعرض لإتلاف المهجة والجراحات الشديدة، وملامة اللوام ومعاداة من يخاف معاداته، لم يقدم عليه، لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون. وكذلك من عزم علىٰ سفر الحج إلىٰ البيت الحرام، فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقة السفر ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد وفراق المألوفات، ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته، فإنه لا يخرج إليه، ولا يعزم عليه.

وحال هؤلاء حال ضعيف البصيرة والإيمان الذي يرىٰ ما في القرآن من الوعد والوعيد، والزواجر والنواهي، والأوامر الشاقة علىٰ النفوس التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفطام علىٰ الصبي أصعب شيء وأشقه، والناس كلهم صبيان العقول، إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألبّاء، وأدرك الحق علمًا وعملًا ومعرفة، فهو الذي ينظر إلىٰ ما وراء الصيب وما فيه من الرعد والبرق والصواعق، ويعلم أنه حياة الوجود.

وقال الزمخشري: «لقائل أن يقول: شُبِّه دين الإسلام بالصيب، لأن القلوب تحيا

به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من تشبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأفزاع من البلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق». والمعنى: أو كمثل ذوي صيب، والمراد: كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة، فلقوا منها ما لقوا.

قال: والصحيح الذي عليه علماء أهل البيان لا يتخطونه، إن التمثيلين جميعًا من جهة التمثيلات المتركبة دون المفرقة، لا يتكلف لواحد واحد شيء بقدر شبهه فيه وهذا القول الفصل والمذهب الجزل.

بيانه: أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها من بعض، لم تأخذ هذا بحجزة ذاك فشبهها بنظائرها كما جاء في القرآن؛ حيث شبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت، حتى عادت شيئًا واحدًا بأخرى مثلها.

كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحالين عند من حمل أسفار الحكمة، وحمل ما سواها من الأحمال، ولا يشعر ذلك إلا بما يريد فيه من الكد والتعب.

وكقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥]. المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء هذا النبات، فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض وتصييرها شيئًا واحدًا فلا. وكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة، فشبه حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق.

قال: فإن قلت: أي المثلين أبلغ؟ قلت: الثاني؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة

الأمر وفظاعته، ولذلك أخر، وهم يتدرجون في مثل هذا من الأهون إلىٰ الأغلظ.

قلت: قال شيخنا: الناس في الهدىٰ الذي بعث الله تعالىٰ به رسوله ﷺ أربعة أقسام، قد اشتملت عليهم هذه الآيات من أول السورة إلىٰ ههنا:

القسم الأول: باطنًا وظاهرًا وهم نوعان:

أحدهما: أهل الفقه فيه والفهم والتعليم، وهم الأئمة الذين عقلوا عن الله تعالىٰ كتابه وفهموا مراده، وبلغوه إلىٰ الأمة، واستنبطوا أسراره وكنوزه، فهؤلاء مثل الأرض الطيبة التي قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فرعىٰ الناس فيه ورعت أنعامهم، وأخذوا من ذلك الكلأ الغذاء والقوت والدواء وسائر ما يصلح لهم.

النوع الثاني: حفظوه وضبطوه وبلّغوا ألفاظه إلىٰ الأمة، فحفظوا عليهم النصوص، وليسوا من أهل الاستنباط والنفقة في مراد الشارع، فهم أهل حفظ وضبط وأداء لما سمعوه، والأولون أهل فهم وفقه واستنباط وإثارة لدفائنه وكنوزه، وهذا النوع الثاني بمنزلة الأرض التي أمسكت الماء للناس فوردوه وشربوا منه، وسقوا منه أنعامهم وزرعوا به[1].

القسم الثاني: من رده ظاهرًا وباطنًا وكفر به ولم يرفع به رأسًا، وهؤلاء أيضًا نوعان:

أحدهما: عرفه وتيقن صحته، وأنه حق، ولكن حمله الحسد والكبر وحب الرياسة والملك والتقدم بين قومه؛ علىٰ جحده ودفعه بعد البصيرة واليقين.

النوع الثاني: أتباع هؤلاء الذين يقولون: هؤلاء ساداتنا وكبراؤنا، وهم أعلم منا بما يقبلونه وما يردونه، ولنا أسوة بهم، ولا نرغب بأنفسنا عن أنفسهم، ولو كان حقًّا

---

(١) فعن أبي موسىٰ ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرىٰ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِمَ وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدىٰ الله الذي أرسلت به» أخرجه البخاري (رقم ٧٩) ومسلم (رقم ٢٢٨٢) وانظر: شرح النووي (١٥/ ٤٦) وعمدة القاري (٢/ ٧٦) وغريب الحديث للخطابي (١/ ٧٢٣).

لكانوا هم أهله وأولى بقبوله، وهؤلاء بمنزلة الدواب والأنعام، يساقون حيث يسوقهم راعيهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]. وقال تعالى فيهم: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]. وقال تعالى فيهم: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]. وقال فيهم: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [ص: ٥٧-٦٠]، أي: سننتموه لنا وشرعتموه: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾ [ص: ٦١]. فقولهم: لا مرحبًا بهم إنهم صالوا النار، أي: داخلوها كما دخلناها، ومقاسون عذابها كما نقاسيه، فأجابهم الأتباع، وقالوا: بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا.

وفي الضمير قولان:

أحدهما: أنه ضمير الكفر والتكذيب ورد قول الرسل صلوات الله وسلامه عليهم واستبدال غيره به، والمعنى أنتم زينتم لنا الكفر ودعوتمونا إليه وحسنتموه لنا. وقيل على هذا القول: إنه قول الأمم المتأخرين للمتقدمين، والمعنى على هذا: أنتم شرعتم لنا تكذيب الرسل ورد ما جاءوا به، والشرك بالله ﷻ، أي: بدأتم به وتقدمتمونا إليه فدخلتم النار قبلنا فبئس القرار، أي بئس المستقر والمنزل.

والقول الثاني: إن الضمير في قوله: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ [ص: ٦٠] ضمير العذاب وصلي النار، والقولان متلازمان، وهما حق. وأما القائلون: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [ص: ٦١] فيجوز أن يكون الأتباع دعوا على سادتهم وكبرائهم وأئمتهم به؛ لأنهم الذين حملوهم عليه ودعوهم إليه.

ويجوز أن يكون جميع أهل النار سألوا ربهم أن يزيد من سنَّ لهم الشرك وتكذيب الرسل صلى الله عليهم وسلم، ضعفًا وهم الشياطين[1].

القسم الثالث: الذين قبلوا ما جاء به الرسول ﷺ، وآمنوا به ظاهرًا، وجحدوه وكفروا به باطنًا، وهم المنافقون الذين ضُرب لهم هذان المثلان بمستوقد النار وبالصيب، وهم أيضًا نوعان:

أحدهما: من أبصر ثم عمي، وعلم ثم جهل وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر، فهؤلاء رؤوس أهل النفاق وساداتهم وأئمتهم، ومثلهم مثل من استوقد نارا ثم حصل بعدها على الظلمة.

والنوع الثاني: ضعفاء البصائر الذين أعشى بصائرهم ضوء البرق؛ فكاد أن يخطفها لضعفها وقوته، وأصم آذانهم صوت الرعد، فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق، ولا يقربون من سماع القرآن والإيمان بل يهربون منه، ويكون حالهم حال من يسمع الرعد الشديد، فمن شدة خوفه منه يجعل أصابعه في أذنه، وهذه حال كثير من خفافيش البصائر في كثير من نصوص الوحي، وإذا وردت عليه مخالفة لما تلقاه عن أسلافه وذوي مذهبه ومن يحسن به الظن، ورآها مخالفة لما عنده عنهم، هرب من النصوص وكره من يسمعه إياها، ولو أمكنه لسد أذنيه عند سماعها، ويقول: دعنا من هذه، ولو قدر لعاقب من يتلوها ويحفظها وينشرها ويعلمها، فإذا ظهر له منها ما يوافق ما عنده مشى فيها وانطلق، فإذا جاءت بخلاف ما عنده أظلمت عليه، فقام

---

(١) سيأتي هذا البحث في سورة صَ إن شاء الله (ج).

حائرًا لا يدري أين يذهب، ثم يعزم له التقليد وحسن الظن برؤسائه وسادته على اتباع ما قالوه دونها، ويقول مسكين الحال: هم أخبر بها مني وأعرف.

فيا لله العجب! أوَ ليس أهلها والذابون عنها، والمنتصرون لها، والمعظمون لها، والمخالفون لأجلها آراء الرجال، المقدمون لها على ما خالفها، أعرف بها أيضًا منك وممن اتبعته، فلم كان من خالفها وعزلها عن اليقين، وزعم أن الهدى والعلم لا يستفاد منها، وأنها أدلة لفظية لا تفيد شيئًا من اليقين، ولا يجوز أن يحتج بها على مسألة واحدة من مسائل التوحيد والصفات، ويسميها الظواهر النقلية، ويسمي ما خالفها القواطع العقلية، فلما كان هؤلاء أحق بها وأهلها، وكان أنصارها والذابون عنها والحافظون لها، هم أعداؤها ومحاربوها؟

ولكن هذه سنة الله في أهل الباطل، أنهم يعادون الحق وأهله، وينسبونهم إلى معاداته ومحاربته، كالرافضة الذين عادوا أصحاب محمد ﷺ، بل وأهل بيته، ونسبوا أتباعه وأهل سنته إلى معاداته ومعاداة أهل بيته، وما كانوا أولياءه، إنْ أولياؤه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

والمقصود: أن هؤلاء المنافقين قسمان:

أئمة وسادة يدعون إلى النار، وقد مردوا على النفاق.

وأتباع لهم بمنزلة الأنعام والبهائم، فأولئك زنادقة مستبصرون، وهؤلاء زنادقة مقلدون، فهؤلاء أصناف بني آدم في العلم والإيمان.

ولا يجاوز هذه الستة - اللهم - إلا من أظهر الكفر وأبطن الإيمان، كحال المستضعف بين الكفار الذي تبين له الإسلام، ولم يمكنه المهاجرة بخلاف قومه، ولم يزل هذا الضرب في الناس على عهد رسول الله ﷺ وبعده.

وهؤلاء عكس المنافقين من كل وجه. وعلى هذا فالناس: إما مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وإما كافر ظاهرًا وباطنًا، أو مؤمن ظاهرًا كافر باطنًا، أو كافر ظاهرًا مؤمن باطنًا، والأقسام الأربعة قد اشتمل عليها الوجود، وقد بين القرآن أحكامها.

فالأقسام الثلاثة الأول ظاهرة، وقد اشتمل عليها أول سورة البقرة.

وأما القسم الرابع ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٥]، فهؤلاء كانوا يكتمون إيمانهم في قومهم، ولا يتمكنون من إظهاره، ومن هؤلاء مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه(١). ومن هؤلاء النجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ فإنه كان ملك النصارى بالحبشة، وكان في الباطن مؤمنًا(٢).

وقد قيل: إنه وأمثاله الذين عناهم الله ﷻ بقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. وقوله تعالى: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤] فإن هؤلاء ليس المراد بهم المتمسك باليهودية والنصرانية بعد محمد ﷺ قطعًا، فإن هؤلاء قد شهد لهم بالكفر، وأوجب لهم النار، فلا يثني عليهم بهذا الثناء، وليس المراد به من آمن من أهل الكتاب ودخل في جملة المؤمنين وباين قومه، فإن هؤلاء لا يطلق عليهم أنهم من أهل الكتاب إلا باعتبار ما كانوا عليه، وذلك الاعتبار قد زال بالإسلام، واستحدثوا اسم المسلمين والمؤمنين، وإنما يطلق الله سبحانه هذا الاسم على من هو باق على دين أهل الكتاب، هذا هو المعروف في القرآن، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٥٧-٥٨) والدر المنثور (٧/ ٢٨٦) وتفسير ابن كثير (٤/ ٧٨، ١٩٤) وعمدة القاري (١٥/ ٢٩٠-٢٩١) (١٩/ ١٤٨) وفيض القدير (٢/ ٣١٥).

(٢) فعن جابر ﷺ قال النبي ﷺ حين مات النجاشي: «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة» أخرجه البخاري (٣٨٧٧) ومسلم (رقم ٩٥٢)، وانظر فتح الباري (٣/ ١٨٦-١٨٩) وعمدة القاري (٨/ ٢١، ١١٩-١٢٢) وعون المعبود (٩/ ١٥-١٦) وتحفة الأحوذي (١/ ٢١) (٤/ ٨٧، ١٠٥، ١١٤) وشرح الزرقاني (٢/ ٨٠-٨٩).

تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٠]، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ [آل عمران: ٦٥]، ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٤٤] ونظائره.

ولهذا قال جابر بن عبد الله، وعبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، والحسن وقتادة: إن قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩٩]: إنها نزلت في النجاشي، زاد الحسن وقتادة: وأصحابه(١). وذكر ابن جرير في تفسيره من حديث أبي بكر الهذلي، عن قتادة، عن ابن المسيب، عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ، قال: «اخرجوا فصلوا على أخيكم» فصلى بنا فكبر أربع تكبيرات، فقال: «هذا النجاشي أصحمة» فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني لم يره قط. فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ... ﴾ الآية(٢).

والمقصود أن الأقسام الأربعة قد ذكرها الله تعالى في كتابه، وبين أحكامها في الدنيا وأحكامها في الآخرة، وقد تبين أن أحد الأقسام من آمن ظاهرًا وكفر باطنًا، وأنهم نوعان: رؤساؤهم وساداتهم، وأتباعهم ومقلدوهم.

وعلى هذا فأصحاب المثل الأول الناري شر من أصحاب المثل الثاني المائي، كما يد السياق عليه، وقد يقال ـ وهو أولى ـ: أن المثلين لسائر النوع، وإنهم قد جمعوا بين مقتضى المثل الأول من الإنكار بعد الإقرار، والحصول في الظلمات بعد النور، وبين مقتضى المثل الثاني من ضعف البصيرة في القرآن، وسد الآذان عند سماعه والإعراض عنه، فإن المنافقين فيهم هذا وهذا، وقد يكون الغالب على فريق منهم

---

(١) انظر: تفسير الصنعاني (١/ ١٤٤، ١٩٠) وتفسير الطبري (٤/ ٢١٨-٢٢٠) (٧/ ٥) والدر المنثور (٢/ ٤١٥) والتمهيد (٦/ ٣٣٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٢١٨) والطبراني في الأوسط (٥/ ٥١ رقم ٤٦٤٥) قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٣٩): روا الطبراني في الأوسط وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد وهو ضعيف. وقال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٢٦٥-٢٦٦): ولين ابن عدي: الهذلي تليينًا يسيرًا، ولم يضعفه.

المثل الأول، وعلى فريق منهم المثل الثاني.

وقد اشتمل هذان المثلان على حكم عظيمة:

منها: أن المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره، لا من قبل نفسه، فإذا ذهبت تلك النار بقي في ظلمة، وهكذا المنافق لما أقر بلسانه من غير اعتقاد ومحبة بقلبه، وتصديق جازم، كان ما معه من النور كالمستعار.

ومنها: أن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة تحمله، وتلك المادة للضياء بمنزلة غذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها ويدوم بدوامها، فإذا ذهبت مادة الإيمان طفئ كما تطفأ النار بفراغ مادتها.

ومنها: أن الظلمة نوعان: ظلمة مستمرة لم يتقدمها نور، وظلمة حادثة بعد النور، وهي أشد الظلمتين، وأشقهما على من كانت حظه، فظلمة المنافق ظلمة بعد إضاءة، فمثلت حاله بحال المستوقد للنار الذي حصل في الظلمة بعد الضوء، وأما الكافر فهو في الظلمات لم يخرج منها قط.

ومنها: أن في هذا المثل إيذانًا وتنبيهًا على حالهم في الآخرة، وأنهم يعطون نورًا ظاهرًا، كما كان نورهم في الدنيا ظاهرًا، ثم يطفأ ذلك النور أحوج ما يكونون إليه؛ إذ لم تكن له مادة باقية تحمله، ويبقون في الظلمة على الجسر لا يستطيعون العبور، فإنه لا يمكن أحد عبوره إلا بنور ثابت يصحبه حتى يقطع الجسر، فإن لم يكن لذلك النور مادة من العلم النافع والعمل الصالح، وإلا ذهب الله تعالى به أحوج ما كان إليه صاحبه، فطابق مثلهم في الدنيا بحالتهم التي هم عليها في هذه الدار، وبحالتهم يوم القيامة عندما يقسم، ومن ههنا يعلم السر في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: أذهب الله نورهم.

فإن أردت زيادة بيان وإيضاح، فتأمل ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر ابن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ وقد سئل عن الورود، فقال: «**نجيء نحن يوم القيامة على تل فوق الناس، قال: فتدعى الأمم بأوثانها، وما كانت تعبد: الأول فالأول، ثم يأتينا ربنا تبارك وتعالى بعد ذلك، فيقول: من تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول:**

أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك، قال: فينطلق بهم فيتبعونه، ويُعطى كل إنسان منهم - منافق أو مؤمن - نورًا، ثم يتبعونه، وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك، تأخذ من شاء الله تعالى، ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون، فينجو أول زمرة، وجوههم كالقمر ليلة البدر سبعون ألفًا لا يحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء، ثم كذلك، ثم تحل الشفاعة، ويشفعون حتى يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، فيجعلون بفناء الجنة، ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء»(١) وذكر باقي الحديث.

فتأمل قوله: «فينطلق فيتبعونه»، ويعطى كل إنسان منهم نورًا المنافق والمؤمن. ثم تأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

وتأمل حالهم إذا طفئت أنوارهم فبقوا في الظلمة، وقد ذهب المؤمنون في نور إيمانهم يتبعون ربهم ﷻ.

وتأمل قوله ﷺ في حديث الشفاعة: «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع كل مشرك إلهه الذي كان يعبده»(٢) والموحد حقيق بأن يتبع الإله الحق، الذي كل معبود سواه باطل.

وتأمل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢] وذكر هذه الآية في حديث الشفاعة في هذا الموضع، وقوله في الحديث: «فيكشف عن ساقه»(٣) وهذه الإضافة يتبين المراد بالساق المذكور في الآية.

وتأمل ذكر الانطلاق واتباعه سبحانه بعد هذا، وذلك يفتح لك بابا من أسرار التوحيد وفهم القرآن، ومعاملة الله ﷻ لأهل توحيده، الذين عبدوه وحده ولم يشركوا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٩١).

(٢) أخرجه بلفظ قريب ضمن حديث طويل البخاري (رقم ٤٥٨١) ومسلم (رقم ١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٣٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٥١) وعمدة القاري (٢٥/ ١٢٨).

به شيئًا، هذه المعاملة التي عامل بمقابلتها أهل الشرك؛ حيث ذهبت كل أمة مع معبودها، فانطلق بها واتبعته إلى النار، وانطلق المعبود الحق واتبعه أولياؤه وعابدوه. فسبحان الله رب العالمين الذي قرّت عيون أهل التوحيد به في الدنيا والآخرة، وفارقوا الناس فيه أحوج ما كانوا إليهم.

ومنها: أن المثل الأول متضمن لحصول الظلمة التي هي الضلال، والحيرة التي ضدها الهدى، والمثل الثاني متضمن لحصول الخوف الذي ضده الأمن فلا هدى ولا أمن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٢]. قال ابن عباس وغيره من السلف: مثل هؤلاء في نفاقهم كمثل رجل أوقد نارًا في ليلة مظلمة في مفازة فاستضاء، ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، فبقي في ظلمة خائفًا متحيرًا، كذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان، أمِنوا على أموالهم وأولادهم وناكحوا المؤمنين ووارثوهم وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم، فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف. قال مجاهد: إضاءة النار لهم إقبالهم إلى المسلمين والهدى، وذهاب نورهم إقبالهم إلى المشركين والضلالة[1]. وقد فسرت تلك الإضاءة وذهاب النور بأنها في الدنيا، وفسرت بالبرزخ، وفسرت بيوم القيامة.

والصواب: أن ذلك شأنهم في الدور الثلاثة، فإنهم لما كانوا كذلك في الدنيا جوزوا في البرزخ وفي القيامة بمثل حالهم جزاءً وفاقًا ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] فإن المعاد يعود على العبد فيه ما كان حاصلاً له في الدنيا، ولهذا يسمى يوم الجزاء: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٢]، ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦].

ومن كان مستوحشًا مع الله بمعصيته إياه في هذه الدار، فوحشته معه في البرزخ،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٤٣) وانظر: الدر المنثور (١/ ٨٢-٨٣) وتفسير ابن كثير (١/ ٥٤).

ويوم المعاد أعظم وأشد، ومن قرّت عينه به في هذه الحياة الدنيا قرّت عينه به يوم القيامة، وعند الموت ويوم البعث، فيموت العبد على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، ويعود عليه عمله بعينه، فينعم به ظاهرًا وباطنًا، فيورثه من الفرح والسرور واللذة والبهجة وقرة العين، والنعيم وقوة القلب، واستبشاره وحياته وانشراحه، واغتباطه ما هو أفضل النعيم وأجله وأطيبه وألذه، وهل النعيم إلا طيب النفس، وفرح القلب وسروره وانشراحه واستبشاره؟!

هذا وينشأ له من أعماله ما تشتهيه نفسه، وتلذ عينه من سائر المشتهيات التي تشتهيها الأنفس وتلذها الأعين، ويكون تنوع تلك المشتهيات وكمالها وبلوغها، مرتبة الحسن والموافقة: بحسب كمال عمله ومتابعته فيه وإخلاصه وبلوغه مرتبة الإحسان فيه، وبحسب تنوعه، فمن تنوعت أعماله المرضية المحبوبة له في هذه الدار، تنوعت الأقسام التي يتلذذ بها في تلك الدار. وتكثرت له بحسب تكثر أعماله هنا، وكان مزيده بتنوعها والابتهاج بها، والالتذاذ هناك على حسب مزيده من الأعمال وتنوعه فيها من هذه الدار.

وقد جعل الله سبحانه لكل عمل من الأعمال المحبوبة له والمسخوطة، أثرًا وجزاءً ولذة وألماً يخصه، لا يشبه أثر الآخر وجزاءه، ولهذا تنوعت لذات أهل الجنة وآلام أهل النار. وتنوع ما فيهما من الطيبات والعقوبات، فليست لذة من ضرب في كل مرضاة الله بسهم، وأخذ منها بنصيب: كلذة من أنمى سهمه ونصيبه في نوع واحد منها، ولا ألم من ضرب في كل مسخوط لله بنصيب وعقوبته: كألم من ضرب بسهم واحد من مساخطه، وقد أشار النبي ﷺ إلى أن كمال ما يستمتع به من الطيبات في الآخرة بحسب كمال ما قابله من الأعمال في الدنيا، فرأى قنوا من حشف معلقًا في المسجد للصدقة فقال: «إن صاحب هذا يأكل الحشف يوم القيامة»[1] فأخبر أن

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٤٧٢ رقم ٨٣١٠) وابن خزيمة (٤/ ١٠٩ رقم ٢٤٦٧) وأبو داود (رقم ١٦٠٨) وابن ماجه (رقم ١٨٢١) وأحمد (٦/ ٢٨) والروياني في مسنده (رقم ٥٩١) وانظر: عون المعبود (٤/ ٣٤٧).

جزاءه يكون من جنس عمله؛ فيجزىٰ علىٰ تلك الصدقة بحشف من جنسها. وهذا الباب يفتح لك أبوابًا عظيمة من فهم المعاد وتفاوت الناس في أحواله، وما يجري فيه من الأمور.

فمنها: خفة حمل العبد علىٰ ظهره وثقله إذا قام من قبره؛ فإنه بحسب خفة وزره وثقله، إن خف خف وإن ثقل ثقل.

ومنها: استظلاله بظل العرش أو ضحاؤه للحر والشمس، إن كان له من الأعمال الصالحة الخالصة والإيمان مما يظله في هذه الدار من حر الشرك والمعاصي والظلم، استظل هناك في ظل أعماله تحت عرش الرحمن، وإن كان ضاحيًا هنا للمعاصي والمخالفات والبدع والفجور ضحىٰ هناك للحر الشديد.

ومنها: طول وقوفه في الموقف ومشقته عليه، وتهوينه عليه إن طال وقوفه في الصلاة ليلًا ونهارًا لله، وتحمل لأجله المشاق في مرضاته وطاعته، خف عليه الوقوف في ذلك اليوم وسهل عليه، وإن آثر الراحة هنا والدعة والبطالة والنعمة؛ طال عليه الوقوف هناك، واشتدت مشقته عليه.

وقد أشار الله تعالىٰ إلىٰ ذلك في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإنسان: ٢٣-٢٧]، فمن سبَّح الله ليلًا طويلًا، لم يكن ذلك اليوم ثقيلًا عليه، بل كان أخف شيء عليه.

ومنها: أن ثقل ميزانه هناك بحسب تحمل ثقل عمل الحق في هذه الدار، لا بحسب مجرد كثرة الأعمال، وإنما يثقل الميزان باتّباع الحق والصبر عليه وبذله إذا سئل، وأخذه إذا بذل، كما قال الصّديق في وصيته لعمر رضي الله عنهما: «واعلم أن لله حقًّا بالليل لا يقبله بالنهار، وله حق بالنهار لا يقبله بالليل، واعلم أنه إنما ثقلت موازين

من ثقلت موازينه باتباعهم الحق، وثقل ذلك عليهم، ولا يستضيء به غيره، ولا يمشي أحد إلا في نور نفسه، إن كان له نور مشى في نوره، وإن لم يكن له نور أصلًا لم ينفعه نور غيره»(١).

ولما كان المنافق في الدنيا قد حصل له نور ظاهر، غير مستمر ولا متصل بباطنه، ولا له مادة من الإيمان أعطي في الآخرة نورًا ظاهرًا، لا مادة له ثم يطفأ عنه أحوج ما كان إليه.

ومنها: أن مشيهم على الصراط في السرعة والبطء، بحسب سرعة سيرهم وبطئه على صراط الله المستقيم في الدنيا، فأسرعهم سيرًا هنا أسرعهم هناك، وأبطأهم هنا أبطأهم هناك، وأشدهم ثباتًا على الصراط المستقيم هنا أثبتهم هناك، ومن خطفته كلاليب الشهوات والشبهات والبدع المضلة هنا خطفته الكلاليب التي كأنها شوك السعدان هناك، ويكون تأثير كلاليب الشهوات والشبهات والبدع فيه هاهنا، فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومخردل أي مقطع بالكلاليب مكردس في النار، كما أثر فيهم تلك الكلاليب في الدنيا جزاءً وفاقًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

والمقصود: أن الله تبارك وتعالى ضرب لعباده المثلين: المائي والناري في سورة البقرة، وفي سورة الرعد، وفي سورة النور، لما تضمن المثلان من الحياة والإضاءة، فالمؤمن حي القلب مستنيره، والكافر والمنافق ميت القلب مظلمه. وقال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ۝ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٣٤ رقم ٣٧٠٥٦) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٥) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٤١٤).

فجعل من اهتدى بهداه واستنار بنوره بصيرًا حيًّا في ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك، مستنيرًا بنوره، والآخر أعمى ميتًا في حر الكفر والشرك والضلال منغمسًا في الظلمات. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]. وقد اختلفوا في مفسر الضمير من قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢] فقيل: هو الإيمان لكونه أقرب المذكورين، وقيل: هو الكتاب فإنه النور الذي هدى به عباده.

قال شيخنا: والصواب أنه عائد على الروح المذكور في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فسمى وحيه روحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح التي هي الحياة في الحقيقة، ومن عدمها فهو ميت لا حي، والحياة الأبدية السرمدية في دار النعيم هي ثمرة حياة القلب بهذا الروح الذي أوحى إلى رسوله ﷺ، فمن لم يَحْيَ به في الدنيا فهو ممن له جهنم لا يموت ولا يحيى. وأعظم الناس حياة في الدور الثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الجزاء، أعظمهم نصيبًا من الحياة بهذه الروح.

وسماه روحًا في غير موضع من القرآن كقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]. وسماه نورًا لما يحصل به من استنارة القلوب وإضاءتها.

وكمال الروح بهاتين الصفتين: بالحياة والنور، ولا سبيل إليهما إلا على أيدي الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، والاهتداء بما بعثوا به وتلقي العلم النافع والعمل الصالح من مشكاتهم، وإلا فالروح ميتة مظلمة وإن كان العبد مشارًا إليه بالزهد والفقه والفضيلة والكلام في البحوث، فإن الحياة والاستنارة بالروح الذي أوحاه الله

تعالىٰ إلىٰ رسوله ﷺ وجعله نورًا يهدي به من يشاء من عباده وراء ذلك كله فليس العلم كثرة النقل والبحث والكلام ولكن نور يميز به صحيح الأقوال من سقيمها، وحقها من باطلها، وما هو من مشكاة النبوة مما هو من آراء الرجال، ويميز النقد الذي عليه سكة أهل المدينة النبوية الذي لا يقبل الله ﷻ ثمنًا لجنته سواه، من النقد الذي عليه سكة جنكسخان ونوابه من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة، وكل من اتخذ لنفسه سكة وضربًا ونقدًا يروّجه بين العالم.

فهذه الأثمان كلها زيوف، لا يقبل الله ﷻ في ثمن جنته شيئًا منها، بل ترد علىٰ عاملها أحوج ما يكون إليها، وتكون من الأعمال التي قدم الله تعالىٰ عليها فجعلها هباءً منثورًا.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

[1] فهذا استدلال في غاية الظهور ونهاية البيان علىٰ جميع مطالب أصول الدين؛ من إثبات الصانع وصفات كماله من قدرته وعلمه وإرادته وحياته وحكمته وأفعاله وحدوث العالم، وإثبات نوعي توحيده تعالىٰ: توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب الخالق الفاطر، وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب الذي لا تصلح العبادة والذل والخضوع والحب إلا له.

ثم قرر تعالىٰ بعد ذلك إثبات نبوة رسوله محمد ﷺ، أبلغ تقرير وأحسنه وأتمه

(١) ١٣١ بدائع جـ ٤.

وأبعده عن المعارض، فثبت بذلك صدق رسوله في كل ما يقوله، وقد أخبر عن المعاد والجنة والنار فثبت صحة ذلك ضرورة، فقررت هذه الآيات هذه المطالب كلها على أحسن وجه فصدَّرها تعالىٰ بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وهذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم. ثم قال: ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ فأمرهم بعبادة ربهم، وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته؛ لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمة وإحسانه، وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا وكل ذرة من العبد فمملوكة له ملكًا خالصًا حقيقيًّا، وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه، فعبادته له وشكره إياه واجب عليه، ولهذا قال: ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ ولم يقل إلهكم.

والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله تعالىٰ هو الرب بهذه الاعتبارات كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفِطَر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ ﴾ فنبه بهذا أيضًا على وجوب عبادته وحده، وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود، وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم، كما قال في غير موضع من القرآن: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٨]. فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود، وكيف يجعلون معه شريكًا في العبادة، وأنتم مقرّون بأنه لا شريك له في الخلق، وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية.

ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ فنبه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولآبائكم ومن تقدمكم، وأنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم ولا في خلقكم، وخلقه تعالىٰ لهم متضمن لكمال قدرته وإرادته وعلمه وحكمته وحياته، وذلك يستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله، فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته، فلا شبيه له فيها ولا في أفعاله، فلا شريك له فيها.

ثم ذكر المطلوب من خلقهم، وهو أن يتقوه فيطيعونه ولا يعصونه، ويذكرونه فلا ينسونه، ويشكرونه ولا يكفرونه، فهذه حقيقة تقواه.

وقوله: ﴿ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ ﴾ قيل: إنه تعليل للأمر، وقيل: تعليل للخلق، وقيل: المعنى: اعبدوه لتتقوه بعبادته، وقيل: المعنى: خلقكم لتتقوه وهو أظهر لوجوه:

أحدها: أن التقوى هي العبادة والشيء لا يكون علة لنفسه.

الثاني: أن نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦].

الثالث: أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: ﴿ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ ﴾ من الأمر. ولمن نصر الأول أن يقول: لا يمتنع أن يكون قوله: ﴿ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ ﴾ تعليلًا للأمر بالعبادة.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٨٣] فهذا تعليل لكَتْبِ الصيام، ولا يمتنع أن يكون تعليلًا للأمرين معًا، وهذا هو الأليق بالآية، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢٢] فذكر تعالى دليلًا آخر متضمنًا للاستدلال بحكمته في مخلوقاته.

فالأول: متضمن لأصل الخلق والإيجاد، ويسمى دليل الاختراع والإنشاء.

والثاني: متضمن للحكم المشهودة في خلقه، ويسمى دليل العناية والحكمة، وهو تعالى كثيرًا ما يكرر هذين النوعين من الاستدلال في القرآن.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِىَ فِى ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣] فذكر خلق السموات والأرض، ثم ذكر منافع المخلوقات وحكمها.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ ﴾ [النمل: ٦٠-٦١] إلى آخر الآيات، على أن في هذه الآيات من الأسرار والحكم ما بحسب عقول العالمين أن يفهموه ويدركوه، ولعله أن يمر بك إن شاء الله التنبيه على رائحة يسيرة من ذلك.

ونظير ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤] وهذا كثير في القرآن لمن تأمله.

وذكر سبحانه في سورة البقرة قرار العالم، وهو الأرض وسقفه وهو السماء، وأصول منافع العباد وهو الماء الذي أنزله من السماء، فذكر المسكن، والساكن وما يحتاج إليه من مصالحه، ونبه تعالى بجعله للأرض فراشًا على تمام حكمته في أن هيأها لاستقرار الحيوان عليها؛ فجعلها فراشًا ومهادًا وبساطًا وقرارًا، وجعل سقفها بناءً محكمًا مستويًا، لا فطور فيه ولا تفاوت ولا عيب، ثم قال: ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] فتأمل هذه النتيجة وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها، وظفر العقل بها بأول وهلة، وخلوصها من كل شبهة وريبة وقادح، وإن كل متكلم ومستدل ومحاجّ إذا بالغ في تقرير ما يقرره وأطاله وأعرض القول فيه فغايته؛ إن صح ما يذكره أن ينتهي إلى بعض ما في القرآن.

فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من البرهان الشافي في التوحيد، أي إذا كان الله وحده هو الذي فعل هذه الأفعال، فكيف يجعلون له أندادًا وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه في فعله؟!

فلما قرر نوعي التوحيد انتقل إلى النبوة، فقال: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ

عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣] إن حصل لكم ريب في القرآن الكريم وصدق من جاء به، وقلتم إنه مفتعل، فأتوا بسورة واحدة تشبهه، وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم، ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه، يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف، ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك، حتى إن الذين راموا معارضته، كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه، فإنهم أتوا بشيء يستحي العقلاء من سماعه، ويحكمون بسماجته وقبح ركاكته وخسته، فهو كمن أظهر طيبًا لم يشم أحد مثل ريحه قط، وتحدَّى الخلائق ملوكهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرة طيب مثله، فاستحيى العقلاء وعرفوا عجزهم، وجاء الحمقان بعذرة منتنة خبيثة، وقالوا: قد جئنا بمثل ما جئت به، فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوة وبرهانًا وعظمة وجلالة؟

وأكد تعالى هذا التوبيخ والتقريع والتعجيز بأن قال: ﴿ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ كما يقول المعجز لمن يدعي مقاومته: أجهد علي بكل من تقدر عليه من أصحابك وأعوانك وأوليائك، ولا تبق منهم أحدًا حتى تستعين به، فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلًا، إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه، أو أكملهم وأفضلهم وأصدقهم وأوثقهم بما يقوله: والنبي ﷺ يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق أميهم وكتابيهم وعربهم وعجمهم، ويقول: «لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أبدًا» فيعدلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحباب، فلو قدروا على الإتيان بسورة واحدة لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة وإيتام الأولاد وقتل النفوس والإقرار بالعجز عن معارضته.

وتقرير النبوة بهذه الآية وجوه متعددة هذا أحدها.

وثانيها: إقدامه ﷺ هذا الأمر وإسجاله على الخلائق إسجالًا عامًّا إلى يوم القيامة، أنهم لن يفعلوا ذلك أبدًا، فهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك،

مستند إلى وحي من الله تعالى، وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك.

وثالثها: النظر إلى نفس ما تحدى به وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله، الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه. وهذا الوجه يكون معجزة لمن سمعه وتأمله وفهمه، وبالوجهين الأولين يكون معجزة لكل من بلغه خبره، ولو لم يفهمه ولم يتأمله.

فتأمل هذا الموضع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين وتقصيرهم في بيان إعجازه، وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقه حتى قصر بعضهم الإعجاز على صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها. بعضهم قصر الإعجاز على مجرد فصاحته وبلاغته. وبعضهم على مخالفة أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام. وبعضهم على ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب، إلى غير ذلك من الأقوال القاصرة، التي لا تشفي ولا تجدي، وإعجازه فوق ذلك ووراء ذلك كله. فإذا ثبتت النبوة بهذه الحجة القاطعة، فقد وجب على الناس تصديق الرسول في خبره وطاعة أمره.

(١)«التعبد» وهو فوق التتيم، فإن العبد هو الذي قد ملك المحبوبُ رِقَّه، فلم يبق له شيء من نفسه البتة؛ بل كله عبد لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا، وهذا هو حقيقة العبودية، ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها.

ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة، وصفه الله بها في أشرف مقاماته: مقام الإسراء، كقوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١]. ومقام الدعوة، كقوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن: ١٩]. ومقام التحدي، كقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣]، وبذلك استحق التقديم على الخلائق في الدنيا والآخرة.

وكذلك يقول المسيح عليه الصلاة والسلام لهم، إذا طلبوا منه الشفاعة ـ بعد

---

(١) ٢٩ مدارج جـ٣.

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ: «اذهبوا إلى محمد، عبدٍ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[١].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: فحصلت له تلك المرتبة: بتكميل عبوديته لله تعالى، وكمال مغفرة الله له.

وحقيقة العبودية: الحب التام، مع الذل التام والخضوع للمحبوب، تقول العرب: «طريق معبد» أي: قد ذللته الأقدام وسهلته.

[٢]وقد أخبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعن المعاد والجنة والنار فثبتت صحة ذلك يقينًا، فقال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥] الآية.

فاشتملت الآيات على تقرير مهمات أصول الدين: من إثبات خالق العالم، وصفاته ووحدانيته، ورسالة رسوله والمعاد الأكبر.

***

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾.

[٣]قولهم: ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ﴾ أي: شبيهه ونظيره لا عينه، وهل المراد هذا الذي رزقنا في الدنيا نظيره من الفواكه والثمار، أو هذا نظير الذي رزقناه قبل في الجنة: فيه قولان: ففي تفسير السدي، عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٧).

(٢) ١٣٦ بدائع جـ ٤.

(٣) ١٢٢ حادي الأرواح.

وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿قَالُوا هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أنهم أتوا بالثمرة في الجنة، فلما نظروا إليها، قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، قال مجاهد: ما أشبهه به! وقال ابن زيد: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وأتوا به متشابها يعرفونه. وقال آخرون: هذا الذي رزقنا من قبل من ثمار الجنة، من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضًا في اللون والطعم[(١)].

واحتج أصحاب هذا القول بحجج:

إحداها: أن المشابهة التي بين ثمار الجنة بعضها لبعض أعظم من المشابهة التي بينها وبين ثمار الدنيا؛ ولشدة المشابهة قالوا: هذا هو.

الحجة الثانية: ما حكاه ابن جرير عنهم، قال: ومن علة قائلي هذا القول أن ثمار الجنة كلما نزع منها شيء عاد مكانه آخر مثله، كما حدثنا ابن بشار: حدثنا ابن مهدي: حدثنا سفيان: سمعت ابن مرة يحدث عن أبي عبيدة، وذكر ثمر الجنة. وقال: كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى[(٢)].

الحجة الثالثة: قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ وهذا كالتعليل والسبب الموجب لقولهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾.

الحجة الرابعة: أن من المعلوم أنه ليس كل ما في الجنة من الثمار قد رزقوه في الدنيا، وكثير من أهلها لا يعرفون ثمار الدنيا ولا رأوها، ورجحت طائفة منهم ابن جرير وغيره القول الآخر، واحتجت بوجوه.

قال ابن جرير: والذي يحقق صحة قول القائلين: إن معنى ذلك: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا أن الله جل ثناؤه قال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ [البقرة: ٢٥] يقولون: هذا الذي رزقنا من قبل، ولم يخصص أن ذلك من قيلهم في بعض دون

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧١) وتفسير ابن كثير (١/ ٦٤) وعمدة القاري (١٥/ ١٤٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧١).

بعض، فإذا كان قد أخبر جل ذكره عنهم أن ذلك من قيلهم كلما رزقوا ثمرة، فلا شك أن ذلك من قيلهم في أول رزق رزقوه من ثمارها أتوا به بعد دخولهم الجنة واستقرارهم فيها، الذي لم يتقدمه عندهم من ثمارها ثمرة، فإذا كان لا شك أن ذلك من قيلهم في أوله كما هو من قيلهم في وسطه وما يتلوه، فمعلوم أنه محال أن يقولوا لأول رزق رزقوه من ثمار الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل، هذا من ثمار الجنة، وكيف يجوز أن يقولوا لأول رزق من ثمارها ولما يتقدمه عندهم غيرها: هذا هو الذي رزقنا من قبل، إلا أن ينسبهم ذو غية وضلال إلى قيل الكذب الذي قد طهرهم الله منه، أو يدفع دافع أن يكون ذلك من قيلهم لأول رزق يرزقونه من ثمارها، فيدفع صحة ما أوجب الله صحته من غير نصب، دلالة على أن ذلك في حال من أحوالهم دون حال. فقد تبين أن معنى الآية: كلما رزقوا من ثمرة من ثمار الجنة في الجنة، قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا.

قلت: أصحاب القول الأول يخصون هذا العام بما عدا الرزق الأول لدلالة العقل والسياق عليه، وليس هذا ببدع من طريقة القرآن، وأنت مضطر إلى تخصيصة ولابد بأنواع من التخصيصات:

أحدها: أن كثيرًا من ثمار الجنة، وهي التي لا نظير لها في الدنيا لا يقال فيها ذلك.

الثاني: أن كثيرًا من أهلها لم يرزقوا جميع ثمرات الدنيا التي لها نظير في الجنة.

الثالث: أنه من المعلوم أنهم لا يستمرون على هذا القول أبد الآباد، كلما أكلوا ثمرة واحدة، قالوا: هذا الذي رزقنا في الدنيا، ويستمرون على هذا الكلام دائماً إلى غير نهاية، والقرآن العظيم لم يقصد إلى هذا المعنى، ولا هو مما يعتنى بهم من نعيمهم ولذتهم، وإنما هو كلام مبين خارج على المعتاد المفهوم من الطيب.

ومعناه: أنه يشبه بعضه بعضًا، ليس أوله خيرًا من آخره، ولا هو مما يعرض له ما يعرض لثمار الدنيا عند تقادم الشجر وكبرها؛ من نقصان حملها وصغر ثمرها وغير ذلك، بل أوله مثل آخره، وآخره مثل أوله، هو خيار كله يشبه بعضه بعضًا، فهذا وجه

قولهم، ولا يلزم مخالفة ما نصه الله ﷻ، ولا نسبة أهل الجنة إلى الكذب بوجه، والذي يلزمهم من التخصيص يلزمك نظيره وأكثر منه، والله أعلم.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا﴾ قال الحسن: خيار كله لا رذل، ألم تروا إلى ثمار الدنيا كيف تسترذلون بعضه، وأن ذلك ليس فيه رذل. وقال قتادة: خيار لا رذل فيه، فإن ثمار الدنيا ينقى منها ويرذل منها، وكذلك قال ابن جريج وجماعة(١)، وعلى هذا فالمراد بالتشابه التوافق والتماثل، وقالت طائفة أخرى منهم ابن مسعود، وابن عباس، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ: متشابهًا في اللون والمرأى، وليس يشبه الطعم(٢). قال مجاهد: متشابهًا لونه، مختلفًا طعمه(٣). وكذا قال الربيع بن أنس.

وقال يحيى بن أبي كثير: عشب الجنة الزعفران، وكثبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفاكهة، فيأكلونها ثم يأتونهم بمثلها، فيقولون: هذا الذي جئتمونا به آنفًا، فيقول لهم الخدم: كلوا فإنَّ اللون واحد والطعم مختلف. فهو قوله ﷻ: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا﴾(٤).

وقالت طائفة، وناس: معنى الآية: أن يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أفضل وأطيب(٥)، قال ابن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، قالوا في الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهًا يعرفونه، وليس هو مثله في الطعم، واختار ابن جرير هذا القول، قال: ودليلنا على فساد قول من قال: إن معنى الآية هذا الذي رزقنا من قبل أي في الجنة، وتلك

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧٢-١٧٣) والدر المنثور (١/ ٩٦).
(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧٢-١٧٤) والدر المنثور (١/ ٩٦).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧٢-١٧٣).
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٦٧ رقم ٢٦١) وتفسير ابن كثير (١/ ٦٤) وعمدة القاري (١٥/ ١٤٧).
(٥) انظر: تفسير الصنعاني (١/ ٤١) وتفسير الطبري (١/ ١٧٢-١٧٤) وتفسير ابن كثير (١/ ٦٤) وعمدة القاري (١٥/ ١٤٧).

الدلالة على فساد ذلك القول هي الدلالة على فساد قول من خالف قولنا في تأويل قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ أن الله ﷻ أخبر عن المعنى الذي من أجله قال القوم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾(١).

قلت: هذا لا يدل على فساد قولهم لما تقدم.

(٢)قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥] فتأمل جلالة المبشر ومنزلته وصدقه، وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة، وقدر ما بشرك به، وضمنه لك على أسهل شيء عليك وأيسره.

وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه.

والأزواج جمع زوج، والمرأة زوج للرجل وهو زوجها، هذا هو الأفصح، وهو لغة قريش، وبها نزل القرآن، كقوله: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ومن العرب من يقول: زوجة، وهو نادر لا يكادون يقولونه! وأما المطهرة فإن جرت صفة على الواحد؛ فيجرى صفة على جمع التكسير؛ إجراء له مجرى جماعة كقوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ [الصف: ١٢] ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ [سبأ: ١٨] ونظائره.

والمطهرة: من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق، وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، فظهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، وطهر لسانها من الفحش والبذاء، وطهر طرفها من أن تطمح به

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧٢-١٧٤) وتفسير ابن كثير (١/ ٦٤).

(٢) ١٥٥ حادي الأرواح.

إلى غير زوجها، وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ[(١)]. قال عبد الله بن المبارك: ثنا شعبة، عن قتادة، عن أبي نظرة، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: «**من الحيض والغائط والنخامة والبصاق**»[(٢)].

وقال عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: لا يحضن ولا يحدثن ولا يتنخمن[(٣)]. وقال ابن عباس أيضًا: مطهرة من القذر والأذى[(٤)]. وقال مجاهد: لا يبلن ولا يتغوطن ولا يمذين ولا يمنين ولا يحضن ولا يبصقن ولا يتنخمن ولا يلدن[(٥)]. وقال قتادة: مطهرة من الإثم والأذى، طهرهن الله سبحانه من كل بول وغائط وقذر ومأثم[(٦)]. وقال عبد الرحمن بن زيد: المطهرة التي لا تحيض، وأزواج الدنيا لسن بمطهرات، ألا تراهن يدمين ويتركن الصلاة والصيام، قال: وكذلك خلقت حواء حتى عصت، فلما عصت، قال الله: «**إني خلقتك مطهرة، وسأدميك كما دميت هذه الشجرة**»[(٧)].

[(٨)]قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا﴾ [البقرة: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧٥) وفيض القدير (١/ ٤٧١).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٩٧) إلى الحاكم وابن مردويه وصححه، وقال الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (٣/ ٤٩٩): وإسناده لا بأس به.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٧٥) والدر المنثور (١/ ٩٧).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٧٥) وابن أبي حاتم (١/ ٦٧ رقم ٢٦٤) (٣/ ٩٨٤ رقم ٥٥٠٧) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٤).

(٥) أخرجه الصنعاني في تفسيره (١/ ٤١) والطبري في تفسيره (١/ ١٧٥-١٧٦).

(٦) أخرجه الصنعاني في تفسيره (١/ ٤١) والطبري في تفسيره (١/ ١٧٦) وانظر: الدر المنثور (١/ ٩٨).

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٧٦) وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٤): وهذا غريب.

(٨) ٢٩١ حادي الأرواح.

ﭐلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ [فصلت: ٣٠، الأحقاف: ١٣]، الآية. وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ...﴾ إلى قوله: ﴿... أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون:١ - ١١].

وفي المسند وغيره: أن النبي ﷺ قال: «**قد أنزلت عليَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة**» ثم تلا: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى ختم العشر آيات[(١)].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾ إلى قوله: ﴿... أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١٢]. وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٤) وعبد بن حميد (رقم ١٥) والترمذي (رقم ٣١٧٣) والضياء في المختارة (١/ ٣٤١-٣٤٢ رقم ٢٣٤) والحاكم (١/ ٧١٧ رقم ١٩٦١) (٢/ ٤٢٥ رقم ٣٤٧٩) والنسائي في الكبرى (١/ ٤٥٠ رقم ١٤٣٩) صححه الحاكم في الموضعين بينما قال المزي في تهذيب الكمال (٣٢/ ٥٠٩): وقال النسائي: هذا حديث منكر، وكذا قال المناوي في الفتح السماوي (٢/ ٨٥٨ رقم ٧٣٧) والزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٤٠٩).

عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ...﴾ إلى قوله: ﴿... وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٠-١٣]. وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] وهذا في القرآن كثير، مداره على ثلاث قواعد: إيمان، وتقوى، وعمل خالص لله على موافقة السنة.

فأهل هذه الأصول الثلاثة، هم أهل البشرى دون من عداهم من سائر الخلق، وعليها دارت بشارات القرآن والسنة جميعها.

وهي تجتمع في أصلين: إخلاص في طاعة الله، وإحسان إلى خلقه، وضدها يجتمع في الذين يراءون ويمنعون الماعون. وترجع إلى خصلة واحدة، وهي موافقة الرب تبارك وتعالى في محابه، ولا طريق إلى ذلك إلا بتحقيق القدوة ظاهرًا وباطنًا برسول الله ﷺ.

وأما الأعمال التي هي تفاصيل هذا الأصل فهي بضع وسبعون شعبة: أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق[(١)]، وبين هاتين الشعبتين سائر الشعب التي مرجعها تصديق الرسول في كل ما أخبر به، وطاعته في جميع ما أمر به إيجابًا واستحبابًا: كالإيمان بأسماء الرب، وصفاته، وأفعاله، وآياته؛ من غير تحريف لها ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل.

***

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

(١) كما ثبت في الحديث الذي أخرجه البخاري (رقم ٩) ومسلم (رقم ٣٥) وانظر: شرح النووي (٢/ ٥) وعمدة القاري (١/ ١٢٣-١٢٧) والديباج على مسلم (١/ ٥٢) وفيض القدير (٣/ ١٨٦).

(١) وهذا جواب اعتراض، اعترض به الكفار على القرآن، وقالوا: إن الرب أعظم من أن يذكر الذباب والعنكبوت ونحوها من الحيوانات الخسيسة، فلو كان ما جاء به محمد ﷺ، كلام الله؛ لم يذكر فيه الحيوانات الخسيسة. فأجابهم الله تعالى بأن قال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦].

فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها، إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه، وإبطال الباطل وإدحاضه؛ كان من أحسن الأشياء، والحسن لا يستحيا منه، فهذا جواب الاعتراض. فكأن معترضًا اعترض على هذا الجواب أو طلب حكمة ذلك، فأخبر تعالى عمَّا له في ضرب تلك الأمثال من الحكمة، وهي إضلال من شاء وهداية من شاء. ثم كأن سائلاً سأل عن حكمة الإضلال لمن يضله بذلك.

فأخبر تعالى عن حكمته وعدله، وأنه إنما يضل به الفاسقين ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ٢٧]، فكانت أعمالهم هذه القبيحة التي ارتكبوها سببًا لأن أضلهم وأعماهم عن الهدى.

***

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

(٢) ولا ريب أن القلب إذا طُبع عليه أظلمت صورة العلم فيه، وانطمست وربما ذهب أثرها حتى يصير السبب الذي يهتدي به المهتدون سببًا لضلال هذا، كما قال تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ

(١) ١٣٦ بدائع ج٤.
(٢) ١٠٠ مفتاح جـ١.

يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

فأخبر تعالىٰ أن القرآن سبب لضلال هذا الصنف من الناس، وهو هداه الذي هدىٰ به رسوله وعباده المؤمنين، ولهذا أخبر سبحانه أنه إنما يهتدي به من اتبع رضوان الله.

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. ولا شيء أعظم فسادًا لمحل العلم من صيرورته؛ بحث يضل بما يهتدي به، فنسبته إلىٰ الهدىٰ والعلم نسبة الفم الذي قد استحكمت فيه المرارة إلىٰ الماء العذب كما قيل:

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مُرًّا به الماءَ الزلالا[1]

[2]وأما الأصل[3] الثاني: وهو اقتضاء الفجور والكبر والكذب والضلال، فكثير أيضًا في القرآن، كقوله تعالىٰ: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧]. وقال تعالىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ

(١) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلىٰ أبي الطيب المتنبي: أحمد بن الحسين الجعفي الكندي الشاعر الحكيم، أحد مفاخر الأدب العربي، له الأمثال السائرة الحكم البليغة والمعاني المبتكرة. قيل: إنه تنبأ وتبعه كثير من الناس، فسجنه أمير حمص حتىٰ تاب ورجع عن دعواه، مات مقتولًا سنة ٣٥٤هـ. وذكر البيت عبد القادر الجرجاني في أسرار البلاغة (ص ١٥٨) والثعالبي في يتيمة الدهر (١/ ٢٢٦).

(٢) ١٣٠ فوائد.

(٣) تقدم الأصل الأول في الصفحة رقم ١٤٣ (ج).

فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ [النساء: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فأخبر أنه عاقبهم على تخلفهم عن الإيمان، لما جاءهم وعرفوه وأعرضوا عنه بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم وحال بينهم وبين الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله حين يدعوهم إلى ما فيه حياتهم، ثم حذرهم من التخلف والتأخر عن الاستجابة، الذي يكون سببًا لأن يحول بينهم وبين قلوبهم. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَـٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥]. وقال تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]. فأخبر سبحانه أن كسبهم غطى على قلوبهم، وحال بينها وبين الإيمان بآياته، فقالوا: أساطير الأولين.

وقال تعالى في المنافقين: ﴿ نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] فجازاهم على نسيانهم له أن نسيهم، فلم يذكرهم بالهدى والرحمة، وأخبر أنه أنساهم أنفسهم، فلم يطلبوا كمالها بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما: الهدى، ودين الحق، فأنساهم طلب ذلك ومحبته ومعرفته، والحرص عليه عقوبة لنسيانهم له. وقال تعالى في حقهم: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَـٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٦، ١٧]. فجمع لهم بين اتباع الهوى والضلال الذي هو ثمرته وموجبه، كما جمع للمهتدين بين التقوى والهدى.

***

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

[(١)]هذا استدلال قاطع على أن الإيمان بالله تعالى أمر مستقر في الفطر والعقول، وأنه لا عذر لأحد في الكفر به البتة، فذكر تعالى أربعة أمور: ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم، والرابع منتظر موعود به وعد الحق:

الأول: كونهم كانوا أمواتا لا أرواح فيهم، بل نطفًا وعلقًا ومضغة، مواتًا لا حياة فيها.

الثاني: أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة.

الثالث: أنه تعالى يميتهم بعد هذه الحياة.

الرابع: أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه.

فما بال العاقل يشهد الثلاثة الأطوار الأول، ويكذب بالرابع؟ وهل الرابع إلا طور من أطوار التخليق؟ فالذي أحياكم بعد أن كنتم أمواتًا ثم أماتكم بعد أن أحياكم ما الذي يعجزه عن إحيائكم بعد ما يميتكم؟! وهل إنكاركم ذلك إلا كفر مجرد بالله؟! فكيف يقع منكم بعد ما شاهدتموه؟. ففي ضمن هذه الآية الاستدلال على وجود الخالق وصفاته وأفعاله على المعاد.

***

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

هذه كالمناظرة من الملائكة، والجواب عن سؤالهم، كأنهم قالوا: إن استخلفت في الأرض خليفة كان منه الفساد وسفك الدماء، وحكمتك تقتضي أن لا تفعل ذلك،

(١) ١٣٧ بدائع جـ ٤.

وإن جعلت فيها فتجعل فيها من يسبح بحمدك ويقدس لك، ونحن نفعل ذلك فأجابهم تعالىٰ عن هذا السؤال؛ بأن له من الحكمة في جعل هذا الخليفة في الأرض ما لا تعلمه الملائكة، وإن وراء ما زعمتم من الفساد مصالح وحِكَمًا لا تعلمونها أنتم، وقد ذكرنا منها قريبًا من أربعين حكمة[1] في كتاب (التحفة المكية)، فاستخرج تعالىٰ من هذا الخليفة وذريته الأنبياء والرسل والأولياء والمؤمنين، وعمَّر بهم الجنة وميَّز الخبيث من ذريته من الطيب فعمر بهم النار، وكان في ضمن ذلك من الحكم والمصالح ما لم تكن الملائكة تعلمه.

ثم إنه سبحانه أظهر فضل الخليفة عليهم بما خصه به من العلم الذي لم تعلمه الملائكة، وأمرهم بالسجود له: تكريمًا له، وتعظيمًا له، وإظهارًا لفضله، وفي ضمن ذلك من الحكم ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها: امتحانهم بالسجود لمن زعموا أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء؛ فأسجدهم له وأظهر فضله عليهم؛ لما أثنوا على أنفسهم وذموا الخليفة، كما فعل سبحانه ذلك بموسىٰ لما أخبر عن نفسه أنه أعلم أهل الأرض؛ فامتحنه بالخضر وعجزه معه في تلك الوقائع الثلاث[2]، وهذه سنته تعالىٰ في خليقته وهو الحكيم العليم.

ومنها: جبره لهذا الخليفة وابتداؤه له بالإكرام والإنعام؛ لما علم مما يحصل له من الانكسار والمصيبة والمحنة، فابتدأه بالجبر والفضل، ثم جاءت المحنة والبلية والذل،

---

(١) يظهر أنها هي الموجودة في أول (مفتاح دار السعادة) (ج).

(٢) فعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفًا البكالي يزعم أن موسىٰ ليس بموسىٰ بني إسرائيل، وإنما هو موسىٰ آخر، فقال: كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب عن النبي ﷺ: «**قام موسىٰ النبي خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه، فأوحىٰ الله إليه: إن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: يا رب وكيف به؟! فقيل له: احمل حوتًا في مكتل فإذا فقدته فهو ثم. فانطلق وانطلق بفتاه يوشع بن نون وحمل حوتًا في مكتل حتىٰ كانا عند الصخرة وضعا رؤوسهما وناما فانسل الحوت من المكتل ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾**» الحديث أخرجه البخاري (رقم ١٢٢) ومسلم (رقم ٢٣٨٠).

وكانت عاقبتها إلى الخير والفضل والإحسان، فكانت المصيبة التي لحقته محفوفة بإنعامين: إنعام قبلها، وإنعام بعدها، ولذريته المؤمنين نصيب مما لأبيهم، فإن الله تعالى أنعم عليهم بالإيمان ابتداء، وجعل العاقبة لهم، فما أصابهم بين ذلك من الذنوب والمصائب، فهي محفوفة بإنعام قبلها وإنعام بعدها، فتبارك الله رب العالمين.

ومنها: استخراجه تعالى ما كان كامنًا في نفس عدوه إبليس؛ من الكبر والمعصية، الذي ظهر عند أمره بالسجود، فاستحق اللعنة والطرد والإبعاد على ما كان كامنًا في نفسه عند إظهاره، والله تعالى كان يعلم منه ولم يكن ليعاقبه ويلعنه على علمه فيه، بل على وقوع معلومه، فكان أمره بالسجود له مع الملائكة مظهرًا للخبث والكفر الذي كان كامنًا فيه، ولم تكن الملائكة تعلمه، فأظهر لهم سبحانه ما كان يعلمه، وكان خافيًا عنهم من أمره، فكان في الأمر بالسجود له تكريمًا لخليفته الذي أخبرهم بجعله في الأرض، وجبرًا له وتأديبًا للملائكة وإظهارًا لما كان مستخفيًا في نفس إبليس، وكان ذلك سببًا لتمييز الخبيث من الطيب، وهذا من بعض حِكَمه تعالى في إسجادهم لآدم.

ثم إنه سبحانه لمَّا علّم آدم ما علّمه، ثم امتحن الملائكة بعلمه فلم يعلموه فأنبأهم به آدم، وكان في طي ذلك جوابًا لهم عن كون هذا الخليفة لا فائدة في جعله في الأرض؛ فإنه يفسد فيها ويسفك الدماء؛ فأراهم من فضله وعلمه خلاف ما كان في ظنهم.

(١) إنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة قالوا له: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٢] إلى آخر قصة آدم وأمر الملائكة بالسجود لآدم، فأبى إبليس فلعنه، وأخرجه من السماء.

(١) ٥٢ مفتاح جـ١.

بيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه

أحدها: أنه سبحانه رد على الملائكة لما سألوه: كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه؟ فقال: ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه، وهو العليم الحكيم.

فظهر من هذا الخليفة: من خيار خلقه، ورسله وأنبيائه، وصالحي عباده، والشهداء، والصديقين، والعلماء، وطبقات أهل العلم والإيمان، من هو خير من الملائكة. وظهر من إبليس؛ من هو شر العالمين، فأخرج سبحانه هذا وهذا، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا، ولا بهذا ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة.

الثاني: أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله؛ ميَّزه عليهم بالعلم فعلّمه الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال: ﴿ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.

جاء في التفسير: أنهم قالوا: لن يخلق ربنا خلقًا هو أكرم عليه منَّا، فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة، الذي يجعله الله في الأرض، فلما امتحنهم بعلم ما علَّمه لهذا الخليفة؛ أقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه، فقالوا: ﴿ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصَّه به من العلم، فقال: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ﴾ أقروا له بالفضل.

الثالث: أنه سبحانه لما أن عرَّفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه، قال لهم: ﴿ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم، وأنه أحاط علمًا بظاهرهم وباطنهم وبغيب السموات والأرض، فتعرَّف إليهم بصفة العلم، وعرَّفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم، وعجزهم عما آتاه آدم من العلم، وكفى بهذا شرفًا للعلم.

الرابع: أنه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات، وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه، فأظهر لهم أحسن ما فيه، وهو علمه؛ فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم.

ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف ﷺ لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير، فحينئذ قدمه ومكّنه وسلم إليه خزائن الأرض، وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته، ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته، أطلقه من الحبس، ومكّنه في الأرض؛ فدل على أن صورة العلم عند بني آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية، ولو كانت أجمل صورة.

[(١)] قول الملائكة: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ فقيل: المعنى: ونقدس أنفسنا لك فعدِّي باللام، وهذا ليس بشيء، والصواب أن المعنى: نقدسك وننزهك عما لا يليق بك، هذا قول جمهور أهل التفسير.

وقال ابن جرير: ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس، ومما أضاف إليك أهل الكفر بك، قال: وقال بعضهم: نعظّمك ونمجدك، قاله أبو صالح. وقال مجاهد: نعظمك ونكبرك[(٢)]. انتهى.

وقال بعضهم: ننزهك عن السوء فلا ننسبه إليك. واللام فيه على حدها في قوله: ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ [النمل: ٧٢] لأن المعنى تنزيه الله، لا تنزيه نفوسهم لأجله.

قلت: ولهذا قرن هذا اللفظ بقولهم: نسبح بحمدك؛ فإن التسبيح تنزيه الله سبحانه عن كل سوء. قال ميمون بن مهران: سبحان الله كلمة يعظم بها الرب، ويحاشى بها من السوء. وقال ابن عباس: هي تنزيه لله من كل سوء، وأصل اللفظة من المباعدة من

---

(١) ١٧٨ شفاء.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢١١) والدر المنثور (١/ ١١٤).

قولهم: سَبَحْتُ في الأرض، إذا تباعدت فيها، ومنه ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] [يس: ٤٠] فمن أثنى على الله ونزّهه عن السوء، فقد سبّحه، ويقال: سبح الله وسبح له، وقدسه وقدس له.

[2]قوله: أي حكمة في إبقاء إبليس إلى آخر الدهر وإماتة الرسل؟ فكم لله في ذلك من حكمة تضيق بها الأوهام:

فمنها: أنه سبحانه لما جعله محكًّا ومحنة يخرج به الطيب من الخبيث، ووليه من عدوه؛ اقتضت حكمته إبقاءه؛ ليحصل الغرض المطلوب بخلقه، ولو أماته؛ لفات ذلك الغرض. كما أن الحكمة اقتضت بقاء أعدائه الكفار في الأرض إلى آخر الدهر، ولو أهلكهم البتة لتعطلت الحكم الكثيرة في إبقائهم، فكما اقتضت حكمته امتحان أبي البشر؛ اقتضت امتحان أولاده من بعده به، فتحصل السعادة لمن خالفه وعاداه، وينحاز إليه من وافقه ووالاه.

ومنها: أنه لما سبق حلمه وحكمته أنه لا نصيب له في الآخرة، وقد سبق له طاعة وعبادة جزاه بها في الدنيا؛ بأن أعطاه البقاء فيها إلى آخر الدهر؛ فإنه سبحانه لا يظلم أحدًا حسنة عملها، فأما المؤمن فيجزيه بحسناته في الدنيا وفي الآخرة، وأما الكافر فيجزيه بحسنات ما عمل في الدنيا، فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له شيء، كما ثبت هذا المعنى في الصحيح عن النبي ﷺ.

ومنها: أن إبقاءه لم يكن كرامة في حقه، فإنه لو مات كان خيرًا له وأخف لعذابه وأقل لشرِّه، ولكن لما غلظ ذنبه بالإصرار على المعصية، ومخاصمة من ينبغي التسليم لحكمه والقدح في حكمته والحلف على اقتطاع عباده وصدهم عن عبوديته، كانت عقوبة الذنب أعظم عقوبة بحسب تغلظه فأُبقِيَ في الدنيا، وأُمْلِيَ له ليزداد هذا

(١) انظر: غريب الحديث للخطابي (١/ ٦٨٥) ولسان العرب (٢/ ٤٧١).

(٢) ٢٤٠ شفاء.

إنمّا على أثم ذلك الذنب، فيستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره، فيكون رأس أهل الشرِّ في العقوبة، كما كان رأسهم في الشر والكفر.

ولما كان مادة كل شر فعنه ينشأ جوزي في النار مثل فعله، فكل عذاب ينزل بأهل النار يبدأ به فيه، ثم يسري منه إلى أتباعه عدلًا ظاهرًا وحكمة بالغة.

ومنها: أنه قال في مخاصمته لربه: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] وعلم سبحانه أن في الذرية من لا يصلح لمساكنته في داره، ولا يصلح إلا لما يصلح له الشوك والروث أبقاه له، وقال له بلسان القدر: هؤلاء أصحابك وأولياؤك فاجلس في انتظارهم، وكلما مر بك واحد منهم فشأنك به، فلو صلح لي لما ملكتك منه، فإني أتولى الصالحين وهم الذي يصلحون لي، وأنت ولي المجرمين الذين غنوا عن موالاتي وابتغاء مرضاتي، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

فأما إماتة الأنبياء والمرسلين، فلم يكن ذلك لهوانهم عليه، ولكن ليصلوا إلى محل كرامته، ويستريحوا من نكد الدنيا وتعبها ومقاساة أعدائهم أتباعهم، وليحيا الرسل بعدهم يرى رسولًا بعد رسول، فأماتتهم أصلح لهم وللأمة. أما هم فلراحتهم من الدنيا ولحوقهم بالرفيق الأعلى في أكمل لذة وسرور، ولاسيما وقد خيَّرهم ربهم بين البقاء في الدنيا واللحاق به. وأما الأمم فيعلم أنهم لم يطيعوهم في حياتهم خاصة، بل أطاعوهم بعد مماتهم، كما أطاعوهم في حياتهم، وأن أتباعهم لم يكونوا يعبدونهم، بل يعبدون الله بأمرهم ونهيهم، والله هو الحي الذي لا يموت، فكم في إماتتهم في حكمة ومصلحة لهم وللأمم!!

هذا وهم بشر، ولم يخلق الله البشر في الدنيا على خلقة قابلة للدوام، بل جعلهم خلائف في الأرض، يخلف بعضهم بعضًا، فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة في

جعلهم خلائف، ولضاقت بهم الأرض، فالموت كمال لكل مؤمن، ولولا الموت لما طاب العيش في الدنيا، ولا هناء لأهلها بها، فالحكمة في الموت كالحكمة في الحياة.

الوجه السابع والعشرون: قوله: أي حكمة ومصلحة في إخراج آدم من الجنة إلى دار الابتلاء والامتحان؟

فالجواب أن يقال: كم لله سبحانه في ذلك من حكمة! وكل فيه من نعمة ومصلحة، تعجز العقول عن معرفتها على التفصيل، ولو استفرغت قواها كلها في معرفة ذلك!

وإهباط آدم وإخراجه من الجنة، كان سبيل كماله ليعود إليها على أحسن أحواله، وهو سبحانه إنما خلقه ليستعمره وذريته في الأرض، ويجعلهم خلفاء يخلف بعضهم بعضًا، فخلقهم سبحانه ليأمرهم وينهاهم ويبتليهم، وليست الجنة دار ابتلاء وتكليف، فأخرج الأبوين إلى الدار التي خلقوا منها وفيها؛ ليتزودوا منها إلى الدار التي خلقوا لها، فإذا وفوا تعب دار التكليف ونصبها، عرفوا قدر تلك الدار وشرفها وفضلها، ولو نشأوا في تلك الدار لما عرفوا قدر نعمته عليهم بها، فأسكنهم دار الامتحان وعرَّضهم فيها لأمره ونهيه؛ لينالوا بالطاعة أفضل ثوابه وكرامته، وكان من الممكن أن يحصل لهم النعيم المقيم هناك، لكن الحاصل عقيب الابتلاء والامتحان، ومعاناة الموت وما بعده وأهوال القيامة، والعبور على الصراط نوع آخر من النعيم لا يدرك قدره، وهو أكمل من نعيم من خلق في الجنة من الولدان والحور العين بما لا تشابه بينهما بوجه من الوجوه.

ومن الحكم في ذلك أنه سبحانه أراد أن يتخذ من ذرية آدم رسلًا وأنبياء وشهداء، يحبهم ويحبونه، وينزل عليهم كتبه، ويعهد إليهم عهده، ويستعبدهم له في السراء والضراء، ويؤثرون محابه ومراضيه على شهواتهم وما يحبونه ويهوونه؛ فاقتضت حكمته أن أنزلهم إلى دار ابتلاهم فيها بما ابتلاهم، ليكملوا بذلك الابتلاء مراتب عبوديته، ويعبدونه بما تكرهه نفوسهم، وذلك محض العبودية، وإلا فمن لا يعبد الله إلا بما يحبه ويهواه، فهو في الحقيقة إنما يعبد نفسه، وهو سبحانه يحب من أوليائه أن

يوالوا فيه، ويعادوا فيه، ويبذلوا نفوسهم في مرضاته ومحابه، وهذا كله لا يحصل في دار النعيم المطلق.

ومن الحكمة في إخراجه من الجنة ما تقدم التنبيه عليه من اقتضاء أسماء الله الحسنى لمسمياتها ومتعلقاتها: كالغفور الرحيم التواب العفو المنتقم الخافض الرافع المعز المذل المحيي المميت الوارث، ولابد من ظهور أثر هذه الأسماء ووجود ما يتعلق به، فاقتضت حكمته أن إنزال الأبوين من الجنة؛ ليظهر مقتضى أسمائه وصفاته فيهما وفي ذريتهما، فلو تربت الذرية في الجنة لفاتت آثار هذه الأسماء وتعلقاتها، والكمال الإلهي يأبى ذلك، فإنه الملك الحق المبين، والملك هو الذي يأمر وينهى ويكرم ويهين ويثيب ويعاقب ويعطي ويمنع ويعز ويذل، فأنزل الأبوين والذرية إلى دار تجري عليهم هذه الأحكام.

وأيضًا فإنهم أنزلوا إلى دار يكون إيمانهم تامًّا، فإن الإيمان قول وعمل وجهاد وصبر واحتمال، وهذا كله إنما يكون في دار الامتحان لا في جنة النعيم.

وقد ذكر غير واحد من أهل العلم، منهم أبو الوفا بن عقيل وغيره: أن أعمال الرسل والأنبياء والمؤمنين في الدنيا أفضل من نعيم الجنة. قالوا: لأن نعيم الجنة حظهم وتمتعهم، فأين يقاس إلى الإيمان وأعماله، والصلوات وقراءة القرآن والجهاد في سبيل الله، وبذل النفوس في مرضاته وإيثاره على هواها وشهواتها؟ فالإيمان متعلق به سبحانه، وهو حقه عليهم، ونعيم الجنة متعلق بهم وهو حظهم، فهم إنما خلقوا للعبادة، والجنة دار نعيم لا دار تكليف وعبادة.

وأيضًا فإنه سبحانه سبق حكمه وحكمته بأن يجعل في الأرض خليفة، وأعلم بذلك ملائكته، فهو سبحانه قد أراد بكون هذا الخليفة وذريته في الأرض قبل خلقه؛ لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة، فلم يكن بد من إخراجه من الجنة إلى دار قدَّر سكناهم فيها قبل أن يخلقه، وكان ذلك التقدير بأسباب وحكم، فمن أسبابه

النهي عن تلك الشجرة، وتخليته بينه وبين عدوه حتى وسوس إليه بالأكل وتخليته بينه وبين نفسه حتى وقع في المعصية، وكانت تلك الأسباب موصلة إلى غايات محمودة مطلوبة، يترتب على خروجه من الجنة، ثم يترتب على خروجه أسباب أخر جُعلت غايات لحكم أخر، ومن تلك الغايات عوده إليها على أكمل الوجوه، فذلك التقدير وتلك الأسباب وغاياتها صادرة عن محض الحكمة البالغة، التي يحمده عليها أهل السماوات والأرض والدنيا والآخرة، فما قدّر أحكم الحاكمين ذلك باطلًا، ولا دبره عبثًا، ولا أخلاه من حكمته البالغة وحمده التام.

وأيضا فإنه سبحانه قال للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾. ثم أظهر سبحانه من علمه وحكمته الذي خفي على الملائكة من أمر هذا الخليفة ما لم يكونوا يعرفونه؛ بأن جعل من نسله من أوليائه وأحبائه ورسله وأنبيائه من يتقرب إليه بأنواع التقرب، ويبذل نفسه في محبته ومرضاته، يسبح بحمده آناء الليل وأطراف النهار، ويذكره قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه، ويعبده ويذكره ويشكره في السراء والضراء، والعافية والبلاء، والشدة والرخاء، فلا يثنيه عن ذكره وشكره وعبادته شدة ولا بلاء، ولا فقر ولا مرض، ويعبده مع معارضة الشهوة وغلبات الهوى وتعاضد الطباع لأحكامها ومعاداة بني جنسه وغيرهم له، فلا يصده ذلك عن عبادته وشكره وذكره والتقرب إليه، فإن كانت عبادتكم لي بلا معارض ولا ممانع فعبادة هؤلاء لي مع هذه المعارضات والموانع والشواغل.

وأيضا فإنه سبحانه أراد أن يُظهر لهم ما خفي عليهم من شأن ما كانوا يعظمونه ويجلونه، ولا يعرفون ما في نفسه من الكبر والحسد والشر، فذلك الخير وهذا الشر كامن في نفوس لا يعلمونها، فلابد من إخراجه وإبرازه لكي يعلم حكمة أحكم الحاكمين في مقابلة كل منهما بما يليق به.

وأيضًا فإنه سبحانه لما خَلَق خَلْقه أطوارًا وأصنافًا، وسبق في حكمه وحكمته تفضيل آدم وبنيه على كثير ممن خلق تفضيلًا، جعل عبوديتهم أكمل من عبودية غيرهم، وكانت العبودية أفضل أحوالهم وأعلى درجاتهم، أعني العبودية الاختيارية، التي يأتون بها طوعًا واختيارًا، لا كرهًا واضطرارًا.

ولهذا أرسل الله جبريل إلى سيد هذا النوع الإنساني، يخيره بين أن يكون عبدًا رسولًا أو ملكًا نبيًّا، فاختار بتوفيق ربه له أن يكون عبدًا رسولًا، وذكره سبحانه بأتم العبودية في أشرف مقاماته وأفضل أحواله: كمقام الدعوة والتحدي والإسراء وإنزال القرآن ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١] فأثنى عليه ونوَّه الله لعبوديته التامة له، ولهذا يقول أهل الموقف حين يطلبون الشفاعة: «اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»(١).

فلما كانت العبودية أشرف أحوال بني آدم وأحبها إلى الله وكان لها لوازم وأسباب مشروطة لا يحصل إلا بها، كان من أعظم الحكمة أن أخرجوا إلى دار تجري عليهم فيها أحكام العبودية وأسبابها وشروطها وموجباتها، فكان إخراجهم من الجنة تنكيلًا لهم وإتمامًا لنعمته عليهم مع ما في ذلك من محبوبات الرب تعالى، فإنه يحب إجابة الدعوات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، ومغفرة الزلات، وتكفير السيئات، ودفع البليات، وإعزاز من يستحق العز، وإذلال من يستحق الذل، ونصر المظلوم، وجبر الكسير، ورفع بعض خلقه على بعض وجعلهم درجات؛ ليعرف قدر فضله وتخصيصه، فاقتضى ملكه التام وحمده الكامل أن يخرجهم إلى دار يحصل فيها محبوباته سبحانه، وإن كان لكثير منها طرق وأسباب يكرهها، فالوقوف على الشيء

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٧).

لابد منه، وإيجاد لوازم الحكمة من الحكمة كما أن إيجاد لوازم العدل، من العدل، كما ستقف عليه في فصل إيلام الأطفال، إن شاء الله.

(١)ذكر مناظرة إبليس عدو الله في شأن آدم وإبائه من السجود له وبيان فسادها، وقد كرر الله تعالى ذكرها في كتابه، وأخبر فيها: أن امتناع إبليس من السجود كان كبرًا منه وكفرًا ومجرد إباء، وإنما ذكر تلك الشبهة تعنُّتاً، وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر، وإلا فليس في أمره بالسجود لآدم ما يناقض الحكمة بوجه.

وأما شبهته الداحضة وهي أن أصله وعنصره النار، وأصل آدم وعنصره التراب، ورتب علي ذلك أنه خير من آدم، ثم رتب على هاتين المقدمين أنه لا يحسن منه الخضوع لمن هو فوقه وخير منه، فهي باطلة من وجوه عديدة:

أحدها: أن دعواه كونه خيرًا من آدم دعوى كاذبة باطلة، واستدلاله عليها بكونه مخلوقًا من نار وآدم من طين استدلال باطل وليست النار خيرًا من الطين والتراب؛ بل التراب خير من النار، وأفضل عنصرًا من وجوه:

أحدها: أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب.

الثاني: أن طبعها الخفة والحدة والطيش، والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات.

الثالث: أن التراب يتكون فيه ومنه: أرزاق الحيوان وأقواتهم ولباس العباد وزينتهم والآت معايشهم ومساكنهم، والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك.

الرابع: أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه البتة، ولا عمّا يتكون فيه ومنه، والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقًا، وقد يستغنى عنها الإنسان الأيام والشهور، فلا تدعوه إليها الضرورة، فأين انتفاع الحيوان كله بالتراب إلى انتفاع الإنسان بالنار في بعض الأحيان.

---

(١) ١٣٩ بدائع جـ٤.

الخامس: أن التراب إذا وضع فيه القوت أخرجه أضعاف أضعاف ما وضع فيه، فمن بركته يؤدي إليك ما تستودعه فيه مضاعفًا، ولو استودعته النار لخانتك وأكلته، ولم تُبق ولم نذر.

السادس: أن النار لا تقوم بنفسها، بل هي مفتقرة إلىٰ محل تقوم به فيكون حاملاً لها، والتراب لا يفتقر إلىٰ حامل، فالتراب أكمل منها.

السابع: أن النار مفتقرة إلىٰ التراب، وليس بالتراب فقر إليها، فإن المحل الذي تقوم به النار لا يكون إلا مكونًا من التراب أو فيه، فهي الفقيرة إلىٰ التراب، وهو الغني عنها.

الثامن: أن المادة الإبليسية هي المارج من النار، وهو ضعيف يتلاعب به الهوىٰ، فيميل معه كيفما مال، ولهذا غلب الهوىٰ علىٰ المخلوق منه فأسره قهره، ولما كانت المادة الآدمية التراب وهو قوي لا يذهب مع الهوىٰ أينما ذهب وقهر هواه وأسره ورجع إلىٰ ربه، فاجتباه واصطفاه، فكان الهوىٰ الذي مع المادة الآدمية عارضًا سريع الزوال، فزال وكان الثبات والرزانة أصليًّا له فعاد إليه، وكان إبليس بالعكس من ذلك، فرجع كل من الأبوين إلىٰ أصله وعنصره: آدم إلىٰ أصله الطيب الشريف، واللعين إلىٰ أصله الرديء.

التاسع: أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع؛ فالشر كامن فيها لا يصدها عنه إلا قسرها وحبسها، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل، وأما التراب فالخير والبر والبركة كامن فيه، كلما أثير وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته فأين أحدهما من الآخر.

العاشر: أن الله تعالىٰ أكثر ذكر الأرض في كتابه، وأخبر عن منافعها وخلقها، وأنه جعلها مهادًا وفراشًا وبساطًا وقرارًا وكفاتًا للأحياء والأموات، ودعا عباده إلىٰ التفكر فيها والنظر في آياتها وعجائب ما أودع فيها، ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب إلا موضعًا أو موضعين، ذكرها فيه بأنها تذكرة ومتاع للمقوين:

تذكرة بنار الآخرة، ومتاع لبعض أفراد الإنسان، وهم المقوون النازلون بالقواء وهي: الأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزله[1]، فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن؟

الحادي عشر: أن الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصًا، وأخبر أنه بارك فيها عمومًا، فقال: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ﴾ [فصلت: ٩، ١٠] فهذه بركة عامة. وأما البركة الخاصة ببعضها فكقوله: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ۝ ﴾ [الأنبياء: ٧١]. وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ [سبأ:١٨] وقوله: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأنبياء: ٨١].

وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة أصلًا، بل المشهور أنها مُذهبة للبركة ماحقة لها، فأين المبارك في نفسه المبارك فيما وُضع فيه إلى مزيل البركة وماحقها.

الثاني عشر: أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه، ويسبّح له فيها بالغُدو والآصال عمومًا، وبيته الحرام الذي جعله قيامًا للناس مباركًا فيه وهدى للعالمين خصوصًا، ولو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفًا وفضلًا على النار.

الثالث عشر: أن الله تعالى أودع في الأرض من المنافع والمعادن والأنهار والعيون، والثمرات والحبوب والأقوات وأصناف الحيوانات وأمتعتها، والجبال والجنان والرياض والمراكب البهية والصور البهيجة ما لم يُودع في النار شيئًا منه، فأي روضة

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٣٦) ولسان العرب (١٥/ ٢١٠- ٢١١) ومختار الصحاح (ص ٢٣٣) وعمدة القاري (٦/ ٤٦٣).

وجدت في النار أو جنة، أو معدن أو صورة أو عين فوارة أو نهر مطرد، أو ثمرة لذيذة أو زوجة حسنة أو لباس وسترة؟!

الرابع عشر: أن غاية النار أنها وضعت خادمة لما في الأرض، فالنار إنما محلها محل الخادم لهذه الأشياء المكمل لها، فهي تابعة لها خادمة فقط، إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها، وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمة ومن يقضي حوائجه.

الخامس عشر: أن اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته، رأى صورة الطين ترابًا ممتزجًا بماء فاحتقره، ولم يعلم أن الطين مركّب من أصلين الماء الذي جعل الله تعالى منه كل شيء حي، والتراب الذي جعله خزانة المنافع والنعم، هذا وكم يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة! فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته لرأى أنه خير من النار وأفضل.

وإذا استقريت الوجوه التي تدلك على أن التراب أفضل من النار وخير منها وجدتها كثيرة جدًّا، وإنما أشرنا إليها إشارة، ثم لو سلّم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين لم يلزمه من ذلك أن يكون المخلوق منها خيرًا من المخلوق من الطين، فإن القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة، والاعتبار بكمال النهاية لا ينقص المادة، فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة، ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة، فأين الماء المهين الذي هو نطفة ومضغة واستقذار النفوس له إلى كمال الصورة الإنسانية التامة المحاسن خُلُقًا وخَلْقًا.

وقد خلق الله تعالى الملائكة من نور، وآدم من تراب، ومن ذرية آدم من هو خير من الملائكة، وإن كان النور أفضل من التراب.

فهذا وأمثاله مما يدلك على ضعف مناظرة اللعين وفساد نظره وإدراكه، وأن الحكمة كانت توجب عليه خضوعه لآدم؛ فعارض حكمه الله وأمره برأيه الباطل ونظره الفاسد، فقياسه باطل نصًّا وعقلًا.

وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه، فنعوذ بالله من الخذلان ونسأله التوفيق والعصمة من هذا البلاء، الذي ما رمي العبد بشر منه، ولأن يلقىٰ الله بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشراك به، أسلم له من أن يلقي الله وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه ورأي بني جنسه، وهل طرد الله تعالىٰ إبليس ولعنه وأحل عليه سخطه وغضبه؛ إلا حيث عارض النص بالرأي والقياس ثم قدمه عليه، والله يعلم أن شبه عدو الله مع كونها داحضة باطلة، أقوىٰ من كثير من شبه المعارضين لنصوص الأنبياء بآرائهم وعقولهم.

فالعالم يتدبر سر تكرير الله تعالىٰ لهذه القصة مرة بعد مرة، وليحذر أن يكون له نصيب من هذا الرأي والقياس، وهو لا يشعر فقد أقسم عدو الله أنه ليغوين بني آدم أجمعين إلا المخلصين منهم، وصدق تعالىٰ ظنه عليهم، وأخبر أن المخلصين لا سبيل له عليهم، والمخلصون هم الذين أخلصوا العبادة والمحبة والإجلال والطاعة لله، والمتابعة والانقياد لنصوص الأنبياء، فيجرد عبادة الله عن عبادة ما سواه، ويجرد متابعة رسوله وترك ما خالفه لقوله دون متابعة غيره، فليزن العاقل نفسه بهذا الميزان قبل أن يوزن يوم القدوم علىٰ الله، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١)ولما أهبطه سبحانه من الجنة وعرّضه وذريته لأنواع المحن والبلاء، أعطاهم أفضل مما منعهم، وهو عهده الذي عهد إليه وإلىٰ بنيه، وأخبر أنه من تمسك به صار إلىٰ رضوانه ودار كرامته. قال تعالىٰ عقب إخراجه منها: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]. وفي الآية الأخرىٰ قال: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ

(١) ٣٢ مفتاح جـ١.

بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦]، فلما كسره سبحانه بإهباطه من الجنة جبره وذريته بهذا العهد الذي عهده إليهم، فقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ [طه: ١٢٣] وهذه هي إن الشرطية المؤكدة بما الدالة على استغراق الزمان.

والمعنى: أي وقت وأي حين أتاكم مني هدى، وجعل جواب هذا الشرط جملة شرطية، وهي قوله: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣].

(١) ومتابعة هدي الله التي رتب عليها هذه الأمور هي تصديق خبره من غير اعتراض شبهة تقدح في تصديقه، وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله.

وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان، وهما: تصديق الخبر، وطاعة الأمر. ويتبعهما أمران آخران: وهما نفي شبهات الباطل الواردة عليه المانعة من كمال التصديق، وأن لا يخمش بها وجه تصديقه، ودفع شهوات الغي الواردة عليه المانعة من كمال الامتثال، فهنا أربعة أمور:

أحدها: تصديق الخبر.

الثاني: بذل الاجتهاد في رد الشبهات التي توحيها شياطين الجن والإنس في معارضته.

الثالث: طاعة الأمر.

والرابع: مجاهدة النفس في دفع الشهوات، التي تحول بين العبد وبين كمال الطاعة، وهذان الأمران أعني: الشبهات والشهوات، أصل فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاده، كما أن الأصلين الأولين وهما: تصديق الخبر، وطاعة الأمر، أصل سعادته وفلاحه في معاشه ومعاده.

وذلك أن العبد له قوتان: قوة الإدراك والنظر وما يتبعها من العلم والمعرفة والكلام، وقوة الإرادة والحب وما يتبعه من النية والعزم والعمل، فالشبهة تؤثر فسادًا

---

(١) ٤٠ مفتاح جـ١.

في القوة العلمية النظرية ما لم يداوها بدفعها، والشهوة تؤثر فسادًا في القوة الإرادية العملية ما لم يداوها بإخراجها.

قال الله تعالى في حق نبيه، يذكر ما منَّ به عليه من نزاهته وطهارته مما يلحق غيره من ذلك: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ ﴾ [النجم: ١، ٢] فـ﴿ما ضل﴾ دليل على كمال علمه ومعرفته، وأنه على الحق المبين، ﴿وما غوى﴾ دليل على كمال رشده، وأنه أبر العالمين، فهو الكامل في علمه وفي عمله.

[١]وهذه المتابعة هي التلاوة التي أثنى الله على أهلها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٢٩]، وفي قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ١٢١]. والمعنى: يتبعون كتاب الله حق اتباعه.

وقال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقال: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

فحقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنى، فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة، وحقيقة اللفظ إنما هي الاتباع، يقال: اتل أثر فلان، وتلوت أثره، وقفوته، وقصصته. بمعنى: تبعت خلفه. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ [الشمس: ١، ٢] أي تبعها في الطلوع بعد غيبتها. ويقال: جاء القوم يتلو بعضهم بعضًا أي: يتبع، وسمي تالي الكلام تاليًا؛ لأنه يتبع بعض الحروف بعضًا، لا يخرجها جملة واحدة؛ بل يتبع بعضها بعضًا مرتبة، كلما انقضى حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرى.

وهذه التلاوة وسيلة وطريقة، والمقصود التلاوة الحقيقية، وهي تلاوة المعنى واتباعه تصديقًا بخبره، وائتمارًا بأمره، وانتهاءً بنهيه وائتمامًا به، حيث ما قادك انقدت

---

(١) ٤٢ مفتاح جـ ١.

معه، فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة[١]، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقًّا.

***

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

[٢]قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ هو خطاب لمن أهبطه من الجنة بقوله: ﴿ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ثم قال: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ وكلا الخطابين لأبوي الثقلين، وهو دليل على أن الجن مأمورون منهيون، داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة، وأن نبينا بعث إليهم، كما بعث إلى الإنس، كما لا خلاف بينهم أن مسيئهم مستحق للعقاب.

وإنما اختلف علماء الإسلام في المسلم منهم هل يدخل الجنة؟ فالجمهور على أن محسنهم في الجنة، كما أن مسيئهم في النار، وقيل: بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم، وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس، وإنما هي لبني آدم وصالحي ذريته خاصة، وحُكي هذا القول عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى[٣].

---

(١) ويكفي في الثناء عليهم أنهم أهل الله وخاصته، وكما ورد من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله أهلين من الناس» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته» أخرجه الحاكم (١/ ٧٤٣ رقم ٢٠٤٦) والنسائي في الكبرى (٥/ ١٧ رقم ٨٠٣١) وابن ماجه (رقم ٢١٥) وأحمد (٣/ ١٢٧ ، ٢٤٢) والطيالسي (رقم ٢١٢٤) وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٢٣١ رقم ٢٢٠٩) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٢٩): هذا إسناد صحيح رجاله موثقون.

(٢) ٣٧ مفتاح جـ ١.

(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة، لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة، والحق أن مؤمنيهم كمؤمني الإنس، يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف، انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٢).

واحتج الأولون بوجوه:

أحدها: هذه الآية، فإنه سبحانه أخبر أن من اتبع هداه فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى، وهذا مستلزم لكمال النعيم.

ولا يقال: إن الآية إنما تدل على نفي العذاب فقط، ولا خلاف أن مؤمنيهم لا يعاقبون.. لأنا نقول: لو لم تدل الآية إلا على أمر عدمي فقط لم يكن مدحًا لمؤمني الإنس، ولما كان فيها إلا مجرد أمر عدمي، وهو عدم الخوف والحزن، ومعلوم أن سياق الآية ومقصودها إنما أريد به: أن من اتبع هدى الله الذي أنزله حصل له غاية النعيم واندفع عنه غاية الشقاء، وعبر عن هذا المعنى المطلوب بنفي الأمور المذكورة؛ لاقتضاء الحال لذلك، فإنه لما أهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل، فأخبره سبحانه أنه معطيه وذريته عهدًا؛ من اتبعه منهم انتفى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء، ومعلوم أنه لا ينتفي ذلك كله إلا بدخول دار النعيم، ولكن المقام بذكر التصريح بنفي غاية المكروهات أولى.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم إخبارًا بقوله: أن[١] من أجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب، ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب، كان ذلك حاصلًا بقوله: ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣١]، بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار، فكل من غفر الله له فلابد من دخوله الجنة.

(١) لعلها (إخباراً مقررًا له أن). ج.

الثالث: قوله تعالى في الحور العين: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٧٤] فهذا يدل على أن مؤمني الجن والإنس يدخلون الجنة، وأنه لم يسبق من أحد منهم طمث لأحد من الحور، فدل على أن مؤمنيهم يتأتى منهم طمث الحور العين بعد الدخول، كما يتأتى من الإنس، ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حسن الإخبار عنهم بذلك[1].

الرابع: قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥] والجن منهم مؤمن ومنهم كافر، كما قال صالحوهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ [الجن: ١٤] فكما دخل كافرهم في الآية الثانية، وجب أن يدخل مؤمنهم في الأولى.

الخامس: قوله عن صالحيهم: ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٤] والرشد هو الهدى والفلاح، وهو الذي يهدي إليه القرآن، ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد؛ بل لم يحصل له من الرشد إلا مجرد العلم.

السادس: قوله تعالى: ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝ ﴾ [الحديد: ٢١] ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله، فيدخل في المبشرين ويستحق البشارة.

السابع: قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [يونس: ٢٥]. عم سبحانه بالدعوة، وخص بالهداية المفضية إليها، فمن هداه

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٥٠-١٦٣) والدر المنثور (٧/ ٧١١-٧١٢).

إليها، فهو ممن دعاه إليها، فمن اهتدى من الجن فهو من المدعوين إليها.

الثامن: قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٣٢].

وهذا عام في الجن والإنس، فأخبرهم تعالى أن لكلهم درجات من عمله، فاقتضى أن يكون لمحسنهم درجات من عمله، كما لمحسن الإنس.

التاسع: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

ووجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة:

أحدها: عموم الاسم الموصول فيها.

الثاني: ترتيبه الجزاء المذكور على المسألة، ليدل على أنه مستحق بها، وهو قول: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ مع الاستقامة والحكم يعم بعموم علته، فإذا كان دخول الجنة مرتبًا على الإقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة على أمره، فمن أتى ذلك استحق الجزاء.

الثالث: أنه قال: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ فدلَّ على أن كل من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة، وقد تقدم في أول الآيات قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] وأنه متناول للفريقين، ودلّت هذه الآية على أن من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة.

العاشر: أنه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله، فدخول محسنهم الجنة بفضله ورحمته أولى، فإن رحمته سبقت غضبه[(١)] والفضل أغلب من العدل، ولهذا لا يدخل النار إلا من عمل أعمال أهل النار، وأما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيرًا قط[(٢)]؛ بل ينشيء لها أقواما يسكنهم إياها من غير عمل عملوه[(٣)]. ويرفع فيها درجات العبد من غير سعي منه، بل بما يصل إليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التي يهدونها إليه[(٤)]، بخلاف أهل النار فإنه لا يعذب فيها بغير عمل أصلًا.

---

(١) فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي» أخرجه البخاري (رقم ٧٤٢٢) ومسلم (رقم ٢٧٥١) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٥) وشرح النووي (١٦/ ١٩٢).

(٢) فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل لم يعمل خيرًا قط: فإذا مات فحرقوه واذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فليه، ثم قال: لم فعلت؟ قال: من خشيتك، وأنت أعلم. فغفر له»، أخرجه البخاري (رقم ٧٥٠٦) ومسلم (رقم ٣٤٨١).

(٣) فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يزال يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، ثم تقول: قد قد، بعزتك وكرمك، ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله لها خلقًا فيكسنهم فضل الجنة» أخرجه البخاري (رقم ٧٣٨٤) ومسلم (رقم ٢٨٤٨).

(٤) فعن عثمان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل قال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت، فهو الآن يسأل» أخرجه الضياء في المختارة (١/ ٥٢٢ رقم ٣٨٨) وأبو داود (رقم ٣٢٢١) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٥٦ رقم ٦٨٥٦) وفي إثبات عذاب القبر (رقم ٤٠، ٢١٢) والحاكم (١/ ٥٢٦ رقم ١٣٧٢) وصححه.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل لترفع درجته في الجنة فيقول: أنَّى هذا؟! فيقال: باستغفار ولدك لك» أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٦٦٠) والطبراني في الأوسط (٥/ ٢١٠ رقم ٥١٠٨) وأحمد (٢/ ٥٠٩) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢١٠): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عاصم ابن بهدلة وقد وثق وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٩٨): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. وصححه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٤٣).

وقد ثبت بنص القرآن وإجماع الأمة أن مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون، فمحسنهم في الجنة بفضل الله بما كانوا يعملون.

لكن قيل: إنهم يكونون في ربض الجنة[١] يراهم أهل الجنة ولا يرونهم، كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم، ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف تنقطع الحجة عنده، فإن ثبتت حجة يجب اتباعها وإلا فهو مما يحكى ليعلم وصحته موقوفة على الدليل، والله أعلم.

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

[٢] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢].

وفي السنن: «كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة»[٣] وقد تقدم ذكر الاستشفاء بالصلاة من عامة الأوجاع قبل استحكامها، والصلاة مجلبة للرزق حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مبيضة للوجه، مفرحة للنفس، مذهبة للكسل، منشطة للجوارح، ممدّة للقوى، شارحة للصدر مغذية للروح، منورة للقلب، حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مبعدة من الشيطان، مقربة من الرحمن.

وبالجملة: فلها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب وقواهما، ودفع المواد الرديئة عنهما، وما ابتلي رجلان بعاهة أو داء أو محنة أو بلية، إلا كان حظ المصلي منهما أقل، وعاقبته أسلم، وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا، ولاسيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهرًا وباطنًا، فما استدفعت شرور الدنيا والآخرة، ولا

---

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٣٤٦).

(٢) ٣٦٢ زاد المعاد جـ٣.

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٣١٩) وأحمد (٥/ ٣٨٨) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٥٤ رقم ٣١٨١) وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٣/ ١٧٢).

استجلبت مصالحهما بمثل الصلاة.

وسر ذلك: أن الصلاة صلة بالله ﷻ، وعلى قدر صلة العبد بربه ﷻ، تفتح عليه من الخيرات أبوابها، وتقطع عنه من الشرور أسبابها، وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه ﷻ، والعافية والصحة والغنيمة والغنى، والراحة والنعيم، والأفراح والمسرات كلها محضرة لديه، ومسارعة إليه.

[١]وهو[٢] أكبر العون على نيل كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥].

[٣]ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**فضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[٤] والثريد ـ وإن كان مركبًا ـ فإنه مركب من خبز ولحم، فالخبز أفضل الأقوات، واللحم سيد الإدام، فإذا اجتمعا لم يكن بعدهما غاية.

وتنازع الناس أيهما أفضل؟ والصواب: أن الحاجة إلى الخبز أكثر وأعم، واللحم أجل وأفضل، وهو أشبه بجوهر البدن من كل ما عداه، وهو طعام أهل الجنة، وقد قال تعالى لمن طلب البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]. وكثير من السلف على أن الفوم: الحنطة[٥]، وعلى هذا: فالآية نص على أن اللحم خير من الحنطة. اهـ.

***

(١) ٣١٧ مدارج جـ٢. وقد بحث الشيخ في زاد المعاد بحثًا واسعًا ذكر فوائده الدينية والدنيوية ص٣٦٧ جـ٣.

(٢) وهو. أي الصبر.

(٣) ٣٧٧ زاد المعاد جـ٣.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٧٧٠) ومسلم (رقم ٢٤٤٦) وانظر: فتح الباري (٧/ ١٠٧-١٠٨) وشرح النووي (١٥/ ١٩٩).

(٥) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣١١) وتفسير ابن كثير (١/ ١٠٢) وفتح الباري (٨/ ١٦٢) ولسان العرب (١٢/ ٤٦٠).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

(١)من تلاعب الشيطان بهذه الأمة وكيده لهم أنهم قيل لهم(٢)، وهم مع نبيهم، والوحي ينزل عليه من الله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [البقرة: ٥٨]. قال قتادة، وابن زيد، والسدي، وابن جرير وغيرهم: هي قرية بيت المقدس(٣) ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ أي هنيئًا واسعًا ﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ قال السدي: هو باب من أبواب بيت المقدس(٤)، وكذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: والسجود بمعنى الركوع، وأصل السجود: الانحناء لمن تعظمه، فكل منحن لشيء تعظيما له فهو ساجد، قاله ابن جرير وغيره(٥).

قلت: وعلى هذا فانحناء المتلاقيين عند السلام، أحدهما لصاحبه من السجود المحرم، وفيه نهي صريح عن النبي ﷺ(٦).

ثم قيل لهم: ﴿ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ ﴾ أي: حط عنا خطايانا، هذا قول الحسن، وقتادة وعطاء(٧). وقال عكرمة وغيره: أي قولوا: «لا إله إلا الله»(٨) وكأن أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي تحطُّ بها الخطايا وهي كلمة التوحيد. وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «أمروا بالاستغفار».

---

(١) ٣٠٨ إغاثة جـ٢.
(٢) أي: اليهود.
(٣) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٩٠).
(٤) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٩٩) (٦/ ١٠).
(٥) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣٠٠).
(٦) انظر: فيض القدير (٥/ ٤٩٩).
(٧) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣٠٠).
(٨) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣٠٠) وأخرجه الطبراني في الدعاء (رقم ١٥٦٢، ١٥٦٤).

وعلى القولين: فيكونون مأمورين بالدخول بالتوحيد والاستغفار، وضمن لهم بذلك مغفرة خطاياهم، فتلاعب الشيطان بهم، فبدلوا قولًا غير الذي قيل لهم، وفعلاً غير الذي أمروا به، فروى البخاري في صحيحه ومسلم أيضًا من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدًا، وقولوا حطة، نغفر لكم خطاياكم، فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة**»(١)، فبدلوا القول والفعل معًا، فأنزل الله عليهم رجزًا من السماء.

قال أبو العالية: هو الغضب، وقال ابن زيد: هو الطاعون(٢). وعلى هذا، فالطاعون بالرصدِ لمن بدّل دين الله قولًا وعملًا.

***

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

ومن تلاعب الشيطان بهم أنهم كانوا في البرية قد ظلل عليه الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، فملُّوا ذلك، وذكروا عيش الثُّوم والبصل، والعدس، والبقل، والقثاء، فسألوه موسى عليه السلام. وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم، وقلة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة، واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها، ولهذا قال لهم موسى عليه السلام

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٠٣) ومسلم (رقم (٣٠١٥).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٠٠-١٠١).

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا ﴾ أي: مصرًا من الأمصار ﴿ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة: ٦١].

فكانوا في أفسح الأمكنة وأوسعها، وأطيبها هواء، وأبعدها عن الأذى، ومجاورة الأنتان والأقذار، سقفهم الذي يظلهم من الشمس: الغمام، وطعامهم: السلوى، وشرابهم: المن. قال ابن زيد: كان طعام بني إسرائيل في التيه واحدًا، وشرابهم واحدًا، كان شرابهم عسلاً ينزل من السماء، يقال له: المن، وطعامهم: طير، يقال له: السلوى، يأكلون الطير، ويشربون العسل، لم يكن لهم خبز ولا غيره(١). ومعلوم فضل هذا الغذاء والشراب على غيرهما من الأغذية والأشربة.

وكانوا مع ذلك يتفجر لهم من الحجر اثنا عشر عينًا من الماء، فطلبوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير، فذموا على ذلك، فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى، والغيَّ بالرشاد، والشرك بالتوحيد، والبدعة بالسنة(٢)، وخدمة المخلوق بخدمة الخالق، والعيش النكد الفاني في هذه الدار بحظه من العيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى؟!

(٣)الصابئة: قد اختلف الناس فيهم اختلافًا كثيرًا، وأشكل أمرهم على الأئمة لعدم الإحاطة بمذهبهم ودينهم، فقال الشافعي رحمه الله تعالى: هم صنف من النصارى.

وقال في موضع: ينظر في أمرهم، فإن كانوا يوافقون النصارى في أصل الدين،

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٣١٠).

(٢) بالنسخة المعتمدة: (والسنة بالبدعة، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى بحظه من العيش النكد الفاني في هذه الدار)، والصواب: ما أثبتناه؛ لأن الصحيح في اللغة هو دخول الباء على المتروك كما قال من قبل: الضلال بالهدى، والغي بالرشاد، والشرك بالتوحيد. والمفهوم: بل المراد، أنهم تركوا السنة، وخدمة الخالق، والعيش الطيب، كما تركوا الهدى، والرشاد، والتوحيد، فقد أنكر الله على قوم صنيعهم هذا، فقال سبحانه: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٦١].

(٣) ١٩٢ أحكام جـ١.

ولكنهم يخالفونهم في الفروع، فتؤخذ منهم الجزية؛ وإن كانوا يخالفونهم في أصل الدين لم يقروا على دينهم ببذل الجزية[١].

واختلف أصحابه فقال أبو سعيد الأصطخري: ليسوا من النصارى، ولا يجوز إقرارهم على دينهم، قال: لأنهم يقولون: إن الفلك حي ناطق، وإن الكواكب السبعة آلهة، فهم في حكم عبدة الأوثان[٢]. واستفتى القاهر بالله العباسي الفقهاء فيهم، فأفتاه أبو سعيد أنهم لا يقرون، فأمر بقتلهم، فبذلوا مالًا عظيما فتركهم.

وأما أقوال السلف فيهم، فذكر سفيان، عن ليث، عن مجاهد قال: هم قوم بين اليهود والمجوس ليس لهم دين[٣]. وفي تفسير شيبان، عن قتادة قال: الصابئة قوم يعبدون الملائكة[٤].

قال محمد بن جرير: واختلف أهل التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم من أهل الملل، فقال بعضهم: يلزم كل من خرج من دين إلى دين غير دينه. وقالوا: الذي عنى الله بهذا الاسم قوم لا دين لهم، ثم ذكر عن عبد الرزاق، عن سفيان، عن ليث، عن مجاهد قال: الصابئون قوم ليسوا يهود ولا نصارى ولا دين لهم[٥].

وحكي عن حجاج، عن مجاهد قال: الصابئون بين المجوس واليهود، لا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نساؤهم[٦]. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: الصابئون زعموا أنهم

(١) انظر: المغني (٧/ ١٠٠) (٩/ ٢٦٣).

(٢) انظر: المغني (٩/ ٢٦٤).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦/ ١٢٥ رقم ١٠٢٠٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر: الدر المنثور (١/ ١٨٣).

(٤) انظر: تفسير الصنعاني (٣/ ٣٩) وتفسير الطبري (١/ ٣١٩-٣٢٠) وتفسير ابن كثير (١/ ١٠٥) وعمدة القاري (٤/ ٣٣١).

(٥) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣١٩).

(٦) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣١٩).

ليسوا بمجوس ولا يهود ولا نصارىٰ، قال: قد سمعنا ذلك.

وقال ابن وهب: قال ابن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل، يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول الله ﷺ، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون يشبهونهم بهم. وقال سعيد، عن قتادة: هم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرؤون الزبور(١). وقال سفيان عن السدي: هم طائفة من أهل الكتاب.

وقال ابن جرير: الصابئ المستحدث سوىٰ دينه دينًا، كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه؛ وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره تسميه العرب صابئًا، يقال: منه: صبأ فلان يصبأ صبأ، ويقال: صبأت النجوم إذا طلعت، وصبأ علينا فلان إذا طلع(٢).

قلت: الصابئة أمة كبيرة، فيهم السعيد والشقي، وهي إحدىٰ الأمم المنقسمة إلى مؤمن وكافر، فإن الأمم قبل مبعث النبي ﷺ نوعان:

نوع كفار أشقياء كلهم، ليس فيهم سعيد، كعبدة الأوثان والمجوس.

ونوع منقسمون إلى سعيد وشقي، وهم اليهود والنصارىٰ والصابئة.

وقد ذكر الله سبحانه النوعين في كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢] وكذلك قال في المائدة. وقال في سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣١٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣١٨-٣١٠).

فلم يقل ها هنا: من آمن منهم[١] بالله واليوم الآخر، لأنه ذكر معهم المجوس والذين أشركوا، فذكر ست أمم: منهم اثنتان شقيتان، وأربع منهم منقسمة إلىٰ شقي وسعيد، وحيث وعد أهل الإيمان والعمل الصالح منهم بالأجر؛ ذكرهم أربع أمم ليس إلا. ففي آية الفصل بين الأمم أدخل معهم الأمتين، وفي آية الوعد بالجزاء لم يدخلهما معهم، فعلم أن الصابئين فيهم المؤمن والكافر، والشقي والسعيد، وهذه أمة قديمة قبل اليهود والنصارىٰ، وهم أنواع: صابئة حنفاء، وصابئة مشركون. وكانت حران دار مملكة هؤلاء قبل المسيح، ولهم كتب وتآليف وعلوم.

وكان في بغداد منهم طائفة كبيرة: منهم إبراهيم بن هلال الصابئ صاحب «الرسائل»، وكان علىٰ دينهم، ويصوم رمضان مع المسلمين، وأكثرهم فلاسفة، ولهم مقالات مشهورة ذكرها أصحاب المقالات[٢].

وجملة أمرهم أنهم لا يكذبون الأنبياء ولا يوجبون اتباعهم. وعندهم أن من اتبعهم فهو سعيد ناج، وأن من أدرك بعقله ما دعوا إليه فوافقهم فيه وعمل بوصاياهم، فهو سعيد وإن لم يتقيد بهم.

فعندهم: دعوة الأنبياء حق، ولا تتعين طريقًا للنجاة، وهم يقرون أن للعالم صانعًا مدبرًا حكيمًا منزهًا عن مماثلة المصنوعات، ولكن كثيرًا منهم أو أكثرهم قالوا: نحن عاجزون عن الوصول إلىٰ جلاله بدون الوسائط، والواجب التقرب إليه بتوسط الروحانيين المقدسين المطهرين عن المواد الجسمانية، المبرئين عن القوىٰ الجسدية، المنزهين عن الحركات المكانية والتغييرات الزمانية، بل قد جبلوا علىٰ الطهارة، وفطروا علىٰ التقديس.

قالوا: وإنما أرشدنا إليهم معلمنا الأول «هرمس»، فنحن نتقرب إليهم وبهم، وهم

(١) ما ذكره الشيخ ابن القيم يلفت النظر؛ حيث لم يكن في الآيات الأولىٰ ذكر (منهم) فلا أدري كيف هذا؟ (ج).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٢٣) وأبجد العلوم (٣/ ٦٣).

آلهتنا وشفعاؤنا عند رب الأرباب وإله الآلهة، فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن الشبهات الطبيعية، ونهذب أخلاقنا عن علائق القوة العصبية، حتى تحصل المناسبة بيننا وبين الروحانيات، فحينئذ نسأل حاجاتنا منهم، ونعرض أحوالنا عليهم، ونصبو في جميع أمورنا إليهم، فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم، ورازقنا ورازقهم، وهذا التطهير والتهذيب لا يحصل إلا برياضتنا وفطام أنفسنا عن دنيات الشهوات: وذلك إنما يتم بالاستمداد من جهة الروحانيات، والاستمداد هو التضرع والابتهال بالدعوات، وإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والصيام عن المطعومات والمشروبات.

(1)وأما الصابئة فأهل حران وكثير من بلاد الروم، وأما المشركون فجزيرة العرب جميعها وبلاد الهند وبلاد الترك وما جاورها، وأديان أهل الأرض لا تخرج عن هذه الأديان الخمسة، ودين الحنفاء لا يعرف فيهم البتة، وهذه الأديان الخمسة كلها للشيطان. كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الأديان ستة: واحد للرحمن وخمسة للشيطان(2)، وهذه الأديان الستة مذكورة في آية الفصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧].

فلما بعث الله رسوله ﷺ استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الأديان طوعًا واختيارًا، ولم يكره أحدًا قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله ولم يكرهه على الدخول في دينه، امتثالًا لأمر ربه سبحانه، حيث يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهذا نفي في معنى النهي، أي: لا تكرهوا أحدًا على الدين، نزلت هذه الآية في

---

(١) ١١ هداية.

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٦) إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة.

رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك، حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام(١).

والصحيح أن الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين، بل إما أن يدخلوا في الدين، وإما أن يعطوا الجزية كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ، تبين له أنه لم يكره أحدًا على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه فلم يقاتله ما دام مقيمًا على هدنته لم ينقض عهده؛ بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٧]. ولما قدم المدينة صالح اليهود، وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدؤوه بالقتال قاتلهم، فمنَّ على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقتل بعضهم. وكذلك لما هادن قريشًا عشر سنين لم يبدأهم بقتال حتى بدأوا هم بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق، ويوم بدر أيضًا هم جاءوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم.

والمقصود: أنه ﷺ لم يكره أحدًا على الدخول في دينه البتة وإنما دخل الناس في دينه اختيارًا وطوعًا، فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته لما تبين لهم الهدى، وأنه رسول الله حقًا. فهؤلاء أهل اليمن كانوا على دين اليهودية، أو أكثرهم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه**

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٣٥٢ رقم ١٤٠) وفي موارد الظمآن (رقم ١٧٢٥) وأبو داود (رقم ٢٦٨٢) والبيهقي في سننه الكبرى (٩/ ١٨٦ رقم ١٨٤١٩) وانظر: تفسير الطبري (٣/ ١٤-١٥) والدر المنثور (٢/ ٢٠) وتفسير ابن كثير (١/ ٣١١-٣١٢).

شهادة: أن لا إله إلا الله» وذكر الحديث[١].

ثم دخلوا في الإسلام من غير رغبة ولا رهبة وكذلك من أسلم من يهود المدينة، وهم جماعة كثيرون غير عبد الله بن سلام، مذكورون في كتب السير والمغازي...

[٢]أمر الله ﷻ بتلقي أوامره بالعزم والجد، فقال: ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: ٦٣] وقال: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وقال: ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم: ١٢]، أي: بجد واجتهاد وعزم. لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور.

***

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

[٣]من تلاعبه بهذه الأمة أيضًا ما قصه الله تعالى علينا من قصة أصحاب السبت، حتى مسخهم قِردةً لما تحيلوا على استحلال محارم الله تعالى.

ومعلوم أنهم كانوا يعصون الله تعالى بأكل الحرام، واستباحة الفروج الحرام، والدم الحرام. وذلك أعظم إثمًا من مجرد العمل يوم السبت. ولكن لما استحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل، وتلاعبوا بدينه، وخادعوه مخادعة الصبيان، ومسخوا دينه بالاحتيال، مسخهم الله تعالى قردةً، وكان الله تعالى قد أباح لهم الصيد في كل أيام الأسبوع إلا يومًا واحدًا، فلم يدعهم حرصهم وجشعهم حتى تعدوا إلى الصيد فيه، وساعد القدر بأن عوقبوا بإمساك الحيتان عنهم في غير يوم السبت، وإرسالها عليهم يوم السبت، وهكذا يفعل الله سبحانه بمن تعرض لمحارمه، فإنه يرسلها عليه بالقدر

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٥٨) ومسلم (رقم ١٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٦٣، ٣٥٨) وعمدة القاري (٩/ ٩٣).

(٢) ٤٧٠ مدارج جـ١.

(٣) ٣١٧ إغاثة جـ٢.

تزدلف إليه بأيها يبدأ. فانظر ما فعل الحرص، وما أوجب من الحرمان بالكلية، ومن ههنا قيل: من طلبه كله فاته كله.

(١)قال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]، قال: رموا الحيتان في السبت، ثم أرجؤوها في الماء، فاستخرجوها بعد ذلك، فطبخوها فأكلوها ـ والله ـ أَوْخَمَ أكلةٍ، أسرعت في الدنيا عقوبة وأسرعت عذابًا في الآخرة، والله ما كانت لحوم الحيتان تلك بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين، إلا أنه عجَّل لهؤلاء وأخَّر لهؤلاء(٢).

وقوله: «رموها في السبت» يعني: احتالوا على وقوعها في الماء يوم السبت، كما بين غيره أنهم حفروا لها حياضًا ثم فتحوها عشية الجمعة، ولم يرد أنهم باشروا رميها يوم السبت؛ إذ لو اجترءوا على ذلك لاستخرجوها.

قال شيخنا: وهؤلاء لم يكفروا بالتوراة وبموسى، وإنما فعلوا ذلك تأويلًا واحتيالًا، ظاهرهُ ظاهرُ الاتقاء، وحقيقته حقيقة الاعتداء، ولهذا ـ والله أعلم ـ مسخوا قردة؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله؛ بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته؛ مسخهم الله قردة تشبه الإنسان في بعض ظاهره دون الحقيقة، جزاءً وفاقًا.

ويقوي ذلك أن بني إسرائيل أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل، وهو أعظم من أكل الصيد في يوم بعينه، ولم يعاقب أولئك بالمسخ كما عوقب به من استحل الحرام بالحيلة، لأن هؤلاء لما كانوا أعظم جرمًا كانت عقوبتهم أعظم، فإنهم بمنزلة

---

(١) ١٧٤ أعلام جـ٣.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٠٠ رقم ٣٥٣٢٣) وانظر: تفسير الطبري (٩/ ٩٨-٩٩) والدر المنثور (٣/ ٥٩١).

المنافقين يفعلون ما يفعلون ولا يعترفون بالذنب؛ بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم بخلاف من أكل الربا وأموال الناس بالباطل والصيد المحرم عالمًا بتحريمه، فإنه يقترن بمعصيته اعترافه بالتحريم وخشيته لله واستغفاره وتوبته يومًا ما واعترافه بأنه مذنب عاصٍ، وانكسار قلبه من ذل المعصية، وازدراؤه على نفسه، ورجاؤه لمغفرة ربه له، وعد نفسه من المذنبين الخاطئين، وهذا كله إيمان يُفضي بصاحبه إلى خير، بخلاف الماكر المخادع المحتال على قلب دين الله، ولهذا حذر النبي ﷺ أمته من ارتكاب الحيل، فقال: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل**»(١). وقد أخبر الله تعالى أنه جعل هذه القرية أو هذه الفعلة التي فعلها بأهلها، نكالًا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين.

فحقيق بمن اتقى الله وخاف نكاله أن يحذر استحلال محارم الله بأنواع المكر والاحتيال، وأن يعلم أنه لا يخلصه من الله ما أظهره مكرًا وخديعة من الأقوال والأفعال، وأن يعلم أن لله يومًا تكع فيه الرجال، وتنسف فيه الجبال، وتترادف فيه الأهوال، وتشهد فيه الجوارح والأوصال، وتبلى فيه السرائر، وتظهر فيه الضمائر، ويصير الباطل فيه ظاهرًا، والسر علانية، والمستور مكشوفًا، والمجهول معروفًا، ويحصل ويبدو ما في الصدور، كما يبعثر ويخرج ما في القبور، وتجري أحكام الرب تعالى هنالك على القصود والنيات، كما جرت أحكامه في هذه الدار على ظواهر الأقوال والحركات، يوم تبيض وجوه بما في قلوب أصحابها من النصيحة لله ورسوله وكتابه، وما فيها من البر والصدق والإخلاص للكبير المتعال. وتسود وجوه بما في

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٩٢) إلى ابن بطة، وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٠٨): وهذا إسناد جيد، وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي، وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح. وأعاد ابن كثير هذا الكلام في تفسيره (٢/ ٢٥٨) وزاد عليه: ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيرًا، وحسنه المصنف ابن القيم في حاشيته على سنن أبي داود (٩/ ٢٤٤).

قلوب أصحابها من الخديعة والغش والكذب والمكر والاحتيال[١]، هنالك يعلم المخادعون أنهم لأنفسهم كانوا يخدعون، وبدينهم كانوا يلعبون، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون.

***

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

[٢]من تلاعبه بهم في حياة نبيهم أيضًا مـا قصّه الله ﷻ في كتابـه من قصة القتيل

---

(١) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ يعني يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة، انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٩١) وأخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عمر رضي الله عنهما (٥/ ٥٢٩ رقم ٨٩٨٦) واللالكائي بلفظ قريب عن ابن عباس (رقم ٧٤) والخطيب البغدادي في تاريخه (٧/ ٣٧٩ رقم ٣٩٠٨) وانظر: مفتاح الجنة للسيوطي (ص ٦٥).

(٢) ٣١٤ إغاثة جـ٢.

الـذي قتلوه وتدافعوا فيه، حتى أمروا بذبح بقرة وضربه ببعضها، وفي هذه القصة أنواع من العبر.

منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله ﷺ.

ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.

ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عدل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هداية المهتدي، وإعذارًا وإنذارًا للضال.

ومنها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: اعتق رقبة، وأطعم مسكينًا، وصم يومًا، ونحو ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب(١)، فإن الآية غنية عن البيان المنفصل، مبينة بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشددوا شُدِّد عليهم.

قال أبو جعفر بن جرير، عن الربيع، عن أبي العالية: «لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم»(٢).

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه

---

(١) انظر: فتح الباري (١/ ٣٠، ٤٧، ٨٨، ١٣٨) وعمدة القاري (١/ ٧٣، ٢١٦) وسبل السلام (٢/ ٨٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣٣٨، ٣٤٨) وتفسير ابن كثير (١/ ١٠٩).

بالإنكار، وذلك نوع من الكفر، فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ [البقرة: ٦٧] قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه، قالوا: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الآمر به، ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك، فلما قال لهم: ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾، وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها، فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال، توقفوا في الامتثال ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم: قولهم لنبيهم: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة: ٦٧]، فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردَّة وكفر ظاهر، وإن أرادوا: أنك الآن بيت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها. فذلك جهلٌ ظاهر، فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل، ولا في المذبوح، فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.

قال محمد بن جرير: وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم، وكفروا بقولهم لموسى: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾، وزعم أن ذلك نفي منهم أن يكون موسى عليه السلام أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم، قال وليس الأمر كما قال عندنا؛ لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهلًا منهم وهفوة من هفواتهم[1].

***

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣٥٤).

بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

(١)قال تعالى في أصحاب الطريقين: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥].

ثم قال في أهل الطريق الثاني: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [البقرة: ٧٨].

ثم قال في المصنفين الذين يصنفون ما لا يعلم أن الرسول قاله وجاء به؛ بل يعلم أن الرسول جاء بخلافه: الآية. ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٩]، فهذه الطريق المذمومة التي سلكها علماء اليهود، وقد سلكها أشباههم من هذه الأمة تحقيقًا لقول الصادق المصدوق: «**لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها شبرًا بشبر وذراعًا بذراع**»(٢). وفي لفظ آخر: «**لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**»(٣) وكثير من هؤلاء الأشباه يحرفون كلام الله ويكتمونه، لئلا يحتج به عليهم في خلاف أهوائهم.

فتارة يغل كتب الآثار التي فيها كلام رسول الله ﷺ وكلام أصحابه والتابعين وأئمة

---

(١) ٣٤٩ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) أخرجه محمد بن نصر المروزي في السنة (رقم ٤٦) والبخاري بلفظ قريب (رقم ٧٣١٩) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٠٠-٣٠١) وشرح النووي (١٦/ ٢١٩).

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٥١٦ رقم ٨٤٤٨) وصححه، وصححه ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٥١) (٤/ ٤٩١) وانظر: فيض القدير (٥/ ٢٩٥) والنهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢٨).

السنة، ويمنع من إظهارها، وربما أعدمها، وربما عاقب من كتبها أو وجدها عنده كما شاهدناه منهم عيانًا. وكثير من هؤلاء يمنع من تبليغ الأحاديث النبوية وتفسير القرآن بالآثار والأخبار، حتى إذا جاءت تفاسير الجهمية والمعتزلة ونحوهم بالغ في مدحها، وقال: إن التحقيق فيها.

وما لم يمكنهم منعه من الكتاب والسنة وكتمانه سطوا عليه بالتحريف، وتأولوه على غير تأويله، ثم يعتمدون على آثار موضوعة مكذوبة على رسول الله ﷺ وأصحابه موافقة لأهوائهم وبدعهم، فيقولون: هذا من عند الله، ويحتجون به ويضعون قواعد ابتدعوها وآراء اخترعوها ويسمونها: أصل الدين، وهي أضر شيء على الدين.

***

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ

وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

(١)ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة: ٨٠]. فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم، وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لا بد من واحد منهما، وقد تعين بطلان أحدهما؛ فلزم ثبوت الآخر، فإن قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي، فإما أن يكون قولًا على الله بلا علم فيكون كاذبًا، وإما أن يكون مستندًا إلى وحي من الله وعهد عهده إلى المخبر، وهذا منتفٍ قطعًا، فتعين أن يكون خبرًا كاذبًا، قائله كاذب على الله تعالى. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

فهذه حجة من الله احتج بها على أهل الكتاب؛ فإنه كان قد أخذ عليهم الميثاق: أن لا يقتل بعضهم بعضًا، ولا يجليه عن دياره، وأن يفدي بعضهم بعضًا من الأسر، فهذه ثلاثة عهود خالفوا منها عهدين، وأخذوا بالثالث؛ فقتل بعضهم بعضًا، وأخرجه من دياره، ثم فادوا أسراهم، لأن الله أمرهم بذلك، فإن كنتم قد فاديتم الأسارى لأن الله أمركم بفدائهم، فلِمَ قتلتم بعضكم بعضًا، وأخرجتموهم من ديارهم، والله قد نهاكم عن ذلك؟ والأخذ ببعض الكتاب يوجب عليكم الأخذ بجميعه، فكيف تكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض؟ ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

---

(١) ١٤٣ بدائع جـ ٤.

وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، فهذا هو الذي تسميه النظار والفقهاء التشهي والتحكم، فيقول أحدهم لصاحبه: لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم الباطل، فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعته ورددته، وإن كان القول موافقًا لما تهواه وتشتهيه: إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده قبلته وأجزته، فترد ما خالف هواك، وتقبل ما وافق هواك، وهذا الاحتجاج والذي قبله مفحمان للخصم، لا جواب له عليهما البتة؛ فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ بجميعه، والتزام بعض شرائعه يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات؛ إذ لو كان الشرع تابعًا للهوى والشهوة لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعًا له ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

***

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

[(١)] قد اختلف في معنى قولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.

فقالت طائفة: المعنى: قلوبنا أوعية للحكمة والعلم، فما بالها لا تفهم عنك ما أتيت به أو لا تحتاج إليك؟ وعلى هذا فيكون غلف جمع غلاف.

والصحيح قول أكثر المفسرين: أن المعنى: قلوبنا لا تفقه ولا تفهم ما تقول؛ وعلى هذا فهو جمع أغلف كأحمر وحمر. وقال أبو عبيدة: كل شيء في غلاف فهو أغلف كما يقال: سيف أغلف، وقوس أغلف، ورجل أغلف غير مختون[(٢)]. قال ابن عباس

(١) ٩٣ شفاء.

(٢) انظر: مختار الصحاح (ص ٢٠٠).

وقتادة ومجاهد: على قلوبنا غشاوة، فهي في أوعية، فلا تعي ولا تفقه ما تقول[١].

وهذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن كقولهم: ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ ﴾ [فصلت: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى ﴾ [الكهف: ١٠١] ونظائر ذلك.

وأما قول من قال: هي أوعية للحكمة؛ فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة، وليس له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غلف أي: أوعية للعلم؟ والغلاف قد يكون وعاء للجيد والرديء، فلا يلزم من كون القلب غلافًا؛ أن يكون داخله العلم والحكمة، وهذا ظاهر جدًّا.

فإن قيل: فالإضراب ببل على هذا القول الذي قويتموه ما معناه. وأما على القول الآخر فظاهر أي: ليست قلوبكم محلًّا للعلم والحكمة، بل مطبوع عليها.

قيل: وجه الإضراب في غاية الظهور، وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته بل جعل قلوبهم داخلة في غلف، فلا تفقهه، فكيف تقوم به عليه الحجة؟ وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف فهم معذورون في عدم الإيمان، فأكذبهم الله، وقال: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٨٨] فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله؛ إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم، وآثروه على الإيمان؛ فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة. والمعنى: لم نخلق قلوبهم غلفًا لا تعي ولا تفقه؛ ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفهمونه؛ ولا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالًا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها.

***

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٢٤).

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

[(١)]هذه حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم بمحمد، فإنهم كانوا يحاربون جيرانهم من العرب في الجاهلية، ويستنصرون عليهم بالنبي ﷺ قبل ظهوره، فيفتح لهم وينصرون، فلما ظهر النبي ﷺ كفروا به وجحدوا نبوته، فاستفتاحهم به وجحد نبوته مما لا يجتمعان، فإن كان استفتاحهم به لأنه نبي كان جحد نبوته محالًا، وإن كان جحد نبوته كما يزعمون حقًّا كان استفتاحهم به باطلًا، فإن كان استفتاحهم به حقًّا فنبوته حق، وإن كانت نبوته كما يقولون باطلًا فاستفتاحهم به باطل، وهذا مما لا جواب لأعدائه عنه البتة، ويمكن تقريرها على صور عديدة:

منها: أن يقال: قد أقررتم بنبوته قبل ظهوره باستفتاحكم به، فتعين عليكم الإقرار بها بعد ظهوره.

الثانية: أن يقال: كنتم تستفتحون به، وذلك إقرار منكم بنبوته قبل ظهوره استناداً إلى ما عندكم من العلم بظهوره؛ فلما شاهدتموه وصار المعلوم معاينًا بالرؤية؛ فالتصديق به حينئذ يكون أولى، فكفرتم به عند كمال المعرفة وآمنتم به حين كانت غيبًا لم تكمل، فآمنتم به على تقدير وجوده، وكفرتم به عند تحقق وجوده، فأي تناقض وعناد أبلغ من هذا؟![(٢)]

التاسعة: أن يقال الاستفتاح به تصديق وإقرار بنبوته، وتكذيبه جحد وكفر بها، والإيمان والتصديق برسالة الرجل الواحد والتكذيب والجحد بها، مستلزم للكفر ولابد، فإنه يستلزم أحد الأمرين: إما التصديق بنبوة من ليس بنبي، وإما جحد نبوة من هو نبي، وأيهما كان فهو كفر، وقد أقررتم على أنفسكم بالكفر ولا بد، فلعنه الله على الكافرين.

العاشرة: تقرير الاستدلال بطريقة استسلاف المقدمات المؤاخذة بالاعتراف،

---

(١) ١٤٤ بدائع جـ٤.

(٢) اختصرنا كلام الشيخ من الثالثة إلى الثامنة، وهو موجود بالأصل. (ج).

فيقال لهم: ألستم كنتم تستفتحون به؟ فيقولون: بلى، فيقال: أليس الاستفتاح به إيمان به؟ فلابد من الاعتراف بذلك. فيقال: أفليس ظهور من كنتم تؤمنون به قبل وجوده موجبًا عليكم الإيمان به؟ فلابد من الاعتراف أو العناد الصريح، وليس لأعداء الله على هذه الوجوه اعتراض البتة، سوى أن قالوا: هذا كله حق، ولكن ليس هذا الموجود بالذي كنا نستفتح به، وهذا من أعظم البهت والعناد؛ فإن الصفات والعلامات التي فيه طابقت ما كانت عندهم مطابقة المعلوم لعلمه، فإنكار أن يكون هو إنما يكون جحدًا للحق وإنكارًا له باللسان والقلب يعرفه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

فأغنى عن هذه الوجوه والتقريرات كلها قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ والمادة الحق يمكن إبرازها في الصورة المتعددة، وفي أي قالب أفرغت وصورة أبرزت ظهرت صحيحة، وهذا شأن مواد براهين القرآن في أي صورة أبرزتها ظهرت في غاية الصحة والبيان، والحمد لله المانّ بالهدى على عباده المؤمنين.

وتأمل قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ ﴾ كيف تجد تحته برهانًا عظيمًا على صدقه، وهو مجيء الرسول الثاني بما يطابق ما جاء به الرسول الأول ويصدقه، مع تباعد زمانها وشهادة أعدائه وإقرارهم له بأنه لم يتلقه من بشر، ولهذا كانوا يمتحنونه بأشياء يعلمون أنه لا يخبر بها إلا نبي، أو من أخذ عنه وهم يعلمون أنه لم يأخذ عن أحد البتة، ولو كان ذلك؛ لوجد أعداؤه السبيل إلى الطعن عليه، ولعارضوه بمثل ما جاء به، إذ من الممكن أن لو كان ما جاء به مأخوذًا، عن بشر أن يأخذوهم عن ملك أو عن نظيره، فيعارضوا ما جاء به.

والمقصود: أن مطابقة ما جاء به لما أخبر به الرسول الأول من غير مواطأة ولا تشاعر ولا تلقي منه ولا ممن أخذ عنه، دليل قاطع على صدق الرسولين معًا.

ونظير هذا أن يشهد رجل بشهادة فيخبر فيها بما يقطع به أنه صادق في شهادته، صدقًا لا يتطرق إليه شبهة، فيجيء آخر من بلاد أخرىٰ لم يجتمع بالأول ولم يتواطأ معه، فيخبر بنظير تلك الشهادة سواء مع القطع بأنه لم يجتمع به ولا تلقاها عن أحد اجتمع به، فهذا يكفي في صدقه؛ إذا تجرد الإخبار، فكيف إذا اقترن بأدلة يقطع بها بأنه صادق، أعظم من الأدلة التي اقترنت بخبر الأول، فيكفي في العلم بصدق الثاني مطابقة خبره لخبر الأول فكيف إذا بشر به الأول؟ فكيف إذا اقترن بالثاني من البراهين الدالة علىٰ صدقه؟ نظير ما اقترن بالأول وأقوىٰ منها، والله أعلم.

***

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

[(١)] قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن كفرهم شكًّا ولا اشتباهًا، ولكن بغيًا منهم، حيث صارت النبوة في ولد إسماعيل، ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١] فلما شبههم في فعلهم هذا بمن لا يعلم؛ دل علىٰ أنهم نبذوه عن علم كفعل من لا يعلم، تقول إذا خاطبت من عصاك عمدًا: كأنك لم تعلم ما فعلت، أو كأنك لم تعلم بنهيي إياك، ومنه علىٰ أحد القولين قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٢، ٨٣].

قال السدي: يعنى محمدًا ﷺ، واختاره الزجاج فقال: يعرفون أن أمر محمدٍ ﷺ حق، ثم ينكرون ذلك، وأول الآية يشهد لهذا القول[(٢)].

---

(١) ٩١ مفتاح جـ١.
(٢) انظر: لسان العرب (١٢/ ٥٨١).

[(١)] ومن تلاعبه بهم: ما كان منهم في شأن زكريا ويحيى عليهما السلام، وقتلهم لهما، حتى سلط الله عليهم بختنصر، وسنجاريب وجنودهما، فنالوا منهم ما نالوه. ثم ما[(٢)] كان منهم في شأن المسيح ورميه وأمه بالعظائم، وهم يعلمون أنه رسول الله تعالى إليهم، فكفروا به بغيًا وعنادًا، وراموا قتله وصلبه، فصانه الله تعالى من ذلك، ورفعه إليه، وطهره منهم. فأوقعوا القتل والصَّلب على شبهه، وهم يظنون أنه رسول الله عيسى ﷺ؛ فانتقم الله تعالى منهم، ودمّر عليهم أعظم تدمير، وألزمهم كلهم حكم الكفر بتكذيبهم بالمسيح؛ كما ألزم النصارى معهم حكم الكفر بتكذيبهم بمحمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح وكفرهم به في سفال ونقص إلى أن قطعهم الله تعالى في الأرض أممًا، ومزَّقهم كل ممزق، وسلبهم عزهم وملكهم، فلم يقم لهم بعد ذلك ملك إلى أن بعث الله تعالى محمدًا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فكفروا به وكذبوه، فأتمَّ عليهم غضبه، ودمَّرهم غاية التدمير، وألزمهم ذلًّا وصغارًا لا يرفع عنهم إلى أن ينزل أخوه المسيح من السماء، فيستأصل شأفتهم، ويطهر الأرض منهم، ومن عباد الصليب.

قال تعالى: ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [البقرة: ٩٠]. فالغضب الأول: بسبب كفرهم بالمسيح، والغضب الثاني: بسبب كفرهم بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما.

***

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

(١) ٣١٩ إغاثة جـ٢.

(٢) بالنسخة: (ثم كان منهم) بدون (ما) وقد أثبتناها لتمام المعنى.

وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

(١)قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩١] هذه حكاية مناظرة بين الرسول ﷺ وبين اليهود لما قال لهم: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾، فأجابوه بأن قالوا: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾، ومرادهم بهذا التخصيص أن نؤمن بالمنزل علينا دون غيره، فظهرت عليهم الحجة بقولهم هذا من وجهين، دل عليهما قوله تعالى: ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ إلى آخر الآية. قال: إن كنتم قد آمنتم بما أنزل عليكم لأنه حق؛ فقد وجب عليكم أن تؤمنوا بما جاء به محمد، لأنه حق مصدق لما معكم، وحكم الحق الإيمان به أين كان ومع من كان؛ فلزمكم الإيمان بالحقين جميعًا أو الكفر الصراح.

وفي وقوله: ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ نكتة بديعة جدًّا، وهي: أنهم لما كفروا به وهو حق لم يكن إيمانهم بما أنزل عليهم لأجل أنه حق، فإذًا لم يتبعوا الحق

---

(١) ١٤٨ بدائع جـ٤.

فيما أنزل عليهم، ولا فيما جاء به محمد ﷺ؛ لأنهم لو آمنوا بالمنزل عليهم أنه حق لآمنوا بالحق الثاني، وأعطوا الحق حقه من الإيمان، ففي ضمن هذه؛ الشهادة عليهم بأنهم لم يؤمنوا بالحق الأول ولا بالثاني؛ وهكذا الحكم في كل من فرق الحق فآمن ببعضه وكفر ببعضه، كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وكمن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض؛ لم ينفعه إيمانه بما كفر به حتى يؤمن بالجميع.

ونظير هذا التفريق تفريق من يردُّ آيات الصفات وأخبارها، ويقبل آيات الأوامر والنواهي؛ فإن ذلك لا ينفعه لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض، فإن كانت الشبهة التي عرضت لمن كفر ببعض الأنبياء غير نافعة له؛ فالشبهة التي عرضت لمن رد بعض ما جاء به النبي ﷺ أولى أن لا تكون نافعة، وإن كانت هذه عذرًا له فشبهة من كذب بعض الأنبياء مثلها، وكما أنه لا يكون مؤمنًا حتى يؤمن بجميع الأنبياء، ومن كفر بنبي من الأنبياء فهو كمن كفر بجميعهم؛ فكذلك لا يكون مؤمنًا حتى يؤمن بجميع ما جاء به الرسول، فإذا آمن ببعضه ورد بعضه فهو كمن كفر به كله. فتأمل هذا الموضع واعتبر به الناس على اختلاف طوائفهم، يتبين لك أن أكثر من يدعي الإيمان بريء من الإيمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الوجه الثاني من النقض قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

ووجه النقض: أنكم إن زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم وبالأنبياء الذين بعثوا فيكم فلم قتلتموهم من قبل، وفيم أنزل إليكم الإيمان بهم وتصديقهم فلا آمنتم بما أنزل إليكم، ولا بما أنزل على محمد ﷺ؟ ثم كأنه توقع منهم الجواب: بأنا لم نقتل من ثبتت نبوته ولم نكذب به، فأجيبوا على تقدير هذا الجواب الباطل منهم؛ بأن موسى قد جاءكم بالبينات وما لا ريب معه في صحة نبوته، ثم عبدتم العجل بعد غيبته عنكم، وأشركتم بالله وكفرتم به، وقد علمتم نبوة موسى وقيام البراهين على صدقه، فقال: ﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾

[البقرة: ٩٢]، فهكذا تكون الحجج والبراهين ومناظرات الأنبياء لخصومهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٩٤] كانوا يقولون: نحن أحباء الله، ولنا الدار الآخرة خالصة من دون الناس، وإنما يعذب منا من عبد العجل مدة، ثم يخرج من النار وذلك مدة عبادتهم له، فأجابهم تبارك وتعالى عن قولهم: إن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، بالمطالبة وتقسيم الأمر: بين أن يكون لهم عند الله تعالى عهد عهده إليهم، وبين أن يكونوا قد قالوه عليه بما لا يعلمون، ولا سبيل لهم إلى ادعاء العهد، فتعين الثاني وقد تقدم.

ثم أجابهم عن دعواهم خلوص الآخرة لهم بقوله: ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ لأن الحبيب لا يكره لقاء حبيبه، والابن لا يكره لقاء أبيه، لاسيما إذا علم أن كرامته ومثوبته مختصة به؛ بل أحب شيء إليه لقاء حبيبه وأبيه، فحيث لم يحب ذلك ولم يتمنه فهو كاذب في قوله مبطل في دعواه.

ونظير هذا قوله في سورة المائدة ردا عليهم قولهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة: ١٨] يعني: أن الأب لا يعذب ابنه، والحبيب لا يعذب حبيبه(١). وههنا نكتة لطيفة جدًّا قل من ينتبه لها، نحن نقررها بسؤال وجواب.

فإن قيل: معلوم أن الأب قد يؤدب ولده إذا أذنب، والحبيب قد يهجر حبيبه إذا رأى منه بعض ما يكره.

قيل: لو تأملت أيها السائل قوله: ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ لعلمت الفرق بين هذا التعذيب وبين الهجران والتأديب، فإن التعذيب بالذنب ثمرة الغضب المنافي للمحبة، فلو كانت المحبة قائمة كما زعموا لم يكن هناك ذنوب يستوجبون عليها العذاب، من المسخ قردة وخنازير، وتسلط أعدائهم عليهم يستبيحونهم ويستعبدونهم ويخربون

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ١٦٥) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٥) وفيض القدير (٣/ ٢٧٦).

متعبداتهم ويسبون ذراريهم، فالمحب لا يفعل هذا بحبيبه ولا الأب بابنه، ومعلوم أن الرحمن الرحيم لا يفعل هذا بأمة إلا بعد فرط إجرامها وعتوها على الله واستكبارها عن طاعته وعبادته، وذلك ينافي كونهم أحبابه؛ فلو أحبوه لما ارتكبوا من غضبه وسخطه ما أوجب لهم ذلك، ولو أحبهم لأدبهم ولم يعذبهم. فالتأديب شيء، والتعذيب شيء، والتأديب يراد به التهذيب والرحمة والإصلاح، والتعذيب للعقوبة والجزاء على القبائح، فهذا لون وهذا لون.

وفي ضمن هذه المناظرة معجزة باهرة للنبي ﷺ، وهي: أنه في مقام المناظرة مع الخصوم الذين هم أحرص الناس على عداوته وتكذيبه، وهو يخبرهم خبرًا جزمًا أنهم لن يتمنوا الموت أبدًا، ولو علموا من نفوسهم أنهم يتمنونه لوجدوا طريقًا إلى الرد عليه، بل ذلوا وغلبوا وعلموا صحة قوله، وإنما منعهم من تمني الموت معرفتهم بما لهم عند الله: من الخزي والعذاب الأليم بكفرهم بالأنبياء وقتلهم لهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ.

فإن قيل: فهلا أظهروا التمني وإن كانوا كاذبين! فقالوا: فنحن نتمناه.

قيل: وهذا أيضًا معجزة أخرى، وهي: أن الله تعالى حبس عن تمنيه قلوبهم وألسنتهم، فلم ترده قلوبهم، ولم تنطق به ألسنتهم تصديقًا لقوله: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ [البقرة: ٩٥]. **قلت:** هذه الآية فيها للناس كلام معروف.

قالوا: إنها معجزة للنبي ﷺ، أعجز بها اليهود، ودعاهم إلى تمني الموت، وأخبر أنهم لا يتمنونه أبداً، وهذا علم من أعلام نبوته، إذ لا يمكن الاطلاع على بواطنهم إلا بأخبار الغيب، ولم ينطق الله ألسنتهم بتمنيه أبدًا.

وقالت طائفة: لما ادعت اليهود: أن لهم الدار الآخرة عند الله، خالصة من دون الناس، وأنهم أبناؤه وأحباؤه وأهل كرامته، كذبهم الله في دعواهم، وقال: إن كنتم صادقين فتمنوا الموت؛ لتصلوا إلى الجنة دار النعيم، فإن الحبيب يتمنى لقاء حبيبه. ثم أخبر سبحانه: أنهم لا يتمنونه أبدًا بما قدمت أيديهم من الأوزار والذنوب الحائلة

بينهم وبين ما قالوه، فقال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٥].

وقالت طائفة منهم ـ محمد بن إسحاق وغيره ـ: هذه من جنس آية المباهلة، وأنهم لما عاندوا، ودفعوا الهدى عيانًا، وكتموا الحق: دعاهم إلى أمر يحكم بينهم وبينه، وهو أن يدعو بالموت على الكاذب المفتري، و«التمني» سؤال ودعاء، فتمنوا الموت، وادعوا به على المبطل الكاذب المفتري.

وعلى هذا فليس المراد: تمنوه لأنفسكم خاصة، كما قاله أصحاب القولين الأولين. بل معناه: ادعوا بالموت وتمنوه للمبطل، وهذا أبلغ في إقامة الحجة وبرهان الصدق، وأسلم من أن يعارضوا رسول الله بقولهم: فتمنوه أنتم أيضًا، إن كنتم محقين أنكم أهل الجنة، لتقدموا على ثواب الله وكرامته، كانوا أحرص شيء على معارضته، فلو فهموا منه ما ذكره أولئك لعارضوه بمثله.

وأيضًا فإنا نشاهد كثيرًا منهم يتمنى الموت لضره وبلائه، وشدة حاله، ويدعو به، وهذا بخلاف تمنيه والدعاء به على الفرقة الكاذبة، فإن هذا لا يكون أبدًا، ولا وقع من أحد منهم في حياة النبي ﷺ البتة؛ وذلك لعلمهم بصحة نبوته وصدقه، وكفرهم به حسدًا وبغيًا، فلا يتمنوه أبدًا، لعلمهم أنهم هم الكاذبون، وهذا القول هو الذي نختاره، والله أعلم بما أراد من كتابه.

[(١)]قال ابن سعد: وأخبرنا علي بن محمد، عن علي بن مجاهد، عن محمد بن إسحاق، عن سالم مولى عبد الله بن مطيع، عن أبي هريرة قال: أتى رسول الله ﷺ بيت المدراس[(٢)]، فقال: «أخرجوا إليَّ أعلمكم»، فقالوا: عبد الله بن صوريا، فخلا به رسول الله ﷺ، فناشده بدينه وبما أنعم الله عليهم، وأطعمهم من المن والسلوى،

(١) ٩٤ هداية.

(٢) ومنه حديث اليهودي الزاني: «فوضع مدراسها كفَّه على آية الرجم» المدراس: صاحب دراسة كتبهم. ومفعل ومفعال من أبنية المبالغة. وأما الحديث الآخر: «حتى أتى المدراس» فهو البيت الذي يدرسون فيه. ومفعال غريب في المكان. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢/ ١١٣).

وظللهم من الغمام: «أتعلم أني رسول الله»؟ قال: اللهم نعم، وإن القوم ليعرفون ما أعرف، وأن صفتك ونعتك لمبين في التوراة، ولكن حسدوك، قال: «فما يمنعك أنت»؟ قال: أكره خلاف قومي، عسىٰ أن يتبعوك ويسلموا، فأسلم[1].

وقال أبو الشيخ الأصبهاني: حدثنا أبو يحيىٰ الرازي: حدثنا سهل بن عثمان: حدثنا علي بن مسهر، عن داود، عن الشعبي قال: قال عمر بن الخطاب: كنت آتي اليهود عند دراستهم التوراة، فأعجب من موافقة التوراة للقرآن وموافقة القرآن للتوراة، فقالوا: يا عمر ما أحد أحب إلينا منك لأنك تغشانا، قلت: إنما أجيء لأعجب من تصديق كتاب الله بعضه بعضًا، فبينا أنا عندهم ذات يوم إذ مرَّ رسول الله ﷺ، فقالوا: هذا صاحبك، فقلت: أنشدكم الله وما أنزل عليكم من الكتاب أتعلمون أنه رسول الله؟ فقال سيدهم: قد نشدكم الله فأخبروه، فقالوا: أنت سيدنا فأخبره، فقال: إنا نعلم أنه رسول الله، قلت: فإني أهلككم إن كنتم تعلمون أنه رسول الله لِمَ لم تتبعوه؟! قالوا: إن لنا عدوًّا من الملائكه وسلمًا من الملائكة، عدونا جبريل وهو ملك الفظاظة والغلظة، وسلمنا ميكائيل وهو ملك الرأفة واللين. قلت: فإني أشهد ما يحل لجبريل أن يعادي سلم ميكائيل، ولا لميكائيل أن يعادي سلم جبريل، ولا أن يسالم عدوه، ثم قمت فاستقبلني رسول الله ﷺ فقال: «ألا أقرئك آيات نزلت عليَّ قبل»؟ فتلا: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] الآية. فقلت: والذي بعثك بالحق ما جئت إلا لأخبرك بقول اليهود، قال عمر: فلقد رأيتني أشد في دين الله من حجر[2].

وذكر أبو نعيم من حديث عمرو بن عبسة قال: رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية، وعرفت أنها علىٰ الباطل، يعبدون الحجارة وهي لا تضر ولا تنفع، فلقيت رجلًا من

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ (١/ ١٦٤) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٣/ ٤١٧-٤١٨) وانظر: صفة الصفوة (١/ ٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤٣٣) وابن شبة في أخبار المدينة (٢/ ٤٩-٥٠ رقم ١٤٦٨) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٣٢).

أهل الكتاب، فسألته عن أفضل الدين؟ فقال: يخرج رجل من مكة ويرغب عن آلهة قومه، يأتي بأفضل الدين، فإذا سمعت به فاتبعه، فلم يكن لي هم إلا مكة آتيها فأسأل: هل حدث فيها خبر؟ فيقولون: لا، فأنصرف إلى أهلي، وأعترض الركبان، فأسألهم، فيقولون: لا، فإني لقاعد إذ مر بي راكب، فقلت: من أين جئت؟ قال: من مكة، قلت: هل حَدَثَ حدثٌ فيها؟ قال: نعم رجل رغب عن آلهة قومه، ودعا إلى غيرها، قلت: صاحبي الذي أريد، فشددت راحلتي، وجئت فأسلمت[(١)].

***

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

[(٢)]إذا كان الحكم مستغربًا جدًّا مما لم تألفه النفوس، وإنما ألفت خلافه؛ فينبغي للمفتي أن يوطِّئ قبله ما يكون مؤذنًا به كالدليل عليه والمقدمة بين يديه، فتأمل ذكره سبحانه قصة زكريا وإخراج الولد منه بعد انصرام عصر الشبيبة، وبلوغه السن الذي لا يولد فيه لمثله في العادة، فذكر قصته مقدمة بين يدي قصة المسيح وولادته من غير

---

(١) أخرجه الطبراني بلفظ قريب في مسند الشاميين (٢/ ٣٠-٣١ رقم ٨٦٣) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٦/ ٢٦٢) وابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/ ٢١٧-٢١٨) وانظر: التمهيد (٤/ ٥٢).

(٢) ١٦٣ أعلام: جـ٤.

أب، فإن النفوس لما آنست بولد من بين شيخين كبيرين لا يُولد لهما عادة سهل عليها التصديق بولادة ولد من غير أب.

وكذلك ذكر سبحانه قبل قصة المسيح، موافاة مريم رزقها في غير وقته وغير إبَّانه، هذا الذي شجع نفس زكريا وحركها لطلب الولد وإن كان في غير إبَّانه.

وتأمل قصة نسخ القبلة لما كانت شديدة على النفوس جدًّا، كيف وطأ سبحانه قبلها عدة موطئات:

منها: ذكر النسخ.

ومنها: أنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله.

ومنها: أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم؛ فعموم قدرته وعلمه صالح لهذا الأمر، الثاني كما كان صالحًا للأول.

ومنها: تحذيرهم الاعتراض على رسوله، كما اعترض من قبلهم على موسى، بل أمرهم بالتسليم والانقياد.

ومنها: تحذيرهم بالإصغاء إلى اليهود، وأن لا تستخفهم شبههم، فإنهم يودون أن يردوهم كفارًا من بعد ما تبين لهم الحق.

ومنها: إخباره أن دخول الجنة ليس بالتهود ولا بالتنصر، وإنما هو بإسلام الوجه والقصد والعمل والنية لله مع متابعة أمره.

ومنها: إخباره سبحانه عن سعته، وأنه حيث ولى المصلِّي وجهه فثمّ وجهه تعالى، فإنه واسع عليم، فذكر الإحاطتين: الذاتية والعلمية، فلا يتوهمون أنهم في القبلة الأولى لم يكونوا مستقبلين وجهه تبارك وتعالى ولا في الثانية؛ بل حيثما توجهوا فثم وجهه تعالى.

ومنها: أنه ﷻ حذر نبيه ﷺ عن اتباع أهواء الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، بل أمر أن يتبع هو وأمته ما أوحي إليه فيستقبلونه بقلوبهم وحده.

ومنها: أنه ذكر عظمة بيته الحرام، وعظمة بانيه وملته، وسفَّه مَنْ يرغب عنها، وأمر باتباعها، فنوَّه بالبيت وبانيه وملته، وكل هذا توطئة بين يدي التحويل، مع ما في ضمنه

من المقاصد الجليلة والمطالب السنية.

ثم ذكر فضل هذه الأمة، وأنهم الأمة الوَسَط العدل الخيار، فاقتضى ذلك أن يكون نبيهم ﷺ، أوسط الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وخيارهم، وكتابهم كذلك، ودينهم كذلك، وقبلتهم التي يستقبلونها كذلك، فظهرت المناسبة شرعًا وقدرًا في أحكامه تعالى الأمرية والقدرية، وظهرت حكمته الباهرة، وتجلت للعقول الزكية المستنيرة بنور ربها تبارك وتعالى.

والمقصود أن المفتي جدير أن يذكر بين يدي الحكم الغريب الذي لم يؤلف مقدمات تؤنس به، وتدل عليه، وتكون توطئة بين يديه، وبالله التوفيق.

(١) في سياق الآيات الدالة على غش أهل الذمة للمسلمين وعداوتهم وخيانتهم وتمنيهم السوء لهم، ومعاداة الرب تعالى لمن أعزهم أو والاهم أو ولَّاهم أمور المسلمين. قال تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم (٢) ﴾ [البقرة: ١٠٩] وقال تعالى لرسوله: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٨].

---

(١) ٢٣٨ أحكام جـ١.

(٢) يأتي البحث على هذه الآية، وما شاكلها عند البحث في الحسد والمنافسة والغبطة في سورة المطففين - إن شاء الله تعالى - ويأتي أيضًا في سورة الفلق. ج.

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٤٤، ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

وقال تعالى مبشرًا لمن والاهم بالعذاب الأليم: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٣].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ٥٧، ٥٨].

وقال تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠، ٨١].

وقال تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة: ٨-١٠].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المجادلة: ١٤، ١٥].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ ...﴾ إلى قوله: ﴿... قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ١-٤].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ [الممتحنة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١١٩، ١٢٠].

وقد أخبر سبحانه عن أهل الكتاب، أنهم يعتقدون أنهم ليس عليهم إثم ولا خطيئة في خيانة المسلمين وأخذ أموالهم، فقال تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

والآيات في هذا كثيرة، وفي بعض هذا كفاية.

ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم نوعًا من توليهم، وقد حكم تعالى بأن من تولاهم فإنه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم، والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع البراءة والولاية أبدًا، والولاية صلة، فلا تجامع معاداة الكافر أبدًا.

ولو علم ملوك الإسلام بخيانة النصارى الكتاب، ومكاتبتهم الفرنج وأعداء الإسلام، وتمنيهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله، وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان، لثناهم ذلك عن تقريبهم وتقليدهم الأعمال، وهذا الملك (الصالح) كان في دولته نصراني يسمى محاضر الدولة أبا الفضائل بن دخان، ولم يكن في المباشرين أمكن منه، وكان المذكور قذاةً في عين الإسلام، وبثرة في وجه الدين، ومثالبه في الصحف مسطورة، ومخازيه مخلدة مذكورة، حتى بلغ من أمره أنه وقع لرجل نصراني أسلم برده إلى دين النصرانية، وخروجه من الملة الإسلامية، ولم يزل يكاتب الفرنج بأخبار المسلمين وأعمالهم وأمر الدولة وتفاصيل أحوالها، وكان مجلسه معمورًا برسل

الفرنج والنصارى، وهم مكرمون لديه، وحوائجهم مقضية عنده، ويحمل لهم الأدرار والضيافات؛ وأكابر المسلمين محجوبون على الباب لا يؤذن لهم، وإذا دخلوا لم ينصفوا في التحية ولا في الكلام، فاجتمع به بعض أكابر الكتاب فلامه على ذلك، وحذره من سوء عاقبة صنعه، فلم يزده ذلك إلا تمردًا، فلم يمض على ذلك إلا يسير، حتى اجتمع في مجلس (الصالح) أكابر الناس من الكتاب والقضاة والعلماء، فسأل السلطان بعض الجماعة عن أمر أفضى به إلى ذكر مخازي النصارى، فبسط لسانه في ذلك، وذكر بعض ما هم عليه من الأفعال والأخلاق، وقال من جملة كلامه: إن النصارى لا يعرفون الحساب ولا يدرونه على الحقيقة، لأنهم يجعلون الواحد ثلاثة، والثلاثة واحدًا، والله تعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وأول أمانتهم وعقد دينهم: بسم الأب والابن وروح القدس، إله واحد، فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء، وقال في قصيدة له:

كيف يدري الحساب من جعل الوا ... حدَ رب الورى تعالى ثلاثة[(١)]

ثم قال: كيف تأمن أن يفعل في معاملة السلطان كما فعل في أصل اعتقاده، ويكون مع هذا أكثر النصارى أمانة؟ وكلما استخرج ثلاثة دنانير دفع إلى السلطان دينارًا، وأخذ لنفسه اثنين، ولاسيما وهو يعتقد ذلك قربة وديانة؟

وانصرف القوم، واتفق أن كبت بالنصراني بطنته، وظهرت خيانته، فأريق دمه: وسُلِّط على وجوده عدمه، وفيه يقول عمارة اليمني:

قل لابن دخان إذا جئته ... ووجهه يندى من القَرقفِ

لم تكفك الدنيا ولو أنها ... أضعاف ما في سورة الزخرف

فاصفع قفا الذل ولو أنه ... بين قفا القسيس والأسقفِ

ملَّكك الدهر سُبال الورى ... فاحلق لحاهم آمنًا وانتفِ

خلالي لك الديوان من ناظر ... مستيقظ العزم ومن مشرفِ

---

(١) لم أقف على قائله.

فاكسب وحصل وادخر واكتنز ... واسرق وخُنْ وابطش ولا تضعف
وابك وقل ما صح لي درهم ... فرد، وصلِّب وابتهل واحلف
واغتنم الفرصة من قبل أن ... تقضي على الإنجيل والمصحف[(١)]

***

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

[(٢)]هذه دعوى كل واحدة من الطائفتين: أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهما، فقالت اليهود: لا يدخلها إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: لا يدخلها إلا من كان نصرانيًا. فاختصر الكلام أبلغ اختصار وأوجزه، مع أمن اللبس ووضوح المعنى، فطالبهم الله تعالى بالبرهان على صحة الدعوى، فقال: ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وهذا هو المسمى سؤال المطالبة بالدليل، فمن ادعى دعوى بلا

---

(١) هذه الأبيات من بحر السريع، وتنسب إلى عمارة بن علي بن زيدان الحكمي اليمني، مؤرخ ثقة وشاعر فقيه أديب، قدم إلى مصر إلى الفائز الفاطمي فأحسن إليه الفاطميون وبالغوا في إكرامه، فأقام عندهم ومدحهم حتى دالت دولتهم، وملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية فرثاهم عمارة واتفق مع سبعة من أعيان المصريين على الفتك بصلاح الدين، فعلم بهم فقبض عليهم وصلبهم بالقاهرة سنة ٥٦٩هـ.

(٢) ١٥٠ بدائع جـ٤.

دليل يقال له: هات برهانك إن كنت صادقًا فيما ادعيت، ويحتج بهذه الآية من يقول بلزوم النافي الدليل، كما يلزم المثبت.

وحكوا في ذلك ثلاثة مذاهب، ثالثها يلزمه في الشرعيات دون العقليات، واستدلالهم بالآية لا يصح؛ لأن الله تعالىٰ لم يطالبهم بدليل النفي المجرد؛ بل ادعوا دعوىٰ مضمونها: إثبات دخولهم هم الجنة وأن غيرهم لن يدخلها، فطولبوا بالدليل الدال علىٰ هذه الدعوة المركبة من النفي والإثبات، وصاحب هذه الدعوىٰ يلزمه الدليل باتفاق الناس، وإنما الخلاف في النفي المجرد.

ولو استدل هؤلاء بقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠] لكان أقرب مع كونه متضمنًا للنفي والإثبات، لكن الدعوىٰ فيه إنما توجهت إلىٰ النفي.

ومقصود الكلام: أنا لا نعذب بعد تلك الأيام، فلم ينكر عليهم اعترافهم بالتعذيب تلك الأيام؛ بل دعواهم أنهم لا يعذبون بعدها، وذلك نفي محض، فلذلك قلنا: إن الاستدلال بها أقرب من هذه الآية.

وبعد فالتحقيق في مسألة النافي: هل عليه دليل؟ أن النفي نوعان:

نوع: مستلزم لإثبات ضد المنفي، فهذا يلزم النافي فيه الدليل، كمن نفىٰ الإباحة، فإنه يطالب بالدليل قطعًا؛ لأن نفيها يستلزم ثبوت ضد من أضدادها ولابد من دليل، وكذلك نفي التعذيب بالنار بعد الأيام المعدودة يستلزم دخول الجنة والفوز بالنعيم، ولابد له من دليل.

النوع الثاني: نفي لا يستلزم ثبوتًا: كنفي صحة عقد من العقود أو شرط أو عبادة في الشرعيات، ونفي إمكان شيء ما من الأشياء في العقليات، فالنافي إن نفىٰ العلم به لم يلزمه دليل، وإن نفىٰ المعلوم نفسه وادعىٰ أنه منتف في نفس الأمر فلابد له من دليل.

(١) **المثال الخامس**: وجه الرب جلَّ جلاله حيث ورد في الكتاب والسنة، فليس بمجاز بل علىٰ حقيقته، واختلف المعطلون: في جهة التجوز في هذا، فقالت طائفة:

---

(١) ١٧٤ مختصر الصواعق جـ٢.

لفظ الوجه زائد، والتقدير: ويبقى ربك، إلا ابتغاء ربه الأعلى، ويريدون ربهم.

وقالت فرقة أخرى منهم: الوجه بمعنى الذات، وهذا قول أولئك وإن اختلفوا في التعبير عنه.

وقالت فرقة: ثوابه وجزاؤه، فجعله هؤلاء مخلوقًا منفصلاً، قالوا: لأن الذي يراد هو الثواب، وهذه أقوال، نعوذ بوجه الله العظيم من أن يجعلنا من أهلها.

قال عثمان بن سعيد الدارمي، وقد حكى قول بشر المريسي، أنه قال في قول النبي ﷺ: «**إذا قام العبد يصلي أقبل الله عليه بوجهه**»(١): يحتمل أن يقبل الله عليه بنعمته وإحسانه وأفعاله، وما أوجب للمصلي من الثواب، فقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، أي ما توجه به إلى ربك من الأعمال الصالحة، وقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، أي: قبلة الله(٢).

قال الدارمي: لما فرغ المريسي من إنكار اليدين ونفيهما عن الله، أقبل قبل وجه الله ذي الجلال والإكرام لينفيه عنه، كما نفى عنه اليدين، فلم يدع غاية في إنكار وجه الله ذي الجلال والإكرام والجحود به، حتى ادعى أن وجه الله الذي وصفه بأنه ذو الجلال والإكرام مخلوق، لأنه ادعى أنه أعمال مخلوقة يتوجه بها إليه، وثواب وإنعام مخلوق يثيب به العامل، وزعم أنه قبلة الله، وقبلة الله لا شك مخلوقة، ثم ساق الكلام في الرد عليه(٣).

والقول بأن: لفظ الوجه مجاز، باطل من وجوه:

أحدها: أن المجاز لا يمتنع نفيه، فعلى هذا لا يمتنع أن يقال: ليس لله وجه، ولا حقيقة

---

(١) أخرجه البزار (٧/ ٢٩٥ رقم ٢٨٨٩) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ١٨٩) وابن ماجه (رقم ١٠٢٣) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٨٠): رواه البزار وفيه الفضل بن عيسى الرقاشي وقد أجمعوا على ضعفه، وانظر: عمدة القاري (٥/ ٣١١).

(٢) انظر: نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد (٢/ ٧٠٣-٧٠٥).

(٣) انظر: نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد (٢/ ٧٠٦).

لوجهه، وهذا تكذيب صريح لما أخبر به عن نفسه، وأخبر به عنه رسول الله ﷺ.

الثاني: أنه خروج عن الأصل والظاهر بلا موجب.

الثالث: أن ذلك يستلزم كون حياته وسمعه وبصره وقدرته وكلامه وإرادته وسائر صفاته مجازًا لا حقيقة، كما تقدم تقريره.

الرابع: أن دعوى المعطل أن الوجه صلة، كذب على الله وعلى رسوله وعلى اللغة، فإن هذه الكلمة ليست مما عهد زيادتها.

الخامس: أنه لو ساغ ذلك لساغ لمعطل آخر أن يدعي الزيادة في قوله: أعوذ بعزة الله وقدرته، ويكون التقدير أعوذ بالله، ويدعي معطل آخر الزيادة في سمعه وبصره وغير ذلك.

السادس: أن هذا يتضمن إلغاء وجهه الكريم لفظًا ومعنى، وأن لفظه زائد ومعناه منتف.

[(١)] إنك إذا تأملت الأحاديث الصحيحة وجدتها مفسِّرة للآية مشتقة منها، كقوله ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإنما يستقبل ربه»[(٢)]. وقوله: «فالله يُقبلُ عليه بوجهه ما لم يصرفْ وجهه عنه»[(٣)]. وقوله: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصقن قِبل وجهه»[(٤)]. وقوله: «فإن الله بينه وبين القبلة»[(٥)]. وقوله: «إن الله يأمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا

---

(١) ١٨٨ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٣٨٧ رقم ٩٤٣) وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٤٦ رقم ٨٨٠) وأبو داود (رقم ٤٨٠) وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٢٧٨ رقم ٩٩٣) وأحمد (٣/ ٢٤) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (رقم ١٢١) وابن شبة في أخبار المدينة (رقم ٤٤).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٦٩ رقم ٩٣٤٥) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٠٩-٢١٠ رقم ٧٩٣): رواه الطبراني في الكبير موقوفًا عن أبي قلابة عن ابن مسعود، ولم يسمع منه، وكذا قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٨١).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٣٠٠٨).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٥) ومسلم (رقم ٤٩٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٠٨) وعمدة القاري (٤/ ١٤٨-١٤٩).

تلتفتوا؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت»(١) رواه ابن حبان في صحيحه والترمذي.

وقال: «إن العبد إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة أقبل الله عليه بوجهه، فلا ينصرف عنه حتى ينصرف أو يحدث حدث سوء»(٢). وقال جابر ﷺ، عن النبي ﷺ: «إذا قام العبد يصلي أقبل الله عليه بوجهه، فإذا التفت أعرض الله عنه، وقال: يا ابن آدم أنا خير ممن تلتفت إليه، فإذا أقبل على صلاته أقبل الله عليه، فإذا التفت أعرض الله عنه»(٣). وقال ابن عمر، عن النبي ﷺ: «إذا صلى أحدكم فلا ينتخمن تجاه وجه الرحمن»(٤). وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين عيني الرحمن، فإذا التفت قال له: ابن آدم إلى من تلتفت؟ إلى خير لك مني تلتفت»(٥).

...(٦)بقي النظر في ترجيح أحد قولي الاجتهاد والتخيير في مسألة القبلة على الآخر، فمن نصر التخيير احتج بما في الترمذي وسنن ابن ماجه، عن عامر بن ربيعة، عن أبيه قال: «كنا مع النبي ﷺ في سفر في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة فصلَّى كل رجل

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١/ ٢٤٤ رقم ٤٨٣) (٢/ ٦٤ رقم ٩٣٠) والترمذي (رقم ٢٨٦٣) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٨٦ رقم ٣٤٢٧) وأحمد (٤/ ١٣٠، ٢٠٢) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٠٧-٢٠٨ رقم ٧٨٥) رواه الترمذي وهذا لفظه، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي ببعضه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم، وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ١٣٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٠٢٣) وابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ١٤٢ رقم ٧٤٥٤) والبزار (٧/ ٢٩٥ رقم ٢٨٨٩).

(٣) لم أجده بهذا اللفظ.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٩٩) ولفظه: «إذا صلى أحدكم فلا يتنخمن تجاه القبلة، فإن تجاهه الرحمن، ولا عن يمينه ولكن عن شماله أو تحت قدمه اليسرى».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (رقم ٥٠٨) والعقيلي في الضعفاء (١/ ٧٠) وانظر: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص ٢٥٨) وقال ابن أبي الدنيا: إسناده ضعيف جدًّا.

(٦) ٣٦٠ بدائع جـ٣.

على حياله، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فنزل ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾[(١)] [البقرة: ١١٥] قال الترمذي: هذا حديث حسن، إلا إنه من حديث أشعث السمان، وفيه ضعف.

وروى الدارقطني، من حديث عطاء، عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ في مسير فأصابنا غيم فتحيرنا فاختلفنا في القبلة، فصلى كل رجل منا على حدة، وجعل أحدنا يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا فذكرنا للنبي ﷺ، فلم يأمرنا بالإعادة، فقال: «قد أجزأتكم صلاتكم»[(٢)]، قال الدارقطني: رواه محمد بن سالم، عن عطاء.

قال: ويروى أيضًا، عن محمد بن عبد الله العزرمي، عن عطاء، وكلاهما ضعيف، وقال العقيلي: لا يروى متن هذا الحديث من وجه يثبت[(٣)].

واحتجوا أيضًا بما تقدم حكايته أن الله لم يأمر بالاستقبال إلا من كان عالمًا به وقادرًا عليه، وأما العاجز الجاهل فساقط عنه فرض الاستقبال فلا يكلَّف به.

ومن نصر الاجتهاد احتج بأن الله تعالى أوجب على العبد أن يتقيه ما استطاع، وهذا مقتضى وجوب الاجتهاد عليه في تقوى ربه تعالى، والتقوى هي: فعل ما أمر وترك ما نهى.

قالوا: وأيضًا فإنه من المعلوم أنه إذا قام إلى الصلاة، لم يجز له أن يستقبل أي جهة شاء ابتداء؛ بل ينظر إلى مطالع الكواكب ومساقطها وسمت جهة القبلة، حتى إذا علم جهتها استقبلها وهذا نوع اجتهاد، وأدلة الجهة متفاوتة الخفاء والظهور، فيجب على

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٥، ٢٩٥٧) والطبري في تفسيره (١/ ٥٠٣-٥٠٤) وقال ابن عبد الهادي في تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (١/ ٢٩٧ رقم ٤٢٨): قال الترمذي: هذا حديث حسن ليس إسناده بذاك، لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان، وأشعث السمان يُضعَّف في الحديث، وكذا قال ابن الجوزي في التحقيق في أحاديث الخلاف (١/ ٣١٦).

(٢) أخرجه الدارقطني (١/ ٢٧١ رقم ٤) والبيهقي في الكبرى (٢/ ١٠ رقم ٢٠٦٧) وقال رحمه الله: تفرد به محمد بن سالم ومحمد بن عبيد الله العزرمي عن عطاء وهما ضعيفان. وانظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (١/ ٢٩٩) والتحقيق في أحاديث الخلاف (١/ ٣١٧) والمغني (١/ ٢٦٧).

(٣) انظر: التحقيق في أحاديث الخلاف (١/ ٣١٦) والمغني (١/ ٢٦٨).

كل أحد فعل مقدوره من ذلك، فإن لم يصبها قطعًا أصابها ظنًّا، وهو الذي يقدر عليه، فمتى ترك مقدوره لم يكن قد اتقى الله بحسب استطاعته.

وقولكم: إن الله إنما أوجب الاستقبال على القادر عليه العالم به.

قلنا: الله ﷻ أوجب على كل عبد ما تؤديه إليه استطاعته من طاعته، فإذا عجز عن هذا اليقين وأدلة الجهة سقط عنه؛ ولكن من أين يسقط عنه بذل وسعه ومقدوره اللائق به؟

***

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

[(١)] رد عليهم سبحانه دعواهم له اتخاذ الولد، ونزّه نفسه عنه، ثم ذكر أربع حجج على استحالة اتخاذه الولد:

أحدها: كون ما في السموات والأرض ملكًا له، وهذا ينافي أن يكون فيهما ولد له؛ لأن الولد بعض الوالد وشريكه فلا يكون مخلوقًا له مملوكًا له؛ لأن المخلوق مملوك مربوب عبد من العبيد، والابن نظير الأب فكيف يكون عبده تعالى ومخلوقه ومملوكه بعضه ونظيره، فهذا من أبطل الباطل.

وأكد مضمون هذه الحجة بقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] فهذا تقرير لعبوديتهم له، وأنهم مملوكون مربوبون، ليس فيهم شريك ولا نظير ولا ولد، فإثبات الولد لله تعالى من أعظم الإشراك به، فإن المشرك به جعل له شريكًا من مخلوقاته مع اعترافه بأنه مملوك، كما كان المشركون يقولون في تلبيتهم: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك)[(٢)] فكانوا يجعلون من أشركوا به مملوكًا له عبدًا مخلوقًا.

---

(١) ١٥٢ بدائع جـ٤.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١١٨٥) وانظر: شرح النووي (٨/ ٩٠).

والنصارى جعلوا له شريكًا هو نظيره، وجزء من أجزائه. كما جعل بعض المشركين الملائكة بناته، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ [الزخرف: ١٥].

فإذا كان له ما في السموات والأرض عبيد قانتون مربوبون مملوكون؛ استحال أن يكون له منهم شريك، وكل من أقر بأن الله تعالى ما في السموات وما في الأرض؛ لزمه أن يقر له بالتوحيد ولابد.

ولهذا يحتج سبحانه على المشركين بإقرارهم بذلك كقوله: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥] سيأتي إن شاء الله مزيد بيان لهذا في موضعه.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١١٧]، وهذه من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه؛ ولهذا قال في سورة الأنعام: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١] أي: من أين يكون لبديع السموات والأرض ولد؟!

ووجه تقرير هذه الحجة: أن من اخترع هذه السموات والأرض مع عظمهما وآياتهما، وفطرهما وابتدعهما، فهو قادر على اختراع ما هو دونهما، ولا نسبة له إليهما البتة، فكيف يخرجون هذا الشخص بالعين عن قدرته وإبداعه، ويجعلونه نظيرًا وشريكًا وجزءًا؛ مع أنه تعالى بديع العالم العلوي والسفلي، وفاطره ومخترعه وبارئه؟ فكيف يعجزه أن يوجد هذا الشخص من غير أب، حتى يقولوا: إنه ولده، فإذا كان قد ابتدع العالم علويه وسفليه، فما يعجزه ويمنعه عن إبداع هذا العبد وتكوينه وخلقه بالقدرة التي خلق بها العالم العلوي والسفلي؟

فمن نسب الولد لله، فما عرف الرب تعالى ولا آمن به ولا عبده. فظهر أن هذه الحجة من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه.

وإن شئت أن تقرر الاستدلال بوجه آخر، وهو أن يقال: إذا كان نسبة السموات

والأرض وما فيهما إليه، إنما هي بالاختراع والخلق والإبداع؛ أنشأ ذلك وأبدعه من العدم إلى الوجود، فكيف يصح نسبة شيء من ذلك إليه بالبنوة؛ وقدرته على اختراع العالم وما فيه لم تزل ولم يحتج فيها إلى معاون ولا صاحب ولا شريك.

وإن شئت أن تقررها بوجه آخر فتقول: النسبة إليه بالبنوة تستلزم حاجته وفقره إلى محل الولادة، وذلك ينافي غناه وانفراده بإبداع السموات والأرض، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨] فكمال قدرته وكمال غناه وكمال ربوبيته يحيل نسبة الولد إليه، ونسبته إليه تقدح في كمال ربوبيته، وكمال غناه وكمال قدرته، ولذلك كانت نسبة الولد إليه مسبة له تبارك وتعالى.

كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى شتمني عبدي ابن آدم، وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، أما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أُولد ولم يكن لي كفوًا أحد، وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته»[(١)].

وقال عمر بن خطاب ﷺ في النصارى: «أذلوهم ولا تظلموهم، فلقد سبوا الله مسبةً ما سبَّه إياها أحد من البشر»[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ [الكهف: ٤، ٥] الآية. وأخبر تعالى أن السموات كادت تنفطر من قولهم هذا، وتنشق الأرض منه، وتخر الجبال هدًّا، وما ذاك إلا لتضمنه شتم الرب تبارك وتعالى والتنقص به، ونسبة ما يمنع كمال ربوبيته وقدرته وغناه إليه.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١٩٣).

(٢) لم أجده من قول عمر ﷺ، ولكن رواه الطبراني عن معاذ بلفظ قريب في مسند الشاميين (رقم ١٠٤١) وانظر: غريب الحديث للخطابي (٢/ ٣١١) وغريب الحديث للحربي (٣/ ١٠٧٤).

الحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. وتقرير هذه الحجة: أن من كانت قدرته تعالى كافية في إيجاد ما يريد إيجاده بمجرد أمره وقوله: ﴿كُن﴾ فأي حاجة به إلى ولد وهو لا يتكثر به من قلة ولا يتعزز به، ولا يستعين به، ولا يعجز عن خلق ما يريد خلقه؟! وإنما يحتاج إلى الولد من لا يخلق، ولا إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، وهذا المخلوق العاجز المحتاج الذي لا يقدر على تكوين ما أراد.

وقد ذكر تعالى حججًا أخرى على استحالة نسبة الولد إليه فنذكرها في هذا الموضع: منها: كمال علمه وعموم خلقه لكل شيء، واستحالة نسبة الصاحبة إليه، فقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] الآية.

فأما منافاة عموم خلقه لنسبة الولد إليه فظاهر؛ فإنه لو كان له ولد لم يكن مخلوقًا بل جزءًا، وهذا ينافي كونه خالق كل شيء.

وبهذا يعلم أن الفلاسفة الذين يقولون بتولد العقول والنفوس عنه بواسطة أو بغير واسطة؛ شر من النصارى، وأن من زعم أن العالم قديم فقد أخرجه عن كونه مخلوقًا لله، وقوله أخبث من قول النصارى؛ لأن النصارى أخرجوا عن عموم خلقه شخصًا واحدًا أو شخصين، ومن قال بقدم العالم فقد أخرج العالم العلوي والسفلي والملائكة عن كونه مخلوقًا لله، والنصارى لم يصل كفرهم إلى هذا الحد.

وأما منافاة عدم الصاحبة للولد فظاهر أيضًا؛ لأن الولد إنما يتولد من أصلين: فاعل، ومحل قابل يتصلان اتصالاً خاصًا، فينفصل من أحدهما جزء في الآخر يكون منه الولد، فمن ليس له صاحبة كيف يكون له ولد؛ ولذلك لما فهم عوام النصارى أن الابن يستلزم الصاحبة؛ لم يستنكفوا من دعوى كون مريم إلهة وأنها والدة الإله عيسى، فيقول عوامهم: يا والدة الإله اغفري لي، ويصرح بعضهم بأنها زوجة الرب.

ولا ريب أن القول بالإيلاد يستلزم ذلك، أو إثبات إيلاد لا يعقل ولا يتوهم، فخواص النصارىٰ في حيرة وضلال، وعوامهم لا يستنكفون أن يقولوا بالزوجة والإيلاد المعقول، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

والقوم في هذا المذهب الخبيث أضل خلق الله، فهم كما وصفهم الله بأنهم: ﴿ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

وأما منافاة عموم علمه تعالىٰ للولد فيحتاج إلىٰ فهم خاص. وتقريره أن يقال: لو كان له ولد لعلمه لأنه بكل شيء عليم، وهو تعالىٰ لا يعلم له ولدًا فيستحيل أن يكون له ولد لا يعلمه، وهذا استدلال بنفي علمه للشيء علىٰ نفيه في نفسه، إذ لو كان لعلمه، فحيث لم يعلمه فهو غير كائن.

ونظير هذا قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [يونس: ١٨] الآية. فهذا نفي لما ادعوه من الشفعاء بنفي علم الرب تعالىٰ بهم، المستلزم لنفي المعلوم ولا يمكن أعداء الله المكابرة، وأن يقولوا: قد علم الله وجود ذلك؛ لأنه تعالىٰ إنما يعلم وجود ما أوجده وكونه، ويعلم أنه سيوجد ما يريد إيجاده فهو يعلم نفسه وصفاته، ويعلم مخلوقاته التي دخلت في الوجود وانقطعت، والتي دخلت في الوجود وبقيت، والتي لم توجد بعد. وأما شيء آخر غير مخلوق له ولا مربوب فالرب تعالىٰ لا يعلمه؛ لأنه مستحيل في نفسه، فهو يعلمه مستحيلًا لا يعلمه واقعًا؛ إذ لو علمه واقعًا لكان العلم به عين الجهل، وذلك من أعظم المحال.

فهذه حجج الرب تبارك وتعالىٰ علىٰ بطلان ما نسبه إليه أعداؤه والمفترون عليه، فوازن بينها وبين حجج المتكلمين الطويلة العريضة، التي هي كالضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع. فإذا وازنت بينهما ظهرت لك المفاضلة إن كنت بصيرًا، ومن كان في هذه أعمىٰ فهو في الآخرة أعمىٰ وأضل سبيلًا.

فالحمد لله الذي أغنىٰ عباده المؤمنين بكتابه وما أودعه من حججه وبيانه عن

شقاشق المتكلمين[١]، وهذيانات المتهوكين[٢]، فلقد عظمت نعمة الله تعالىٰ علىٰ عبد أغناه بفهم كتابه عن الفقر إلىٰ غيره ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

***

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

[٣]لا خلاف بين أهل اللغة أن الذرية يقال على الأولاد الصغار، وعلى الكبار أيضًا، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤]، وقال: ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٧]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٢، ٣].
وهل تقال الذرية على الآباء؟ فيه قولان: أحدهما أنهم يسمون ذرية أيضًا.

واحتجوا على ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [يس: ٤١]. وأنكر ذلك جماعة من أهل اللغة، وقالوا: لا يجوز هذا في اللغة، والذرية

---

(١) فعن عمر ﷺ قال: الشقاشق في الكلام من شقاشق الشيطان، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٣٠٠ رقم ٢٦٢٩٥) وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ١٥٢) قال ابن الجوزي في غريب الحديث (١/ ٥٥٥): قال الأزهري: شبه الذي يتفيهق في كلامه، ولا يبالي ما قال من صدق أو كذب بالشيطان، وانظر: لسان العرب (١٠/ ١٨٥).

(٢) قال ابن الأثير رحمه الله في النهاية (٥/ ٢٨١): التهوك: كالتهور وهو الوقوع في الأمر بغير روية، المتهوك: الذي يقع في كل أمر، وقيل: هو التحير. وانظر: لسان العرب (١٠/ ٥٠٨-٥٠٩).

(٣) ١٥٠ جلاء الأفهام.

كالنسل، والعقب لا يكون إلا للعمود الأسفل، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ [الأنعام: ٨٧]، فذكر جهات النسب الثلاث من فوق، ومن أسفل، ومن الأطراف. قالوا: وأما الآية التي استشهدتم بها فلا دليل لكم فيها، لأن الذرية فيها لم تضف إليهم بوجه ما، والإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص، وإذا كان الشاعر قد أضاف الكوكب في قوله:

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحره … سهيل أذاعت غزلها في القرائب[1]

فأضاف إليها الكوكب؛ لأنها كانت تغزل إذا لاح وظهر، والاسم قد يضاف بوجهين مختلفين إلى شيئين، وجهة إضافته إلى أحدهما غير جهة إضافته إلى الآخر. قال أبو طالب في النبي ﷺ:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب … لدينا ولا يُعْنَى بقول الأباطل[2]

فأضاف بنوته بجهة غير جهة إضافته إلى أبيه عبد الله.

وهكذا لفظة رسول الله، فإن الله سبحانه يضيفه إليه تارة كقوله: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ [المائدة: ١٥]، وتارة إلى المرسل إليهم كقوله: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، فإضافته سبحانه إليه إضافة رسول إلى مرسله، وإضافته إليهم إضافة رسول إلى مرسل إليهم.

وكذا لفظ «كتابه» فإنه يضاف إليه تارة، فيقال كتاب الله، ويضاف إلى العباد تارة فيقال: كتابنا القرآن، وكتابنا خير الكتب، وهذا كثير، فهكذا لفظ الذرية أضيف إليهم بجهة غير الجهة التي أضيف بها إلى آبائهم.

---

(١) ذكره ابن منظور في اللسان (١/ ٦٣٩) ويريد أن المرأة الخرقاء لا تشتغل بالغزل في الصيف، بل تتمادى على التسويف والتفريط حتى إذا طلع سهيل، وذلك حين يقبل البرد ويأتي الشتاء، قامت هذه المرأة إلى قرائبها ليعنها، وجعلت تفرق عليهن غزلها. فسُمِّي سهيلًا بكوكب الخرقاء لهذه المناسبة.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٣٤٦).

وقالت طائفة: بل المراد جنس بني آدم، ولم يقصد الإضافة إلى الموجود في زمن النبي ﷺ، وإنما أريد ذرية الجنس. وقالت طائفة: بل المراد بالذرية نفسها، وهذا أبلغ في قدرته وتعديد نعمه عليهم، أن حمل ذريتهم في الفلك في أصلاب آبائهم، والمعنى: أنا حملنا الذين هم ذرية هؤلاء وهم نطف في أصلاب الآباء، وقد أشبعنا الكلام على ذلك في كتاب الروح والنفس. إذا ثبت هذا فالذرية: الأولاد، وأولادهم. وهل يدخل فيها أولاد البنات؟ فيه قولان للعلماء، هما روايتان عن أحمد:

أحدهما: يدخلون، وهو مذهب الشافعي.

والثاني: لا يدخلون، وهو مذهب أبي حنيفة رحمهم الله تعالى.

واحتج من قال بدخولهم: بأن المسلمين مجمعون على دخول أولاد فاطمة رضي الله عنها في ذرية النبي ﷺ، المطلوب لهم من الله الصلاة؛ لأن أحدًا من بناته لم يعقب غيرها، فمن انتسب إليه ﷺ من أولاد ابنته، فإنما هو من جهة فاطمة رضي الله عنها خاصة، ولهذا قال النبي ﷺ في الحسن ابن ابنته: «إن ابني هذا سيد»[(١)] فسماه ابنه. ولما أنزل الله سبحانه آية المباهلة ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦١] الآية. دعا النبي ﷺ فاطمة رضي الله عنها، وحسنًا ﷺ وحسيناً ﷺ وخرج للمباهلة[(٢)].

قالوا: وأيضًا فقد قال تعالى في حق إبراهيم: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ﴾ [الأنعام: ٨٤، ٨٥] ومعلوم أن عيسى لم ينتسب إلى إبراهيم إلا من جهة أمه مريم.

وأما من قال بعدم دخولهم: فحجته أن ولد البنات إنما ينتسبون إلى آبائهم حقيقة، ولهذا إذا ولَّد الهذلي أو التيمي أو العدوي هاشميةً لم يكن ولدها هاشميًّا، فإن الولد في

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٤٠٤) وانظر: تفسير الصنعاني (١/ ١٢٢) وتفسير الطبري (٣/ ٢٩٨-٣٠١) والدر المنثور (٢/ ٢٣١-٢٣٣) وتفسير ابن كثير (١/ ٣٧٢) وفتح الباري (٨/ ٩٤).

النسب يتبع أباه، وفي الحرية والرق أمه، وفي الدين خيرهما دينًا[1]؛ ولهذا قال الشاعر:

بنونـــا بنـــو أبـــــنائنا وبناتـــــنا   بنـــوهن أبنـــاء الرجـــال الأباعـــد[2]

ولو وصى أو وقف على قبيلة لم يدخل فيها أولاد بناتها من غيرها.

قالوا: وأما دخول فاطمة رضي الله عنها في ذرية النبي ﷺ، فلشرف هذا الأصل العظيم والوالد الكريم، الذي لا يدانيه أحد من العالمين، سرى ونفذ إلى أولاد البنات لقوته وجلالته وعظم قدره، ونحن نرى من لا نسبة له إلى هذا الجناب العظيم من العظماء والملوك وغيرهم تسري حرمة إيلادهم وأبوتهم إلى أولاد بناتهم، فتلحظهم العيون بلحظ أبنائهم، ويكادون يضربون عن ذكر آبائهم صفحًا، فما الظن بهذا الإيلاد العظيم قدره الجليل خطره؟

قالوا: وأما تمسككم بدخول المسيح في ذرية إبراهيم فلا حجة لكم فيه، فإن المسيح لم يكن له أب، فنسبه من جهة الأب مستحيل، فقامت أمه مقام أبيه.

وهكذا كل من انقطع نسبه من جهة الأب: إما بلعان، أو غيره، قامت أمه في النسب مقام أبيه، ولهذا تكون في هذه الحال عصبته في أصح الأقوال، وهو إحدى الروايات عن الإمام أحمد رحمه الله، وهو مقتضى النصوص، وقول ابن مسعود وغيره، والقياس يشهد له بالصحة، لأن النسب في الأصل للأب، فإذا انقطع من جهته عاد إلى الأم، فلو قدر عوده من جهة الأب رجع من الأم إليه، وهكذا.

كما اتفق الناس عليه في الولاء أنه لموالي الأب، فإن تعذر رجوعه إليهم صار لموالي الأم، فإن أمكن عوده إليهم رجع من موالي الأم إلى معدنه وقراره.

ومعلوم أن الولاء فرع على النسب يُحتذى فيه حذوه، فإذا كان عصبات الأم من

---

(١) انظر: عمدة القاري (٨/ ١٦٨) وفيض القدير (٤/ ١١١) والمغني (٩/ ٢٦، ٢٥١).

(٢) ذكره ابن عبد البر في الاستذكار (٥/ ٣٢٥) وابن حجر في فتح الباري (١٢/ ٤٩) والعيني في عمدة القاري (١٦/ ١٥٦) والمناوي في فيض القدير (١/ ٨٨) وابن قدامة في المغني (٥/ ٣٥٩) (٦/ ١٦٥) وابن قتيبة في غريب الحديث (١/ ٢٣٠) كلهم ذكروه بلفظ المصنف بينما ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٥٦) بلفظ: «الأجانب» بدل «الأباعد».

الولاء، عصبات لهذا المولى الذي انقطع تعصيبه من جهة موالي أبيه؛ فلأن تكون عصبات الأم من النسب، عصبات لهذا الولد الذي انقطع تعصيبه من جهة أبيه بطريق الأولى، وإلا فكيف يثبت هذا الحكم في الولاء، ولا يثبت في النسب الذي غايته أن يكون شبيهًا به ومفرعًا عليه، وهذا مما يدل على أن القياس الصحيح لا يفارق النص أصلًا، ويدلك على عمق علم الصحابة ﵃، وبلوغهم في العلم إلى غاية يقصر عن نيلها السباق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم(١).

(٢)وتأمل كيف جاء في القرآن: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٣] ولم يذكر إسماعيل، وجاء في التوراة ذكر البركة على إسماعيل ولم يذكر إسحاق، كما تقدم حكايته، وعن إسماعيل: «سمعتك هانا باركته» فجاء في التوراة ذكر البركة في إسماعيل إيذانًا بما حصل لبنيه من الخير والبركة، لاسيما خاتمة بركتهم وأعظمها وأجلها برسول الله ﷺ، فنبههم بذلك على ما يكون في بنيه من هذه البركة العظيمة الموافية على لسان المبارك ﷺ، وذكر لنا في القرآن بركته على إسحاق منبهًا لنا على ما حصل في أولاده من نبوة موسى وغيره، وما أوتوه من الكتاب والعلم مستدعيًا من عباده الإيمان بذلك والتصديق به، وأن لا يهملوا معرفة حقوق هذا البيت المبارك وأهل النبوة منهم، ولا يقول القائل: هؤلاء أنبياء بني إسرائيل لا تعلق لنا بهم؛ بل يجب علينا احترامهم وتوقيرهم والإيمان بهم ومحبتهم وموالاتهم والثناء عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولما كانت هذا البيت المبارك المطهر أشرف بيوت العالم على الإطلاق، خصهم الله سبحانه منه بخصائص:

منها: أنه جعل فيه النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من أهل بيته.

---

(١) سيأتي ذكر خليل الله إبراهيم في سورة الصافات وذكر فضائله وأهل بيته بأوسع من هذا إن شاء الله فراجعه (ج).

(٢) ١٨١ جلاء الأفهام.

ومنها: أنه سبحانه جعلهم أئمة يهدون بأمره إلى يوم القيامة، فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم، فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم.

ومنها: أنه سبحانه اتخذ منهم الخليلين: إبراهيم، ومحمدًا ﷺ، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال النبي ﷺ: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»(١) وهذا من خواص هذا البيت.

ومنها: أنه سبحانه جعل صاحب هذا البيت إمامًا للعالمين كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ومنها: أنه أجرى على يديه بناء بيته، الذي جعله قيامًا للناس وقبله لهم وحجًّا، فكان ظهور هذا البيت من أهل هذا البيت الأكرمين.

ومنها: أنه أمر عباده بأن يصلوا على أهل هذا البيت، كما صلى على أهل بيتهم وسلفهم وهم إبراهيم وآله، وهذه خاصية لهم.

ومنها: أنه أخرج منهم الأمتين المعظمتين التي لم تخرج من أهل بيت غيرهم. وهم: أمة موسى وأمة محمد. وأمة محمد ﷺ تمام سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله(٢).

ومنها: أن الله سبحانه أبقى عليهم لسان صدق وثناء حسنًا في العالم، فلا يذكرون إلا بالثناء عليهم والصلاة والسلام عليهم، قال الله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ ﴾ [الصافات].

ومنها: جعل أهل هذا البيت فرقانًا بين الناس، فالسعداء أتباعهم ومحبوهم ومن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٣) وعمدة القاري (١٥/ ٢٤٠) (١٦/ ١٧٧).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٩ رقم ١١٤٣١) والترمذي (رقم ٣٠٠١) والدارمي (رقم ٢٧٦٠) وابن ماجه (رقم ٤٢٨٨) والحاكم (٤/ ٩٤ رقم ٦٩٨٧) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٥/ رقم ١٧٤٩٥) والطبراني في الأوسط (٢/ ١١١ رقم ١٤١٥) (٦/ ٢٧٥-٢٧٦ رقم ٦٤٠٢) وفي الكبير (١٩/ ٤١٩ رقم ١٠١٢) وابن المبارك في المسند (رقم ١٠٦) وأحمد (٣/ ٦١) وعبد بن حميد (رقم ٤٠٩) والحديث حسنه الترمذي وصحَّحه الحاكم وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٢٢٥) وهو حديث صحيح.

تولاهم. والأشقياء من أبغضهم وأعرض عنهم وعاداهم. فالجنة لهم ولأتباعهم. والنار لأعدائهم ومخالفيهم.

ومنها: أنه سبحانه جعل ذكرهم مقرونًا بذكره، فيقال: إبراهيم خليل الله ورسوله ونبيه، ومحمد رسول الله وخليله ونبيه، وموسى كليم الله ورسوله. قال تعالى لنبيه يذكره بنعمته عليه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي[1] فيقال: «**لا إله إلا الله، محمد رسول الله**» في كلمة الإسلام، وفي الأذان، وفي الخطب، وفي التشهدات، وغير ذلك.

ومنها: أنه سبحانه جعل خلاص خلقه من شقاء الدنيا والآخرة على أيدي أهل هذا البيت، فلهم على الناس من النعم ما لا يمكن إحصاؤها ولا جزاؤها، ولهم المنن الجسام في رقاب الأولين والآخرين من أهل السعادة، والأيدي العظام عندهم التي يجازيهم الله ﷻ عليها.

ومنها: أن كل نفع وعمل صالح وطاعة لله تعالى حصلت في العالم فلهم من الأجر مثل أجور عامليها، فسبحان من يختص بفضله من يشاء من عباده.

ومنها: أن الله ﷻ سدَّ جميع الطرق بينه وبين العالمين، وأغلق دونهم الأبواب، فلم يفتح لأحد قط من طريقهم وبابهم.

وقال الجنيد رحمه الله: يقول الله ﷻ لرسوله: «**وعزتي وجلالي لو أتوني من كل طريق أو استفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك**».

ومنها: أنه سبحانه خصهم من العلم بما لم يخص به أهل بيت سواهم من العالمين، فلم يطرق العالم أهل بيت أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه وأفعاله وثوابه وعقابه

---

(١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتاني جبريل، فقال: إن ربي وربك يقول لك: كيف رفعت ذكرك؟ قال: الله أعلم. قال: إذا ذكرتُ ذكرت معي**» أخرجه ابن حبان في صحيحه (٨/ ١٧٥ رقم ٣٣٨٢) وفي موارد الظمآن (رقم ١٧٧٢) وأبو يعلى (٢/ ٥٢٢ رقم ١٣٨٠) ونقل الحافظ ابن حجر تصحيح ابن حبان في فتح الباري (٨/ ٧١٢).

وشرعه، ومواقع رضاه وغضبه وملائكته ومخلوقاته منهم، فسبحان من جمع لهم علم الأولين والآخرين.

ومنها: أنه سبحانه خصهم من توحيده ومحبته وقربه والاختصاص به بما لم يخص به أهل بيت سواهم.

ومنها: أنه سبحانه مكّن لهم في الأرض واستخلفهم فيها، وأطاع لهم أهل الأرض ما لم يحصل لغيرهم.

ومنها: أنه سبحانه أيدهم ونصرهم وأظفرهم بأعدائه وأعدائهم بما لم يؤيد غيرهم.

ومنها: أنه سبحانه محا بهم من آثار أهل الضلال والشرك ومن الآثار التي يبغضها ويمقتها ما لم يمحه بسواهم.

ومنها: أنه سبحانه غرس لهم من المحبة والإجلال والتعظيم في قلوب العالمين، ما لم يغرسه لغيرهم.

ومنها: أنه سبحانه جعل آثارهم في الأرض سببًا لبقاء العالم وحفظه، فلا يزال العالم باقيًا ما بقيت آثارهم، فإذا ذهبت آثارهم من الأرض فذاك أوان خراب العالم، قال الله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ﴾ [المائدة: ٩٧]. قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: «لو ترك الناس كلهم الحج لوقعت السماء على الأرض»(١). وقال: «لو ترك الناس كلهم الحج لما نظروا»(٢).

وأخبر النبي ﷺ، أن في آخر الزمان يرفع الله بيته من الأرض، وكلامه من المصاحف، وصدور الرجال(٣)، فلا يبقى له في الأرض بيت يُحج، ولا كلام يُتلى،

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٦٩).

(٢) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (١/ ٣٨٣-٣٨٤ رقم ٨١١) وفيه: لو ترك الناس الحج عامًا واحدًا ما نوظروا، وذكره الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/ ٢٠٧) عن ابن عمر، وقال: غريب، بينما ذكر عن ابن عباس قوله: لو ترك الناس زيارة هذا البيت عامًا واحدًا ما مطروا.

(٣) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة (١/ ٣٤٣) عن عمرو بن العاص قال: إن الله تعالى يرفع القرآن من صدور الرجال والحجر الأسود قبل يوم القيامة، وانظر: الدر المنثور (١/ ٣٢٥).

فحينئذ يقرب خراب العالم.

وهكذا الناس اليوم إنما قيامهم بقيام آثار نبيهم وشرائعه بينهم، وقيام أمورهم زحصول مصالحهم واندفاع أنواع البلاء والشر عنهم؛ بحسب ظهورها بينهم وقيامها، وهلاكهم وعنتهم وحلول البلاء والشر بهم عند تعطلها والإعراض عنها والتحاكم إلى غيرها واتخاذ سواها.

ومن تأمل تسليط الله سبحانه على من سلطه على البلاد والعباد من الأعداء؛ علم أن ذلك بسبب تعطيلهم لدين نبيهم وسننه وشرائعه؛ فسلط الله عليهم من أهلكهم وانتقم منهم، حتى إن البلاد التي لآثار النبي ﷺ، وسننه وشرائعه فيها ظهور، دفع عنها بحسب ظهور ذلك بينهم.

وهذه الخصائص وأضعاف أضعافها من آثار رحمة الله وبركاته على أهل هذا البيت، فلهذا أمرنا رسول الله ﷺ أن نطلب له من الله تعالى أن يبارك عليه وعلى آله، كما بارك على هذا البيت المعظم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن بركات أهل هذا البيت أنه سبحانه أظهر على أيديهم من بركات الدنيا والآخرة، ما لم يظهره على يدي أهل بيت غيرهم. ومن بركاتهم وخصائصهم أن الله سبحانه أعطاهم من خصائصهم، ما لم يعط غيرهم.

فمنهم: من اتخذه خليلًا، ومنهم الذبيح، ومنهم من كلمه تكليمًا، وقربه نجيًّا. ومنهم: من أتاه شطر الحسن وجعله من أكرم الناس عليه. ومنهم: من آتاه ملكًا لم يؤته أحدًا غيره، ومنهم من رفعه مكانًا عليًّا.

ولما ذكر ﷻ هذا البيت وذريته أخبر أن كلهم فضله على العالمين.

ومن خصائصهم وبركاتهم على أهل الأرض، أن الله سبحانه رفع العذاب العام عن أهل الأرض بهم وببعثتهم، وكانت عادته سبحانه في أمم الأنبياء قبلهم أنهم إذا كذبوا أنبياءهم ورسلهم أهلكهم بعذاب يعمهم، كما فعل بقوم نوح وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط؛ فلما أنزل الله التوراة والإنجيل والقرآن، رفع بها العذاب العام عن

أهل الأرض، وأمر بجهاد من كذبهم وخالفهم، فكان ذلك نصرة لهم بأيديهم، وشفاء لصدورهم، واتخاذ الشهداء منهم وإهلاك عدوهم بأيديهم لتحصيل محابه سبحانه على أيديهم.

وحق لأهل بيت هذا بعض فضائلهم وخصائصهم؛ أن لا تزال الألسن رطبة بالصلاة عليهم والسلام والثناء والتعظيم، والقلوب ممتلئة من تعظيمهم ومحبتهم وإجلالهم، وأن يعرف المصلي عليهم أنه لو أنفق أنفاسه كلها في الصلاة عليهم ما وفى القليل من حقهم، فجزاهم الله عن بريته أفضل الجزاء، وزادهم في الملأ الأعلى تعظيمًا وتشريفًا وتكريمًا، وصلى عليهم صلاة دائمة لا انقطاع لها وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

***

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

[(١)] قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾ فأجيبوا عن هذه الدعوة بقوله: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥]. وهذا

---

(١) ١٥٥ بدائع جـ٤.

الجواب مع اختصاره قد تضمن المنع والمعارضة:

أما المنع فما تضمنه حرف (بل) من الإضراب، أي: ليس الأمر كما قالوا: وأما المعارضة ففي قوله: ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ أي: يتبع أو يتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا. وفي ضمن هذه المعارضة إقامة الحجة على أنها أولى بالصواب، مما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية؛ لأنه وصف صاحب الملة بأنه حنيف غير مشرك، ومن كانت ملته الحنيفية والتوحيد، فهو أولى بأن يتبع ممن ملته اليهودية والنصرانية، فإن الحنيفية والتوحيد هي دين جميع الأنبياء الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه، وهو الفطرة التي فطر الله عليها عباده، فمن كان عليها فهو المهتدي، لا من كان يهوديًّا أو نصرانيًّا.

فإن الحنيفية تتضمن الإقبال على الله بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبة والذل.

والتوحيد يتضمن إفراده بهذا الإقبال دون غيره؛ فيُعبد وحده، ويُحب وحده، ويُطاع وحده، ولا يجعل معه إلهًا آخر، فمن أولى بالهداية صاحب هذه الملة أو ملة اليهودية والنصرانية؟ ولا يبقى بعد هذا للخصوم إلا سؤال واحد، وهو أن يقولوا: فنحن على ملته أيضًا لم نخرج عنها وإبراهيم وبنوه كانوا هودًا أو نصارى.

فأجيبوا عن هذا السؤال بأنهم كاذبون فيه، وأن الله تعالى قد علم أنه لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، فقال تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١٤٠] الآية. وقرر تعالى هذا الجواب في سورة آل عمران بقوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا... ﴾ إلى قوله: ﴿... وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

فإن قالوا: فهب أن إبراهيم لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، فنحن على ملته وإن انتحلنا هذا الاسم.

فأجيبوا عن هذا بقوله تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ... ﴾ إلى قوله: ﴿... وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦] فهذه للمؤمنين. ثم قال: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ

ٱهْتَدَواْ﴾ [البقرة: ١٣٧] وإن أتوا من الإيمان بمثل ما أتيتم به، فهم على ملة إبراهيم وهم مهتدون، وإن لم يأتوا بإيمان مثل إيمانكم فليسوا من إبراهيم وملته في شيء، وإنما هم في شقاق وعداوة، فإن ملة إبراهيم الإيمان بالله وكتبه ورسله، وأن لا يفرق بين أحد منهم، فيؤمن ببعضهم، ويكفر ببعضهم، فمن لم يأت بمثل هذا الإيمان فهو بريء من ملة إبراهيم، مشاق لمن هو على ملته.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠] أي: الله تعالى يعلم ما كان عليه إبراهيم والنبيون من الملل، وأنهم لم يكونوا يهودًا ولا نصارى، فالله تعالى يعلم ذلك فلو كانوا يهودًا أو نصارى والله تعالى لا يعلم ذلك لكنتم أعلم من الله بهم، هذا مع أن عندكم شهادة وبينة من الله تعالى بما كان عليه إبراهيم، وبأن هذا النبي على ملته، ولكنكم كتمتم هذه الشهادة عن أتباعكم؛ فلم تؤدوها إليهم مع تحققكم لها، ولا أظلم ممن كتم شهادة استشهده الله بها فهي عنده من الله؛ إلا أنه كتمها من الله، فالمجرور متعلق بما تضمنه الظرف الذي هو عنده من الكون والحصول.

[(١)]قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ وليس له مثل والجواب من أوجه:

الأول: أن المراد به التبكيت والمعنى: حصلوا دينًا آخر مثله وهو لا يمكن.

الثاني: أن المثل صلة.

الثالث: أنكم آمنتم بالفرقان من غير تصحيف ولا تحريف، فإن آمنوا بالتوراة من غر تصحيف ولا تحريف فقد اهتدوا.

الرابع: أن المراد: إن آمنوا بمثل ما صرتم به مؤمنين، روى ابن جرير أن ابن عباس قال: قولوا فإن آمنوا بالذي آمنتم به[(٢)]، قال عبد الجبار: ولا يجوز ترك القراءة المتواترة.

---

(١) ٢٠٨ بدائع الفوائد.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٥٦٩) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٩٣١) والخطيب البغدادي في تاريخه (٧/ ٢٩١) وانظر: الدر المنثور (١/ ٣٣٩) وفتح الباري (١٣/ ٣٥٦).

[(١)]الختان من محاسن الشرائع التي شرعها الله سبحانه لعباده، وكمَّل بها محاسنهم الظاهرة والباطنة، فهو مكمل الفطرة التي فطرهم عليها، ولهذا كان من تمام الحنيفية ملة إبراهيم، وأصل مشروعية الختان لتكميل الحنيفية، فإن الله ﷻ لما عاهد إبراهيم ووعد أن يجعله للناس إمامًا، وعده أن يكون أبًا لشعوب كثيرة، وأن تكون الأنبياء والملوك من صلبه، وأن يكثر نسله، وأخبره أنه جاعل بينه وبين نسله علامة العهد أن يختتنوا كل مولود منهم، ويكون عهدي هذا ميسمًا في أجسادهم، فالختان علم للدخول في ملة إبراهيم، وهذا موافق لتأويل من تأول قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨] على الختان.

فالختان للحنفاء بمنزلة الصبغ والتعميد لعباد الصليب، فهم يطهرون أولادهم بزعمهم حين يصبغونهم في ماء المعمودية، ويقولون: الآن صار نصرانيًّا، فشرع الله سبحانه للحنفاء صبغة الحنيفية، وجعل ميسمها الختان، فقال: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾[(٢)].

وقد جعل الله سبحانه السمات علامات لمن يضاف إليه المعلم بها، ولهذا الناس يسمون دوابهم ومواشيهم بأنواع السمات، حتى ما يكون مضاف منها إلى كل إنسان معروفًا بسمته، ثم قد تكون هذه السمة متوارثة في أمة بعد أمة.

فجعل الله سبحانه الختان علمًا لمن يضاف إليه وإلى دينه وملته، وينسب إليه بنسبة العبودية والحنيفية، حتى إذا جهلت حال إنسان في دينه عرف بسمة الختان ودينه، وكانت العرب تدعى بأمة الختان.

ولهذا في حديث هرقل: إني أجد ملك الختان قد ظهر، فقال له أصحابه: لا يهمنك هذا، فإنما تختتن اليهود فاقتلهم، فبينما هم على ذلك، وإذا برسول رسول الله ﷺ قد

(١) ١٠٩ تحفة المودود.

(٢) انظر: تفسير الصنعاني (١/ ٦٠) وتفسير الطبري (١/ ٥٦٥-٥٦٦) وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٩٢ رقم ١٠٦٢٣) (١٠/ ٣٤٥٤ رقم ١٩٤٢٩).

جاء بكتابه، فأمر به أن يكشف وينظر هل هو مختون؟ فوجد مختونًا، فلما أخبره أن العرب تختتن، قال هذا ملك هذه الأمة[(١)].

ولما كانت وقعة أجنادين بين المسلمين والروم جعل هشام بن العاص يقول: يا معشر المسلمين! إن هؤلاء القلف لا صبر لهم على السيف[(٢)]، فذكرهم بشعار عباد الصليب ودينهم، وجعله مما يوجب إقدام الحنفاء عليهم وتطهر الأرض منهم. والمقصود: أن صبغة الله هي الحنيفية التي صبغت القلوب بمعرفته ومحبته والإخلاص له وعبادته وحده لا شريك له.

وصبغة الأبدان بخصال الفطرة: من الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الآباط والمضمضة والاستنشاق والسواك والاستنجاء، فظهرت فطرة الله على قلوب الحنفاء وأبدانهم.

قال محمد بن جرير في قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ يعني بالصبغة: صبغة الإسلام، وذلك أن النصارى إذا أرادت أن تنصِّر أطفالها جعلتهم في مبالهم، وتزعم أن ذلك مما يقدس بمنزلة الختان لأهل الإسلام، وأنه صبغة لهم في النصرانية، فقال الله جل ثناؤه لنبيه ﷺ، لما قال اليهود والنصارى: ﴿ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ...﴾ إلى قوله: ﴿... صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾[(٣)] [البقرة: ١٣٥-١٣٨].

قال قتادة: إن اليهود تصبغ أبناءها يهودًا، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى، وإن صبغة الله: الإسلام، فلا صبغة أحسن من الإسلام ولا أطهر[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٢) وعمدة القاري (١/ ٧٨، ٨٩) والتمهيد (٢١/ ٦٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٦٨ رقم ٥٠٥٢) وابن سعد في الطبقات الكبرى (٤/ ١٩٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/ ٥٧٠) وفيه: «بمنزلة غسل الجنابة لأهل الإسلام» بدل: «بمنزلة الختان لأهل الإسلام».

(٤) انظر: تفسير الطبري (١/ ٥٧٠).

وقال مجاهد: صبغة الله: فطرة الله، وقال غيره: دين الله(١).

هذا مع ما في الختان من الطهارة والنظافة والتزيين وتحسين الخلقة وتعديل الشهوة، التي إذا أفرطت ألحقت الإنسان بالحيوانات، وإن عدمت بالكلية ألحقته بالجمادات، فالختان يعدلها. ولهذا تجد الأقلف من الرجال والقلفاء من النساء لا يشبع من الجماع.

ولهذا يذم الرجل ويشتم ويعير بأنه ابن القلفاء - إشارة إلى غلمتها - وأي زينة أحسن من أخذ ما طال وجاوز الحد: من جلدة القلفة، وشعر العانة، وشعر الإبط، وشعر الشارب، وما طال من الظفر؛ فإن الشيطان يختبئ تحت ذلك كله ويألفه ويقطن فيه، حتى إنه ينفخ في إحليل الأقلف وفرج القلفاء ما لا ينفخ في المختون، ويختبئ في شعر العانة وتحت الأظفار، فالغرلة أقبح في موضعها من الظفر الطويل، والشارب الطويل والعانة الفاحشة الطول، ولا يخفى على ذي الحس السليم قبح الغرلة، وما في إزالتها من التحسين والتنظيف والتزيين، ولهذا لما ابتلى الله خليله إبراهيم بإزالة هذه الأمور فأتمهن جعله إمامًا للناس، هذا مع ما فيه من بهاء الوجه وضيائه، وفي تركه من الكسفة التي تُرى عليه.

وإنما كانت هذه الخصال من الفطرة؛ لأن الفطرة، هي الحنيفية ملة إبراهيم، وهذه الخصال أمر بها إبراهيم، وهي من الكلمات التي ابتلاه ربه بهن، كما ذكر عبد الرزاق عن معمر، عن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: «ابتلاه بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد، التي في الرأس: ١- قص الشارب. ٢- والمضمضة. ٣- والاستنشاق. ٤- والسواك. ٥- وفرق الرأس. وفي الجسد: ١- تقليم الأظفار. ٢- وحلق العانة. ٣- والختان. ٤- ونتف الإبط. ٥- وغسل أثر الغائط والبول بالماء»(٢).

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٥٧١) القاموس المحيط (ص ١٠١٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٩٣ رقم ٣٠٥٥) والبيهقي في الكبرى (١/ ١٤٩ رقم ٦٦٨) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٦٦) وتفسير الصنعاني (١/ ٥٧) وتفسير الطبري (١/ ٥٢٤) والتمهيد (٢١/ ٦٧) وصححه الحاكم. وصححه أيضًا الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٣٣٧).

والفطرة فطرتان: فطرة تتعلق بالقلب، وهي معرفة الله ومحبته وإيثاره على ما سواه، وفطرة عملية، وهي هذه الخصال، فالأولى تزكي الروح وتطهر القلب، والثانية: تطهر البدن، وكل منهما تمد الأخرى وتقويها، وكان رأس فطرة البدن: الختان.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من الفطرة ـ أو الفطرة ـ ١- المضمضة، ٢- والاستنشاق، ٣- وقص الشارب، ٤- والسواك، ٥- وتقليم الأظفار، ٦- وغسل البراجم، ٧- ونتف الإبط، ٨- والاستحداد، ٩- والاختتان، ١٠- والانتقاص»، [نسخة: الانتضاح][(١)] وقد اشتركت خصال الفطرة في الطهارة والنظافة وأخذ الفضلات المستقذرة، التي يألفها الشيطان ويجاورها من بني آدم، وله بالغرلة اتصال واختصاص.

وقال غير واحد من السلف: من صلى وحج واختتن فهو حنيف، فالحج والختان: شعار الحنيفة، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، قال الراعي: يخاطب أبا بكر ﷺ:

أخليفة الرحمن إنَّا معشر ... حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عربًا نرى لله في أموالنا ... حق الزكاة مُنزَّلًا تنزيلا[(٢)]

***

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤) وأبو داود (رقم ٥٤) وابن ماجه (رقم ٢٩٤) والبيهقي في الكبرى (١/ ٥٣ رقم ٢٤٥) وابن أبي شيبة (١/ ١٧٨ رقم ٢٠٤٨) وأبو يعلى (٣/ ١٩٧ رقم ١٦٢٧) والطيالسي (رقم ٦٤١) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢٣ رقم ٢٧٦١) قال العيني في عمدة القاري (٢٢/ ٤٥): وقال البخاري: هذا حديث منقطع، لأن في سنده سلمة بن محمد بن عمار بن ياسر يروي عن جده، وهو لم ير جده عمارًا، ولا يعرف له سماع منه، وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٣١) وشرح سنن النسائي للسيوطي (٨/ ١٢٧) وعون المعبود (١/ ٥٥).

(٢) هذان البيتان من بحر الكامل، وينسبان إلى الراعي النميري: عبيد بن حصين من فحول الشعراء المحدثين، وكان من جلة قومه، عاصر جريرًا والفرزدق، وكان يفضل الفرزدق فهجاه جرير هجاءً مرًّا. مات سنة ٩٠هـ وذكر البيتين ابن عبد البر في الاستذكار (٣/ ١٠٤).

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

(١) قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ إلى قوله: ﴿ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢] هذا سؤال من السفهاء أوردوه على المؤمنين. ومضمونه: أن القبلة الأولى إن كانت حقًّا فقد تركتم الحق، وإن كانت باطلًا فقد كنتم على باطل، ولفظ الآية وإن لم يدل على هذا، فالسفهاء المجادلون في القبلة قالوه. فأجاب الله تعالى عنه بجواب شافٍ، بعد أن ذكر قبله مقدمات تقرره وتوضحه.

والسؤال من جهة الكفار أوردوه على صور متعددة ترجع إلى شيء واحد فقالوا ما تقدم. وقالوا: لو كان نبيًّا ما ترك قبلة الأنبياء قبله. وقالوا: لو كان نبيًّا ما كان يفعل اليوم شيئًا وغدًا خلافه. قال المشركون: قد رجع إلى قبلتكم، فيوشك أن يرجع إلى دينكم. وقال أهل الكتاب: ولو كان نبيًّا ما فارق قبلة الأنبياء، وكثر الكلام وعظمت المحنة على بعض الناس كما قال تعالى. ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وتأمل حكمة العزيز الحكيم ولطفه وإرشاده في هذه القصة؛ لما علم أن هذا التحويل أمر كبير كيف وطّأه ومهّده وذلله بقواعد قبله، فذكر النسخ وأنه إذا نسخ شيئًا أتى بمثله أو خير منه، وأنه قادر على ذلك فلا يعجزه، ثم قرر التسليم للرسول، وأنه لا ينبغي أن يعترض عليه ويسأل تعنتًا، كما جرى لموسى مع قومه.

---

(١) ١٥٧ بدائع جـ٤.

ثم ذكر البيت الحرام وتعظيمه وحرمته، وذكر بانيه وأثنى عليه، وأوجب اتباع ملته، فقرر في النفوس بذلك توجهها إلى البيت بالتعظيم والإجلال والمحبة، وإلى بانيه بالاتباع والموالاة والموافقة.

وأخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرًا، فالقلوب عاكفة على محبته دائمة الاشتياق إليه، متوجهة إليه حيث كانت. ثم أخبر أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلين، وأضافه إليه بقوله: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وهذه الإضافة هي التي أسكنت في القلوب من محبته والشوق إليه ما أسكنت.

وهي التي أقبلت بأفئدة العالم إليه، فلما استقرت هذه الأمور في قلوب أهل الإيمان وذُكِّروا بها؛ فكأنها نادتهم أن استقبلوه في الصلاة، ولكن توقفت على ورود الأمر من رب البيت، فلما برز مرسوم ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٤٤] تلقاه رسول الله ﷺ والراسخون في الإيمان بالبشرى والقبول وكان عيدًا عندهم؛ لأن رسول الله ﷺ، كان كثيرًا ما يقلب وجهه في السماء، ينتظر أن يحوله الله عن قبلة أهل الكتاب، فولَّاه الله القبلة التي يرضاها، وتلقى ذلك الكفار بالمعارضة، وذكر الشبهات الداحضة، وتلقاه الضعفاء من المؤمنين بالإغماض والمشقة، فذكر تعالى أصناف الناس عند الأمر باستقبال الكعبة، وابتدأ ذلك بالتسلية لرسوله وللمؤمنين عما يقول السفهاء من الناس: فلا تعبؤوا بقولهم، فإنه قول سفيه.

ثم قال: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

فأخبر تعالى أن المشرق والمغرب له وأنه رب ذلك، فأينما تعبَّد له عباده بأمره إلى أي جهة كانت، فهم مطيعون له. كما قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥].

فلم يُصل مستقبل الجهات بأمره إلا له تعالى، فإذا كنتم تصلون إلى غير الكعبة

بأمره ثم أمركم أن تصلوا إليها، فما صليتم إلا له أولًا وآخرًا وكنتم على حق في الاستقبال الأول والآخر، لأن كليهما كان بأمره ورضاه فانتقلتم من رضاه إلى رضاه.

ثم نبّه على فضل الجهة التي أمرهم بالاستقبال إليها ثانيًا، بأنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، كما هداكم للقبلة التي جعلها قبلتكم وشرعها لكم ورضيها، ولكن أمركم باستقبال غيرها أولًا لحكمة في ذلك، وهو أن يعلم سبحانه من يتبع الرسول ويدور معه حيثما دار ويأتمر بأوامره كيف تصرفت، وهو العالم بكل شيء؛ ولكن شاء أن يعلم معلومه الغيبي عيانًا مشاهدًا، فيتميز بذلك الراسخ في الإيمان المسلِّم للرسول المنقاد له، ممن يعبد الله تعالى على حرف، فينقلب على عقبة بأدنى شبهة، فهذا من بعض حكمه في أن جعل القبلة الأولى غير الكعبة، فلم يشرع ذلك سدىً ولا عبثًا.

ثم أخبر سبحانه أنه كما جعل لهم أوسط الجهات قبلة بتعبدهم، فكذلك جعلهم أمة وسطًا، فاختار القبلة الوسط في الجهات للأمة الوسط في الأمم. ثم ذكر أن هذا التفضيل والاختصاص ليستشهدهم على الأمم، فيقبل شهادتهم على الخلائق يوم القيامة.

ثم أجاب تعالى عما سأل عنه المؤمنون: من صلاتهم إلى القبلة الأولى، وصلاة من مات من إخوانهم قبل التحويل، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] وفيه قولان:

أحدهما: ما كان ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يجازيكم عليها، لأنها كانت بأمره ورضاه.

والثاني: ما كان ليضيع إيمانكم بالقبلة الأولى وتصديقكم بأن الله شرعها ورضيها.

وأكثر السلف والخلف على القول الأول، وهو مستلزم للقول الآخر.

ثم ذكر منّته على رسوله واطلاعه على حرصه على تحويله عن قبلته الأولى، فقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤].

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب بأنهم يعلمون أنه الحق من ربهم، ولم يذكر للضمير

مفسرًا غير ما في السياق، وهو الأمر باستقبال المسجد الحرام، وأن أهل الكتاب عندهم من علامات هذا النبي أن يستقبل بيت الله الذي بناه إبراهيم في صلاته. ثم أخبر تعالىٰ عن شدة كفر أهل الكتاب بأنهم لو أتاهم الرسول بكل آية ما تبعوا قبلته، ففي ذلك التسلية له وتركهم وقبلتهم، ثم برأه من قبلتهم فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٤٥].

ثم ذكر اختلافهم في القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع الطائفة الأخرىٰ، لأن القبلة من خواص الدين وأعلامه وشعائره الظاهرة، فأهل كل دين لا يفارقون قبلتهم إلا أن يفارقوا دينهم، فأخبر تعالىٰ في هذه الجمل الثلاث بثلاث إخبارات، تتضمن براءة كل طائفة من قبلة الطائفة الأخرىٰ، وتتضمن الإخبار بأن أهل الكتاب لو رأوا كل آية تدل علىٰ صدق الرسول لما تبعوا قبلته: عنادًا وتقليدًا لآبائهم، وأنهم إن اشتركوا في خلاف القبلة الحق فهم مختلفون في باطلهم، فلا تتبع طائفة قبلة الأخرىٰ، فهم متفقون علىٰ خلاف الحق مختلفون في اختيار الباطل.

وفي هذه الآية أيضًا تثبيت للرسول ﷺ، والمؤمنين علىٰ لزوم قبلتهم، وأنه لا يشتغل بما يقوله أهل الكتاب: ارجعوا إلىٰ قبلتنا فنتبعكم علىٰ دينكم، فإن هذا خداع ومكر منهم؛ فإنهم لو رأوا كل آية تدل علىٰ صدقك ما تبعوا قبلتك؛ لأن الكفر قد تمكن من قلوبهم فلا مطمع للحق فيها، ولست أيضا بتابع قبلتهم فليقطعوا مطامعهم من موافقتك لهم وعودك إلىٰ قبلتهم، وكذلك هم أيضًا مختلفون فيما بينهم، فلا يتبع أحد منهم قبلة الآخر، فهم مختلفون في القبلة، ولستم أيها المؤمنون موافقين لأحد منهم في قبلته، بل أكرمكم الله بقبلة غير قبلة هؤلاء المختلفين، اختارها الله لكم ورضيها.

وأكد تعالىٰ هذا المعنىٰ بقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ [البقرة: ١٤٥].

فهذا كله تثبيت وتحذير من موافقتهم في القبلة وبراءة من قبلتهم، كما هم براء من قبلتك وكما بعضهم بريء من قبلة بعض، فأنتم أيها المؤمنون أولىٰ بالبراءة من قبلتهم

التي أكرمكم الله تعالىٰ بالتحويل عنها.

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]. ثم أخبر تعالىٰ عن اختصاص كل أمة بقبلتهم فقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] وأصح القولين أن المعنىٰ هو متوجه إليها أي: موليها وجهه، فالضمير راجع إلىٰ كل.

وقيل: إلىٰ الله أي: الله موليها إياه وليس بشيء؛ لأن الله لم يولِّ القبلة الباطلة أبدًا، ولا أمر النصارىٰ باستقبال الشرق قط؛ بل هم تولوا هذه القبلة من تلقاء أنفسهم وولوها وجوههم، وقوله: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] مشعر بصحة هذا القول أي: إذا كان أهل الملل قد تولوا الجهات فاستقبوا أنتم الخيرات، وبادروا إلىٰ ما اختاره الله لكم ورضيه وولاكم إياه ولا تتوقفوا فيه، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعًا، يجمعكم من الجهات المختلفة والأقطار المتباينة إلىٰ موقف القيامة، كما تجتمعون من سائر الجهات إلىٰ جهة القبلة التي تؤمونها، فهكذا تجتمعون من سائر أقطار الأرض إلىٰ جهة الموقف الذي يؤمه الخلائق. وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وأخبر أن مرجعهم إليه عند إخباره بتعدد شرائعهم ومناهجهم، كما ذكر ذلك بعينه عند إخباره بتعدد وجهتهم وقبلتهم. فقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨].

وتحت هذا سر بديع يفهمه من يفهمه، وهو أنه عند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبل يكون أقربها إلىٰ الحق ما كان أدل علىٰ الله وأوصل إليه؛ لأن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده، وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم، فمرجعهم إلىٰ رب واحد وإله واحد، فهكذا ينبغي أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلهم إليه وحده في الدنيا، فلا يعبدون غيره، ولا يدينون بغير دينه؛ إذ هو إلههم الحق

في الدنيا والآخرة.

فإذا كان أكثر الناس قد أبى ذلك إلا كفورًا وذهابًا في الطرق الباطلة وعبادة غيره، وإن دانوا غير دينه فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون للخيرات وبادروا إليها، ولا تذهبوا مع الذين يسارعون في الباطل والكفر.

فتأمل هذا السر البديع في السورتين، وفي قوله: ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨، الأنعام: ١٦٤] سر آخر أيضًا، وهو أن هذا الاختلاف دليل على يوم الفصل، وهو اليوم الذي يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق، ويبين لهم حقيقة ما اختلفوا فيه، فنفس الاختلاف دليل على يوم الفصل والبعث.

وقد أوضح ذلك قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٨-٣٩]. فذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثة الأموات بعدما أماتهم:

إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم، والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم.

الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذبًا وإنه كان على باطل، وأن نسبته أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه؛ فيخزيه ذلك أعظم خزي.

فتأمل أسرار كلام الرب تعالى، وما تضمنته آيات الكتاب المجيد من الحكمة البالغة الشاهدة بأنه كلام رب العالمين، والشاهدة لرسوله بأنه الصادق المصدوق، وهذا كله من مقتضى حكمته وحمده تعالى، وهو معنى كونه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، ولم يخلق ذلك باطلًا، بل خلقه خلقًا صادرًا عن الحق، آيلًا إلى الحق، مشتملًا على الحق، فالحق سابق لخلقها، مقارن له، غاية له؛ ولهذا أتى بالباء الدالة على هذا المعنى دون اللام المفيدة لمعنى الغاية وحدها، فالباء مفيدة معنى اشتمال خلقها على الحق السابق والمقارن والغاية.

فالحق السابق صدور ذلك عن علمه وحكمته، فمصدر خلقه تعالىٰ وأمره عن كمال علمه وحكمة، وبكمال هاتين الصفتين؛ يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما حكمه كله ومصلحة وحقًّا؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]. فأخبر أن مصدر التلقِّي عن علم المتكلم وحكمته، وما كان كذلك كان صدقًا وعدلًا وهدًىٰ وإرشادًا.

وكذلك قالت الملائكة لامرأة إبراهيم حين قالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ قالوا: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠] وهذا راجع إلىٰ قوله وخلقه، وهو خلق الولد لها علىٰ الكبر. وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات، فهو ما اشتملت من الحكم والمصالح والمنافع والآيات الدالة للعباد علىٰ الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسله، وأن لقاءه حق لا ريب فيه.

ومن نظر في الموجودات ببصيرة قلبه؛ رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد؛ لأنها شهادة حال لا يقبل كذبًا، فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقًا حق تأمله إلا وجده دالًّا علىٰ فاطره وبارئه وعلىٰ وحدانيته، وعلىٰ كمال صفاته وأسمائه، وعلىٰ صدق رسله، وعلىٰ أن لقاءه حق لا ريب فيه. وهذه طريقة القرآن في إرشاده الخلق إلىٰ الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها علىٰ إثبات الصانع، وعلىٰ التوحيد والمعاد والنبوات.

فمرة يخبر أنه لم يخلق خلقه باطلًا ولا عبثًا، ومرة يخبر أنه خلقهم بالحق. ومرة يخبرهم وينبههم علىٰ وجوه الاعتبار والاستدلال بها علىٰ صدق ما أخبرت به رسله، حتىٰ يبين لهم أن الرسل إنما جاؤوهم بما يشاهدون أدلة صدقة وبما لو تأملوه لرأوه مركوزا في فطرهم مستقرا في عقولهم، وأن ما يشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به رسله عنه: من أسمائه وصفاته وتوحيده ولقائه ووجود ملائكته، وهذا باب عظيم من أبواب الإيمان إنما يفتحه الله علىٰ من سبقت له منه سابقة السعادة، وهذا أشرف علم يناله العبد في هذه الدار.

وقد بينت في موضع آخر أن كل حركة تشاهد على اختلاف أنواعها، فهي دالة على التوحيد والنبوات والمعاد بطريق سهلة واضحة برهانية.

وكذلك ذكرت في رسالة إلى بعض الأصحاب بدليل واضح: أن الروح مركوز في أصل فطرتها وخلقتها شهادة: أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الإنسان لو استقصى التفتيش لوجد ذلك مركوزًا في نفس روحه وذاته وفطرته.

فلو تأمل العاقل الروح وحركتها فقط، لاستخرج منها الإيمان بالله وصفاته والشهادة بأنه: لا إله إلا هو، والإيمان برسله وملائكته ولقائه، وإنما يصدق بهذا من أشرقت شمس الهداية على أفق قلبه، وانجابت عنه سحائب غيّه وانكشف عن قلبه حجاب: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣].

فهنالك يبدو له سر طال عنه اكتتامه، ويلوح له صباح هو ليله وظلامه.

فقف الآن عند كل كلمة من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجاثية: ٣-٥].

ثم تأمل وجه كونها آية وعلى ماذا جعلت آية؟ أعلى مطلوب واحد أم مطالب متعددة؟ وكذلك سائر ما في القرآن الكريم من هذا النمط كآخر آل عمران. وقوله في سورة الروم: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ [الروم: ٢٠-٢٥] إلى آخرها. وقوله في سورة النمل: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩] إلى آخر الآيات، وأضعاف ذلك في القرآن. وكقوله في سورة الذاريات: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

فهذا كله من الحق الذي خلقت به السموات والأرض وما بينهما، وهو حق مقارن

لوجود هذه المخلوقات، مسطور في صفحاتها، يقرؤه كل موفق: كاتب، وغير كاتب، كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملإ الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل (١)

وأما الحق الذي هو غاية خلقها، فهو غاية تراد من العباد، وغاية تراد بهم. فالتي تراد منهم: أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله ﷻ، وأن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا؛ فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوبهم. قال تعالى الله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

فأخبر أنه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده. وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] فهذه الغاية هي المرادة من العباد، وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده.

وأما الغاية المرادة بهم، فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه: ١٥]. وقال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ

---

(١) هذان البيتان من بحر الطويل، وينسبان إلى عبد الغني النابلسي، شاعر وعالم بالأدب والدين. وهذه النسبة أظنها غير صحيحة، لأن عبد الغني مات سنة ١١٤٣هـ أي بعد وفاة ابن القيم بثلاث مئة واثنتين وتسعين سنة. وعجز البيت الثاني مأخوذ من قول لبيد، ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل...» البخاري (رقم ٣٨٤١) ومسلم (رقم ٢٢٥٦) وانظر: فتح الباري (٧/١٥٣) (١١/٣٢٢) وشرح النووي (١٥/١٢).

ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٣، ٤].

فتأمل الآن كيف اشتمل خلق السموات والأرض وما بينهما على الحق أولًا وآخرًا ووسطًا، وأنها خلقت بالحق وللحق وشاهدة بالحق. وقد أنكر تعالى على من زعم خلاف ذلك، فقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

(١) ولنرجع إلى ما كنا بصدده من الكلام في ذكر محاجة أهل الباطل للمسلمين في القبلة، ونصر الله لهم بالحجة عليهم.

وقد رأيت لأبي القاسم السهيلي في الكلام على هذه الآيات فصلاً أذكره بلفظه: قال في قول النبي ﷺ، للبراء بن معرور: «**قد كنت على قبلة لو صبرت عليها**»(٢) يعني: لما صلى إلى الكعبة قبل الأمر بالتوجه إليها، ولم يأمره بالإعادة، لأنه كان متأولاً.

قلت: ونظير هذا أنه لم يأمر من أكل في نهار رمضان بالإعادة؛ لما ربط الخيطين في رجليه وأكل حتى تبينا له، لأجل التأويل(٣).

---

(١) ١٦٧ بدائع جـ٤.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥/ ٤٧١-٤٧٣ رقم ٧٠١١) وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٢٢٣ رقم ٤٢٩) والطبراني في الكبير (١٩/ ٨٧-٨٨ رقم ١٧٤) وأحمد (٣/ ٤٦١) والفاكهي في أخبار مكة (٤/ ٢٣٥).

(٣) فعن سهل بن سعد ﷺ قال: أنزلت: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ ولم ينزل: ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط =

ونظيره أنه لم يأمر أبا ذر بإعادة ما ترك من الصلاة مع الجنابة؛ إذ لم يعرف شرع التيمم للجنب، فقال: يا رسول الله إني تصيبني الجنابة فأمكث الشهر والشهرين لا أصلي. يعني في البادية ـ فقال: «أين أنت عن التيمم؟»[(١)].

ونظيره أيضًا أنه لم يأمر المستحاضة بالإعادة، وقد قالت: إني أستحاض حيضة شديدة، وقد منعتني الصوم والصلاة. فأمرها أن تجلس أيام الحيض، ثم تصلي، ولم يأمرها بإعادة ما تركت[(٢)].

ونظيره أيضًا أنه لم يأمر المسيء في صلاته[(٣)] بإعادة ما تقدم له من الصلوات التي لم تكن صحيحة، وإنما أمره بالإعادة في الوقت؛ لأنه لم يؤد فرض وقته مع بقائه بخلاف ما تقدم له.

ونظيره أيضًا أنه لم يأمر المتمعك في التراب، كما تتمعك الدابة لأجل التيمم[(٤)]

= الأسود، ولم يزل يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ فعلموا أنه إنما يعني الليل والنهار. أخرجه البخاري (١٩١٧) ومسلم (رقم ١٠٩١) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٣٣-١٣٤) وشرح النووي (٧/ ٢٠٢).

(١) أخرجه بلفظ مختلف الحاكم (١/ ٢٨٤ رقم ٦٢٧) وابن حبان في صحيحه (٤/ ١٣٥ رقم ١٣١١) وأبو داود (رقم ٣٣٢) والبيهقي في الكبرى (١/ ٢٢٠ رقم ٩٩٠).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٢٧٩ رقم ٦١٥) والنسائي (رقم ١٦٩) وأبو داود (رقم ٢٨٧) وابن ماجه (رقم ٦٢٢) والترمذي (رقم ١٢٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٢٢ر قم ٨١١) وفي الكبير (٢٤/ ٢١٧ رقم ٥٥١) وأحمد (٦/ ٤٣٩) وانظر: التمهيد (١٦/ ٦٣) والمغني (١/ ١٩٦).

(٣) فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فدخل رجل فصلى فسلم على النبي ﷺ فرد وقال: «ارجع فصل فإنك لم تصل» فرجع يصلي كما صلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال: «ارجع فصل فإنك لم تصل» ثلاثًا... الحديث أخرجه البخاري (رقم ٧٥٧) ومسلم (رقم ٣٩٧) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٣٦، ٢٧٨) وشرح النووي (٤/ ١٠٦-١٠٧).

(٤) فعن عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال: أجنبت وأنا في إبل فتمعكت كما تتمعك الدابة، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك كله، فقال: «كان يجزيك من ذلك التيمم» أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١/ ٢٣٨ رقم ٩١٤) والطيالسي (رقم ٦٣٨، ٦٤٠).

بالإعادة؛ مع أنه لم يصب فرض التيمم.

ونظيره أيضًا أنه لم يأمر معاوية بن الحكم السلمي بإعادة الصلاة، وقد تكلم فيها بكلام أجنبي ليس من مصلحتها(١).

ونظيره أيضًا أنه لم يضمن أسامة قتيله بعد إسلامه بقصاص ولا دية ولا كفارة(٢)، ولا تجد هذه النظائر مجموعة في موضع.

فالتأويل والاجتهاد في إصابة الحق، منع في هذه المواضع من الإعادة والتضمين.

وقاعدة هذا الباب أن الأحكام إنما تثبت في حق العبد بعد بلوغه هو وبلوغها إليه. فكما لا يترتب في حقه قبل بلوغه هو؛ فكذلك لا يترتب في حقه قبل بلوغها إليه. وهذا مجمع عليه في الحدود، أنها لا تقام إلا على من بلغهم تحريم أسبابها.

وما ذكرناه من النظائر يدل على ثبوت ذلك في العبادات والحدود.

ويدل عليه أيضًا في المعاملات قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨] فأمرهم تعالى أن يتركوا ما بقي من الربا وهو ما لم يقبض، ولم يأمرهم برد المقبوض؛ لأنهم قبضوه قبل التحريم فأقرهم عليه.

بل أهل قبا صلوا إلى القبلة المنسوخة بعد بطلانها، ولم يعيدوا ما صلوا؛ بل استداروا في صلاتهم وأتموها(٣)؛ لأن الحكم لم يثبت في حقهم إلا بعد بلوغه إليهم.

---

(١) قال رسول الله ﷺ لمعاوية السلمي حينما تكلم في الصلاة: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» أخرجه مسلم (رقم ٥٣٧).

(٢) فعن أسامة ﷺ قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجلٌ من الأنصار رجلًا منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري عنه، فطعنته برمحي حتى قتله، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: «يا أسامة أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟!» قلت:؟ كان متعوذًا، فما زال يكررها، حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم، أخرجه البخاري (رقم ٤٢٦٩) ومسلم (رقم ٩٦) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٩٥) وشرح النووي (٢/ ١٠٠) وعمدة القاري (١٧/ ٢٧٢).

(٣) فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بينا الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى
=

وفي هذا الأصل ثلاثة أقوال للفقهاء وهي لأصحاب أحمد، هذا أحدها وهو أصحها، وهو اختيار شيخنا ﷺ.

والثاني: أن الخطاب إذا بلغ طائفة ترتب في حق غيرهم ولزمهم كما لزم من بلغه، وهذا اختيار كثير من أصحاب الشافعي وغيرهم.

الثالث: الفرق بين الخطاب الابتدائي والخطاب الناسخ، فالخطاب الابتدائي يعم ثبوته من بلغه وغيره، والخطاب الناسخ لا يترتب في حق المخاطب إلا بعد بلوغه. والفرق بين الخطابين: أنه في الناسخ مستصحب لحكم مشروع مأمور به بخلاف الخطاب الابتدائي، ذكره القاضي أبو يعلى في بعض كتبه، ونصوص القرآن والسنة تشهد للقول الأول، وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة، وإنما أشرنا إليها إشارة.

قال أبو القاسم: وفي الحديث دليل على أن النبي ﷺ، كان يصلي بمكة إلى بيت المقدس، وهو قول ابن عباس يعني قوله للبراء: «لقد كنتَ على قبلة»[(١)].

وقال طائفة: ما صلى إلى بيت المقدس إلا منذ قدم المدينة سبعة عشر شهرًا أو ستة عشر شهرًا. فعلى هذا يكون في القبلة نسخان: نسخ سنة بسنة، ونسخ سنة بقرآن، وقد بين حديث ابن عباس منشأ الخلاف في هذه المسألة. فروي عنه من طرق صحاح؛ أن رسول الله ﷺ، كان إذا صلى بمكة استقبل بيت المقدس، وجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس[(٢)].

الشام، فاستداروا إلى الكعبة. أخرجه البخاري (رقم ٤٠٣) ومسلم (رقم ٥٢٦) وانظر: عمدة القاري (١/ ٢٤٦) (٤/ ١٤٧).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦١) وابن حبان في الثقات (١/ ١٠٦-١٠٨) وفي صحيحه (١٥/ ٤٧١-٤٧٣ رقم ٧٠١١) وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٢٢٣ رقم ٤٢٩) والفاكهي في أخبار مكة (٤/ ٢٣٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٤٥): رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع. وقال محققو المسند (٢٢/ ٩٥): حديث قوي وهذا إسناد حسن.

(٢) صححه الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري (١/ ٩٦) وانظر: عمدة القاري (١/ ٢٤٠) وشرح الزرقاني (١/ ٥٦٠).

فلما كان ﷺ يتحرى القبلتين جميعًا، لم يُبِن توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة، ولذلك ـ والله أعلم ـ قال الله تعالى الآية الناسخة: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٥٠] أي: من أي جهة جئت إلى الصلاة وخرجت إليها فاستقبل الكعبة؛ كنت مستدبرًا بيت المقدس أو لم تكن؛ لأنه كان بمكة يتحرى في استقباله بيت المقدس؛ أن تكون الكعبة بين يديه.

قال: وتدبر قوله: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقال لأمته: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٥٠] ولم يقل: حيث ما خرجتم، وذلك لأنه ﷺ كان إمام المسلمين، فكان يخرج إليهم في كل صلاة ليصلي بهم، وكان ذلك واجباً عليه، إذ كان الإمام المقتدى به، فأفاد ذكر الخروج في خاصته هذا المعنى، ولم يكن حكم غيره هكذا يقتضي الخروج، ولاسيما النساء ومن لا جماعة عليه.

قلت: ويظهر في هذا معنى آخر، وهو أن قوله: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ خطاب عام له ﷺ، ولأمته يقتضي أمرهم بالتوجه إلى المسجد الحرام في أي موضع كانوا من الأرض.

وقوله: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة:١٥٠] خطاب بصيغة الإفراد، والمراد هو والأمة كقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ١]. ونظائره، وهو يفيد الأمر باستقبالها من أي جهة ومكان خرج منه.

وقوله: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ يفيد الأمر باستقبالها في أي موضع استقر فيه، وهو تعالى لم يقيد الخروج بغاية؛ بل أطلق غايته كما عم مبدأه، فمن حيث خرج إلى أي مخرج كان: من صلاة أو غزو أو حج أو غير ذلك، فهو مأمور باستقبال المسجد الحرام هو والأمة، وفي أي بقعة كانوا من الأرض، فهو مأمور هو والأمة باستقباله، فتناولت الآيتان أحوال الأمة كلها: في مبدأ تنقلهم من حيث خرجوا، وفي غايته إلى حيث انتهوا، وفي حال استقرارهم حيث ما كانوا، فأفاد ذلك

عموم الأمر بالاستقبال في الأحوال الثلاث التي لا ينفك منها العبد.

فتأمل هذا المعنى ووازن بينه وبين ما أبداه أبو القاسم يتبين لك الرجحان، والله أعلم بما أراد من كلامه، وإنما هو كدّ أفهام أمثالنا من القاصرين(١). فقوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ [البقرة: ١٥٠] يتناول مبدأ الخروج وغايته له وللأمة. وكان أولى بهذا الخطاب؛ لأن مبدأ التوجه على يديه كان، وكان شديد الحرص على التحويل.

وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠] يتناول أماكن الكون كلها له وللأمة، وكانوا أولى بهذا الخطاب لتعدد أماكن أكوانهم وكثرتها؛ بحسب كثرتهم واختلاف بلادهم وأقطارهم واستدارتها حول الكعبة شرقًا وغربًا ويمنًا وعراقًا، فكان الأحسن في حقهم أن يقال لهم: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أي: من أقطار الأرض في شرقها وغربها وسائر جهاتها، ولا ريب أنهم أدخل في هذا الخطاب منه ﷺ.

فتأمل هذه النكت البديعة فلعلك لا تظفر بها في موضع غير هذا، والله أعلم.

---

(١) هذا هو شأن الكُمَّل من أهل الخير والفضل أمثال: ابن القيم رحمه الله حيث يتهم نفسه بالتقصير ويزدريها، ولا يرى لها شأنًا، حتى لا تطمع نفسه إلى الكبرياء والزهو، الذي ينشأ دائمًا بعد النجاح وتحقيق الأمنيات أو عمل الصالحات، وهذا هو دأب الصالحين المقربين أمثاله وأمثال شيخه ابن تيمية رحم الله الجميع حيث كان دائمًا يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي وهكذا كان أبي وجـــدي

وكان إذا أُثنيَ عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا. وقال أيضًا من نظمه رحمه الله:

أنـــا الفقير إلى رب البـريـات أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي والخير إن يأتنا مـــن عنده يـأتي

إلى أن قال:

والفقر لي وصف ذات لازم أبدًا كما الغنى أبدًا وصف لـــه ذاتي

هذا هو حال شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذا حال تلميذه النجيب شيخ الإسلام الثاني ابن قيم الجوزية رحم الله أئمة الهدى ودعاة الحق، وألحقنا بهم يا ربنا على خير، واحشرنا تحت لواء حبيبك محمد ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم، اللهم آمين.

قال أبو القاسم: وكرر الباري تعالىٰ الأمر بالتوجه إلىٰ البيت الحرام في ثلاث آيات؛ لأن المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة أصناف من الناس:

اليهود؛ لأنهم لا يقولون بالنسخ في أصل مذهبهم.

وأهل الريب والنفاق اشتد إنكارهم له؛ لأنه كان أول نسخ نزل.

وكفار قريش قالوا: نَدِم محمد علىٰ فراق ديننا فسيرجع إليه كما رجع إلىٰ قِبلتنا. وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه، فيقولون: يزعم محمد أنه يدعونا إلىٰ ملة إبراهيم وإسماعيل، وقد فارق قبلة إبراهيم وإسماعيل، وآثر عليها قبلة اليهود.

فقال الله له حين أمره بالصلاة إلىٰ الكعبة: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٠] علىٰ الاستثناء المنقطع أي: لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون. وقال: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٧] أي: من الذين شكوا وامتروا.

ومعنىٰ ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾: أي: الذي أمرتك به من التوجه إلىٰ البيت الحرام، هو الحق الذي كان عليه الأنبياء قبلك، فلا تمتر في ذلك، فقال: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ١٤٤]. وقال: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦] أي: يكتمون ما علموا أن الكعبة هي قبلة الأنبياء.

ثم ساق من طريق أبي داود في كتاب الناسخ والمنسوخ، قال: حدثنا أحمد بن صالح: حدثنا عنبسة، عن يونس، عن ابن شهاب قال: كان سليمان بن عبد الملك لا يعظم إيليا كما يعظمها أهل بيته، قال: فسرت معه وهو ولي عهد، قال: ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، فقال سليمان، وهو جالس فيه: والله إن في هذه القبلة التي صلىٰ إليها المسلمون والنصارىٰ لعجبًا ـ كذا رأيته. والصواب: اليهود ـ قال خالد بن يزيد: أما والله إني لأقرأ الكتاب الذي أنزله الله علىٰ محمد ﷺ، وأقرأ التوراة فلم تجدها اليهود في الكتاب الذي أنزله الله عليهم، ولكن تابوت السكينة كان علىٰ الصخرة، فلما

غضب الله ﷻ على بني إسرائيل رفعه، فكانت صلاتهم إلى الصخرة عن مشاورة منهم.

وروى أبو داود أيضًا: أن يهوديًا خاصم أبا العالية في القبلة، فقال أبو العالية: إن موسى كان يصلي عند الصخرة ويستقبل البيت الحرام، فكانت الكعبة قبلته، وكانت الصخرة بين يديه، وقال اليهودي: بيني وبينك مسجد صالح النبي ﷺ، فقال أبو العالية: فإني صليت في مسجد صالح وقبلته الكعبة[1]. انتهى.

قلت: وقد تضمن هذا الفصل فائدة جليلة، وهي أن استقبال أهل الكتاب لقبلتهم لم يكن من جهة الوحي والتوقيف من الله، بل كان عن مشورة منهم واجتهاد.

أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق أبدًا، وهم مقرون بذلك، ومقرون أن قبلة المسيح كانت قبلة بني إسرائيل وهي الصخرة، وإنما وضع لهم شيوخهم وأسلافهم هذه القبلة وهم يعتذرون عنهم، بأن المسيح فوَّض إليهم التحليل والتحريم وشرع الأحكام، وأن ما حللوه وحرموه فقد حلله هو وحرمه في السماء، فهم مع اليهود متفقون على أن الله لم يشرع استقبال المشرع على لسان رسوله أبدًا، والمسلمون شاهدون عليهم بذلك.

وأما قبلة اليهود فليس في التوراة الأمر باستقبال الصخرة البتة، وإنما كانوا ينسبون التابوت ويصلون إليه من حيث خرجوا، فإذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلوا إليه، فلما رُفع صلوا إلى موضعه وهو الصخرة.

وأما السامرة فإنهم يصلون إلى طور لهم بأرض الشام يعظمونه ويحجون إليه. ورأيته أنا وهو في بلد نابلس، وناظرت فضلاءهم في استقباله، وقلت: هو قبلة باطلة مبتدعة، فقال مشار إليه في دينهم: هذه هي القبلة الصحيحة. واليهود أخطؤوها، لأن الله تعالى أمر في التوراة باستقباله عينًا، ثم ذكر نصًا بزعمه من التوراة في استقباله، فقلت له: هذا خطأ قطعًا على التوراة، لأنها إنما أنزلت على بني إسرائيل، فهم

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٣٤-٣٥) وانظر: الاستذكار (١/ ٢٠) (٢/ ٤٥٤-٤٥٥).

المخاطبون بها، وأنتم فرع عليهم فيها، وإنما تلقيتموها عنهم، وهذا النص ليس في التوراة التي بأيديهم، وأنا رأيتها وليس هذا فيها، فقال لي: صدقت، إنما هو في توراتنا خاصة.

قلت له: فمن المحال أن يكون أصحاب التوراة المخاطبون بها، وهم الذين تلقوها عن الكليم، وهو متفرقون في أقطار الأرض، قد كتموا هذا النص وأزالوه، وبدلوا القبلة التي أمروا بها، وحفظتموها أنتم، وحفظتم النص بها، فلم يرجع إليّ الجواب.

قلت: وهذا كله مما يقوّي أن يكون الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة: ١٤٨] راجعًا إلىٰ كل أي هو موليها وجهه، ليس المراد أن الله موليه إياها لوجوه: هذا أحدها.

الثاني: أنه لم يتقدم لاسمه تعالىٰ ذكر يعود الضمير عليه في الآية، وإن كان مذكورًا فيما قبلها؛ ففي إعادة الضمير إليه تعالىٰ دون كل، رد الضمير إلىٰ غير من هو أولىٰ به، ومنعه من القريب منه اللاحق به.

الثالث: أنه لو عاد الضمير عليه تعالىٰ لقال: هو موليه إياها. هذا وجه الكلام كما قال تعالىٰ: ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ [النساء: ١١٥]. فوجه الكلام أن يقال: ولاه القبلة، لا يقال: ولىٰ القبلة إياه فتأمله.

وقول أبي القاسم: أنه تعالىٰ كرر ذكر الأمر باستقبالها ثلاثًا ردًّا علىٰ الطوائف الثلاث؛ ليس بالبين ولا في اللفظ إشعار بذلك. والذي يظهر فيه، أنه أمر به في كل سياق لمعنىٰ يقتضيه:

فذكره أول مرة؛ ابتداء للحكم ونسخًا للاستقبال الأول، فقال: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٤٤]. ثم ذكر أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا هو الحق من ربهم؛ حيث يجدونه في كتبهم كذلك.

ثم أخبر عن عنادهم وكفرهم؛ وأنه لو أتاهم بكل آية ما تبعوا قبلته، ولا هو أيضًا

بتابع قبلتهم، ولا بعضهم بتابع قبلة بعض، ثم حذره من اتباع أهوائهم، ثم كرر معرفة أهل الكتاب به كمعرفتهم بأبنائهم وأنهم ليكتمون الحق عن علم، ثم أخبر أن هذا هو الحق من ربه فلا يلحقه فيه امتراء.

ثم أخبر أن لكل من الأمم وجهة هو مستقبلها وموليها وجهه، فاستقبوا أنتم أيها المؤمنون الخيرات، ثم أعاد الأمر باستقبالها من حيث خرج في ضمن هذا السياق الزائد على مجرد النسخ، ثم أعاد الأمر به غير مكرر له تكرارًا محضًا؛ بل في ضمنه أمرهم باستقبالها حيثما كانوا، كما أمرهم باستقبالها أولاً حيثما كانوا عند النسخ وابتداء شرع الحكم، فأمرهم باستقبالها حيثما كانوا عند شرع الحكم وابتدائه، وبعد المحاجة والمخاصمة والحكم لهم وبيان عنادهم ومخالفتهم مع علمهم، فذكر الأمر بذلك في كل موطن لاقتضاء السياق له فتأمله. والله أعلم.

وقوله: إن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]، منقطع قد قاله أكثر الناس، ووجهه أن الظالم لا حجة له، فاستثناؤه مما ذكر قبله منقطع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ليس الاستثناء بمنقطع بل هو متصل على بابه، وإنما أوجب لهم أن حكموا بانقطاعه؛ حيث ظنوا أن الحجة ههنا المراد بها الحجة الصحيحة الحق. والحجة في كتاب الله يراد بها نوعان:

أحدهما: الحجة الحق الصحيحة كقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٢] وقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

ويراد بها مطلق الاحتجاج بحق أو بباطل كقوله: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠] وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦].

وإذا كانت الحجة اسمًا لما يحتج به من حق أو باطل، صح استثناء حجة الظالمين من قوله: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ [البقرة: ١٥٠] وهذا في غاية التحقيق. والمعنى: أن الظالمين يحتجون عليك بالحجة الباطلة الداحضة، فلا تخشوهم واخشوني.

(١) قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله: ﴿ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨].

وجه الاستدلال: أنه تعالى أخبر أن جعل هذه الأمة عدولاً خيارًا ليشهدوا على الناس: بأن رسلهم قد بلغوهم عن الله رسالته، وأدوا عليهم ذلك، وهذا يتناول شهادتهم على الأمم الماضية وشهادتهم على أهل عصرهم ومن بعدهم أن رسول الله ﷺ، أمرهم بكذا ونهاهم عن كذا، فهم حجة الله على من خالف رسول الله، وزعم أنه لم يأتهم من الله ما تقوم به عليه الحجة، وتشهد هذه الأمة الوسط عليه؛ بأن حجة الله بالرسل قامت عليه، ويشهد كل واحد بانفراده بما وصل إليه من العلم الذي كان به من أهل الشهادة، فلو كانت أحاديث رسول الله ﷺ لا تفيد؛ لم يشهد به الشاهد ولم تقم به الحجة على المشهود عليه(٢).

(٣) قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] ووجه الاستدلال بالآية: أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خياراً عدولاً، هذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإرادتهم ونياتهم. وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة.

---

(١) ٣٩٧ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٧) وتحفة الأحوذي (٨/ ٢٣٨).

(٣) ١٣٢ أعلام جـ ٤.

والله تعالىٰ يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نوَّه بهم ورفع ذكرهم وأثنىٰ عليهم؛ لأنه تعالىٰ لما اتخذهم شهداء أعلم خلقه من الملائكة وغيرهم بحال هؤلاء الشهداء، وأمر ملائكته أن تصلي عليهم وتدعو لهم وتستغفر لهم.

والشاهد المقبول عند الله هو الذي يشهد بعلم وصدق؛ فيخبر بالحق مستندًا إلىٰ علمه به، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٢]. فقد يخبر الإنسان بالحق اتفاقًا من غير علمه به، وقد يعلمه ولا يخبر به، فالشاهد المقبول عند الله هو الذي يخبر به عن علم؛ فلو كان علمهم أن يفتي أحدهم بفتوىٰ وتكون خطأً مخالفة لحكم الله ورسوله ولا يفتي غيره بالحق الذي هو حكم الله ورسوله إما: مع اشتهار فتوىٰ الأول، أو بدون اشتهارها، كانت هذه الأمة العدل الخيار قد أطبقت علىٰ خلاف الحق.

بل انقسموا قسمين: قسمًا أفتىٰ بالباطل، وقسمًا سكت عن الحق، وهذا من المستحيل، فإن الحق لا يعدوهم ويخرج عنهم إلىٰ من بعدهم قطعًا، ونحن نقول لمن خالف أقوالهم: لو كان خيرًا ما سبقونا إليه.

***

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

[(١)]كان ﷺ يصلي إلىٰ قبلة بيت المقدس، ويحب أن يصرف إلىٰ الكعبة. وقال لجبرائيل: «وددت أن يصرف الله وجهي عن قبلة اليهود»، فقال: إنما أنا عبد، فادعُ ربّك واسأله، فجعل يُقلب وجهه في السماء يرجو ذلك، حتىٰ أنزل الله عليه: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ

---

(١) ١٤٧ زاد المعاد جـ٢.

ﵟٱلۡحَرَامِۚﵞ(1) [البقرة: ١٤٤]. وذلك بعد ستة عشر شهرًا من مقدمه المدينة، قبل وقعة بدر بشهرين. قال محمد بن سعد: أنبأنا هاشم بن القاسم، قال: حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي قال: ما خالف نبيٌّ نبيًّا قط في قبلة ولا في سنة، إلا أن رسول الله ﷺ استقبل بيت المقدس حين قدم المدينة ستة عشر شهرًا، ثم قرأ: ﵟ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَﵞ(2) [الشورى: ١٣] الآية.

وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس، ثم في تحويلها إلى الكعبة حِكَمٌ عظيمة، ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين.

فأما المسلمون، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وقالوا: آمنا به، كُلٌّ من عندنا ربنا. وهم الذين هدى الله، ولم تكن كبيرة عليهم.

وأما المشركون، فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها إلا أنه الحق.

وأما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء قبله، ولو كان نبيًّا لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء.

وأما المنافقون، فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجه؟ إن كانت الأولى حقًّا فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق: فقد كان على باطل. وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت كما قال الله تعالى: ﵟوَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗﵞ [البقرة: ١٤٣]، وكانت محنة من الله، امتحن بها عباده، ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه. ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيمًا وطَّأ سبحانه قبلها أمر النسخ وقدرته عليه، وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله.

ثم عقَّب ذلك بالتوبيخ لمن تعنت مع رسول الله ﷺ، ولم يَنْقَدْ له.

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٤٣) إلى أبي داود في الناسخ والمنسوخ، وانظر: تفسير الطبري (٢/ ٢) وأحكام القرآن للشافعي (١/ ٦٤) والفتح السماوي (١/ ١٩١).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٤٣).

ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارىٰ، وشهادة بعضهم علىٰ بعض بأنهم ليسوا علىٰ شيء، وحذَّر عباده المؤمنين من موافقتهم واتباع أهوائهم.

ثم ذكر كفرهم وشركهم به، وقولهم: إن له ولدًا، تعالىٰ عما يقولون.

ثم أخبر: أن له المشرق والمغرب، وأينما يُولي عباده وجوههم فثمَّ وجهه، وهو الواسع العليم، لعظمته وسعته وإحاطته أينما يوجه العبد فثم وجه الله.

ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه ولا يصدقونه. ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ لن يرضوا عنه حتىٰ يتبع ملتهم، وأنه إن فعل ـ وقد أعاذه الله من ذلك ـ فما له من الله من ولي ولا نصير.

ثم ذكَّر أهل الكتاب بنعمته عليهم، وخوَّفهم من بأسه يوم القيامة.

ثم ذكر خليله إبراهيم باني بيته الحرام، وأثنىٰ عليه ومدحه، وأخبر أنه جعله للناس إمامًا يأتمُّ به أهل الأرض. ثم ذكر بيته الحرام، وبناء خليله له، وفي ضمن هذا: أنَّ باني البيت كما هو إمام للناس، فكذلك البيت الذي بناه: إمام لهم.

ثم أخبر: أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس. ثم أمر عباده أن يأتموا برسوله الخاتم، ويؤمنوا بما أنزل إليه، وإلىٰ إبراهيم،وإلىٰ سائر النبيين.

ثم ردَّ علىٰ من قال: إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هودًا أو نصارىٰ، وجعل هذا كله توطئةً ومقدمة بين يدي تحويل القبلة ومع هذا كله: فقد كبر ذلك علىٰ الناس، إلا من هدىٰ الله منهم. وأكد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة، بعد ثالثة، وأمر به رسوله ﷺ حيثما كان، ومن حيث خرج.

وأخبر أن الذي يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم، هو الذي هداهم إلىٰ هذه القبلة،وأنها هي القبلة التي تليق بهم وهم أهلها. لأنها أوسط القبل وأفضلها، وهم أوسط الأمم وخيارهم، فاختار أفضل القبل الأفضل الأمم، كما اختار لهم أفضل الرسل، وأفضل الكتب، وأخرجهم في خير القرون، وخصَّهم بأفضل الشرائع، ومنحهم خير الأخلاق، وأسكنهم خير الأرض، وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل، وموقفهم

في القيامة خير المواقف، فهم على تل عالٍ، والناس تحتهم. فسبحان من يختص برحمته من يشاء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك لئلا يكون للناس عليهم حجة، ولكن الظالمون الباغون يحتجون عليهم بتلك الحجج التي ذكرت، ولا يعارض الملحدون الرسل إلا بها وبأمثالها من الحجج الداحضة، وكل من قدّم على أقوال الرسول سواها، فحجته من جنس حجج هؤلاء، وأخبر سبحانه: أنه فعل ذلك ليتمّ نعمته عليهم وليهديهم.

ثم ذكَّرهم نعمه عليهم بإرسال رسوله إليهم، وإنزال كتابه عليهم، ليُزكِّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ثم أمرهم بذكره وبشكره، إذ بهذين الأمرين يستوجبون إتمام نعمه، والمزيد من كرامته، ويستجلبون ذكره لهم، ومحبته لهم. ثم أمرهم بما لا يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة به، وهو الصبر والصلاة، وأخبرهم أنه مع الصابرين.

***

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

[(١)]مبنى الدين على قاعدتين: الذكر والشكر، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال النبي ﷺ لمعاذ: «**والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[(٢)].

وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان، بل الذكر القلبي واللساني.

وذكره يتضمن ذكر أسمائه، وصفاته، وذكر أمره ونهيه، وذكره بكلامه، وذلك

---

(١) ١٣٧ فوائد.

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١/ ٣٦٩ رقم ٧٥١) وعبد بن حميد (رقم ١٢٠) والحاكم (١/ ٤٠٧ رقم ١٠١٠) وابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٦٣ رقم ٢٠٢٠) وفي الموارد (رقم ٢٣٤٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٢ رقم ٩٩٣٧) وأبو داود (رقم ١٥٢٢) وصححه الحاكم. وانظر: عون المعبود (٤/ ٢٦٩).

يستلزم معرفته والإيمان به، وبصفات كماله ونعوت جلاله، والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده، فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه. وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهرًا وباطناً، وهذان الأمران هما جماع الدين.

فذكره مستلزم لمعرفته، وشكره متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجن والإنس والسماوات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل؛ وهي الحق الذي به خلقت السماوات والأرض وما بينهما، وضدها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدس عنه، وهو ظن أعدائه به، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ [ص: ٣٧]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

(١) ولله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق، لا ينفك منهما:

أحدهما: أمره ونهيه، الذي هو محض حقه عليه.

والثاني: شكر نعمه التي أنعم بها عليه، فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره، فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه، وأنه محتاج إلى عفو الله ومغرفته، فإن لم يتداركه بذلك هلك، وكلما كان أفقه في دين الله؛ كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم، وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة؛ بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، أكثر الديانين لا يعبؤون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس.

وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم، فضلًا عن أن

---

(١) ١٥٥ عدة الصابرين.

يريدوا فعلها، فضلًا عن أن يفعلوها، وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات؛ وإن زهد في الدنيا جميعها.

وقلّ أن ترى منهم من يحمّر وجهه، ويمعره لله، ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه، وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء. وقد ذكر أبو عمر وغيره: أن الله تعالى أمر ملكًا من الملائكة أن يخسف بقرية، فقال: يا ربِّ إن فيهم فلانًا الزاهد العابد قال: «به فابدأ، وأسمعني صوته، إنه لم يتمعر وجهه في يوم قط»[1].

...[2]وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة. و«الذكر» عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة. بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال: قيامًا، وقعودًا، وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان، وهو غراسها[3]، فكذلك القلوب بور خراب، وهو عمارتها، وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا: ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقًا. وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه: نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا من كل شيء.

به يزول الوقْر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار.

---

(١) أخرجه الطبراني مرفوعًا في الأوسط (٧/ ٣٣٦ رقم ٧٦٦١) والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٩٧ رقم ٧٥٩٥) وضعفه، بينما رواه من قول مالك بن دينار رحمه الله موقوفًا عليه في الشعب (٦/ ٩٧ رقم ٧٥٩٤) وقال فيه: هذا هو المحفوظ من قول مالك بن دينار، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٧٠): رواه الطبراني في الأوسط من رواية عبيد بن إسحاق العطار عن عمار بن سيف، وكلاهما ضعيف، ووثق عمار بن سيف ابنُ المبارك وجماعة، ورضي أبو حاتم عبيد بن إسحاق.

(٢) ٤٢٣ مدارج جـ٢.

(٣) فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم: أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٦٢) والطبراني في الأوسط (٤/ ٢٧٠-٢٧١ رقم ٤١٧٠) وفي الصغير (رقم ٥٣٩) وفي الكبير (١٠/ ١٧٣ رقم ١٠٣٦٣) والبزار (٥/ ٣٦١-٣٦٢ رقم ١٩٩٢) وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتموها فاحفظوا واحمدوا الله على ذلك وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق[1].

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان. قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين، فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي.

وهو روح الأعمال الصالحة؛ فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه. والله أعلم. وهو في القرآن على عشرة أوجه:

الأول: الأمر به مطلقًا ومقيدًا.

الثاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله، والإخبار بما أعدَّ الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لهى عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.

السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٤٧ رقم ٧٢٢٦) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٧١) (١٠/ ١٤٦).

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها. فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح.

تفصيل ذلك: أما الأول: فكقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وفيه قولان: أحدهما: في سرك وقلبك: والثاني: بلسانك بحيث تسمع نفسك.

وأما النهي عن ضده: فكقوله: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩].

وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه: فكقوله: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠].

وأما الثناء على أهله، وحسن جزائهم: فكقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلذَّـٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّـٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأما خسران من لهى عنه: فكقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له: فكقوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ۝ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وأما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شيء: فكقوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وفيها أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء، فهو أفضل الطاعات؛ لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره، فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل. وعلى الأول: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر؛ بل إذا تَمَّ الذكر: مَحَقَ كل خطيئة ومعصية. هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين:

إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر.

والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له، ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله: ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وختم به الحج في قوله: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وختم به الصلاة كقوله: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء: ١٠٣]. وختم به الجمعة كقوله: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة: ١٠].

ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا؛ وإذا كان آخر كلام العبد؛ أدخله الله الجنة.

وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته، وهم أولو الألباب والعقول، فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وأما مصاحبته لجميع الأعمال، واقترانه بها، وأنه روحها: فإنه سبحانه: قرنه بالصلاة، كقوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: ١٤]. وقرنه بالصيام وبالحج

ومناسكه، بل هو روح الحج، ولُبُّه ومقصوده، كما قال النبي ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار؛ لإقامة ذكر الله»(١). وقرنه بالجهاد، وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران، ومكافحة الأعداء، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وفي أثر إلهي يقول الله تعالى: «إن عبدي - كل عبدي - الذي يذكرني، وهو ملاق قِرْنه»(٢).

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يستشهد به. وسمعته يقول: المحبون يفتخرون بذكر من يحبونه في هذه الحال كما قال عنترة:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ كأنها ... أشطان بئر في لبانِ الأدهم(٣)

وقال الآخر:

ذكرتك والخَطِّيُّ يَخْطُر بيننا ... وقد نَهَلَتْ منا المثقَّفة السُّمْر(٤)

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (٤/ ٢٧٩ رقم ٢٨٨٢) وأبو داود (رقم ١٨٨٨) والبيهقي في الشعب (٣/ ٤٦٧ رقم ٤٠٨١) وابن الجارود (رقم ٤٥٧) والدارمي (رقم ١٨٥٣) وإسحاق بن راهويه (رقم ٩٢٨) وأحمد (٦/ ٦٤) والترمذي (رقم ٩٠٢) وقال: وهذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٨٠) وابن الضحاك في الآحاد والمثاني (رقم ٢٦٨٩) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٤٤٩) وفيض القدير (٢/ ٣١٠) وتحفة الأحوذي (١٠/ ٢٩).

(٣) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى عنترة بن شداد العبسي، أشهر فرسان العرب في الجاهلية، ومن شعراء الطبقة الأولى، وكان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفسًا، يوصف بالحلم على شدة بطشه، وفي شعره رقة وعذوبة، وكان مغرمًا بابنة عمه عيلة، وشهد حرب داحس والغبراء، مات سنة ٢٢ قبل الهجرة. والبيت ذكره ابن منظور في لسان العرب (٤/ ٦٠٧) (١٤/ ٢٥٨) باختلاف في أوله: يدعون عنتر والرماح كأنها.

(٤) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى أبي عطاء السندي: أفلح بن يسار، شاعر فحل قوي البديهة، كان عبدًا أسود من موالي بني أسد من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية وتشيع للأموية، مات سنة ١٨٠هـ والبيت ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣١٧).

وقال آخر:

ولقـد ذكرتـك والرمـاحُ شـواجر نحـوي وبـيضُ الهند تَقْطُر مـن دمـي[(١)]

وهذا كثير في أشعارهم، وهو مما يدل على قوة المحبة، فإن ذكر المحب محبوبه في تلك الحال التي لا يهم المرء غير نفسه ـ يدل على أنه عنده بمنزلة نفسه أو أعز منها، وهذا دليل على صدق المحبة والله أعلم.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

[(٢)]من منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]. منزلة «الصبر». قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا. وهو واجب بإجماع الأمة. وهو نصف الإيمان[(٣)]. فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر[(٤)]. وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعًا:

الأول: الأمر به. نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وقوله: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]. وقوله: ﴿ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. وقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧].

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، ولم أقف على قائله، بينما ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣١٧) منسوبًا إلى عنترة، وفيه اختلاف: والرماح نواهل مني، بدل: والرماح شواجر نحوي.

(٢) ١٥٢ مدارج جـ٢.

(٣) فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله» أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (رقم ١٥٨) وذكره المنذري في ترغيبه (٤/ ١٤٠ رقم ٥١٤٧) وقال: رواه الطبراني في الكبير ورواته رواة الصحيح وهو موقوف، وقد رفعه بعضهم. وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢١٤) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٧): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

(٤) فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أنس الإيمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر» أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (رقم ١٥٩).

الثاني: النهي عن ضده، كقوله: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥]، فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة. وقوله: ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣] فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها. وقوله: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى: الآية. ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ ...﴾ الآية. [آل عمران: ١٧]، وقوله: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] وهو كثير في القرآن.

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم. كقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

الخامس: إيجاب معيته لهم. وهي معية خاصة. تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم. ليست معية عامة. وهي معية العلم والإحاطة، كقوله: ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه، كقوله: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله: ﴿ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النساء: ٢٥].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، كقوله تعالى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٦].

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب. كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم، كقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. ومنه قول النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر»(١).

الحادي عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم، كقوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يلقى الأعمال الصالحة وجزاؤها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠]، وقوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ [فصلت: ٣٥].

الثالث عشر: الإخبار أنه ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر، كقوله تعالى لموسى: ﴿ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [إبراهيم: ٥]. وقوله في أهل سبأ: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [سبأ: ١٩]. وقوله في سورة الشورى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ۝ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٣].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

---

(١) أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة (١٠/ ٢٣ رقم ١٣) والحاكم (٣/ ٦٢٤ رقم ٦٣٠٤) والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣ رقم ١١٢٤٣) وأحمد (١/ ٣٠٧) والقضاعي في مسند الشهاب (رقم ٧٤٥) وعبد ابن حميد (رقم ٦٣٦) والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٧-٢٨ رقم ١٠٧٤) وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٣١٥) وهناد في الزهد (رقم ٥٣٦) وحسنه العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٦٦).

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين[(١)]. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام، والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان، وبالتقوى والتوكل، وبالشكر والعمل الصالح والرحمة.

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر[(٢)] له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «خير عيش أدركناه بالصبر»[(٣)]. وأخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح أنه ضياء[(٤)] وقال: «من يتصبَّرْ يصبِّره الله»[(٥)]. وفي الحديث الصحيح: «عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر؛ فكان خيرًا له»[(٦)]. وقال للمرأة السوداء التي كانت تُصرع. فسألته: أن يدعو لها: «إن شئتِ صبرتِ؛ ولك الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله أن يعافيك»، فقالت: إني أتكشف فادع

---

(١) ذكر هذا القول ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٦٤) غير معزو لأحد، بقوله: قال بعض العلماء.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة عن علي ﷺ (٦/ ١٧٢ رقم ٣٠٤٣٩) وعبد الرزاق (١١/ ٤٦٩ رقم ٢١٠٣١) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٥٦٩) والعدني في الإيمان (رقم ١٩) وانظر: فيض القدير (٤/ ٢٣٤).

(٣) انظر: فيض القدير (٤/ ٢٣٢).

(٤) فعن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» أخرجه مسلم (رقم ٢٢٣) قال النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم (٣/ ١٠٠-١٠١): هذا حديث عظيم، أصل من أصول الإسلام، قد اشتمل على مهمات من قواعد الإسلام... إلى أن قال رحمه الله: وأما قوله ﷺ: «والصبر ضياء» فمعناه: الصبر المحبوب في الشرع، وهو الصبر على طاعة الله تعالى، والصبر عن معصيته، والصبر أيضاً على النائبات وأنواع المكاره في الدنيا، والمراد أن الصبر محمود ولا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً مستمراً على الصواب.

(٥) أخرجه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (رقم ١٠٥٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٠٤).

(٦) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٩٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٠٩).

الله: أن لا أتكشف، فدعا لها[١]. وأمر الأنصار ﷺ بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده، حتى يلقوه على الحوض[٢]. وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر، وأمر بالصبر عند المصيبة، وأخبر: أنه إنما يكون «**عند الصدمة الأولى**»[٣]. وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له، وهو الصبر والاحتساب، فإن ذلك يخفف مصيبته، ويوفر أجره، والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة، ويذهب الأجر. وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله، فقال: «**وما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا له وأوسع؛ من الصبر**»[٤].

و«**الصبر**» في اللغة: الحبس والكف، ومنه: قُتل فلان صبرًا، إذا أمسك وحبس. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] أي: احبس نفسك معهم.

فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى. وحبس الجوارح عن التشويش[٥].

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله. وصبر عن معصية الله. وصبر على امتحان الله.

فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب، والثالث: صبر على ما لا كسب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها؛ أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعهد فيها حيلة غير الصبر.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٥٢) ومسلم (رقم ٢٥٧٦) وانظر: عمدة القاري (١٧/ ١٠٦-١٠٩).

(٢) قال رسول الله ﷺ: «**إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**» أخرجه البخاري (رقم ٤٣٣٠) ومسلم (رقم ١٠٦١) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٦٩) (١٣/ ٤٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٢٨٣) ومسلم (رقم ٩٢٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٤٩-١٥٠) وشرح النووي (٦/ ٢٢٧) وعمدة القاري (٨/ ٦٧-٦٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٤٦٩) ومسلم (رقم ١٠٥٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٠٤) وشرح النووي (٧/ ١٤٥).

(٥) انظر: الوابل الصيب (ص١١) وفتح الباري (١١/ ٣٠٣) وفيض القدير (٢/ ٣١٨) (٤/ ٢٩١).

وأما صبره عن المعصية؛ فصبر اختيار ورضى، ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة، فإنه كان شابًّا، وداعية الشباب إليها قوية، وعَزِبًا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريبًا، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكًا، والمملوك أيضًا ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة. وذات منصب، وهي سيدته. وقد غاب الرقيب. وهي الداعية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل: بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها؛ صبر اختيارًا، وإيثارًا لما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟

وكان يقول[1]: الصبر على أداء الطاعات؛ أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة الطاعة؛ أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة؛ أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية. وله ـ رحمه الله ـ في ذلك مصنف قرره فيه بنحو من عشرين وجهًا. ليس هذا موضع ذكرها. انتهى.

***

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157) ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160)﴾.

---

(١) أي: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

[(١)]في المسند وصحيح مسلم وأبي داود والترمذي والنسائي: عن أم سلمة، عنه ﷺ أنه قال: «ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلُف لي خيرًا منها، إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيرًا منها»[(٢)].

وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته. فإنها تتضمن أصلين عظيمين، وإذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته.

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله ﷻ حقيقة. وقد جعله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير. وأيضًا فإنه محفوف بعدمين: عدم قبله، وعدم بعده، وملك العبد له نعمة معارة في زمن يسير. وأيضًا: فإنه ليس هو الذي أوجده من عدمه، حتى يكون ملكه حقيقة، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يُبقي عليه وجوده، فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقي. وأيضاً: فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهي لا تصرُّف الملَّاك، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق. ولابد أن يخلِّف الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربه فردًا، كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خُوِّله ونهايته، فكيف يفرح بموجود، أو يأسى على مفقود؟ ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء.

ومن علاجه: أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[(٣)]. قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ

(١) ٢٦٤ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٩١٨).

(٣) دعا عبادة بن الصامت ﷺ ابنه الوليد في مرض الموت، فقال له: يا بني اتق الله واعلم أنك لن تتقي الله ولن تبلغ العلم حتى تؤمن بالله وحده، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبه وكيف أؤمن بالقدر خيره وشره؟ فقال: تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، هذا القدر، فإن مت على غير هذا دخلت النار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، فقال: أي رب وما أكتب؟ قال: القدر. فجرى القلم في تلك الساعة ما كان وما هو كائن إلى الأبد» أخرجه الضياء في المختارة (٨/ ٣٥١-٣٥٢ رقم ٤٢٩) والطبراني في الأوسط (٦/ ٢٤٩-٢٥٠ رقم =

مِن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

ومن علاجه: أن ينظر إلى ما أصيب به، فيجد ربه قد أبقى عليه مثله أو أفضل منه، وادخر له ـ إن صبر ورضي ـ ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

ومن علاجه: أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب(١).

(٢)وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء، كل واحد خير من الدنيا وما عليها، وهي: صلواته تعالى عليهم، ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم. وأخبر أن الصبر من عزم الأمور في آيتين من كتابه. وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولي العزم من الرسل.

(٣)وقال عبد الله بن المبارك: أخبرنا عبد الله بن لهيعة، عن عطاء بن دينار: أن سعيد بن جبير قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر(٤).

٦٣١٨) وابن الجعد (رقم ٣٤٤٤) وأحمد (٥/ ٣١٧) والطبراني في مسند الشاميين (رقم ١٦٠٨) وحسنه محقق الأحاديث المختارة.

(١) كما فعلت الخنساء في رثاء أخيها صخر، حيث قالت:

ألا يـــا صـــخر لا أنـــساك حتـــى ... أفـــارق مهجتـــي ويـــشق رمـــسي
يـــذكرني طلـــوع الـــشمس صـــخرًا ... وأبكيـــه لكـــل غـــروب شـــمسِ
ولـــولا كثـــرة البـــاكين حـــولي ... علـــى إخـــوانهم لقتلـــت نفـــسي

ذكر هذه الأبيات الحافظ ابن حجر العسقلاني في الإصابة في تمييز الصحابة (٧/ ٦١٦).

(٢) ١١٨ عدة الصابرين.

(٣) ١٠١ عدة الصابرين.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٠٢ رقم ٤٨٥) (٢/ ٤٧٧ رقم٢٥٢٤) (٥/ ١٥٣٩ رقم ٨٨٢٨) وانظر: الدر المنثور (١/ ١٥٩) وتفسير ابن كثير (١/ ١٩٨).

فقوله: اعتراف العبد لله بما أصاب منه كأنه تفسير لقوله: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾، فيعترف أنه ملك لله، يتصرف فيه مالكه بما يريد.

وقوله: راجيًا به ما عند الله كأنه تفسير لقوله: ﴿ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ أي: نرد إليه، فيجزينا على صبرنا، ولا يضيع أجر المصيبة.

وقوله: وقد يجزع الرجل وهو يتجلد، أي: ليس الصبر بالتجلد، وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور، ورد اللسان عن الشكوى، فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر.

وقال يونس بن يزيد: سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه[(١)].

وقال قيس بن الحجاج في قول الله: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴿٥﴾ ﴾ [المعارج: ٥] قال: أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو[(٢)].

وكان شمر إذا عزى مصابًا قال: اصبر لما حكم ربُّك[(٣)].

وقال أبو عقيل: رأيت سالم بن عبد الله بن عمر بيده سوط، وعليه إزار في موت واقد بن عبد الله بن عمر، لا يسمع صارخة ينالها بالسوط إلا ضربها.

قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن جعفر بن مهران قال: قالت امرأة من قريش:

أما والذي لا خلد إلا لوجهه ... ومن ليس في العز المنيع له كفوا
لئن كان بدء الصبر مرًّا مذاقه ... لقد يجني من غبه الثمر الحلو[(٤)]

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٦١-٢٦٢) وانظر: عمدة القاري (٨/ ٩٦).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٩/ ٣٧٦) وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلى الحكيم الترمذي (٨/ ٢٨٠).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٥٧ رقم ١٢٠٧٢).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصبر (رقم ١٦٩).

قال: وأنشدني عمرو بن بكير:

صبرت فكان الصبر خير مغبة وهل جزع يجدي عليَّ فأجزع

ملكت دموع العين حتى رددتها إلى ناظري فالعين في القلب تدمع[1]

[2]فائدة: قولهم: الصلاة من الله بمعنى الرحمة؛ باطل من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الله تعالى غاير بينهما في قوله: ﴿ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌ ﴾ [البقرة: ١٥٧].

الثاني: أن سؤال الرحمة تشرع لكل مسلم، والصلاة تختص بالنبي ﷺ، وهي حق له ولآله، ولهذا منع كثير من العلماء من الصلاة على معين غيره، ولم يمنع أحد من الترحم على معين.

الثالث: أن رحمة الله عامة وسعت كل شيء، وصلاته خاصة بخواص عباده.

وقولهم: إن الصلاة من العباد بمعنى الدعاء مشكل من وجوه:

أحدها: أن الدعاء يكون بالخير والشر، والصلاة لا تكون إلا في الخير.

الثاني: أن دعوت تعدى باللام، وصليت لا تعدى إلا بـ على، ودعاء المعدى بعلى ليس بمعنى صلى، وهذا يدل على أن الصلاة ليست بمعنى الدعاء.

الثالث: أن فعل الدعاء يقتضي مدعوًّا ومدعوًّا له، تقول: دعوت الله لك بخير، وفعل الصلاة لا يقتضي ذلك، لا تقل: صليت الله عليك ولا لك؛ فدل على أنه ليس بمعناه، فأي تباين أظهر من هذا؟ ولكن التقليد يعمي عن إدراك الحقائق، فإياك والإخلاد إلى أرضه.

---

(١) هذا البيتان من بحر الطويل، وينسبان إلى إسحاق بن حسان الصفدي الخريمي وصفه أبو حاتم السجستاني بأشعر المولدين، أدركه الجاحظ وسمع منه، وعمي قبل وفاته وهو صاحب الرائية في وصف الفتنة بين الأمين والمأمون، أوردها الطبري في تاريخه، وهي من ١٣٥ بيتًا. وذكر البيتين ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٦/ ٣٣٧) (١٧/ ٤٣٨).

(٢) ٢٦ بدائع جـ١.

ورأيت لأبي القاسم السهيلي كلامًا حسنًا في اشتقاق الصلاة، وهذا لفظه قال: (معنى الصلاة) اللفظة حيث تصرفت ترجع إلى الحنو والعطف، إلا أن الحنو والعطف يكون محسوسًا ومعقولاً، فيضاف إلى الله منه ما يليق بجلاله، ويُنفى عنه ما يتقدس عنه، كما أن العلو محسوس ومعقول. فالمحسوس منه صفات الأجسام. والمعقول منه صفة ذي الجلال والإكرام، وهذا المعنى كثير موجود في الصفات، والكثير يكون صفة للمحسوسات وصفة للمعقولات، وهو من أسماء الرب تعالى، وقد تقدس عن مشابهة الأجسام ومضاهاة الأنام، فالمضاف إليه من هذه المعاني معقولة غير محسوسة.

وإذا ثبت هذا فالصلاة كما تسمى عطفًا وحنوًا تقول: اللهم اعطف علينا، أي: ارحمنا. قال الشاعر:

ومــا زلــت في لينــي لــه وتعطفــي   عليــه كــما تحنــو علــى الولــد الأم(١)

ورحمة العباد رقة في القلب إذا وجدها الراحم من نفسه؛ انعطف على المرحوم وانثنى عليه.

ورحمة الله للعباد جود وفضل، فإذا صلى عليه فقد أفضل عليه وأنعم، وهذه الأفعال إذا كانت من الله أو من العبد؛ فهي متعدية بعلى مخصوصة بالخير لا تخرج عنه إلى غيره، فقد رجعت كلها إلى معنى واحد؛ إلا أنها في معنى الدعاء. والرحمة صلاة معقولة، أي انحناء معقول غير محسوس ثمرته من العبد الدعاء؛ لأنه لا يقدر على أكثر منه، وثمرته من الله الإحسان والإنعام، فلم تختلف الصلاة في معناها، إنما اختلفت ثمرتها الصادرة عنها.

والصلاة التي هي الركوع والسجود انحناء محسوس، فلم يختلف المعنى فيها إلا من جهة المعقول والمحسوس، وليس ذلك باختلاف في الحقيقة، ولذلك تعدت

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الحلم (ص٤٣) وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٥٩/ ٤٣٠-٤٣١).

كلها بـ (على) واتفقت في اللفظ المشتق من الصلاة، ولم يجز صليتُ على العدو، أي: دعوت عليه، فقد صار معنى الصلاة أرق وأبلغ من معنى الرحمة، وإن كان راجعًا إليه، إذ ليس كل راحم ينحني على المرحوم، ولا ينعطف عليه.

(١) الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما تولد منها، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما تولد منها؛ ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة؛ فعليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه؛ لأن اتباعهم له تولد عن فعله، ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كفل من ذنب كل قاتل إلى يوم القيامة(٢)، وقد قال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله، والإنسان إنما يتوب عما يتعلق باختياره؟ قيل: التوبة منه بالندم عليه، وعدم إجابة دواعيه وموجباته، وحبس النفس عن ذلك.

فإن كان المتولد متعلقًا بالغير، فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان؛ ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده، كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى؛ ليضلوا الناس بذلك؛ أن يصلحوا العمل في نفوسهم ويبينوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

---

(١) ٧١ عدة الصابرين.

(٢) فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل» أخرجه البخاري (رقم ٣٣٣٥) ومسلم (رقم ١٦٧٧).

وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان ذنبهم؛ إفساد قلوب ضعفاء المؤمنين، وتحيزهم، واعتصامهم باليهود والمشركين أعداء الرسول، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة؛ أن يصلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل الكفار والمشركين، وأن يخصلوا دينهم لله بدل إظهارهم له رياءً وسمعة. فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها، والله المستعان.

***

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾.

(1) أصح القولين أن المعنى: يحبونهم كما يحبون الله، وسووا بين الله وبين أندادهم في الحب. ثم نفى ذلك عن المؤمنين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾. فإن الذين آمنوا أخلصوا حبهم لله لم يشركوا به معه غيره، وأما المشركون فلم يخلصوه لله.

والمقصود من الخلق والأمر إنما هو هذه المحبة، وهي أول دعوة الرسل، وآخر كلام العبد المؤمن الذي إذا مات عليه دخل الجنة؛ اعترافه وإقراره بهذه المحبة وإفراد الرب بها، فهو أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا إلى الله، وجميع الأعمال كالأدوات والآلات لها، وجميع المقامات وسائل إليها، وأسباب لتحصيلها وتكميلها وتحصينها من الشوائب والعلل؛ فهي قطب رحى السعادة، وروح الإيمان، وساق شجرة الإسلام؛ ولأجلها أنزل الله الكتاب والحديد: فالكتاب هاد إليها ودال عليها ومفصل لها، والحديد لمن خرج عنها وأشرك فيها مع الله غيره؛ ولأجلها خلقت الجنة والنار، فالجنة دار أهلها الذين أخلصوها لله وحده فأخلصهم

---

(١) ٢٦٦ طريق الهجرتين.

لها، والنار دار من أشرك فيها مع الله غيره وسوّىٰ بينه وبين الله فيها، كما أخبر تعالىٰ عن أهلها أنهم يقولون في النار لآلهتهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات؛ بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه هو تصحيح شهادة: أن لا إله إلا الله.

فحقيق لمن نصح نفسه وأحب سعادتها ونجاتها؛ أن يتيقظ لهذه المسألة علمًا وعملاً وحالاً، وتكون أهم الأشياء عنده، وأجل علومه وأعماله، فإن الشأن كله فيها، والمدار عليها، والسؤال يوم القيامة عنها...

(١)فإذا عُرف ذلك، فالمحبة هي التي تحرك المحبَّ في طلب محبوبه، الذي يكمل بحصوله له، فتحرك محب الرحمن، ومحب القرآن، ومحب العلم والإيمان، ومحب المتاع والأثمان، ومحب الأوثان والصلبان، ومحب النسوان والمردان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان. فتثير من كل قلب حركة إلىٰ محبوبه من هذه الأشياء، فيتحرك عند ذكر محبوبه منها دون غيره، ولهذا تجدُ محب النسوان والصبيان، ومحب قرآن الشيطان بالأصوات والألحان، لا يتحرك عند سماع العلم وشواهد الإيمان، ولا عند تلاوة القرآن، حتىٰ إذا ذكر له محبوبه اهتزَّ له وربا، وتحرك باطنه وظاهره شوقًا إليه وطربًا لذكره.

فكل هذه المحاب باطلة مضمحلة سوىٰ محبة الله وما والاها: من محبة رسوله، وكتابه، ودينه، وأوليائه، فهذه المحبة تدوم، وتدوم ثمرتها ونعيمها بدوام من تعلقت به، وفضلُها علىٰ سائر المحاب كفضل من تعلقت به علىٰ ما سواه، وإذا انقطعت علائق المحبين، وأسباب توادهم وتحابهم؛ لم تنقطع أسبابها، قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟

---

(١) ١٣٢ إغاثة جـ٢.

مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]. قال عطاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «المودة». وقال مجاهد: «تواصلهم في الدنيا» وقال الضحاك: «يعني تقطعت بهم الأرحام، وتفرقت بهم المنازل في النار»، وقال أبو صالح: «الأعمال»(١).

والكل حق، فإن الأسباب؛ هي الوُصَلُ التي كانت بينهم في الدنيا، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها. وأما أسباب الموحدين الملخصين لله؛ فاتصلت بهم ودام اتصالها بدوام معبودهم ومحبوبهم، فإن السبب تبعٌ لغايته في البقاء والانقطاع.

(٢)قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦] فالأسباب التي تقطعت بهم هي العلائق التي بغير الله ولغير الله، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها، وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبطلت؛ اضمحلت أسبابها وبطلت، فإن الأسباب تبطل ببطلان غاياتها، وتضمحل باضمحلالها. وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه، وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه، وكل سعي لغيره باطل ومضمحل.

وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا: من اضمحلال السعي والعلم والكد والخدمة، التي يفعلها العبد: لمتول أو أمير أو صاحب منصب أو مال، فإذا زال ذلك الذي عمل له؛ عدم ذلك العمل وبطل ذلك السعي، ولم يبق في يده سوى الحرمان؛ ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة: «**أليس عدلًا مني أني أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في الدنيا**»(٣) فيتولى عباد الأصنام والأوثان أصنامهم وأوثانهم، فتتساقط بهم في النار، ويتولى عابدو

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٧٠-٧٢) وتفسير الثوري (١/ ٥٤) والدر المنثور (١/ ٤٠٢) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٠٤) وفتح الباري (١١/ ٣٩٣) وعمدة القاري (٢٣/ ١١٠).

(٢) ١٢ طريق الهجرتين.

(٣) أخرجه بلفظ قريب الطبراني في الأوسط (١/ ٣٢ رقم ٨١) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٤٣): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه فرات بن السائب وهو ضعيف. وانظر: ذم التأويل لابن قدامة (ص٩).

الشمس والقمر والنجوم آلهتهم، فإذا كورت الشمس وانتثرت النجوم؛ اضمحلت تلك العبادة وبطلت، وصارت حسرة عليهم ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقة وأغبنهم يوم معاده؛ فإنه يحال على مفلس كل الإفلاس، بل على عدم. والموحد حوالته على المليء الكريم، فيا بُعد ما بين الحوالتين.

[(١)] والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك به، التي هي أكمل أنواع المحبة، مع أكمل أنواع الخضوع والذل، وهذا هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه. قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ الآية. [البقرة: ١٣٠] ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك، والله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وأصل الشرك بالله الإشراك مع الله في المحبة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به من دونه؛ فيتخذ الأنداد من دونه، يحبهم كحب الله. وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبًا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم.

وقيل: بل المعنى أنهم أشد حبًا لله من أصحاب الأنداد لله، فإنهم وإن أحبوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين أندادهم في المحبة؛ ضعفت محبتهم لله، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له؛ كانت أشد من محبة أولئك. والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة.

ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبة له؛ أنكر على من اتخذ من دونه وليًا أو شفيعًا غاية الإنكار، وجمع ذلك تارة، وأفرد أحدهما عن الآخر تارة، بالإنكار فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ

---

(١) ٢٥٤ الجواب الكافي.

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ [يونس: ٣]. وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة: ٤]. وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١]. وقال في الإفراد: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤]. وقال تعالى: ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الجاثية: ١٠].

فإذا والى العبد ربه وحده، واتخذه له وليًا من دون الله أن يتخذ أولئك الذين يسمون شفعاء، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين، فصاروا أولياءه في الله؛ بخلاف من اتخذ المخلوقين أولياء من دون الله، فهذا لون وذاك لون، والشفاعة الشركية الباطلة لون، والشفاعة الحق الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد لون، وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الشرك بالله، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والمقصود: أن حقيقة العبودية وموجباتها لا تخلص مع الإشراك بالله في المحبة؛ بخلاف المحبة لله فإنها من لوازم العبودية وموجباتها، فإن محبة رسول الله ﷺ بل تقديمه في الحب على الأنفس وعلى الآباء والأبناء؛ لا يتم الإيمان إلا بها؛ إذ محبته من محبة الله، وكذلك كل حب في الله ولله. كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**»(١). وفي لفظ في الصحيحين: «**لا يجد عبد طعم الإيمان إلا من كان في قلبه ثلاث خصال: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن**

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٦) ومسلم (رقم ٤٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٨٢-٨٣) وشرح النووي (٢/ ١٣).

يقذف في النار»(١). وفي الحديث الذي في السنن: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان»(٢). وفي حديث آخر: «ما تحابَّ رجلان في الله؛ إلا كان أفضلهما أشدَّهما حبًّا لصاحبه»(٣). فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها؛ وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك.

وههنا أربعة أنواع من الحب، يجب التفريق بينها، وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها:

أحدها: محبة الله، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه. فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله.

الثاني: محبة ما يحب الله، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر. وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث: الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحب الله، ولا يستقيم محبة ما يحب الله إلا بالحب فيه وله.

الرابع: المحبة مع الله وهي المحبة الشركية؛ وكل من أحب شيئًا مع الله: لا لله، ولا من أجله، ولا فيه، فقد اتخذه ندًّا من دون الله، وهذه محبة المشركين.

وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه، وهي المحبة الطبيعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه: كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٤١) ومسلم (رقم ٤٣) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٨١) وابن أبي شيبة (٧/ ١٣٠ رقم ٣٤٧٣٠) والطبراني في الكبير (٨/ ١٣٤ رقم ٧٦١٣) وفي مسند الشاميين (٢/ ٢٣٩ رقم ١٢٦٠) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٩٢ رقم ٩٠٢١).

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٥/ ١١٩-١٢٠ رقم ١٧٢٤) والحاكم (٤/ ١٨٩ رقم ٧٣٢٣) والطبراني في الأوسط (٣/ ١٩٢ رقم ٢٨٩٩) وأبو يعلى (٦/ ١٤٣ رقم ٣٤١٩) وابن الجعد (رقم ٣١٩٢) والطيالسي (رقم ٢٠٥٣) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٩٩ رقم ٩٠٤٩) وهناد في الزهد (رقم ٤٨٥) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٧٦) رواه الطبراني في الأوسط وأبو يعلى والبزار بنحوه ورجال أبي يعلى والبزار رجال الصحيح غير مبارك بن فضالة وقد وثقه غير واحد على ضعف فيه، وصححه الحاكم وحسنه محقق الأحاديث المختارة.

فتلك لا تُذم إلا إن ألهت عن ذكر الله، وشغلته عن محبته، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ٩]. وقال تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [النور: ٣٧].

ثم الخلة وهي تتضمن كمال المحبة ونهايتها؛ بحيث لا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه، وهذا المنصب خاصة للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما: إبراهيم ومحمد، كما قال ﷺ: «إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً»(١). وفي الصحيح عنه ﷺ: «لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله»(٢). وفي حديث آخر: «إني أبرأ إلى كل خليل من خلته»(٣).

ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه، فتعلق حبه بقلبه فأخذ منه شعبة؛ غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبحه، وكان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحاناً، ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه؛ ليخلص القلب للرب، فلما بادر الخليل عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال، وقدم محبة الله على محبة ولده؛ حصل المقصود فرفع الذبح وفدي بذبح عظيم، فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأسًا، بل لابد أن يبقي بعضه أو بدله، كما أبقى شريعة الفداء، وكما أبقى استحباب الصدقة عند المناجاة. وكما أبقى الخمس صلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها، وقال: «لا يبدل القول لدي خمس في الفعل وخمسون في الأجر»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٢).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٣٦ رقم ٨١٠٥) وفي فضائل الصحابة (رقم ٤) وابن ماجه (رقم ٩٣) وابن أبي شيبة (رقم ٣١٧٢٠) وابن أبي عاصم (٢/ ٥٧٦ رقم ١٢٢٦).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٤٢) ومسلم (رقم ١٦٣) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٣) (١٣/ ٤٨٦) وعمدة القاري (٤/ ٤٥) وشرح الزرقاني على موطأ مالك (١/ ٣٣٥-٣٣٦).

[(١)] المحبة ثلاثة أقسام: محبة الله، والمحبة له وفيه، والمحبة معه. فالمحبة له وفيه من تمام محبته وموجباتها لا من قواطعها، فإن محبة الحبيب تقتضي محبة ما يحب، ومحبة ما يعين على حبه، ويوصل إلى رضاه وقربه، وكيف لا يحب المؤمن ما يستعين به على مرضاة ربه، ويتوصل به إلى حبه وقربه؟

وأما المحبة مع الله فهي المحبة الشركية، وهي كمحبة أهل الأنداد لأندادهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وأصل الشرك الذي لا يغفره الله؛ هو الشرك في هذه المحبة، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الربَّ سبحانه في خلق السماوات والأرض، وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله، فوالوا عليها وعادوا عليها وتألّهوها، وقالوا: هذه آلهة صغارٌ تقربنا إلى الإله الأعظم، ففرقٌ بين محبة الله أصلًا، والمحبة له تبعًا، والمحبة معه شركًا، وعليك بتحقيق هذا الموضع، فإنه مفرق الطرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك.

ويُحكى أن الفُضيل دخل على ابنته في مرضها، فقالت له: يا أبتِ هل تحبني؟ قال: نعم، قالت: لا إله إلا الله! والله ما كنتُ أظنُّ فيك هذا، ولم أكن أظنك تحب مع الله أحدًا، ولكن أفرد الله بالمحبة، واجعل لي منك الرحمة، أي: يكون حبك لي حبَّ رحمةٍ، جعلها الله في قلب الوالد لولده، لا محبة مع الله، فلله حقٌّ من المحبة لا يشركه فيه غيره، وأظلم الظلم وضعُ تلك المحبة في غير موضعها، والتشريك بين الله وغيره فيها. فليتدبر اللبيب هذا الباب؛ فإنه من أنفع أبواب الكتاب إن شاء الله تعالى.

[(٢)] قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأخبر أن من أحب من دون الله شيئًا، كما يحب الله تعالى؛ فهو ممن اتخذ

---

(١) ٣١٤ روضة.

(٢) ٢٠ مدارج جـ ٣.

من دون الله أندادًا، فهذا ندٌّ في المحبة، لا في الخلق والربوبية؛ فإن أحدًا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية، بخلاف ند المحبة، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم، ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون الله.

والثاني: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ من محبة المشركين بالأنداد لله، فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها. والمحبة الخالصة: أشد من المشتركة، والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فإن فيها قولين:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله، فيكون قد أثبت لهم محبة الله؛ ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أندادًا.

والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يرجح القول الأول، ويقول: إنما ذُمُّوا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة. ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم، وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم، وهي مُحضرة معهم في العذاب: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]. ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية؛ وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم.

وهذا أيضًا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١] أي: يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم. وهذا أصح

القولين. وقيل: الباء بمعنى «عن» والمعنى: ثم الذين كفروا عن ربهم يعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره. وهذا ليس بقوي. إذ لا تقول العرب: عدلت بكذا، أي: عدلت عنه، وإنما جاء هذا في فعل السؤال، نحو: سألت بكذا، أي: عنه. كأنهم ضمنوه: اعتنيت به واهتممت، ونحو ذلك.

[1]إن محبة الله سبحانه والأُنس به، والشوق إلى لقائه، والرضى به وعنه؛ أصل الدين، وأصل أعماله وإرادته.

كما أن معرفته، والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أجلُّ علوم الدين كلها، فمعرفته أجل المعارف. وإرادة وجهه أجل المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته، ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال، وذلك أساس الحنيفية ملَّة إبراهيم. وقد قال تعالى لرسوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُوصي أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: **«أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملَّة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين»**[2].

وذلك هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وعليها قام دينُ الإسلام، الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين، وليس لله دينٌ سواه، ولا يقبل من أحد ديناً غيره. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

فمحبته تعالى، بل كونه أحب إلى العبد من كل ما سواه على الإطلاق، من أعظم واجبات الدين، وأكبر أصوله، وأجل قواعده، ومن أحب معه مخلوقًا مثل ما يحبه فهو

---

(١) ١٩٥ إغاثة جـ٢.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى(٦/ ٣ رقم ٩٨٢٩) والدارمي (رقم ٢٦٨٨) وأحمد (٣/ ٤٠٦) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٩٣) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١١٦): رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح.

من الشرك الذي لا يغفر لصاحبه، ولا يقبل معه عمل. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وإذا كان العبد لا يكون من أهل الإيمان؛ حتى يكون عبد الله ورسوله أحب إليه من نفسه وأهله وولده ووالده والناس أجمعين، ومحبته تبعٌ لمحبة الله، فما الظن بمحبته سبحانه؟ وهو سبحانه لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته، التي تتضمن كمال محبته، وكمال تعظيمه والذل له، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، وعلى ذلك وضع الثواب والعقاب، وأسست الجنة والنار، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد، وكما أنه سبحانه ليس كمثله شيء، فليس كمحبته وإجلاله وخوفه محبة وإجلالٌ ومخافة.

فالمخلوق كلما خفته استوحشت منه، وهربت منه، والله سبحانه كلما خفته أنست به وفررت إليه، والمخلوق يخاف ظلمه وعدوانه، والرب سبحانه إنما يخاف عدله وقسطه.

وكذلك المحبة، فإن محبة المخلوق إذا لم تكن لله؛ فهي عذاب للمحب ووبال عليه. وما يحصل له بها من التألم؛ أعظم مما يحصل له من اللذة. وكلما كانت أبعد عن الله؛ كان ألمها وعذابها أعظم.

هذا إلى ما في محبته من الإعراض عنك، والتجني عليك، وعدم الوفاء لك، إما لمزاحمة غيرك من المحبين له، وإما لكراهته ومعاداته لك، وإما لاشتغاله عنك بمصالحه وما هو أحب إليه منك، وإما لغير ذلك من الآفات.

وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن، فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها، ومميتها ومحييها، فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح،وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن، فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية أحلى، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من

محبته والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك؛ فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك؛ أتمُّ من كل نعيم، واللذة التي تناله؛ أعلىٰ من كل لذة.

كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: «إنه ليمرُّ بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب»[1].

وقال آخر: «إنه ليمر بالقلب أوقات يهتزُّ فيها طربًا بأنسه بالله وحبه له».

وقال آخر: «مساكين أهل الغفلة، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها»[2].

وقال آخر: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف»[3].

ووجدان هذه الأمور وذوقها؛ هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه، وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتمّ، والقرب منه أوفر؛ كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوىٰ.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب وإليه أقرب؛ وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه.

***

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

[4]هذه مناظرة حكاها الله بين المسلمين والكفار، فإن الكفار لجؤوا إلىٰ تقليد الآباء وظنوا أنه منجيهم، لإحسانهم ظنهم بهم فحكم الله بينهم بقوله: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ

(١) انظر: الوابل الصيب (ص ٧٠) وفيض القدير (١/ ٤٤٣).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٨٩).

(٣) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (رقم ٨٠) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٧٠) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦/ ٣٠٢-٣٠٣) وانظر: شرح حديث لبيك (ص ٦١) وفيض القدير (١/ ٤٤٣) وصفة الصفوة (٤/ ١٥٤).

(٤) ١٧٣ بدائع جـ٤.

ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وفي موضع آخر: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]. وفي موضع آخر: ﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤].

فأخبر عن بطلان هذه المحبة، وأنها لا تنجي من عذاب الله؛ لأن تقليد من ليس عنده علم ولا هدىٰ من الله ضلالة وسفه.

والمعنىٰ: ولو كان الشيطان يدعوهم إلىٰ عذاب السعير يقلدونهم، ولو كانوا لا علم عندهم ولا هدىٰ يقلدونهم أيضًا، وهذا شأن من لا غرض له في الهدىٰ ولا في اتباع الحق، إن غرضه بالتقليد إلا دفع الحق والحجة إذا لزمته؛ لأنه لو كان مقصوده الحق لاتبعه إذا ظهر له، وقد جئتكم بأهدىٰ مما وجدتم عليه آباءكم، فلو كنتم ممن يتبع الحق لاتبعتم ما جئتكم به، فأنتم لم تقلدوا الآباء لكونهم علىٰ حق فقد جئتكم بأهدىٰ مما وجدتموهم عليه، وإنما جعلتم تقليدهم جُنة لكم تدفعون بها الحق الذي جئتكم به.

***

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

[(١)]تضمن هذا المثل ناعقًا، أي: مُصَوِّتاً بالغنم وغيرها، ومنعوقًا به، وهو الدواب، فقيل: الناعق: العابد، وهو الداعي للصنم، والصنم هو المنعوق به المدعوُّ، وإن حال الكافر في دعائه، كحال من ينعق بما لا يسمعه، هذا قول طائفة منهم عبد الرحمن بن زيد وغيره. واستشكل صاحبُ الكشاف وجماعة معه هذا القول، وقالوا: قوله: ﴿ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ لا يساعد عليه؛ لأن الأصنام لا تسمع دعاء ولا نداء. وقد أجيب عن هذا الاستشكال بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن ﴿ إِلَّا ﴾ زائدة، والمعنىٰ: بما لا يسمع دُعاء ونداء؛ قالوا: وقد ذكر ذلك

(١) ١٨٢ أعلام جـ١.

الأصمعي في قول الشاعر:

حَـرَاجِـيجُ مَـا تَنْـفَـكُّ إِلَّا مُـنَـاخَـةً[1]

أي ما تنفك مناخة، وهذا جواب فاسد، فإن «إلا» لا تزاد في الكلام.

الجواب الثاني: أن التشبيه وقع في مطلق الدعاء لا في خصوصيات المدعو.

الجواب الثالث: أن المعنى أن مثل هؤلاء في دعائهم آلهتهم التي لا تَفْقه دعاءهم كمثل الناعق بغنمه، فلا ينتفع من نعيقه بشيء، غير أنه هو في دعاء ونداء، وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته إلا العناء.

وقيل: المعنى ومثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه مما يقول الراعي أكثر من الصوت؛ فالراعي هو داعي الكفار، والكفار هم البهائم المنعوق بها.

قال سيبويه: المعنى ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به[2]؛ وعلى قوله فيكون المعنى: ومثلُ الذين كفروا وداعيهم كمثل الغنم والناعق بها.

ولك أن تجعل هذا من التشبيه المركب، وأن تجعله من التشبيه المفرق، فإن جعلته من المركب كان تشبيها للكفار في عدم فقههم وانتفاعهم بالغنم التي ينعق بها الراعي، فلا تفقه من قوله شيئًا غير الصوت المجرد، الذي هو الدعاء والنداء، وإن جعلته من التشبيه المفرَّق فالذين كفروا بمنزلة البهائم، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعق بها، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق، والله أعلم.

---

(١) هذا صدر بيت من بحر الطويل، وينسب إلى ذي الرمة: غيلان بن نهيس العدوي، من فحول الطبقة الثانية في عصره. قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة. كان أكثر شعره تشبيبًا وبكاءَ أطلال. قال جرير: لو خرس ذو الرمة بعد قصيدته: ما بال عينيك منها الماء ينسك. لكان أشعر الناس، عشق مية المنقرية واشتهر بها، توفي بأصبهان سنة ١١٧هـ، وعجز البيت: على الخسف أو نرمي بها بلدًا قفرًا، ذكره الفيروزابادي في القاموس (ص١٧٣٩) وابن منظور في اللسان (١٠/ ٤٧٧) وجاء فيه: «قلائص» بدلًا من «حراجيج». وانظر: تحفة الأحوذي (٧/ ١٩٩) (٩/ ٢٧٥).

(٢) انظر: لسان العرب (١٠/ ٣٥٦).

(١)وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وسواء كان المعنى: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتاً مجردة، أو كان المعنى: ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذي ينعق بها، فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء، فالقولان متلازمان، بل هما واحد، وإنما كان التقدير الثاني أقرب إلى اللفظ وأبلغ في المعنى، فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام، فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان.

***

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

(٢)قد جمع الله خصال البر في قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ...﴾ إلى قوله: ﴿... وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمسة، التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنها الشرائع الظاهرة: من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنفقات الواجبة، وأنها الأعمال القلبية التي هي حقائقه: من الصبر والوفاء بالعهد، فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين: حقائقه وشرائعه، والأعمال المتعلقة بالجوارح، والقلب، وأصول الإيمان الخمسة.

(١) ٧٩ مفتاح جـ١.

(٢) ٥ التبوكية.

ثم أخبر سبحانه عن هذه إنها هي خصال التقوىٰ بعينها، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

(١)قوله: «كيف تردعون عن سفك الدم بسفكه، وإن ذلك كإزالة النجاسة بالنجاسة» سؤال في غاية الوهن والفساد، وأول ما يقال لسائله: هل ترىٰ ردع المفسدين والجناة عن فسادهم وجناياتهم وكف عدوانهم مستحسنًا في العقول موافقًا لمصالح العباد أو لا تراه كذلك؟

فإن قال: «لا أراه كذلك» كفانا مؤنة جوابه بإقراره علىٰ نفسه بمخالفة جميع طوائف بني آدم علىٰ اختلاف مللهم ونحلهم ودياناتهم وآرائهم، ولولا عقوبة الجناة والمفسدين لأهلك الناس بعضهم بعضًا، وفسد نظام العالم، وصارت حالُ الدوابِّ والأنعام والوحوش أحسن من حال بني آدم.

وإن قال: «بل لا تتم المصلحة إلا بذلك». قيل له: من المعلوم أن عقوبة الجناة والمفسدين لا تتم إلا بمؤلم يردعهم، ويجعل الجاني نكالاً وعظة لمن يريد أن يفعل مثل فعله، وعند هذا فلابد من إفساد شيء منه بحسب جريمته: في الكبر والصغر، والقلة والكثرة.

ومن المعلوم ببدائِهِ العقول: أن التسوية في العقوبات مع تفاوت الجرائم غير مستحسن؛ بل منافٍ للحكمة والمصلحة؛ فإنه إن ساوىٰ بينهم في أدنىٰ العقوبات لم

(١) ١٠٢ أعلام جـ٢.

تحصل مصلحة الزجر. وإن ساوى بينها في أعظمها كان خلاف الرحمة والحكمة؛ إذ لا يليق أن يقتل بالنظرة والقبلة ويقطع بسرقة الحبة والدينار.

وكذلك التفاوت بين العقوبات مع استواء الجرائم قبيح في الفطر والعقول، وكلاهما تأباه حكمة الرب تعالى وعدله وإحسانه إلى خلقه، فأوقع العقوبة تارة بإتلاف النفس إذا انتهت الجناية في عظمها إلى غاية القبح: كالجناية على النفس أو الدين، أو الجناية التي ضررها عام؛ فالمفسدة التي في هذه العقوبة خاصة، والمصلحة الحاصلة بها أضعاف أضعاف تلك المفسدة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

فلولا القصاص لفسد العالم، وأهلك الناس بعضهم بعضًا ابتداء واستيفاء، فكأن في القصاص دفعًا لمفسدة التجري على الدماء بالجناية وبالاستيفاء، وقد قالت العرب في جاهليتها. «القتل أنفى للقتل»[1] «وبسفك الدماء تحقن الدماء».

فلم تغسل النجاسة بالنجاسة، بل الجناية نجاسة والقصاص طهرة، وإذا لم يكن بد من موت القاتل ومن استحق القتل، فموته بالسيف أنفع له في عاجلته وآجلته، والموت به أسرع الموتات وأوحاها وأقلها ألمًا، فموته به مصلحة له ولأولياء القتيل ولعموم الناس، وجرى ذلك مجرى إتلاف الحيوان بذبحه لمصلحة الآدمي، فإنه حسن، وإن كان في ذبحه إضرار بالحيوان؛ فالمصالح المرتبة على ذبحه أضعاف أضعاف مفسدة إتلافه.

ثم هذا السؤال الفاسد؛ يظهر فساده وبطلانه بالموت الذي حتمه الله على عباده، وساوى فيه بين جميعهم، ولولاهُ لما هنأ العيش، ولا وسعتهم الأرزاق، ولضاقت عليهم المساكن والمدن والأسواق والطرقات، وفي مفارقة البغيض من اللذة والراحة ما في مواصلة الحبيب، والموت مخلص للحي، والموت مريح لكل منهما من صاحبه،

---

(١) انظر: الاعتقاد للبيهقي (ص ٢٦٠) وتفسير ابن كثير (١/ ٢١٢).

ومخرج من دار الابتلاء والامتحان و بابٌ للدخول في دار الحيوان.

جـزى الله عنـا المـوت خيـرًا فإنـه أبـر بنـا مـن كـل بـر وأعطـف
يعجـل تخليص النفـوس مـن الأذى ويـدني إلـى الـدار التـي هـي أشـرف(١)

فكم لله سبحانه على عباده الأحياء والأموات في الموت من نعمة لا تحصى، فكيف إذا كان فيه طهرة للمقتول، وحياة للنوع الإنسان، وتشفٍّ للمظلوم، وعدل بين القاتل والمقتول؛ فسبحان من تنزهت شريعته عن خلاف ما شرعها عليه من اقتراح العقول الفاسدة والآراء الضالة الجائرة.

وأما قوله: «لو كان ذلك مستحسنًا في العقول؛ لاستحسن في تحريق ثوبه، وتخريب داره، وذبح حيوانه، مقابلته بمثله».

فالجواب عن هذا: أن مفسدة تلك الجنايات تندفع بتغريمه نظير ما أتلفه عليه؛ فإن المثل يسد مسد المثل من كل وجه؛ فتصير المقابلة مفسدة محضة، كما ليس له أن يقتل ابنه أو غلامه مقابلة لقتله هو ابنه أو غلامه، فإن هذا شرع الظالمين المعتدين، الذي تنزه عنه شريعة أحكم الحاكمين. على أن للمقابلة في إتلاف المال بمثل فعله مساغًا في الاجتهاد.

وقد ذهب إليه بعض أهل العلم كما تقدم الإشارة إليه في عقوبة الكفار بإفساد أموالهم؛ إذا كانوا يفعلون ذلك بنا، أو كان يغيظهم، وهذا بخلاف قتل عبده إذا قتل عبده أو قتل فرسه أو عقر فرسه، فإن ذلك ظلم لغير مستحق.

ولكن السنة اقتضت التضمين بالمثل، لا إتلاف النظير، كما غرم النبي ﷺ إحدى زوجتيه التي كسرت إناء صاحبتها إناءً بدله، وقال: «إناء بإناء»(٢)، ولا ريب أن هذا

---

(١) هذان البيتان من بحر الطويل، وينسبان إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وذكرهما أبو منصور الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص ٥٤٥- ٥٤٦) وفي تحسين القبيح وتقبيح الحسن (ص ٥١) والجاحظ في المحاسن والأضداد (ص ٦٢٣- ٦٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٨١) وانظر: عمدة القاري (١٣/ ٣٦-٣٨) وتحفة الأحوذي (٤/ ٤٩٥).

أقل فسادًا، وأصلح للجهتين؛ لأن المتلف ماله إذا أخذ نظيره صار كمن لم يَفت عليه شيء، وانتفع بما أخذه عوض ماله، فإذا مكناه من إتلافه كان زيادة في إضاعة المال، وما يراد من التشفي وإذاقة الجاني ألم الإتلاف فحاصل بالغرم غالبًا، ولا التفات إلى الصور النادرة التي لا يتضرر الجاني فيها بالغرم، ولا شك أن هذا أليق بالعقل، وأبلغ في الصلاح، وأوفق للحكمة. وأيضًا فإنه لو شرع القصاص في الأموال ردعًا للجاني؛ لبقي جانب المجني عليه غير مراعى، بل يبقى متألمًا موتورًا غير مجبور، والشريعة إنما جاءت بجبر هذا وردع هذا.

فإن قيل: فخيروا المجني عليه بين أن يغرم الجاني أو يتلف عليه نظير ما أتلفه هو، كما خيرتموه في الجناية على طرفه، وخيرتم أولياء القتيل بين إتلاف الجاني النظير وبين أخذ الدية.

قيل: لا مصلحة في ذلك للجاني ولا للمجني عليه ولا لسائر الناس، وإنما هو زيادة فساد، لا مصلحة فيه بمجرد التشفي، ويكفي تغريمه وتعزيره في التشفي، والفرق بين الأموال والدماء في ذلك ظاهر.

فإن الجناية على النفوس والأعضاء؛ تُدخل من الغيظ والحنق والعداوة على المجني عليه وأوليائه ما لا تدخله جناية المال، ويدخل عليهم من الغضاضة والعار واحتمال الضيم والحمية والتحرق لأخذ الثأر؛ ما لا يجبره المال أبدًا.

حتى إن أولادهم وأعقابهم ليعيرون بذلك، ولأولياء القتيل من القصد في القصاص وإذاقة الجاني وأوليائه ما أذاقه للمجني عليه وأوليائه؛ ما ليس لمن حرق ثوبه أو عُقرت فرسه، والمجني عليه موتور هو وأولياؤه، فإن لم يوتر الجاني وأولياؤه ويجرعوا من الألم والغيظ ما تجرعه الأول لم يكن عدلاً.

وقد كانت العرب في جاهليتها؛ تعيب على من يأخذ الدية ويرضى بها من درك ثأره وشفاء غيظه، كقول قائلهم يهجو من أخذ الدية من الإبل:

وإن الذي أصبحتم تحلبونه ... دمٌ غير أن اللون ليس بأشقرا[(١)]

وقال جرير يعير من أخذ الدية فاشترى بها نخلاً:

ألا أبلغ بني حجر بن وهب ... بأن التمر حُلْوٌ في الشتاء[(٢)]

وقال آخر:

إذا صُبَّ ما في الوطب فاعلم بأنه ... دم الشيخ فاشرب من دم الشيخ أو دع[(٣)]

وقال آخر:

خليلان مختلفٌ شكلنا ... أريد العلاء ويبغي السمن

أريد دماء بني مالك ... ورأي المعلى بياضُ اللبن[(٤)]

وهذا وإن كانت الشريعة قد أبطلته وجاءت بما هو خير منه وأصلح في المعاش والمعاد: من تخيير الأولياء بين إدراك الثأر ونيل التشفي، وبين أخذ الدية؛ فإن القصد به أن العرب لم تكن تعير من أخذ بدل ماله، ولم تعده ضعفًا ولا عجزًا البتة، بخلاف من أخذ بدل دم وليه، فما سوَّى الله بين الأمرين في طبع ولا عقل ولا شرع، والإنسان

---

(١) ذكره الراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء وابن قتيبة الدينوري في المعاني الكبير في أبيات المعاني والجاحظ في الحيوان.

(٢) ذكر البيت الأصفهاني في محاضرات الأدباء وابن قتيبة الدينوري في المعاني الكبير والأصفهاني في الأغاني.

(٣) هذا البيت من بحر الطويل وينسب إلى جرير وفيه (القعب) بدل (الوطب) وذكره أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي في المحاضرات في الأدب واللغة.

(٤) هذان البيتان من بحر المتقارب وينسبان إلى الأفوه الأودي. صلاءة بن عمرو بن مالك شاعر يماني جاهلي، لقب بالأفوه لأنه كان غليظ الشفتين ظاهر الأسنان، كان سيد قومه وقائدهم في حروبهم وأحد الحكماء والشعراء في عصره، مات سنة ٥٤هـ قبل الهجرة. وينسبان أيضًا إلى الأسعر بن الحارث العفي، شاعر جاهلي قال هذا الشعر تعريضًا بإخوته لأبيه الذين لم يثأروا لمقتل أبيهم وقبلوا الدية وقاتليه وباعوا فرسه وأكلوا ثمنها. ولما شب وقوي ساعده ثأر لأبيه واستعاد خيله. وردت له قصيدة في كتب التراث، ووردت في الأصمعيات والوحشيات وحماسة البحتري. ولم يعلم سنة وفاته.
والبيتان ذكرهما ابن عبد ربه الأندلسي في العقد الفريد والزمخشري في ربيع الأبرار ونصوص الأخبار .

قد يخرق ثوبه عند الغيظ، ويذبح ماشيته، ويتلف ماله، فلا يلحقه في ذلك من المشقة والغيظ والازدراء به؛ ما يلحق من قتل نفسه أو جدع أنفه أو قلع عينه.

[(١)] إن قولكم إذا قتل إنسان إنسانًا عرض للعقل، هاهنا آراء متعارضة مختلفة إلى آخره.

فيقال: إن أردتم أن العقل يسوِّي بين ما شرعه الله من القصاص وبين تركه لمصلحة الجاني، فبهتٌ للعقل وكذب عليه؛ فإنه لا يستوي عند عاقل قط حسن الاقتصاص من الجاني بمثل ما فعل، وحسن تركه والإعراض عنه، ولا يعلم عقل صحيح يسوي بين الأمرين، وكيف يستوي أمران:

أحدهما: يستلزم فساد النوع وخراب العالم، وترك الانتصار للمظلوم، وتمكين الجناة من البغي والعدوان.

والثاني: يستلزم صلاح النوع وعمارة العالم، والانتصار للمظلوم، وردع الجناة والبغاة المعتدين.

فكان في القصاص حياة العالم وصلاح الوجود، وقد نبه تعالى على ذلك بقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وفي ضمن هذا الخطاب ما هو كالجواب لسؤال مقدر: إن إعدام هذه البنية الشريفة وإيلام هذه النفس وإعدامها في مقابلة إعدام المقتول؛ تكثير لمفسدة القتل، فلأية حكمة صدر هذا ممن وسعت رحمته كل شيء، وبهرت حكمته العقول؟ فتضمن الخطاب جواب ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ وذلك لأن القاتل إذا توهم أنه يقتل قصاصًا بمن قتله؛ كف عن القتل وارتدع وآثر حب حياته ونفسه، فكان فيه حياة له ولمن أراد قتله.

---

(١) ٩٦ مفتاح جـ٢.

ومن وجه آخر: وهو أنهم كانوا إذا قتل الرجل من عشيرتهم وقبيلتهم، قتلوا به كل من وجدوه من عشيرة القاتل وحيه وقبيلته، وكان في ذلك من الفساد والهلاك ما يعم ضرره وتشتد مؤنته. فشرع الله تعالى القصاص، وأن لا يقتل بالمقتول غير قاتله؛ ففي ذلك حياة عشيرته وحيه وأقاربه، ولم تكن الحياة في القصاص من حيث إنه قتل؛ بل من حيث كونه قصاصاً يؤخذ القاتل وحده بالمقتول لا غير، فتضمن القصاص الحياة في الوجهين.

وتأمل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز والبلاغة والفصاحة والمعنى العظيم. فصدر الآية بقوله: ﴿ وَلَكُمْ ﴾ المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم عائدة إليكم، فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحسانًا إليكم، فمنفعته ومصلحته لكم لا لمن لا يبلغ العباد ضره ونفعه. ثم عقبه بقوله: ﴿ فِى ٱلْقِصَاصِ ﴾ إيذانًا بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل، وهو أن يفعل به كما فعل.

والقصاص في اللغة: المماثلة، وحقيقته راجعة إلى الاتباع. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ [القصص: ١١] أي: اتبعي أثره. ومنه قوله: ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف: ٦٤] أي: يقصان الأثر ويتبعانه[(١)]. ومنه قص الحديث واقتصاصه، لأنه يتبع بعضه بعضًا في الذكر، فسمي جزاء الجاني قصاصًا؛ لأنه يتبع أثره فيفعل به كما فعل، وهذا أحد ما يستدل به على أن يفعل بالجاني كما فعل، فيقتل بمثل ما قتل به لتحقيق بمعنى القصاص.

وقد ذكرنا أدلة المسألة من الطرفين، وترجيح القول الراجح بالنص والأثر والمعقول في كتاب تهذيب السنن.

ونكّر سبحانه الحياة تعظيمًا وتفخيمًا لشأنها، وليس المراد حياة ما؛ بل المعنى: أن في القصاص؛ حصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس المؤثرة عندها المستحسنة في كل

---

(١) انظر: مشارق الأنوار (٢/ ١٨٨) ولسان العرب (٧/ ٧٣-٧٤).

عقل، والتنكير كثيرًا ما يجيء للتعظيم والتفخيم كقوله: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقوله: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٤].

ثم خص أولي الألباب وهم: أولو العقول التي عقلت عن الله أمره ونهيه وحكمته، إذ هم المنتفعون بالخطاب، ووازن بين هذه الكلمات وبين قولهم: «القتل أنفى للقتل» ليتبين مقدار التفاوت وعظمة القرآن وجلالته.

والوجه الخامس والخمسون: قولكم: إن القصاص إتلاف بإزاء إتلاف، وعدوان في مقابلة عدوان، ولا يحيا الأول بقتل الثاني؛ ففيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين، وأما مصلحة الردع والزجر واستبقاء النوع فأمر متوهم، وفي القصاص استهلاك محقق.

فيقال: هذا الكلام من أفسد الكلام وأبينه بطلانًا؛ فإنه يتضمن التسوية بين القبيح والحسن، ونفي حسن القصاص الذي اتفقت العقول والديانات على حسنه وصلاح الوجود به، وهل يستوي في عقل أو دين أو فطرة القتل ظلمًا وعدوانًا بغير حق، والقتل قصاصًا وجزاء بحق؟!

ونظير هذه التسوية تسوية المشركين بين الربا والبيع؛ لاستوائهما في صورة العقد، ومعلوم أن استواء الفعلين في الصورة لا يوجب استواءهما في الحقيقة، ومدعي ذلك في غاية المكابرة.

وهل يدل استواء السجود لله، والسجود للصنم في الصورة الظاهرة وهو وضع الجبهة على الأرض؛ على أنهما سواء في الحقيقة حتى يتحير العقل بينهما ويتعارضان فيه؟! ويكفي في فساد هذا إطباق العقلاء قاطبة على قبح القتل الذي هو ظلم وبغي وعدوان، وحسن القتل الذي هو جزاء وقصاص وردع وزجر.

والفرق بين هذين؛ مثل الفرق بين الزنا والنكاح، بل أعظم وأظهر، بل الفرق بينهما من جنس الفرق بين الإصلاح في الأرض والإفساد فيها، فما تعارض في عقل

صحيح قط هذان الأمران، حتى يتحير بينهما أيهما يؤثره ويختاره؟

وقولكم: إنه إتلاف بإزاء إتلاف وعدوان في مقابلة عدوان فكذلك هو، لكن إتلاف حسن هو مصلحة وحكمة وصلاح للعالم، في مقابلة إتلاف هو فساد وسفه وخراب للعالم، فأنّى يستويان؟! أم كيف يعتدلان حتى يتحير العقل بين الإتلاف الحسن وتركه؟!

وقولكم: «لا يحيا الأول بقتل الثاني» قلنا: يحيا به عدد كثير من الناس؛ إذ لو ترك ولم يؤخذ على يديه لأهلك الناس بعضهم بعضًا، فإن لم يكن في قتل الثاني حياة للأول ففيه حياة العالم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة: ١٧٩]. لكن هذا المعنى لا يدركه حق الإدراك إلا أولو الألباب.

فأين هذه الشريعة، وهذه الحكمة وهذه المصلحة؛ من هذا الهذيان الفاسد وأن يقال: قتل الجاني إتلاف بإزاء إتلاف، وعدوان في مقابلة عدوان فيكون قبيحًا، لولا الشرع؟! فوازن بين هذا وبين ما شرعه الله وجعل مصالح عباده منوطة به.

وقولكم: فيه تكثير المفسدة بإعدام النفسين. فيقال: لو أعطيتم رتب المصالح والمفاسد حقها؛ لم ترضوا بهذا الكلام الفاسد، فإن الشرائع والفطر والعقول متفقة على تقديم المصلحة الراجحة، وعلى ذلك قام العالم، وما نحن فيه كذلك فإنه احتمال لمفسدة إتلاف الجاني إلى هذه المفسدة العامة، فمن تحير عقله بين هذين المفسدتين فلفساد فيه.

والعقلاء قاطبة متفقون على أنه يحسن إتلاف جزء لسلامة كل: كقطع الأصبع أو اليد المتآكلة لسلامة سائر البدن، ولذلك يحسن الإيلام لدفع إيلام أعظم منه، كقطع العروق وبط الخراج ونحوه.

فلو طرد العقلاء قياسكم هذا الفاسد، وقالوا: هذا إيلام محقق لدفع إيلام متوهم، لفسد الجسد جملة، ولا فرق عند العقول بين هذا وبين قياسكم في الفساد.

الوجه السادس والخمسون: قولكم: إن مصلحة الردع والزجر وإحياء النوع أمر

متوهم. كلام بيّن فساده؛ بل هو أمر متحقق وقوعه عادة، ويدل عليه ما نشاهده من الفساد العام عند ترك الجناة والمفسدين وإهمالهم وعدم الأخذ علىٰ أيديهم، والمتوهم من زعم أن ذلك موهوم وهو بمثابة من دهمه العدو، فقال: لا نعرض أنفسنا لمشقة قتالهم: إنه مفسدة متحققة وأما استيلاؤهم علىٰ بلادنا وسبيهم ذرارينا وقتل مقاتلتنا فموهوم. فياليت شعري من الواهم المخطئ في وهمه؟!

ونظيره أيضًا: أن الرجل إذا تبيغ به الدم وتضرر إلىٰ إخراجه، لا يتعرض لشق جلده وقطع عروقه؛ لأنه ألم محقق لا موهوم، ولو اطرد هذا القياس الفاسد لخرب العالم وتعطلت الشرائع، والاعتماد في طلب مصالح الدارين ودفع مفاسدهما مبني علىٰ هذا الذي سميتموه أنتم موهوماً، فالعمال في الدنيا إنما يتصرفون بناء علىٰ الغالب المعتاد الذي اطردت به العادة، وإن لم يجزموا به فإن الغالب صدق العادة واطرادها عند قيام أسبابها، فالتاجر يتحمل مشقة السفر في البر والبحر، بناء علىٰ أنه يسلم ويغنم، فلو اطرد هذا القياس الفاسد، وقال: السفر مشقة متحققة، والكسب أمر موهوم؛ لتعطلت أسفار الناس بالكلية.

وكذلك عمال الآخرة لو قالوا: تعب العمل ومشقته أمر متحقق، وحسن الخاتمة أمر موهوم؛ لعطلوا الأعمال جملة، وكذلك الأجراء والصُّنَّاع والملوك والجند وكل طالب أمر من الأمور الدنيوية والأخروية، لولا بناؤه عليالغالب وما جرت به العادة؛ لما احتمل المشقة المتيقنة لأمر منتظر.

ومن هاهنا قيل: إن إنكار هذه المسألة يستلزم تعطيل الدنيا والآخرة من وجوه متعددة.

الوجه السابع والخمسون: قولكم: ويعارضه معنىٰ ثالث وراءهما، فيفكر العقل في أنواع وشروط أخرىٰ وراء مجرد الإنسانية: من العقل والبلوغ، والعلم والجهل، والكمال والنقص، والقرابة والأجنبية. فيتحير العقل كل التحير، فلابد إذًا من شارع، يفصل هذه الخطة، ويعين قانونًا يطرد عليه أمر الأمة، ويستقيم عليه مصالحهم.

فيقال: لا ريب أن الشرائع تأتي بما لا تستقل العقول بإدراكه، فإذا جاءت به الشريعة اهتدىٰ العقل حينئذ إلىٰ وجه حسن مأموره وقبح منهيه؛ فسرته الشريعة علىٰ وجه الحكمة والمصلحة الباعثين لشرعه، فهذا مما لا ينكر، وهذا الذي قلنا فيه: «إن الشرائع تأتي بمجارات العقول لا بمحالات العقول».

ونحن لم ندع ولا عاقل قط: أن العقل يستقل بجميع تفاصيل ما جاءت به الشريعة؛ بحيث لو ترك وحده لاهتدىٰ إلىٰ كل ما جاءت به.

إذا عرف هذا فغاية ما ذكرتم: أن الشريعة الكاملة اشترطت في وجوب القصاص شروطًا لا يهتدي العقل إليها، وأي شيء يلزم من هذا، وماذا يقبح لكم ومنازعوكم يسلمونه لكم؟.

وقولكم: إن هذا معارض للوصف المقتضي لثبوت القصاص من قيام مصلحة العالم: إما غفلة عن الشروط المعارضة، وإما اصطلاح طارٍ سيم فيه ما لا يهتدي العقل إليه من شروط اقتضاء الوصف لموجبه معارضة.

فيا لله العجب! أي معارضة هاهنا إذا كان العقل والفطرة قد شهدا بحسن القتل قصاصًا، وانتظامه للعالم؟ وتوقفًا في اقتضاء هذا الوصف هل يضم إليه شرط آخر غيره، أم يكفي بمجرده؟ وفي تعيين تلك الشروط فأدرك العقل ما استقل بإدراكه، وتوقف عما لا يستقل بإدراكه حتىٰ اهتدىٰ إليه بنور الشريعة...

(١) وأما معاقبة السارق بقطع يده وترك معاقبة الزاني بقطع فرجه، ففي غاية الحكمة والمصلحة، وليس في حكمة الله ومصلحة خلقه وعنايته ورحمته بهم أن يتلف علىٰ كل جان كل عضو عصاه به، فيشرِّع: قلع عين من نظر إلىٰ المحرم، وقطع أذن من استمع إليه، ولسان من تكلم به، ويد من لطم غيره عدوانًا، ولا خفاء بما في هذا من الإسراف والتجاوز في العقوبة وقلب مراتبها.

وأسماء الرب الحسنىٰ وصفاته العليا وأفعاله الحميدة تأبىٰ ذلك. وليس مقصود

---

(١) ١٠٦ أعلام ج٢.

الشارع مجرد الأمن من المعاودة ليس إلا، ولو أريد هذا لكان قتل صاحب الجريمة فقط، وإنما المقصود الزجر والنكال والعقوبة على الجريمة، وأن يكون إلى كف عدوانه أقرب، وأن يعتبر به غيره، وأن يحدث له ما يذوقه من الألم توبة نصوحًا، وأن يذكره ذلك بعقوبة الآخرة، إلى غير ذلك من الحكم والمصالح.

ثم إن في حد السرقة معنى آخر، وهو: أن السرقة إنما تقع من فاعلها سرًّا كما يقتضيه اسمها، ولهذا يقولون: «فلان ينظر إلى فلان مسارقة»[1] إذا كان ينظر إليه نظرًا خفيًّا لا يريد أن يفطن له، والعازم على السرقة مختفٍ كاتم خائف أن يُشْعَر بمكانه فيؤخذ به، ثم هو مستعد للهرب والخلاص بنفسه إذا أخذ الشيء، واليدان للإنسان كالجناحين للطائر في إعانته على الطيران، ولهذا يقال: «وصلت جناح فلان»، إذا رأيته يسير منفردًا فانضممت إليه لتصحبه، فعوقب السارق بقطع اليد، قصًّا لجناحه، وتسهيلًا لأخذه إن عاود السرقة، فإذا فُعِلَ به هذا في أول مرة، بقي مقصوص أحد الجناحين ضعيفًا في العدو، ثم يقطع في الثانية رجله، فيزداد ضعفًا في عدوه فلا يكاد يفوت الطالب، ثم تقطع يده الأخرى في الثالثة ورجله الأخرى في الرابعة، فيبقى لحما على وضمٍ؛ فيستريح ويريح.

وأما الزاني فإنه يزني بجميع بدنه، والتلذذ بقضاء شهوته يعم البدن، والغالب من فعله وقوعه برضا المزني بها، فهو غير خائف ما يخافه السارق من الطلب، فعوقب بما يعم بدنه: من الجلد مرة، والقتل بالحجارة مرة.

ولما كان الزنا من أمهات الجرائم وكبار المعاصي؛ لما فيه من اختلاط الأنساب الذي يبطل معه التعارف والتناصر على إحياء الدين، وفي هذا هلاك الحرث والنسل، فشاكل في معانيه أو في أكثرها القتل الذي فيه هلاك ذلك؛ فزجر عنه بالقصاص ليرتدع عن مثل فعله من يهم به، فيعود ذلك بعمارة الدنيا وصلاح العالم الموصل إلى إقامة العبادات الموصلة إلى نعيم الآخرة.

---

(١) انظر: لسان العرب (١٣/ ١٤٥) وتفسير ابن كثير (٤/ ١٢١).

ثم إن للزاني حالتين:

إحداهما: أن يكون محصنًا قد تزوَّج، فعلم ما يقع به من العفاف عن الفروج المحرمة، واستغنى به عنها، وأحرز نفسه عن التعرض لحد الزنا، فزال عذره من جميع الوجوه في تخطي ذلك إلى مواقعة الحرام.

الثانية: أن يكون بكرًا، لم يعلم ما علمه المحصن ولا عمل ما عمله؛ فحصل له من العذر بعض ما أوجب له التخفيف، فحقن دمه، وزجر بإيلام جميع بدنه بأعلى أنواع الجلد؛ ردعا على المعاودة للاستمتاع بالحرام، وبعثًا له على القنع بما رزقه الله من الحلال. وهذا في غاية الحكمة والمصلحة، جامع للتخفيف في موضعه والتغليظ في موضعه. وأين هذا من قطع لسان الشاتم والقاذف وما فيه من الإسراف والعدوان؟

ثم إن قطع فرج الزاني فيه من تعطيل النسل وقطعه؛ عكس مقصود الرب تعالى من تكثير الذرية وذريتهم فيما جعل لهم من أزواجهم، وفيه من المفاسد أضعاف ما يتوهم فيه من مصلحة الزجر، وفيه إخلاء جميع البدن من العقوبة، وقد حصلت جريمة الزنا بجميع أجزائه، فكان من العدل أن تعمه العقوبة، ثم إنه غير متصور في حق المرأة، وكلاهما زان؛ فلا بد أن يستويا في العقوبة، فكان شرع الله سبحانه أكمل من اقتراح المقترحين.

وتأمل كيف جاء إتلاف النفوس؛ في مقابلة أكبر الكبائر وأعظمها ضررًا وأشدها فسادًا للعالم، وهي: الكفر الأصلي والطارئ، والقتل، وزنى المحصن.

وإذا تأمل العاقل فساد الوجود رآه من هذه الجهات الثلاث، وهذه هي الثلاث التي أجاب عنها النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود بها، حيث قال له: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل الله ندًّا وهو خلقك» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك»(١) فأنزل الله

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٧٧) ومسلم (رقم ٨٦).

ﷺ تصديق ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية. [الفرقان: ٦٧].

ثم لما كان سرقة الأموال تلي ذلك في الضرر وهو دونه، جعل عقوبته قطع الطرف.

ثم لما كان القذف دون سرقة المال في المفسدة، جعل عقوبته دون ذلك وهو الجلد.

ثم لما كان شرب المسكر أقل مفسدة من ذلك، جعل حده دون حد هذه الجنايات كلها.

ثم لما كانت مفاسد الجرائم بعد متفاوتة غير منضبطة: في الشدة والضعف، والقلة والكثرة، وهي ما بين النظرة والخلوة والمعانقة؛ جعلت عقوبتها راجعة إلى اجتهاد الأئمة وولاة الأمور، بحسب المصلحة في كل زمان ومكان، وبحسب أرباب الجرائم في أنفسهم؛ فمن سوَّى بين الناس في ذلك وبين الأزمنة والأمكنة والأحوال؛ لم يفقه حكمة الشرع، واختلفت عليه أقوال الصحابة وسيرة الخلفاء الراشدين وكثير من النصوص، ورأى عمر قد زاد في حد الخمر على أربعين، والنبي ﷺ إنما جلد أربعين(١)، وعزَّر بأمور لم يعزر بها النبي ﷺ، وأنفذ على الناس أشياء عفا عنها النبي ﷺ؛ فيظن ذلك تعارضًا وتناقضًا، وإنما أتى من قصور علمه وفهمه، وبالله التوفيق.

وأما قوله: «وجعل حد الرقيق على النصف من حد الحر(٢)، وحاجتهما إلى الزجر واحدة» فلا ريب أن الشارع فرق بين الحر والعبد في أحكام، وسوى بينهما في أحكام، فسوى بينهما في الإيمان والإسلام ووجوب العبادات البدنية: كالطهارة والصلاة والصوم لاستوائهما في سببها، وفرق بينهما في العبادات المالية: كالحج والزكاة والتكفير بالمال؛ لافتراقهما في سببها، وأما الحدود فلما كان وقوع المعصية من الحر أقبح من وقوعها من العبد من جهة كمال نعمة الله تعالى عليه بالحرية، وأن

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٨/ ٣١٨ رقم ١٧٣٠٧) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ١٥٢) والطيالسي (رقم ١٧٣) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٦٩-٧٢) وشرح النووي (١١/ ٢١٥-٢١٧).

(٢) انظر: المحلى لابن حزم (١١/ ١٦١) وبداية المجتهد (٢/ ٣٣٢).

جعله مالكًا لا مملوكًا، ولم يجعله تحت قهر غيره وتصرفه فيه، ومن جهة تمكنه بأسباب القدرة من الاستغناء عن المعصية بما عوَّض الله عنها من المباحات، فقابل النعمة التامة بضدها، واستعمل القدرة في المعصية؛ فاستحق من العقوبة أكثر مما يستحقه من هو أخفض منه رتبة وأنقص منزلة، فإن الرجل كلما كانت نعمة الله عليه أتم، كانت عقوبته إذا ارتكب الجرائم أتم؛ ولهذا قال تعالى في حق من أتم نعمته عليهن من النساء: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٠-٣١].

وهذا على وفق قضايا العقول ومستحسناتها؛ فإن العبد كلما كملت نعمة الله عليه ينبغي له أن تكون طاعته له أكمل، وشكره له أتم، ومعصيته له أقبح، وشدة العقوبة تابعة لقبح المعصية؛ ولهذا كان أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالمًا لم ينفعه الله بعلمه(١)، فإن نعمة الله عليه بالعلم أعظم من نعمته على الجاهل، وصدور المعصية منه أقبح من صدورها من الجاهل، ولا يستوي عند الملوك والرؤساء من عصاهم من خواصهم وحشمهم ومن هو قريب منهم، ومن عصاهم من الأطراف والبعداء؛ فجعل حد العبد أخف من حد الحر جمعًا بين حكمة الزجر وحكمة نقصه، ولهذا كان على النصف منه في النكاح والطلاق والعدة، إظهارًا لشرف الحرية وخطرها، وإعطاء لكل مرتبة حقها من الأمر، كما أعطاها حقها من القدر، ولا تنتقض هذه الحكمة بإعطاء العبد في الآخرة أجرين، بل هذا محض الحكمة؛ فإن العبد كان عليه في الدنيا حقان حق لله، وحق لسيده، فأعطي بإزاء قيامه بكل حق أجرًا(٢)، فاتفقت حكمة الشرع والقدر

---

(١) يروى عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه» أخرجه الطبراني في الصغير (رقم ٥٠٧) وانظر: فيض القدير (١/ ٥١٨).

(٢) قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة يطؤها، فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها =

والجزاء، والحمد لله رب العالمين.

[(١)]ومن ذلك المماثلة في القصاص في الجنايات الثلاث: على النفوس والأموال والأعراض؛ فهذه ثلاث مسائل:

الأولى: هل يفعل بالجاني كما فعل بالمجني عليه؟

فإن كان الفعل محرمًا لحق الله: كاللواط وتجريعه الخمر لم يفعل به كما فعل اتفاقًا. وإن كان غير ذلك: كتحريقه بالنار وإلقائه في الماء، ورضِّ رأسه بالحجر، ومنعه من الطعام والشراب؛ حتى يموت، فمالك والشافعي وأحمد في إحدى الروايات عنه؛ يفعلون به كما فعل، ولا فرق بين الجرح المزهق وغيره.

وأبو حنيفة وأحمد في رواية عنه يقولان: لا يقتل إلا بالسيف في العنق خاصة.

وأحمد في رواية ثالثة يقول: إن كان الجرح مزهقًا فعل به كما فعل، وإلا قتل بالسيف. وفي رواية رابعة يقول: إن كان مُزهقًا أو موجبًا للقود بنفسه لو انفرد فعل به كما فعل، وإن كان غير ذلك قتل بالسيف[(٢)].

والكتاب والميزان مع القول الأول، وبه جاءت السنة، فإن النبي ﷺ، رضَّ رأس اليهودي بين حجرين كما فعل بالجارية[(٣)]، وليس هذا قتلاً لنقضه العهدَ، لأن ناقض العهد إنما يقتل بالسيف في العنق. وفي أثر مرفوع: «**من حرق حرقناه، ومن غرق غرقناه**»[(٤)].

= فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران» أخرجه البخاري (رقم ٩٧) ومسلم (رقم ١٥٤).

(١) ٣٢٧ أعلام جـ١.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٥٣) وعمدة القاري (٢٤/ ٣٩).

(٣) فعن أنس ﷺ أن يهوديًا رضَّ رأس جارية بين حجرين، قيل: من فعل هذا بك؟ أفلان. أفلان؟ حتى سُمِّي اليهودي، فأومأت برأسها، فأخذ اليهودي فاعترف، فأمر به النبي ﷺ فرضَ رأسه بين حجرين، أخرجه البخاري (رقم ٢٤١٣) ومسلم (رقم ١٦٧٢) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٩٩) وعمدة القاري (١٢/ ٢٥٢).

(٤) قال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (٢/ ٢٦٥ رقم ٢٢٢٢): رواه البيهقي من رواية عمران بن يزيد =

وحديث: «**لا قود إلا بالسيف**»[١] قال الإمام أحمد: ليس إسناده بجيد[٢]، والثابت عن الصحابة أنه يفعل به كما فعل، فقد اتفق على ذلك: الكتاب والسنة والقياس وآثار الصحابة، واسمُ القصاص يقتضيه لأنه يستلزم المماثلة.

المسألة الثانية: إتلاف المال؛ فإن كان مما له حرمة كالحيوان والعبيد؛ فليس له أن يتلف ماله كما أتلف ماله، وإن لم تكن له حرمة كالثوب يشقه والإناء يكسره؛ فالمشهور أنه ليس له أن يتلف عليه نظير ما أتلفه، بل له القيمة أو المثل كما تقدم.

والقياس يتقضي أن له أن يفعل بنظير ما أتلفه عليه كما فعله الجاني به؛ فيشق ثوبه كما شق ثوبه، ويكسر عصاه كما كسر عصاه إذا كانا متساويين، وهذا من العدل، وليس مع من منعه نص قياس ولا إجماع! فإن هذا ليس بحرام لحق الله، وليست حرمة المال أعظم من حرمة النفس والأطراف، وإذا مكنه الشارع أن يتلف طرفه بطرفه فتمكينه من إتلاف ماله في مقابلة ماله؛ هو أولى وأحرى، وإن حكمة القصاص من التشفي ودرك الغيظ؛ لا تحصل إلا بذلك، ولأنه قد يكون له غرض في أذاه وإتلاف ثيابه ويعطيه قيمتها، ولا يشق ذلك عليه؛ لكثرة ماله فيشفي نفسه منه بذلك، ويبقى المجني عليه بغبنه وغيظه، فكيف يقع إعطاؤه القيمة من شفاء غيظه ودرك ثأره وبرد قلبه وإذاقة الجاني من الأذى ما ذاق هو؟ فحكمة هذه الشريعة الكاملة الباهرة وقياسها

بن البراء عن أبيه عن جده، وقال في المعرفة: في إسناده بعض من يجهل وقال ابن الجوزي: لا يثبت عن رسول الله ﷺ، إنما قاله زياد في خطبته، وانظر: تلخيص الحبير (٤/ ١٩) والمغني (٨/ ٢٤٠) وتحفة الأحوذي (٤/ ٥٤٢).

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٦٦٧، ٢٦٦٨) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٦٣ رقم ١٥٨٧٠) والدارقطني (٣/ ٨٨ رقم ٢٢) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ١٨٤) والطبراني في الكبير (١٠/ ٨٩ رقم ١٠٠٤٤) والبزار (٩/ ١١٥ رقم ٣٦٦٣) قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٩١): رواه الطبراني وفيه أبو معاذ سليمان بن أرقم وهو متروك، وقال أيضًا: رواه البزار وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف، وانظر: مصباح الزجاجة (٣/ ١٢٩) وضعفه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ٢٠٠).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٥٣) والمغني (٨/ ٢٤٠).

معًا؛ يأبى ذلك وقوله: ﴿ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وقوله: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] وقوله: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ ﴾ [النحل: ١٢٦] يقتضي جواز ذلك، وقد صرح الفقهاء بجواز إحراق زروع الكفار وقطع أشجارهم؛ يفعلون ذلك بنا، وهذا عين المسألة، وقد أقر الله سبحانه الصحابة على قطع نخل اليهود؛ لما فيه من خزيهم، وهذا يدل على أنه سبحانه يحب خزي الجاني الظالم ويشرعه.

وإذا جاز تحريق متاع الغالِّ لكونه تعدى على المسلمين في خيانتهم في شيء من الغنيمة؛ فلأن يحرق ماله إذا حرق مال المسلم المعصوم؛ أولى وأحرى[1].

وإذا شرعت العقوبة المالية في حق الله الذي مسامحته به أكثر من استيفائه؛ فلأن تشرع في حق العبد الشحيح؛ أولى وأحرى.

ولأن الله سبحانه شرع القصاص؛ زجرًا للنفوس عن العدوان، وكان الممكن أن يوجب الدية استدراكًا لظلامة المجني عليه بالمال،ولكن ما شرعه أكمل وأصلح للعباد، وأشفى لغيظ المجني عليه، وأحفظ للنفوس والأطراف، وإلا فمن كان في نفسه من الآخر من قتله أو قطع طرفه؛ قتله أو قطع طرفه وأعطى ديته، والحكمة والرحمة والمصلحة تأبى ذلك، وهذا بعينه موجود في العدوان على المال.

فإن قيل: فهذا ينجبر بأن يعطيه نظير ما أتلفه عليه.

قيل: إذا رضي المجني عليه بذلك فهو كما لو رضي بدية طرفه، فهذا هو محض القياس، وبه قال الأحمدان: أحمد بن حنبل، وأحمد ابن تيمية، قال في رواية موسى بن سعيد: وصاحب الشيء يخير، إن شاء شق الثوب، وإن شاء أخذ مثله.

---

(١) فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر حرقوا متاع الغال وضربوه، أخرجه أبو داود (رقم ٢٧١٥) وابن الجارود (رقم ١٠٨٢) والحاكم (٢/ ١٤٢ رقم ٢٥٩١) والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٠٢ رقم ١٧٩٩٠) قال البخاري: لا يصح. انظر: تلخيص الحبير (٤/ ٨١) وضعف الحافظ ابن حجر إسناد أبي داود في مقدمة فتح الباري (ص ٤٧).

المسألة الثالثة: الجناية على العرض، فإن كان حرامًا في نفسه كالكذب عليه وقذفه وسب والديه؛ فليس له أن يفعل به كما فعل به اتفاقًا.

وإن سبه في نفسه أو سخر به أو هزأ به أو بال عليه أو بصق عليه أو دعا عليه؛ فله أن يفعل به نظير ما فعل به متحريًا للعدل.

وكذلك إذا كسعه أو صفعه؛ فله أن يستوفي منه نظير ما فعل به سواء، وهذا أقرب إلى الكتاب والميزان وآثار الصحابة؛ من التعزير المخالف للجناية جنسًا ونوعًا وقدرًا وصفة، وقد دلت السنة الصحيحة الصريحة على ذلك، فلا عبرة بخلاف من خالفها.

ففي صحيح البخاري: أن نساء النبي ﷺ، أرسلن زينب بن جحش إلى رسول الله ﷺ تكلمه في شأن عائشة، فأتته فأغلظت، وقالت: إن نساءك ينشدنك العدل في بنت ابن أبي قحافة، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة، فسبتها، حتى إن رسول الله ﷺ لينظر إلى عائشة هل تتكلم، فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها، قالت: فنظر النبي ﷺ إلى عائشة وقال: «**إنها بنت أبي بكر**»(١).

وفي الصحيحين هذه القصة قالت عائشة: فأرسل أزواج النبي ﷺ، زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ، وهي التي كانت تساميني في المنزلة عند رسول الله ﷺ. فذكرت الحديث، وقالت: ثم وقعت فيَّ، فاستطالت عليَّ، وأنا أرقب رسول الله ﷺ. وأرقب طرفه: هل يأذن لي فيها؟ قالت: فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ، لا يكره أن أنتصر، فلما وقعت بها لم أنشبها حتى أثخنت عليها، قالت: فقال رسول الله ﷺ، وتبسم: «**إنها ابنة أبي بكر**»(٢). وفي لفظ فيهما: «لم أنشبها أن أثخنتها غلبة».

وقد حكى الله سبحانه عن يوسف الصديق أنه قال لإخوته: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ لما قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٨١) وانظر: عمدة القاري (١٣/ ١٣٧-١٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٨١) ومسلم (رقم ٢٤٤٢) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٠٧) وشرح النووي (١٥/ ٢٠٧).

فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف:٧٧] ذلك للمصلحة التي اقتضت كتمان الحال.

ومن تأمل الأحاديث رأى ذلك فيها كثيرًا جدًّا، وبالله التوفيق.

***

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾.

[١]قد سمى الله سبحانه المال خيرًا في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠] وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وأخبر رسول الله ﷺ، أن الخير لا يأتي إلا بالخير كما تقدم، وإنما يأتي بالشر معصية الله في الخير لا نفسه.

وأعلم الله سبحانه أنه جعل المال قوامًا للأنفس وأمر بحفظها، ونهى أن يؤتى السفهاء من النساء والأولاد وغيرهم، ومدحه النبي ﷺ، بقوله: «**نعم المال الصالح مع المرء الصالح**»[٢].

وقال سعيد بن المسيب: لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله؛ يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي حقه[٣].

وقال أبو إسحاق السبيعي: كانوا يرون السعة عونًا على الدين[٤].

---

(١) ٢٨٤ عدة الصابرين.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٨/ ٦ رقم ٣٢١٠) وفي موارد الظمآن (رقم ١٠٨٩) والحاكم (٢/ ٣ رقم ٢١٣٠) وأحمد (٤/ ١٩٧) والبيهقي في الشعب (٢/ ٩١ رقم ١٢٤٨) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٩٩) وابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ٤٣) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٧٥) وصححه أبو عوانة وابن حبان والحاكم.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ٥٥).

(٤) أخرجه ابن الجعد (رقم ٣٩٩) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٤٠) وأحمد في كتاب العلل ومعرفة الرجال =

وقال محمد بن المنكدر: نعم العون على التقى الغنى[1].

وقال سفيان الثوري: المال في زماننا هذا سلاح المؤمن.

وقال يوسف بن أسباط: ما كان المال في زمان منذ خلقت الدنيا؛ أنفع منه في هذا الزمان، والخير كالخيل: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر.

قالوا: وقد جعل الله سبحانه المال سببًا لحفظ البدن، وحفظه سبب لحفظ النفس، التي هي محل معرفة الله والإيمان به وتصديق رسله ومحبته والإنابة إليه، فهو سبب عمارة الدنيا والآخرة، وإنما يذم منه ما استخرج من غير وجهه وصرف في غير حقه، واستعبد صاحبه وملك قلبه وشغله عن الله والدار الآخرة؛ فيذم منه ما يتوسل به صاحبه إلى المقاصد الفاسدة، أو شغله عن المقاصد المحمودة، فالذم للجاعل لا للمجعول، قال النبي ﷺ: «تعِس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم»[2] فذم عبدهما دونهما.

[3]وقاعدة الشريعة التي لا يجوز هدمها: أن المقاصد والاعتقادات معتبرة في التصرفات والعبارات، كما هي معتبرة في التقربات والعبادات.

فالقصد والنية والاعتقاد؛ يجعل الشيء: حلالاً أو حرامًا، وصحيحًا أو فاسدًا، وطاعة أو معصية.

كما أن القصد في العبادة؛ يجعلها: واجبة أو مستحبة أو محرمة، أو صحيحة أو فاسدة، ودلائل هذه القاعدة تفوت الحصر.

فمنها قوله تعالى في حق الأزواج إذا طلقوا أزواجهم طلاقًا رجعيًّا: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ

= (١/ ٤٤٥ رقم ٩٩٩) (٣/ ٦٩ رقم ٤٢١٠) وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٤٦/ ٢٢٢) وسير أعلام النبلاء (٥/ ٣٩٦).

(١) أخرجه ابن الجعد (رقم ١٦٨٧) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٦٠ر قم ١٣١٧) والدارقطني في جزء أبي الطاهر (رقم ١٥٨) وابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ٥٨) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٤٩) وانظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٨٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٥٤) وعمدة القاري (١٤/ ١٧١).

(٣) ١٠٨ أعلام جـ٣.

بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقوله: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وذلك نص في أن الرجعة؛ إنما ملكها الله تعالى لمن قصد الصلاح دون قصد الضرار.

وقوله في الخلع: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقوله: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

فبين تعالى أن الخلع المأذون فيه والنكاح المأذون فيه، إنما يباح إذا ظنا أن يقيما حدود الله. وقال تعالى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ﴾ [النساء: ١٢] فإنما قدم الله الوصية على الميراث إذا لم يقصد بها الموصي الضرار؛ فإن قصده فللورثة إبطالها وعدم تنفيذها.

وكذلك قوله: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٨٢] فرفع الإثم عمن أبطل الجنف والإثم من وصية الموصي، ولم يجعلها بمنزلة نص الشارع الذي تحرم مخالفته.

وكذلك الإثم مرفوع عمن أبطل من شروط الواقفين ما لم يكن إصلاحًا، وما كان فيه جنف أو إثم، ولا يحل لأحد أن يجعل هذا لشرط الباطل المخالف لكتاب الله بمنزلة نص الشارع، ولم يقل هذا أحد من أئمة الإسلام، بل قد قال إمام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله: **«كل شرطٍ ليس في كتاب الله فهو باطلٌ وإن كان مائة شرطٍ، كتاب الله أحق، وشرط الله أوثق»**[1] فإنه ينفذ من شروط الواقفين ما كان لله طاعة، وللمكلف مصلحة.

وأما ما كان بضد ذلك فلا حرمة له: كشرط التعزب والترهب المضاد لشرع الله

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢١٦٨) ومسلم (رقم ١٥٠٤) وانظر: عمدة القاري (٤/ ٢٢٢) والتمهيد (٢٢/ ١٦١-١٦٣).

ودينه؛ فإنه تعالىٰ فتح للأمة باب النكاح بكل طريق، وسد عنهم باب السفاح بكل طريق، وهذا الشرط باطلٌ مضاد لذلك؛ فإنه يسد علىٰ من التزمه باب النكاح، ويفتح له باب الفجور، فإن لوازم البشرية تتقاضاها الطباع أتمَّ تقاضٍ، فإذا سد عنها مشروعها فتحت له ممنوعها ولابد.

والمقصود: أن الله تعالىٰ رفع الإثم عمن أبطل الوصية الجانفة الآثمة.

وكذلك هو مرفوع عمن أبطل شروط الواقفين التي هي كذلك، فإذا شرط الواقف القراءة علىٰ القبر، كانت القراءة في المسجد، أولىٰ وأحب إلىٰ الله ورسوله وأنفع للميت، فلا يجوز تعطيل الأحب إلىٰ الله الأنفع لعبده واعتبار ضده.

وقد رام بعضهم الانفصال عن هذا بأنه قد يكون قصد الواقف حصول الأجر له باستماعه للقرآن في قبره، وهذا غلط؛ فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياة فإنه عمل اختياري وقد انقطع بموته.

ومن ذلك اشتراطه أن يصلي الصلوات الخمس في المسجد الذي بناه علىٰ قبره، فإنه شرط باطل لا يجب بل لا يحل الوفاء به، وصلاته في المسجد الذي لم يوضع علىٰ قبره أحب إلىٰ الله ورسوله، فكيف يفتي أو يقضي بتعطيل الأحب إلىٰ الله والقيام بالأكره إليه؛ اتباعًا لشرط الواقف الجانف الآثم؟

ومن ذلك أن يشرط عليه إيقاد قنديل علىٰ قبره أو بناء مسجد عليه؛ فإنه لا يحل تنفيذ هذا الشرط ولا العمل به، فكيف ينفذ شرط لعن رسول الله ﷺ فاعله[1]؟

وبالجملة فشروط الواقفين أربعة أقسام:

شروط محرمة في الشرع.

---

(١) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج، أخرجه الحاكم (١/ ٥٣٠ رقم ١٣٨٤) وابن حبان في صحيحه (٧/ ٤٥٢ رقم ٣١٧٩) وفي موارد الظمآن (رقم ٧٨٨) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٦٥٧ رقم ٢١٧٠) وأبو داود (رقم ٣٢٣٦) والبيهقي في الكبرىٰ (٤/ ٧٨ رقم ٦٩٩٨) والترمذي (رقم ٣٢٠) وحسنه.

شروط مكروهة لله تعالى ورسوله ﷺ.

وشروط تتضمن ترك ما هو أحب إلى الله ورسوله.

فالأقسام الثلاثة الأول لا حرمة لها ولا اعتبار، والقسم الرابع هو الشرط المتبع الواجب الاعتبار، وبالله التوفيق.

وقد أبطل النبي ﷺ هذه الشروط كلها بقوله: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[١]، وما رده رسول الله ﷺ لم يجز لأحد اعتباره ولا الإلزام به وتنفيذه، ومن تفطن لتفاصيل هذه الجملة التي هي من لوازم الإيمان تخلص بها من آصار وأغلال في الدنيا، وإثم وعقوبة ونقص ثواب في الآخرة. وبالله التوفيق.

***

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

[٢]... الضرار نوعان: جنف، وإثم، فإنه قد يقصد الضرار وهو الإثم، وقد يضار من غير قصد، وهو الجنف، فمن أوصى بزيادة على الثلث فهو مضار، قصد أو لم يقصد، فللوارث رد هذه الوصية، وإن أوصى بالثلث فما دون، ولم يعلم أنه قصد الضرار، وجب إمضاؤه.

فإن علم الموصى له أن الموصي إنما أوصى ضرارًا، لم يحل له الأخذ، ولو اعترف الموصى أنه إنما أوصى ضرارًا؛ لم تجز إعانته على إمضاء هذه الوصية. وقد جوّز ﷻ إبطال وصية الجنف والإثم، وأن يصلح الوصي أو غيره بين الورثة والموصى له، فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾[٣] [البقرة: ١٨٢].

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب البيوع، باب النجش ومن قال: لا يجوز ذلك البيع (ص ٤٠٣) ومسلم موصولًا (رقم ١٧١٨) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٠٢) وشرح النووي (١٢/ ١٦).

(٢) ٣٧٧ إغاثة جـ١.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢/ ١٢٦-١٢٨).

وكذلك إذا ظهر للحاكم أو الوصي الجنف أو الإثم في الوقف ومصرفه، أو بعض شروطه، فأبطل ذلك؛ كان مصلحًا، لا مفسدًا، وليس له أن يعين الواقف على إمضاء الجنف والإثم، ولا يصحح هذا الشرط، ولا يحكم به، فإن الشارع قد ردَّه، وأبطله، فليس له أن يصحح ما رده الشارع وحرمه، فإن ذلك مضادة له ومناقضة.

[1] والذي يقضي منه العجب؛ التحيل على مخالفة شرط الواقف وقصده، الذي يقطع بأنه قصده مع ظهور المفسدة، والوقوف مع ظاهر شرطه ولفظه المخالف لقصده والكتاب والسنة ومصلحة الموقوف عليه، بحيث يكون مرضاة الله ورسوله ومصلحة الواقف وزيادة أجره، ومصلحة الموقوف عليه وحصول الرفق به مع كون العمل أحب إلى الله ورسوله، لا يغير شرط الواقف، ويجري مع ظاهر لفظه، وإن ظهر قصده بخلافه، وهل هذا إلا من قلة الفقه؟ بل من عدمه، فإذا تحيلتم على إبطال مقصود الواقف؛ حيث يتضمن المفاسد العظيمة، فهلا تحيلتم على مقصوده ومقصود الشارع؛ حيث يتضمن المصالح الراجحة: بتخصيص لفظه، أو تقييده، أو تقديم شرط الله عليه؟ فإن شرط الله أحق وأوثق.

بل يقولون هاهنا: نصوص الواقف كنصوص الشارع.

وهذه جملة من أبطل الكلام، وليس لنصوص الشارع نظير من كلام غيره أبدًا؛ بل نصوص الواقف يتطرق إليها التناقض والاختلاف، ويجب إبطالها إذا خالفت نصوص الشارع وإلغاؤها، ولا حرمة لنا حينئذ البتة، ويجوز ـ بل يترجح ـ مخالفتها إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله منها وأنفع للواقف والموقوف عليه، ويجوز اعتبارها والعدول عنها مع تساوي الأمرين، ولا يتعين الوقوف معها، وسنذكر إن شاء الله فيما بعد، ونبين ما يحل الإفتاء به وما لا يحل من شروط الواقفين؛ إذ القصد بيان بطلان هذه الحيلة شرعًا وعرفًا ولغة.

---

(١) ٣٠٤ أعلام جـ٣.

[(١)]والله تعالىٰ إنما أمر بالتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، وهو ما شرعه علىٰ لسان رسول الله ﷺ، دون ما لم يشرعه، فكيف بما شرع خلافه، والوقف إنما يصح علىٰ القرب والطاعات، ولا فرق في ذلك بين مصرفه وجهته وشرطه؛ فإن الشرط صفة وحال في الجهة والمصرف، فإذا اشترط أن يكون المصرف قربة وطاعة فالشرط كذلك، ولا يقتضي الفقه إلا هذا، ولا يمكن أحدًا أن ينقل عن أئمة الإسلام الذين لهم في الأمة لسانُ صدقٍ ما يخالف ذلك البتة.

بل نشهد بالله والله أن الأئمة لا تخالف ما ذكرناه، وأن هذا نفس قولهم، وقد أعاذهم الله من غيره، وإنما يقع الغلط من كثير من المنتسبين إليهم في فهم أقوالهم.

كما وقع لبعض من نصب نفسه للفتوىٰ من أهل عصرنا: ما تقول السادة الفقهاء في رجل وقف وقفًا علىٰ أهل الذمة، هل يصح ويتقيد الاستحقاق بكونه منهم؟

فأجاب بصحة الوقف، وتقييد الاستحقاق بذلك الوصف، وقال: هكذا قال أصحابنا، ويصح الوقف علىٰ أهل الذمة.

فأنكر ذلك شيخنا عليه غاية الإنكار، وقال: مقصود الفقهاء بذلك: أن كونه من أهل الذمة ليس مانعًا من صحة الوقف عليه بالقرابة أو بالتعيين، وليس مقصودهم: أن الكفر بالله ورسوله أو عبادة الصليب وقولهم: إن المسيح ابن الله؛ شرط لاستحقاق الوقف، حتىٰ إن من آمن بالله ورسوله واتبع دين الإسلام لم يحل له أن يتناول بعد ذلك من الوقف، كون وصف الذمة مانعًا من صحة الوقف، وبين كونه مقتضيًا؛ فغلظ طبع هذا المفتي وكثف فهمه، وغلظ حجابه عن ذلك ولم يميز.

ونظير هذا أن يقف علىٰ الأغنياء، فهذا يصح إذا كان الموقوف عليه غنيًّا، أو ذا قرابة فلا يكون الغنىٰ مانعًا، ولا يصح أن يكون جهة الاستحقاق هو الغنىٰ فيستحق ما دام غنيًّا، فإذا افتقر واضطر إلىٰ ما يقيم أوده حرم عليه تناول الوقف، فهذا لا يقوله إلا

---

(١) ١٨٤ أعلام جـ٤.

من حرم التوفيق وصحبه الخذلان، ولو رأى رسول الله ﷺ، أحدًا من الأئمة يفعل ذلك؛ لاشتد إنكاره وغضبه عليه، ولما أقره البتة.

وكذلك لو رأى رجلًا من أمته قد وقف على من يكون من الرجال عَزِباً غير متأهل، فإذا تأهل حرم عليه تناول الوقف؛ لاشتد غضبه ونكيره عليه، بل دينه يخالف هذا، فإنه كان إذا جاءه مال أعطى العزب حظًّا، وأعطى الآهل حظين، وأخبر أن ثلاثة حق على الله عونهم، فذكر منهم: «**الناكح يريد العفاف**»[1] وملتزم هذا الشرط حق عليه عدم إعانة الناكح.

ومن هذا أن يشترط أنه لا يستحق الوقف إلا من ترك الواجب عليه من طلب النصوص ومعرفتها، والتفقه في متونها، والتمسك بها، إلى الأخذ بقول فقيه معين يترك لقوله قول من سواه، بل يترك النصوص لقوله، فهذا شرط من أبطل الشروط.

وقد شرح أصحاب الشافعي وأحمد رحمهما الله تعالى، بأن الإمام إذا شرط على القاضي أن لا يقضي إلا بمذهب معين؛ بطل الشرط ولم يجز له التزامه.

وفي بطلان التولية قولان مبنيان على بطلان العقود بالشروط الفاسدة. وطرد هذا أن المفتي متى شرط عليه ألا يفتي إلا بمذهب معين؛ بطل الشرط. وطرده أيضًا أن الواقف متى شرط على الفقيه أن لا ينظر ولا يشتغل إلا بمذهب معين؛ لم يصح هذا الشرط قطعًا، ولا يجب التزامه، بل ولا يسوغ.

وعقد هذا الباب وضابطه، أن المقصود: إنما هو التعاون على البر والتقوى، وأن يطاع الله ورسوله بحسب الإمكان، وأن يقدم من قدمه الله ورسوله، ويؤخر من أخره الله ورسوله، ويعتبر ما اعتبره الله ورسوله، ويلغى ما ألغاه الله ورسوله.

وشروط الواقفين لا تزيد على نذر الناذرين، فكما أنه لا يوفى من النذور إلا بما كان

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ١٢ رقم ٤٣٢٨) وفي الصغرى (رقم ٣١٢٠) والترمذي (رقم ١٦٥٥) وابن المبارك في مسنده (رقم ٢٢٥) والضياء في فضائل الأعمال (رقم ٤٨٣) وتمام في فوائده (رقم ٦٥٢) وحسنه الترمذي وانظر: فيض القدير (٣/ ٣١٧).

طاعة لله ورسوله، فلا يلزم من شروط الواقفين إلا ما كان طاعة لله ورسوله.

فإن قيل: الواقف إنما نقل ماله لمن قام بهذه الصفة، فهو الذي رضي بنقل ماله إليه، ولم يرض بنقله إلى غيره، وإن كان أفضل منه، فالوقف يجري مجرى الجعالة، فإذا بذلك الجاعل ماله لمن يعمل عملاً؛ لم يستحقه من عمل غيره، وإن كان بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض.

قيل: هذا منشأ الوهم والإيهام في هذه المسألة، وهو الذي قام بقلوب ضعفة المتفقهين، فالتزموا وألزموا من الشروط؛ بما غيره أحب إلى الله وأرضى له منه بإجماع الأمة بالضرورة المعلومة من الدين.

وجواب هذا الوهم: أن الجاعل يبذل ماله في غرضه الذي يريده، إما: محرمًا أو مكروهًا، أو مباحاً أو مستحبًّا أو واجبًا؛ لينال غرضه الذي بذل فيه ماله.

وأما الواقف فإنما يبذل ماله فيما يقربه إلى الله وثوابه، فهو لما علم أنه لم يبق له تمكن من بذل ماله في أغراضه؛ أحب أن يبذله فيما يقربه إلى الله، وما هو أنفع له في الدار الآخرة، ولا يشك عاقل أن هذا غرض الواقفين، بل ولا يشك واقف أن هذا غرضه.

والله ﷻ ملكه المال لينتفع به في حياته، وأذن له أن يحبسه لينتفع به بعد وفاته، فلم يملكه أن يفعل به بعد موته ما كان يفعل به في حياته.

بل حجر عليه فيه وملكه ثلثه يوصي به بما يجوز ويسوغ أن يوصي به، حتى إن حاف أو جار أو أثم في وصيته؛ جاز، بل وجب على الوصي والورثة ردُّ ذلك الجور والحيف والإثم، ورفع سبحانه الإثم عمن يرد ذلك الحيف والإثم، من الورثة والأوصياء، فهو سبحانه لم يملكه أن يتصرف في تحبيس ماله بعده؛ إلا على وجه يقربه إليه ويدنيه من رضاه، لا على أي وجه أراد.

ولم يأذن الله ولا رسوله للمكلف أن يتصرف في تحبيس ماله بعده على أي وجه

أراده أبدًا، فأين في كلام الله رسوله أو أحد من الصحابة؛ ما يدل على أن لصاحب المال أن يقف ما أراد على من أراد، ويشرط ما أراد، ويجب على الحكام والمفتين أن ينفذوا وقفه ويلزموا بشروطه؟

وأما ما قد لهج به بعضهم من قوله: «شروط الواقف كنصوص الشارع» فهذا يراد به معنى صحيح ومعنى باطل، فإن أريد أنها كنصوص الشارع: في الفهم والدلالة، وتقييد مطلقها بمقيدها، وتقديم خاصِّها على عامها، والأخذ فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فهذا حق من حيث الجملة.

وإن أريد أنها كنصوص الشارع: في وجوب مراعاتها والتزامها وتنفيذها، فهذا من أبطل الباطل، بل يبطل منها ما لم يكن طاعة لله ورسوله، وما غيرهُ أحبُّ إلى الله وأرضى له ولرسوله منه، وينفذ منها ما كان قربة وطاعة كما تقدم.

ولما نذر أبو إسرائيل أن يصوم ويقوم في الشمس، ولا يجلس، ولا يتكلم؛ أمره النبي ﷺ، أن يجلس في الظل ويتكلم ويتم صومه[1]، فألزمه بالوفاء بالطاعة، ونهاه عن الوفاء بما ليس بطاعة.

وهكذا أخت عقبة بن عامر لما نذرت الحج ماشية مكشوفة الرأس؛ أمرها أن تختمر وتركب وتحج وتهدي بدنة.

فهكذا الواجب على أتباع الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أن يعمدوا في شروط الواقفين، وبالله التوفيق.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾.

---

(١) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا النبي ﷺ يخطب إذا برجل قائم، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه» أخرجه البخاري (رقم ٦٧٠٤) وانظر: عمدة القاري (٢٣/ ٢١٢).

[(١)]لما كان المقصود من الصيام: حبس النفس عن الشهوات، وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية؛ لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين، وتضيق مجاري الشيطان من العبد؛ بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوىٰ الأعضاء عن استرسالها مع حكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، وليسكن كل عضو منها وكل قوة عن جماحه، وتلجم بلجامه؛ فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من سائر الأعمال. فإن الصائم لا يفعل شيئًا، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها؛ إيثارًا لمحبة الله ومرضاته.

وهو سر بين العبد وربه لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه علىٰ ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمر لا يطلع عليه بشر. وذلك حقيقة الصوم.

وللصوم تأثير عظيم في حفظ الجوارح الظاهرة والقوىٰ الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة، التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ علىٰ القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات. فهو من أكبر العون علىٰ التقوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال النبي ﷺ: «الصوم جنة»[(٢)]، وأمر من اشتدت به شهوة النكاح ولا قدرة له

---

(١) ٣١٩ زاد المعاد جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٨٩٤) ومسلم (رقم ١١٥١) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٠٤).

عليه بالصيام، وجعله وجاء هذه الشهوة[١].

والمقصود: أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة، والفطر المستقيمة؛ شرعه الله لعباده: رحمة بهم وإحسانًا إليهم، وحمية لهم وجنة: وكان هدي رسول الله ﷺ، فيه أكمل الهدي، وأعظم تحصيلاً للمقصود، وأسهله على النفوس.

ولما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها؛ تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة؛ لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة، وألفت أوامر القرآن، فنقلت إليه بالتدريج.

وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة، فتوفي رسول الله ﷺ، وقد صام تسع رمضانات[٢].

وفرض أولاً على وجه التخيير: بينه وبين أن يطعم عن كل يوم مسكينًا، ثم نقل من ذلك التخيير إلى تحتيم الصوم، وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يطيقا الصيام، فإنهما يفطران، ويطعمان عن كل يوم مسكينًا، ورخص للمريض والمسافر؛ أن يفطرا ويقضيا، وللحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما كذلك. فإن خافتا على ولديهما زادتا مع القضاء إطعام مسكين لكل يوم؛ فإن فطرهما لم يكن لخوف مرض، وإنما كان مع الصحة؛ فجبر بإطعام المسكين كفطر الصحيح في أول الإسلام[٣]!

وكان للصوم رتب ثلاث: إحداها: إيجابه بوصف التخيير.

والثانية: تحتيمه؛ لكن كان الصائم إذا نام قبل أن يطعم؛ حرم عليه الطعام

---

(١) فقد قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء» أخرجه البخاري (رقم ٥٠٦٥) ومسلم (رقم ١٤٠٠) وانظر: فتح الباري (٤/ ١١٩) (٩/ ١١٠-١١٢) وشرح النووي (٩/ ١٧٢).

(٢) انظر: عمدة القاري (١٠/ ٢٥٤) وتحفة الأحوذي (٣/ ٣٠١).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما (٢/ ١٣٦) وانظر: الدر المنثور (١/ ٤٣٤) وتحفة الأحوذي (٣/ ٣٣١) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ١٢٠).

والشراب إلى الليلة القابلة. فنسخ ذلك[١].

بالرتبة الثالثة: وهي التي استقر عليها[٢] الشرع إلى يوم القيامة.

وكان من هديه ﷺ، في شهر رمضان؛ الإكثار من أنواع العبادات. فكان جبريل ﷺ يدارسه القرآن في رمضان. وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة.

وكان أجود الناس. وأجود ما يكون في رمضان[٣]؛ لما كثر فيه من الصدقة والإحسان، وتلاوة القرآن والصلاة والذكر والاعتكاف.

وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره به من الشهور، حتى إنه كان ليواصل فيه أحيانًا؛ ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة، وكان ينهى أصحابه عن الوصال، فيقولون له: إنك تواصل فيقول: «لستُ كهيئتكم إني أبيت ـ وفي رواية: إني أظلُّ ـ عند ربي يطعمني ويسقيني»[٤].

وقد اختلف الناس في هذا الطعام والشراب المذكورين على قولين:

---

(١) عن البراء ﷺ قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائمًا، فحضر الإفطار فقام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائمًا، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا،ولكن أنطلق فأطلب لك. وكان يومه يعمل فغلبته عيناه، فجاءته امرأته، فلما رأته قالت: خيبة لك، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [النساء: ١٨٧]، ففرحوا بها فرحًا شديدًا، ونزلت: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [النساء: ١٨٧] أخرجه البخاري (رقم ١٩١٥) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٣١).

(٢) لقد منَّ الله عز وجل عليَّ وهو وحده صاحب المن والفضل، فقمت باستلال هدي النبي ﷺ في شهر رمضان من زاد المعاد وأخرجته محققًا وطبع ثلاث طبعات. الأولى في دار السلام ١٤١٥هـ والثانية والثالثة في دار المسلم ١٤١٦هـ وبعدها، والحمد لله الذي بنعمته الصالحات.

(٣) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة، أخرجه البخاري (رقم ٦) ومسلم (رقم ٢٣٠٨) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٥-٤٦) وشرح النووي (١٥/ ٦٩).

(٤) أخرجه مسلم بلفظ قريب (رقم ١١٠٤) (٦٠) (ورقم ١١٠٥) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٠٣، ٢٠٨).

أحدهما: أنه طعام وشراب حسي للفم. قالوا: وهذه حقيقة اللفظ. ولا موجب للعدول عنها.

الثاني: أن المراد به: ما يغذيه الله به من معارفه، وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته وقرة عينه بقربه، وتنعمه بحبه والشوق إليه، وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب ونعيم الأرواح وقرة العين، وبهجة النفوس والروح والقلب؛ بما هو أعظم غذاء وأجوده وأنفعه.

الصوم جنة من أدواء الروح والقلب والبدن، منافعه تفوت الإحصاء، وله تأثير عجيب في حفظ الصحة، وإذابة الفضلات، وحبس النفس عن تناول مؤذياتها؛ ولا سيما إذا كان باعتدال وقصد في أفضل أوقاته شرعًا، وحاجة البدن إليه طبعًا، ثم إن فيه من إراحة القوى والأعضاء؛ ما يحفظ عليها قواها.

وفيه خاصية تقتضي إيثاره، وهي: تفريحه للقلب عاجلاً وآجلاً، وهو أنفع شيء لأصحاب الأمزجة الباردة والرطبة، وله تأثير عظيم في حفظ صحتهم، وهو يدخل في الأدوية الروحانية والطبيعية، وإذا راعى الصائم فيه ما ينبغي مراعاته طبعًا وشرعًا عظم انتفاع قلبه وبدنه به، وحبس عنه المواد الغريبة الفاسدة التي هو مستعد لها، وأزال المواد الرديئة الحاصلة بحسب كماله ونقصانه، ويحفظ الصائم مما ينبغي أن يتحفظ منه، وقيامه بمقصود الصوم، وسره وعلته الغائبة. فإن القصد منه أمر آخر، وراء ترك الطعام والشراب، وباعتبار ذلك الأمر اختص من بين الأعمال بأنه لله سبحانه.

ولما كان وقاية وجنة بين العبد وبين ما يؤذي قلبه وبدنه عاجلاً وآجلاً؛ قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فأحد مقصودي الصيام؛ الجنة والوقاية، وهي حمية عظيمة النفع، والمقصود الآخر: اجتماع القلب والهم على الله تعالى، وتوفير قوى النفس على محابه وطاعته.

وقد تقدم الكلام في بعض أسرار الصوم عند ذكر هديه ﷺ فيه.

[١]...قال النبي ﷺ لمن سأله عن أفضل الأعمال: «عليك بالصوم، فإنه لا عدل له»[٢] ولما كان الصبر: حبس النفس عن إجابة داعي الهوى، وكان هذا حقيقة الصوم، فإنه حبس النفس عن إجابة داعي شهوة الطعام والشراب والجماع؛ فسر الصبر في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] أنه الصوم، وسمى رمضان شهر الصبر.

وقال بعض السلف: الصوم نصف الصبر[٣]، وذلك أن الصبر: حبس النفس عن إجابة داعي الشهوة والغضب، فإن النفس تشتهي الشيء لحصول اللذة بإدراكه وتغضب لنفرتها من المؤلم لها.

والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط، وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن إجابة داعي الأمرين، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ، في الحديث الصحيح وهو قوله: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يجهل ولا يصخب، فإنْ أحدٌ سابّه أو شاتمه فليقل: إني صائم»[٤] فأرشد ﷺ إلى تعديل قوى الشهوة صومه وهذه تحبط أجره، كما قال في الحديث الآخر: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[٥].

قالوا: ويكفي في فضل الصبر على الشكر قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١] فجعل فوزهم جزاء صبرهم.

---

(١) ١١٧-١١٨ عدة الصابرين.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٥٨٢ رقم ١٥٣٣) وابن حبان في صحيحه (٨/ ٢١٣ رقم ٣٤٢٦) وفي موارد الظمآن (رقم ٩٣٠) والنسائي في الكبرى (٢/ ٩٢ رقم ٢٥٣٢، ٢٥٣٣) وفي الصغرى (رقم ٢٢٢٣) وأحمد (٥/ ٢٤٩) وصححه الحاكم. وانظر: الترغيب والترهيب (٢/ ٥٢ رقم ١٤٦١).

(٣) أخرجه مرفوعًا إلى النبي ﷺ عن رجل من بني سليم، ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٠١ رقم ٤٧٥) (٥/ ١٥٣٩ رقم ٨٨٢٦) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٨٨) وجامع العلوم والحكم (١/ ٢١٩) وشرح الزرقاني (٢/ ٢٠٤).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠٤) ومسلم (رقم ١١٥١).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠٣).

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. لا شيء يعدل معيته لعبده، كما قال بعض العارفين: ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة، لأنهم نالوا معية الله.

وقال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨] وهذا يتضمن الحراسة والكلائة والحفظ للصابر لحكمه.

[١] شهد في لسانهم لها معانٍ:

أحدها: الحضور، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]وفيه قولان: أحدهما: من شهد المصر في الشهر، والثاني: من شهد الشهر في المصر، وهما متلازمان.

والثاني: الخبر، ومنه: «شهد عندي رجال مرضيون، وأرضاهم عندي عمر أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد العصر وبعد الصبح»[٢].

والثالث: الاطلاع على الشيء، ومنه: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ [البروج: ٩]، وإذا كان كل خبر شهادة؛ فليس مع من اشترط لفظ الشهادة فيها دليل: من كتاب ولا سنة، ولا إجماع ولا قياس صحيح.

وعن أحمد فيها ثلاث روايات:

إحداهن: اشتراط لفظ الشهادة.

والثانية: الاكتفاء بمجرد الإخبار، اختارها شيخنا.

والثالثة: الفرق بين الشهادة على الأقوال وبين الشهادة على الأفعال، فالشهادة على الأقوال لا يشترك فيها لفظ الشهادة، وعلى الأفعال يشترط؛ لأنه إذا قال سمعته يقول؛ فهو بمنزلة الشاهد على رسول الله ﷺ، فيما يخبر عنه.

***

(١) ٨ بدائع جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٨١) ومسلم (رقم ٨٢٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٥٨).

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

(1) أما مرض الأبدان فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١، الفتح: ١٧] وذكر مرض البدن في الحج والصوم والوضوء؛ لسر بديع يبين لك عظمة القرآن، والاستغناء به ـ لمن فهمه وعقله ـ عن سواه.

وذلك: أن قواعد طِبِّ الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، والحمية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة، فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة، فقال في آية الصوم: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

فأباح الفطر للمريض لعذر المرض، وللمسافر طلبًا لحفظ صحته وقوته، لئلا يذهبها الصوم في السفر، لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه الصوم من التحليل، وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل، فتخور القوة وتضعف. فأباح للمسافر الفطر حفظًا لصحته وقوته عما يضعفها.

وقال في آية الحج: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] فأباح للمريض ومن به أذىً من رأسه من قمل أو حكّة أو غيرهما؛ أن يحلق رأسه في الإحرام؛ استفراغًا لمادة الأبخرة الرديئة، التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر، فإذا حلق رأسه تفتحت المسامُّ، فخرجت تلك

(١) ١٣٥ زاد المعاد جـ٣.

الأبخرة منها، فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذي انحباسه.

والأشياء التي يؤذي انحباسها ومدافعتها عشرة: الدم إذا هاج، والمني إذا اجتمع، والبول، والغائط، والريح، والقيء، والعطاس، والنوم، والجوع، والعكش.

وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء بحسبه.

وقد نبه سبحانه باستفراغ أدناها ـ وهو البخار المحتقن في الرأس ـ على استفراغ ما هو أصعب منه، كما هي طريقة القرآن: التنبيه بالأدنى على الأعلى.

وأما الحمية: فقال تعالى في آية الوضوء: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:٦]، فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب؛ حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه، وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له من داخل أو خارج. فقد أرشد سبحانه عباده إلى أصول الطب الثلاثة ومجامع قواعده...»[1].

[2]«وأصول الطب ثلاثة: الحمية، وحفظ الصحة، واستفراغ المادة المضرة، وقد جمعها الله تعالى له ولأمته في ثلاثة مواضع من كتابه، فحمى المريض من استعمال الماء؛ خشية من الضرر. فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦]. فأباح التيمم للمريض حمية له، كما أباحه للعادم.

وقال في حفظ الصحة: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، فأباح للمسافر الفطر في رمضان حفظًا لصحته؛ لئلا يجتمع على قوته الصوم ومشقة السفر، فيضعف القوة والصحة.

وقال في الاستفراغ في حلق الرأس للمحرم: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن

---

(١) بحث المؤلف هنا طب القلوب، وطب الأبدان بتوسع مفيد جدًا اهـ (ج).

(٢) ٨٥ زاد المعاد جـ١ .

رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] فأباح للمريض ومن به أذىً من رأسه وهو محرم؛ أن يحلق رأسه، ويستفرغ الماد الفاسدة، والأبخرة الرديئة التي تولد عليه القمل، كما حصل لكعب بن عُجرة، أو تولد عليه المرض.

وهذه الثلاثة هي قواعد الطب وأصوله، فذكر من كل جنس منها شيئًا وصورة؛ تنبيهًا بها على نعمته على عباده في أمثالها من حميتهم، وحفظ صحتهم، واستفراغ مواد أذاهم: رحمة لعباده، ولطفًا بهم، ورأفة بهم، وهو الرءوف الرحيم.

[١] وأما من أكل في صومه ناسيًا فمن قال: «عدم فطره ومضيه في صومه على خلاف القياس» ظن أنه من باب ترك المأمور ناسيًا، والقياس أنه يلزمه الإتيان بما تركه، كما لو أحدث ونسي حتى صلى. والذين قالوا: «بل هو على وفق القياس» حجتهم أقوى؛ لأن قاعدة الشريعة: أن من فعل محظورًا ناسيًا فلا إثم عليه، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وثبت عن النبي ﷺ أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء، وقال: قد فعلت[٢]. وإذا ثبت أنه غير آثم فلم يفعل في صومه محرمًا فلم يبطل صومه، وهذا محض القياس؛ فإن العبادة إنما تبطل بفعل محظور أو ترك مأمور.

وطرد هذا القياس أن من تكلّم في صلاته ناسيًا، لم تبطل صلاته.

وطرده أيضًا أن من جامع في إحرامه أو صيامه ناسيًا؛ لم يبطل صيامه ولا إحرامه. وكذلك من تطيب أو لبس أو غطى رأسه أو حلق أو قلم ظفره ناسيًا فلا فِدية عليه، بخلاف قتل الصيد، فإنه من باب ضمان المتلفات فهو كدية القتيل. وأما اللباس والطيب فمن باب الترفه، وكذلك الحلق والتقليم ليس من باب الإتلاف؛ فإنه لا قيمة له في الشرع ولا في العرف.

وطرد هذا القياس أن من فعل المحلوف عليه ناسيًا لم يحنث، سواء حلف بالله أو

(١) ٣١ أعلام جـ٢.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٢٦).

بالطلاق أو بالعتاق أو غير ذلك؛ لأن القاعدة أن من فعل المنهيَّ عنه ناسيًا، لم يعد عاصيًا، والحنث في الأيمان كالمعصية في الإيمان، فلا يعد حانثًا من فعل المحلوف عليه ناسيًا.

(١)وذكر أحمد أن شابًا سأله فقال: أقبِّل وأنا صائم؟ قال: «لا» وسأله شيخ: أقبل وأنا صائم؟ قال: «نعم» ثم قال: «إن الشيخ يملك نفسه»(٢).

وسأله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله أكلت وشربت ناسيًا وأنا صائم، فقال: «أطعمك الله وسقاك»(٣) ذكره أبو داود، وعند الدارقطني فيه بإسناد صحيح: «أتم صومك، فإن الله أطعمك وسقاك، ولا قضاء عليك»(٤) وكان أول يوم من رمضان.

وسألته ﷺ عن ذلك امرأة أكلت معه فأمسكت، فقال: «ما لك؟» فقالت: كنت صائمة فنسيت، فقال ذو اليدين: الآن بعد ما شبعت؟ فقال ﷺ: «أتمي صومكِ، فإنما هو رزق ساقه الله إليك»(٥) ذكره أحمد.

وسئل ﷺ عن الخيط الأبيض والخيط الأسود، فقال: «هو بياض النهار وسواد الليل»(٦) ذكره النسائي.

ونهاهم عن الوصال وواصل، فسألوه عن ذلك، فقال: «إني لستُ كهيئتكم، إن

---

(١) ٢٩٤ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٥، ٢٢٠) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٦٦): رواه أحمد والطبراني في الكبير وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وفيه كلام، وانظر: عمدة القاري (١١/ ١٠).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٢٣٩٨) وابن حبان في صحيحه (٨/ ٢٨٨ رقم ٣٥٢٢) وانظر: عون المعبود (٧/ ٢٣).

(٤) أخرجه الدارقطني (٢/ ١٧٩ رقم ٣٤) والبيهقي في سننه الكبرى (٤/ ٢٢٩ رقم ٧٨٦٢) وانظر: الدراية في تخريج أحاديث الهداية (١/ ٢٧٨ رقم ٣٦٧) ونصب الراية (٢/ ٤٤٥).

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٣٦٧) قال الزيلعي في نصب الراية (٢/ ٤٤٦): قال في التنقيح: هذا حديث غريب غير مخرج في السنن وبعض رواته ليس بمشهور وبشار بن عبد الملك ضعيف وانظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٢/ ٣٠٩).

(٦) أخرجه الطبراني في تفسيره (٢/ ١٧٢).

يطعمني ربي ويسقيني»[١] متفق عليه.

وسأله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جنب أفأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم» فقال: لستَ مثلنا يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي»[٢] ذكره مسلم. وسئل ﷺ عن الصوم في السفر، فقال: «إن شئت صمت، وإن شئت أفطرت»[٣] وسأله ﷺ حمزة بن عمرو فقال: إني أجد فيَّ قوة على الصيام في السفر، فهل عليَّ جناح؟ فقال: «هي رخصة الله، فمن أخذ بها فحسن، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه»[٤] ذكرهما مسلم.

[٥]وكان ﷺ يفطر قبل أن يصلي، وكان فطره على رطبات؛ إن وجدها، فإن لم يجدها فعلى تمرات، فإن لم يجد فعلى حسوات من ماء[٦].

ويذكر عنه ﷺ أنه كان يقول عند فطره: «اللهم لك صمتُ، وعلى رزقك أفطرت، فتقبل منا، إنك أنت السميع العليم»[٧] ولا يثبت.

وروي عنه أيضًا أنه كان يقول: «اللهم لك صمتُ، وعلى رزقك أفطرت»[٨] ذكره

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٩٦٤) ومسلم (رقم ١١٠٥) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٠٣-٢٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١١١٠) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٤٧).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١١٢١) (١٠٣).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١١٢١) (١٠٧).

(٥) ٣٣٣ زاد المعاد جـ١.

(٦) أخرجه الضياء في المختارة (٤/ ٤١١-٤١٢ رقم ١٥٨٤، ١٥٨٥) والحاكم (١/ ٥٩٧ رقم ١٥٧٦) وأبو داود (رقم ٢٣٥٦) والترمذي (رقم ٦٩٦) وقال: هذا حديث حسن غريب. وصححه الحاكم.

(٧) أخرجه الطبري في الدعاء (رقم ٩١٨) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٥٦): رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الملك بن هارون وهو ضعيف.

(٨) أخرجه أبو داود (رقم ٢٣٥٨) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٠٦ رقم ٣٩٠٢) وفي فضائل الأوقات (رقم ١٤٣) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٤١٠) وانظر: عون المعبود (٦/ ٣٤٦) وفيض القدير (٥/ ١٠٦-١٠٧).

أبو داود: عن معاذ بن زهرة، أنه بلغه: أن النبي ﷺ، كان يقول ذلك.

وروي عنه، أنه كان يقول إذا أفطر: **«ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى»**(١) ذكره أبو داود، من حديث الحسين بن واقد، عن مروان بن سالم المقنع، عن ابن عمر.

ويذكر عنه ﷺ: **«إن للصائم عند فطره دعوة لا ترد»**(٢) رواه ابن ماجه.

وصح عنه ﷺ أنه قال: **«إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من ههنا؛ فقد أفطر الصائم»**(٣) وفسر بأنه قد أفطر حكمًا وإن لم ينوه، وبأنه قد دخل وقت فطره، كأصبح وأمسى.

ونهى الصائم عن الرفث والصخب والسباب، وجواب الساب.

وأمره أن يقول لمن سآبه: **«إني صائم»**(٤) فقل: يقوله بلسانه. وهو أظهر. وقيل: بقلبه، تذكيرًا لنفسه بالصوم، وقيل: يقوله في الفرض بلسانه،وفي التطوع في نفسه، لأنه أبعد عن الرياء.

وسافر رسول الله ﷺ في رمضان، فصام وأفطر، وخيَّر الصحابة بين الأمرين. وكان يأمرهم بالفطر إذا دنوا من عدوهم ليتقووا على قتاله.

فلو اتفق مثل هذا في الحضر، وكان في الفطر قوة لهم على لقاء عدوهم، فهل لهم الفطر؟ فيه قولان: أصحهما دليلاً: أن لهم ذلك. وهو اختيار ابن تيمية، وبه أفتى

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٥٨٤ رقم ١٥٣٦) والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٥٥ رقم ٣٣٢٩) وأبو داود (رقم ٢٣٥٧) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٢٣٩ رقم ٧٩٢٢) وفي شعب الإيمان (٣/ ٤٠٦-٤٠٧ رقم ٣٩٠٢) وانظر: عون المعبود (٦/ ٣٤٥) وفيض القدير (٥/ ١٠٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٧٥٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٠٧ رقم ٣٩٠٤) وفي فضائل الأوقات (رقم ١٤٢) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٢٩٩) والطبراني في الدعاء (رقم ٩١٩) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٤٨١) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ٨١): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وانظر: فيض القدير (٢/ ٥٠٠) (٤/ ٤٧١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٩٥٤) ومسلم (رقم ١١٠٠) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٩٦، ٢٠٥).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٨٩٤) ومسلم (رقم ١١٥١).

العساكر الإسلامية لما لقوا العدوَّ بظاهر دمشق.

ولا ريب أن الفطر لذلك أولى من الفطر لمجرد السفر، بل إباحة الفطر للمسافر تنبيه على إباحته في هذه الحالة، فإنها أحق بجوازه:

لأن القوة هناك تختص بالمسافر، والقوة هنا: له وللمسلمين.

ولأن مشقة الجهاد أعظم من مشقة السفر.

ولأن المصلحة الحاصلة بالفطر للمجاهد، أعظم من المصلحة بفطر المسافر.

ولأن الله تعالى قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والفطر عند اللقاء من أعظم أسباب القوة، والنبي ﷺ قد فسر القوة بالرمي. وهو لا يتم ولا يحصل به مقصوده إلا بما يقوي ويعين عليه: من الفطر، والغذاء.

ولأن النبي ﷺ قال للصحابة لما دنوا من عدوهم: «**إنكم قد دنوتم من عدوكم، والفطر أقوى لكم**» وكانت رخصة. ثم نزلوا منزلاً آخر فقال: «**إنكم مصبحو عدوكم، والفطر أقوى لكم فأفطروا**»[1] فكانت عزمة، فعلل بدنوهم من عدوهم، واحتياجهم إلى القوة التي يلقون بها العدو، وهذا سبب آخر غير السفر، والسفر مستقل بنفسه، ولم يذكره في تعليله، ولا أشار إليه، فالتعليل به اعتباراً لما ألغاه الشارع في هذا الفطر الخاص، وإلغاء وصف القوة التي يقاوم بها العدو، واعتبار السفر المجرد إلغاء لما اعتبره الشارع وعلل به.

وبالجملة: فتنبيه الشارع وحكمته؛ يقتضي أن الفطر لأجل الجهاد أولى منه لمجرد السفر، فكيف وقد أشار إلى العلة ونبه عليها، وصرح بحكمها، وعزم عليهم بأن يفطروا لأجلها؟

ويدل عليه؛ ما رواه عيسى بن يونس، عن شعبة، عن عمرو بن دينار قال: سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه يوم فتح مكة: «**إنه يوم قتال فأفطروا**»[2]

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١١٢٠) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٨٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٣٠٢ رقم ٩٦٨٨) وابن سعد في الطبقات (٢/ ١٤٠-١٤١).

تابعه سعيد بن الربيع، عن شعبة، فعلل بالقتال، ورتب عليه الأمر بالفطر بحرف الفاء. وكل أحد يفهم من هذا اللفظ، أن الفطر لأجل القتال.

وأما إذا تجرد السفر عن الجهاد: فكان رسول الله ﷺ يقول في الفطر: «هي رخصة من الله، **فمن أخذ بها فحسن، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه**»(١).

(٢)إذا رأى إنسانًا يغرق فلا يمكنه تخليصه إلا بأن يفطر هل يجوز له الفطر؟

أجاب أبو الخطاب: يجوز له الفطر إذا تيقن تخليصه من الغرق، ولم يمكنه الصوم من التخليص.

وأجاب ابن الزاغوني عنها: إذا كان يقدر على تخليصه وغلب على ظنه ذلك لزمه الإفطار وتخليصه. ولا فرق بين أن يفطر بدخول الماء في حلقه وقت السباحة، أو كان يجد من نفسه ضعفاً عن تخليصه لأجل الجوع حتى يأكل، لأنه يفطر للسفر المباح؛ فلأن يفطر للواجب أولى.

قلت: أسباب الفطر أربعة: السفر، والمرض، والحيض، والخوف على هلاك من يخشى عليه بصوم: كالمرضع والحامل إذا خافتا على ولديهما، ومثله مسألة الغريق.

وأجاز شيخنا ابن تيمية الفطر للتقوِّي على الجهاد وفعله، وأفتى به لما نازل العدد دمشق في رمضان، فأنكر عليه بعض المتفقهين وقال: ليس هذا سفر طويل، فقال الشيخ: هذا فطر للتقوي على جهاد العدو، وهو أولى من الفطر للسفر يومين: سفرًا مباحًا أو معصية، والمسلمون إذا قاتلوا عدوهم وهم صيام لم يمكنهم النكاية فيهم، وربما أضعفهم الصوم عن القتال؛ فاستباح العدو بيضة الإسلام، وهل يشك فقيه أن الفطر ههنا أولى من فطر المسافر؟ وقد أمرهم النبي ﷺ، في غزوة الفتح بالإفطار ليتقووا على عدوهم، فعلل ذلك للقوة على العدو لا للسفر والله أعلم.

قلت: إذا جاز فطر الحامل والمرضع لخوفهما على ولديهما، وفطر من يخلص

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١١٢١) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٨٠) وشرح النووي (٧/ ٢٢٩).

(٢) ٤٥ بدائع جـ٤.

الغريق؟ ففطر المقاتلين أولىٰ بالجواز، ومن جعل هذا من المصالح المرسلة فقد غلط؛ بل هذا أمر من: باب قياس الأولىٰ، ومن باب دلالة النص وإيمائه.

(١)تنازع الناس في كثير من الأحكام، ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفق الصحابة والتابعون علىٰ إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها، وهذا يدل علىٰ أنها أعظم النوعين بيانًا وأن العناية ببيانها أهم؛ لأنها من تمام تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد، فبينها الله ﷻ ورسوله بيانًا شافيًا.

وآيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس.

وأما آيات الصفات؛ فيشترك في فهم معناها الخاص والعام، أعني فهم أصل المعنىٰ لا فهم الكنه والكيفية، ولهذا أشكل علىٰ بعض الصحابة قوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ حتىٰ بين لهم بقوله: ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] ولم يشكل عليه ولا علىٰ غيره قوله: الآية. ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وغيرها من آيات الصفات.

وأيضًا فإن آيات الأحكام؛ مجملة عرف بيانها بالسنة كقوله تعالىٰ: ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فهذا محيل في قدر الصيام والإطعام، فبينته بأنه: صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة، ونظائره كثيرة: كآية السرقة وآية الصلاة والزكاة والحج، وليس في آيات الصفات وأحاديثها مجمل لا يحتاج إلىٰ بيان من خارج، بل بيانها فيها وإن جاءت السنة بزيادة في البيان والتفصيل.

***

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ

(١) ٢١ مختصر الصواعق جـ١.

ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

(١) قال الله تعالى: ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧] فروى شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، قال: هو الولد، وقاله الحكم وعكرمة والحسن البصري والسدي والضحاك، وأرفع ما فيه ما رواه محمد بن سعد، عن أبيه حدثني عمي، عن أبيه: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: هو الولد.

وقال ابن زيد: هو الجماع، وقال قتادة: ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم.

وعن ابن عباس رواية أخرى، قال: ليلة القدر.

والتحقيق أن يقال: لما خفف الله عن الأمة بإباحة الجماع ليلة الصوم إلى طلوع الفجر، وكان المجامع يغلب عليه حكم الشهوة وقضاء الوطر حتى لا يخطر بقلبه غير ذلك؛ أرشدهم سبحانه إلى أن يطلبوا رضاه في مثل هذه اللذة، ولا يباشروها بحكم مجرد الشهوة، بل يبتغوا بها ما كتب الله لهم من الأجر. والولد الذي يخرج من أصلابهم يعبد الله لا يشرك به شيئًا، ويبتغون ما أباح الله لهم من الرخصة بحكم محبته لقبول رخصه، «**فإن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته**»(٢).

ومما كتب لهم ليلة القدر فأمروا أن يبتغوها.

لكن يبقى أن يقال: فما تعلق ذلك بإباحة مباشرة أزواجهم؟

فيقال: فيه إرشاد إلى أن لا يشغلهم ما أبيح لهم من المباشرة؛ عن طلب هذه الليلة التي هي خير من ألف شهر، فكأنه سبحانه يقول: اقضوا وطركم من نسائكم ليلة الصيام، ولا

---

(١) ٥ تحفة المودود.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦/ ٤٥١ رقم ٢٧٤٢) وأحمد (٢/ ١٠٨) وقال المنذري في الترغيب (٢/ ٨٧ رقم ١٦٠٩): رواه أحمد بإسناد صحيح والبزار والطبراني في الأوسط بإسناد حسن وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، وانظر: فيض القدير (٢/ ٢٩٧) وسبل السلام (٢/ ٣٨).

يشغلكم ذلك عن ابتغاء ما كتب لكم من هذه الليلة التي فضلكم بها. والله أعلم.

(١)لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى؛ متوقفًا على جمعيته على الله، ولَمِّ شعثِه بإقباله بالكلية على الله تعالى، فإن شعث القلب لا يلمه إلا الإقبال على الله تعالى، وكان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالطة الأنام، وفضول الكلام، وفضول المنام؛ مما يزيده شعثًا، ويشتته في كل وادٍ، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، ويضعفه، أو يعوقه ويوقفه، اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده؛ أن شرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوِّقة عن سيره إلى الله تعالى.

وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه، ولا يضره، ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة.

وشرع لهم الاعتكاف، الذي مقصوده وروحه عُكُوف القلب على الله تعالى، وجمعيته عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهم كله به والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور، حين لا أنيس له ولا ما يفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم.

ولما كان هذا المقصود إنما يتم مع الصوم؛ شرع الاعتكاف في أفضل أيام الصوم، وهو العشر الأخير من رمضان. ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه اعتكف مفطرًا قط، بل قالت عائشة: «لا اعتكاف إلا بصوم»(٢) ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلا مع الصوم، ولا

---

(١) ٣٥٥ زاد المعاد جـ١.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٤/ ٣١٧ رقم ٨٣٦٢) وابن أبي شيبة (٢/ ٣٣٣ رقم ٩٦٢١) والديلمي في مسند الفردوس (٥/ ٢١١ رقم ٧٩٨١) وانظر: المحلى (٥/ ١٨٢) وعمدة القاري (١١/ ١٤٠) والتمهيد (١١/ ١٩٧).

فعله النبي ﷺ إلا مع الصوم، فالقول الراجح الدليل، الذي عليه جمهور السلف؛ أن الصوم شرط في الاعتكاف، وهو الذي كان يرجحه شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه.

وأما الكلام: فإنه شرع للأمة حبس اللسان عن كل ما لا ينفع في الآخرة.

وأما فضول المنام: فإنه شرع لهم من قيام الليل؛ ما هو من أفضل السهر وأحمده عاقبة، وهو السهر المتوسط الذي ينفع القلب والبدن، ولا يعوق عن مصلحة العبد، ومدار رياضة أرباب الرياضات والسلوك؛ على هذه الأركان الأربعة، وأسعدهم بها؛ من سلك فيها المنهاج النبوي المحمدي، ولم ينحرف انحراف الغالين، ولا قصر تقصير المفرطين.

وقد ذكرنا هديه ﷺ في صيامه وقيامه وكلامه، فلنذكر هديه في اعتكافه.

كان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ﷻ(١)، وتركه مرة فقضاه في شوال، واعتكف مرة في العشر الأول ثم الأوسط، ثم العشر الآخر؛ يلتمس ليلة القدر، ثم تبين له أنها في العشر الأخير؛ فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه ﷻ(٢).

وكان يأمر بخباء فيضرب له في المسجد؛ يخلو فيه بربه ﷻ.

وكان إذا أراد الاعتكاف صلى الفجر ثم دخله، فأمر به مرة فضرب، فأمر أزواجه بأخبيتهن فضربت، فلما صلى الفجر نظر فرأى تلك الأخبية، فأمر بخبائه فقوض(٣).

وترك الاعتكاف في شهر رمضان حتى اعتكف في العشر الأول من شوال.

وكان ﷺ يعتكف كل سنة عشر أيام، فلما كان في العام الذي قُبض فيه: اعتكف عشرين يومًا(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٢٦) ومسلم (رقم ١١٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٣٣) ومسلم (رقم ١١٧٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٤١) ومسلم (رقم ١١٧٣).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٤٤).

وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرة[١]، فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين.

وكان يعرض عليه القرآن أيضًا في كل سنة مرة، فعرض عليه تلك السنة مرتين[٢]، وكان إذا اعتكف دخل قبته وحده.

وكان لا يدخل بيته في حال اعتكافه إلا لحاجة الإنسان.

وكان يخرج رأسه من المسجد إلى بيت عائشة، فترجله وتغلسه وهو في المسجد، وهي حائض[٣]. وكان بعض أزواجه يزوره وهو معتكف، فإذا قدمت تذهب: قام معها يقلبها وكان ذلك ليلاً[٤].

ولم يباشر امرأة من نسائه وهو معتكف، لا بقبلة ولا غيرها.

وكان إذا اعتكف طرح له فراشه، ووضع له سريره في معتكفه.

وكان إذا خرج لحاجته مرَّ بالمريض وهو على طريقه، فلا يعرِّج عليه، ولا يسأل عنه.

واعتكف مرة في قبة تركية، وجعل على سدتها حصيرًا.

كل هذا تحصيلًا لمقصود الاعتكاف وروحه، عكس ما يفعله الجهال: من اتخاذ المعتكف موضع عشرة، ومجلبة للزائرين، وأخذهم بأطراف الأحاديث بينهم. فهذا لون، والاعتكاف النبوي لون. والله أعلم.

***

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٢٠) ومسلم (رقم ٢٣٠٨).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٨٥، ٦٢٨٦) ومسلم (رقم ٢٤٥٠).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٤٦) ومسلم (رقم ٢٩٧).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٣٥) ومسلم (رقم ٢١٧٥).

(١)﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ [البقرة: ١٨٨] أي: تضيفوا ذلك إلى الحكام، وتتوصلوا بحكمهم إلى أكلها.

فإن قيل: لو أراد هذا المعنى لقيل: «وتدلوا بالحاكم إليها» وأما الإدلاء بها إلى الحكام فهو: التوصل بالبرطيل بها إليهم؛ فترشوا الحاكم؛ لتتوصلوا برشوته إلى الأكل بالباطل.

قيل: الآية تتناول النوعين: فكل منهما إدلاء إلى الحكام بسببها، فالنهي عنهما معًا.. ا. هـ.

وقد ذكر سبحانه ذلك في ثلاث آيات من كتابه:

أحدها قوله: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

والثانية قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥].

والثالثة قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٢] فلولا ما يحدثه الله سبحانه في آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانه؛ لم يعلم ميقات الحج، والصوم والعدد، ومدة الرضاع، ومدة الحمل، ومدة الإجارة، ومدة آجال الحاملات.

فإن قيل: كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التي تحفظ بطلوع الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وإفطارهم بعد غروب الشمس.

فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه، في مصالح دينهم ودنياهم.

---

(١) ٨٨ أعلام جـ١.

مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب، وكمال حكمته، وعلمه وتدبيره، فشهادة الحق يتغير الأجرام الفلكية، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها. فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغيير، ولا يمكن عدمها.

***

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

(١)قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، فمد قتالهم إلى أن ينتهوا عن أسباب الفتنة، وهي الشرك، وأخبر أنه لا عدوان إلا على الظالمين؛ والمجاهرة بالسب والعدوان على الإسلام غير منتهٍ، فقتاله واجب إذا كان غير مقدور عليه، وقتله مع القدرة حتمٌ، وهو ظالم فعليه العدوان الذي نفاه عمن انتهى، وهو القتل والقتال. وهذا بحمد الله في غاية الوضوح.

(٢)وقد فهم من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. انغماس الرجل في العدو؛ حتى بين له أبو أيوب الأنصاري أن هذا ليس من الإلقاء بيده إلى التهلكة، بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضاة الله، وأن الإلقاء بيده إلى التهلكة هو: ترك الجهاد والإقبال على الدنيا وعمارتها.

---

(١) ٨٢٩ أحكام أهل الذمة جـ ٢.

(٢) ٢٢٣ أعلام جـ١.

وقال الصديق ﷺ: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بالعقاب من عنده» فأخبرهم أنهم يضعونها على غير مواضعها؛ في فهمهم منها خلاف ما أريد بها.

(١) وذكر أحمد عنه: أن رجلاً قال له: أوصني فقال: «أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن؛ فإنه روحك في السماء وذكر لك في الأرض»(٢).

وقال: «ذروة سنام الإسلام: الجهاد»(٣)، وقال: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»(٤).

وقال «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو؛ مات على شعبة من نفاق»(٥).

وذكر أبو داود عنه: «من لم يغز، أو يجهز غازياً، أو يخلف غازيًا في أهله بخير؛ أصابه

---

(١) ١٦٠ زاد المعاد جـ٣، ط مؤسسة الرسالة، ط١٥، سنة ١٤٠٧هـ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٨٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٠/ ٣٩٠-٣٩١) قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢١٥): رواه أحمد وأبو يعلى... ورجال أحمد ثقات وفي إسناد أبي يعلى ليث بن أبي سليم وهو مدلس.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٥) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٢٣ رقم ٧٨٨٥) وابن أبي عاصم في الجهاد (رقم ١٥) وانظر: فيض القدير (٣/ ٥٦١).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ١٢ رقم ٤٣٢٨) وفي الصغرى (رقم ٣١٢٠) والترمذي (رقم ١٦٥٥) وابن المبارك في مسنده (رقم ٢٢٥) والضياء المقدسي في فضائل الأعمال (رقم ٤٨٣) وتمام في فوائده (رقم ٦٥٢) وحسنه الترمذي.

وقال المنذري في الترغيب: (٢/ ١٨٨ رقم ٢٠٤٧): رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٥) أخرجه مسلم (رقم ١٩١٠) وانظر: شرح النووي (١٣/ ٥٦) والديباج على مسلم (٤/ ٥٠٣).

الله بقارعة قبل يوم القيامة»(١).

وقال: «إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله؛ أنزل الله بهم بلاءً فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم»(٢).

وذكر ابن ماجه عنه: «من لقي الله ﷻ، وليس له أثر في سبيل الله، لقي الله وفيه ثلمة»(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] وفسر أبو أيوب الأنصاري «الإلقاء باليد إلى التهلكة: بترك الجهاد»(٤).

وصح عنه ﷺ «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف»(٥).

وصح عنه ﷺ «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(٦).

***

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٥٠٣) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٤٨ رقم ١٧٧٢١) والدارمي (رقم ٢٤١٨) والطبراني في الكبير (٨/ ١٧٩ رقم ٧٧٤٧) وفي مسند الشاميين (رقم ٢٨٧) وعبد بن حميد (رقم ١٤٣٤) وابن أبي عاصم في الجهاد (رقم ٩٨) وضعفه العيني في عمدة القاري (١٤/ ١٣٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٣٢ رقم ١٣٥٨٣) وأحمد (٢/ ٢٨) والروياني في مسنده (٢/ ٤١٤ رقم ١٤٢٢) والبيهقي في الشعب (٧/ ٤٣٤ رقم ١٠٨٧١) وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ١٩): صححه ابن القطان، وتعقبه فأعل إسناده، بينما قال الزيلعي في نصب الراية (٤/ ١٦): وهذا حديث صحيح ورجاله ثقات، وانظر: نيل الأوطار (٥/ ٣١٨).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٨٩ رقم ٢٤٢٠) وابن ماجه (رقم ٢٧٦٣) والترمذي (رقم ١٦٦٦) وابن أبي عاصم في الجهاد (رقم ٤٢) وقال الترمذي: حديث غريب.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ١٩٨ رقم ١١٠٢٨) وأبو داود (رقم ٢٥١٢) والترمذي (رقم ٢٩٧٢) والطبراني في الكبير (٤/ ١٧٦ رقم ٤٠٦٠) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٦٦) ومسلم (رقم ١٧٤٢) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٠٠) (٦/ ٣٣، ٩٩) وشرح النووي (١٢/ ٤٥-٤٦).

(٦) أخرجه البخاري (رقم ١٢٣) ومسلم (رقم ١٩٠٤) وانظر: فتح الباري (١/ ١١) وشرح النووي (١٣/ ١٢، ٤٩).

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٩٦) ﴾.

(١) لما نزل فرض الحج بادر رسول الله ﷺ، إلى الحج من غير تأخير. فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٦] فإنها - وإن نزلت سنة ست، عام الحديبية - فليس فيها فرضية الحج، وإنما فيها الأمر بإتمامه، وإتمام العمرة، بعد الشروع فيهما، وذلك لا يقتضي وجوب الابتداء.

فإن قيل: فمن أين لكم تأخير نزول فرضه إلى التاسعة أو العاشرة؟

قيل: لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود، وفيه قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ، وصالحهم على أداء الجزية، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع، وفيها نزل صدر سورة آل عمران، وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة.

ويدل عليه: أن أهل مكة وجدوا في نفوسهم على ما فاتهم من التجارة من المشركين، لما أنزل الله تعالى: [التوبة: ٢٨] فأعاضهم الله تعالى من ذلك الجزية، ونزول هذه الآيات والمناداة بها، إنما كان في سنة تسع، وبعث الصديق ﷺ بذلك في موسم الحج، وأردفه بعلي ﷺ، وهذا الذي ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف. والله أعلم.

(٢) اعتمر ﷺ بعد الهجرة أربع عمر، كلهن في ذي القعدة:

الأولى: عمرة الحديبية، وهي أولاهن: سنة ست، فصدَّه المشركون عن البيت،

---

(١) ٣٦٥ زاد المعاد جـ١.

(٢) ٣٥٧ زاد المعاد جـ١.

فنحر البدن حيث صُدَّ بالحديبية، وحلق هو وأصحابه رءوسهم، وحلوا من إحرامهم، ورجع من عامه إلىٰ المدينة.

الثانية: عمرة القضية في العام المقبل، دخل مكة فأقام بها ثلاثًا، ثم خرج بعد إكمال عمرته. واختلف هل كانت قضاء للعمرة التي صُدَّ عنها في العام الماضي، أم عمرة مستأنفة؟ علىٰ قولين للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد:

إحداهما: أنها قضاء. وهو مذهب أبي حنيفة.

والثانية: ليست بقضاء، وهو قول مالك.

والذين قالوا: كانت قضاء احتجوا بأنها سميت عمرة القضاء، وهذا الاسم تابع للحكم. قال آخرون: القضاء عنها من المقاضاة، لأنه قاضىٰ أهل مكة عليها، لا أنه من قضىٰ يقضي قضاءً، قالوا: ولهذا سميت عمرة القضية، قالوا: والذين صُدوا عن البيت كانوا ألفًا وأربعمائة، وهؤلاء كلهم لم يكونوا معه في عمرة القضية، ولو كانت قضاء لم يتخلف منهم أحد، وهذا القول أصح؛ لأن رسول الله ﷺ لم يأمر من كان معه بالقضاء.

[1]واختلف في تسمية هذه العمرة بعمرة القضاء: هل هو لكونها قضاء للعمرة التي صدوا عنها، أو من المقاضاة؟ علىٰ قولين تقدما.

قال الواقدي: حدثني عبد الله بن نافع، عن أبيه، عن ابن عمر قال: «لم تكن هذه العمرة قضاءً، ولكن كان شرطًا علىٰ المسلمين أن يعتمروا في الشهر الذي حاصرهم فيه المشركون»[2].

واختلف الفقهاء في ذلك علىٰ أربعة أقوال:

أحدها: أن من أحصر عن العمرة: يلزمه الهدي والقضاء، وهذا إحدىٰ الروايات عن أحمد، بل أشهرها عنه.

---

(١) ٣٧١ زاد المعاد جـ٢.

(٢) انظر: فتح الباري (٤/ ١٢) وعمدة القاري (١٠/ ١١٢) ونيل الأوطار (٥/ ١٧٧).

والثاني: لا قضاء عليه، وعليه الهدي، وهو قول الشافعي، ومالك في ظاهر مذهبه، ورواية أبي طالب عن أحمد.

والثالث: يلزمه القضاء، ولا هدي عليه. وهو قول أبي حنيفة.

والرابع: لا قضاء عليه ولا هدي، وهو إحدىٰ الروايات عن أحمد.

فمن أوجب عليه القضاء والهدي؛ احتجَّ بأن النبي ﷺ، وأصحابه نحروا الهدي حين صدوا، ثم قضوا من قابل. قالوا: والعمرة تلزم بالشروع فيها، ولا يسقط الوجوب إلا بفعلها، ونحر الهدي لأجل التحلل قبل تمامها.

قالوا: وظاهر الآية يوجب الهدي، لقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

ومن لم يوجبهما؛ قالوا: لم يأمر النبي ﷺ، الذين أحصروا معه بالقضاء، ولا أحدًا منهم، ولا وقف الحل علىٰ نحرهم الهدي؛ بل أمرهم أن يحلقوا رءوسهم، وأمر من كان معه هدىً أو ينحر هديه.

ومن أوجب الهدي دون القضاء؛ احتج بقوله: ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

ومن أوجب القضاء دون الهدي؛ احتج بأن العمرة تلزم بالشروع، فإذا أحصر جاز له تأخيرها لعذر الإحصار، فإذا زال الحصر أتىٰ بها بالوجوب السابق، ولا يوجب تخلل التحلل بين الإحرام بها أولاً، وبين فعلها في وقت الإمكان شيئًا.

وظاهر القرآن يرد هذا القول، ويوجب الهدي دون القضاء؛ لأنه جعل الهدي هو جميع ما علىٰ المحصر، فدل علىٰ أنه يكتفي به منه. والله أعلم.

أحدهما: أن الأمر كذلك. وهو الصحيح؛ لأنه أحد النسكين، فجاز الحلُّ منه، ونحرُ هديه وقت حصره كالعمرة، لأن العمرة لا تفوت، وجميع الزمان وقتٌ لها، فإذا جاز الحل منها ونحر هديها من غير خشية فواتها، فالحج الذي يخشىٰ فواته أولىٰ،

وقد قال أحمد في رواية حنبل: إنه لا يحل ولا ينحر الهدي إلى يوم النحر.

ووجه هذا: أن للهدي محل زمان ومحل مكان، فإذا عجز عن محل المكان؛ لم يسقط عنه محل الزمان؛ لتمكنه من الإتيان بالواجب في محله الزماني.

وعلى هذا القول لا يجوز له التحلل قبل يوم النحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وفي نحره ﷺ وحله، دليل على أن المحصر بالعمرة يتحلل، وهذا قول الجمهور، وقد روي عن مالك: أن المعتمر لا يتحلل؛ لأنه لا يخاف الفوت، وهذا تبعد صحته عن مالك؛ لأن الآية إنما نزلت في الحديبية. وكان النبي ﷺ، وأصحابه كلهم محرمين بعمرة، وحلوا كلهم، وهذا مما لا يشك فيه أحد من أهل العلم[(١)].

وفي ذبحه ﷺ بالحديبية ـ وهي من الحل بالاتفاق ـ دليل على أن المحصر ينحر هديه حيث أحصر من حل أو حرم، وهذا قول الجمهور وأحمد.

[(٢)]**الثالثة:** عمرته التي قرنها مع حجته، فإنه كان قارنًا لبضعة عشرة دليلاً، سنذكرها عن قريب، إن شاء الله.

الرابعة: عمرته من الجعرانة، لما خرج إلى حنين، ثم رجع إلى مكة، فاعتمر من الجعرانة داخلاً إليها.

ففي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «اعتمر رسول الله ﷺ أربع عمرٍ، كلهن في ذي القعدة ـ إلا التي كانت مع حجته ـ: عمرة من الحديبية ـ أو زمن الحديبية ـ في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة؛ وعمرة من الجعرانة، حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة، وعمرة مع حجته»[(٣)].

---

(١) انظر: المغني (٣/ ١٧٣).

(٢) ٣٨٥ زاد المعاد جـ١.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٧٨٠) ومسلم (رقم ١٢٥٣) وانظر: فتح الباري (٣/ ٦٠١-٦٠٢) وشرح النووي (٨/ ٢٣٤-٢٣٥).

ولم يناقض هذا ما في الصحيحين عن البراء بن عازب قال: «اعتمر رسول الله ﷺ في ذي القعدة قبل أن يحج مرتين»[(١)]، لأنه أراد العمر المفردة المستقلة التي تمت. ولا ريب أنهما اثنتان، فإن عمرة القران لم تكن مستقلة، وعمرة الحديبية: صد عنها، وحيل بينه وبين إتمامها، ولذلك قال ابن عباس: «اعتمر النبي ﷺ، أربع عمر: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء من قابل، والثالثة من الجعرانة، والرابعة: مع حجته»[(٢)] ذكره الإمام أحمد.

ولا تناقض بين حديث أنس: «أنهن في ذي القعدة، إلا التي مع حجته»[(٣)] وبين قول عائشة وابن عباس: «لم يعتمر رسول الله ﷺ إلا في ذي القعدة»[(٤)]؛ لأن مبدأ عمرة القران كان في ذي القعدة، ونهايتها كانت في ذي الحجة، مع انقضاء الحج، فعائشة وابن عباس أخبرا عن ابتدائها، وأنس أخبر عن انقضائها.

وأما قول عبد الله بن عمر: «إن النبي ﷺ اعتمر أربعًا، إحداهن في رجب» فوهمٌ منه ﷺ، قالت عائشة ـ: لما بلغها ذلك عنه ـ «يرحم الله أبا عبد الرحمن، ما اعتمر رسول الله ﷺ عمرة قط إلا وهو شاهد. وما اعتمر في رجب قط»[(٥)].

وأما ما رواه الدارقطني، عن عائشة قالت: «خرجت مع رسول الله ﷺ في عمرة في رمضان، فأفطر وصمتُ، وقصر وأتممت، فقلت: بأبي وأمي، أفطرت وصمتُ.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٧٨١) وانظر: عمدة القاري (١٠/ ١١١-١١٥).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٢١).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٢٥٣) وانظر: فتح الباري (٣/ ٦٠٢) وعمدة القاري (١٠/ ١١٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٩٩٦) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٢٠١): هذا إسناد فيه ابن أبي ليلى وهو ضعيف وله شاهد من حديث عائشة رواه الشيخان وغيرهما، ورواه البخاري وغيره من حديث ابن عمر وأبو داود من حديث أنس والترمذي من حديث البراء، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٣/ ٦٠٠) وكذا صاحب عون المعبود (٥/ ٣٢٥).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ١٧٧٦) ومسلم (رقم ١٢٥٥) وانظر: فتح الباري (٣/ ٦٠١) وعمدة القاري (١٠/ ١١٠-١١١) والتمهيد (٢٢/ ٢٨٩-٢٩٠).

وقصرت وأتممت؟ فقال: أحسنت يا عائشة»[(١)] فهذا الحديث غلط؛ فإن رسول الله ﷺ، لم يعتمر في رمضان قط، وعمره مضبوطة العدد والزمان، ونحن نقول: يرحم الله أم المؤمنين، ما اعتمر رسول الله ﷺ في رمضان قط.

وقد روى أبو داود في سننه، عن عائشة «أن النبي ﷺ اعتمر في شوال»[(٢)] وهذا ـ إن كان محفوظًا ـ فلعله في عمرة الجعرانة، حيث خرج في شوال، ولكن إنما أحرم في ذي القعدة.

[(٣)]ولم يكن في عمره عمرة واحدة خارجًا من مكة، كما يفعل كثير من الناس اليوم، وإنما كانت عمره كلها داخلاً إلى مكة.

وقد أقام بعد الوحي بمكة ثلاث عشرة سنة، لم ينقل عنه: أنه اعتمر خارجًا من مكة في تلك المدة أصلاً.

فالعمرة التي فعلها رسول الله ﷺ وشرعها؛ عمرة الداخل إلى مكة، لا عمرة من كان بها فيخرج إلى الحل ليعتمر.

ولم يفعل هذا على عهده أحد قط إلا عائشة وحدها، من بين سائر من كان معه؛

---

(١) أخرجه الدارقطني (٢/ ١٨٨ رقم ٣٩) والبيهقي في الكبرى (٣/ ١٤٢ رقم ٥٢١٢) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/ ٦٠٣): الحديث أخرجه الدارقطني من طريق العلاء بن زهير عن عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد عن أبيه عنها، وقال: إن إسناده حسن، وقال صاحب الهدي [يقصد ابن القيم]: إنه غلط، لأن النبي ﷺ لم يعتمر في رمضان، قلت: [أي الحافظ ابن حجر]: ويمكن حمله على أن قولها في رمضان متعلق بقولها: خرجت، ويكون المراد سفر فتح مكة، فإنه كان في رمضان، واعتمر النبي ﷺ في تلك السنة من الجعرانة، لكن في ذي القعدة، وانظر: عمدة القاري (١٠/ ١١٦) وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٣/ ٨٥): لا يصلح للاحتجاج وإن حسَّن الدارقطني إسناده. بينما قال ابن عبد الهادي في تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٢/ ٤٨): هذا حديث منكر، وقوله: في عمرة في رمضان باطل، فإن نبي الله لم يعتمر في رمضان قط. وانظر: نصب الراية (٢/ ١٩١) ونيل الأوطار (٣/ ٢٤٨).

(٢) قال بدر الدين العيني في عمدة القاري (١٠/ ١١١): وفي سنن أبي داود بإسناد على شرط الشيخين من حديث عائشة أنه ﷺ اعتمر في شوال، أخرجه مالك في موطئه، وانظر: عون المعبود (٥/ ٣٢٦).

(٣) ٣٦٠ زاد المعاد جـ١.

لأنها كانت قد أهلت بالعمرة؛ فحاضت، فأمرها فأدخلت الحج على العمرة، وصارت قارنة، وأخبرها: أن «طوافها بالبيت وبين الصفا والمروة قد وقع عن حجتها وعمرتها» فوجدت في نفسها أن يرجع صواحباتها بحج وعمرة مستقلين، فإنهن كن متمتعات، ولم يحضن ولم يقرن. وترجع هي بعمرة في ضمن حجتها، فأمر أخاها أن يعمرها من التنعيم، تطييبًا لقلبها(١).

ولم يعتمر هو من التنعيم في تلك الحجة، ولا أحد ممن كان معه وسيأتي مزيد تقرير لهذا وبسط عن قريب. إن شاء الله تعالى.

دخل رسول الله ﷺ مكة بعد الهجرة خمس مرات، سوى المرة الأولى؛ فإنه وصل إلى الحديبية وصد عن الدخول إليها، أحرم في أربع منهن من الميقات لا قبله، فأحرم عام الحديبية من ذي الحليفة.

ثم دخلها المرة الثانية، فقضى عمرته، وأقام بها ثلاثًا ثم خرج.

ثم دخلها في المرة الثالثة عام الفتح في رمضان بغير إحرام.

ثم خرج منها إلى حنين، ثم دخلها بعمرة من الجعرانة، ودخلها في هذه العمرة ليلاً، وخرج ليلاً، فلم يخرج من مكة إلى الجعرانة ليعتمر، كما يفعل أهل مكة اليوم؛ وإنما أحرم منها في حال دخوله إلى مكة، ولما قضى عمرته ليلاً رجع من فوره إلى الجعرانة، فبات بها، فلما أصبح وزالت الشمس خرج من بطن سرف، حتى جامع الطريق، ولهذا خفيت هذه العمرة على كثير من الناس.

والمقصود: أن عمره كلها كانت في أشهر الحج، مخالفة لهدي المشركين، فإنهم كانوا يكرهون العمرة في أشهر الحج، ويقولون: هي من أفجر الفجور، وهذا دليل على أن الاعتمار في أشهر الحج؛ أفضل منه في رجب بلا شك.

وأما المفاضلة بينه وبين الاعتمار في رمضان؛ فموضع نظر، فقد صح عنه؛ أنه أمر

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٨٤) ومسلم (رقم ١٢١١) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٢٣٩).

أم معقل ـ لما فاتها الحج معه ـ أن تعتمر في رمضان، وأخبرها: أن «عمرة في رمضان تعدل حجة»[(١)].

وأيضًا: فقد اجتمع في عمرة رمضان أفضل الزمان، وأفضل البقاع، ولكن لم يكن الله ليختار لنبيه ﷺ، في عمره إلا أولى الأوقات، وأحقها بها، فكانت العمرة في أشهر الحج نظير وقوع الحج في أشهره، وهذه الأشهر قد خصَّها الله تعالى بهذه العبادة وجعلها وقتًا لها، والعمرة حج أصغر، فأولى الأزمنة بها؛ أشهر الحج، وذو القعدة؛ أوسطها، وهذا مما نستخير الله فيه، فمن كان عنده فضل علم فليرشد إليه.

وقد يقال: إن رسول الله ﷺ، كان يشتغل في رمضان من العبادات؛ بما هو أهم من العمرة، ولم يكن يمكنه الجمع بين تلك العبادات وبين العمرة، فأخر العمرة إلى أشهر الحج،ووفر نفسه على تلك العبادات في رمضان، مع ما في ترك ذلك من الرحمة بأمته، والرأفة بهم، فإنه لو اعتمر في رمضان؛ لبادرت الأمة إلى ذلك، وكان يشق عليها الجمع بين العمرة والصوم،وربما لا تسمح أكثر النفوس بالفطر في هذه العبادة؛ حرصًا على تحصيل العمرة وصوم رمضان، فتحصل المشقة، فأخرها إلى أشهر الحج، وقد كان يترك كثيرًا من العمل ـ وهو يحب أن يعمله ـ خشية المشقة عليهم.

ولما دخل الكعبة خرج حزينًا، قالت له عائشة في ذلك، قال: «إني أخاف أن أكون قد شققت على أمتي»[(٢)]، وهمَّ أن ينزل يستقي مع سقاة زمزم للحجاج، فخاف أن يغلب أهلها على سقايتهم بعده[(٣)]. والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٧٨٢، ١٨٦٣) ومسلم (رقم ١٢٥٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ٦٠٣-٦٠٤) وشرح النووي (٩/ ٢).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٢٠٢٩) والطبراني في الأوسط (٨/ ٢٠٥ رقم ٨٤٠٩) نقل الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/ ٤٦٦) تصحيح الترمذي وابن خزيمة والحاكم لهذا الحديث. وانظر: شرح الزرقاني (٢/ ٤٧٢).

(٣) انظر: عون المعبود (٥/ ٣٢٩).

(١)... وحل الرأس ثلاثة أنواع:

أحدها: نسك وقربة.

والثاني: بدعة وشرك.

والثالث: حاجة وداوء.

فالأول: الحل في أحد النسكين: الحج، أو العمرة.

والثاني: حلق الرأس لغير الله سبحانه، كما يحلقها المريدون لشيوخهم الأحياء والموتى، فيقول أحدهم: أنا حلقت رأسي لفلان، وأنت حلقته لفلان، وهذا بمنزلة أن يقول: سجدت لفلان، فإن حلق الرأس: خضوع، وعبودية، وذل؛ ولهذا كان من تمام الحج؛ حتى إنه عند الشافعي ركن من أركانه. لا يتم إلا به، فإنه وضع النواصي بين يدي ربها؛ خضوعًا لعظمته، وتذللاً لعزته، وهو من أبلغ أنواع العبودية.

ولهذا كانت العرب إذا رأت إذلال الأسير منهم وعتقه: حلقوا رأسه، وأطلقوه. فجاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية، الذي أساس مشيختهم على الشرك والبدعة، فشرعوا لمريديهم أن يتعبدوا لهم، فزينوا لهم حلق رؤوسهم لهم، كما زينوا السجود لهم، وسموه بغير اسمه، وقالوا: هو وضع الرأس بين يدي الشيخ، ولعمر الله، إن السجود لله: هو وضع الرأس بين يديه سبحانه، وزينوا لهم أن ينذروا لهم، ويتوبوا لهم، ويحلفوا بأسمائهم، وهذا هو اتخاذهم أربابًا وآلهة من دون الله.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

وأشرف العبودية: عبودية الصلاة، وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء

(١) ٢٤٢ زاد المعاد جـ٣.

والجبابرة. فأخذ الشيوخ منها أشرف ما فيها، وهو السجود. وأخذ المتشبهون بالعلماء منها الركوع، فإذا لقي بعضهم بعضًا ركع له، كما يركع المصلي لربه سواء. وأخذ الجبابرة منها القيام فيقوم الأحرار والعبيد على رءوسهم عبودية لهم؛ وهم جلوس.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل، فتعاطيها مخالفة صريحة له، فنهى عن السجود لغير الله، وقال: «**لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد**»(١). وأنكر على معاذ بن جبل لما سجد له(٢) وقال: «مَهْ» وتحريم هذا معلوم من دينه بالضرورة.

وتجويز من جوَّزه لغير الله مراغمة لله ورسوله، وهو من أبلغ أنواع العبودية. فإذا جوز هذا المشرك هذا النوع للبشر: فقد جوز العبودية لغير الله، وقد صح أنه قيل: يا رسول الله ﷺ: الرجل يلقى أخاه، أينحني له؟ قال: «لا»، قيل: أيلتزمه ويقبله؟ قال: «لا»، قيل: أيصافحه؟ قال: «نعم»(٣).

وأيضًا: فالانحناء عند التحية سجود. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ [البقرة: ٥٨]. أي: منحنين،وإلا فلا يمكن الدخول على الجباه، وصح عنه النهي عن القيام وهو جالس، كما تعظم الأعاجم بعضها بعضًا، حتى منع من ذلك في الصلاة وأمرهم «إذا صلى جالسًا: أن يصلوا جلوسًا»(٤) وهم أصحاء لا عذر لهم؛ لئلا يقوموا على رأسه وهو جالس، مع أن قيامهم لله، فكيف إذا كان القيام: تعظيمًا، وعبودية لغيره سبحانه؟

والمقصود: أن النفوس الجاهلة الضالة: أسقطت عبودية الله سبحانه، وأشركت فيها من تعظمه من الخلق؛ فسجدت لغير الله، وركعت له، وقامت بين يديه قيامها في

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العيال (٢/ ٧٢٧ رقم ٥٣٤) وقال محققه: في إسناده النضر بن إسماعيل البجلي وهو ليس بالقوي، وبقية رجاله رجال الصحيح، وله متابع جيد صححه ابن حبان من طريق أبي أسامة عن محمد بن عمرو به يرتقي به إلى درجة الحسن.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٩/ ٤٧٩ رقم ٤١٧١) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٩٢).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٧٢٨) وأحمد (٣/ ١٩٨) وحسنه الترمذي وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٥) وتحفة الأحوذي (٧/ ٤٢٦).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٧٣٤) ومسلم (رقم ٤١٤) وانظر: عمدة القاري (٤/ ١٠٧) (٥/ ٢١٦-٢١٩).

الصلاة، وحلفت بغير الله، ونذرت لغيره، وحلقت لغيره، وذبحت لغيره، وطافت بغير بيته، وعظمته بالحب والخوف والرجاء والطاعة، كما يعظم الخالق؛ بل أشد، وسوَّت مَنْ تعبده من المخلوقين برب العالمين، وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل، وهم الذين بربهم يعدلون. وهم الذين يقولون، وهم في النار مع آلهتهم يختصمون: ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨] وهم الذين قال فيهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وهذا كله من الشرك. والله لا يغفر أن يشرك به، فهذا فصل معترض في هديه في حلق الرأس، ولعله أهم مما قصدنا الكلام فيه، والله أعلم.

[(١)] في هدى رسول الله ﷺ في حلق الرأس، وتركه، وكيفية جعل شعره:

لم يكن هديه ﷺ حلق رأسه في غير نسك؛ بل لم يحفظ عنه أنه حلق رأسه إلا في حج أو عمرة.

وحلق الرأس أربعة أقسام: شرعي، وشركي، وبدعي، ورخصة.

فالشرعي: الحلق في الحج والعمرة، والشركي حلق الرأس للشيوخ فإنهم يحلقون رءوس المريدين للشيخ، ويقولون: احلق رأسك للشيخ فلان، وهذا من جنس السجود له، فإن حلق الرأس عبودية مذلة.

وكثير منهم يعمل المشيخة الوثنية، فترى المريد عاكفًا على السجود له، ويسميه: وضع رأس، وأدبًا، وعلى التوبة له، والتوبة لا تنبغي أن تكون لأحد إلا لله وحده، وعلى حلق الرأس له وحلق الرأس عبودية لا تصلح إلا لله وحده؛ وكانت العرب إذا منُّوا على الأسير؛ جزوا نواصيه وأطلقوه عبودية وإذلالاً له، ولهذا كان من تمام النسك؛ وضع النواصي لله عبودية وخصوصًا وذلًا، ويربونه على الحلف باسم الشيخ لإذلاله.

---

(١) ٧٥٠ أحكام جـ٢.

وقد صح عنه ﷺ، أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[١] فكيف من نذر لغير الله!

وأما الحلق البدعي فهو: كحلق كثير من المطوعة والفقراء، يجعلونه شرطًا في الفقر وزيًّا يتميزون به عن أهل الشعور من الجند والفقهاء والقضاة وغيرهم.

وقد صح عن النبي ﷺ في الخوارج أنه قال: «سيماهم التحليق»[٢].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ لصبيغ بن عسل وقد سأله عن مسائل فأمر بكشف رأسه وقال: «لو رأيتك محلوقًا لأخذت الذي فيه عيناك حتى أن تكون من الخوارج»[٣].

ومن حلق البدعة: الحلق عند المصائب بموت القريب ونحوه. فأما المرأة فيحرم عليها ذلك، وقد برئ رسول الله ﷺ من الحالقة والصالقة والشاقة[٤].

فالحالقة التي تحلق شعرها عند المصيبة، والصالقة التي ترفع صوتها بالويل والثبور ونحوه، والشاقة التي تشق ثيابها، وأما الرجل فحلقه لذلك بدعة قبيحة يكرهها الله ورسوله.

وأما حلق الحاجة والرخصة: فهو كالحلق، لوجع، أو قمل، أو أذى في رأسه: من بثور ونحوها، فهذا لا بأس به.

وأما حلق بعضه وترك بعضه فهو مراتب: أشدها أن يحلق وسطه ويترك جوانبه، كما تفعل شمامسة النصارى، ويليه أن يحلق جوانبه ويدع وسطه كما يفعل كثير من السفلة وأسقاط الناس، ويليه أن يحلق مقدم رأسه ويترك مؤخره.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٠/ ١٩٩-٢٠٠ رقم ٤٣٥٨) وفي الموارد (رقم ١١٧٧) وأبو داود (رقم ٣٢٥١) والترمذي (رقم ١٥٣٥) وحسنه والحاكم (١/ ٦٥ رقم ٤٥) وصححه. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥١٦) (١١/ ٥٣١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٥٦٢) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٧٤) (٨/ ٦٨) (١٢/ ٢٩٥).

(٣) انظر: المغني (١/ ٦٥) (٩/ ٨).

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧/ ٤٢٣ رقم ٣١٥٢).

وهذه الصور الثلاثة داخلة في القزع الذي نهى عنه رسول الله ﷺ[(١)] وبعضها أقبح من بعض؛ فإن دعت الحاجة إلى ذلك لضرر برأسه أو لاستخراج ضفيرة تؤذي عينيه؛ جاز حلق بعضه.

هذا والأولى في هذه الحال: أن يقتصر على ما تدفع به الحاجة أو حلق جميعه، وهذا فيه نظر.

***

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾.

[(٢)]قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن، هذا من زينة القرآن الباطنة، المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة. ومنه قوله تعالى لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨-١١٩] فقابل بين الجوع والعري دون الجوع والظمأ، وبين الظمأ والضحى دون الظمأ والجوع، فإن الجوع عري الباطن وذلة، والعري جوع الظاهر وذلة، فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حر الباطن، والضحى حر الظاهر، فقابل بينهما.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٢١) ومسلم (رقم ٢١٢٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٣٦٤-٣٦٥) وشرح النووي (١٤/ ١٠٠-١٠١).

(٢) ٢٥١ روضة المحبين.

[(١)] قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى، فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله تعالى والدار الآخرة؛ لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين.

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى، زينة الظاهر والباطن، وكمال الظاهر والباطن.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] فنفى عنه الضلال، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضًا، فهو منعم القلب والبدن بالهدى والفلاح.

ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف عليه السلام؛ لما أرته النسوة اللائمات لها في حبه: ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ فأرتهن جماله الظاهر. ثم قالت: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: ٣٢] فأخبرت عن جماله الباطن بعفته، فأخبرتهن بجمال باطنه، وأرتهن جمال ظاهره...

[(٢)] وسألته ﷺ عائشة رضي الله عنها فقالت: نرى الجهاد أفضل الأعمال، أفلا نجاهد؟ قال: «لكن أفضل الجهاد وأجمله حج مبرور»[(٣)] ذكره البخاري، وزاد أحمد «لكن هو جهاد»[(٤)].

---

(١) ٥٨ إغاثة جـ١.

(٢) ٢٩٩ أعلام جـ٤.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٥٢٠، ١٨٦١) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٨٢) وعمدة القاري (٩/ ١٣٤).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٧١).

وسألته ﷺ امرأة: ما يعدلُ حجةً معك، فقال: «عمرة في رمضان» ذكره أحمد[(١)]، وأصله في الصحيح.

وسألته ﷺ أم معقل فقالت: يا رسول الله إن عليَّ حجة وإن لأبي معقل بكرًا، فقال أبو معقل: صدقت، قد جعلته في سبيل الله، فقال: «أعطها فلتحج عليه، فإنه في سبيل الله» فأعطاها البكر فقالت: يا رسول الله إني امرأة قد كبرت سني وسقمت، فهل من عمل يجزئ عني من حجتي؟ فقال: «عمرة في رمضان تجزئ عن حجة»[(٢)] ذكره أبو داود.

وسأله ﷺ رجل فقال: إني أكرئ في هذه الوجه، وكان الناس يقولون: ليس لك حج، فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبه حتى نزلت هذه الآية: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٨]، فأرسل إليه رسول الله وقرأها عليه، وقال: «لك حج»[(٣)] ذكره أبو داود.

وسئل ﷺ: أي الحج أفضل؟ قال: «العج والثج» فقيل: ما الحاج؟ قال: «الشعث التفل» قال: ما السبيل؟ قال: «الزاد والرحلة»[(٤)] ذكره الشافعي.

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ٥١٣ -٥١٤ رقم ٤٩٨) والحاكم (١/ ٦٥٨ رقم ١٧٧٩) وابن خزيمة (٤/ ٣٦١ رقم ٣٠٧٧) وأبو داود (رقم ١٩٩٠) والبيهقي في (٦/ ١٦٤ رقم ١١٦٩٩) والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٠٧ رقم ١٢٩١١).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ١٩٨٨) وأحمد (٦/ ٣٧٥) وقال الزيلعي في نصب الراية (٢/ ٣٩٥) ورواه أحمد في مسنده ومن طريقه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح على شرط مسلم، وفيه نظر، فإن فيه رجلًا مجهولًا، وإبراهيم بن مهاجر متكلم فيه، وانظر: عون المعبود (٥/ ٣٢١-٣٢٢).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٧٣٣) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٣٣٣ رقم ٨٤٤٠) (٦/ ١٢١ رقم ١١٤٤٠) والحاكم (١/ ٦١٨ رقم ١٦٤٧) وصححه. وانظر: عون المعبود (٥/ ١٠٨-١٠٩).

(٤) أخرجه الشافعي في مسنده (ص ١٠٩) وفي الأم (٢/ ١١٦)، وابن ماجه (رقم ٢٨٩٦) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٣٣٠ رقم ٨٤٢٠) (٥/ ٥٨ رقم ٨٨٩٢) والترمذي (رقم ٢٩٩٨) والدارقطني (٢/ ٢١٧ رقم ١٠) وحسن المنذري إسناد ابن ماجه في الترغيب (٢/ ١١٨ رقم ١٧٤١) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٦-٣٨٧).

وسئل ﷺ عن العمرة، أواجبة هي؟ فقال: «لا، وأن تعمر فهو أفضل»[١] قال الترمذي: صحيح.

وعند أحمد: أن أعرابيًّا قال: يا رسول الله أخبرني عن العمرة أواجبة هي؟ فقال: «لا، وأن تعتمروا خير لكم»[٢].

وسأله ﷺ رجل فقال: إن أبي أدركه الإسلام وهو شيخ كبير لا يستطيع ركوب الرحل، والحج مكتوب علينا، أفأحج عنه؟ قال: «أنت أكبر ولده؟» قال: نعم. قال: «أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته عنه كان ذلك يجزئ عنه؟» قال: نعم، قال: «فحج عنه»[٣] ذكره أحمد.

[٤]وأما المفصل: فهو الذي نحن بصدده، فإنا التزمنا أن الفسخ على وفق القياس، فلابد من الوفاء بهذا الالتزام.

وعلى هذا: فالوجه الأول جوابه: بأن التمتع ـ وإن تخلله التحلل ـ فهو أفضل من الإفراد الذي لا حل فيه، لأمر النبي ﷺ، من لا هدي معه بالإحرام به، ولأمره أصحابه بفسخ الحج إليه، ولتمنيه أنه كان أحرم به، ولأنه النسك المنصوص عليه في كتاب الله، ولأن الأمة أجمعت على جوازه، بل على استحبابه، واختلفوا في غيره على قولين، فإن النبي ﷺ، غضب حين أمرهم بالفسخ إليه بعد الإحرام بالحج فتوقفوا، ولأنه من المحال قطعًا أن يكون حجة قط أفضل من حجة خير القرون، وأفضل العالمين مع

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٩٣١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٩٧) وعمدة القاري (١٠/ ١٠٨) وتحفة الأحوذي (٣/ ٥٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٦) والدارقطني (٢/ ٢٨٥ رقم ٢٢٣) وأبو يعلى (٣/ ٤٤٣ رقم ١٩٣٨). وانظر: التمهيد (٢٠/ ١٤) وحاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٥/ ١٧٤) وشرح الزرقاني (٢/ ٣٦٢).

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ٣٥٢ رقم ٣١٩) والنسائي في الكبرى (٢/ ٣٢٤ رقم ٣٦١٨) وفي الصغرى (رقم ٢٦٣٨) وأبو يعلى (١٢/ ١٨٥-١٨٦ رقم ٦٨١٢) وعبد بن حميد (١/ ٢١٣ رقم ٦٣٢) وانظر: التمهيد (٩/ ١٣٢).

(٤) ٤٥١ زاد المعاد جـ١.

نبيهم ﷺ، وقد أمرهم كلهم بأن يجعلوها متعة إلا من ساق الهدي، فمن المحال أن يكون غير هذا الحج أفضل منه إلا حج من قرن وساق الهدي، كما اختاره الله سبحانه لنبيه، فهذا هو الذي اختاره الله لنبيه، واختار لأصحابه التمتع، فأي حج أفضل من هذين؟

ولأنه من المحال: أن ينقلهم من النسك الفاضل إلىٰ المفضول المرجوح.

ولوجوه أخر كثيرة، ليس هذا موضعها، فرجحان هذا النسك أفضل من البقاء علىٰ الإحرام الذي يفوته بالفسخ، وقد تبين بهذا بطلان الوجه الثاني.

وأما قولكم: إنه نسك مجبور بالهدي، فكلام باطل من وجوه.

أحدها: أن الهدي في التمتع عبادة مقصودة، وهو من تمام النسك، وهو دم شكران لا دم جبران، وهو بمنزلة الأضحية للمقيم، وهو من تمام عبادة هذا اليوم، فالنسك المشتمل علىٰ الدم بمنزلة العيد المشتمل علىٰ الأضحية، فإنه ما تقرب إلىٰ الله في ذلك اليوم بمثل إراقة دم سائل.

وقد روىٰ الترمذي وغيره من حديث أبي بكر الصديق «أن النبي ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «العجُّ والثج»[1] والعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إراقة دم الهدي.

فإن قيل: يمكن المفرد أن يحصل هذه الفضيلة؟

قيل: مشروعيتها إنما جاءت في حق القارن والمتمتع، وعلىٰ تقدير استحبابها في حقه: فأين ثوابها من ثواب هدي المتمتع والقارن؟

الوجه الثاني: أنه لو كان دم جبران لما جاز الأكل منه، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه أكل من هديه، فإنه «أمر من كل بدنه ببضعة، فجعلت في قدر، فأكل من لحمها،

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٦٢٠ رقم ١٦٥٥) وابن ماجه (رقم ٢٩٢٤) والبيهقي في الكبرىٰ (٥/ ٤٢ رقم ٨٧٩٨) والترمذي (رقم ٨٢٧) والدارمي (رقم ١٧٩٧) وأبو يعلىٰ (١/ ١٠٨ رقم ١١٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٧٣ رقم ٧٣٢٠) وانظر: عمدة القاري (٩/ ١٧١).

وشرب من مرقها»[١] وإن كان الواجب عليه سُبع بدنة، فإنه أكل من كل بدنة من المائة، والواجب فيها مشاع لم يتعين بقسمة.

وأيضًا فإنه قد ثبت في الصحيحين: «أنه أطعم نساءه من الهدي الذي ذبحه عنهن، وكن متمتعات» احتج به الإمام أحمد، فثبت في الصحيحين عن عائشة «أنه أهدىٰ عن نسائه، ثم أرسل إليهن من الهدي الذي ذبحه عنهن»[٢].

وأيضًا، فإن الله ﷻ قال فيما يذبح بمنىٰ من الهدي ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ [الحج: ٢٨] وهذا يتناول هدي التمتع والقران قطعًا، إن لم يخص به، فإن المشروع هناك ذبح هدي المتعة والقرآن، ومن هاهنا ـ والله أعلم ـ أمر النبي ﷺ، من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر، امتثالاً لأمر ربه بالأكل، ليعم به جميع هديه.

الوجه الثالث: أن سبب الجبران محظور في الأصل؛ فلا يجوز الإقدام عليه إلا لعذر، فإنه إما ترك واجب، أو فعل محظور، والتمتع مأمور به: إما أمر إيجاب عند طائفة، كابن عباس وغيره، أو أمر استحباب عند الأكثرين، فلو كان دمه دم جبران: لم يجز الإقدام علىٰ سببه بغير عذر، فبطل قولهم: إنه دم جبران، وعلم أنه دم نسك، وهذا وسع الله به علىٰ عباده، وأباح لهم بسببه التحلل في أثناء الإحرام، لما في استمرار الإحرام عليهم من المشقة، فهو بمنزلة القصر والفطر في السفر، وبمنزلة المسح علىٰ الخفين، وكان من هدي النبي ﷺ وهدي أصحابه فعل هذا وهذا، والله تعالىٰ يجب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتىٰ معصيته، فمحبته لأخذ العبد بما يسره عليه وسهله له، مثل كراهته منه لارتكابه ما حرمه عليه، ومنعه منه، والهدي ـ وإن كان بدلاً عن ترفهه بسقوط أحد السفرين ـ فهو أفضل لمن قدم في أشهر الحج من أن يأتي بحج مفرد، ويعتمر عقيبه، والبدل قد يكون واجبًا، كالجمعة عند من جعلها بدلاً، وكالتيمم للعاجز عن استعمال الماء، فإنه واجب عليه وهو بدل، فإذا كان البدل قد يكون واجبًا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٥٥) وشرح النووي (٨/ ١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٧٠٩) ومسلم (رقم ١٢١١).

فكونه مستحبًا أولى بالجواز، وتخلل التحلل لا يمنع أن يكون الجميع عبادة واحدة كطواف الإفاضة، فإنه ركن بالاتفاق، ولا يفعل إلا بعد التحلل الأول، وكذلك رمي الجمار أيام منى، وهو يفعل بعد الحل التام، وصوم رمضان يتخلله الفطر في لياليه، ولا يمنع ذلك أن يكون عبادة واحدة، ولهذا قال مالك وغيره: إنه يجزئ بنية واحدة للشهر كله، لأنه عبادة واحدة، والله أعلم.

(١)وأفتى ﷺ أصحابه بجواز فسخهم الحج إلى العمرة، ثم أفتاهم باستحبابه، ثم أفتاهم بفعله حتمًا، ولم ينسخه شيء بعده، وهو الذي نَدينُ الله به أن القول بوجوبه أقوى وأصح من القول بالمنع منه.

وقد صح عنه صحة لا شك فيها أنه قال: «**من لم يكن أهدى فليهل بعمرة، ومن كان أهدى فليهل بحج مع عمرة**». وأما ما فعله هو فإنه صح عنه أنه قرن بين الحج والعمرة من بضعة وعشرين وجهًا، رواه عنه ستة عشر نفسًا من أصحابه، ففعل القران، وأمر بفعله من ساق الهدى، وأمر بفسخه إلى التمتع من لم يسق الهدي، وهذا من فعله وقوله كأنه رأي عين، وبالله التوفيق.

(٢)ويوضح ذلك إيضاحًا بينًا ما روى مسلم في صحيحه، من حديث الزهري، عن عروة، عنها، قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع فحضت، فلم أزل حائضًا حتى كان يوم عرفة، ولم أهل إلا بعمرة، فأمرني رسول الله ﷺ: أن أنقض رأسي، وأمتشط وأهل بالحج، وأترك العمرة، قالت: ففعلت ذلك، حتى إذا قضيت حجي بعث معي رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن أبي بكر، وأمرني أن أعتمر من التنعيم، مكان عمرتي التي أدركني الحج ولم أحل منها»(٣).

---

(١) ٣٠٣ أعلام جـ ٤.

(٢) ٣٦٤ زاد المعاد جـ١.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣١٩) ومسلم (رقم ١٢١١) وانظر: عمدة القاري (٣/ ٢٩٦) وعون المعبود (٥/ ٢٣٠).

فهذا حديث في غاية الصحة والصراحة: أنها لم تكن أحلت من عمرتها، وأنها بقيت محرمة بها؛ حتى أدخلت عليها الحج، فهذا خبرها عن نفسها، وذلك قول رسول الله ﷺ لها، كل منهما يوافق الآخر. وبالله التوفيق.

وفي قوله ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»(١) دليل على التفريق بين الحج والعمرة في التكرار، وتنبيه على ذلك؛ إذ لو كانت العمرة كالحج لا تفعل في السنة إلا مرة؛ لسوى بينهما ولم يفرق.

وروى الشافعي: عن علي ﷺ أنه قال: «اعتمر في كل شهر مرة».

وروى وكيع: عن إسرائيل، عن سويد بن أبي ناجية، عن أبي جعفر، قال: قال لي علي: «اعتمر في الشهر ـ إن أطقت ـ مراراً»(٢) وذكر سعيد بن منصور: عن سفيان بن أبي حسين، عن بعض ولد أنس: «أن أنساً كان إذا كان بمكة فجمم رأسه: خرج إلى التنعيم فاعتمر»(٣).

(٤)وكان يدور بيني وبين المكيين كلام في الاعتمار من مكة في رمضان وغيره، فأقول لهم: كثرة الطواف أفضل منها، فيذكرون قوله ﷺ: «عمرة في رمضان تعدل حجة»، فقلت لهم في أثناء ذلك: محال أن يكون مراد صاحب الشرع: العمرة التي يخرج إليها من مكة إلى أدنى الحل، وأنها تعدل حجة، ثم لا يفعلها هو مدة مقامة بمكة أصلاً، لا قبل الفتح ولا بعده، ولا أحد من أصحابه، مع أنهم كانوا أحرص الأمة على الخير، وأعلمهم بمراد الرسول ﷺ، وأقدرهم على العمل به، ثم مع ذلك يرغبون عن هذا العمل اليسير والأجر العظيم؟ يقدر أن يحج أحدهم في رمضان ثلاثين حجة

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٧٧٣) ومسلم (رقم ١٣٤٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٩٨) وشرح النووي (٩/ ١١٧) وعمدة القاري (١٠/ ١٠٨).

(٢) أخرجه محمد بن الحسن الشيباني في الحجة (٢/ ١٢٧).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٤/ ٣٤٤ رقم ٨٥١٢) والشافعي في مسنده (ص ١١٣) وفي الأم (٢/ ١٣٥) وابن أبي شيبة (٣/ ١٢٩ رقم ١٢٧٢٧).

(٤) ٢٨٨ تهذيب السنن جـ٢.

أو أكثر، ثم لا يأتي منها بحجة واحدة، وتختصون أنتم عنهم بهذا الفضل والثواب؛ حتى يحصل لأحدكم ستون حجة أو أكثر؟ هذا ما لا يظنه من له مسكة عقل، وإنما خرج كلام النبي ﷺ على العمرة المعتادة، التي فعلها هو وأصحابه، وهي التي أنشئوا السفر لها من أوطانهم، وبها أمر أم معقل، وقال لها: «**عمرة في رمضان تعدل حجة**» ولم يقل لأهل مكة: اخرجوا إلى أدنى الحل فأكثروا من الاعتمار، فإن عمرة في رمضان تعدل حجة، ولا فهم هذا أحد منهم. وبالله التوفيق.

... [١]ثبت في الصحيحين: «أن رسول الله ﷺ قدم تلك الليلة ضعفة أهله، وكان ابن عباس فيمن قدم»[٢]، وثبت: «أنه قدم سودة»، وثبت: «أنه حبس نساءه عنده؛ حتى دفعن بدفعه» وحديث أم حبيبة انفرد به مسلم. فإن كان محفوظًا، فهي إذًا من الضعفة التي قدمها. فإن قيل: فما تصنعون بما رواه الإمام أحمد، عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ بعث به مع أهله إلى منى يوم النحر، فرموا الجمرة مع الفجر»[٣].

قيل: نقدم عليه حديثه الآخر الذي رواه أيضًا الإمام أحمد والترمذي وصححه: «أن النبي ﷺ قدم ضعفة أهله، وقال: «لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس» ولفظ أحمد فيه: قدمنا رسول الله ﷺ: «أغيلمة بني عبد المطلب، على حُمُراتٍ لنا مع جمع. فجعل يلطح أفخاذنا ويقول: «أي بني، لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس»[٤] لأنه أصح منه، وفيه: نهى النبي ﷺ عن رمي الجمرة قبل طلوع الشمس، وهو محفوظ بذكر

---

(١) ٤٧١ زاد المعا جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٦٧٨) ومسلم (رقم ١٢٩٣) وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٢٧) وشرح النووي (٩/ ٤١).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٠) والطبراني في الكبير (١١/ ٤٣٠ رقم ١٢٢٢٠).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ١٩٤٠) وابن ماجه (رقم ٣٠٢٥) والترمذي (رقم ٨٩٣) وأحمد (١/ ٢٣٤، ٣١١، ٣٤٣) والطيالسي (رقم ٢٧٦٧) وابن حبان في صحيحه (٩/ ١٨١ رقم ٣٨٦٩) والبيهقي في الكبرى (٥/ ١٣٢) والطبراني في الكبير (١٢/ ١٣٩ رقم ١٢٦٩٩) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال ابن حجر في الفتح (٣/ ٥٢٨): وهو حديث حسن... ثم قال: وهذه الطرق يقوي بعضها بعضًا، ومن ثم صححه الترمذي وابن حبان.

القصة فيه، والحديث الآخر إنما فيه: أنهم رموها مع الفجر.

ثم تأملنا: فإذا أنه لا تعارض بين هذه الأحاديث فإنه أمر الصبيان أن لا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس، فإنه لا عذر لهم في تقديم الرمي، أما من قدمه من النساء فرمين قبل طلوع الشمس للعذر، والخوف عليهن من مزاحمة الناس وحطمهم، وهذا الذي دلت عليه السنة؛ جواز الرمي قبل طلوع الشمس، للعذر بمرض، أو كبر يشق معه مزاحمة الناس لأجله، وأما القادر الصحيح؛ فلا يجوز له ذلك.

وفي المسألة ثلاثة مذاهب:

أحدها: الجواز بعد نصف الليل مطلقًا للقادر والعاجز. كقول الشافعي وأحمد.

الثاني: لا يجوز إلا بعد طلوع الفجر، كقول أبي حنيفة.

الثالث: لا يجوز لأهل القدرة إلا بعد طلوع الشمس، كقول جماعة من أهل العلم.

والذي دلت عليه السنة؛ إنما هو التعجيل بعد غيبوبة القمر، لا نصف الليل. وليس مع من حدَّه بالنصف دليل، والله أعلم.

[1]فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت ـ لا قبله قطعًا ـ بأذان وإقامة، يوم النحر، وهو يوم العيد، وهو يوم الحج الأكبر، وهو يوم الأذان ببراءة الله ورسوله من كل مشرك.

ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشعر الحرام، فاستقبل القبلة وأخذ في الدعاء والتضرع، والتكبير والتهليل، والذكر حتى أسفر جدًّا، وذلك قبل طلوع الشمس، وهنالك سأله عروة بن مضرس الطائي، فقال: يا رسول الله، إني جئت من جبلي طيء، أكللتُ راحلتي، وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «من شهد صلاتنا هذه ووقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً: تم حجه، وقضى تفثه»[2] قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

---

(١) ١٧٥ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٢/ ٤٣١ رقم ٤٠٤٥، ٤٠٤٦) وأبو داود (رقم ١٩٥٠) والترمذي (رقم ٨٩١) والحاكم (١/ ٦٣٤ رقم ١٧٠٠). وابن حبان في صحيحه (٩/ ١٦١ رقم ٣٨٥٠) وابن خزيمة =

وبهذا احتج من ذهب إلى أن الوقوف بمزدلفة والمبيت بها: ركن كعرفة، وهو مذهب اثنين من الصحابة: ابن عباس. وابن الزبير. وإليه ذهب إبراهيم النخعي، والشعبي وعلقمة والحسن البصري، وهو مذهب الأوزاعي، وحماد بن أبي سليمان، وداود بن علي الظاهري، وأبي عبيد القاسم بن سلام، واختاره المحمدان: ابن جرير، وابن خزيمة. وهو أحد الوجوه للشافعية. ولهم ثلاث حجج، هذه إحداها.

والثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨].

والثالثة: فعل رسول الله ﷺ الذي خرج مخرج البيان لهذا الذكر المأمور به.

واحتج من لم يره ركنًا بأمرين:

أحدهما: أن النبي ﷺ مدَّ وقت الوقوف بعرفة إلى طلوع الفجر. وهذا يقتضي أن من وقف بعرفة قبل طلوع الفجر بأيسر زمان؛ صح حجه، ولو كان الوقوف بمزدلفة ركنًا؛ لم يصح حجه...

[1]أرباب العزائم والبصائر أشد ما يكون استغفارًا؛ عقيب الطاعات؛ لشهودهم: تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات، وهو أجل المواقف وأفضلها، فقال: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٩٩﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

=

(٤/ ٥٥ رقم ٢٨٢٠) والبيهقي في الكبرى (٥/ ١١٦ رقم ٩٢٥١) والدارقطني (٢/ ٢٤٠ رقم ١٨) والطبراني في الكبير (١٧/ ١٤٩ رقم ٣٧٨) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال بدر الدين العيني في عمدة القاري (١٠/ ٦): رواه أصحاب السنن الأربعة وصححه ابن خزيمة وابن حبان.

(١) ١٧٥ مدارج جـ١.

قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون الله ﷻ[١].

وفي الصحيح: أن النبي ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثًا، ثم قال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[٢].

وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج، واقتراب أجله، فقال في آخر سورة أنزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [سورة النصر].

[٣]ونحر رسول الله ﷺ بمنحره بمنى، وأعلمهم: أن منى كلها منحر[٤]، وأن فجاج مكة طريق ومنحر[٥]، وفي هذا دليل على أن النحر لا يختص بمنى، بل حيث نحر من فجاج مكة أجزأه، كما أنه لما وقف بعرفة قال: «وقفت هاهنا، وعرفة كلها موقف»[٦] ووقف بمزدلفة وقال: «وقفت هاهنا، ومزدلفة كلها موقف»[٧].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (رقم ٢٩٩).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٥٩١، ٥٩٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣٦) (١١/ ١٣٣) وعمدة القاري (٦/ ١٣٩).

(٣) ٤٨١ زاد المعاد جـ١.

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٥٢) وشرح النووي (٨/ ١٩٥-١٩٦) وعمدة القاري (١٠/ ٤٨-٤٩).

(٥) أخرجه أبو داود (رقم ١٩٣٧) وابن ماجه (رقم ٣٠٤٨) والبيهقي في الكبرى (٥/ ١٢٢ رقم ٩٢٨٦) والدارمي (رقم ١٨٧٩) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٩٠ رقم ٣١٨٣) وفي الصغير (رقم ٥٨٣) وأحمد (٣/ ٣٢٦) وعبد بن حميد (رقم ١٠٠٤) وانظر: التمهيد (٢٤/ ٤١٧-٤١٨) وشرح الزرقاني (٢/ ٤٥٦) وشرح سنن ابن ماجه (١/ ٢١٩) وعون المعبود (٥/ ٢٨٨) وفيض القدير (٤/ ٤٤١).

(٦) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: شرح النووي (٨/ ١٩٥).

(٧) أخرجه أبو داود (رقم ١٩٠٧) وانظر: عن المعبود (٥/ ٢٧٠) وشرح الزرقاني (٢/ ٤٤٨) وفيض القدير (٤/ ٣١٤)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٤٣).

وسئل ﷺ أن يُبنى له بمنى بناء يظله من الحر؟ فقال: «لا، منى مناخ لمن سبق إليه»[(١)]، وفي هذا دليل على اشتراك المسلمين فيها، وأن من سبق إلى مكان منها فهو أحق به، حتى يرتحل عنه، ولا يملكه بذلك.

***

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

[(٢)]قال سعيد: عن قتادة: «ذكر لنا: أنه كان بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ عشرة قرون كلهم على الهدى، وعلى شريعة من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك، فبعث الله ﷻ نوحًا، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، وبعث عند الاختلاف بين الناس وترك الحق»[(٣)].

وقال ابن عباس: «﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: كانوا على الإسلام كلهم»[(٤)].

وهذا هو القول الصحيح في الآية.

وقد روى عطية: عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا أمة واحدة، كانوا كفارًا»[(٥)].

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٥٠) وأبو يعلى (٨/ ١٦ رقم ٤٥١٩) وأحمد (٦/ ١٨٧، ٢٠٦) والحاكم (١/ ٦٣٨ رقم ١٧١٤) وابن خزيمة (٤/ ٢٨٤ رقم ٢٨٩١) وابن ماجه (رقم ٣٠٠٦، ٣٠٠٧) والترمذي (رقم ٨٨١) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وانظر: عمدة القاري (٩/ ٢٢٨) ونقل الشوكاني تحسين الترمذي له في نيل الأوطار (٨/ ١٧٢) وصححه الحاكم وابن خزيمة.

(٢) ٢٠٣ إغاثة جـ٢.

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٥٨٣) إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٠٩ رقم ١١٨٣٠) وأبو يعلى (٤/ ٤٧٣ رقم ٢٦٠٦) وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي يعلى والطبراني بسند صحيح: انظر: الدر المنثور (١/ ٥٨٢) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣١٨): ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٥١) والدر المنثور (١/ ٥٨٣) وتحفة الأحوذي (٧/ ١٠٥).

وهذا قول الحسن وعطاء، قالا: «كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح عليهما السلام أمةً واحدةً، على ملة واحدة، وهي الكفر، كانوا كفاراً كلهم أمثال البهائم، فبعث الله نوحًا وإبراهيم والنبيين».

وهذا القول ضعيف جدًّا، وهو منقطع عن ابن عباس، والصحيح عنه خلافه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة: حدثنا شيبان بن فروخ: حدثنا همام: حدثنا قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «كانوا على الإسلام كلهم».

وهذا هو الصواب قطعًا، فإن قراءة أبي بن كعب: «فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»(١).

ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس: ١٩].

والمقصود: أن العدو كادهم وتلاعب بهم حتى انقسموا قسمين: كفارًا ومؤمنين، فكادهم بعبادة الأصنام، وإنكار البعث...(٢).

***

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾.

... (٣)يجوز للمفتي أن يعدل عن جواب المستفتي عما سأله عنه إلى ما هو أنفع له منه، ولا سيما إذا تضمن ذلك بيان ما سأل عنه، وذلك من كمال علم المفتي وفقهه ونصحه، وقد قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٣٧٦ رقم ١٩٨٤) (٤/ ١٢٩٥ رقم ٧٣١٥) وانظر: تفسير الطبري (٢/ ٣٢٦) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٥١).

(٢) اختصرنا قرابة كراسة حول بدء عبادة الأوثان: أسبابها وأماكنها، فمن أراده فليرجع إليه اهـ. ج.

(٣) ١٥٨ أعلام جـ٤.

[البقرة: ٢١٥]. فسألوه عن المنفق فأجابهم بذكر المصرف؛ إذ هو أهمّ مما سألوه عنه، ونبههم عليه بالسياق، مع ذكره لهم في موضع آخر. وهو قوله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة: ٢١٩] وهو ما سهل عليهم إنفاقه ولا يضرهم إخراجه.

وقد ظن بعضهم أن من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٩] فسألوه عن سبب ظهور الهلال خفيًّا ثم لا يزال يتزايد فيه النور علىٰ التدريج حتىٰ يكمل، ثم يأخذ في النقصان، فأجابهم عن حكمة ذلك من ظهور مواقيت الناس التي بها تمامُ مصالحهم في أحوالهم ومعاشهم ومواقيت أكبر عبادتهم وهو الحج، وإن كانوا قد سألوا عن السبب فقد أجيبوا بما هو أنفع لهم مما سألوا عنه، وإن كانوا إنما سألوا عن حكمة ذلك فقد أجيبوا عن عين ما سألوا عنه، ولفظ سؤالهم محتمل؛ فإنهم قالوا: ما بال الهلال يبدو دقيقًا ثم يأخذ في الزيادة حتىٰ يتم ثم يأخذ في النقص؟

***

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

(١)قوله تعالىٰ: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وقوله ﷻ: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩٠].

فالآية الأولىٰ في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية.

والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية.

---

(١) ٩٠ فوائد.

فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده، ويحب الموادعة والمتاركة، وهذا المحبوب شر له في معاشه ومعاده، وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، ويحب المرأة لوصف من أوصافها، وله في إمساكها شر كثير لا يعرفه.

فالإنسان كما وصفه به خالقه: ظلوم جهول، فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله بأمره ونهيه.

فأنفع الأشياء له على الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه، وأضر الأشياء عليه على الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصًا له، فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيرًا له، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له.

فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته، علم يقينًا أن المكروهات التي تصيبه، والمحن التي تنزل به، فيها ضرب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب...

قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب. فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد، أوجب له ذلك أموراً:

منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع.

وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه، لأن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب.

وخاصة العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبه من الألم العظيم والشر الطويل. فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها.

والعاقل الكيس دائمًا ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها.

فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة، فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم، ويرى الأوامر كدواء كريه المذاق مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله، أمره نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق، لما يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر، تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره، هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له، لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه ـ وهو لا يعلم ـ فلا يختار على ربه شيئًا، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض إلى ربه ورضي بما يختاره له أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات؛ التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى.

ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور، ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم، غير ملطوف به

فيه، لأنه مع اختياره لنفسه.

ومتىٰ صح تفويضه ورضاه، اكتنفه في المقدور العطف عليه واللطف به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهون عليه ما قدره. إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيله في رده، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر؛ طريحًا كالميتة، فإن السبع لا يرضىٰ بأكل الجيف.

(١) *قاعدة: إذا ابتلىٰ الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن:*

فإن رده ذلك الابتلاء والمحن إلىٰ ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه؛ فهو علامة سعادته وإرادة الخير به، والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت، فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجل عوض وأفضله، وهو رجوعه إلىٰ الله بعد أن كان شاردًا عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائيًا عنه، وانطراحه علىٰ بابه بعد أن كان معرضًا، وللوقوف علىٰ أبواب غيره متعرضًا، وكانت البلية في حق هذا عين النعمة، وإن ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه، فربما كان مكروه النفوس إلىٰ محبوبها سببًا ما مثله سبب، وقوله تعالىٰ في ذلك هو الشفاء والعصمة: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢١٦].

وإن لم يرده ذلك البلاء إليه، بل شرد قلبه عنه ورده إلىٰ الخلق وأنساه ذكر ربه والضراعة إليه والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع إليه؛ فهو علامة شقاوته وإرادته الشر به، فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده إلىٰ حكم طبيعته وسلطان شهوته ومرحه وفرحه، فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع الأشر والبطر والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء، كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه في الضراء، فبلية هذا وبال عليه وعقوبة ونقص في حقه، وبلية الأول تطهير له ورحمة وتكميل. وبالله التوفيق.

---

(١) ١٦٣ طريق الهجرتين.

[1]المحبوب قسمان: محبوب لنفسه، ومحبوب لغيره ولابد أن ينتهي إلى المحبوب لنفسه دفعًا للتسلسل المحال، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره، وليس شيء يحب لنفسه إلا الله وحده، وكل ما سواه مما يحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه، فإنها تبع لمحبة الله سبحانه. وهي من لوازم محبته، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه.

وهذا موضع يجب الاعتناء به، فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة والتي لا تنفع؛ بل قد تضر.

واعلم أنه لا يحب لذاته إلا من كماله من لوازم ذاته، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته، وما سواه فإنما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها، وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافاة وضعفها: فما كان أشد منافاة لمحابه، كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها، فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته.

فإذا رأينا شخصًا يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه؛ علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك.

وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه، وكلما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وآثر عنده، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه؛ علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك.

فتمسك بهذا الأصل غاية التمسك في نفسك وفي غيرك، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا رياضة.

والمحبوب لغيره قسمان أيضًا: أحدهما ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله.

والثاني: ما يتألم به ولكن يحتمله لإفضائه إلى المحبوب، كشرب الدواء، قال تعالى:

---

(١) ٢٦١ الجواب الكافي.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع أنه خير لهم؛ لإفضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه، والنفوس تحب الراحة والفراغ والرفاهية، وذلك شر لها؛ لإفضائه إلى فوات هذا المحبوب.

فالعاقل لا ينظر إلى لذة المحبوب العاجلة فيؤثرها، وألم المكروه العاجل فيرغب عنه؛ فإن ذلك قد يكون شرًّا له، بل قد يجلب عليه غاية الألم ويفوته أعظم اللذة، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبها من اللذة بعدها وإن كانت منقطعة، فالأمور أربعة: مكروه يوصل إلى مكروه، ومكروه يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى مكروه.

فالمحبوب الموصل إلى المحبوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين، والمكروه الموصل إلى مكروه قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين:

بقي القسمان الآخران يتجاذبهما الداعيان وهما معترك الابتلاء والامتحان. فالنفس تؤثر أقربهما جواراً منها وهو العاجل، والعقل والإيمان يؤثران أنفعهما وأبقاهما، والقلب بين الداعيين وهو إلى هذا مرة. وإلى هذا مرة وهاهنا محل الابتلاء شرعًا وقدرًا.

***

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾.

[(١)]بعث عبد الله بن جحش الأسدي إلىٰ نخلة في رجب علىٰ رأس سبعة عشر شهرًا من الهجرة، في اثني عشر رجلاً من المهاجرين، كل اثنين يعتقبان علىٰ بعير. فوصلوا إلىٰ بطن نخلة، يرصدون عيرًا لقريش، وفي هذه السرية سُمِّي عبد الله بن جحش أمير المؤمنين، وكان رسول الله ﷺ كتب له كتابًا،وأمره أن لا ينظر فيه حتىٰ يسير يومين، ثم ينظر فيه فلما فتح الكتاب وجد فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتىٰ تنزل بنخلة، بين مكة والطائف، فتربص بها قريشًا، وتعلم لنا من أخبارهم». فقال: سمعًا وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك وبأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض، فمضوا كلهم، فلما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما، كانا يعتقبانه، فتخلفا في طلبه، وبعُد عبد الله بن جحش حتىٰ نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارة، فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولىٰ بني المغيرة، فتشاور المسلمون، وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم اجتمعوا علىٰ ملاقاتهم، فرمىٰ أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل، ثم قدموا بالعير والأسيرين، وقد عزلوا من ذلك الخمس، وهو أول خُمس كان في الإسلام، وأول قتيل في الإسلام، وأنكر رسول الله ﷺ عليهم ما فعلوه، واشتد تعنت قريش وإنكارهم ذلك، وزعموا أنهم قد وجدوا مقالاً، فقالوا: قد أحل محمد الشهر الحرام، واشتد ذلك علىٰ المسلمين، حتىٰ أنزل الله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[(٢)] [البقرة: ٢١٧].

(١) ٢١٣ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أخرجه البيهقي في ا لكبرىٰ (٩/ ٥٨ رقم ١٧٧٦٨) وانظر: تفسير الطبري (٢/ ٣٤٧-٣٤٨) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٥٤-٢٥٥) وعمدة القاري (٢/ ٢٧).

يقول سبحانه: هذا الذي أنكرتموه عليهم ـ وإن كان كبيرًا ـ فما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله والصدِّ عن سبيله وعن بيته، وإخراج المسلمين ـ الذين هم أهله ـ منه، والشرك الذي أنتم عليه، والفتنة التي حصلت منكم به؛ أكبر عند الله من قتالهم في الشهر الحرام.

وأكثر السلف فسروا الفتنة هنا بالشرك، كقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ويدل عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ٢٣] أي: لم يكن مآل شركهم وعاقبته، وآخر أمرهم؛ إلا أن تبرءوا منه وأنكروه.

وحقيقتها: أنها الشرك الذي يدعو صاحبه إليه ويقاتل عليه، ويعاقب من لم يفتتن به، ولهذا يقال لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤] قال ابن عباس: «تكذيبكم» وحقيقته: ذوقوا نهاية فتنتكم وغايتها، ومر مصير أمرها، كقوله: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]، وكما فتنوا عباده على الشرك فتنوا على النار، وقيل لهم: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ [البروج: ١٠]، فسرت الفتنة هاهنا بتعذيبهم المؤمنين، وإحراقهم إياهم بالنار. واللفظ أعم من ذلك، وحقيقته: عذبوا المؤمنين ليفتتنوهم عن دينهم. فهذه الفتنة المضافة إلى المشركين.

وأما الفتنة التي يضيفها الله سبحانه إلى نفسه، أو يضيفها رسوله إليه، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣] وقول موسى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فتلك بمعنى آخر، وهي بمعنى الامتحان والاختبار والابتلاء من الله، لعباده: بالخير والشر، بالنعم والمصائب فهذه لون وفتنة المشركين لون، وفتنة المؤمن في ماله وولده وجاره لون آخر.

والفتنة التي يوقعها بين أهل الإسلام ـ كالفتنة التي أوقعها بين أصحاب علي ومعاوية، وبين أهل الجمل وصفين، وبين المسلمين، حتى يتقاتلوا ويتهاجروا ـ لون

آخر، وهي الفتنة التي قال النبي ﷺ فيها: «ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي»(١).

وأحاديث الفتنة التي أمر رسول الله ﷺ فيها باعتزال الطائفتين: هي هذه الفتنة.

وقد تأتي الفتنة مرادًا بها المعصية، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ [التوبة: ٤٩]، يقوله الجد بن قيس، لما ندبه رسول الله ﷺ إلى تبوك، يقول: ائذن لي في القعود، ولا تفتني بتعريضي لبنات بني الأصفر، فإني لا أصبر عنهن(٢)، قال تعالى: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩] أي وقعوا في فتنة النفاق، وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر.

والمقصود: أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف، ولم يبرئ أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام، بل أخبر أنه كبير، وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام، فهم أحق بالذم والعيب والعقوبة، ولاسيما وأولياؤه كانوا متأولين في قتالهم ذلك، أو مقصرين نوعَ تقصير، يغفره الله لهم في جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات، والهجرة مع رسوله ﷺ وإيثار ما عند الله، فهم كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ ... جاءتْ محاسنه بألف شفيع(٣)

فكيف يقاس بغيض عدوٌّ جاء بكل قبيح، ولم يأت بشفيع واحد من المحاسن؟

(٤)في حكمه ﷺ في أول غنيمة كانت في الإسلام وأول قتيل.

لما بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش، ومعه سرية إلى نخلة ترصد عيرًا لقريش،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٠١) ومسلم (رقم ٢٨٨٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٤٨-١٤٩) والدر المنثور (٤/ ٢١٣-٢١٥) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٣).

(٣) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى ابن نباتة المصري، شاعر عصره، وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب، وكان صاحب سر السلطان الناصر حسن. توفي سنة ٧٦٨هـ رحمه الله. والبيت ذكره المباركفوري في تحفة الأحوذي (٩/ ١٤٢).

(٤) ٤٥٥ زاد المعاد جـ٣.

وأعطاه كتابًا مختومًا، وأمره: أن لا يقرأه إلا بعد يومين. فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وكان ذلك في الشهر الحرام، فعنفهم المشركون، ووقف رسول الله ﷺ الغنيمة والأسيرين، حتى أنزل الله ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٧]. فأخذ رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فدائهما، فقال: «**لا، حتى يقدم صاحبانا** ـ يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ـ **فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم**»، فلما قدما فأداهما رسول الله ﷺ بعثمان والحكم، وقسم الغنيمة[(١)].

وذكر ابن وهب: «أن النبي ﷺ رد الغنيمة وودى القتيل» والمعروف في السير خلاف هذا...

[(٢)]في فقه هذه القصة ففيها: جواز القتال في الشهر الحرام؛ إن كان ذكر التاريخ فيها برجب محفوظًا، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه وهم غير محفوظ؛ إذ لم يحفظ عن النبي ﷺ، أنه غزا في الشهر الحرام، ولا أغار فيه، ولا بعث فيه سرية، وقد عير المشركون المسلمين بقتالهم في أول رجب في قصة العلاء بن الحضرمي، فقالوا: استحل محمد الشهر الحرام، وأنزل الله في ذلك: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ الآية. [البقرة: ٢١٧] ولم يثبت نسخ هذا بنص يجب المصير إليه، ولا أجمعت الأمة على نسخه، وقد استدل على تحريم القتال في الأشهر الحرم بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥].

ولا حجة في هذا، لأن الأشهر الحرم هاهنا هي أشهر التسيير التي سير الله فيها المشركين في الأرض يأمنون فيها، وكان أولها: يوم الحج الأكبر، عاشر ذي الحجة،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٥) وأخبار المدينة (١/ ٢٥٩).
(٢) ٣٨١ زاد المعاد جـ٢.

وآخرها: عاشر ربيع الآخر، هذا هو الصحيح في الآية، لوجوه عديدة ليس هذا موضعها.

وفيها: جواز أكل ورق الشجر عند المخمصة، وكذلك عشب الأرض.

وفيها: جواز نهي الإمام وأمير الجيش للغزاة عن نحر ظهورهم، وإن احتاجوا إليه، خشية أن يحتاجوا إلى ظهرهم عند لقاء عدوهم، ويجب عليهم الطاعة إذا نهاهم.

[(١)] قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] من باب بدل الاشتمال... والسؤال إنما وقع عن القتال فيه، فلم قدم الشهر؟ وقد قلتم إنهم يقدمون ما هم ببيانه أهم وهم به أعنى.

قيل: السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال في الشهر وتشنيع أعدائهم عليهم وانتهاك حرمته، فكان اعتناؤهم واهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال، فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر؛ فلذلك قدم في الذكر وكان تقديمه مطابقًا لما ذكرنا من القاعدة.

فإن قيل: فما الفائدة في إعادة ذكر القتال بلفظ الظاهر وهلا اكتفى بضميره فقال: قل هو كبير؟ وأنت إذا قلت: سألته عن زيد: أهو في الدار؟ كان أوجز من أن تقول: أزيد في الدار؟

قيل: في إعادته لفظ الظاهر نكتة بديعة، وهي تعلق الحكم الخبري باسم القتال فيه عمومًا، ولو أتى بالمضمرة، وقال: هو كبير لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسئول عنه، وليس الأمر كذلك، وإنما هو عام في كل قتال وقع في شهر حرام.

ونظير هذه الفائدة قوله ﷺ وقد سئل عن الوضوء بماء البحر، فقال: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**»[(٢)] فأعاد لفظ الماء ولم يقتصر على قوله: نعم توضأوا به لئلا يتوهم

---

(١) ٤٧ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٨٣) والترمذي (رقم ٦٩) والنسائي في الكبرى (١/ ٧٥ رقم ٥٨) وابن ماجه (رقم ٣٨٦) وابن حبان في صحيحه (٤/ ٤٩ رقم ١٢٤٣) وفي موارد الظمآن (رقم ١١٩، ١٢٠) والبيهقي في الكبرى (١/ ٣ رقم ١) والدارقطني (١/ ٣٤ رقم ٤) ومالك (١/ ٢٢ رقم ٤١) وأحمد =

اختصاص الحكم بالسائلين لضرب من ضروب الاختصاص، فعدل عن قوله: نعم توضأوا إلىٰ جواب عام يقتضي تعلق الحكم والطهورية بنفس مائه من حيث هو؟ فأفاد استمرار الحكم علىٰ الدوام وتعلقه بعموم الآية، وبطل توهم قصره علىٰ السبب فتأمله فإنه بديع.

فكذلك في الآية لما قال: ﴿ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ فجعل الخبر بكبير واقعًا علىٰ قتال فيه، فيطلق الحكم به علىٰ العموم، ولفظ المضمر لا يقتضي ذلك.

وقريب من هذا قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٠] ولم يقل: أجرهم تعليقًا لهذا الحكم بالوصف، وهو كونهم مصلحين وليس في الضمير ما يدل علىٰ الوصف المذكور.

وقريب منه، وهو ألطف معنىٰ، قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ولم يقل: فيه تعليقًا لحكم الاعتزال بنفس الحيض وأنه هو سبب الاعتزال. وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ ولم يقل: الحيض؛ لأن الآية جارية علىٰ الأصل ولأنه لو كرره لثقل اللفظ لتكرره ثلاث مرات، وكان ذكره بلفظ الظاهر في الأمر بالاعتزال أحسن من ذكره مضمرًا ليفيد تعليق الحكم بكونه حيضًا بخلاف قوله: ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ فإنه إخبار بالواقع والمخاطبون يعلمون أنه جهة كونه أذىٰ هو نفس كونه حيضًا، بخلاف تعليق الحكم به، فإنه إنما يعلم بالشرع. فتأمله.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾.

(٢/ ٣٦١) وحسنه الهيثمي في المجمع (١/ ٢١٥) وقال الترمذي: حسن صحيح، وانظر: فتح الباري (٩/ ٦١٩) وصححه النووي في شرحه لمسلم (١٣/ ٨٦).

(١)تأمل كيف جعل رجاءهم بإتيانهم بهذه الطاعات.

وقال المغترون: إن المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لأوامره الباغين على عباده المتجرئين على محارمه؛ أولئك يرجون رحمة الله.

وسر المسألة أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه أن لا يكله إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه، ويصر ما يعرضها للحبوط ويبطل أثرها.

(٢)ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان، والراجون رحمة الله: هم الذين قاموا بهذه الثلاثة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وكما أن الإيمان فرض على كل أحد، ففرض عليه هجرتان في كل وقت:

هجرة إلى الله ﷻ بالتوحيد والإخلاص، والإنابة والتوكل، والخوف والرجاء، والمحبة والتوبة.

وهجرة إلى رسوله بالمتابعة والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره: **«فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله: فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها: فهجرته إلى ما هاجر إليه»**(٣) وفرض عليه جهاد نفسه في ذات الله، وجهاد شيطانه، فهذا كله فرض عين، لا ينوب فيه أحد عن أحد، وأما جهاد الكفار والمنافقين: فقد يكتفي فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد.

(٤)والفرق بين الرجاء والتمني: أن الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة

---

(١) ٤٧ الجواب الكافي.

(٢) ١٠٨ زاد المعاد جـ١.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١) ومسلم (رقم ١٩٠٧).

(٤) ٢٩٨ الروح.

في الإتيان بأسباب الظفر والفوز.

والتمني حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٨] فطوىٰ سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء.

وقال المغترون: إن الذين ضيعوا أوامره وارتكبوا نواهيه، واتبعوا ما أسخطه، وتجنبوا ما يرضيه، أولئك يرجون رحمته.

وليس هذا ببدع من غرور النفس والشيطان لهم، فالرجاء لعبد قد امتلأ قلبه من الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فمثل بين عينيه ما وعده الله تعالىٰ من كرامته وجنته؛ فامتد القلب مائلاً إلىٰ ذلك شوقًا إليه وحرصًا عليه، فهو شبيه بالماد عنقه إلىٰ مطلوب قد صار نصب عينيه. وعلامة الرجاء الصحيح: أن الراجي يخاف فوت الجنة وذهاب حظه منها بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها...

[(١)] وقد تقدم أن الله سبحانه طوىٰ الرجاء إلا عن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا، وقد فسر النبي ﷺ الإيمان بأنه ذو شعب وأعمال ظاهرة وباطنة[(٢)].

وفسر الهجرة بأنها هجر ما نهىٰ الله عنه، والجهاد بأنه جهاد النفس في ذات الله، فقال: «المهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه»[(٣)]، و«المجاهد من جاهد، نفسه في ذات الله»[(٤)].

والمقصود أن الله سبحانه جعل أهل الرجاء من آمن وهاجر وجاهد وأخرج من

---

(١) ٣٠١ الروح.

(٢) فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» أخرجه البخاري (رقم ٩) ومسلم (رقم ٣٥) واللفظ له.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٥) وانظر: عمدة القاري (٩/ ١٥) (١٤/ ٨١) وتحفة الأحوذي (٨/ ١٣١).

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٢٣٤) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (رقم ٦٣٩) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٤٩) وانظر: فيض القدير (٢/ ٤٩).

سواهم من هذه الأمم.

وأما الأماني فإنها رءوس أموال المفاليس، أخرجوها في قالب الرجاء وتلك أمانيهم، وهي تصدر من قلب تزاحمت عليه وساوس النفس؛ فأظلم من دخانها فهو يستعمل قلبه في شهواتها، وكلما فعل ذلك منته حسن العاقبة والنجاة، وأحالته على العفو والمغفرة والفضل، وأن الكريم لا يستوفي حقه ولا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، ويسمي ذلك رجاء وإنما هو وسواس وأماني باطلة تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل، فيستريح إليها، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣] فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك الله ولايته ونصرته، ولم يجد له من دون الله وليًا ولا نصيرًا، وإذا ترك ولايته ونصرته؛ تولته نفسه والشيطان فصارا وليين له، ووكل إلى نفسه فصار انتصاره لها بدلاً من نصرة الله ورسوله، فاستبدل بولاية الله ولاية نفسه وشيطانه، وبنصرته نصرة نفسه وهواه، فلم يدع للرجاء موضعًا، فإذا قالت لك النفس: أنا في مقام الرجاء فطالبها بالبرهان، وقل: هذه أمنية فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، فالكيس يعمل أعمال البر على الطمع والرجاء، والأحمق العاجز يعطل أعمال البر، ويتكل على الأماني التي يسميها رجاء. والله أعلم.

***

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ

أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

...[١]قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠] فيتفكرون في الآيات التي بينها لهم. فيستدلون بها على توحيده، وصفات كماله، وصدق رسله، والعلم بلقائه، ويتفكرون في الدنيا وانقضائها، واضمحلالها وآفاتها، والآخرة ودوامها وبقائها وشرفها، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، فالفكر الصحيح، المؤيد بحياة القلب ونور البصيرة: يدل على إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال، وأما فكرٌ مصحوب بموت القلب وعمى البصيرة؛ فإنما يعطي صاحبه نفيها وتعطيلها.

[٢]ولما نزل التشديد في أكل مال اليتيم عزلوا طعامهم عن طعام الأيتام وشرابهم من شرابهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم.

...[٣]أحكام القرآن يرشد سبحانه فيها إلى مداركها وعللها، كقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فأمر سبحانه نبيه أن

---

(١) ٣٥٧ مدارج السالكين جـ٣.

(٢) ٤١٠ أعلام جـ٤.

(٣) ١٦٣ أعلام جـ٤.

يذكر لهم علة الحكم قبل الحكم.

وكذلك قوله: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧].

وكذلك قوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨]. وقال في جزاء الصيد: ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ﴾ [المائدة: ٩٥].

(١) قوله تعالىٰ: ﴿ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ففيه معنىٰ آخر سوىٰ ما ذكره، وهو أن الطهر طهران: طهر بالماء من الأحداث والنجاسات، وطهر بالتوبة من الشرك والمعاصي، وهذا الطهور أصل لطهور الماء وطهور الماء لا ينفع بدونه؛ بل هو مكمل له معد مهيء بحصوله، فكان أولىٰ بالتقديم، لأن العبد أول ما يدخل في الإسلام فقد تطهر بالتوبة من الشرك، ثم يتطهر بالماء من الحدث.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال مجاهد: سألت ابن عباس عن قوله تعالىٰ: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فقال: تأتيها من حيث أمرت أن تعتزلها، يعني في المحيض.

وقال علي بن أبي طلحة عنه: يقول في الفرج، ولا تعده إلىٰ غيره.

وقد دلت الآية علىٰ تحريم الوطء في دبرها من وجهين:

أحدهما: أنه أباح إتيانها في الحرث، وهو موضع الولد، لا في الحش الذي هو موضع الأذىٰ، وموضع الحرث: هو المراد من قوله: ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ الآية. قال: ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وإتيانها في قبلها من دبرها: مستفاد من

(١) ٦٨ بدائع جـ١.

(٢) ٣١٥ زاد المعاد جـ٣.

الآية أيضًا، لأنه قال: ﴿أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ أي: من حيث شئتم: من أمامٍ، أو من خلف، قال ابن عباس: فائتوا حرثكم: يعني الفرج.

وإذا كان الله حرم الوطء في الفرج لأجل الأذى العارض، فما الظن بالحش الذي هو محل الأذى اللازم، مع زيادة المفسدة بالتعرض لانقطاع النسل، والذريعة القريبة جدًّا من أدبار النساء إلى أدبار الصبيان؟

وأيضًا: فللمرأة حق على الزوج في الوطء، ووطؤها في دبرها يفوت حقها، ولا يقضي وطرها، ولا يحصل مقصودها.

وأيضًا: فإن ذلك مضر للرجل، ولهذا ينهى عنه عقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم. لأن للفرج خاصية في اجتذاب الماء المحتقن، وراحة الرجل منه، والوطء في الدبر لا يعين على اجتذاب جميع الماء، ولا يخرج كل المحتقن، لمخالفته للأمر الطبيعي.

وأيضًا: يضر من وجه آخر، وهو إحواجه إلى حركات متعبة جدًّا، لمخالفته الطبيعة.

وأيضًا: فإنه محل القذر والنجو، فيستقبله الرجل بوجهه ويلابسه.

وأيضًا: فإنه يضر بالمرأة جدًّا، لأنه وارد غريب، بعيد عن الطباع، منافر لها غاية المنافرة.

وأيضًا: فإنه يحدث الهم والغم والنفرة من الفاعل والمفعول.

وأيضًا: فإنه يسود الوجه، ويظلم الصدر، ويطمس نور القلب، ويكسو الوجه وحشة تكون عليه كالسيماء، يعرفها من له أدنى فراسة...

... [1]كان أهل الكتاب إنما يأتون النساء على جنوبهن على حرف، ويقولون: هو أيسر للمرأة، وكانت قريش والأنصار تشرح النساء على أقفائهن، فعابت اليهود عليهم ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

(١) ٣١٢ زاد المعاد جـ ٣.

وفي الصحيحين: عن جابر قال: «كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها: كان الولد أحول. فأنزل الله ﷻ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾»(١).

وفي لفظ مسلم: «إن شاء مجبية، وإن شاء غير مجبية، غير أن ذلك في صمام واحد»(٢)، «والمجبية» المنكبة على وجهها. و«الصمام الواحد» الفرج، وهو موضع الحرث والولد، وأما الدبر فلم يبح قط على لسان نبي من الأنبياء.

ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة في دبرها فقد غلط عليه.

وفي سنن أبي داود: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى المرأة في دبرها»(٣).

وفي لفظ لأحمد وابن ماجه: «لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها»(٤).

وفي لفظ للترمذي وأحمد: «من أتى حائضًا أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٢٨) ومسلم (رقم ١٤٣٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٩٠-١٩٢) وشرح النووي (١٠/ ٦) وعمدة القاري (١٨/ ١١٧-١١٨).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٤٣٥) وانظر: مشارق الأنوار (١/ ١٣٧).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٦٢) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٢٣ رقم ٩٠١٥) وأبو عوانة في مسنده (رقم ٤٢٩٢) والطبراني في الأوسط (٥/ ٨٨ رقم ٤٧٥٤) وأبو يعلى (١١/ ٣٤٩ رقم ٦٤٦٢) وأحمد (٢/ ٤٤٤) وانظر: شرح النووي (١٠/ ٦) وحسنه الترمذي وصححه ابن حبان، وانظر: تحفة الأحوذي (٤/ ٢٧٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٤) وابن ماجه (رقم ١٩٢٣) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٣٠ رقم ١٦٨١١) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ١١٠): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٣٢٣ رقم ٩٠١٦) وابن ماجه (رقم ٦٣٩) والترمذي (رقم ١٣٥) والدارمي (رقم ١١٣٦) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٤٤) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٣٠ رقم ١٦٨٠٩) وأحمد (٢/ ٤٠٨، ٤٧٦) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٨٣) وتحفة الأحوذي (١/ ٣٥٥-٣٥٦).

وفي لفظ للبيهقي: «**من أتى شيئًا من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر**»[(١)].

وفي مصنف وكيع: حدثني زمعة بن صالح، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن يزيد قال: قال عمر بن الخطاب: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أعجازهن**» وقال مرة: «**في أدبارهن**»[(٢)].

وفي الترمذي: عن طلق بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تأتوا النساء في أعجازهن، فإن الله لا يستحي من الحق**»[(٣)].

وفي الكامل لابن عدي من حديثه، عن المحاملي، عن سعيد بن يحيى الأموي قال: حدثنا محمد بن حمزة، عن زيد بن رفيع، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود يرفعه: «**لا تأتوا النساء في أعجازهن**»[(٤)].

وروينا في حديث الحسن بن علي الجوهري، عن أبي ذر مرفوعًا: «**من أتى الرجال أو النساء في أدبارهن فقد كفر**»[(٥)].

***

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٦٥) وقال: والموقوف أصح، وبكر بن خنيس ضعفه غير واحد من الأئمة وتركه آخرون، وانظر: نيل الأوطار (٦/ ٣٥٢-٣٥٣).

(٢) أخرجه ابن حبان (٩/ ٥١٤-٥١٥ رقم ٤٢٠٠) وفي موارد الظمآن (رقم ١٢٩٩) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٢٢ رقم ٩٠٠٩) وابن ماجه (رقم ١٩٢٤) والدارمي (رقم ٢٢١٣) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٤٣-٤٥) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٩٥ رقم ٩٧٧) وفي الكبير (٤/ ٨٤ رقم ٣٧١٦) وأحمد (٥/ ٢١٣-٢١٥) والبزار (١/ ٤٧٤ رقم ٣٣٩ وقال المنذري في الترغيب (٣/ ١٩٨ رقم ٣٦٦٣): رواه ابن ماجه واللفظ له والنسائي بأسانيد أحدها جيد.

(٣) أخرجه الدارمي (رقم ١١٤٢) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٤٥) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٢٩ رقم ١٦٨٠٢) وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٣/ ٢٩٩ رقم ١٦٧٩) وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ٤٣ رقم ٤٨٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٣/ ١١٠) وانظر: عمدة القاري (١٨/ ١١٨) ونقل الشوكاني تحسين الترمذي له في نيل الأوطار (٦/ ٣٥٢).

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٢٠٥) في ترجمة زيد بن رفيع (رقم ٧٠٢) وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ١٨١): وعن ابن مسعود عند ابن عدي بإسنادٍ واهٍ.

(٥) ذكره العقيلي في الضعفاء في ترجمة بكر بن خنيس (١/ ١٤٨ رقم ١٨٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾.

(١)اللغو نوعان:

أحدهما: أن يحلف على الشيء، يظنه كما حلف عليه، فيتبين بخلافه.

والثاني: أن يجري اليمين على لسانه من غير قصد للحلف: ـ كلا، والله! وبلى، والله! ـ في أثناء كلامه. وكلاهما رفع الله المؤاخذة به لعدم قصد الحالف إلى عقد اليمين وحقيقتها، وهذا تشريع منه سبحانه لعباده: أن لا يرتبوا الأحكام على الألفاظ التي لم يقصد المتكلم بها حقائقها ومعانيها، وهذا غير الهازل حقيقة وحكمًا.

وقد أفتى أصحاب النبي ﷺ بعدم وقوع طلاق المكره، وإقراره.

فصح عن عمر أنه قال: «ليس الرجل بأمين على نفسه إذا أوجعته، أو ضربته، أو أوثقته»(٢).

وصح عنه: «أن رجلاً تدلى بحبل ليشتار عسلاً، فأتت امرأته، فقالت: لأقطعن الحبل، أو لتطلقني، فناشدها الله، فأبت، فطلقها، فأتى عمر، فذكر له ذلك، فقال له: ارجع إلى امرأتك، فإن ذلك ليس بطلاق»(٣).

وكان علي بن أبي طالب لا يجيز طلاق المكره.

وقال ثابت الأعرج: سألت ابن عمر وابن الزبير عن طلاق المكره؟ فقالا جميعًا: «ليس بشيء»(٤).

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه الغار بن جبلة، عن صفوان بن عمرو الأصم عن

---

(١) ٧٥ زاد المعاد جـ ٤.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٣٥٨ رقم ١٤٨٨٤) وابن أبي شيبة (٥/ ٤٩٣ رقم ٢٨٣٠٣) وانظر: المحلى (١٠/ ٢٠٢) والمغني (٩/ ٦٣) وصحح إسناد الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ٣١٤).

(٣) ذكره ابن حزم في المحلى (٨/ ٣٣١) (١٠/ ٢٠٢) وحكم الحافظ ابن حجر عليه بالانقطاع في تلخيص الحبير (٣/ ٢١٦) والزيلعي في نصب الراية (٣/ ٢٢٤).

(٤) انظر: المحلى (١٠/ ٢٠٢).

رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: «أن رجلاً جلست امرأته على صدره، وجعلت السكين على حلقه، وقالت له: طلقني، أو لأذبحنك، فناشدها الله؛ فأبت، فطلقها ثلاثًا، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «لا قيلولة في الطلاق»(١) رواه سعيد بن منصور في سننه.

وروى عطاء بن عجلان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «كل الطلاق جائز، إلا طلاق المعتوه، والمغلوب على عقله»(٢).

وروى سعيد بن منصور: حدثنا فرج بن فضالة: حدثني عمرو بن شراحيل المعافري: «أن امرأة استلت سيفًا، فوضعته على بطن زوجها، وقالت: والله لأنفذنه، أو لتطلقني، فطلقها ثلاثًا، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب، فأمضى طلاقها»(٣).

وقال علي: «كل الطلاق جائز إلا طلاق المعتوه»(٤).

قيل: أما خبر الغار بن جبلة: ففيه ثلاث علل:

إحداها: ضعف صفوان بن عمرو.

والثانية: لين الغار بن جبلة.

والثالثة: تدليس بقية بن الوليد الراوي عنه.

ومثل هذا لا يحتج به، قال أبو محمد بن حزم: وهذا خبر في غاية السقوط.

---

(١) قال ابن حزم في المحلى (١٠/ ٢٠٣): وهذا خبر في غاية السقوط، صفوان منكر الحديث وبقية ضعيف والغازي بن جبلة مغمور، وحكم عليه بالوضع في موضع آخر (١٠/ ٢١٠). وقال البخاري عن صفوان الأصم عن بعض الصحابة في طلاق المكره: حديثه منكر، لا يتابع عليه، انظر: لسان الميزان (٣/ ١٩١ رقم ٧٦٤) (٤/ ٤١٢ رقم ١٢٥٩) والإصابة (٣/ ٤٣٧) وتنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٣/ ٢١٦) والتحقيق في أحاديث االخلاف (٢/ ٢٩٤) والدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ٦٩-٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ١١٩١) وضعفه، وقال ابن حزم في المحلى (٨/ ٣٣٣): وهذا قلة حياء منهم أن يحتجوا برواية عطاء بن عجلان وهو مذكور بالكذب، ثم هم يقولون: إن الصاحب إذا روى خبرًا وخالفه، فذلك دليل على سقوط ذلك الخبر، وانظر: الكامل في ضعفاء الرجال (٥/ ٣٦٥) والتحقيق في أحاديث الخلاف (٢/ ٢٩٤ رقم ١٧١٢).

(٣) انظر: المحلى (١٠/ ٢٠٣) وعمدة القاري (٢٠/ ٢٥٠).

(٤) ذكره البخاري في صحيحه في كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والمكره قبل حديث (رقم ٥٢٦٦).

وأما حديث ابن عباس: «كل الطلاق جائز» فهو من رواية عطاء بن عجلان، وضعفه مشهور، وقد رُمي بالكذب، قال أبو محمد بن حزم: وهذا الخبر شر من الأول[١].

وأما أثر عمر: فالصحيح عنه خلافه، كما تقدم، ولا يعلم معاصرة المعافري لعمر، وفرج بن فضالة فيه ضعف.

وأما أثر علي: فالذي رواه عنه الناس: أنه كان لا يجيز طلاق المكره.

وروى عبد الرحمن بن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن: أن علي بن أبي طالب كان لا يجيز طلاق المكره[٢]، فإن صح عنه ما ذكرتم: فهو عام مخصوص بهذا.

وأما طلاق السكران فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣] فجعل سبحانه قول السكران غير معتبر؛ لأنه لا يعلم ما يقول.

وصح عنه ﷺ أنه «أمر بالمقر بالزنا أن يستنكه»[٣] ليعتبر قوله الذي أقر به أو يلغى.

وفي صحيح البخاري في قصة حمزة لما عقر بعيري علي: «فجاء النبي ﷺ، فوقف عليه يلومه، فصعَّد فيه النظر وصوَّبه، وهو سكران، ثم قال: هل أنتم إلا عبيد لأبي؟ فنكص النبي ﷺ على عقبيه»[٤] وهذا القول لو قاله غير سكران لكان ردة وكفرًا، ولم يؤاخذ بذلك حمزة.

وصح عن عثمان بن عفان أنه قال: «ليس لمجنون ولا سكران طلاق»[٥]. رواه ابن

---

(١) انظر: المحلى (١٠/ ٢٠٣).

(٢) انظر: المحلى (١٠/ ٢٠٢).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٦٩٥).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٧٥) ومسلم (رقم ١٩٧٩) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٢١٨-٢١٩) وعون المعبود (٨/ ١٤٨) وفيض القدير (٣/ ٥٠٧).

(٥) قال ابن عبد الهادي الحنبلي في تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٣/ ٥٢٠): إن الزهري روى عن أبان عن عثمان أنه رد طلاق السكران، ولا يعرف له مخالف من الصحابة، وهذا القول هو الصحيح.

أبي شيبة، عن وكيع، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن أبان بن عثمان، عن أبيه.

وقال عطاء: «طلاق السكران لا يجوز»(١). وقال ابن طاوس: «طلاق السكران لا يجوز»(٢). وقال القاسم بن محمد: «لا يجوز طلاقه»(٣).

وصح عن عمر بن عبد العزيز «أنه أتي بسكران طلق، فاستحلفه بالله الذي لا إله إلا هو، لقد طلقها وهو لا يعقل، فحلف، فرد إليه امرأته، وضربه الحد»(٤) وهو مذهب يحيى بن سعيد الأنصاري، وحميد بن عبد الرحمن، وربيعة الرأي، والليث بن سعد، وعبد الله بن الحسن، وإسحاق بن راهويه، وأبي ثور، والشافعي في أحد قوليه، واختاره المزني وغيره من الشافعية، ومذهب أحمد في إحدى الروايات عنه، وهي التي استقر عليها مذهبه، وصرح برجوعه إليها، فقال في رواية: الذي لا يأمر بالطلاق: إنما أتى خصلة واحدة، والذي يأمر بالطلاق: قد أتى خصلتين: حرمها عليه، وأحلها لغيره، فهذا خير من هذا، وأنا أتقيهما جميعًا، وقال في رواية الميموني: وقد كنت أقول: إن طلاق السكران يجوز، حتى تبينته، فقلت: إنه لا يجوز طلاقه، لأنه لو أقر لم يلزمه،ولو باع لم يجز بيعه، قال: وألزمه الجناية، وما كان من غير ذلك فلا يلزمه، قال أبو بكر عبد العزيز: وبهذا أقول. وهذا مذهب أهل الظاهر كلهم، واختاره من الحنفية أبو جعفر الطحاوي وأبو الحسن الكرخي.

والذين أوقعوه لهم سبعة مآخذ:

أحدها: أنه مكلف، ولهذا يؤخذ بجناياته.

والثاني: أن إيقاع الطلاق عقوبة له.

---

(١) انظر: المحلى (١٠/ ٢١٠).

(٢) انظر: المحلى (١٠/ ٢١٠).

(٣) انظر: المحلى (١٠/ ٢١٠).

(٤) انظر: المحلى (١٠/ ٢١٠).

والثالث: أن ترتب الطلاق على التطليق من باب ربط الأحكام بأسبابها، فلا يؤثر فيه السكر.

والرابع: أن الصحابة أقاموه مقام الصاحي في كلامه، فإنهم قالوا: «إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وحد المفتري ثمانون»[1].

والخامس: حديث: «لا قيلولة في الطلاق» وقد تقدم.

والسادس: حديث: «كل طلاق جائز إلا طلاق المعتوه» وقد تقدم[2]...

[3]والكسب قد وقع في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: عقد القلب وعزمه كقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] أي: بما عزمتم عليه وقصدتموه.

وقال الزجاج: أي: يؤاخذكم بعزمكم على: أن لا تبروا، وأن لا تتقوا، وأن تعتلوا في ذلك بأنكم حلفتم، وكأنه التفت إلى لفظ المؤاخذة وأنها تقتضي تعذيبًا فجعل كسب قلوبهم عزمهم على ترك البر والتقوى لمكان اليمين.

والقول الأول أصح وهو قول جمهور أهل التفسير؛ فإنه قابل به لغو اليمين، وهو أن لا يقصد اليمين، فكسب القلب المقابل للغو اليمين هو عقده وعزمه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩] فتعقيد الأيمان هو كسب القلب.

الوجه الثاني من الكسب: كسب المال من التجارة قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] فالأول للتجار، والثاني للزراع.

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٤/ ٧٥ رقم ١٧٩٥) من قول علي بن أبي طالب ﷺ، وانظر: سبل السلام (٣/ ١٨١).

(٢) تقدما قريبًا ص (٣٨٥) بأنهما لا يحتج بهما. ج.

(٣) ١٢٠ شفاء العليل.

الوجه الثالث من الكسب: السعي والعمل كقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٩]، ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الأنعام: ٧٠]. فهذا كله للعمل.

واختلف الناس في الكسب والاكتساب: هل هما بمعنى واحد أم بينهما فرق؟ فقال طائفة: معناهما واحد، قال أبو الحسن علي بن أحمد: وهو الصحيح عند أهل اللغة، ولا فرق بينهما، قال ذو الرمة:

ألفى أباه بذاك الكسب يكتسب(١)

وقال الآخرون: الاكتساب أخص من الكسب؛ لأن الكسب ينقسم إلى كسبه لنفسه ولغيره ولا يقال: يكتسب، قال الحطيئة:

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر هداك مليك الناس يا عمر(٢)

قلت: والاكتساب افتعال، وهو يستدعي اهتمامًا وعملاً واجتهادًا، وأما الكسب فيصح نسبته بأدنى شيء ففي جانب الفضل جعل لها ما لها فيه أدنى سعي، وفي جانب العدل لم يجعل عليها إلا ما لها فيه اجتهاد واهتمام.

***

---

(١) هذا عجز بيت من بحر البسيط، وصدره: ومطعم الصيد هبَّال لبُغيته. وينسب لذي الرمة واسمه غيلان بن عقبة العدوي، ذكره ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٨/ ١٧٧) وابن منظور في لسان العرب (١١/ ٦٨٧).

(٢) هذا بيت من بحر البسيط، وينسب إلى جرول بن أوس بن مالك العبسي المعروف بالحُطيئة، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، كان هجاءً عنيفًا، لم يكد يسلم من لسانه أحد، مات سنة ٤٥هـ. وعن الأصمعي لما هجا الحطيئة الزبرقان استعدى عليه عمر، فدعا حسان بن ثابت، فقال: أتراه هجاه؟ قال: نعم وسلح عليه، فحبسه عمر، فقال وهو محبوس:

ما ذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

ثم ذكر البيت إلا أن فيه: فاغفر عليك سلام الله يا عمر، فبكى عمر فشفع فيه عمرو بن العاص فأطلقه وعاش الحطيئة إلى خلافة معاوية، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ١٧٧) وأخبار المدينة (٢/ ٣، ٤).

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

(١)حكم رسول الله ﷺ في الإيلاء: ثبت في صحيح البخاري: عن أنس قال: آلى رسول الله من نسائه. وكانت انفكت رجله، فأقام في مشربة له تسعاً وعشرين ليلة، ثم نزل. فقالوا: يا رسول الله، آليت شهرًا، فقال: «**الشهر تسعٌ وعشرون**»(٢). وقد قال ﷻ: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

الإيلاء لغة: الامتناع باليمين، وخص في عرف الشرع بالامتناع باليمين من وطء الزوجة، ولهذا عدي فعله بأداة «من» تضمينًا له معنى: يمتنعون من نسائهم، وهو أحسن من إقامة «من» مقام «على».

وجعل سبحانه للأزواج مدة أربعة أشهر يمتنعون فيها من وطء نسائهم بالإيلاء. فإذا مضت: فإما أن يفيء وإما أن يطلق.

وقد اشتهر عن علي وابن عباس: «أن الإيلاء إنما يكون في حال الغضب دون الرضا»، كما وقع لرسول الله ﷺ مع نسائه.

وظاهر القرآن؛ مع الجمهور، وقد تناظر في هذه المسألة محمد بن سيرين ورجل آخر، فاحتج الآخر على محمد يقول علي، فاحتج عليه محمد بالآية، فسكت.

وقد دلت الآية على أحكام، منها: هذا.

ومنها: أن من حلف على ترك الوطء أقل من أربعة أشهر لم يكن مولياً.

وهذا قول الجمهور. وفيه قول شاذ: أنه مولٍ كانت مدة الامتناع أربعة أشهر؛ لم يثبت

---

(١) ١٧٤ زاد المعاد جـ٤.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩١١) وانظر: عمدة القاري (١٠/ ٢٨٣) (١٣/ ٢١) (٢٠/ ٢٧٦) وتحفة الأحوذي (٣/ ٣٠٢).

له حكم الإيلاء، لأن الله جعل لهم مدة أربعة أشهر، وبعد انقضائها: إما أن يطلقوا، وإما أن يفيئوا، وهذا قول الجمهور.

وهذا موضع اختلف فيه السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

فقال الشافعي: حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار قال: «أدركت بضعة عشر رجلاً من الصحابة كلهم يوقف المولي، يعني بعد أربعة أشهر»[(١)].

وروى سهيل بن أبي صالح، عن أبيه قال: «سألت اثني عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ عن المولي؟ فقالوا: ليس عليه شيء حتى تمضي أربعة أشهر»[(٢)] وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم.

وقال ابن مسعود وزيد بن ثابت: «إذا مضت الأربعة الأشهر، ولم يفئ فيها؛ طلقت منه بمضيها» وهذا قول جماعة من التابعين، وقول أبي حنيفة وأصحابه، فعند هؤلاء، يستحق المطالبة قبل مضي الأربعة الأشهر، فإن فاء، وإلا طلقت بمضيها. وعند الجمهور؛ لا يستحق المطالبة، حتى تمضي الأربعة الأشهر، فحينئذ يقال: إما أن تفيء، وإما أن تطلق، وإن لم يفئ أخذ بإيقاع الطلاق: إما بالحاكم، وإما بحبسه حتى يطلق.

قال الموقعون للطلاق بمضي المدة: آية الإيلاء تدل على ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عبد الله بن مسعود قرأ: ﴿ فَإِن فَآءُو ﴾ - فيهن - ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٣)] [البقرة: ٢٢٦]، فإضافة الفيئة إلى المدة تدل على استحقاق الفيئة فيها، وهذه القراءة: إما أن تجري مجرى خبر الواحد، فتوجب العمل، وإن لم توجب كونها من القرآن، وإما أن تكون قرآناً نسخ لفظه، وبقي حكمه، لا يجوز فيها غير هذا البتة.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور معزوًا إلى الشافعي والبيهقي (١/ ٦٥١) وانظر: نيل الأوطار (٧/ ٧٤).

(٢) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٧/ ٣٧٧ رقم ١٤٩٨٦) وانظر: اختلاف العلماء لمحمد بن نصر المروزي (ص ١٨٣) وفتح الباري (٩/ ٤٢٩).

(٣) انظر: نيل الأوطار (٧/ ٤٩).

الثاني: أن الله سبحانه جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر، فلو كانت الفيئة بعدها لزادت على مدة النص، وذلك غير جائز.

الثالث: أنه لو وطئها في مدة الإيلاء لوقعت الفيئة موقعها، فدل على استحقاق الفيئة فيها:

قالوا: ولأن الله ﷻ جعل لهم تربص أربعة أشهر، ثم قال: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢٦ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

وظاهر هذا: أن التقسيم في المدة التي لهم فيها التربص، كما إذا قال لغريمه: أصبر عليك بديني أربعة أشهر، فإن وفيتني وإلا حبستك، ولا يفهم من هذا إلا إن وفيتني في المدة، ولا يفهم منه: إن وفيتني بعدها، وإلا كانت مدة الصبر أكثر من أربعة أشهر، وقراءة ابن مسعود صريحة في تفسير الفيئة بأنها في المدة، وأقل مراتبها؛ أن تكون تفسيرًا...[(١)].

***

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٢٨﴾.

[(٢)]قد اختلف الفقهاء: هل يجب على الزوج مجامعة امرأته؟ فقالت طائفة: لا يجب عليه ذلك فإنه حق له، فإن شاء استوفاه، وإن شاء تركه، بمنزلة من استأجر دارًا إن شاء سكنها، وإن شاء تركها. وهذا من أضعف الأقوال، والقرآن والسنة والعرف والقياس يرده، أما القرآن فإن الله ﷻ قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

فأخبر أن للمرأة من الحق مثل الذي عليها، فإذا كان الجماع حقًّا للزوج عليها؛ فهو

---

(١) ذكر المؤلف بعد هذا أدلة الجمهور وأوصلها إلى عشرة اهـ. ج.

(٢) ٢٣ روضة المحبين.

حقٌّ لها على الزوج بنص القرآن. وأيضًا فإنه ﷻ أمر الأزواج أن يعاشروا الزوجات بالمعروف. ومن ضد المعروف أن يكون عنده شابّة شهوتها تعدل شهوة الرجل أو تزيد عليها بأضعافٍ مضاعفة، ولا يذيقها لذة الوطءِ مرةً واحدةً. ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه ردًّا عليه.

والله ﷻ إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه، لا على غيره، فقال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقالت طائفة: يجب عليه وطؤها في العمر مرةً واحدةً ليستقر لها بذلك الصداق، وهذا من جنس القول الأول، وهذا باطل من وجه آخر؛ فإن المقصود إنما هو المعاشرة بالمعروف، والصداق دخل في العقد تعظيمًا لحرمته وفرقًا بينه وبين السفاح، فوجوب المقصود بالنكاح أقوى من وجوب الصداق.

وقالت طائفة ثالثة: يجب عليه أن يطأها في كل أربعة أشهر مرة واحدة، واحتجوا على ذلك بأن الله ﷻ أباح للمولي تربص أربعة أشهر، وخير المرأة بعد ذلك، إن شاءت أن تقيم عنده، وإن شاءت أن تفارقه. فلو كان لها حقٌّ في الوطء أكثر من ذلك لم يجعل للزوج تركه في تلك المدة.

وهذا القول وإن كان أقرب من القولين اللذين قبله؛ فليس أيضًا بصحيح، فإنه غير المعروف الذي لها وعليها.

وأما جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر فنظرًا منه سبحانه للأزواج، فإن الرجل قد يحتاج إلى ترك وطء امرأته مدة لعارضٍ من: سفر، أو تأديب، أو راحة نفس، أو اشتغال بمهم، فجعل الله ﷻ له أجلاً أربعة أشهر، ولا يلزم من ذلك أن يكون الوطء موقتًا في كل أربعة أشهر مرة.

وقالت طائفة أخرى: بل يجب عليه أن يطأها المعاشرة ومقصودها، وقد أمر الله ﷻ أن يعاشرها بالمعروف، فالوطء داخلٌ في هذه المعاشرة ولا بد.

قالوا: وعليه أن يشبعها وطئًا إذا أمكنه ذلك كما عليه أن يشبعها قوتًا، وكان شيخنا

رحمه الله تعالى يرجح هذا القول ويختاره، وقد حضَّ النبي ﷺ على استعمال هذا الدواء ورغب فيه وعلق عليه الأجر، وجعله صدقة لفاعله، فقال: «وفي بضع أحدكم صدقة»[1]. ومن تراجم النسائي على هذا: الترغيب في المباضعة.

ثم ذكر هذا الحديث، ففي هذا كمال اللذة، وكمال الإحسان إلى الحبيبة، وحصول الأجر، وثواب الصدقة، وفرح النفس، وذهاب أفكارها الرديئة عنها، وخفة الروح، وذهاب كثافتها وغلظها، وخفة الجسم، واعتدال المزاج، وجلبُ الصحة، ودفع المواد الرديئة....

وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

فختم حكم الفيء الذي هو الرجوع والعود إلى رضا الزوجة، والإحسان إليها، بأنه غفور رحيم يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه والإحسان جنس العمل، فكما رجع إلى التي هي أحسن رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة، ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٢٧]، فإن الطلاق لما كان لفظًا يسمع ومعنى يقصد، عقبه باسم «السميع» للنطق به «العليم» بمضمونه.

وكقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

فلما ذكر سبحانه التعريض بخطبة المرأة الدال على أن المعرض في قلبه رغبة فيها ومحبة لها، وأن ذلك يحمله على الكلام الذي يتوصل به إلى نكاحها؛ رفع الجناح عن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٠٠٦) وانظر: فتح الباري (١/ ١٣٧) وشرح النووي (٧/ ٩٢) والديباج على صحيح مسلم (٣/ ٧٨).

التعريض وانطواء القلب على ما فيه من الميل والمحبة.

ونفي مواعدتهن سرًّا - فقيل: هو النكاح، والمعنى: لا تصرحوا لهن بالتزويج إلا أن تعرضوا تعريضًا وهو القول المعروف.

وقيل: هو أن يتزوجها في عدتها سرًّا فإذا انقضت العدة أظهر العقد ويدل على هذا قوله: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ وهو: انقضاء العدة.

ومن رجح القول الأول قال: دلت الآية على إباحة التعريض بنفي الجناح، وتحريم التصريح بنهي المواعدة سرًّا، وتحريم عقد النكاح قبل انقضاء العدة، فلو كان معنى مواعدة السر هو إسرار العقد كان تكرارًا.

ثم عقب ذلك قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٥] أن تتعدوا ما حد لكم، فإنه مطلع على ما تسرون وما تعلنون، ثم قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥] لولا مغفرته وحلمه لعنتم غاية العنت، فإنه سبحانه مطلع عليكم يعلم ما في قلوبكم، ويعلم ما تعملون. فإن وقعتم في شيء مما نهاكم عنه فبادروا إليه بالتوبة والاستغفار، فإنه الغفور الحليم.

وهذه طريقة القرآن يقرن بين أسماء الرجاء، وأسماء المخافة كقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٩٨].

وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤] لما صاروا إلى كرامته بمغفرته ذنوبهم وشكره إحسانهم، قالوا: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ وفي هذا معنى التعليل أي: بمغفرته وشكره وصلنا إلى دار كرامته، فإنه غفر لنا السيئات وشكر لنا الحسنات.

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] فهذا جزاء لشكرهم، أي: إن شكرتم ربكم شكركم وهو عليم بشكركم لا يخفى عليه من شكره ممن كفره، والقرآن مملوء من هذا، والمقصود التنبيه عليه.

وأيضًا فإنه سبحانه يستدل بأسمائه على توحيده ونفي الشريك عنه، ولو كانت أسماء لا معنى لها لم تدل على ذلك كقول هارون لعبدة العجل: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [طه: ٩٠]. وقوله سبحانه في القصة: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه: ٩٨]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقوله سبحانه في آخر سورة الحشر: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٣].

فسبح نفسه عن شرك المشركين به عقب تمدحه بأسمائه الحسنى المقتضية لتوحيده واستحالة إثبات شريك له.

ومن تدبر هذا المعنى في القرآن هبط به على رياض من العلم حماها الله عن كل أفاك معرض عن كتاب الله واقتباس الهدى منه، لو لم يكن في كتابنا هذا إلا هذا الفصل وحده لكفى من له ذوق ومعرفة، والله الموفق للصواب.

وأيضًا فإن الله سبحانه يتعلق بأسماء المعمولات من الظروف والجار والمجرور وغيرهما، ولو كانت أعلامًا محضة؛ لم يصح فيها ذلك كقوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٩٥]. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٣]. ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣]. ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧]. ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩]. ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩]. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٩]. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥]. ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [هود: ١١١]. ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٨]. ﴿ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]. ونظائره كثيرة.

وأيضًا فإنه سبحانه يجعل أسماءه دليلاً علىٰ ما ينكره الجاحدون من صفات كماله كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وقد اختلف النظار في هذه الأسماء: هل هي متباينة نظرًا إلىٰ تباين معانيها وأن كل اسم يدل علىٰ معنىٰ غير ما يدل عليه الآخر، أم هي مترادفة لأنها تدل علىٰ ذات واحدة، فمدلولها لا تعدد فيه وهذا شأن المترادفات؟ والنزاع لفظي في ذلك.

والتحقيق أن يقال: هي مترادفة بالنظر إلىٰ الذات متباينة بالنظر إلىٰ الصفات، وكل اسم منها يدل علىٰ الذات الموصوفة بتلك الصفة بالمطابقة وعلىٰ أحدهما وحده بالتضمن، وعلىٰ الصفة الأخرىٰ بالالتزام.

...[1]تقسيم الألفاظ إلىٰ: صريح، وكناية، وإن كان تقسيمًا صحيحًا في أصل الوضع؛ لكن يختلف باختلاف الأشخاص والأزمنة والأمكنة، فليس حكمًا ثابتًا للفظ لذاته، فرب لفظ صريح عند قوم، كناية عند آخرين، أو صريح في زمان أو مكان، كناية في غير ذلك الزمان والمكان، والواقع شاهد بذلك. فهذا لفظ «السراح» لا يكاد أحد يستعمله في الطلاق، لا صريحًا ولا كناية، فلا يسوغ أن يقال: إن من تكلم به لزمه طلاق امرأته، نواه أو لم ينوه، ويدعي أنه ثبت له عرف الشرع والاستعمال، فإن هذه دعوىٰ باطلة شرعًا واستعمالاً.

أما الاستعمال: فلا يكاد أحد يطلق به البتة.

وأما الشرع: فقد استعمله في غير الطلاق، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب: ٤٩] فهذا السراح غير الطلاق قطعًا.

وكذلك «الفراق» استعمله الشرع في غير الطلاق، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا

(١) ١٥٧ زاد المعاد جـ ٤.

طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ...﴾ إلى قوله: ﴿... فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ١-٢] فالإمساك هنا: الرجعة. والمفارقة: ترك الرجعة، لا إنشاء طلقة ثانية، هذا مما لا خلاف فيه البتة، فلا يجوز أن يقال: إن من تكلم به طلقت زوجته، فهم معناه أو لم يفهمه، وكلاهما في البطلان سواء، وبالله التوفيق.

... [(١)]وفي صحيح مسلم قول ابن عمر للمطلق ثلاثًا: «حرمت عليك حتى تنكح زوجًا غيرك، وعصيت ربك فيما أمرك به من طلاق امرأتك»[(٢)] وهذا تفسير منه للطلاق المأمور به، وتفسير الصحابي حجة، وقال الحاكم: هو عندنا مرفوع[(٣)].

ومن تأمل القرآن حق التأمل تبين له ذلك. وعرف أن الطلاق المشروع بعد الدخول: هو الطلاق الذي تملك به الرجعة.

ولم يشرع الله سبحانه إيقاع الثلاث جملة واحدة البتة، قال تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ولا تعقل العرب في لغتها وقوع المرتين إلا متعاقبتين. كما قال النبي ﷺ: «من سبح الله دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، وحمده ثلاثًا وثلاثين، وكبره أربعًا وثلاثين»[(٤)] ونظائره، فإنه لا يعقل من ذلك إلا تسبيح وتكبير وتحميد متوال، يتلو بعضه بعضًا، فلو قال: سبحان الله ثلاثًا وثلاثين، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين، والله أكبر أربعًا وثلاثين - بهذا اللفظ - لكان ثلاث مرات فقط.

وأصرح من هذا؛ قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ﴾ [النور: ٦] فلو قال: أشهد بالله أربع شهادات إني لمن الصادقين؛ كانت مرة. وكذلك قوله: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ

---

(١) زاد المعاد جـ٤ / ١٠٢.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٤٧١).

(٣) انظر: المنهل الروي لابن جماعة (ص ٤١) وتدريب الراوي للسيوطي (١/ ١٩٢).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٥٩٦) بلفظ: «معقبات لا يخيب قائلهن أو فاعلهن، دبر كل صلاة مكتوبة: ثلاث وثلاثون تسبيحة، وثلاث وثلاثون تحميدة، وأربع وثلاثون تكبيرة».

أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [النور: ٨] فلو قالت: أشهد بالله أربع شهادات إنه لمن الكاذبين، كانت واحدة.

وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ [التوبة: ١٠١] فهذا مرة بعد مرة، ولا ينتقض هذا بقوله تعالى: ﴿ نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ [الأحزاب: ٣١]. وقوله ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين**» فإن المرتين هنا: هما الضعفان، وهما المثلان، وهما مثلان في القدر، كقوله تعالى: ﴿ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ [الأحزاب: ٣٠] وقوله: ﴿ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أي: ضعف ما يعذب به غيرها، وضعف ما كانت تؤتي.

ومن هذا قول أنس: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ مرتين»(١) أي: شقتين وفرقتين، كما قال في اللفظ الآخر: «انشق القمر فلقتين»(٢) وهذا أمر معلوم قطعًا: أنه إنما انشق القمر مرة واحدة. والفرق معلوم بين ما يكون مرتين في الزمان، وبين ما يكون مثلين وجزءين ومرتين في المضاعفة، فالثاني: يتصور فيه اجتماع المرتين في آن واحد، والأول: لا يتصور فيه ذلك.

ومما يدل على أن الله لم يشرع الثلاث جملة: أنه قال: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ... ﴾ إلى أن قال: ﴿ ...وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فهذا يدل على أن كل طلاق بعد الدخول: فالمطلق أحق فيه بالرجعة، سوى الثالثة المذكورة بعد هذا. وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق: ١-٢] فهذا هو الطلاق المشروع.

وقد ذكر الله ﷻ أقسام الطلاق كلها في القرآن، وذكر أحكامها، فذكر طلاق الفداء ـ الذي هو الخلع ـ وسماه فدية، ولم يحسبه من الثلاث كما تقدم.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧/ ٨٥) ومسلم (رم ٢٨٠٢) بلفظ: «فرقتين».

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٥١٣ رقم ٣٧٥٩) وانظر: فتح الباري (٧/ ١٨٥) وعمدة القاري (١٩/ ٢٠٧).

وذكر الطلاق الرجعي الذي المطلق أحق فيه بالرجعة، وهو ما عدا هذه الأقسام الثلاثة، وبهذا احتج أحمد والشافعي وغيرهما على أنه ليس في الشرع طلقة واحدة بعد الدخول بغير عوض بائنة، وأنه إذا قال لها: أنت طالق طلقة بائنة؛ كانت رجعية، ويلغو وصفها بالبينونة، وأنه لا يملك إبانتها إلا بعوض.

وأما أبو حنيفة فقال: تبين بذلك، لأن الرجعة حق له، وقد أسقطها.

والجمهور يقولون: وإن كانت الرجعة حقًّا له، لكن نفقة الرجعية وكسوتها حق عليه؛ فلا يملك إسقاطه إلا باختيارها، وبذلها العوض، وسؤالها أن تفتدي نفسها منه بغير عوض في أحد القولين، وهو جواز الخلع بغير عوض، وأما إسقاط حقها من الكسوة والنفقة بغير سؤالها، ولا بذلها العوض؛ فخلاف النص والقياس.

قالوا: وأيضًا فالله سبحانه شرع الطلاق على أكمل الوجوه وأنفعها للرجل والمرأة، فإنهم كانوا يطلقون في الجاهلية بغير عدد، فيطلق أحدهم المرأة كلما شاء ويرجعها، وهذا - وإن كان فيه رفق بالرجل - ففيه إضرار بالمرأة، فنسخ سبحانه ذلك بثلاث، وقصر الزوج عليها، وجعله أحق بالرجعة، ما لم تنقض عدتها، فإذا استوفى العدد الذي ملكه حرمت عليه، فكان في هذا رفق بالرجل، إذ لم تحرم عليه بأول طلقة، وبالمرأة، حيث لم يجعل إليه أكثر من ثلاث، فهذا شرعه وحكمته وحدوده التي حدها لعباده، فلو حرمت عليه بأول طلقة يطلقها؛ كان خلاف شرعه وحكمته، وهو لم يملك إيقاع الثلاث جملة، بل إنما ملك واحدة، فالزائد عليها غير مأذون له فيه.

قالوا: وهذا كما أنه لم يملك إبانتها بطلقة واحدة، إذ هو خلاف ما شرعه، لم يملك إبانتها بثلاث مجموعة؛ إذ هو خلاف ما شرعه.

ونكتة المسألة؛ أن الله لم يجعل للأمة طلاقًا بائنًا قط، إلا في موضعين:

أحدهما: طلاق غير المدخول بها.

والثاني: الطلقة الثالثة، وما عداه من الطلاق؛ فقد جعل للزوج فيه الرجعة، هذا مقتضى الكتاب، كما تقدم تقريره، وهذا قول الجمهور، منهم الإمام أحمد، والشافعي.

وأهل الظاهر قالوا: لا يملك إبانتها بدون الثلاث إلا في الخلع.

ولأصحاب مالك ثلاثة أقوال فيما إذ قال: أنت طالق طلقة لا رجعة فيها:

أحدهما: أنها واحدة بائنة. كما قال، وهذا قول ابن القاسم. لأنه يملك إبانتها بطلقة بعوض، فملكها بدونه، والخلع عنده طلاق.

الثاني: أنها واحدة بائنة، كما قال، وهذا قول ابن القاسم، لأنه يملك إبانتها بطلقة بعوض؛ فملكها بدونه، والخلع عنده طلاق.

الثالث: أنها واحدة رجعية، وهذا قول ابن وهب، وهو الذي يقتضيه الكتاب والسنة والقياس، وعليه الأكثرون.

وأما المسألة الثانية، وهي وقوع الثلاث بكلمة واحدة، فاختلف الناس فيها على أربعة مذاهب:

أحدها: أنه يقع، وهذا قول الأئمة الأربعة، وجمهور التابعين، وكثير من الصحابة.

الثاني: أنها لا تقع، بل ترد، لأنها بدعة محرمة، والبدعة مردودة، لقوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»(١) وهذا المذهب حكاه أبو محمد بن حزم. وحكي للإمام أحمد فأنكره، وقال: هو قول الرافضة.

الثالث: أنه يقع به واحدة رجعية، وهذا ثابت عن ابن عباس، ذكره أبو داود عنه، قال الإمام أحمد: وهذا مذهب ابن إسحاق، يقول: خالف السنة. فيرد إلى السنة. انتهى.

وهو قول طاوس وعكرمة، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

الرابع: أنه يفرق بين المدخول بها وغيرها، فتقع الثلاث بالمدخول بها، وتقع بغيرها واحدة، وهذا قول جماعة من أصحاب ابن عباس، وهو مذهب إسحاق بن راهويه، فيما حكاه عنه محمد بن نصر المروزي في كتاب اختلاف العلماء.

---

(١) أخرجه تعليقًا البخاري في كتاب البيوع، باب النجش ومن قال: لا يجوز ذلك البيع (ص ٤٠٣) قبل حديث (رقم ٢١٤٢) ومسلم (رقم ١٧١٨) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٠٢-٣٠٣) وشرح النووي (١٢/ ١٦).

فأما من لم يوقعها جملة؛ فاحتجوا بأنه طلاق بدعة محرم، والبدعة مردودة، وقد اعترف أبو محمد بن حزم بأنها لو كانت بدعة محرمة لوجب أن ترد وتبطل، ولكنه اختار مذهب الشافعي: أن جمع الثلاث جائز غير محرم. وستأتي حجة هذا القول.

فأما من جعلها واحدة، فاحتج بالنص والقياس.

فأما النص: فما رواه معمر وابن جريج، عن ابن طاوس، عن أبيه «أن أبا الصهباء قال لابن عباس: ألم تعلم أن الثلاث كانت تجعل واحدة على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرًا من إمارة عمر؟ قال: نعم»[1] رواه مسلم في صحيحه.

وفي لفظ: «ألم أتعلم أن الثلاث كانت على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرًا من خلافة عمر ترد إلى واحدة؟ قال: نعم»[2].

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح: حدثنا عبد الرزاق، أن ابن جريج قال: أخبرني بعض بني أبي رافع - مولى رسول الله ﷺ - عن عكرمة، عن ابن عباس قال: طلق عبد يزيد أبو ركانة وإخوته أم ركانة، ونكح امرأة من مُزينة، فجاءت النبي ﷺ، فقالت: ما يغني عني إلا كما تغني هذه الشعرة - لشعرة أخذتها من رأسها - ففرق بيني وبينه، فأخذت النبي ﷺ حمية؛ فدعا بركانة وإخوته؛ ثم قال لجلسائه: «ألا ترون أن فلانًا يشبه منه كذا وكذا - من عبد يزيد - وفلانًا يشبه كذا وكذا؟» قالوا: نعم. قال النبي ﷺ لعبد يزيد: «طلقها». ففعل. ثم قال: «راجع امرأتك أم ركانة وإخوته»، فقال: إني طلقتها ثلاثًا يا رسول الله، قال: «قد علمت، راجعها»، وتلا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾[3] [الطلاق: ١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سعد بن إبراهيم قال: حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٤٧٢).
(٢) أخرجه أبو عوانة في مسنده (٣/ ١٥٢ رقم ٤٥٣٢).
(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٩٦) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٣٩ رقم ١٤٧٦٣) والحاكم (٢/ ٥٣٢ رقم ٣٨١٧) وعبد الرزاق في مصنفه (٦/ ٣٩٠ رقم ١١٣٣٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٦٩).

قال: حدثني داود بن الحصين، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن عبد الله بن عباس قال: طلق ركانة بن عبد يزيد ـ أخو بني المطلب ـ امرأته ثلاثًا في مجلس واحد. فحزن عليها حزنًا شديدًا، قال: فسأله رسول الله ﷺ: «**كيف طلقتها؟**» فقال: طلقتها ثلاثًا، فقال: «**في مجلس واحد؟**» قال: نعم. قال: «**فإنما تلك واحدة، فأرجعها إن شئت**»، قال: فراجعتها، وكان ابن عباس يرى: إنما الطلاق عند كل طهر(١).

قالوا: وأما القياس؛ فقد تقدم أن جمع الثلاث محرم وبدعة، والبدعة مردودة، لأنها ليست على أمر رسول الله ﷺ.

قالوا: وسائر ما تقدم في بيان التحريم يدل على عدم وقوعها جملة.

قالوا: ولو لم يكن معنا إلا قوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ﴾ [النور: ٦] وقوله: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾﴾ [النور: ٨]. لكفى.

قالوا: وكذلك كل ما يعتبر له التكرار: من حلف، أو إقرار، أو شهادة، وقد قال النبي ﷺ: «**تحلفون خمسين يمينًا وتستحقون دم صاحبكم**» فلو قالوا: نحلف بالله خمسين يمينًا أن فلانًا قتله(٢)، كانت يمينًا واحدة.

قالوا: وكذلك الإقرار بالزنا، كما في الحديث: إن بعض الصحابة قال لماعز: إن أقررت أربعًا رجمك رسول الله ﷺ فهذا لا يعقل أن يكون الأربع فيه مجموعة بفم واحد.

وأما الذين فرقوا بين المدخول بها وغيرها؛ فلهم حجتان:

إحداهما: ما رواه أبو داود بإسناد صحيح: عن طاوس: أن رجلاً يقال له: أبو الصهباء كان كثير السؤال لابن عباس. قال له: «أما علمت أن الرجل كان إذا طلق امرأته ثلاثًا قبل

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٣٩ رقم ١٤٧٦٤) وأحمد (١/ ٢٦٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٦٢) وعون المعبود (٦/ ١٩٩-٢٠٠) ونيل الأوطار (٧/ ١٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٦٦٩) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٣٤) وشرح النووي (١١/ ١٤٣-١٤٨).

أن يدخل بها؛ جعلوها واحدة على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر وصدرًا من إمارة عمر؟ فلما رأى عمر الناس قد تتابعوا فيها قال: أجيزهن عليهم»[(١)].

الحجة الثانية: أنها تبين بقوله: أنت طالق، فيصادفها ذكر الثلاث وهي بائن؛ فيلغوا، ورأى هؤلاء أن إلزام عمر بالثلاث هو في حق المدخول بها، وحديث أبي الصهباء في غير المدخول بها.

قالوا: ففي هذا التفريق موافقة المنقول من الجانبين، وموافقة القياس.

وقال بكل قول من هذه الأقوال جماعة من أهل الفتوى، كما حكاه أبو محمد ابن حزم وغيره، ولكن عدم الوقوع جملة؛ هو مذهب الإمامية. وحكوه عن جماعة من أهل البيت.

قال الموقعون للثلاث: الكلام معكم في مقامين:

أحدهما: تحريم جمع الثلاث.

والثاني: وقوعها جملة، لو كانت محرمة. ونحن نتكلم معكم في المقامين.

فأما الأول: فقد قال الشافعي، وأبو ثور، وأحمد بن حنبل في إحدى الروايات عنه، وجماعة من أهل الظاهر: إن جمع الثلاث سنة.

واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، ولم يفرق بين أن تكون الثلاث مجموعة أو مفرقة، ولا يجوز أن نفرق بين ما جمع الله بينه، كما لا يجمع بين ما فرق الله بينه. وقال تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٧] ولم يفرق.

وقال: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ الآية. [البقرة: ٢٣٦] ولم يفرق.

وقال: ﴿ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٤١]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٩٩) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٣٨ رقم ١٤٧٦٢) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٦٣) وسبل السلام (٣/ ١٧٥) ونيل الأوطار (٧/ ١٤-٢٠).

إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٤٩] ولم يفرق.

قالوا: وفي الصحيحين، من حديث أبي هريرة: «أن عويمرًا العجلاني طلق امرأته ثلاثًا ـ بعد أن لاعنها ـ بحضرة رسول الله ﷺ، قبل أن يأمره بطلاقها»[(١)].

قالوا: فلو كان جمع الطلاق الثلاث معصية لما أقره عليه رسول الله ﷺ، ولا يخلو طلاقها أن يكون قد وقع وهي امرأته، أو حين حرمت عليه باللعان، فإن كان الأول؛ فالحجة عليه ظاهرة، وإن كان الثاني؛ فلا شك أنه طلقها وهو يظنها امرأته، فلو كان حرامًا لبين له رسول الله ﷺ وإن كانت قد حرمت عليه...

***

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾.

[(٢)]منع الخلع طائفة شاذة من الناس، خالفت النص والإجماع، وفي الآية دليل على جوازه مطلقًا بإذن السلطان وغيره.

ومنعه طائفة بدون إذنه. والأئمة الأربعة، والجمهور، على خلافه.

وفي الآية دليل على حصول البينونة به، لأنه سبحانه سماه «فدية» ولو كان رجعيًا ـ كما قال بعض الناس ـ لم يحصل للمرأة الافتداء من الزوج بما بذلته له.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٣٠٨) ومسلم (رقم ١٤٩٢) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٢٣٤).

(٢) ٦٦ زاد المعاد جـ ٤.

ودل قوله سبحانه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ علىٰ جوازه بما قل وكثر، وأن له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها.

وقد ذكر عبد الرزاق: عن معمر، عن عبد الله بن محمد بن عقيل؛ أن الربيع بنت معوذ بن عفراء حدثته: «أنها اختلعت من زوجها بكل شيء تملكه، فخوصم في ذلك إلىٰ عثمان بن عفان فأجازه، وأمره أن يأخذ عقاص رأسها فما دونه»(١).

وذكر أيضًا: عن ابن جريج، عن موسىٰ بن عقبة، عن نافع؛ أن ابن عمر «جاءته مولاة لامرأته اختلعت من كل شيء لها، وكل ثوب لها، حتىٰ نقبتها»(٢).

ورفعت إلىٰ عمر بن الخطاب امرأة نشزت عن زوجها فقال: «اخلعها ولو من قرطها»(٣) ذكره حماد بن سلمة، عن أيوب، عن كثير بن أبي كثير، عنه.

وذكر عبد الرزاق: عن معمر، عن ليث، عن الحكم بن عتيبة، عن علي بن أبي طالب: «لا يأخذ منها فوق ما أعطاها»(٤).

وقال طاوس: «لا يحل له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها»(٥).

وقال عطاء: «إن أخذ زيادة علىٰ صداقها فالزيادة مردودة إليها»(٦).

وقال الزهري: «لا يحل له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها»(٧).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦/ ٥٠٤ رقم ١١٨٥٠) وانظر: المحلىٰ (١١/ ٢٤٠-٢٤١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٥٠٥ رقم ١١٨٥٢، ١١٨٥٣) وانظر: المحلىٰ (١٠/ ٢٤١).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢/ ٤٧٠) والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٣١٥ رقم ١٤٦٢٩) وابن أبي شيبة (٤/ ١٢٥ رقم ١٨٥٢٥) وعبد الرزاق (٦/ ٥٠٥ رقم ١١٨٥١).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٥٠٣ رقم ١١٨٤٤) قال ابن جزم في المحلىٰ (١٠/ ٢٤٠): وهذا لا يصح عن علي، لأنه منقطع وفيه ليث، وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٠٢) ونيل الأوطار (٧/ ٤٠).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٤٧٠) وعبد الرزاق (٦/ ٤٩٦ رقم ١١٨١٧) وابن أبي شيبة (٤/ ١٢٤ رقم ١٨٥١٥) وانظر: المحلىٰ (١٠/ ٢٤٠).

(٦) انظر: المحلىٰ (١٠/ ٢٤٠).

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٤٧٠) وانظر: المحلىٰ (١٠/ ٢٤٠).

وقال ميمون بن مهران: «إن أخذ منها أكثر مما أعطاها لم يسرح بإحسان»[١].

وقال الأوزاعي: «كانت القضاة لا تجيز أن يأخذ منها شيئًا إلا ما ساق إليها»[٢].

والذين جوزوه؛ احتجوا بحديث أبي الزبير؛ أن ثابت بن قيس بن شماس لما أراد خلع امرأته، قال النبي ﷺ: «**أتردين عليه حديقته؟**» قالت: نعم، وزيادة.

فقال النبي ﷺ: «أما الزيادة فلا»[٣] قال الدارقطني: سمعه أبو الزبير من غير واحد. وإسناده صحيح[٤].

قالوا: والآثار من الصحابة مختلفة، فمنهم من رُوي عنه تحريم الزيادة.

ومنهم من روي عنه إباحتها، ومنهم من روي عنه كراهتها.

كما روي عن وكيع، عن أبي حنيفة، عن عمار بن عمران الهمداني، عن أبيه، عن علي؛ «أنه كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها»[٥] والإمام أحمد أخذ بهذا القول، ونص على الكراهة، وأبو بكر من أصحابه حرم الزيادة. وقال: ترد عليها.

وقد ذكر عبد الرزاق: عن ابن جريج قال: قال لي عطاء: أتت امرأة رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إني أبغض زوجي، وأحب فراقه، قال: «فتردين عليه حديقته التي أصدقك؟» قالت: نعم، وزيادة من مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**أما الزيادة من مالك فلا، ولكن الحديقة**»، قالت: نعم. فقضى بذلك على الزوج[٦]. وهذا ـ وإن كان مرسلاً ـ فأحاديث أبي الزبير مقبولة، وقد رواه ابن جريج عنهما.

وفي تسميته الخلع فدية دليل على أن فيه معنى المعاوضة، ولهذا اعتبر فيه رضا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ١٢٤ رقم ١٨٥٢٢) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٢٦٢).

(٢) انظر: المحلى (١٠/ ٢٤٠).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/ ٣١٤ رقم ١٤٦٢٦) والدارقطني (٣/ ٢٥٥ رقم ٣٩) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ٤٠٢): ورجال إسناده ثقات.

(٤) انظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٣/ ٢٠٥) ونيل الأوطار (٧/ ٣٥).

(٥) انظر: المحلى (١٠/ ٢٤٠).

(٦) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٥٠٢ رقم ١١٨٤٢) قال ابن حزم في المحلى (١٠/ ٢٤١): وهذا مرسل.

الزوجين، فإذا تقايلا الخلع، ورد عليها ما أخذ منها، وارتجعها في العدة: فهل لهما ذلك؟ منعه الأئمة الأربعة وغيرهم، وقالوا: قد بانت منه بنفس الخلع.

وذكر عبد الرزاق: عن معمر، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب؛ أنه قال في المختلعة: «إن شاء أن يراجعها فليرد عليها ما أخذ منها في العدة، وليشهد على رجعيتها»[1].

قال معمر: وكان الزهري يقول ذلك. قال قتادة: وكان الحسن يقول: لا يراجعها إلا بخطبة[2]. ولقول سعيد بن المسيب والزهري وجه دقيق من الفقه، لطيف المأخذ، تتلقاه قواعد الفقه وأصوله بالقبول، ولا نكارة فيه؛ غير أن العمل على خلافه؛ فإن المرأة ما دامت في العدة فهي في حبسه، ويلحقها صريح طلاقه المنجز عند طائفة من العلماء، فإذا تقايلا عقد الخلع، وتراجعا إلى ما كانا عليه بتراضيهما؛ لم تمنع قواعد الشرع ذلك. وهو بخلاف ما بعد العدة. فإنها قد صارت عنه أجنبية محضة، فهو خاطب من الخطاب ويدل على هذا؛ أن له أن يتزوجها في عدتها منه بخلاف غيره اهـ.

وقد ثبت بالنص والإجماع، أنه لا رجعة في الخلع، وثبت بالسنة وأقوال الصحابة؛ أن العدة في حيضة واحدة، وثبت بالنص جوازه بعد طلقتين، ووقوع ثالثة بعده، وهذا ظاهر جدًّا في كونه ليس بطلاق فإنه سبحانه قال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وهذا ـ وإن لم يختص بالمطلقة تطليقتين ـ فإنه يتناولها وغيرها. ولا يجوز أن يعود الضمير إلى من لم يذكر، ويخلى منه المذكور، بل إما أن يختص بالسابق، أو يتناوله وغيره.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٤٩٢ رقم ١١٧٩٧) وانظر: المحلى (١٠/ ٢٣٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٤٩٢ رقم ١١٧٩٥) وانظر: المحلى (١٠/ ٢٣٩).

ثم قال: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] وهذا يتناول من طلقت بعد فدية وطلقتين قطعًا؛ لأنها هي المذكورة، فلابد من دخولها تحت اللفظ، فهذا فهم ترجمان القرآن الذي دعا له رسول الله ﷺ أن يعلمه الله تأويل القرآن، وهي دعوة مستجابة بلا شك.

وإذا كانت أحكام الفدية غير أحكام الطلاق؛ دل على أنها من غير جنسه. فهذا مقتضى النص والقياس، وأقوال الصحابة.

ثم من نظر إلى حقائق العقود ومقاصدها دون ألفاظها؛ يعد الخلع فسخًا، بأي لفظ كان، حتى بلفظ الطلاق، وهذا أحد الوجهين لأصحاب أحمد، وهو اختيار شيخنا، قال: وهذا ظاهر كلام أحمد، وكلام ابن عباس وأصحابه.

قال ابن جريج: أخبرني عمرو بن دينار؛ أنه سمع عكرمة مولى ابن عباس يقول: «ما أجازه المال فليس بطلاق»(١).

قال عبد الله بن أحمد: رأيت أبي كان يذهب إلى قول ابن عباس.

وقال عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس: «الخلع تفريق وليس بطلاق»(٢).

وقال ابن جريج، عن ابن طاوس: «كان أبي لا يرى الفداء طلاقًا، ويجيزه»(٣).

ومن اعتبر الألفاظ، ووقف معها، واعتبرها في أحكام العقود؛ جعله بلفظ الطلاق طلاقًا، وقواعد الفقه وأصوله؛ تشهد أن المرعي في العقود حقائقها ومعانيها، لا صورها وألفاظها، وبالله التوفيق.

ومما يدل على هذا؛ أن النبي ﷺ «أمر ثابت بن قيس أن يطلق امرأته في الخلع

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٤٨٦ رقم ١١٧٦٨).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ٢٠٥): وإسناده صحيح. قال أحمد: ليس في الباب أصح منه. وانظر: المحلى (١٠/ ٢٣٧).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٤٨٦ رقم ١١٧٦٦) وانظر: المحلى (١٠/ ٢٣٧).

تطليقة، ومع هذا؛ أمرها أن تعتد بحيضة»[1] وهذا صريح في أنه فسخ، ولو وقع بلفظ الطلاق.

وأيضًا: فإنه سبحانه علق عليه أحكام الفدية بكونه فدية، ومعلوم أن الفدية لا تختص بلفظ، ولم يعين الله سبحانه لها لفظاً معينًا، وطلاق الفداء طلاق مقيد، ولا يدخل تحت أحكام الطلاق المطلق، كما لا يدخل تحتها في ثبوت الرجعة، والاعتداد بثلاثة قروء بالسنة الثابتة، وبالله التوفيق.

...[2]ومن ذلك لفظ الفدية، أدخل فيه طائفة خلع الحيلة على فعل المحلوف عليه مما هو ضد الفدية؛ إذ المراد بقاء النكاح بالخلاص من الحنث، وهي إنما شرعت لزوال النكاح عند الحاجة إلى زواله، وأخرجت منه طائفة ما فيه حقيقة الفدية ومعناها، واشترطت له لفظًا معينًا، وزعمت أنه لا يكون فدية وخلعًا إلا به، وأولئك تجاوزوا به، وهؤلاء قصروا به.

والصواب أن كل ما دخله المال فهو فدية بأي لفظ كان، والألفاظ لم ترد لذواتها ولا تعبدنا بها، وإنما هي وسائل إلى المعاني؛ فلا فرق قط بين أن تقول: «اخلعني بألف» أو: «فادني بألف» لا حقيقةً ولا شرعًا، ولا لغة ولا عرفًا؛ وكلام ابن عباس والإمام أحمد عام في ذلك، لم يقيده أحدهما بلفظ، ولا استثنى لفظًا دون لفظ، بل قال ابن عباس: عامة طلاق أهل اليمن الفداء.

وقال الإمام أحمد: الخلع فرقة، وليس بطلاق[3]، وقال: الخلع ما كان من جهة

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ١١٨٥) والدارقطني (٤/ ٤٦ رقم ١٣٥) وحسنه الترمذي وانظر: التمهيد (٢٣/ ٣٧٤) وتحفة الأحوذي (٤/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٢) ٢٢٣ أعلام جـ١.

(٣) ذكره محمد نصر المروزي في اختلاف العلماء (ص ١٥٩) عن أحمد وإسحاق، وكذا ابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ٣٧١) بينما أخرجه الدارقطني عن ابن عباس (٣/ ٣٢٠ رقم ٢٧٤) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٢٦١) وصححه عن ابن عباس الحافظ ابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ٧٥).

النساء، وقال: ما أجازه المال فليس بطلاق[١]، وقال: إذا خالعها بعد تطليقتين فإن شاء راجعها فتكون معه على واحدة.

وقال في رواية أبي طالب: الخلع مثل حديث سهلة: إذا كرهت المرأة الرجل وقالت: لا أبر لك قسمًا، ولا أطيع لك أمرًا، ولا أغتسل لك من جنابة، فقد حل له أن يأخذ منها ما أعطاها؛ لأن النبي ﷺ قال: «أتردين عليه حديقته؟».

قلت: وقد قال في الحديث: «اقبل الحديقة وطلقها تطليقةً»[٢] وجعل أحمدُ ذلك فداء.

وقال ابن هانئ: سئل أبو عبد الله عن الخلع: أفسخ أم طلاق هو أم تذهب إلى حديث ابن عباس، كان يقول فرقة وليس بطلاق؟ فقال أبو عبد الله: كان ابن عباس يتأول هذه الآية: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وكان ابن عباس يقول: هو فداء، قال ابن عباس: ذكر الله الطلاق في أول الآية، والفداء في وسطها، وذكر الطلاق بعد؛ فالفداء ليس هو بطلاق، وإنما هو فداء، فجعل ابن عباس وأحمد الفداء فداء لمعناه لا للفظه، وهذا هو الصواب؛ فإن الحقائق لا تتغير بتغيير الألفاظ، وهذا باب يطول تتبعه.

[٣]ومن العجائب معارضة هذه الأحاديث والآثار بقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] والذي أنزلت عليه هذه الآية هو الذي لعن المحلل والمحلل له، وأصحابه أعلم الناس بكتاب الله تعالى، فلم يجعلوه

(١) أخرجه عبد الرزاق (٦/ ٤٨٦ رقم ١١٧٦٨).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٢٧٣) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٠٠) وعمدة القاري (٢٠/ ٢٦٢).
(٣) ٢٧٥ إغاثة جـ١.

زوجًا، وأبطلوا نكاحه، ولعنوه.

وأعجب من هذا قول بعضهم: نحن نحتجُّ بكونه سمَّاه «محللا» فلولا أنه أثبت الحلَّ لم يكن محللًا.

فيقال: هذه من العظائم، فإن هذا يتضمن أن رسول الله ﷺ لعن من فعل السنة التي جاء بها، وفعل ما هو جائز صحيح في شريعته؛ وإنما سمَّاه محللاً لأنه أحل ما حرم الله، فاستحق اللعنة. فإن الله سبحانه حرمها على المطلق، حتى تنكح زوجًا غيره، والنكاح اسم في كتاب الله وسنة رسوله للنكاح الذي يتعارفه الناس بينهم نكاحاً، وهو الذي شرع إعلانه، والضرب عليه بالدفوف، والوليمة فيه، وجعله للإيواء والسكن، وجعله الله مودة ورحمة، وجرت العادة فيه بضد ما جرت به في نكاح المحلل، فإن المحلل لم يدخل على نفقة، ولا كسوة، ولا سكنى، ولا إعطاء مهر، ولا يحصل به نسب ولا صهر، ولا قصد المقام مع الزوجة، وإنما دخل عارية، كالتيس المستعار للضراب(١)، ولهذا شبهه به النبي ﷺ، ثم لعنه، فعلم قطعًا لاشك فيه أنه ليس هو الزوج المذكور في القرآن، ولا نكاحه هو النكاح المذكور في القرآن.

وقد فطر الله سبحانه قلوب الناس على أن هذا ليس بنكاح، ولا المحلل بزوج، وأن هذا منكر قبيح، تعير به المرأة والزوج، والمحلل والولي، فكيف يدخل هذا في النكاح الذي شرعه الله ورسوله، وأحبه، وأخبر أنه سنته، ومن رغب عنه فليس منه؟.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، أي:

---

(١) فعن عقبة بن عامر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بالتيس المستعار؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له» أخرجه الحاكم (٢/ ٢١٧ رقم ٢٨٠٤، ٢٨٠٥) وابن ماجه (رقم ١٩٣٦) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٢٠٨ رقم ١٣٩٦٥) والدارقطني (٣/ ٢٥١ رقم ٢٨) وقال العيني في عمدة القاري (٢٠/ ٢٣٦): وحديث عقبة بن عامر قال عبد الحق: إسناده حسن، ونقل هذا المباركفوري في تحفة الأحوذي (٤/ ٢٢١) وقال الحافظ ابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ٧٣) ورواته موثقون، وصححه الزيلعي في نصب الراية (٣/ ٢٣٩) بينما أنكر ابن الجوزي تصحيح هذا الحديث في العلل المتناهية (٢/ ٦٤٦-٦٤٧ رقم ١٠٧٢).

فإن طلقها هذا الثاني، فلا جناح عليها وعلى الأول أن يتراجعا، أي: ترجع إليه بعقد جديد، فأتى بحرف «إن» الدالة على أنه يمكنه أن يطلق وأن يقيم، والتحليل الذي يفعله هؤلاء لا يتمكن الزوج فيه من الأمرين، بل يشرطون عليه أنه متى وطئها فهي طالق، ثم لما علموا أنه قد لا يخبر بوطئها ولا يقبل قولها في وقوع الطلاق، انتقلوا إلى أن جعلوا الشرط إخبار المرأة بأنه دخل بها، فبمجرد إخبارها بذلك تطلق عليه، والله سبحانه شرع النكاح للوصلة الدائمة وللاستمتاع، وهذا النكاح جعله أصحابه سببًا لانقطاعه، ولوقوع الطلاق فيه، فإنه متى وطئ، كان وطؤه سببًا لانقطاع النكاح وهذا ضد شرع الله.

***

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾.

...[(١)] لا ريب أن من تدبَّر القرآن والسنة، ومقاصد الشارع؛ جزم بتحريم الحيل وبطلانها، فإن القرآن دل على أن المقاصد والنيات معتبرة في التصرف والعادات، كما هي معتبرة في القربات والعبادات، فيجعل الفعل حلالاً أو حرامًا، وصحيحًا أو فاسدًا، وصحيحًا من وجه، فاسدًا من وجه، كما أن القصد والنية في العبادات تجعلها كذلك.

وشواهد هذه القاعدة كثيرة جدًا في الكتاب والسنة.

---

(١) ٣٧٧ إغاثة جـ١.

وقد سمى الله سبحانه ابتداء النكاح للمطلق ثلاثًا بعد الزوج الثاني مراجعة؛ فقال: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ [البقرة: ٢٣٠] أي: إن طلقها الثاني فلا جناح عليها وعلى الأول؛ أن يتراجعا نكاحًا مستأنفًا.

فمنها قوله تعالى في آية الرجعة: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ ﴾ [البقرة: ٢٣١] وذلك نص في أن الرجعة إنما تثبت لمن قصد الصلاح، دون الضرار، فإذا قصد الضرار لم يملكه الله تعالى الرجعية.

...[١]اسم «المراجعة» في لسان الشارع؛ قد يكون مع زوال عقد النكاح بالكلية، فيكون ابتداء عقد، وقد يكون مع تشعثه، فيكون إمساكًا.

[٢]قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ [النساء: ١٩] فهذا دليل على أنه إذا عضلها لتفتدي نفسها منه، وهو ظالم لها بذلك، لم يحل له أخذ ما بذلته له ولا يملكه بذلك.

ومنها قوله تعالى في آية الخلع: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وهذا دليل على أن الخلع المأذون فيه؛ إنما هو إذا خاف الزوجان أن لا يقيما حدود الله، وأن النكاح الثاني إنما يباح إذا ظنا أن يقيما حدود الله، فإنه شرط في الخلع عدم خوف إقامة حدوده، وشرط في العود، ظن إقامة حدوده.

[٣]وقد نهى الله تعالى عن تعدي حدوده وقربانها، فقال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وقال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فإن الحدود يراد بها أواخر الحلال، وحيث نهى عن القربان فالحدود هناك؛ أوائل الحرام.

---

(١) ٥٤ زاد المعاد جـ٤.

(٢) ٣٧٨ إغاثة جـ١.

(٣) ٢٦ مدارج جـ٢.

يقول سبحانه: لا تتعدوا ما أبحت لكم. ولا تقربوا ما حرمت عليكم. فالورع يخلص العبد من قربان هذه وتعدي هذه. وهو اقتحام الحدود.

[(١)]وأما تفريقه في العدد بين الموت والطلاق وعدة الحرة وعدة الأمة وبين الاستبراء والعدة، مع أن المقصود العلم ببراءة الرحم في ذلك كله، فهذا إنما يتبين وجهه إذا عرفت الحكمة التي لأجلها شرعت العدة وعرف أجناس العدد وأنواعها.

فأما المقام الأول ففي شرع عِدَّةُ حِكَمٍ.

منها: العلم ببراءة الرحم، وأن لا يجتمع ماء الواطئين فأكثر في رحم واحد، فتختلط الأنساب وتفسد، وفي ذلك من الفساد ما تمنعه الشريعة والحكمة.

ومنها: تعظيم خطر هذا العقد، ورفع قدره، وإظهار شرفه.

ومنها: تطويل زمان الرجعة للمطلق؛ إذ لعله أن يندم ويفيء فيصادف زمنًا يتمكن فيه من الرجعة.

ومنها: قضاء حق الزوج، وإظهار تأثير فقده في المنع من التزين والتجمل، ولذلك شرع الإحداد عليه أكثر من الإحداد على الوالد والولد.

ومنها: الاحتياط لحق الزوج، ومصلحة الزوجة، وحق الولد، والقيام بحق الله الذي أوجبه؛ ففي العدة أربعة حقوق.

وقد أقام الشارع الموتَ مقام الدخول في استيفاء المعقود عليه؛ فإن النكاح مدته العمر، ولهذا أقيم مقام الدخول في تكميل الصداق، وفي تحريم الربيبة عند جماعة من الصحابة ومن بعدهم، كما هو مذهب زيد بن ثابت وأحمد في إحدى الروايتين عنه؛ فليس المقصود من العدة مجرد براءة الرحم، بل ذلك من بعض مقاصدها وحكمها.

المقام الثاني في أجناسها، وهي أربعة في كتاب الله، وخامس بسنة رسول الله ﷺ:

الجنس الأول: أم باب العدة ﴿ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤].

---

(١) ٦٥ أعلام جـ ٢.

الثـاني: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

الثالث: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

الرابع: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ [الطلاق: ٤].

الخامس: قول النبي ﷺ: **«لا توطأ حاملٌ حتى تضع، ولا حائل حتى تستبرئ بحيضة»**(١).

ومقدم هذه الأجناس كلها الحاكم عليها كلها وضعُ الحمل، فإذا وجد فالحكم له، ولا التفات إلى غيره، وقد كان بين السلف نزاع في المتوفى عنها أنها تتربص أبعد الأجلين، ثم حصل الاتفاق على انقائها بوضع الحمل.

وأما عدة الوفاة فتجب بالموت، سواء دخل بها أو لم يدخل، كما دل عليه عموم القرآن والسنة الصحيحة واتفاق الناس؛ فإن الموت لما كان انتهاء العقد وانقضاءه؛ استقرت به الأحكام: من التوارث، واستحقاق المهر.

وليس المقصود بالعدة هاهنا مجرد استبراء الرحم كما ظنه بعض الفقهاء؛ لوجوبها قبل الدخول، ولحصول الاستبراء بحيضة واحدة، ولاستواء الصغيرة والآيسة وذوات القروء في مدتها، فلما كان الأمر كذلك قالت طائفة: هي تعبدٌ محض لا يعقل معناه، وهذا باطل لوجوه:

منها: أنه ليس في الشريعة حكم واحد إلا وله معنى وحكمة، يعقله من عقله،

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٥٧) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٣٢٩ رقم ١٠٥٧٢) والحاكم (٢/ ٢١٢ رقم ٢٧٩٠) والدارمي (رقم ٢٢٩٥) والربيع في مسنده (رقم ٥٤٤) وأحمد (٣/ ٦٢) وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في تخليص الحبير (١/ ١٧١-١٧٢) وصححه الحاكم وأعله عبد الحق وابن القطان، انظر: خلاصة البدر المنير (١/ ٨٣ رقم ٢٥٧) ونصب الراية (٣/ ٢٣٣) (٤/ ٢٥٢) وصححه ابن قدامة في المغني (٧/ ١٠٣) وقال ابن عبد البر في التمهيد (١٨/ ٢٧٩): طريق صالح حسن يحتج بمثله.

ويخفى على من خفي عليه.

ومنها: أن العدد ليست من باب العبادات المحضة؛ فإنها تجب في حق الصغيرة والكبيرة والعاقلة والمجنونة والمسلمة والذمية، ولا تفتقر إلى نية.

ومنها: أن رعاية حق الزوجين والولد والزوج الثاني ظاهر فيها؛ فالصواب أن يقال: هي حريم لانقضاء النكاح لما كمل، ولهذا تجد فيها رعاية لحق الزوج وحرمة له. ألا ترى أن النبي ﷺ كان من احترامه ورعاية حقوقه تحريم نسائه بعده.

ولما كانت نساؤه في الدنيا هن نساؤه في الآخرة قطعًا، لم يحل لأحد أن يتزوج بهن بعده، بخلاف غيره؛ فإن هذا ليس معلومًا في حقه، فلو حرمت المرأة على غيره لتضررت ضرراً محققًا بغير نفع معلوم، ولكن لو تأيَّمَتْ على أولادها كانت محمودة على ذلك.

وقد كانوا في الجاهلية يبالغون في احترام حق الزوج، وتعظيم حريم هذا العقد غاية المبالغة: من تربص سنة في شر ثيابها وحفش بيتها، فخفف الله عنهم ذلك بشريعته التي جعلها رحمة وحكمة ومصلحة ونعمة، بل هي من أجل نعمه عليهم على الإطلاق، فله الحمد كما هو أهله.

وكانت أربعة أشهر وعشرًا على وفق الحكمة والمصلحة؛ إذ لابد من مدة مضروبة لها، وأولى المدد بذلك المدة التي يعلم فيها بوجود الولد وعدمه؛ فإنه يكون أربعين يومًا نطفة، ثم أربعين علقة، ثم أربعين مضغة، فهذه أربعة أشهر، ثم ينفخ فيه الروح في الطور الرابع، فقدر بعشرة أيام لتظهر حياته بالحركة إن كان ثم حمل.

وأما عدة الطلاق فلا يمكن تعليلها بذلك؛ لأنها إنما تجب بعد المسيس بالاتفاق، ولا ببراءة الرحم؛ لأنه يحصل بحيضة كالاستبراء، وإن كان براءة الرحم بعض مقاصدها، ولا يقال: «هي تعبد» لما تقدم، وإنما يتبين حكمها إذا عرف ما فيها من الحقوق؛ ففيها حق الله، وهو امتثال أمره وطلب مرضاته، وحق للزوج المطلق وهو اتساع زمن الرجعة له، وحق للزوجة، وهو استحقاقها للنفقة والسكنى ما دامت في

العدة، وحق للولد، وهو الاحتياط في ثبوت نسبه، وأن لا يختلط بغيره، وحق للزوج الثاني، وهو أن لا يسقي ماءه زرع غيره(١).

ورتب الشارع على كل واحد من هذه الحقوق ما يناسبه من الأحكام؛ فرتب على رعاية حقه: لزوم المنزل، وأنها لا تَخْرج ولا تُخْرج، هذا موجب القرآن ومنصوص إمام أهل الحديث وإمام أهل الرأي.

ورتب على حق المطلق تمكينه من الرجعة ما دامت في العدة، وعلى حقها استحقاق النفقة والسكنى، وعلى حق الولد ثبوت نسبه وإلحاقه بأبيه دون غيره، وعلى حق الزوج الثاني دخوله على بصيرة ورحم بريء غير مشغول بولد لغيره؛ فكان في جعلها ثلاثة قروء رعاية لهذه الحقوق، وتكميلاً لها، وقد دل على أن العدة حق للزوج عليها بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

فهذه دليل على أن العدة للرجل على المرأة بعد المسيس، وقال تعالى: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فجعل الزوج أحق بردها في العدة؛ فإذا كانت العدة ثلاثة قروء أو ثلاثة أشهر طالت مدة التربص، لينظر في أمرها يمسكها بمعروف أو يسرحها بإحسان.

كما جعل الله سبحانه للمولي تربص أربعة أشهر، لينظر في أمره هل يفيء أو يطلق.
وكما جعل مدة تسيير الكفار أربعة أشهر لينظروا في أمرهم ويختاروا لأنفسهم.

فإن قيل: هذه العلة باطلة؛ فإن المختلعة والمفسوخ نكاحها بسبب من الأسباب، والمطلقة ثلاثًا، والموطوءة بشبهة، والمزنيَّ بها تعتدُّ بثلاثة أقراء، ولا رجعة هناك، فقد

(١) فقد قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره» يعني: إتيان الحبالى. أخرجه أبو داود (رقم ٢١٥٨) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٤٤٩ رقم ١٥٣٦٦) وأحمد (٤/ ١٠٨) ونقل ابن الملقن تحسين الترمذي في خلاصة البدر المنير (٢/ ٢٣٩ رقم ٢١٢٧) ونقل الصنعاني تصحيح ابن حبان وتحسين البزار في سبل السلام (٣/ ٢٠٧).

وجد الحكم بدون علته، وهذا يبطل كونها علة.

قيل: شرطُ النقض أن يكون الحكم في صورة ثابتًا بنص أو إجماع، وأما كونه قولًا لبعض العلماء فلا يكفي في النقض به.

وقد اختلف الناس في عدة المختلعة؛ فذهب إسحاق وأحمد في أصح الروايتين عنه دليلاً: أنها تعتد بحيضة واحدة، وهو مذهب عثمان بن عفان وعبد الله بن عباس، وقد حكي إجماع الصحابة ولا يعلم لهما مخالف، وقد دلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة دلالة صريحة، وعذر من خالفها أنها لم تبلغه، أو لم تصح عنده، أو ظن الإجماع علىٰ خلاف موجبها، وهذا القول هو الراجح في الأثر والنظر.

أما رجحانه أثرًا فإن النبي ﷺ لم يأمر المختلعة قط أن تعتد بثلاث حيض، بل قد رَوَىٰ أهل السنن عنه، من حديث الربيع بنت معوذ؛ أن ثابت بن قيس ضرب امرأته فكسر يدها، وهي جميلة بنت عبد الله بن أبيّ، فأتىٰ أخوها يشتكي إلىٰ رسول الله ﷺ، فأرسل رسول الله ﷺ إلىٰ ثابت، فقال: «خذ الذي لها عليك وخلِّ سبيلها» قال: نعم، فأمرها رسول الله ﷺ أن تتربص حيضة واحدة وتلحق بأهلها[(١)].

وذكر أبو داود، والنسائي: من حديث ابن عباس؛ أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها، فأمرها النبي ﷺ أو أُمرت أن تعتد بحيضة، قال الترمذي: الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة[(٢)]، وهذه الأحاديث لها طرق يصدق بعضها بعضًا.

وأعل الحديث بعلتين: أحدهما: إرساله، والثانية: أن الصحيح فيه «أمرت» بحذف الفاعل، والعلتان غير مؤثرين؛ فإنه قد روي من وجوه متصلة، ولا تعارض بين أمرت وأمرها رسول الله ﷺ؛ إذ من المحال أن يكون الآمر لها بذلك غير رسول الله ﷺ في حياته، وإذا كان الحديث قد روي بلفظ محتمل ولفظ صريح يفصل المحتمل ويبينه،

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٣/ ٣٨٣ رقم ٥٦٩١) وفي الصغرىٰ (رقم ٣٤٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ١١٨٥) والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٤٥٠ رقم ١٥٣٧٧) وابن الجارود في المنتقىٰ (رقم ٧٦٣) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٧) ونيل الأوطار (٧/ ٣٥). وتحفة الأحوذي (٤/ ٣٠٥).

فكيف يجعل المحتمل معارضًا للمفسر بل مقدمًا عليه؟ ثم يكفي في ذلك فتاوى أصحاب رسول الله ﷺ.

قال أبو جعفر النحاس في كتاب الناسخ والمنسوخ: هو إجماع من الصحابة.

وأما اقتضاء النظر له فإن المختلعة لم تبق لزوجها عليها عدة، وقد ملكت نفسها وصارت أحق ببضعها، فلها أن تتزوج بعد براءة رحمها، فصارت العدة في حقها بمجرد براءة الرحم، وقد رأينا الشريعة جاءت في هذا النوع بحيضة واحدة، كما جاءت بذلك في المسبية والمملوكة بعقد معاوضة أو تبرع والمهاجرة من دار الحرب، ولا ريب أنها جاءت بثلاثة أقراء في الرجعية، والمختلعة فرعٌ متردد بين هذين الأصلين؛ فينبغي إلحاقها بأشبهها بها؛ فنظرنا فإذا هي بذوات الحيضة أشبه.

ومما يبين حكمة الشريعة في ذلك؛ أن الشارع قسم النساء إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: المفارقة قبل الدخول؛ فلا عدة عليها ولا رجعة لزوجها فيها.

الثاني: المفارقة بعد الدخول إذا كان لزوجها عليها رجعة، فجعل عدتها ثلاثة قروء، ولم يذكر سبحانه العدة بثلاثة قروء إلا في هذا القسم، كما هو مصرح به في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وكذا في سورة الطلاق لما ذكر الاعتداد بالأشهر الثلاثة في حق من إذا بلغت أجلها خير زوجها بين إمساك بمعروف أو مفارقتها بإحسان، وهي الرجعية قطعًا، فلم يذكر الأقراء أو بدلها في حق بائن البتة.

القسم الثالث: من بانت عن زوجها وانقطع حقه عنها بسبي أو هجرة أو خلع؛ فجعل عدتها حيضة للاستبراء، ولم يجعلها ثلاثًا؛ إذ لا رجعة للزوج، وهذا في غاية الظهور والمناسبة.

وأما الزانية والموطوءة بشبهة فموجب الدليل أنها تستبرأ بحيضة فقط، ونص عليه أحمد في الزانية، واختاره شيخنا في الموطوءة بشبهة، وهو الراجح، وقياسهما على

المطلقة الرجعية من أبعد القياس وأفسده.

فإن قيل: فهب أن هذا قد سلم لكم فيما ذكرتم من الصور، فإنه لا يسلم معكم في المطلقة ثلاثًا؛ فإن الإجماع منعقد على اعتدادها بثلاثة قروء مع انقطاع حق زوجها من الرجعة، والقصد مجرد استبراء رحمها.

قيل: نعم هذا سؤال وارد، وجوابه من وجهين:

أحدهما: أنه قد اختلف في عدتها: هل هي بثلاثة قروء أو بقرء واحد؟ فالجمهور - بل الذي لا يعرف الناس سواه - أنها ثلاثة قروء.

وعلى هذا فيكون وجهه أن الطلقة الثالثة لما كانت من جنس الأوليين أعطيت حكمهما؛ ليكون باب الطلاق كله بابًا واحدًا، فلا يختلف حكمه؛ والشارع إذا علَّق الحكم بوصف لمصلحة عامة لم يكن تخلف تلك المصلحة والحكمة في بعض الصور مانعًا من ترتب الحكم، بل هذه قاعدة الشريعة وتصرفها في مصادرها ومواردها.

الوجه الثاني: أن الشارع حرمها عليه حتى تنكح زوجًا غيره، عقوبة له،ولعن المحلل والمحلل له؛ لمناقضتهما ما قصده الله سبحانه من عقوبته؛ وكان من تمام هذه العقوبة أن طول مدة تحريمها عليه؛ فكان ذلك أبلغ فيما قصده الشارع من العقوبة، فإنه إذا علم أنها لا تحل له حتى تعتد بثلاثة قروء، ثم يتزوجها آخر بنكاح رغبة مقصودٍ لا تحليلٍ مُوجبٍ للعنة، ويفارقها، وتعتد من فراقه ثلاثة قروء أخر، طال عليه الانتظار، وعيل صبره، فأمسك عن الطلاق الثلاث، وهذا واقع على وفق الحكمة والمصلحة والزجر؛ فكان التربص بثلاثة قروء في الرجعية نظرًا للزوج ومراعاة لمصلحته لما لم يوقع الثالثة المحرمة لها، وهاهنا كان ترابصًا عقوبة له وزجرًا لما أوقع الطلاق المحرم لما أحل الله له، وأكدت هذه العقوبة بتحريمها عليه إلا بعد زوج وإصابة وتربص ثان.

وقيل: بل عدتها حيضة واحدة، وهي اختيار أبي الحسين بن اللبان، فإن كان

مسبوقًا بالإجماع فالصواب اتباع الإجماع، وأن لا يلتفت إلىٰ قوله، وإن لم يكن في المسألة إجماع فقوله قوي ظاهر، والله أعلم.

فإن قيل: فقد جاءت السنة بأن المخيرة تعتد ثلاث حيض، كما رواه ابن ماجه من حديث عائشة قالت: أمرت بريرة أن تعتد ثلاث حيضٍ[(١)].

قيل: ما أصرحه من حديث لو ثبت! لكنه حديث منكر بإسناد مشهور، وكيف يكون عند أم المؤمنين هذا الحديث وهي تقول: الأقراء الأطهار؟ فإن صح الحديث وجب القول به، ولم تسع مخالفته، ويكون حكمه حكم المطلقة ثلاثًا في اعتدادها بثلاثة قروء، ولا رجعة لزوجها عليها؛ فإن الشارع يخصص بعض الأعيان والأفعال والأزمان والأماكن ببعض الأحكام، وإن لم يظهر لنا موجب التخصيص، فكيف وهو ظاهر في مسألة المخيرة، فإنها لو جعلت عدتها حيضة واحدة لبادرت إلىٰ التزوج بعدها، وأيس منها زوجها؟ فإذا جعلت ثلاث حيضة واحدة لبادرت إلىٰ التزوج بعدها، وأيس منها زوجها؟ فإذا جعلت ثلاث حيض طال زمن انتظارها وحبسها عن الأزواج، ولعلها تتذكر زوجها فيها وترغب في رجعته، ويزول ما عندها من الوحشة، ولو قيل: إن اعتداد المختلعة بثلاث حيضٍ لهذا المعنىٰ بعينه؛ لكان حسنًا علىٰ وفق حكمة الشارع، ولكن هذا مفقود في المسبية والمهاجرة والزانية والموطوءة بشبهة.

فإن قيل: فهبْ أن هذا كله قد سلم لكم، فكيف يسلم لكم في الآيسة والصغيرة التي لا يوطأ مثلها؟

قيل: هذا إنما يرد علىٰ من جعل علة العدة مجرد براءة الرحم فقط، ولهذا أحابوا عن هذا السؤال بأن العدة هاهنا شرعت تعبدًا محضًا غير معقول المعنىٰ، وأما جعل هذا بعض مقاصد العدة وأن لها مقاصد أُخر من تكميل شأن هذا العقد واحترامه وإظهار

---

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٠٧٧) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ١٣٠): هذا إسناد صحيح رجاله موثقون، وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٠٥) وقال الصنعاني في سبل السلام (٣/ ١٩٨): رواه ابن ماجه ورواته ثقات لكنه معلول.

خطره وشرفه فجعل لهم حريم بعد انقطاعه بموت أو فرقة، فلا فرق في ذلك بين الآيسة وغيرها، ولا بين الصغيرة والكبيرة، مع أن المعنى الذي طولت له العدة في الحائض في الرجعية والمطلقة ثلاثًا؛ موجودٌ بعينه في حق الآيسة والصغيرة، وكان مقتضى الحكمة التي تضمنت النظر في مصلحة الزوج في الطلاق الرجعي، وعقوبته وزجره في الطلاق المحرم؛ التسوية بين النساء في ذلك، وهذا ظاهر جدًّا، وبالله التوفيق.

وأما تحريم المرأة على الزوج بعد الطلاق الثلاث، وإباحتها له بعد نكاحها للثاني؛ فلا يعرف حكمته إلا من له معرفة بأسرار الشريعة، وما اشتملت عليه من الحكم والمصالح الكلية فنقول وبالله التوفيق:

لما كان إباحة فرج المرأة للرجل بعد تحريمه عليه ومنعه منه؛ من أعظم نعم الله عليه، وإحسانه إليه؛ كان جديرًا بشكر هذه النعمة، ومراعاتها، والقيام بحقوقها، وعدم تعريضها للزوال، وتنوعت الشرائع في ذلك بحسب المصالح التي علمها الله في كل زمان ولكل أمة.

فجاءت شريعة التوراة بإباحتها له بعد الطلاق ما لم تتزوج، فإذا تزوجت حرمت عليه، ولم يبق له سبيل إليها؛ وفي ذلك من الحكمة والمصلحة ما لا يخفى؛ فإن الزوج إذا علم أنه إذا طلق المرأة وصار أمرُها بيدها، وأن لها أن تنكح غيره، وأنها إذا نكحت غيره حرمت عليه أبدًا، كان تمسكه بها أشدَّ، وحذره من مفارقتها أعظم، وشريعة التوراة جاءت بحسب الأمة الموسوية فيها من الشدة والإصرِ ما يناسب حالها.

ثم جاءت شريعة الإنجيل بالمنع من الطلاق بعد التزويج البتة، فإذا تزوج بامرأة فليس له أن يطلقها.

ثم جاءت الشريعة الكاملة الفاضلة المحمدية، التي هي أكمل شريعةٍ نزلت من السماء على الإطلاق، وأجلها وأعلاها وأقومها بمصالح العباد في المعاش والمعاد؛ بأحسن من ذلك كله وأكمله وأوفقه للعقل والمصلحة.

فإن الله سبحانه أكمل لهذه الأمة دينها، وأتم عليها نعمته، وأباح لها من الطيبات

ما لم يبحه لأمة غيرها.

فأباح للرجل أن ينكح من أطايب النساء أربعًا، وأن يتسرَّىٰ من الإماء بما شاء، وليس التسرىٰ في شريعة أخرىٰ غيرها.

ثم أكمل لعبده شرعه، وأتم عليه نعمته، بأن ملكه أن يفارق امرأته ويأخذ غيرها؛ إذ لعل الأولىٰ لا تصلح له ولا توافقه، فلم يجعلها غلًّا في عنقه، وقيدًا في رجله، وإصرًا علىٰ ظهره، وشرع له فراقها علىٰ أكمل الوجوه لها، وله بأن يفارقها واحدة ثم تتربص ثلاثة قروء، والغالب أنها في ثلاثة أشهر، فإن تاقت نفسه إليها، وكان له فيها رغبة، وصرَّف مقلب القلوب قلبه إلىٰ محبتها، وجد السبيل إلىٰ ردها ممكنًا، والباب مفتوحًا، فراجع حبيبته، واستقبل أمره، وعاد إلىٰ يده ما أخرجته يد الغضب ونزغات الشيطان منها.

ثم لا يؤمن غلبات الطباع ونزغات الشيطان من المعاودة، فمكن من ذلك أيضًا مرة ثانية، ولعلها أن تذوق من مرارة الطلاق وخراب البيت ما يمنعها من معاودة ما يغضبه، ويذوق هو من ألم فراقها ما يمنعه من التسرع إلىٰ الطلاق، فإذا جاءت الثالثة جاء ما لا مردَّ له من أمر الله، وقيل له: قد اندفعت حاجتك بالمرة الأولىٰ والثانية، ولم يبق لك عليها بعد الثالثة سبيل، فإذا علم أن الثالثة فراقُ بينه وبينها وأنها القاضية أمسك عن إيقاعها، فإنه إذا علم أنها بعد الثالثة لا تحل له إلا بعد تربص ثلاثة قروء وتزوج بزوج راغب في نكاحها وإمساكها، وأن الأول لا سبيل له إليها حتىٰ يدخل بها الثاني دخولاً كاملاً يذوق فيه كل واحد منهما عسيلة صاحبه؛ بحيث يمنعهما ذلك من تعجيل الفراق ثم يفارقها: بموت أو طلاق أو خلع ثم تعتد من ذلك عدة كاملة؛ تبين له حينئذ يأسه بهذا الطلاق الذي هو من أبغض الحلال إلىٰ الله[1]، وعلم كل واحد

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٧٨) وابن ماجه (رقم ٢٠١٨) والبيهقي في سننه الكبرىٰ (٧/ ٣٢٢ رقم ١٤٦٧١) وتمام في فوائده: (رقم ٢٦) قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٦٣٨): هذا حديث لا يصح. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ٣٥٦): أخرجه أبو داود وغيره وأعل بالإرسال. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٤٤).

منهما أنه لا سبيل له إلى العود بعد الثالثة، لا باختياره ولا باختيارها، وأكد هذا المقصود بأن لعن الزوج الثاني إذا لم ينكح نكاح رغبة يقصد فيه الإمساك، بل نكح نكاح تحليل، ولعن الزوج الأول إذا ردَّها بهذا النكاح، بل ينكحها الثاني كما نكحها الأول، ويطلقها كما طلقها الأول، وحينئذ فتباح للأول كما تباح لغيره من الأزواج.

وأنت إذا وازنت بين هذا وبين الشريعتين المنسوختين، ووازنت بينه وبين الشريعة المبدلة المبيحة ما لعن الله ورسوله فاعله، تبين لك عظمة هذه الشريعة، وجلالتها، وهيمنتها على سائر الشرائع، وأنها جاءت على أكمل الوجوه وأتمها وأحسنها وأنفعها للخلق، وأن الشريعتين المنسوختين خير من الشريعة المبدلة، فإن الله سبحانه شرعهما في وقت، ولم يشرع المبدلة أصلاً.

وهذه الدقائق ونحوها مما يختص الله سبحانه بفهمه من يشاء؛ فمن وصل إليها فليحمد الله، ومن لم يصل إليها فليسلم لأحكم الحاكمين وأعلم العالمين، وليعلم أن شريعته فوق عقول العقلاء وفوق فطر الألبَّاء:

وقل للعيون الرمد لا تتقدمي ... إلى الشمس، واستغشي ظلام اللياليا
وسامح، ولا تنكر عليها، وخلها ... وإن أنكرت حقًّا فقل خل ذا ليا[(١)]

وقال غيره:

عاب التفقه قوم لا عقول لهم ... وما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضرَّ شمس الضحى والشمس طالعة ... أن لا يرى ضوءَها مَنْ ليس ذا بصر[(٢)]

---

(١) لم أقف على قائلهما.

(٢) هذان البيتان من بحر البسيط، وينسبان إلى منصور بن إسماعيل الفقيه، شاعر وفقيه شافعي ضرير، كان شديد الهجاء، ونقل عنه كلام في الدين، وشهد عليه بذلك شاهد، فقال القاضي أبو عبيد: إن شهد عليه ثان ضربت عنقه، فاستولى عليه الخوف ومات. وكان ذلك في سنة ٣٠٦هـ. وذكر البيتين ابن خلكان في وفيات الأعيان في ترجمته وصلاح الدين الصفدي في نكت الهميان واليافعي في مرآة الجنان وعبرة اليقظان.

ذكر حكمه ﷺ في العِدَدِ: هذا الباب قد تولى الله سبحانه بيانه في كتابه أتم بيان، وأوضحه وأجمعه؛ بحيث لا تشذ عنه معتدة، فذكر أربعة أنواع من العدد، وهي جملة أنواعها:

النوع الأول: عدة الحامل: بوضع الحمل مطلقًا؛ بائنة كانت أو رجعية، مفارقة في الحياة، أو متوفى عنها، فقال: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤] وهذا فيه عموم من ثلاث جهات:

أحدها: عموم المخبر عنه، وهو ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ ﴾ فإنه يتناول جميعهن.

الثاني: عموم الأجل، فإنه إضافة إليهن، وإضافة اسم الجمع إلى المعرفة يعم، فجعل وضع الحمل جميع أجلهن. فلو كان لبعضهن أجل غيره لم يكن جميع أجلهن.

الثالث: أن المبتدأ والخبر معرفتان، أما المبتدأ: فظاهر، وأما الخبر ـ وهو قوله تعالى: ﴿ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ـ ففي تأويل مصدر مضاف، أي أجلهن وضع حملهن، والمبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين؛ اقتضى ذلك حصر الثاني في الأول، كقوله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر: ١٥]، وبهذا احتج جمهور الصحابة على أن الحامل المتوفى عنها: عدتها وضع حملها، ولو وضعته والزوج على المغتسل، كما أفتى به النبي ﷺ سبيعة الأسلمية(١). وكان هذا الحكم والفتوى منه مشتقًا من كتاب الله مطابقًا له.

النوع الثاني: عدة المطلقة التي تحيض وهي ثلاثة قروء، كما قال الله تعالى:

---

(١) إن سبيعة كانت تحت سعد بن خولة فتوفي في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته فلما تعلت من نفاسها تجملت للخُطَّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال لها: ما لي أراك تجملت للخطاب ترجين النكاح، فإنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت عليَّ ثيابي حين أمسيت وأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي، أخرجه البخاري (رقم ٣٩٩١) ومسلم (رقم ١٤٨٤).

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

النوع الثالث: عدة التي لا حيض لها، وهي نوعان: صغيرة لا تحيض، وكبيرة قد يئست من الحيض، فبين سبحانه عدة النوعين بقوله: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ [الطلاق: ٤] أي: فعدتهن كذلك.

النوع الرابع: المتوفى عنها زوجها، فبين عدتها بقوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤]. فهذا يتناول المدخول بها وغيرها، والصغيرة والكبيرة.

ولا يدخل فيه الحامل؛ لأنها خرجت بقوله: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤]، فجعل وضع حملهن جميع أجلهن، وحصره فيه، بخلاف قوله في المتوفى عنهن: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ فإنه فعل مطلق لا عموم له. وأيضًا فإن قوله: ﴿ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ متأخر في النزول عن قوله: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾. وأيضًا فإن قوله: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ في غير الحامل الاتفاق، فإنها لو تمادى حملها فوق ذلك تربصته، فعمومها مخصوص اتفاقًا. وقوله: ﴿ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ غير مخصوص بالاتفاق، هذا لو لم تأت السنة الصحيحة بذلك، ووقعت الحوالة على القرآن، فكيف والسنة الصحيحة موافقة لذلك مقررة له؟

فهذه أصول العدد في كتاب الله، مفصلة مبينة.

ولكن اختلف في فهم المراد من القرآن ودلالته في مواضع من ذلك.

وقد دلت السنة ـ بحمد الله ـ على مراد الله منها.

ونحن نذكرها، ونذكر أولى المعاني وأشبهها، ودلالة السنة عليها.

فمن ذلك: اختلاف السلف في المتوفى عنها إذا كانت حاملاً. فقال علي وابن عباس وجماعة من الصحابة: «أبعد الأجلين: من وضع الحمل، أو أربعة أشهر وعشرًا» وهذا أحد القولين في مذهب مالك، اختاره سحنون.

قال أحمد في رواية أبي طالب عنه: إن علي بن أبي طالب وابن عباس يقولان في المعتدة الحامل: «أبعد الأجلين». وكان ابن مسعود يقول: «من شاء باهلته: إن سورة النساء القصرىٰ نزلت بعد»[١]. وحديث سبيعة يقضي بينهم: «إذا وضعت: فقد حلت». وابن مسعود يتأول القرآن: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ هي في المتوفىٰ عنها، والمطلقة مثلها، إذا وضعت: فقد حلت وانقضت عدتها.

ولا تنقضي عدة الحامل إذا أسقطت حتىٰ يتبين خلقه، فإذا بان له يد أو رجل عتقت به الأمة، وتنقضي به العدة، وإذا ولدت ولدًا وفي بطنها آخر: لم تنقض العدة حتىٰ تلد الآخر، ولا تغيب عن منزلها الذي أصيب فيه زوجها أربعة أشهر وعشرًا، إذا لم تكن حاملاً، والعدة من يوم يموت أو يطلق[٢]، هذا كلام أحمد.

وقد تناظر في هذه المسألة ابن عباس وأبو هريرة، فقال أبو هريرة: «عدتها وضع الحمل»[٣]. وقال ابن عباس: «عدتها أقصىٰ الأجلين»[٤] فحكّما أم سلمة، فحكمت لأبي هريرة، واحتجت بحديث سبيعة. وقد قيل: إن ابن عباس رجع.

وقال جمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم، والأئمة الأربعة: إن عدتها وضع

---

(١) أخرجه بلفظ قريب ابن ماجه (رقم ٢٠٣٠) والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٤٣٠ رقم ١٥٢٥١) وسعيد بن منصور في سننه (١/ ٣٩٦ رقم ١٥١٢-١٥١٤) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٥٤ رقم ١٧٠٩٩) وعبد الرزاق (٦/ ٤٧١ رقم ١١٧١٤) والطبراني في الكبير (٩/ ٣٢٩ رقم ٩٦٤١) وأصل الحديث في صحيح البخاري بلفظ مغاير فقال: «أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون لها الرخصة؟ فنزلت سورة النساء القصرىٰ بعد الطولىٰ» صحيح البخاري (رقم ٤٥٣٢) وانظر: التمهيد (٢٠/ ٣٥) وشرح الزرقاني (٣/ ٢٨٦).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ٧٩): روي عن علي وابن مسعود وابن عباس أن ابتداء العدة في الطلاق عقيب الطلاق، وفي الوفاة عقيب الوفاة. أما حديث علي فأخرجه البيهقي بلفظ: العدة من يوم يموت أو يطلق، وأما ابن مسعود فأخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر ومن طريق ابن عمر نحوه، وأخرج عن جماعة من التابعين مثله بأسانيد جيدة.

(٣) انظر: تحفة الأحوذي (١/ ٢٩).

(٤) انظر: الفتح السماوي (٢/ ٨٩٢) وقواعد التحديث (ص ٨٨).

الحمل، ولو كان الزوج على مغتسله، فوضعت؛ حلت.

قال أصحاب الأجلين: هذه قد ناولها عمومان، وقد أمكن دخولها في كليهما، فلا تخرج من عدتها بيقين حتى يأتي عليها أقصى الأجلين.

قالوا: ولا يمكن تخصيص عموم إحداهما بخصوص الأخرى، لأن كل آية منهما عامة من وجه، خاصة من وجه.

قالوا: فإذا أمكن دخول بعض الصور في عموم الآيتين، يعني إعمالاً للعموم في مقتضاه، فإذا اعتدَّت أقصى الأجلين: دخل أدناهما في أقصاهما.

والجمهور أجابوا عن هذا بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن صريح السنة يدل على اعتبار الحمل فقط، كما في الصحيحين: أن سبيعة الأسلمية تُوفي عنها زوجها، وهي حبلى، فوضعت، فأرادت أن تنكح، فقال لها أبو السنابل: ما أنت بناكحة حتى تعتدي آخر الأجلين. فسألت النبي ﷺ؟ فقال: «كذب أبو السنابل، قد حللت، فانكحي من شئت»[(١)].

الثاني: أن قوله: ﴿وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] نزلت بعد قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وهذا جواب عبد الله بن مسعود، كما في صحيح البخاري عنه: «أيجعلون عليها التغليظ، ولا يجعلون لها الرخصة؟ أشهدُ لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى[(٢)]: ﴿وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾».

وهذا الجواب يحتاج إلى تقرير، فإن ظاهره أن آية سورة الطلاق مقدمة على آية البقرة، لتأخرها عنها فكانت ناسخة لها، ولكن النسخ عند الصحابة والسلف: أعم منه عند المتأخرين، فإنهم يريدون به ثلاثة معان.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٩١) ومسلم (رقم ١٤٨٤) وانظر: فتح الباري (١/ ٢١٩).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٣٢).

أحدها: رفع الحكم الثابت بخطاب.

الثاني: رفع دلالة الظاهر: إما بتخصيص، وإما بتقييد وهو أعم مما قبله.

الثالث: بيان المراد باللفظ الذي بيانه من خارج، وهذا أعم من المعنيين الأولين، فابن مسعود أشار بتأخر نزول سورة الطلاق إلى أن آية الاعتداد بوضع الحمل ناسخة لآية البقرة، إن كان عمومها مرادًا، أو مخصصة لها إن لم يكن عمومها مرادًا، أو مبينة للمراد منها، أو مقيدة لإطلاقها، وعلى التقديرات الثلاث؛ فيتعين تقديمها على عموم تلك وإطلاقها، وهذا من كمال فقهه ورسوخه في العلم، ومما يبين أن أصول الفقه، التي هي أصول الفقه؛ سجية للقوم وطبيعة لهم، لا يتكلفونها، كما أن العربية والمعاني والبيان وتوابعها لهم كذلك، فمن بعدهم إنما يجهد نفسه ليتعلق بغبارهم، وأنّى له؟

(1) الثالث: أنه لو لم تأت السنة الصريحة باعتبار الحمل، ولم تكن آية الطلاق متأخرة؛ لكان تقديمها هو الواجب، لما قررناه أولاً من جهات العموم الثلاثة فيها، وإطلاق قوله: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ وقد كانت الحوالة على هذا الفهم ممكنة، ولكن لغموضه ودقته على كثير من الناس؛ أحيل في ذلك الحكم على بيان السنة، وبالله التوفيق.

ودل قوله سبحانه: ﴿ وَأُوْلَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ على أنها إذا كانت حاملاً بتوأمين؛ لم تنقض العدة حتى تضعهما جميعًا.

ودلت على أن من عليها الاستبراء، فعدتها؛ وضع الحمل أيضًا.

ودلت على أن العدة تنقضي بوضعه على أي صفة كان: حيًّا أو ميتًا، تام الخلقة أو ناقصها، نفخ فيه الروح أو لم ينفخ.

ودل قوله: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤] على الاكتفاء بذلك، وإن لم تحض، وهذا قول الجمهور، وقال مالك: إذا كانت عادتها أن تحيض

---

(١) المقصود به الجواب الثالث الذي أجاب به الجمهور عن رأي أصحاب الأجلين وقد سبق الجوابان الأول والثاني (ج).

في كل سنة مرة، فتوفي عنها زوجها؛ لم تنقض عدتها حتى تحيض حيضتها، فتبرأ من عدتها، فإن لم تحض انتظرت تمام تسعة أشهر من يوم وفاته، وعنه رواية ثانية كقول الجمهور: أنها تعتد أربعة أشهر وعشراً[١]، ولا تنتظر حيضها...[٢].

...[٣]**الدليل الثاني**: أن لفظ (القرء) لم يستعمل في كلام الشارع إلا للحيض، ولم يجيء عنه في موضع واحد استعماله للطهر، فحمله في الآية على المعهود المعروف من خطاب الشارع أولى، بل متعين، فإنه ﷺ قال للمستحاضة: «**دعي الصلاة أيام أقرائك**»[٤] وهو ﷺ المعبر عن الله تعالى وبلغة قومه نزل القرآن، فإذا ورد المشترك في كلامه على أحد معنييه؛ وجب حمله في سائر كلامه عليه، إذ لم تثبت إرادة الآخر في شيء من كلامه البتة، ويصير هذا المعنى؛ الحقيقية الشرعية في تخصيص المشترك بأحد معنييه، كما يخص المتواطئ بأحد أفراده، بل هذا أولى؛ لأن أغلب أسباب الاشتراك تسمية أحد القبيلتين الشيء باسم، وتسمية الأخرى بذلك الاسم مسمى آخر، ثم تتسع الاستعمالات، بل قال المبرد وغيره، لا يقع الاشتراك في اللغة إلا بهذا الوجه خاصة، والواضع لم يضع لفظًا مشتركًا البتة، فإذا ثبت استعمال الشارع لفظ «القرء» في الحيض؛ علم أن هذه لغته، فيتعين حمله عليها في كلامه.

يوضح ذلك: ما في سياق الآية من قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وهذا هو الحيض، والحمل، عند عامة المفسرين، والمخلوق في الرحم؛ إنما هو الحيض الوجودي، ولهذا قال السلف والخلف: هو الحمل والحيض، وقال بعضهم: الحمل، وبعضهم: الحيض، ولم يقل أحد قط: إنه الطهر؛

(١) انظر: بداية المجتهد (٢/ ٧٢).

(٢) ذكر الشيخ ابن القيم هنا ما نصه باختصار: فصل: ومن ذلك اختلافهم في الأقراء: هل هي الحيض أو الأطهار؟ فقال أكابر الصحابة: إنها الحيض.. وقالت طائفة: الأقراء الأطهار... وذكر البحث في عدة صفحات لمن أراده اهـ. (ج).

(٣) ٣٦٥ زاد المعاد جـ٤.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٥).

ولهذا لم ينقله من عني بجمع أقوال أهل التفسير، كابن الجوزي وغيره.

وأيضًا: فقد قال سبحانه: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ [الطلاق: ٤] فجعل كل شهر بإزاء حيضة، وعلق الحكم بعدم الحيض، لا بعدم الطهر من الحيض.

وأيضًا: فحديث عائشة، عن النبي ﷺ: «**طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان**»[(١)] رواه أبو داود، وابن ماجه، والترمذي: وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث مظاهر بن أسلم، ومظاهر؛ لا يعرف له في العلم غير هذا الحديث.

وفي لفظ للدارقطني: «طلاق العبد ثنتان»، وروى ابن ماجه: من حديث عطية العوفي، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**طلاق الأمة اثنتان، وعدتها حيضتان**».

وأيضًا قال ابن ماجه في سننه: حدثنا علي بن محمد: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قال: «أمرت بريرة أن تعتد بثلاث حيض»[(٢)].

وفي المسند: عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ خير بريرة، فاختارت، وأمرها أن تعتد عدة الحرة»[(٣)] وقد فسر «عدة الحرة» بثلاث حيض في حديث عائشة.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٨٩) والترمذي (رقم ١١٨٢) وابن ماجه (رقم ٢٠٨٠) والحاكم (٢/ ٢٢٣ رقم ٢٨٢٢) والدارقطني (٤/ ٣٩ رقم ١١٣) والحديث ضعفه أبو داود بقوله: وهو حديث مجهول، وضعفهن ابن عبد ا لبر في الإستذكار (٦/ ١٧٧) وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ٢٦ رقم ٦٧٤٩) ونقل العيني في عمدة القاري (٢٠/ ٣٠٥) تضعيف ابن كثير له وأن الدارقطني صححه من قول القاسم بن محمد، وانظر: تلخيص الحبير (٣/ ٢١٣) ونصب الراية (٣/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٠٧٧) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ١٣٠ رقم ٧٣٧) هذا إسناد صحيح رجاله موثقون. وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٠٥) وعون المعبود (٦/ ٢٢٥) وقال الصنعاني في سبل السلام (٣/ ١٩٨): رواه ابن ماجه ورواته ثقات لكنه معلول.

(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٤٢): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٠٥، ٤٠٨) وعمدة القاري (٢٠/ ٢٦٦-٢٦٧) وتنوير الحوالك (١/ ٢٤) وشرح الزرقاني (٣/ ٢٣٤) ونيل الأوطار (٧/ ٩٠).

فإن قيل: فمذهب عائشة: أن الأقراء الأطهار؟

قيل: ليس هذا بأول حديث خالفه راويه، فأخذنا بروايته دون رأيه.

وأيضًا: ففي حديث الربيع بنت معوذ: «أن النبي ﷺ أمر امرأة ثابت بن قيس بن شماس ـ لما اختلعت من زوجها ـ أن تتربص حيضة واحدة، وتلحق بأهلها»(١) رواه النسائي. وفي سنن أبي داود: عن ابن عباس: «أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها؛ فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة»(٢).

وفي الترمذي: «أن الربيع بنت معوذ اختلعت على عهد رسول الله ﷺ فأمرها رسول الله ـ أو أمرت ـ أن تعتد بحيضة» قال الترمذي: حديث الربيع الصحيح: «أنها أمرت أن تعتد بحيضة»(٣).

وأيضًا: فإن الاستبراء هو عدة الأمة، وقد ثبت عن أبي سعيد؛ أن النبي ﷺ، قال في سبايا أوطاس: «لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة»(٤) رواه أحمد وأبو داود.

فإن قيل: لا نسلم أن استبراء الأمة بالحيضة، وإنما هو بالطهر الذي هو قبل الحيضة، كذلك قال ابن عبد البر، وقال: قولهم: «إن استبراء الأمة حيضة بإجماع» ليس كما ظنوا، بل جائز لها عندنا؛ أن تنكح إذا دخلت في الحيضة، واستيقنت أن دمها

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ٣٨٣ رقم ٥٦٩١) وفي الصغرى (رقم ٣٤٩٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٠٢) ونيل الأوطار (٧/ ٣٤-٣٨).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٢٢٢٩) والدارقطني (٤/ ٤٦ رقم ١٣٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٠٢) والحاكم (٢/ ٢٢٤ رقم ٢٨٢٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. والبيهقي في الكبرى (٧/ ٤٥٠ رقم ١٥٣٧٥).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ١١٨٥) وانظر: تحفة الأحوذي (٤/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٥٧) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٣٢٩ رقم ١٠٥٧٢) (٩/ ١٢٤ رقم ١٨٠٧٦) والدارمي (رقم ٢٢٩٥) والحاكم (٢/ ٢١٢ رقم ٢٧٩٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وأحمد (٣/ ٦٢) وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٢٤) وعمدة القاري (٣/ ٢٩٢).

دم حيض، كذلك قال إسماعيل بن إسحاق ليحيى بن أكثم حين أدخل عليه في مناظرته إياه[1]؟

قلنا: هذا يرده قوله ﷺ: «**لا توطأ حامل حتى تضع، ولا حائل حتى تستبرأ بحيضة**».

وأيضًا: فالمقصود الأصلي من العدة؛ إنما هو استبراء الرحم، وإن كان لها فوائد أخر، ولشرف الحرة المنكوحة وخطرها؛ جعل العلم الدال على براءة رحمها ثلاثة أقراء، فلو كان القرء هو الطهر؛ لم تحصل بالقرء الأول دلالة، فإنه لو جامعها في الطهر، ثم طلقها ثم حاضت؛ كان ذلك قرءًا محسوبًا من الأقراء عند من يقول: الأقراء الأطهار، ومعلوم أن هذا لم يدل على شيء؛ وإنما الذي يدل على البراءة الحيض الحاصل بعد الطلاق، لو طلقها في طهر لم يصبها فيها؛ فإنما يعلم هنا براءة الرحم بالحيض الموجود قبل الطلاق، والعدة لا تكون قبل الطلاق؛ لأنها حكمه. والحكم لا يسبق سببه فإذا كان الطهر الموجود بعد الطلاق لا دلالة له على البراءة أصلًا؛ لم يجز إدخاله في العدة الدالة على براءة الرحم، وكان مثله كمثل شاهد غير مقبول، ولا يجوز تعليق الحكم بشهادة شاهد لا شهادة له...

...[2]**فإن قيل**: فإذا جعلنا الأقراء الأطهار استقبلت عدتها بعد الطلاق بلا فصل، ومن جعلها الحيض لم تستقبلها على قوله حتى ينقضي الطهر.

قيل: كلام الرب تبارك وتعالى لابد أن يحمل على فائدة مستقلة، وحمل الآية على معنى: فطلقوهن طلاقًا، تكون العدة بعده؛ لا فائدة فيه، وهذا بخلاف ما إذا كان المعنى: فطلقوهن طلاقًا، يستقبلن فيه العدة، لا يستقبلن فيه طهرًا لا تعتد به. فإنها إذا طلقت حائضًا استقبلت طهرًا لا تعتد به، فلم تطلق لاستقبال العدة. ويوضحه قراءة

---

(١) انظر: التمهيد (١٥/ ١٠٠) والمغني (٨/ ٨٢).

(٢) ٣٨٣ زاد المعاد جـ ٤.

من قرأ: [فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ] وقُبُل العدة هو الوقت الذي يكون بين يدي العدة تستقبل به، كقبل الحائض.

يوضحه: أنه لو أريد ما ذكروه لقيل: في أول عدتهن، فالفرق بَيِّنٌ بَيْنَ قُبُلِ الشيء وأوله.

وأما قولكم: لو كانت القروء هي الحيضة؛ لكان قد طلقها قبل العدة.

فنقول: أجل،وهذا هو الواجب عقلًا وشرعًا: فإن العدة لا تفارق الطلاق لا تسبقه.. بل يجب تأخرها عنه.

وقولكم: وكان ذلك تطويلاً عليها كما لو طلقها في الحيض.

قيل: هذا مبني على أن العلة في تحريم طلاق الحائض خشية التطويل عليها، وكثير من الفقهاء لا يرضون هذا التعليل، ويفسدونه بأنها لو رضيت بالطلاق فيه، واختارت التطويل؛ لم تُبَحْ له، ولو كان ذلك لأجل التطويل، لم تبح له برضاها، كما يباح إسقاط الرجعة الذي هو حق المطلق بتراضيهما بإسقاطها بالعوض اتفاقًا، وبدونه في أحد القولين، وهذا مذهب أبي حنيفة وإحدى الروايتين عن أحمد ومالك، ويقولون: إنما حرم طلاقها في الحيض لأنه طلقها في وقت رغبته عنها، ولو سلمنا أن التحريم لأجل التطويل عليها فالتطويل المضر؛ أن يطلقها حائضًا، فتنتظر مضي الحيضة والطهر الذي يليها، ثم تأخذ في العدة، فلا تكون مستقبلة لعدتها بالطلاق. وأما إذا طلقت طاهرًا؛ فإنها تستقبل العدة عقب انقضاء الطهر. فلا يتحقق التطويل.

وقولكم: «إن القرء مشتق من الجمع؛ وإنما يجمع الحيض في زمن ا لطهر» عنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن هذا ممنوع، والذي هو مشتق من الجمع؛ إنما هو من باب اليائي من المعتل، من قَرَىٰ يقري كقضىٰ يقضي، والقرء من المهموز من باب الهمز، من قرأ يقرأ كنحر ينحر، وهما أصلان مختلفان، فإنهم يقولون: قريت الماء في الحوض أقريه، أي: جمعته، ومنه سميت القرية، ومنه قرية النمل: للبيت الذي تجتمع فيه؛ لأنه يقريها

أي: يضمها ويجمعها.

وأما المهموز: فإنه من الظهور والخروج على وجه التوقيت والتحديد، ومنه قراءة القرآن، لأن قارئه يظهره ويخرجه مقدرًا محددًا، لا يزيد ولا ينقص.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: ١٧].

ففرق سبحانه بين الجمع والقرآن، ولو كان واحدًا لكان تكريرًا محضًا، ولهذا قال ابن عباس: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٨] «فإذا بيناه» فجعل قرآنه، نفس إظهاره وبيانه، لا كما زعم أبو عبيدة: أن القرآن مشتق من الجمع.

ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة سلًى قط، وما قرأت جنينًا، هو من هذا الباب، أي: ما ولدته وأخرجته وأظهرته، ومنه فلان يقرئك ويقرأ عليك السلام، هو من الظهور والبيان، ومنه قولهم: قرأت المرأة حيضة أو حيضتين: أي حاضتهما؛ لأن الحيض ظهور ما كان كامنًا كظهور الجنين.

ومنه قَرْء الثريا وقَرْء الريح وهو الوقت الذي يظهر فيه المطر والريح، فإنهما يظهران في وقت مخصوص.

وقد ذكر هذا الاشتقاق المصنفون في كتب الاشتقاق، وذكره أبو عمرو وغيره ولا ريب أن هذا المعنى في الحيض أظهر منه في الطهر.

وقولكم: إن عائشة قالت: «القروء الأطهار» والنساء أعلم بهذا من الرجال.

فالجواب: أن يقال: جعل النساء أعلم بمراد الله من كتابه وأفهم لمعناه من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وأكابر أصحاب النبي ﷺ؟ فنزول ذلك في شأنهن لا يدل على أنهن أعلم به من الرجال؛ وإلا كانت كل آية نزلت في النساء؛ تكون النساء أعلم بها من الرجال، ويجب على الرجال تقليدهن في معناها وحكمها، فيكن أعلم من الرجال بآية الرضاع، وآية الحيض، وتحريم وطء الحائض، وآية عدة المتوفى عنها، وآية الحمل والفصال، ومدتهما، وآية تحريم إبداء الزينة إلا لمن ذكر فيها، وغير ذلك من الآيات التي تتعلق

بهن، وفي شأنهن نزلت. ويجب على الرجال تقليدهن في حكم هذه الآيات ومعناها، وهذا لا سبيل إليه البتة.

وكيف؟ ومدار العلم بالوحي على الفهم والمعرفة ووفور العقل، والرجال أحق بهذا من النساء، وأوفر نصيبًا منهن، بل لا يكاد يختلف الرجال والنساء في مسألة إلا والصواب في جانب الرجال.

وكيف يقال: إذا اختلفت عائشة، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود في مسألة؛ أن الأخذ بقول عائشة أولى؟ وهل الأولى إلا قول فيه خليفتان راشدان، وإن كان الصديق معهما كما حكي عنه؟ فذلك القول مما لا يعدوه الصواب البتة، فإن النقل عن عمر وعلي ثابت، وأما عن الصديق؛ ففيه غرابة، ويكفينا قول جماعة من الصحابة، فيهم مثل عمر وعلي وابن مسعود وأبي الدرداء وأبي موسى، فكيف نقدم قول أم المؤمنين وفهمها على أمثال هؤلاء؟

ثم يقال: فهذه عائشة ترى رضاع الكبير ينشر الحرمة، ويثبت المحرمية[1]، ومعها جماعة من الصحابة، وقد خالفها غيرها من الصحابة، وهي روت فيه حديث التحريم به، فهلا قلتم: النساء أعلم بهذا من الرجال، ورجحتم قولها على قول من خالفها؟ ونقول لأصحاب مالك: وهذه عائشة لا ترى التحريم إلا بخمس رضعات ومعها جماعة من الصحابة، وروت منه حديثين، فهلا قلتم: النساء أعلم بهذا من الرجال، وقدمتم قولها على قول من خالفها؟

فإن قلتم: هذا حكم يتعدى إلى الرجال فيستوي النساء معهم فيه؟

قيل: ويتعدى حكم العدة مثله إلى الرجال، فيجب أن يستوي النساء معهم فيه وهذا لا خفاء به، ثم يرجح قول الرجال في هذه المسألة بأن رسول الله ﷺ شهد لواحد من

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٤) وفتح الباري (٩/١٤٨-١٤٩) والتمهيد (١/ ١٥٩) (٨/ ٢٦٣) وشرح الزرقاني (٣/ ٣١٦) وبداية المجتهد (٢/ ٢٧-٢٨) وسبل السلام (٣/ ٢١٤-٢١٧) ونيل الأوطار (٧/ ١٢٠-١٢٢).

هذا الحزب بأن الله ضرب الحق على لسانه وقلبه، وقد وافق ربه تبارك وتعالى في عدة مواضع، قال فيها قولًا فنزل القرآن بمثل ما قال: وأعطاه النبي ﷺ فضل إنائه في النوم وأوله بالعلم، وشهد له بأنه مُحَدَّث مُلْهَم فإذا لم يكن بد من التقليد؛ فتقليده أولى، وإن كانت الحجة هي التي تفصل بين المتنازعين فتحكيمها هو الواجب...

***

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾.

[1]ذكر حكمه ﷺ في النفقة على الزوجات وأنه لم يقدرها، ولا ورد عنه ما يدل على تقديرها، وإنما رد الأزواج فيها إلى العرف.

ثبت عنه في صحيح مسلم: أنه قال في خطبة حجة الوداع بمحضر الجمع العظيم قبل وفاته ببضعة وثمانين يومًا: «واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»[2].

وثبت عنه ﷺ في الصحيحين: أن هندًا امرأة أبي سفيان قالت له: إن أبا سفيان رجل شحيح، ليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[3].

---

(١) ٢٨٢ زاد المعاد جـ ٤.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: شرح النووي (٨/ ١٨٣) وعون المعبود (٥/ ٢٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٣٦٤) ومسلم (رقم ١٧١٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٠٩-٥١٠) وعمدة القاري (١٢/ ١٦-١٧).

وفي سنن أبي داود: من حديث حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، ما تقول في نسائنا؟ قال: «**أطعموهن مما تأكلون، واكسوهنَّ مما تلبسون، ولا تضربوهن ولا تقبحوهن**»(١) وهذا الحكم من رسول الله ﷺ مطابق لكتاب الله تعالى، حيث يقول تعالى: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

والنبي ﷺ جعل نفقة المرأة مثل نفقة الخادم وسوَّىٰ بينهما في عدم التقدير، وردهما إلى المعروف، فقال: «**للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف**»(٢) فجعل نفقتهما بالمعروف، ولا ريب أن نفقة الخادم، غير مقدرة، ولم يقل أحد بتقديرها.

(٣)وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، قال: «على ورثة اليتيم أن ينفقوا عليه كما يرثونه، قلت له: أيحبس وارث المولود إن لم يكن للمولود مال؟ قال: أفيدعه يموت؟»(٤).

قال الحسن: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ قال: «على الرجل الذي يرث أن ينفق عليه حتى يستغني»، وبهذا فسر الآية جمهور السلف، منهم: قتادة، ومجاهد، والضحاك، وزيد بن أسلم، وشريح القاضي، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الله بن عتبة بن مسعود، وإبراهيم النخعي، والشعبي، وأصحاب ابن مسعود، ومن بعدهم: سفيان الثوري، وعبد الرزاق، وأبو حنيفة، وأصحابه، ومن بعدهم: أحمد وإسحاق وداود وأصحابهم.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٤٤) وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٧/ ١٣٠): الحديث أخرجه أيضًا النسائي وابن ماجه والحاكم وابن حبان وصححاه، وعلق البخاري طرفًا منه، وصححه الدارقطني في العلل.

(٢) أخرجه مسلم بدون قوله: «بالمعروف» (رقم ١٦٦٢) وأبو عوانة بلفظه (٤/ ٧٤ رقم ٦٠٧٤) والشافعي في مسنده (ص ٣٠٥) وفي الأم (٥/ ١٠١) ومالك بلاغًا (٢/ ٩٨٠ رقم ١٧٦٩) والبيهقي في الشعب (٦/ ٣٧٢ رقم ٨٥٦٣) وانظر: فتح الباري (٥/ ١٧٤) وعمدة القاري (١٣/ ١٠٨).

(٣) ٣٢١ زاد المعاد جـ٤.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٨٩) إلى عبد بن حميد.

وقد اختلف الفقهاء في حكم هذه المسألة على عدة أقوال:

أحدها: أنه لا يجبر أحد على نفقة أحد من أقاربه، وإنما ذلك بر وصلة، وهذا مذهب يعزى إلى الشعبي.

قال عبد بن حميد الكشي: حدثنا قبيصة، عن سفيان الثوري، عن أشعث، عن الشعبي قال: «ما رأيت أحدًا أجبر أحدًا على أحد، يعني: على نفقته»[(١)].

وفي إثبات هذا المذهب بهذا الكلام نظر، والشعبي أفقه من هذا، والظاهر أنه أراد: أن الناس كانوا أتقى لله من أن يحتاج الغنى أن يجبره الحاكم على الإنفاق على قريبه المحتاج، فكان الناس يكتفون بإيجاب الشرع عن إيجاب الحاكم أو إجباره.

المذهب الثاني: أنه يجب عليه النفقة على أبيه الأدنى وأمه التي ولدته خاصة، فهذان الأبوان يجبر الذكر والأنثى من الولد على النفقة عليهما إذا كانا فقيرين، فأما نفقة الأولاد: فإن الرجل يجبر على نفقة ابنه الأدنى، حتى يبلغ فقط، وعلى نفقة بنته الدنيا حتى تزوج، ولا يجبر على نفقة ابن ابنه ولا بنت ابنه وإن سفلا...[(٢)].

[(٣)]**فإن قيل**: فما تقولون في وجوب الإنفاق على الأقارب مع اختلاف الدين؟ لقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، واختلاف الدين يمنع الميراث.

قيل: أما الأقارب مطلقًا فلا تجب نفقتهم مع اختلاف الدين.

وأما عمود النسب ففيهم روايتان: إحداهما: لا تجب نفقتهم لذلك.

والثانية: يجب، لتأكد قرابتهم بالعصبة، وحكى بعض الأصحاب في وجوب نفقة الأقارب مطلقًا ـ مع اختلاف الدين ـ أنه إن منع وجوب الإنفاق منع في سائر

---

(١) انظر: المحلى (١٠/ ١٠١).

(٢) يأتي في سورة النساء ـ إن شاء الله ـ بحث مفصل بأدلة واضحة حول هذا الموضوع اهـ. (ج).

(٣) ٤١٧ أحكام جـ٢.

الأقارب، وإن لم يكن مانعًا لم يمنع في حق قرابة الكلالة، كالرق والغنى، فأما أن يكون مانعًا في قرابة دون قرابة فلا وجه له؛ ولا يصح التعليل بتأكد: القرابة، لأن الأخ والأخت أقرب من أولاد البنات، والذي يقوم عليه الدليل وجوب الإنفاق وإن اختلف الدينان، لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]، ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

وليس من الإحسان ولا من المعروف ترك أبيه وأمه في غاية الضرورة والفاقة، وهو في غاية الغنى. وقد ذم الله تبارك وتعالى قاطعي الرحم، وعظَّم قطيعتها، وأوجب حقها وإن كانت كافرة، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢٥].

وفي الحديث: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»(١)، و«الرحم معلقة بساق العرش تقول: يا رب صل من وصلني، واقطع من قطعني»(٢)، وليس من صلة الرحم ترك القرابة تهلك جوعًا وعطشًا وعرياً، وقريبه من أعظم الناس مالاً. وصلة الرحم واجبة وإن كان لكافر، فله دينه وللواصل دينه، وقياس النفقة على الميراث قياس فاسد؛ فإن الميراث مبناه على النصرة والموالاة بخلاف النفقة، فإنها صلة ومواساة من حقوق القرابة، وقد جعل الله للقرابة حقًّا ـ وإن كانت كافرة ـ فالكفر لا يسقط حقوقها في الدنيا: قال الله تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٨٤) ومسلم (رقم ٢٥٥٦) واللفظ لمسلم وليس عند البخاري كلمة (رحم) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤١٥) وشرح النووي (١٦/ ١١٣).

(٢) أخرجه مسلم بلفظ قريب (رقم ٢٥٥٥) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١١٢).

ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ﴾ [النساء: ٣٦].

وكل من ذكر في هذه الآية فحقه واجب وإن كان كافرًا، فما بال ذي القربى وحده يخرج من جملة من وصى الله بالإحسان إليه؛ ورأس الإحسان الذي لا يجوز إخراجه من الآية هو الإنفاق عليه عند ضرورته وحاجته، وإلا فكيف يوصي بالإحسان إليه في الحالة التي لا يحتاج إلى الإحسان، ولا يجب له الإحسان أحوج ما كان إليه؟ والله ﷻ حرم قطيعة الرحم وإن كانت كافرة. وتركُ رحمه يموت جوعًا وعطشًا وهو من أغنى الناس وأقدرهم على دفع ضرورته أعظم قطيعة.

...[1]ولو افتداه من الأسر كان له مطالبته بالفداء، وليس ذلك دينًا عليه، والقرآن يدل على هذا القول، فإن الله تعالى قال: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦] فأمر بإيتاء الأجر بمجرد الإرضاع، ولم يشترط عقدًا ولا إذن الأب، وكذلك قوله: ﴿۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فأوجب ذلك عليه، ولم يشترط عقدًا ولا إذنًا، ونفقة الحيوان واجبة على مالكه، والمستأجر والمرتهن له فيه حق، فإذا أنفق عليه النفقة الواجبة على ربه كان أحق بالرجوع من الإنفاق على ولده، فإن قال الراهن: أنا لم آذن لك في النفقة، قال: هي واجبة عليك، وأنا أستحق أن أطالبك بها لحفظ المرهون والمستأجر، فإذا رضي المنفق بأن يعتاض بمنفعة الرهن وكان نظير النفقة؛ كان قد أحسن إلى صاحبه، وذلك خير محض، فلو لم يأتِ به النص لكان القياس يقتضيه.

وطرد هذا القياس أن المودع والشريك والوكيل إذا أنفق على الحيوان واعتاض عن النفقة بالركوب والحلب؛ جاز ذلك كالمرتهن.

---

(١) ٢٤ أعلام جـ٢.

[(١)]قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ ﴾ الآية. إلى قوله تعالى: ﴿ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فدلت الآية على عدة أحكام:

أحدها: أن تمام الرضاع حولان، وذلك حق للولد إذا احتاج إليه وأكد بكاملين؛ لئلا يحمل اللفظ على حول وأكثر.

وثانيها: أن الأبوين إذا أراد فطامه قبل ذلك، بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل؛ فلهما ذلك.

وثالثها: أن الأب إذا أراد أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك، وإن كرهت الأم إلا أن يكون مضارًّا بها وبولدها فلا يجاب إلى ذلك، ويجوز أن تستمر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى نصف الثالث أو أكثر، وأحمد أوقات الفطام إذا كان الوقت معتدلًا في الحر والبرد.

***

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾.

[(٢)]اختلف الناس في القيام والسجود: أيهما أفضل؟ فرجحت طائفة القيام لوجوه:

أحدها: أن ذكره أفضل الأذكار، فكان ركنه أفضل الأركان.

والثاني: قوله تعالى: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

الثالث: قوله ﷺ: «**أفضل الصلاة طول القنوت**»[(٣)].

وقالت: طائفة: السجود أفضل.

واحتجت بقوله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[(٤)]. وبحديث

---

(١) ١٣٩ تحفة المودود.

(٢) ١٢٢ زاد المعاد جـ١.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٧٥٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٩) وشرح النووي (٤/ ٢٠٠) (٦/ ٣٥).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٠٠) وشرح النووي (٤/ ٢٠٦) (٦/ ١٠٥).

معدان بن أبي طلحة قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ، فقلت: حدثني بحديث عسى الله أن ينفعني به، فقال: عليك بالسجود، فإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفع الله له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة**»[(١)]، قال معدان: ثم لقيت أبا الدرداء، فسألته؟ فقال لي مثل ذلك. وقال رسول الله ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمي ـ وقد سأله مرافقته في الجنة ـ: «**أعني على نفسك بكثرة السجود**»[(٢)].

وأول سورة أنـزلت على رسول الله ﷺ سورة «اقرأ» على الأصح، وختمها بقوله: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩]. وبأن السجود لله يقع من المخلوقات كلها، علويها وسفليها.

وبأن الساجد أذل ما يكون لربه وأخضع له، وذلك أشرف حالات العبد. فلهذا: كان أقرب ما يكون من ربه في هذه الحالة.

وبأن السجود هو سر العبودية، فإن العبودية هي الذل والخضوع، يقال: طريق معبد: أي ذللته الأقدام ووطأته: وأذل ما يكون العبد وأخضع: إذا كان ساجدًا.

وقالت طائفة: طول القيام بالليل أفضل، وكثرة الركوع والسجود بالنهار أفضل.

واحتجت هذه الطائفة بأن صلاة الليل قد خُصت باسم القيام لقوله تعالى: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ ﴾ [المزمل: ٢] وقوله ﷺ: «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا**»[(٣)] ولهذا يقال: قيام الليل، ولا يقال: قيام النهار.

قالوا: وهذا كان هدي النبي ﷺ، فإنه ما زاد في الليل على إحدى عشرة

---

(١) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٨/ ٣٢١ رقم ٣٨٧) وابن حبان في صحيحه (٥/ ٢٧ رقم ١٧٣٥) وابن خزيمة في صحيحه (١/ ١٦٣ رقم ٣١٦) والنسائي في الكبرى (١/ ٢٤٢ رقم ٧٢٥) وابن ماجه (رقم ١٤٢٣، ١٤٢٤) والترمذي (رقم ٣٨٨) وصححه، وكذا صححه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٥٢ رقم ٥٦٢) وانظر: عمدة القاري (٧/ ١٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٩) وانظر: شرح النووي (٤/ ٢٠٦) وفيض القدير (٤/ ٣٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٨) ومسلم (رقم ٧٥٩، ٧٦٠).

ركعة[١]، أو ثلاث عشرة ركعة. وكان يصلي الركعة في بعض الليالي بالبقرة وآل عمران والنساء، وأما بالنهار فلم يحفظ عنه شيء من ذلك، بل كان يخفف السنن.

وقال شيخنا ﷺ: الصواب: أنهما سواء، والقيام أفضل بذكره وهو القراءة، والسجود أفضل بهيأته، فهيئة السجود أفضل من هيئة القيام، وذكر القيام أفضل من ذكر السجود.

وهكذا كان هدي رسول الله ﷺ، فإنه كان إذا أطال القيام أطال الركوع والسجود، كما فعل في صلاة الكسوف وفي صلاة الليل، وكان إذا خفف القيام خفف الركوع والسجود، وكذلك كان يفعل في الفرض كما قاله البراء بن عازب: «كان قيامه وركوعه وسجوده واعتداله قريبًا من السواء»[٢] والله أعلم.

...[٣]عن أبي هريرة أنه قال: «والله لأنا أقربكم صلاةً برسول الله ﷺ» فكان أبو هريرة يقنت في الركعة الأخيرة من صلاة الصبح بعدما يقول: سمع الله لمن حمده، فيدعو للمؤمنين ويلعن الكفار[٤]، ولا ريب أن رسول الله ﷺ فعل ذلك ثم تركه، فأحب أبو هريرة أن يعلمهم أن مثل هذا القنوت سنة، وأن رسول الله ﷺ فعله.

وهذا رد على أهل الكوفة الذين يكرهون القنوت في الفجر مطلقًا، عند النوازل وغيرها، ويقولون: هو منسوخ، وفعله بدعة.

فأهل الحديث؛ متوسطون: بين هؤلاء، وبين من استحبه عند النوازل وغيرها، وهم أسعد بالحديث من الطائفتين، فإنهم يقنتون حيث قنت رسول الله ﷺ، ويتركونه حيث

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٤٧) ومسلم (رقم ٧٣٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٩).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨٠١) ومسلم (رقم ٤٧١) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٧٦) (٢/ ٢٨٨-٢٨٩) وشرح النووي (٤/ ١٨٨).
(٣) ١٤٣ زاد المعاد جـ ١.
(٤) أخرجه البيهقي في الكبرى (٢/ ١٩٨ رقم ٢٩١٠) وفي الصغرى (رقم ٤٥٤) والطبراني في مسند الشاميين مقتصرًا على قول أبي هريرة فقط (١/ ٨٧ رقم ١٢٢) وانظر: عون المعبود (٤/ ٢٢٣).

تركه، فيقتدون به في فعله وتركه، ويقولون: فعله سنة وتركه سنة.

ومع هذا فلا ينكرون على من داوم عليه، ولا يكرهون فعله، ولا يرونه بدعة، ولا فاعله مخالفًا للسنة، بل من قنت فقد أحسن، ومن تركه فقد أحسن، وركن الاعتدال محل للدعاء والثناء، وقد جمعهما النبي ﷺ فيه، ودعاء القنوت ثناء ودعاء، فهو أولى بهذا المحل.

وإذا جهر به الإمام أحيانًا ليعلم المأمومين فلا بأس بذلك، فقد جهر عمر بالاستفتاح ليعلم المؤمنين، وجر ابن عباس بقراءة الفاتحة في صلاة الجنازة ليعلمهم أنها سنة.

ومن هذا أيضًا جهر الإمام بالتأمين، وهذا من الاختلاف المباح الذي لا يعنف فيه من فعله ولا من تركه، وهذا كرفع اليدين في الصلاة وتركه، وكالخلاف في أنواع التشهدات وأنواع الأذان والإقامة، وأنواع النسك: من الإفراد، والقران، والتمتع، وليس مقصدنا إلا ذكر هديه ﷺ الذي كان يفعله هو: فإنه قبلة القصد، وإليه التوجه في هذا الكتاب، وعليه مدار التفتيش والطلب، وهذا شيء والجائز الذي لا ينكر فعله وتركه شيء.

فنحن لم نتعرض في هذا الكتاب لما يجوز ولما لا يجوز، وإنما مقصودنا فيه هدي النبي ﷺ، الذي كان يختاره لنفسه، فإنه أكمل الهدي وأفضله، فإذا قلنا: لم يكن من هديه المداومة على القنوت في الفجر، ولا الجهر بالبسملة، لم يدل ذلك على كراهية غيره، ولا أنه بدعة، ولكن هديه ﷺ أكمل الهدي وأفضله، والله المستعان.

...[1]العزة يراد بها ثلاثة معان: عزة القوة، وعزة الامتناع، وعزة القهر، والرب تبارك وتعالى له العزة التامة بالاعتبارات الثلاث.

ويقال من الأول: عَزَّ يَعَزُّ ـ بفتح العين ـ في المستقبل.

ومن الثاني: عَزَّ يَعِزُّ ـ بكسرها.

---

(١) ٢٥٧ مدارج جـ٣.

ومن الثالث: عَزَّ يعُزُّ ـ بضمها ـ أعطوا أقوى الحركات لأقوى المعاني، وأخفها لأخفها، وأوسطها لأوسطها.

وهذه «العزة» مستلزمة للوحدانية؛ إذ الشركة تنقص العزة، ومستلزمة لصفات الكمال؛ لأن الشركة تنافي كمال العزة، ومستلزمة لنفي أضدادها، ومستلزمة لنفي مماثلة غيره له في شيء منها.

فالروح تعاين ـ بقوة معرفتها وإيمانها ـ بهاء العزة وجلالها وعظمتها، وهذه المعاينة هي نتيجة العقيدة الصحيحة المطابقة للحق في نفس الأمر، المتلقاة من مشكاة الوحي، فلا يطمع فيها واقف مع أقيسة المتفلسفين، وجدل المتكلمين، وخيالات المتصوفين.

***

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾.

[(١)]من منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، منزلة «السكينة»، هذه المنزلة من منازل المواهب، لا من منازل المكاسب.

وقد ذكر الله سبحانه «السكينة» في كتابه في ستة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

الثاني: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦].

الثالث: قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

الرابع: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ

---

(١) ٥٠٢ مدارج جـ٢.

إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ [الفتح: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

السادس: قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٦]. الآية.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إذا اشتدت عليه الأمور: قرأ آيات السكينة.

وسمعته يقول في واقعة عظيمة جرت له في مرضه، تعجز العقول عن حملها ـ من محاربة أرواح شيطانية، ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة ـ قال: فلما اشتد عليَّ الأمر، قلت: لأقاربي ومن حولي: اقرءوا آيات السكينة، قال: ثم أقلع عني ذلك الحال، وجلست وما بي قلبة.

وقد جربت أنا أيضًا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه، فرأيت لها تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطمأنينته.

وأصل «السكينة» هي الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده، عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب، كيوم الهجرة، إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رؤوسهم، لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما. وكيوم حُنين، حين ولوا مدبرين من شدة بأس الكفار، لا يلوي أحد منهم على أحد. وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس.

وحسبك بضعف عمر ﷺ عن حملها ـ وهو عمر ـ حتى ثبته الله بالصديق ﷺ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة، إلا التي في سورة البقرة[١].

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق، حتى وارى التراب جلدة بطنه، وهو يرتجز بكلمة عبد الله بن رواحة ﷺ:

لا هُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا[٢]

وفي صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: «إني باعث نبيًّا أميًّا، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صخَّاب في الأسواق، ولا متزيِّن بالفحش، ولا قوَّال للخنا، أسدده لكل جميل، وأهب له كل خلق كريم. ثم أجعل السكينة لباسه، والبرَّ شِعاره، والتقوى ضميره، والحكمة مقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه»[٣].

قال صاحب المنازل: «السكينة اسم لثلاثة أشياء، أولها: سكينة بني إسرائيل التي أعطوها في التابوت، قال أهل التفسير: هي ريح هفافة،وذكروا صفتها».

قلت: اختلفوا: هل هي عين قائمة بنفسها، أو معنى؟ على قولين:

أحدهما: أنها عين، ثم اختلف أصحاب هذا القول في صفتها: فروي عن علي بن أبي طالب ﷺ: «أنها ريح هفافة، لها رأسان ووجه: كوجه الإنسان»[٤].

---

(١) انظر: عمدة القاري (١٩/ ١٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٣٧) ومسلم (رقم ١٨٠٣) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٠١، ٤٦٥) (١٠/ ٥٤١-٥٤٣) وشرح النووي (١٢/ ١٦٦).

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٨٠) إلى ابن أبي حاتم وأبي نعيم في الدلائل عن وهب بن منبه ﷺ قال: أوحى الله تعالى إلى شعيب، وذكره مطولًا، وانظر: تفسير الطبري (١٥/ ٢٦) وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٠-٣٠١).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٦١١) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٦٨ رقم ٢٤٧٤) والحاكم =

ويروى عن مجاهد: إنها صورة هِرَّة لها جناحان، وعينان لهما شعاع، وجناحان من زمرد وزبرجد، فإذا سمعوا صوتها أيقنوا بالنصر.

وعن ابن عباس: هي طست من ذهب من الجنة، كان يغسل فيه قلوب الأنبياء(١).

وعن وهب بن منبه: هي روح من روح الله تتكلم، إذا اختلفوا في شيء أخبرتهم ببيان ما يريدون(٢).

والثاني: أنها معنى، ويكون معنى قوله: ﴿ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٨] أي: ومجيئه إليكم: سكينة لكم وطمأنينة.

وعلى الأول: يكون المعنى: إن السكينة في نفس التابوت، ويؤيده عطف قوله: ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ ﴾ قال عطاء بن أبي رباح: ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ ﴾: هي ما تعرفون من الآيات، فتسكنون إليها، وقال قتادة، والكلبي: هي من السكون، أي طمأنينة من ربكم، ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا...(٣).

***

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾.

= (٢/ ٤٩٩ رقم ٣٧١٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٨) وعمدة القاري (١٦/ ١٤٦) والتمهيد (١٠/ ٣٣).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٦١٢) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٦٩ رقم ٢٤٧٨). وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٨) وعمدة القاري (٢٠/ ٣١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٦٩ رقم ٢٤٧٩) والطبراني في تفسيره (٢/ ٦١٢).

(٣) استمر المؤلف في بحث السكينة لمن أراده، وخلاصته أن السكينة الثانية: للمحدثين، والثالثة: التي نزلت على قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين.(ج).

[1]قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقول هود: ﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [هود:٨٨] ومعلوم أن الصبر والتوفيق فعل اختياري للعبد، وقد أخبر أنه به لا بالعبد، وهذا لا ينبغي أن يكون فعلًا للعبد حقيقة، ولهذا أمر به، وهو لا يأمر عبده بفعل نفسه سبحانه، وإنما يؤمر العبد بفعله هو، ومع هذا فليس فعله واقعًا، به وإنما هو بالخالق لكل شيء الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالتصبير منه سبحانه وهو فعله، والصبر هو القائم بالعبد وهو فعل العبد.

ولهذا أثنى على من يسأله أن يصبره فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١]، ففي الآية أربعة أدلة:

أحدها: قولهم: ﴿ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا ﴾. والصبر فعلهم الاختياري فسألوه ممن هو بيده ومشيئته وإذنه، إن شاء أعطاهموه، وإن شاء منعهموه.

الثاني: قولهم: ﴿ وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا ﴾ وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التثبيت فعله والثبات فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قولهم: ﴿ وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فسألوه النصر، وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب؛ فيحصل النصر.

وأيضًا: فإن كون الإنسان منصورًا على غيره: إما أن يكون بأفعال الجوارح وهو واقع بقدرة العبد واختياره، وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم، وذلك أيضًا فعل العبد، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده وأثنى على من طلبه منه.

وعند القدرية لا يدخل تحت مقدور الرب

الرابع: قوله: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ وإذنه هاهنا هو الإذن الكوني القدري أي:

---

(١) ٦٣ شفاء.

بمشيئته وقضائه وقدره، ليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر؛ فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني، فإن المأمور المكون لا يتخلف عنه البتة.

***

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾.

[1] في صحيح البخاري: عن أبي هريرة؛ أنه أتاه آتٍ يحثو من الصدقة، وكان قد جعله النبي ﷺ عليها ليلة بعد ليلة، فلما كان في الليلة الثالثة قال: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بهن - وكانوا أحرص شيءٍ على الخير - فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ...﴾ [البقرة: ٢٥٥] حتى تختمها؛ فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: **«صدقك وهو كذوب»**[2].

وقد روى الإمام أحمد نحو هذه القصة في «مسنده»؛ أنها جرت لأبي الدرداء، ورواها الطبراني في معجمه أنها جرت لأبي بن كعب.

---

(١) ٢٠٦ الوابل الصيب.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٣١١) وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٨٩) (٩/ ٥٦) وتفسير ابن كثير (١/ ٣٠٧).

[(١)]لما بعث الله رسول الله ﷺ؛ استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الأديان طوعًا واختياراً، ولم يكره أحدًا قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه؛ فلم يقاتله، ولم يكرهه على الدخول في دينه؛ امتثالاً لأمر ربه سبحانه، حيث يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وهذا نفي في معنى النهي، أي: لا تكرهوا أحدًا على الدين.

نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة؛ كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك؛ حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام.

والصحيح: أن الآية على عمومها في حق كل كافر، وهذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار، فلا يكرهون على الدخول في الدين؛ بل: إما أن يدخلوا في الدين، وإما أن يعطوا الجزية، كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ؛ تبين له أنه لم يكره أحدًا على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله، وأما من هادنه؛ فلم يقاتله ما دام مقيمًا على هدنته لم ينقض عهده؛ بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٧].

ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدءوه بالقتال؛ قاتلهم: فمنَّ على بعضهم، وأجلى بعضهم، وقتل بعضهم.

وكذلك لما هادن قريشًا عشر سنين؛ لم يبدأهم بقتال؛ حتى بدءوا هم بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك، كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق، ويوم بدر أيضًا هم جاءوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه؛ لم يقاتلوهم.

(١) ١١ هداية.

والمقصود: أنه ﷺ لم يكره أحدًا على الدخول في دينه البتة، وإنما دخل الناس في دينه اختياراً وطوعًا، فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته؛ لما تبين لهم الهدى وأنه رسول الله حقًا.

فهؤلاء أهل اليمن كانوا على دين اليهودية أو أكثرهم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله...**»[1]. وذكر الحديث، ثم دخلوا في الإسلام من غير رغبة ولا رهبة، وكذلك من أسلم من يهود المدينة، وهم جماعة كثيرون غير عبد الله بن سلام مذكورون في كتب السير والمغازي.

...[2]إن النور صفة كمال، وضده صفة نقص؛ ولهذا: سمى الله نفسه نورًا، وسمى كتابه نورًا، وجعل لأوليائه النور ولأعدائه الظلمة؛ فقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويجيء الأنبياء يوم القيامة وأممهم؛ لكل نبي نوران، ولكل واحد من أتباعهم نور، وتجيء هذه الأمة؛ لكل منهم نوران، ولنبيهم ﷺ في كل شعرة نور.

ولما كانت مادة الملائكة التي خلقوا منها نورًا؛ كانوا بالمحل الذي أحلهم الله به، وكانوا خيرًا محضًا.

والنور ظاهر وباطن فمتى حل ظاهره بجسم كساه؛ من: الجمال والجلال، والمهابة والضياء، والحسن والبهجة والسناء، بحسب ما كُسِيَ من النور، وزالت عنه الوحشة والثقل وكان: مفرحًا لرائيه، سارًّا لناظريه، وإذا حل باطنه بالباطن؛ اكتسى من الخير والعلم، والرحمة والهداية، والعفو والجود، والصبر والحلم، والتواضع والنصيحة؛ بحسب ذلك النور، فالنور في الحقيقة هو كمال العبد في الظاهر والباطن.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٥٨) ومسلم (رقم ١٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٦٣) وعمدة القاري (٩/ ٩٣).

(٢) ٢٠٢ مختصر الصواعق جـ٢.

ولما كان ليوسف الصديق من هذا النور النصيب الوافر؛ ظهر في جماله الظاهر والباطن؛ فكان على الصفة التي ذكرها الله في كتابه.

وكذلك رسول الله ﷺ لما كان نصيبه؛ من هذا النور أكمل نصيب؛ كان أجمل الخلق ظاهرًا وباطنًا؛ فكان وجهه يتلألأ تلألؤ القمر ليلة البدر، وكان كلامه كله نورًا، وعمله نورًا، ومدخله ومخرجه نورًا؛ فإذا تكلَّم رؤي النور يخرج من بين ثناياه، فكان أكمل الخلق في نور الظاهر والباطن، وكان نوره من أكبر آيات نبوته.

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه؛ فجئت حتى رأيته، فلما وقع بصري عليه؛ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «**يا أيها الناس، أفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»(١)، فاستدل على نبوته: بنور وجهه، ونور كلامه؛ بنوره المرئي، ونوره المسموع، كما قال حسان بن ثابت:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... لكانت بداهته تأتيك بالخبر(٢)

أي: ما يبدهك من وجهه ومنظره ونوره وبهائه، وأخذه الصرصري فقال:

لو لم يقل إني رسول أما ... شاهده في وجهه ينطق(٣)

فإذا كان هذا نور عبده، فكيف بنوره سبحانه؟!

...(٤)وقد سمى الله ﷻ «العلم» الذي بعث به رسوله: نورًا، وهدى، وحياة،

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ١٧٦ رقم ٧٢٧٧) وابن ماجه (رقم ٣٢٥١) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٥٠٢ رقم ٤٤٢٢) والدارمي (رقم ١٤٦٠) وابن أبي شيبة (٥/ ٢١٧ رقم ٢٥٣٨٩) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤١٨ رقم ٧١٩) وقال المنذري في الترغيب (١/ ٢٣٩ رقم ٩٠٧): رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤١١) وفيه: «بديهته» بدل «بداهته».

(٣) ذكر هذا البيت اليونيني: موسى بن محمد بن أبي الحسين أحمد اليونيني قطب الدين أبو الفتح في ذيل مرآة الزمان (١/ ٥٦٧).

(٤) ١٦٢ مدارج جـ٣.

وسمى ضده: ظلمة، وموتًا، وضلالاً، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

فجعله «روحًا» لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، و«نورًا» لما يحصل به من الهدى والرشاد. ومثل هذا النور في قلب المؤمن: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور: ٣٥]. ومثل حال من فقد هذا النور؛ بمن هو في ظلمات ﴿ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

***

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾.

(1)لما أجاب إبراهيم ﷺ المحاج له في الله: بأن الذي يحيي ويميت هو الله؛ أخذ عدو الله في المغالطة والمعارضة؛ بأنه يحيي ويميت: بأنه يقتل من يريد، ويستبقي من يريد، فقد أحيا هذا وأمات هذا، فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة أن يتصرف في حركة الشمس، من غير الجهة التي يأتي الله بها منها بزعمه، فإنه ادعى أنه يساوي الله في الإحياء والإماتة، فإن كان صادقًا؛ فليتصرف في الشمس تصرفًا تصح به دعواه، وليس هذا انتقالاً من حجة إلى حجة أوضح منها، كما زعم بعض النظار، وإنما هو إلزام للمدعي في طرد حجته إن كانت صحيحة.

...(2)طلب إبراهيم الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ذلك من ربه، إذ قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فطلب إبراهيم: أن يكون اليقين عيانًا، والمعلوم مشاهدًا، وهذا المعنى الذي عبَّر عنه

---

(١) ١٠٩ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) ٤٧١ مدارج جـ١.

النبي ﷺ بالشك في قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»[1]، حيث قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وهو ﷺ لم يشك ولا إبراهيم، حاشاهما من ذلك، وإنما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة.

هذا أحد الأقوال في الحديث.

وفيه قول ثان: أنه على وجه النفي أي: لم يشك إبراهيم؛ حيث قال ما قال لم نشك نحن، وهذا القول صحيح أيضًا، أي: لو كان ما طلبه للشك لكنا نحن أحق به منه، لكن لم يطلب ما طلب شكًا، وإنما طلب ما طلبه طمأنينة...

...[2]إبراهيم ﷺ طلب الانتقال من الإيمان بالعلم بإحياء الله الموتى؛ إلى رؤية تحقيقه عيانًا، فطلب ـ بعد حصول العلم الذهني ـ تحقيق الوجود الخارجي، فإن ذلك أبلغ في طمأنينة القلب.

ولما كان بين «العلم» و«العيان» منزلة أخرى؛ قال النبي ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» إذ قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وإبراهيم لم يشك ﷺ، ورسول الله ﷺ لم يشك؛ ولكن أوقع اسم «الشك» على المرتبة العلمية باعتبار التفاوت الذي بينها وبين مرتبة العيان في الخارج، وباعتبار هذه المرتبة سمي العلم اليقيني ـ قبل مشاهدة معلومه ـ ظنًّا، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهذا الظن علم جازم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] لكنْ بين الخبر والعيان فرق.

وفي المسند مرفوعًا: «ليس الخبر كالعيان»[3] ولهذا لما أخبر الله موسى: أنه قد

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٧٢) ومسلم (رقم ١٥١) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤١١-٤١٢) وشرح النووي (٢/ ١٨٣).

(٢) ٣٨٨ مدارج جـ٣.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٥/ ٢٠٢ رقم ١٨٢٨) والحاكم (٢/ ٣٥١ رقم ٣٢٥٠) وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٩٦ رقم ٦٢١٣) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٠٨٧) والطبراني في الأوسط (١/ ١٢ رقم =

فتن قومه، وأن السامري أضلهم؛ لم يحصل له من الغضب والكيفية وإلقاء الألواح، ما حصل له عند مشاهدة ذلك...

...[(١)]فإن قلت: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل؟...

قيل: هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق، واجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء، وهذا التخلف له عدة أسباب: أحدها: ضعف العلم ونقصان اليقين، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها.

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه: أن يريه إحياء الموتى عيانًا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك: ليزداد طمأنينة ويصير المعلوم غيبًا شهادة.

وقد روى أحمد في مسنده، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس الخبر كالمعاينة**».

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم: عدم استحضاره، أو غيبته عن القلب كثيرًا من أوقاته أو أكثرها؛ لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلى ذلك: تقاضي الطبع، وغلبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورخص التأويل، وإلف العوائد؛ فهناك لا يمسك الإيمان في القلب؛ إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا. وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب.

وجماع هذه الأسباب؛ يرجع إلى ضعف: البصيرة، والصبر، ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين، وجعلهم أئمة في الدين فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

٢٥) (٧/ ٩٠ رقم ٦٩٤٣) وأحمد (١/ ٢١٥، ٢٧١) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٠١ رقم ١١٨٢) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٥٣): رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح، وصححه ابن حبان.

(١) ٤٥ الجواب.

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ
سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ
وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ
حَلِيمٞ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ
رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ
فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ
﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ
بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ
نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾.

(١)شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله؛ سواء كان المراد به: الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر، بمن بذر بذرًا فأنبتت كل حبةٍ منه سبع سنابل، اشتملت كل سنبلة على مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك؛ بحسب حال المنفق، وإيمانه، وإخلاصه، وإحسانه، ونفع نفقته، وقدرها، ووقوعها موقعها، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من: الإيمان، والإخلاص، والتثبيت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلبٍ ثابت قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه، غيرُ جزع ولا هلع ولا متبعه نفسه ترجف يده وفؤاده، ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه بمواقعه، وبحسب

(١) ١٨٣ أعلام جـ١.

طيب المنفق وزكاته.

وتحت هذا المثل من الفقه؛ أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره باذرٌ ماله في أرضٍ زكية، فمغله بحسب بذره، وطيب أرضه، وتعاهد البذر بالسقي، ونفي الدَّغَل والنبات الغريب عنه، فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم تحرق الزرع نار ولا لحقته جائحة؛ جاء أمثال الجبال، وكان مثله كمثل جنة بربوةٍ، وهي المكان المرتفع، الذي تكون الجنة فيه نصب الشمس والرياح، فتتربى الأشجار هناك أتم تربية، فنزل عليها من السماء مطرٌ عظيم القطر متتابع؛ فرواها ونماها؛ فآتت أكلها ضعفي ما يؤتيه غيرها؛ بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها وابل فطلٌّ: مطر صغير القطر، يكفيها لكرم منبتها، يزكو على الطل وينمى عليه.

مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل؛ إشارة إلى نوعي الإنفاق: الكثير، والقليل.

فمن الناس من يكون إنفاقه وابلاً، ومنهم من يكون إنفاقه طَلًّا، والله لا يضيع مثقال ذرة.

فإن عرض لهذا العامل ما يغرق أعماله ويبطل حسناته؛ كان بمنزلة رجل له جنة من نخيل وأعناب، تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كل الثمرات، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء، فأصابها إعصار فيه نار؛ فاحترقت.

فإذا كان استيفاء الأعمال وإحراز الأجور؛ وجد هذا العامل عمله قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة، فحسرته حينئذ أشد من حسرة هذا على جنته.

فهذا مثل ضربه الله سبحانه في الحسرة لسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظم قدرها ومنفعتها، والذي ذهبت عنه قد أصابه الكبرُ والضعف؛ فهو أحوج ما كان إلى نعمته، ومع هذا فله ذرية ضعفاء لا يقدرون على نفعه والقيام بمصالحه، بل هم في عياله فحاجته إلى نعمته حينئذٍ أشدّ ما كانت لضعفه وضعف ذريته، فكيف يكون حال هذا إذا كان له بستان عظيم فيه من جميع الفواكه والثمر، وسلطان ثمره أجل الفواكه وأنفعها، وهو ثمر النخيل والأعناب، فمغله يقوم بكفايته وكفاية ذريته، فأصبح يومًا

وقد وجده محترقًا كله كالصريم؟ فأي حسرةٍ أعظم من حسرته؟

قال ابن عباس: هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره[١].

قال مجاهد: هذا مثل المفرط في طاعة الله، حتى يموت[٢].

وقال السدي: هذا مثل المرائي في نفقته الذي ينفق لغير الله، ينقطع عنه نفعها، أحوج ما يكون إليه.

وسأل عمر بن الخطاب الصحابة يومًا عن هذه الآية، فقالوا: الله أعلم، فغضب عمر، وقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال: قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك، قال: ضرب مثلاً لعمل، قال: لأي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل بالحسنات، ثم بعث الله له الشيطان؛ فعمل بالمعاصي؛ حتى أغرق أعماله كلها[٣].

قال الحسن: هذا مثلٌ قلَّ والله من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه؛ أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم ـ والله ـ أفقر ما يكون إلى عمله؛ إذا انقطعت عنه الدنيا.

فإن عرض لهذه الأعمال من الصدقات ما يبطلها من المن والأذى والرياء؛ فالرياء يمنع انعقادها سببًا للثواب، والمن والأذى يبطل الثواب الذي كان سببًا له، فمثل صاحبها وبطلان عمله كمثل صفون ـ وهو الحجر الأملس ـ عليه تراب فأصابه وابلٌ ـ وهو المطر الشديد ـ فتركه صلدًا لا شيء عليه.

وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ، وانطباقًا على أجزاء الممثل به؛ تعرف عظمة القرآن وجلالته، فإن الحجر في مقابلة قلب هذا المرائي والمانّ والمؤذي، فقلبه في قسوته عن

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٧٦) وتفسير السيوطي (٢/ ٤٨).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ١٥٦٧) وانظر: تفسير الطبري (٣/ ٧٥) وتفسير السيوطي (٢/ ٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٣٨) وانظر: عمدة القاري (١٨/ ١٢٩).

الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر، والعمل الذي عمله لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر؛ فقسوة ما تحته وصلابته تمنعه من النبات والثبات عند نزول الوابل؛ فليس له مادة متصلة بالذي يقبل الماء وينبت الكلأ، وكذلك قلب المرائي ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهي والقضاء والقدر، فإذا نزل عليه وابلُ الوحي؛ انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه؛ فبرز ما تحته حجرًا صلدًا لا نبات فيه، وهذا مثلٌ ضربه الله سبحانه لعمل المرائي ونفقته، لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء منه؛ أحوج ما كان إليه، وبالله التوفيق.

...[1]قوله تعالى ممثلاً لقبح الرياء المبطل للعمل، والمنِّ والأذى المبطل للصدقات: ﴿صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ غبار قد لصق به «فأصابه مطر» شديد فأزال ما عليه من التراب ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أملس لا شيء عليه، وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه، فـ «الصفوان» وهو الحجر؛ كقلب المرائي والمان والمؤذي، و«التراب» الذي لصق به؛ ما تعلق به من أثر عمله وصدقته، و«الوابل» المطر الذي به حياة الأرض، فإذا صادفها لينة قابلة، نبت فيها الكلأ، وإذا صادف الصخور والحجارة الصم: لم ينبت فيها شيئًا، فجاء هذا الوابل إلى التراب الذي على الحجر، فصادفه رقيقًا، فأزاله؛ فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات.

وهذا يدل على أن قبح «المن، والأذى، والرياء» مستقر في العقول؛ فلذلك نبهها على شبهه ومثاله.

وعكس ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥] فإن كانت هذه الجنة، التي بموضع عال؛ حيث لا تحجب عنها الشمس والرياح، وقد أصابها مطر شديد؛ فأخرجت ثمرتها

(١) ٢٤٠ مدارج جـ١.

ضعفي ما يخرج غيرها؛ إن كانت مستحسنة في العقل والحس، فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله، لا لجزاء من الخلق، ولا لشكور، بل بثباتٍ من نفسه، وقوة على الإنفاق، لا يخرج النفقة وقلبه يرجف على خروجها، ويداه ترتعشان، ويضعف قلبه، ويخور عند الإنفاق، بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة.

ولما كان الناس في الإنفاق على هذين القسمين؛ كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتثبيت: كمثل الوابل، ومثل نفقة الآخر كمثل الطل، وهو المطر الضعيف، فهذا بحسب كثرة الإنفاق وقلته، وكمال الإخلاص والقوة واليقين فيه وضعفه، أفلا تراه سبحانه نبه العقول على ما فيها من استحسان هذا، واستقباح فعل الأول؟

وكذلك قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

فنبه سبحانه العقول على ما فيها من قبح الأعمال السيئة، التي تحبط ثواب الحسنات، وشبهها بحال شيخ كبير، له ذرية ضعفاء، بحيث يخشى عليهم الضيعة وعلى نفسه، وله بستان هو مادة عيشه وعيش ذريته، فيه النخيل والأعناب ومن كل الثمرات فأرجى وأفقر ما هو له وأسر ما كان به؛ إذ أصابه نار شديد فأحرقته.

فنبه العقول على أن قبح المعاصي التي تغرق الطاعات كقبح هذه الحال، وبهذا فسرها عمر وابن عباس ﷺ، لرجل غني عمل بطاعة الله زمانًا، فبعث الله له الشيطان؛ فعمل بالمعاصي؛ حتى أغرق أعماله، ذكره البخاري في صحيحه.

أفلا تراه نبه العقول على قبح المعصية بعد الطاعة، وضرب لقبحها هذا المثل.

***

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)﴾.

[(١)] *المقصود في الزكاة أمور عديدة:*

منها: سد خلة الفقير. ومنها: إقامة عبودية الله بفعل نفس ما أمر به. ومنها: شكر نعمته عليه من المال. ومنها: إحراز المال وحفظه بإخراج هذا المقدار منه. ومنها: المواساة بهذا المقدار؛ لما علم الله فيه من مصلحة رب المال ومصلحة الآخذ. ومنها: التعبد: بالوقوف عند حدود الله، وأن لا ينقص منها ولا يغير.

وهذه المقاصد إن لم تكن أعظم من مقصود إراقة الدم في الأضحية؛ فليست بدونه، فكيف يجوز إلغاؤها واعتبار مجرد إراقة الدم؟

ثم إن هذا الفرق ينعكس عليكم من وجه آخر، وهو أن مقصود الشارع من إراقة دم الهدي والأضحية؛ التقرب إلى الله سبحانه بأجل ما يقدر عليه من ذلك النوع، وأعلاه، وأغلاه ثمنًا، وأنفسه عند أهله، فإنه لن يناله سبحانه لحومها ولا دماؤها، وإنما يناله تقوى العبد منه، ومحبته له، وإيثاره بالتقرب إليه: بأحب شيء إلى العبد، وآثره عنده، وأنفسه لديه، كما يتقرب المحب إلى محبوبه: بأنفس ما يقدر عليه، وأفضله عنده.

ولهذا فطر الله العباد على أن من تقرب إلى محبوبه بأفضل هدية يقدر عليها وأجلها وأعلاها، كان أحظى لديه، وأحب إليه ممن تقرب إليه بألف واحدٍ رديء من ذلك النوع.

وقد نبه سبحانه على هذا بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾[البقرة: ٢٦٧].

وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾[البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾[الإنسان: ٨]،

(١) ٣٠٠ أعلام جـ١.

وسئل النبي ﷺ عن أفضل الرقاب فقال: «**أغلاها ثمنًا، وأنفسها عند أهلها**»[١].

ونذر عمر أن ينحر نجيبة فأعطى با نجيبتين، فسأل النبي ﷺ أن يأخذهما بها وينحرهما، فقال: «**لا، بل انحرها إياها**»[٢] فاعتبر في الأضحية عينَ المنذور دون ما يقوم مقامه، وإلا كان أكثر منه، فلأن يعتبر في الزكاة نفس الواجب، دون ما يقوم مقامه، ولو كان أكثر منه؛ أولى وأحرى...

[٣]وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧] يقول سبحانه: إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة ولا يوجب له حمدًا؛ بل هو الغني بنفسه، الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته، وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائدته عليكم.

ومن المتعين على من لم يباشر قلبه؛ حلاوة هذا الخطاب، وجلالته، ولطف موقعه، وجذبه للقلوب والأرواح، ومخالطته لها؛ أن يعالج قلبه بالتقوى، وأن يستفرغ منه المواد الفاسدة التي حالت بينه وبين حظه من ذلك، ويتعرض إلى الأسباب التي يناله بها، من صدق الرغبة واللجأ إلى الله أن: يحيي قلبه، ويزكيه، ويجعل فيه الإيمان والحكمة.

فالقلب الميت لا يذوق طعم الإيمان ولا يجد حلاوته، ولا يتمتع بالحياة الطيبة، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ومن أراد مطالعة أصول النعم؛ فليسم سرح الذكر في رياض القرآن. وليتأمل: ما عدد الله فيه من نعمه، وتعرف بها إلى عباده من أول القرآن إلى آخره؛ حين خلق أهل النار وابتلاهم: بإبليس وحزبه،وتسليط أعدائهم عليهم، وامتحانهم بالشهوات

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥١٨) ومسلم (رقم ٨٤) وانظر: عمدة القاري (١٣/ ٧٩-٨٠).

(٢) انظر: عون المعبود (٥/ ١٢٢).

(٣) ١٣٥ طريق الهجرتين.

والإرادات والهوىٰ؛ لتعظم النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربته.

فلله علىٰ أوليائه وعباده؛ أتم نعمة وأكملها في كل ما خلقه من: محبوب ومكروه، ونعمة ومحنة، وفي كل ما أحدثه في الأرض من وقائعه بأعدائه، وإكرامه لأوليائه، وفي كل ما قضاه وقدره.

وتفصيل ذلك لا تفي به أقلام الدنيا وأوراقها ولا قوىٰ العباد، وإنما هو التنبيه والإشارة، و من استقرأ الأسماء الحسنىٰ؛ وجدها مدائح وثناء؛ تقصر بلاغات الواصفين عن بلوغ كنهها، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها، ومع ذلك فلله سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناء: لم تتحرك بها الخواطر، ولا هجست في الضمائر، ولا لاحت لمتوسم، ولا سنحت في فكر.

ففي دعاء أعرف الخلق بربه وأعلمهم بأسمائه وصفاته ومحامده: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي**»(١).

وفي الصحيح عنه ﷺ في حديث الشفاعة لما يسجد بين يدي ربه قال: «**فيفتح عليَّ من محامده بشيء لا أحسنه الآن**»(٢).

وكان يقول في سجوده: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك**»(٣) فلا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه البتة، وله أسماء وأوصاف وحمد وثناء لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) والحاكم (١/ ٦٩٠ رقم ١٨٧٧) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩ رقم ١٠٣٥٢) وأحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٢٠) وعمدة القاري (١٤/ ٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: عمدة القاري (٧/ ١٩) والتمهيد (٢٣/ ٣٤٨-٣٥٠).

مرسل، ونسبة ما يعلم العباد من ذلك إلىٰ ما لا يعلمونه كنقرة عصفور في بحر.

...[1] والفرق بين الخيل والإبل؛ أن الخيل تراد لغير ما تراد له الإبل...

وللشارع قصد أكيد في: اقتنائها، وحفظها، والقيام عليها، وترغيب النفوس في ذلك بكل طرق، ولذلك عفا عن أخذ الصدقة منها؛ ليكون ذلك أرغب للنفوس فيما يحبه الله ورسوله من اقتنائها، ورباطها، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فرباط الخيل من جنس آلات السلاح والحرب، فلو كان عند الرجل منها ما عساه أن يكون ولم يكن للتجارة؛ لم يكن عليه فيه زكاة، بخلاف ما أعد للنفقة؛ فإن الرجل إذا ملك منه نصابًا ففيه الزكاة، وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ هذا بعينه في قوله: «قد عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق، فهاتوا صدقة الرقة»[2]، أفلا تراه كيف فرق بين: ما أعد للإنفاق، وبين ما أعد: لإعلاء كلمة الله، ونصر دينه، وجهاد أعدائه؟ فهو من جنس السيوف والرماح والسهام، وإسقاط الزكاة في هذا الجنس من محاسن الشريعة وكمالها.

وأما قوله: «أوجب في الذهب والفضة والتجارة ربع العشر، وفي الزروع والثمار نصف العشر أو العشر، وفي المعدن الخمس» فهذا أيضًا من كمال الشريعة ومراعاتها للمصالح؛ فإن الشارع أوجب الزكاة: مواساة للفقراء، وطهرةً للمال، وعبودية للرب، وتقربًا إليه؛ بإخراج محبوب العبد له، وإيثار مرضاته.

ثم فرضها علىٰ أكمل الوجوه، وأنفعها للمساكين، وأرفقها بأرباب الأموال، ولم يفرضها في كل مال، بل فرضها في الأموال التي تحتمل المواساة، ويكثر فيها الربح والدر والنسل، ولم يفرضها فيما يحتاج العبد إليه من ماله، ولا غِنىٰ له عنه: كعبيده،

---

(١) ٨٩ أعلام جـ٢.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٦٢٠) والدارمي (رقم ١٦٢٩) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٩٤٣ رقم ١٣٣٢-١٣٣٥) وأبو يعلى (١/ ٤٢٣ رقم ٥٦١) وأحمد (١/ ١٢١) ونقل الترمذي تصحيح البخاري. ونقل العيني في عمدة القاري تصحيح ابن حزم (٨/ ٢٦٠).

وإمائه، ومركوبه، وداره، وثيابه، وسلاحه، بل فرضها في أربعة أجناس من المال: المواشي، والزروع والثمار، والذهب والفضة، وعروض التجارة؛ فإن هذه أكثر أموال الناس الدائرة بينهم، وعامة تصرفهم فيها، وهي التي تحتمل المواساة، دون ما أسقط الزكاة فيه، ثم قسم كل جنس من هذه الأجناس؛ بحسب حاله وإعداده للنماء: إلىٰ ما فيه الزكاة، وإلىٰ ما لا زكاة فيه.

فقسَّم المواشي إلىٰ قسمين:

سائمة ترعي بغير كلفة ولا مشقة ولا خسارة؛ فالنعمة فيها كاملة والمنة بها وافرة، والكلفة فيها يسيرة، والنماء فيها كثير؛ فخصَّ هذا النوع بالزكاة.

وإلىٰ معلوفة بالثمن أو عاملة في مصالح أربابها في دواليبهم وحروثهم وحمل أمتعتهم؛ فلم يجعل في ذلك زكاة؛ لكلفة المعلوفة وحاجة المالكين إلىٰ العوامل؛ فهي: كثيابهم، وعبيدهم، وإمائهم، وأمتعتهم.

ثم قسَّم الزروع والثمار إلىٰ قسمين:

قسمٌ يجري مجرىٰ السائمة من بهيمة الأنعام، في سقيه من ماء السماء، بغير كلفة، ولا مشقة؛ فأوجب فيه العشر.

وقسمٌ يُسْقَىٰ بكلفة ومشقة؛ ولكن كلفته دون كلفة المعلوفة بكثير؛ إذ تلك تحتاج إلىٰ العلف كل يوم؛ فكان مرتبة بين السائمة والمعلوفة، فلم يوجب فيه زكاة ما شرب بنفسه، ولم يسقط زكاته جملة واحدة، فأوجب فيه نصف العشر.

ثم قسَّم الذهب والفضة إلىٰ قسمين:

أحدهما: ما هو معد للثمنية والتجارة به، والتكسب؛ ففيه الزكاة كالنقدين والسبائك ونحوها.

وإلىٰ ما هو معد لانتفاع دون الربح والتجارة: كحلية المرأة، وآلات السلاح التي يجوز استعمال مثلها فلا زكاة فيه.

ثم قسَّم العروض إلىٰ قسمين:

قسمٌ أعد للتجارة؛ ففيه الزكاة.

وقسمٌ أعد للقنية والاستعمال، فهو مصروف عن جهة النماء؛ فلا زكاة فيه.

ثم لما كان حصول النماء والربح بالتجارة؛ من أشق الأشياء وأكثرها معاناة وعملاً؛ خففها بأن جعل فيها ربع العشر، ولما كان الربح والنماء بالزروع والثمار التي تسقىٰ بالكلفة؛ أقل كلفة والعمل أيسر ولا يكون في كل السنة؛ جعله ضعفه، وهو نصف العشر، ولما كان التعب والعمل فيما يشرب بنفسه؛ أقل والمؤنة أيسر؛ جعله ضعف ذلك وهو العشر، واكتفىٰ فيه بزكاة عامة خاصة؛ فلو أقام عنده بعد ذلك عدة أحوال لغير التجارة؛ لم يكن فيه زكاة؛ لأنه قد انقطع نماؤه وزيادته، بخلاف الماشية، وبخلاف ما لو أعد للتجارة؛ فإنه عرضة للنماء.

ثم لما كان الركاز: مالاً مجموعًا محصلاً، وكلفة تحصيله أقل من غيره، ولم يحتج إلىٰ أكثر من استخراجه؛ كان الواجب فيه ضعف ذلك وهو الخمس.

فانظر إلىٰ تناسب هذه الشريعة الكاملة، التي بهر العقولَ حسنها وكمالها، وشهدت الفطر بحكمتها، وأنه لم يطرق العالم شريعة أفضل منها، ولو اجتمعت عقول العقلاء وفطر الألباء واقترحت شيئًا يكون أحسن مقترح؛ لم يصل اقتراحها إلىٰ ما جاءت به.

ولما لم يكن كل مالٍ يحتمل المواساة قدَّر الشارع لما يحتمل المواساة نُصُبًا مقدرة، لا تجب الزكاة في أقل منها.

ثم لما كانت تلك النصب تنقسم: إلىٰ ما لا يجحف المواساة ببعضه؛ أوجب الزكاة منها، وإلىٰ ما يجحف المواساة ببعضه؛ فجعل الواجب من غيره، كما دون الخمس والعشرين من الإبل.

ثم لما كانت المواساة لا تحتمل كل يوم ولا كل شهر؛ إذ فيه إجحاف بأرباب الأموال؛ جعلها كل عام مرة، كما جعل الصيام كذلك.

ولما كانت الصلاة لا يشق فعلها كل يوم، وظَّفها كل يوم وليلة.

ولما كان الحج يشق تكرر وجوبه كل عام؛ جعله وظيفة العمر.

وإذا تأمل العاقل مقدار ما أوجبه الشارع في الزكاة؛ وجده: مما لا يضر المخرج فقده، وينفع الفقير أخذه، ورآه قد راعىٰ فيه حال صاحب المال وجانبه حق الرعاية، ونفع الآخذ به، وقصد إلىٰ كل جنس من أجناس الأموال؛ فأوجب الزكاة في أعلاه وأشرفه.

فأوجب زكاة العين في الذهب والورق؛ دون الحديد والرصاص والنحاس ونحوها. وأوجب زكاة السائمة في الإبل والبقر والغنم؛ دون الخيل والبغال والحمير، ودون ما يقل اقتناؤه، كالصيود علىٰ اختلاف أنواعها، ودون الطير كله. وأوجب زكاة الخارج من الأرض في أشرفه، وهو الحبوب والثمار؛ دون البقول والفواكه والمقائي والمباطخ والأنوار. وغير خافٍ تميز ما أوجب فيه الزكاة، عما لم يوجبها في: جنسه، ووصفه، ونفعه، وشدة الحاجة إليه، وكثرة وجوده، وأنه جارٍ مجرىٰ الأموال لما عداه من أجناس الأموال؛ بحيث لو فقد لأضرَّ فقده بالناس، وتعطل عليهم كثير من مصالحهم، بخلاف ما لم يوجب فيه الزكاة؛ فإنه جارٍ مجرىٰ الفضلات والتتمات التي لو فقدت لم يعظم الضرر بفقدها.

وكذلك راعىٰ في المستحقين لها أمرين مهمين: أحدهما: حاجة الآخذ.

والثاني: نفعه؛ فجعل المستحقين لها نوعين: نوعًا يأخذ لحاجته، ونوعًا يأخذ لنفعه، وحرمها علىٰ من عداهما.

***

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ ﴾.

[(1)]قيل: ﴿ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ ﴾ يخوفكم به، يقول: إن أنفقتم أموالكم افتقرتم ﴿ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾، قالوا: هي البخل في هذا الموضع خاصة، ويذكر عن مقاتل والكلبي:

---

(١) ١٠٧ إغاثة جـ ٢.

«كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلا في هذا الموضع، فإنها البخل».

والصواب: أن الفحشاء على بابها، وهي كل فاحشة، فهي صفة لموصوف محذوف، فحذف موصوفها إرادة للعموم: أي بالفعلة الفحشاء والخلة الفحشاء، ومن جملتها البخل، فذكر سبحانه وعد الشيطان وأمره: يأمرهم بالشر، ويخوفهم من فعل الخير، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان؛ فإنه إذا خوفه من فعل الخير؛ تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزينها له؛ ارتكبها.

وسمى سبحانه تخويفه وعد الانتظار الذي خوفه إياه، كما ينتظر الموعود ما وعد به. ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهي المغفرة والفضل، فالمغفرة؛ وقاية الشر، والفضل؛ إعطاء الخير.

وفي الحديث المشهور: «**إن للملك بقلب ابن آدم لمة، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيب بالوعد**»، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ...﴾ الآية[1].

فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره، وآخر بضده، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله، وآخر بضده، نستعيذ بالله تعالى من شر الشيطان.

***

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾.

[2]قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣]، وقال عن المسيح ﷺ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ

(١) أخرجه البزار (٥/ ٣٩٤ رقم (٢٠٢٧) وأحمد في الزهد (ص ١٥٧) والطبراني في الكبير (٩/ ١٠١ رقم ٨٥٣٢) والطبري في تفسيره (٣/ ٨٩) كلهم موقوفًا على عبد الله بن مسعود ﷺ بألفاظ متقاربة.

(٢) ٤٨٧ مدارج جـ٢.

وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

الحكمة في كتاب الله نوعان: مفردة، ومقترنة بالكتاب.

فالمفردة فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي علم القرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله»[(١)].

وقال الضحاك: هي القرآن والفهم فيه.

وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه، وفي رواية أخرىٰ عنه: هي الإصابة في القول والفعل، وقال النخعي: هي معاني الأشياء وفهمها.

وقال الحسن: الورع في دين الله، كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما «الحكمة» المقرونة بالكتاب: فهي السنة، كذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة.

وقيل: هي القضاء بالوحي، وتفسيرها بالسنة؛ أعم وأشهر.

وأحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد، ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل.

وهذا لا يكون إلا: بفهم القرآن، والفقه: في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان.

والحكمة حكمتان: علمية، وعملية.

فالعلمية: الاطلاع علىٰ بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها: خلقًا، وأمرًا، قدرًا، وشرعًا.

والعملية: كما قال صاحب المنازل: «وهي وضع الشيء في موضعه»...

...[(٢)] والله تعالىٰ أورث الحكمة آدم وبنيه، فالرجل الكامل؛ من له إرث كامل من

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٨٩) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٥٣١ رقم ٢٨٢٢) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٣).

(٢) ٤٧٩ مدارج جـ٢.

أبيه، ونصف الرجل ـ كالمرأة ـ له نصف ميراث، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى، وأكمل الخلق في هذا؛ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأكملهم؛ أولو العزم، وأكملهم؛ محمد ﷺ؛ ولهذا امتن الله ﷻ عليه، وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة. كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]. وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

فكل نظام الوجود؛ مرتبط بهذه الصفة، وكل خلل في الوجود، وفي العبد؛ فسببه؛ الإخلال بها، فأكمل الناس؛ أوفرهم منه نصيبًا، وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال؛ أقلهم منها ميراثًا.

ولها ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة.

وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة.

فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول، والله أعلم.

...[1]إنه سبحانه شهد لمن آتاه العلم بأنه آتاه خيرًا كثيرًا، فقال تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال ابن قتيبة والجمهور: الحكمة: إصابة الحق والعمل به، وهي: العلم النافع، والعمل الصالح.

إنه سبحانه عدد نعمه وفضله على رسوله، وجعل من أجلها: أن آتاه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].

إنه سبحانه ذكر عباده المؤمنين بهذه النعمة، وأمرهم: بشكرها، وأن يذكروه على إسدائها إليهم، فقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا

---

(١) ٥١ مفتاح جـ١.

وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

***

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾.

...[1]أي: الصدقات لهؤلاء، كان فقراء المهاجرين نحو أربعمائة، لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، فكانوا وقفًا على كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ، وهم أهل الصفة، هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله.

وقيل: هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله.

وقيل: حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله.

وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى؛ أحصروا عن الضرب في الأرض؛ لطلب المعاش؛ فلا يستطيعون ضربًا في الأرض.

والصحيح: أنهم ـ لفقرهم وعجزهم وضعفهم ـ لا يستطيعون ضربًا في الأرض، ولكمال عفتهم وصيانتهم؛ يحسبهم من لم يعرف حالهم؛ أغنياء.

والموضع الثاني: قوله تعالى: الآية ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ ...﴾ [التوبة: ٦٠].

والموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥].

فالصنف الأول: خواص الفقراء.

والثاني: فقراء المسلمين: خاصهم، وعامهم.

والثالث: الفقر العام لأهل الأرض كلهم: غنيهم وفقيرهم، مؤمنهم وكافرهم.

---

(١) ٤٣٨ مدارج جـ٢.

فالفقراء الموصوفون في الآية الأولى؛ يقابلهم: أصحاب الجدة، ومن ليس محصرًا في سبيل الله، ومن لا يكتم فقره تعففًا، فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني.

والصنف الثاني، يقابلهم: الأغنياء أهل الجدة، ويدخل فيهم المتعفف وغيره، والمحصر في سبيل الله وغيره.

والصنف الثالث؛ لا مقابل لهم، بل الله وحده الغني، وكل ما سواه فقير إليه.

...[1]قال: الشرط الثالث: الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح، وذلك لأن المسألة فيها ضرب من: الخصومة، والمنازعة والمحاربة، والرجوع عن مالك الضر والنفع؛ إلى من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا إلا بربه، وفيها الغيبة عن المعطي المانع.

والإلحاح ينافي حال الرضا ووصفه، وقد أثنى الله سبحانه على الذين لا يسألون الناس إلحافًا، فقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

فقالت طائفة: يسألون الناس ما تدعو حاجتهم إلى سؤاله، ولكن لا يلحفون، فنفى الله عنهم سؤال الإلحاف، لا مطلق السؤال.

قال ابن عباس: إذا كان عنده غداء؛ لم يسأل عشاء، وإذا كان عنده عشاء؛ لم يسأل غداء.

وقالت طائفة ـ منهم: الزجاج، والفراء وغيرهما ـ: بل الآية اقتضت ترك السؤال مطلقًا؛ لأنهم وصفوا بالتعفف، والمعرفة بسيماهم، دون الإفصاح بالمسألة؛ لأنهم لو أفصحوا بالسؤال؛ لم يحسبهم الجاهل أغنياء.

ثم اختلفوا في وجه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

فقال الزجاج: المعنى لا يكون منهم سؤال؛ فيقع إلحاف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨] أي: لا تكون شفاعة فتنفع، وكما في قوله

(١) ٢٣١ مدارج جـ٢.

تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] أي: لا يكون عدل فيقبل، ونظائره.

قال امرؤ القيس: على لاحبٍ لا يُهْتَدىٰ لمناره[١]

أي: ليس له منار يهتدىٰ به.

قال ابن الأنباري: وتأويل الآية: لا يسألون البتة فيخرجهم السؤال في بعض الأوقات إلى الإلحاف؛ فيجري هنا مجرىٰ قولك: فلان لا يرجىٰ خيره، أي: ليس له خير فيرجىٰ. وقال أبو علي: لم يثبت في هذه الآية مسألة منهم، لأن المعنىٰ: ليس منهم مسألة؛ فيكون منهم إلحاف، قال: ومثل ذلك قول الشاعر:

لا يُفزع الأرنب أهوالها ولا ترىٰ الضبَّ بها ينجحر[٢]

أي: ليس بها أرنب؛ فيفزع لهولها، ولا ضب فينجحر.

وقال الفراء: نفي الإلحاف عنهم، وهو يريد نفي جميع السؤال.

...[٣]فإن قيل: فما قولكم في نحو قوله تعالىٰ: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤] ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]؟

قلنا: هي متعلقة بمعنىٰ الإنقاذ والإخراج من الذنوب، فدخلت (من) لتؤذن بهذا

---

(١) هذا صدر بيت من بحر الطويل، وينسب إلى امرئ القيس الكندي أشهر شعراء العرب على الإطلاق قال الشعر وهو غلام وجعل يشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب. فبلغ ذلك أباه، فنهاه عن سيرته فلم ينته فأبعده إلى حضرموت موطن أبيه وعشيرته، فلما قُتِلَ أبوه قال وهو يشرب الخمر:

لا صحو اليوم ولا سكر غدًا اليوم خمر غدًا أمر

ونهض من غده فلم يزل حتى ثأر لأبيه من قاتليه بني أسد. مات سنة ٨٠ قبل الهجرة. وعجز البيت: * إذا سافه العود النباطي جرجرا * ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث (١/ ٤٨١) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦٧/ ٢٢٨) وابن منظور في لسان العرب (٩/ ١٦٥).

(٢) هذا البيت من بحر السريع، وينسب إلى عمرو بن أحمد الباهلي شاعر جاهلي مخضرم، أسلم وشارك في الفتوحات، مدح الخلفاء الراشدين وبعض الخلفاء الأمويين وكان من المطالبين بدم عثمان، وقد هجا في شعره يزيد بن معاوية وظل متخفيًا عنه حتى وفاته، ثم عاد وأصلح ما فسد بينه وبين بني أمية فمدح عبد الملك بن مروان، توفي سنة ٧٥هـ. وذكر البيت ابن فارس في الصاحبي في فقه اللغة.

(٣) ٥٨ بدائع جـ٢.

المعنى، ولكن لا يكون ذلك في القرآن؛ إلا حيث يذكر الفاعل والمفعول، الذي هو الذنب نحو قوله: ﴿ لَكُمْ ﴾ لأنه المنقذ المخرج من الذنوب بالإيمان، ولو قلت: يغفر من ذنوبكم، دون أن يذكر الاسم المجرور؛ لم يحسن إلا على معنى التبعيض؛ لأن الفعل الذي كان في ضمن الكلام وهو الإنقاذ؛ قد ذهب بذهاب الاسم الذي هو واقع عليه.

فإن قلت: فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ [آل عمران: ١٤٧]. وفي سورة الصف: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [الصف: ١٢] فما الحكمة في سقوطها هنا؟ وما الفرق؟

قلت: هذا إخبار عن المؤمنين، الذين قد سبق لهم الإنقاذ من ذنوب الكفر؛ بإيمانهم، ثم وعدوا على الجهاد بغفران ما اكتسبوا في الإسلام من الذنوب، وهي غير محبطة كإحباط الكفر المهلك للكافر؛ فلم يتضمن الغفران معنى الاستنقاذ؛ إذ ليس ثم إحاطة من الذنب بالمذنب، وإنما يتضمن معنى: الإذهاب، والإبطال، للذنوب؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات بخلاف الآيتين المتقدمتين؛ فإنهما: خطاب للمشركين، وأمر لهم بما ينقذهم ويخلصهم، مما أحاط بهم من الذنوب، وهو الكفر، ففي ضمن ذلك الإعلام والإشارة: بأنهم واقعون في مهلكة قد أحاطت بهم، وأن لا ينقذهم منها إلا المغفرة المتضمنة للإنقاذ، الذي هو أخص من الإبطال والإذهاب، وأما المؤمنون؛ فقد أنقذوا.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧١] فهي في موضع من التي لتبعيض؛ لأن الآية في سياق ثواب الصدقة فإنه قال: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ والصدقة لا تذهب جميع الذنوب.

ومن هذا النحو قوله ﷺ: «**فليكفر عن يمينه، وليأت الذي هو خير**»(١) فأدخل

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٦٥١) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٦١، ٦١٧) وشرح النووي (١١/ ١٠٨).

(عن) في الكلام، إيذانًا بمعنى الخروج عن اليمين.

لما ذكر الفاعل، وهو الخارج؛ فكأنه قال: فليخرج بالكفارة عن يمينه.

ولما لم يذكر الفاعل المكفر في قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩] لم يذكر (من)، وأضاف الكفارة إلى الأيمان.

وذلك من إضافة المصدر إلى المفعول؛ وإن كانت الأيمان لا تكفر؛ وإنما يكفر الحنث والإثم، ولكن الكفارة حل لعقد اليمين، فمن هنالك؛ أضيفت إلى اليمين، كما يضاف الحل إلى العقد؛ إذ اليمين عقد، والكفارة حل له، والله أعلم.

***

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

...[1] إن الله سبحانه قسم خلقه إلى غني وفقير، ولا تتم مصالحهم إلا بسد خلَّة الفقير، فأوجب سبحانه في فضول أموال الأغنياء ما يسد به خلة الفقراء، وحرم الربا الذي يضر بالمحتاج، فكان أمره بالصدقة ونهيه عن الربا أخوين شقيقين؛ ولهذا جمع الله بينهما في قوله: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وذكر الله سبحانه أحكام الناس في الأموال في آخر سورة البقرة، وهي ثلاثة: عدل، وظلم، وفضل؛ فالعدل البيع، والظلم الربا، والفضل الصدقة؛ فمدح المتصدقين

(١) ١٨ أعلام جـ٢.

وذكر ثوابهم، وذم المرابين وذكر عقابهم، وأباح البيع والتداين إلى أجل مسمى.

[(١)]وأما الفرق الإسلامي: فهو الفرق بين: ما شرعه الله وأمر به وأحبه ورضيه، وبين ما نهى عنه وكرهه ومقت فاعله، وهذا الفرق من لم يكن من أهله؛ لم يشم رائحة الإسلام البتة.

وقد حكى الله سبحانه عن أهل الفرق الطبيعي: أنهم أنكروا هذا الفرق، فشهدوا الجمع بين المأمور والمحظور؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. لا فرق بينهما، وقالوا: الميتة مثل المذكاة، لا فرق بينهما، وقالوا: الحلال والحرام شيء واحد، فهذا جمعهم وذاك فرقهم، فهذا فرق يتعلق بالأعمال.

***

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾.

[(٢)]قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: ٢٨٧]، فأمر بترك ما بقي؛ دون رد ما قبض ولم يكن صحيحًا؛ بل كان عفوًا كما قال سبحانه: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فجعل له ما سلف من الربا وإن لم يكن مباحًا له؛ وكذلك سائر العقود له ما سلف منها، ويجب عليه ترك ما يحرمه الإسلام، وهذه الآية هي الأصل في هذا الباب جميعه، فإنه تعالى لم يبطل ما وقع في الجاهلية على خلاف شرعه، وأمر بالتزام شرعه من حين قام الشرع، ومن تأمل حكم رسول الله ﷺ في باب أنكحة الكفار إذا أسلموا عليها؛ وجده مشتقًا من القرآن مطابقًا له.

[(٣)]إن العقل تحت حجر الشرع: فيما يطلبه ويأمر به، وفيما يحكم به ويخبر عنه، فهو محجور عليه في الطلب والخبر، وكما أن من عارض أمر الرسل بعقله: لم يؤمن بهم،

---

(١) ٥٠٧ مدارج جـ٣.

(٢) ٣٥٤ أحكام جـ١.

(٣) ١٥١ مختصر الصواعق جـ١.

وبما جاءوا به؛ فكذلك من عارض خبرهم بعقله، ولا فرق بين الأمرين أصلًا.

يوضحه: أن الله سبحانه حكى عن الكفار معارضة أمره بعقولهم، كما حكى عنهم معارضة خبره بعقولهم.

أما الأول: ففي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. فعارضوا تحريمه للربا بعقولهم التي سوت بين الربا والبيع، فهذا معارضة النص بالرأي.

ونظير ذلك: ما عارضوا به تحريم الميتة من قياسها على المذكاة، وقالوا: تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله، وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وعارضوا أمره بتحويل القبلة، وقالوا: إن كانت القبلة الأولى حقًّا؛ فقد تركت الحق، وإن كانت باطلاً؛ فقد كنت على باطل.

وإمام هؤلاء شيخ الطريقة إبليس عدو الله، فإنه أول من عارض أمر الله بعقله، وزعم أن العقل يقتضي خلافه.

وأما الثاني: وهو معارضة خبره بالعقل، فكما حكى الله سبحانه عن منكري المعاد: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨] وأخبر سبحانه أنهم عارضوا ما أخبر به من التوحيد بعقولهم.

وعارضوا إخباره عن النبوات بعقولهم، وعارضوا بعض الأمثال التي ضربها بعقولهم؛ وعارضوا أدلة نبوة رسوله ﷺ بعقولهم؛ فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وأنت إذا صغت هذه المعارضة صوغًا مزخرفًا، وجدتها من جنس معارضة المعقول للمنقول.

وكذلك قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ

إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧-٨] أي: لو كان رسولاً لخالق السماوات والأرض: لما أحوجه أن يمشي بيننا في الأسواق في المعيشة، ولأغناه من أكل الطعام، ولأرسل معه ملكًا من الملائكة، أو ألقى إليه كنزًا يغنيه عن طلب الكسب.

وعارضوا شرعه ودينه الذي شرعه لهم على لسان رسوله، وتوحيده؛ بمعارضة عقلية، واستندوا فيها إلى القدر، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩].

وحكى مثل هذه المعارضة في سورة النحل، وفي سورة الزخرف، وإذا تأملتها حق التأمل؛ رأيتها أقوى بكثير من معارضة آيات الصفات بعقولهم، فإن إخوانهم عارضوا بمشيئة الله للكائنات، والمشيئة ثابتة في نفس الأمر، والنفاة عارضوا بأصول فاسدة: هم وضعوها من تلقاء أنفسهم، أو تلقوها عن أعداء الرسل من الصابئة والمجوس والفلاسفة، وهي خيالات فاسدة.

وبالجملة فمعارضة أمر الرسول أو خبرهم بالمعقولات؛ إنما هي طريقة الكفار، فهم سلف الخلف بعدهم، فبئس السلف والخلف.

ومن تأمَّل معارضة المشركين للرسل بالعقول؛ وجدها أقوى من معارضة الجهمية والنفاة، لخبرهم عن الله وصفاته، وعلوه على خلقه، وتكليمه لملائكته ورسله؛ بعقولهم، فإن كانت تلك المعارضة باطلة؛ فهذه أبطل وأبطل، وإن صحت هذه المعارضة؛ فتلك أولى بالصحة منها، وهذا لا محيد لهم عنه.

...[1]الطبقة السابعة: أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلى الناس بأموالهم، على

(١) ٣٦٢ طريق الهجرتين.

اختلاف حاجاتهم ومصالحهم من: تفريج كرباتهم، ودفع ضروراتهم، وكفايتهم في مهماتهم، وهم أحد الصنفين اللذين قال النبي ﷺ فيهم: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق**»[1] يعني: أنه لا ينبغي لأحد أن يغبط أحدًا على نعمة ويتمنى مثلها، إلا أحد هذين؛ وذلك لما فيهما من منافع: النفع العام، والإحسان المتعدي إلى الخلق، فهذا ينفعهم بعلمه، وهذا ينفعهم بماله.

والخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه؛ أنفعهم لعياله.

ولا ريب أن هذين الصنفين، من أنفع الناس لعيال الله، ولا يقوم أمر الناس إلا بهذين الصنفين، ولا يعمر العالم إلا بهما.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨].

وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]. فصدر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر.

والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازى عليه أضعافًا مضاعفة؟

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣١) وشرح النووي (٦/ ٩٧).

وسمي ذلك الإنفاق قرضًا حسنًا؛ حثًّا للنفوس وبعثًا لها على البذل، لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولابد؛ طوع له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه، فإن علم أن المستقرض: مليٌّ، وفيٌّ، محسن؛ كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه.

فإن علم: أنه مع ذلك كله؛ يزيده من فضله وعطائه أجرًا آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم؛ فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من: البخل والشح، أو عدم الثقة بالضمان؛ وذلك من ضعف إيمانه؛ ولهذا كانت الصدقة؛ برهانًا لصاحبها.

وهذه الأمور كلها؛ تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية، فإنه سماه قرضًا، وأخبر أنه هو المقترض لا قرض حاجة؛ ولكن قرض إحسان إلى المقرض واستدعاء لمعاملته، وليعرف مقدار الربح، فهو الذي أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به.

ثم أخبر عما يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة، وهو الأجر الكريم، وحيث جاء هذا القرض في القرآن؛ قيده بكونه حسنًا، وذلك يجمع أمورًا ثلاثة:

أحدها: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثه.

الثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه، ثابتة عند بذله؛ ابتغاء مرضاة الله.

الثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي.

فالأول يتعلق بالمال، والثاني، يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الآخذ، وقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهذه الآية كأنها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرض، ومثل سبحانه بهذا المثل؛ إحضارًا لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي غيبت في الأرض؛ فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، حتى كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته، كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبة؛ الواحدة؛ فينضاف

الشاهد العياني إلى الشاهد الإيماني القرآني؛ فيقوى إيمان المنفق، وتسخو نفسه بالإنفاق.

وتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على سنابل، وهي من جموع الكثرة؛ إذ المقام مقام تكثير وتضعيف، وجمعها على سنبلات في قوله تعالى: ﴿وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف: ٤٦]، فجاء بها على جمع القلة، لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

قيل: المعنى: والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، لا لكل منفق، بل يختص برحمته من يشاء؛ وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه، ولصفات المنفق وأحواله في: شدة الحاجة، وعظيم النفع، وحسن الموقع.

وقيل: والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك، فلا يقتصر به على السبعمائة؛ بل يجاوز في المضاعفة هذا المقدار إلى أضعاف كثيرة.

واختلف في تفسير الآية فقيل: مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة.

وقيل: مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبة، ليطابق الممثل للممثل به، فهنا أربعة أمور: منفق، ونفقة، وباذر، وبذر.

فذكر سبحانه من كل شق أهم قسميه، فذكر من شق الممثل المنفق؛ إذ المقصود ذكر حاله وشأنه، وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها، وذكر من شق الممثل به البذر؛ إذ هو المحل الذي حصلت فيه المضاعفة، وترك ذكر الباذر؛ لأن القرض لا يتعلق بذكره.

فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز المتضمن لغاية البيان، وهذا كثير في أمثال القرآن؛ بل عامتها ترد على هذا النمط.

ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها، وهما: الواسع، العليم.

فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه، فإن المضاعف واسع العطاء، واسع الغنى، واسع الفضل، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي

حصولها لكل منفق؛ فإنه عليم: بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها؛ ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها؛ فإن كرمه وفضله تعالىٰ لا يناقض حكمته؛ بل يضع فضله مواضعه: لسعته، ورحمته، ويمنعه من ليس من أهله: بحكمته، وعلمه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

هذا بيان للقرض الحسن ما هو؟ وهو أن يكون في سبيله، أي: في مرضاته، والطريق الموصلة إليه، ومن أنفعها؛ سبيل الجهاد.

وسبيل الله خاص وعام، والخاص جزء من السبيل العام، وأن لا يتبع صدقته بمن ولا أذى، فالمن نوعان:

أحدهما: منٌّ بقلبه من غير أن يصرح به بلسانه، وهذا إن لم يبطل الصدقة؛ فهو من نقصان شهود منة الله عليه في إعطائه المال وحرمان غيره، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه، فلله المنة عليه من كل وجه، فكيف يشهد قلبه منة لغيره؟

والنوع الثاني: أن يمن عليه بلسانه، فيعتدي علىٰ من أحسن إليه بإحسانه، ويريه أنه اصطنعه، وأنه أوجب عليه حقًّا وطوقه منة في عنقه، فيقول: أما أعطيتك كذا وكذا؟ ويعدد أياديه عنده، قال سفيان: يقول: أعطيتك فما شكرت.

وقال عبد الرحمن بن زياد: كان أبي يقول: إذا أعطيت رجلًا شيئًا، ورأيت أن سلامك يثقل عليه، فكف سلامك عنه، وكانوا يقولون: إذا اصطنعتم صنيعة فانسوها، وإذا أسديت إليكم صنيعة فلا تنسوها، وفي ذلك قيل:

وإنْ امـــرؤٌ أهـــدىٰ إلـــيَّ صـــنيعة وذكرنيهـــا مـــرة لبخيـــل(١)

وقيل: صنوان: من منح سائله ومنَّ، ومن منع نائله وضن.

وحظر الله علىٰ عباده المن بالصنيعة اختص به صفة لنفسه؛ لأن منَّ العباد: تكدير،

---

(١) لم أقف علىٰ قائله.

وتعيير، ومن الله ﷻ: إفضال، وتذكير.

وأيضًا: فإنه هو المنعم في نفس الأمر والعباد وسائط، فهو المنعم على عبده في الحقيقة، وأيضًا: فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يمن عليه، ولا تصلح العبودية والذل إلا لله.

وأيضًا: فالمنة أن يشهد المعطي: أنه هو رب الفضل والإنعام، وأنه ولي النعمة ومسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا لله.

وأيضًا: فالمان بعطائه يشهد نفسه: مترفعًا على الآخذ، مستعليًا عليه، غنيًّا عنه، عزيزًا ويشهد ذل الآخذ، وحاجته إليه، وفاقته، ولا ينبغي ذلك للعبد.

وأيضًا: فإن المعطي قد تولى الله ثوابه، ورد عليه أضعاف ما أعطى؛ فبقي عوض ما أعطي عند الله، فأي حق بقي له قبل الآخذ؟ فإذا امتن عليه؛ فقد ظلمه ظلمًا بينًا، وادَّعى أن حقه في قلبه، ومن هنا ـ والله أعلم ـ بطلت صدقته بالمن؛ فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله، وعوض تلك الصدقة عنده، فلم يرض به، ولاحظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده فمنَّ عليه بما أعطاه؛ أبطل معاوضته مع الله ومعاملته له.

فتأمل هذه النصائح من الله لعباده، ودلالته على ربوبيته وإلهيته وحده، وأنه يبطل عمل من نازعه في شيء من ربوبيته وإلهيته، لا إله غيره ولا رب سواه.

ونبه بقوله: ﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٦٢] على أن المن والأذى ـ ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه ـ ضر بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق: ولو أتى بالواو وقال: ولا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى، لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المن والأذى المتراخي: مبطلًا لأثر الإنفاق، مانعًا من الثواب؛ فالمقارن أولى وأحرى.

وتأمل كيف جرد الخبر هنا عن الفاء فقال: ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وقرنه بالفاء في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ

عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٤] فإن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف؛ تفهم: معنى الشرط والجزاء، وأنه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصلة أو الصفة، فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره، جرد الخبر عن الفاء، فإن المعنى: إن الذي ينفق ماله لله، ولا يمن ولا يؤذي هو الذي يستحق الأجر المذكور، لا الذي ينفق لغير الله، ويمن ويؤذي بنفقته، فليس المقام مقام شرط وجزاء؛ بل مقام بيان للمستحق دون غيره.

وفي الآية الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سرًّا وعلانية، فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال، فأتى بالفاء في الخبر؛ ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد من ليل أو نهار، وعلى أي حالة وجد من سرٍّ وعلانية، فإنه سبب للجزاء على كل حال، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر، ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت؛ سبب لأجره وثوابه.

فتدبر هذه الأسرار في القرآن فلعلك لا تظفر بها تمر بك في التفاسير، والمنة والفضل لله وحده لا شريك له.

ثم قال تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

فأخبر أن القول المعروف ـ وهو الذي تعرفه القلوب ولا تنكره ـ، والمغفرة ـ وهي العفو عمن أساء إليك ـ خيرٌ من الصدقة بالأذى.

فالقول المعروف: إحسان، وصدقة بالقول.

والمغفرة: إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة، فهما نوعان من أنواع الإحسان؛ والصدقة المقرونة بالأذى؛ حسنة مقرونة بما يبطلها، ولا ريب أن حسنتين؛ خير من حسنة باطلة.

ويدخل في المغفرة؛ مغفرته للسائل إذا وجد منه بعض الجفوة والأذى له بسبب

رده، فيكون عفوه عنه، خيرًا من أن يتصدق عليه ويؤذيه، هذا على المشهور من القولين في الآية.

والقول الثاني: أن المغفرة من الله، أي: مغفرة لكم من الله؛ بسبب القول المعروف، والرد الجميل؛ خير من صدقة يتبعها أذى.

وفيها قول ثالث: أي: مغفرة وعفو من السائل إذا رد وتعذر المسئول؛ خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى.

وأوضح الأقوال هو الأول، ويليه الثاني، والثالث ضعيف جدًّا؛ لأن الخطاب إنما هو للمنفق المسئول لا للسائل الآخذ.

والمعنى: أن قول المعروف له والتجاوز والعفو؛ خير لك من أن تتصدق عليه وتؤذيه، ثم ختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ وفيه معنيان:

أحدهما: أن الله غني عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة؛ فنفعها عائد عليكم لا إليه ﷻ، فكيف يمن بنفقته ويؤذي؛ مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه، ومع هذا فهو حليمٌ؛ إذ لم يعاجل المان بالعقوبة، وفي ضمن هذا: الوعيد، والتحذير.

والمعنى الثاني: أنه ﷻ مع غناه التام من كل وجه؛ فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح، مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة، فكيف يؤذي أحدكم بمنه وأذاه، مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره؟!

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

تضمنت هذه الآية الإخبار: بأن المن والأذى يحبط الصدقة، وهذا دليل على أن الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

وقد تقدم الكلام على هذه المسألة في أول هذه الرسالة فلا حاجة إلى إعادته.

وقد يقال: إن المن والأذى المقارن للصدقة؛ هو الذي يبطلها دون ما يلحقها بعدها، إلا أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا التقييد، والسياق يدل على إبطالها به مطلقًا.

وقد يقال: تمثيله بالمرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر؛ يدل على أن المن والأذى المبطل؛ هو المقارن كالرياء وعدم الإيمان، فإن الرياء لو تأخر عن العمل؛ لم يبطله، ويجاب عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن التشبيه وقع في الحال التي يحبط بها العمل، وهي حال المرائي والمانّ المؤذي، في أن كل واحد منهما يحبط العمل.

الثاني: أن الرياء لا يكون إلا مقارنًا للعمل، لأنه «فعال» من الرؤية التي صاحبها يعمل ليرى الناس عمله فلا يكون متراخيًا، وهذا بخلاف المن والأذى فإنه يكون مقارنًا ومتراخيًا، وتراخيه أكثر من مقارنته.

وقوله: ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ ﴾ إما أن يكون المعنى: كإبطال الذي ينفق؛ فيكون قد شبه الإبطال بالإبطال، أو المعنى: لا تكونوا كالذي ينفق ماله رئاء الناس؛ فيكون تشبيهًا للمنفق بالمنفق.

وقوله: ﴿ فَمَثَلُهُۥ ﴾ أي: مثل هذا المنفق الذي قد بطل ثواب نفقته ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ وهو الحجر الأملس، وفيه قولان:

أحدهما: أنه واحد.

والثاني: جمع صفوة ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ ﴾، وهو المطر الشديد ﴿ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ وهو الأملس الذي لا شيء عليهم من نبات ولا غيره، وهذا من أبلغ الأمثال

وأحسنها، فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائي ـ الذي لم يصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر ـ بالحجر: لشدته، وصلابته، وعدم الانتفاع به.

وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار، الذي علق بذلك الحجر، والوابل الذي أزال ذلك التراب عن الحجر، فأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته، وأزالها كما يذهب الوابل التراب الذي على الحجر فيتركه صلدًا، فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه: لبطلانه وزواله.

وفيه معنى آخر وهو: أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملًا يرتب عليه الأجر، ويزكو له كما تزكو الحبة، التي إذا بذرت في التراب الطيب؛ أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، ولكن وراء هذا الإنفاق مانع يمنع من نموه وزكائه، كما أن تحت التراب حجرًا يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه؛ فلا ينبت ولا يخرج شيئًا، ثم قال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

هذا مثل الذي مصدر نفقته عن الإخلاص والصدق، فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص، والتثبيت من النفس هو الصدق في البذل، فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان، إن نجا منهما؛ كان مثله ما ذكره في هذه الآية:

إحداهما: طلبه بنفقته: محمدة، أو ثناء، أو غرضًا من أغراضه الدنيوية، وهذا حال أكثر المنفقين.

والآفة الثانية: ضعف نفسه وتقاعسها وترددها: هل يفعل، أم لا؟

فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله، والآفة الثانية تزول بالتثبيت، فإن تثبيت النفس تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل، وهذا هو صدقها، وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها.

فإذا كان مصدر الإنفاق عن ذلك؛ كان مثله كجنة ـ وهي البستان الكثير الأشجار ـ

فهو مجتن بها، أي: مستتر ليس قاعًا فارغًا، والجنة بربوة ـ وهو المكان المرتفع ـ فإنها أكمل من الجنة التي بالوهاد والحضيض؛ لأنه إذا ارتفعت كانت: بمدرجة الأهوية والرياح، وكانت ضاحية للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها؛ فكانت أنضج ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره، فإن الثمار تزداد طيبًا وزكاء بالرياح والشمس، بخلاف الثمار التي تنشأ في الظلال.

وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع؛ لم يخش عليها إلا من قلة الماء والشراب.

فقال تعالى: ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ وهو المطر الشديد العظيم القدر؛ فأدت ثمرتها وأعطت بركتها؛ فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يثمر غيرها، أو ضعفي ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل، فهذا حال السابقين المقربين، ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ فهو دون الوابل، فهو يكفيها لكرم منبتها وطيب مغرسها؛ فتكتفي في إخراج بركتها بالطل، وهذا حال الأبرار المقتصدين في النفقة، وهم درجات عند الله، فأصحاب الوابل أعلاهم درجة، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وأصحاب الطل مقتصدوهم.

فمثل حال القسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين؛ يوجب زكاء ثمر الجنة ونحوه بالأضعاف؛ فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة، بعد أن صدرت عن ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفوسهم، فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة.

واختلف في الضعفين، فقيل: ضعفا الشيء مثلاه زائدًا عليه، وضعفه مثله.

وقيل: ضعفه مثلاه، وضعفاه ثلاثة أمثاله، وثلاثة أضعافه أربعة أمثاله، كلما زاد ضعفًا، زاد مثلاً.

والذي حمل هذا القائل على ذلك؛ فراره من استواء دلالة المفرد والتثنية، فإنه رأى ضعف الشيء هو مثله الزائد عليه، فإذا زاد إلى المثل؛ صار مثلين؛ وهما الضعف، فلو قيل: لها ضعفان؛ لم يكن فرق بين المفرد والمثنى، فالضعفان عنده مثلان مضافان إلى

الأصل، ويلزم من هذا أن يكون ثلاثة أضعافه؛ ثلاثة أمثال مضافة إلى الأصل، وهكذا أبدًا.

والصواب: أن الضعفين هما المثلان فقط: الأصل ومثله، وعليه يدل قوله تعالى: ﴿ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ أي: مثلثين، وقوله تعالى: ﴿ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ [الأحزاب: ٣٠] أي: مثلين.

ولهذا قال في الحسنات: ﴿ نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ [الأحزاب: ٣١].

وأما ما توهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية؛ فوهم منشؤه؛ ظن أن الضعف هو المثل مع الأصل، وليس كذلك، بل المثل له اعتباران: إن اعتبر وحده فهو ضعف، وإن اعتبر مع نظيره فهما ضعفان. والله أعلم.

واختلف في رافع قوله: ﴿ فَطَلٌّ ﴾ فقيل: هو مبتدأ خبره محذوف، أي: وطله يكفيها، وقيل: خبر مبتدأه محذوف: فالذي يرويها ويصيبها طل.

والضمير في ﴿ أَصَابَهَا ﴾ إما: أن يرجع إلى الجنة، أو إلى الربوة وهما متلازمان.

ثم قال تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قال الحسن: هذا مثل قلَّ - والله - من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه، أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم - والله - أفقر ما يكون إلى عمله؛ إذا انقطعت عنه الدنيا.

وفي صحيح البخاري: «عن عبيد بن عمير قال: سأل عمر يومًا أصحاب النبي ﷺ: فيم هم يرون هذه الآية نزلت: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ ﴾ الآية؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي

منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجل عمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي؛ حتى أغرق أعماله[١].

فقوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ أخرجه مخرج الاستفهام الإنكاري، وهو أبلغ من النفي والنهي، وألطف موقعًا، كما ترى غيرك يفعل فعلًا قبيحًا فتقول: لا يفعل هذا عاقل، لا يفعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة.

وقال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ بلفظ الواحد لتضمنه معنى الإنكار العام، كما تقول: أيفعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ في الإنكار من أن يقول: أيودون.

وقوله: ﴿أَيَوَدُّ﴾ أبلغ في الإنكار من لو قيل: أيريد، لأن محبة هذا الحال المذكورة وتمنيها؛ أقبح وأنكر من مجرد إرادتها.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ خص هذين النوعين من الثمار بالذكر؛ لأنهما أشرف أنواع الثمار وأكثرها نفعًا، فإن منهما: القوت والغذاء، والدواء والشراب، والفاكهة، والحلو والحامض، ويؤكلان رطبًا ويابسًا، ومنافعهما كثيرة جدًا.

وقد اختلف في الأنفع والأفضل منهما؛ فرجحت طائفة النخيل، ورجحت طائفة العنب، وذكرت كل طائفة حججًا لقولها فذكرناها في غير هذا الموضع.

وفصل الخطاب: أن هذا يختلف باختلاف البلاد، فإن الله ﷻ أجرى العادة؛ بأن سلطان أحدهما لا يحل حيث يحل سلطان الآخر، فالأرض التي يكون فيها سلطان النخيل؛ لا يكون العنب بها طائلاً ولا كثيرًا، لأنه إنما يخرج في الأرض الرخوة اللينة المعتدلة غير السبخة، فينموا فيها فيكثر، وأما النخيل فنموه وكثرته في الأرض الحارة

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٣٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٢٠٢).

السبخة، وهي لا تناسب العنب، فالنخل في أرضه وموضعه أنفع وأفضل من العنب فيها، والعنب في أرضه ومعدنه أفضل من النخل فيها. والله أعلم.

والمقصود أن هذين النوعين؛ هما أفضل أنواع الثمار وأكرمها، فالجنة المشتملة عليهما من أفضل الجنان، ومع هذا فالأنهار تجري تحت هذه الجنة، وذلك أكمل لها وأعظم في قدرها، ومع ذلك فلم تعدم شيئًا من أنواع الثمار المشتهاة؛ بل فيها من كل الثمرات، ولكن معظمها ومقصودها النخيل والأعناب، فلا تنافي بين كونها من نخيل وأعناب و﴿فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ ﴾ [الكهف: ٣٢-٣٤].

وقد قيل: إن الثمار هنا وفي آية البقرة (٢٦٦) المراد بها المنافع والأموال، والسياق يدل على أنها الثمار المعروفة لا غيرها، لقوله هنا: ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ فَأَصَابَهَآ ﴾ أي: الجنة ﴿ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡ ﴾، وفي الكهف: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [الكهف: ٤٢] وما ذلك إلا ثمار الجنة. ثم قال تعالى: ﴿ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ﴾ هذا إشارة إلى شدة حاجته إلى جنته، وتعلق قلبه بها من وجوه:

أحدها: أنه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها.

الثاني: أن ابن آدم عند كبر سنه يشتد حرصه.

الثالث: أن له ذرية؛ فهو حريص على بقاء جنته، لحاجته وحاجة ذريته.

الرابع: أنهم ضعفاء؛ فهم كَلٌّ عليه، لا ينفعونه بقوتهم وتصرفهم.

الخامس: أن نفقتهم عليه؛ لضعفهم وعجزهم، وهذا نهاية ما يكون من تعلق القلب بهذه الجنة: لخطرها في نفسها، وشدة حاجته وذريته إليها.

فإذا تصورت هذه الحال وهذه الحاجة؛ فكيف تكون مصيبة هذا الرجل إذا أصاب جنته إعصار ـ وهي الريح التي تستدير في الأرض، ثم ترتفع في طبقات الجو كالعمود ـ، وفيه نار مرت بتلك الجنة؛ فأحرقتها وصيرتها رمادًا؟

فصدق ـ والله ـ الحسن: هذا مثلٌ قلَّ من يعقله من الناس.

ولهذا نبه ﷻ على عظم هذا المثل، وحدا القلوب إلى التفكر فيه؛ لشدة حاجتها إليه، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فلو فكر العاقل في هذا المثل وجعله قبلة قلبه؛ لكفاه وشفاه، فهكذا العبد إذا عمل بطاعة الله، ثم أتبعها بما يبطلها ويفرقها من معاصي الله؛ كانت كالإعصار ذي النار المحرق للجنة، التي غرسها بطاعته وعمله الصالح، ولولا أن هذه المواضع أهم مما كلامنا بصدده ـ من ذكر مجرد الطبقات ـ لم نذكرها، ولكنها من أهم المهم، والله المستعان الموفق لمرضاته.

فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره، وتأمله كما ينبغي؛ لما سولت له نفسه ـ والله ـ إحراق أعماله الصالحة وإضاعتها، ولكن لابد أن يغيب عنه علمه عند المعصية؛ ولهذا استحق اسم الجهل، فكل من عصى الله فهو جاهل.

فإن قيل: الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ واو الحال، أم واو العطف؟ وإذا كانت للعطف، فعلام عطفت ما بعدها؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أنها واو الحال، اختاره الزمخشري، والمعنى: أيود أحدكم أن تكون له جنة شأنها كذا وكذا، في حال كبره وضعف ذريته.

والثاني: أن تكون للعطف على المعنى، فإن فعل التمني، وهو قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ لطلب الماضي كثيرًا، فكان المعنى: أيود لو كانت له جنة من نخيل وأعناب، وأصابه الكبر؛ فجرى عليها ما ذكر.

وتأمل كيف ضرب سبحانه المثل للمنفق المرائي ـ الذي لم يصدر إنفاقه عن الإيمان ـ بالصفوان الذي عليه التراب، فإنه لم ينبت شيئًا أصلاً؛ بل ذهب بذره ضائعًا،

لعدم إيمانه وإخلاصه، ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصًا بنيته لله، ثم عرض له ما أبطل ثوابه بالجنة، التي هي من أحسن الجنان وأطيبها وأزهرها، ثم سلط عليها الإعصار الناري فأحرقها، فإن هذا نبت له شيء وأثمر له عمله ثم احترق، والأول لم يحصل له شيء يدركه الحريق، فتبارك من جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء للصدور وهدى ورحمة.

ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧] أضاف سبحانه الكسب إليهم وإن كان هو الخالق لأفعالهم، لأنه فعلهم القائم بهم، وأسند الإخراج إليه؛ لأنه ليس فعلاً لهم، ولا هو مقدور لهم، فأضاف مقدورهم إليهم، وأضاف مفعوله الذي لا قدرة لهم عليه إليه، ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأثيره عنها بالكلية.

وخص سبحانه هذين النوعين ـ وهما: الخارج من الأرض، والحاصل بكسب التجارة ـ دون غيرهما من المواشي.

إما بحسب الواقع؛ فإنهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك. فإن المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب، والأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع، فخص هذين النوعين بالذكر؛ لحاجتهم إلى: بيان حكمهما، وعموم وجودهما.

وإما لأنهما أصول الأموال، وما عداهما فعنهما يكون ومنهما ينشأ، فإن الكسب تدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها من: الملابس، والمطاعم، والرقيق، والحيوانات، والآلات، والأمتعة، وسائر ما تتعلق به التجارة، والخارج من الأرض يتناول: حبها، وثمارها، وركازها، ومعدنها، وهذان هما أصول الأموال وأغلبها على أهل الأرض، فكان ذكرهما أهم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ فنهى سبحانه عن قصد إخراج الرديء كما هو عادة أكثر النفوس: تمسك الجيد لها، وتخرج الرديء للفقير.

ونهيه سبحانه عن قصد ذلك وتيممه؛ فيه ما يشبه العذر لمن فعل ذلك، لا عن قصد وتيمم، بل عن اتفاق، إذا كان هو الحاضر إذ ذاك، أو كان ماله من جنسه، فإن هذا لم يتيمم الخبيث؛ بل تيمم إخراج بعض ما من الله عليه، وموقع قوله: ﴿ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ موقع الحال، أي: لا تقصدوه منفقين منه.

ثم قال: ﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ أي: لو كنتم أنتم المستحقين له، وبذل لكم؛ لم تأخذوه في حقوقكم إلا بأن تتسامحوا في أخذه وتترخصوا فيه، من قولهم: أغمض فلان عن بعض حقه، ويقال للبائع: أغمض - أي: لا تستقص - كأنك لا تبصر، وحقيقته من إغماض الجفن، فكأن الرائي لكراهته له لا يملأ عينيه منه، بل يغمض من بصره ويغمض عنه بعض نظره بغضًا.

ومنه قول الشاعر:

لم يفتنا بالوتر قوم وللضيـ ـم رجال يرضون بالإغماض[(١)]

وفيه معنيان:

أحدهما: كيف تبذلون لله وتهدون له ما لا ترضون ببذله لكم ولا يرضى أحدكم من صاحبه أن يهديه له، والله أحق من يخير له خيار الأشياء وأنفسها؟

والثاني: كيف تجعلون له ما تكرهون لأنفسكم، وهو سبحانه طيب لا يقبل إلا طيبًا؟ ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما سياقهما، فقال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فغناه وحمده يأبى قبول الرديء، فإن قابل الرديء الخبيث: إما أن يقبله لحاجته إليه، وإما أن نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها، وأما الغني عنه، الشريف القدر، الكامل الأوصاف؛ فإنه لا يقبله.

---

(١) هذا البيت من بحر الخفيف، وينسب إلى الطرماح بن حكيم من طيء، شاعر إسلامي فحل، واعتقد مذهب الأزارقة، وهم جماعة من الخوارج، وكان هجاءً، عاصر الكميت وصادقه ولم يكد يفارقه، قال عنه الجاحظ: كان قحطانيًّا عصبيًّا. مات سنة ١٢٥هـ. وذكر البيت الطبري في تفسيره (٣/ ٨٤).

ثم قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٨].

هذه الآية تتضمن: الحض على الإنفاق، والحث عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني، فإنها اشتملت: على بيان الداعي إلى البخل، والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعوه إليه داعي البخل، وما يدعو إليه داعي الإنفاق، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين، فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح؛ هو الشيطان، وأخبر أن دعوته هي: بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق، فإنه يهم بالصدقة والبذل، فيجد في قلبه داعيًا يقول له: متى أخرجت هذا؛ دعتك الحاجة إليه، وافتقرت إليه بعد إخراجه، وإمساكه خير لك؛ حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه، فإذا صور له هذه الصورة؛ أمره بالفحشاء وهي البخل، الذي هو من أقبح الفواحش، وهذا إجماع من المفسرين أن الفحشاء هنا البخل[1]، فهذا وعده وهذا أمره، وهو الكذب في وعده، الغار الفاجر في أمره، فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون، فإنه يدلي من يدعوه بغروره، ثم يورده شر الموارد، كما قال:

دلاهم بغرور ثم أوردهم ... إن الخبيث لمن والاه غرَّار[2]

(١) تقدم ص (٤٥٤) نقلاً عن الإغاثة ص (١٠٧) جـ٢ ما يحسن الرجوع إليه من ذكره أن الصواب: أن الفحشاء على بابها في العموم... إلخ ما ذكره. (ج).

(٢) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى حسان بن ثابت الصحابي الجليل ﷺ، شاعر النبي ﷺ وشاعر الإسلام، نافح عن النبي ﷺ ودافع عن عرضه. فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف: أنه سمع حسان بن ثابت الأنصاري يستشهد أبا هريرة فيقول: يا أبا هريرة، نشدتك بالله، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا حسان أجب عن رسول الله اللهم أيده بروح القدس»؟ قال أبو هريرة: نعم.
أخرجه البخاري (رقم ٦١٥٢) ومسلم (رقم ٢٤٨٥). وعن البراء ﷺ: أن النبي ﷺ قال لحسان: «اهجهم ـ أو قال: هاجهم - وجبريل معك». أخرجه البخاري (رقم ٦١٥٣) ومسلم (رقم ٢٤٨٦). مات ﷺ بالمدينة بعد أن عمي سنة ٥٤هـ.

هذا وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه ولا نصيحة له كما ينصح الرجل أخاه، ولا محبة في بقائه غنيًّا، بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته، وإنما وعده له بالفقر وأمره إياه بالبخل؛ ليسيء ظنه بربه، ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه؛ فيستوجب منه الحرمان.

وأما الله سبحانه؛ فإنه يعد عبده: مغفرة منه لذنوبه، وفضلًا؛ بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه: إما في الدنيا، أو في الدنيا والآخرة، فهذا وعد الله، وذاك وعد الشيطان، فلينظر البخيل والمنفق، أي الوعدين هو أوثق؟ وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه؟ والله يوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، وهو الواسع العليم.

وتأمل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين، فإنه واسع العطاء، عليم: بمن يستحق فضله، ومن يستحق عدله؛ فيعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله، وهو بكل شيء عليم.

فتأمل هذه الآيات، ولان تستطل بسط الكلام فيها؛ فإن لها شأنًا لا يعقله إلا من عقل عن الله خطابه وفهم مراده ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وتأمل ختم هذه السورة؟ التي هي سنام القرآن: بأحكام الأموال، وأقسام الأغنياء وأحوالهم، وكيف قسمهم إلى ثلاثة أقسام؟

القسم الأول: محسن وهم: المتصدقون، فذكر جزاءهم ومضاعفته، وما لهم في قرض أموالهم للمليء الوفي، ثم حذرهم مما يبطل ثواب صدقاتهم ويحرقها بعد استوائها وكمالها من: المن، والأذى، وحذرهم مما يمنع ترتب أثرها عليها؛ ابتداء من الرياء ثم أمرهم أن يتقربوا إليه بأطيبها، ولا يتيمموا أردأها وخبيثها.

ثم حذرهم من الاستجابة لداعي البخل والفحش وأخبر أن استجابتهم لدعوته، وثقتهم بوعده؛ أولى بهم، وأخبر أن هذا من حكمته، التي يؤتيها من يشاء من عباده، وثقتهم بوعده؛ أولى بهم، وأخبر أن هذا من حكمته، التي يؤتيها من يشاء من عباده، وأن من أوتيها؛ فقد أوتي خيرًا كثيرًا: أوتي ما هو خير وأفضل من الدنيا كلها؛ لأنه

سبحانه وصف الدنيا بالقلة فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] فدل على أن ما يؤتيه عبده من حكمته؛ خير من الدنيا وما عليها، ولا يعقل هذا كل أحد؛ بل لا يعقله إلا من له: لب، وعقل ذكي، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ثم أخبر أن كل ما أنفقوه من نفقة أو تقربوا به إليه من نذر؛ فإنه يعلمه، فلا يضيع لديه، بل يعلم ما كان لوجهه، ويكل جزاء من عمل لغيره إلى من عمل له، فإنه ظالم لنفسه وماله من نصير.

ثم أخبر سبحانه عن أحوال المتصدقين لوجهه في صدقاتهم، وأنه يثيبهم عليها: إن أبدوها، أو كتموها، بعد أن تكون خالصة لوجهه، فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١] أي: فنعم شيء هي، وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية، فلا يتوهم مبديها بطلان أثره وثوابه؛ فيمنعه ذلك من إخراجها وينتظر بها الإخفاء؛ فتفوت، أو تعترضه الموانع، ويحال: بينه وبين قلبه، أو بينه وبين إخراجها، فلا يؤخر صدقة العلانية بعد حضور وقتها إلى وقت السر، وهذه كانت حال الصحابة.

ثم قال: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، فأخبر أن إعطاءها للفقير في خفية؛ خير للمنفق من إظهارها وإعلانها.

وتأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة، ولم يقل: وإن تخفوها؛ فهو خير لكم، فإن من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤه: كتجهيز جيش، وبناء قنطرة، وإجراء نهر، أو غير ذلك.

وأما إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد: الستر عليه، وعدم تخجيله بين الناس وإقامته مقام الفضيحة، وأن يرى الناس أن يده هي اليد السفلى، وأنه لا شيء له؛ فيزهدون في معاملته ومعاوضته، وهذا قدر زائد من الإحسان إليه بمجرد الصدقة؛ مع تضمنه: الإخلاص، وعدم المراءاة وطلبهم المحمدة من الناس، وكان إخفاؤها

للفقير خيرًا من إظهارها بين الناس.

ومن هذا مدح النبي ﷺ صدقة السر، وأثنى على فاعلها، وأخبر أنه: أحد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمن يوم القيامة؛ ولهذا جعله سبحانه خيرًا للمنفق،وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته، ولا يخفى عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم، فإنه بما تعملون خبير.

ثم أخبر: أن هذا الإنفاق إنما نفعه لأنفسهم يعود عليهم؛ أحوج ما كانوا إليه، فكيف يبخل أحدكم عن نفسه بما نفعه مختص بها عائد إليها؟!

وأن نفقة المؤمنين إنما تكون ابتغاء وجهه خالصًا؛ لأنها صادرة عن إيمانهم.

وأن نفقتهم ترجع إليهم وافية كاملة، ولا يظلم منها مثقال ذرة، وصدر هذا الكلام بأن الله هو الهادي الموفق لمعاملته وإيثار مرضاته، وأنه ليس على رسوله هداهم؛ بل عليه إبلاغهم، وهو سبحانه الذي يوفق من يشاء لمرضاته.

ثم ذكر المصرف الذي توضع فيه الصدقة، فقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة: ٢٧٣] فوصفهم بست صفات: إحداها: الفقر.

الثانية: حبسهم أنفسهم في سبيله تعالى وجهاد أعدائه ونصر دينه، وأصل الحصر: المنع، فمنعوا أنفسهم من تصرفها في أشغال الدنيا، وقصروها على بذلها لله، وفي سبيله.

الثالثة: عجزهم عن الأسفار للتكسب، والضرب في الأرض هو: السفر، قال تعالى: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [النساء: ١٠١].

الرابعة: شدة تعففهم، وهو حسن صبرهم، وإظهارهم الغنى، يحسبهم الجاهل أغنياء من تعففهم، وعدم تعرضهم، وكتمانهم حاجتهم.

الخامسة: أنهم يعرفون بسيماهم، وهي العلامة الدالة على حالتهم التي وصفهم الله بها، وهذا لا ينافي حسبان الجاهل؛ أنهم أغنياء؛ لأن الجاهل له ظاهر الأمرم، والعارف هو: المتوسم المتفرس، الذي يعرف الناس بسيماهم، فالمتوسمون خواص المؤمنين، كما قا تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

السادسة: تركهم مسألة الناس فلا يسألونهم، والإلحاف هو: الإلحاح، والنفي متسلط عليهما معًا، أي: لا يسألون ولا يلحفون، فليس يقع منهم سؤال يكون بسببه إلحاف، وهذا كقوله:

على لا حب لا يُهتَدَىٰ لمناره

أي: ليس فيه منار فيهتدى به.

وفيه كالتنبيه على أن المذموم من السؤال؛ هو سؤال الإلحاف، فأما السؤال بقدر الضرورة من غير إلحاف؛ فالأفضل تركه، ولا يحرم.

فهذه ست صفات للمستحقين للصدقة، فألغاها أكثر الناس ولحظوا منها ظاهر الفقر وزيه من غير حقيقته، وأما سائر الصفات المذكورة فعزيز أهلها، ومن يعرفهم أعز، والله يختص بتوفيقه من يشاء، فهؤلاء هم المحسنون في أموالهم.

القسم الثاني: (الظالمون) وهم ضد هؤلاء، وهم الذين يذبحون المحتاج المضطر، فإذا دعته الحاجة إليهم؛ لم ينفسوا كربته إلا بزيادة على ما يبذلونه له، وهم أهل الربا، فذكرهم تعالى بعد هذا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨].

فصدَّر الآية بالأمر بتقواه المضادة للربا، وأمر بترك ما بقي من الربا بعد نزول الآية. وعفا لهم عما قبضوه به قبل التحريم،ولولا ذلك، لردوا ما قبضوه به قبل التحريم. وعلق هذا الامتثال على وجود الإيمان منهم، والمعلق على شرط منتف عند انتفائه. ثم أكد عليهم التحريم بأغلظ شيء وأشده؛ وهي محاربة المرابي لله ورسوله، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

ففي ضمن هذا الوعيد: أن المرابي محارب لله ورسوله، قد آذنه الله بحربه، ولم يجيء هذا الوعيد في كبيرة سوىٰ الربا، وقطع الطريق والسعي في الأرض بالفساد؛ لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض، قاطع الطريق علىٰ الناس: هذا بقهره لهم وتسلطه عليهم، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم إلا بتحميلهم كربات أشد منها، فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله، وآذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا: بحربه، وحرب رسوله.

ثم قال: ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. يعني: إن تركتم الربا وتبتم إلىٰ الله منه وقد عاقدتم عليه؛ فإنما لكم رءوس أموالكم: لا تزدادون عليها؛ فتظلمون الآخذ، ولا تنقصون منها؛ فيظلمكم من أخذها،فإن كان هذا القابض معسرًا فالواجب، إنظاره إلىٰ ميسرة، وإن تصدقتم عليه وأبرأتموه؛ فهو أفضل لكم وخير لكم، فإن أبت نفوسكم، وشحت: بالعدل الواجب؛ أو الفضل المندوب؛ فذكروها يومًا ترجعون فيه إلىٰ الله، وتلقون ربكم؛ فيوفيكم جزاء أعمالكم؛ أحوج ما أنتم إليه، فذكر سبحانه ا لمحسن وهو المتصدق، ثم عقبه بالظالم وهو المرابي...[(١)].

***

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا

---

(١) القسم الثالث يأتي آخر السورة. (ج).

تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾.

(١) الله سبحانه قد قال في آية المداينة [البقرة: ٢٨٢] التي أرشد بها عباده إلى حفظ حقوق بعضهم على بعض خشية ضياعها بالجحود، أو النسيان، فأرشدهم إلى حفظها بالكتاب، وأكد ذلك بأن أمرهم بكتابة الدين، وأمر الكاتب أن يكتب.

ثم أكد ذلك بأن نهاه أن يأبى أن يكتب، ثم أعاد الأمر بأن يكتب مرة أخرى، وأمر من عليه الحق أن يملل، ويتقي ربه، فلا يبخس من الحق شيئًا، فإن تعذر إملاؤه: لسفهه، أو صغره، أو جنونه، أو عدم استطاعته؛ فوليه مأمور بالإملاء عنه.

وأرشدهم إلى حفظها باستشهاد شهيدين من الرجال، أو رجل وامرأتين، فأمرهم بالحفظ بالنصاب التام، الذي لا يحتاج صاحبُ الحق معه إلى يمينٍ، ونهى الشهود أن يأبوا إذا دُعوا إلى إقامة الشهادة. ثم أكَّد ذلك عليهم بنهيهم أن يمتنعوا من كتابة الحقير والجليل من الحقوق، سآمة ومللاً.

وأخبر أن ذلك: أعدل عنده، وأقوم للشهادة، فيتذكرها الشاهد إذا عاين خطَّه؛ فيقيمها، وفي ذلك تنبيهٌ على أن له أن يقيمها إذا رأى خطه وتيقنه، وإلا لم يكن بالتعليل بقوله: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ﴾ فائدة.

وأخبر أن ذلك: أقرب إلى اليقين، وعدم الريب، ثم رفع عنهم الجناح بترك الكتابة؛ إذا كان بيعًا حاضرًا فيه التقابض من الجانبين، يأمن به كل واحد من المتبايعين من: جحود الآخر، ونسيانه.

ثم أمرهم مع ذلك بالإشهاد إذا تبايعوا: خشية الجحود، وغدر كل واحدٍ منهما بصاحبه، فإذا أشهدا على التبايع أمنا ذلك.

---

(١) ٤٨ إغاثة جـ٢.

ثم نهى الكاتب والشهيد عن أن يضارًّا: إما بأن يمتنعا من الكتابة والشهادة تحملاً وأداءً، أو أن يطلبا على ذلك جُعْلاً يضر بصاحب الحق، أو بأن يكتم الشاهد بعض الشهادة، أو يؤخر الكتابة والشهادة تأخيرًا يضرُّ بصاحب الحق، أو يمطلاه، ونحو ذلك، أو هو نهي لصاحب الحق أن يضار الكاتب والشهيد، بأن: يشغلهما عن ضرورتهما وحوائجهما، أو يكلفهما من ذلك ما يشق عليهما.

ثم أخبر أن ذلك فسوق بفاعله، فهذا كله عند القدرة على الكتاب والشهود.

ثم ذكر ما تحفظ به الحقوق؛ عند عدم القدرة على الكتاب والشهود، وهو السفر، في الغالب، فقال: ﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٣]. فدل ذلك دلالة بينة أن الرهان قائمة مقام الكتاب والشهود، شاهدة مخبرة بالحق، كما يخبر به الكتاب والشهود.

وهذا ـ والله أعلم ـ سر تقييد الرهن بالسفر؛ لأنه حال يتعذر فيها الكتاب الذي ينطق بالحق غالبًا، فقام الرهن مقامه، وناب منابه، وأكد ذلك بكونه مقبوضًا للمرتهن، حتى لا يتمكن الراهن من جحده.

فلا أحسن من هذه النصيحة، وهذا الإرشاد والتعليم، الذي لو أخذ به الناس لم يضع في الأكثر حق أحد، ولم يتمكن المبطل من الجحود والنسيان.

فهذا حكمه سبحانه المتضمن لمصالح العباد في معاشهم ومعادهم...

...[1]فبينة الحال ودلالته هنا تفيد من ظهور صدق المدعي؛ أضعاف ما يفيد مجرد اليد عند كل أحد، فالشارع لا يهمل مثل هذه البينة والدلالة، ويضيع حقًّا يعلم كل أحدٍ ظهوره وحجته، بل لما ظنَّ هذا من ظنه؛ ضيعوا طريق الحكم، فضاع كثير من الحقوق؛ لتوقف ثبوتها عندهم على طريق معين، وصار الظالم الفاجر ممكنًا من ظلمه وفجوره، فيفعل ما يريد، ويقول: لا يقوم على ذلك شاهدان اثنان، فضاعت

---

(١) ٩٠ أعلام جـ١.

حقوق كثيرة لله ولعباده.

وحينئذ أخرج الله أمر الحكم العلمي عن أيديهم، وأدخل فيه من أمر الإمارة والسياسة ما يحفظ به الحق تارة ويضيع به أخرى، ويحصل به العدوان تارة والعدل أخرى، ولو عرف ما جاء به الرسول على وجهه؛ لكان فيه تمام المصلحة المغنية عن التفريط والعدوان.

وقد ذكر الله سبحانه نصاب الشهادة في القرآن في خمسة مواضع:

فذكر نصاب شهادة الزنا أربعة في سورة النساء، وسورة النور.

وأما في غير الزنا فذكر: شهادة الرجلين، والرجل والمرأتين، في الأموال؛ فقال في آية الدين: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فهذا في التحمل والوثيقة، التي يحفظ بها صاحب المال حقه، لا في طريق الحكم، وما يحكم به الحاكم، فإن هذا شيء وهذا شيء.

وأمر في الرجعة بشاهدين عدلين.

وأمر في الشهادة على الوصية في السفر باستشهاد: عدلين من المسلمين، أو آخرين من غيرهم، وغير المؤمنين هم الكفار، والآية صريحة في قبول شهادة الكافرين على الوصية في السفر؛ عند عدم الشاهدين المسلمين، وقد حكم به النبي ﷺ، والصحابة بعده ولم يجئ بعدها ما ينسخها، فإن المائدة من آخر القرآن نزولاً، وليس فيها منسوخ، وليس لهذه الآية معارض البتة.

ولا يصح أن يكون المراد بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير قبيلتكم، فإن الله سبحانه خاطب بها المؤمنين كافة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦] ولم يخاطب بذلك قبيلة معينة حتى يكون قوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أيتها القبيلة، والنبي ﷺ لم يفهم هذا من الآية، بل إنما فهم ما هي صريحة فيه، وكذلك أصحابه من بعده، وهو

سبحانه ذكر ما يحفظ به الحقوق من الشهود، ولم يذكر أن الحكام لا يحكمون إلا بذلك[١].

[٢]وقد ذهب مالك إلى التوصل إلى الإقرار بما يراه الحاكم، وذلك يستند إلى قوله: ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ [يوسف: ٢٦] ومتى حكمنا بعقد الأزج وكثرة الخشب ومعاقد القمط في الجص وما يصلح للمرأة والرجل، يعني في الدعاوى، والدباغ والعطار إذا تخاصما في جلد، والقيافة والنظر في الخنثى، والنظر في إمارات القبلة، وهل اللوث في القسامة إلا نحو هذا. انتهى.

قلت: الحاكم إذا لم يكن فقيه النفس في الإمارات ودلائل الحال، كفقهه في كليات الأحكام؛ ضيع الحقوق.

فهاهنا فقهان لابد للحاكم منهما: فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في الوقائع وأحوال الناس، يميز به بين: الصادق والكاذب، والمحق والمبطل، ثم يطبق بين هذا وهذا، بين الواقع والواجب؛ فيعطي الواقع حكمه من الواجب.

ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالها وعدلها وسعتها ومصلحتها، وأن الخلق لا صلاح لهم بدونها البتة، علم أن السياسة العادلة: جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من أحاط علمًا بمقاصدها ووضعها مواضعها؛ لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة، فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها.

وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، وهي من الشريعة، علمها من علمها، وخفيت على من خفيت عنه.

ولا تنس في هذا الموضع قول سليمان نبي الله للمرأتين، اللتين ادعتا الولد، فحكم به داود للكبرى، فقال سليمان: «**ائتوني بالسكين أشقه بينهما**»[٣] فقالت: الصغرى: لا

---

(١) بحث المؤلف في البينات قرابة كراسة، قرر فيها ثبوت الحق بأي بينة. (ج).

(٢) ١١٧ بدائع جـ٣.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٢٧) ومسلم (رقم ١٧٢٠) وانظر: عمدة القاري (١٦/ ١٦).

تفعل هو ابنها؛ فقضى به للصغرى؛ لما دل عليه امتناعها، من رحمة الأم، ودل رضى الكبرى بذلك على الاسترواح إلى التأسي بمساواتها في فقد الولد.

وكذلك قول الشاهد من أهل امرأة العزيز: ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧] فذكر الله تعالى ذلك مقرراً له، غير منكر على قائله، بل رتب عليه العلم ببراءة يوسف، وكذب المرأة عليه.

وقد أمر النبي ﷺ الزبير أن يقرر ابني أبي الحقيق بالتعذيب على إخراج الكنز؛ فعذبهما حتى أقرا به.

ومن ذلك قول علي للظعينة التي حملت كتاب حاطب وأنكرته فقال لها: «لتخرجن الكتاب أو لنجردنك»(١).

وهل تقتضي محاسن الشريعة الكاملة إلا هذا؟!

وهل يشك أحد في أن كثيرًا من القرائن؛ تفيد علمًا أقوى من الظن المستفاد من الشاهدين؛ بمراتب عديدة؟!

فالعلم المستفاد من مشاهدة الرجل مكشوف الرأس، وآخر هارب قدامه، وبيده عمامة، وعلى رأسه عمامة، فالعلم بأن هذه عمامة المكشوف رأسه؛ كالضروري، فكيف تقدم عليه اليد التي إنما تفيد ظنًّا ما عند عدم المعارضة، وأما مع هذه المعارضة فلا تفيد شيئًا؛ سوى العلم بأنها يد عادية فلا يجوز الحكم بها البتة؟ ولم تأت الشريعة بالحكم لهذه اليد وأمثالها البتة.

وقد أمر النبي ﷺ الملتقط أن يدفع اللقطة إلى واصفها، وقد نص أحمد على اعتبار الوصف عند تنازع المالك والمستأجر في الدفين في الدار.

وهذه من محاسن مذهبه، ونص على البلد يفتح؛ فيوجد فيه أبواب مكتوب عليها

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٨٣) ومسلم (رقم ٢٤٩٤) واللفظ للبخاري، بينما لفظ مسلم: «لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب» وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٠٧-٣٠٨).

بالكتابة القديمة: أنها وقف، أنه يحكم بذلك لقوة هذه القرينة، وهل الحكم بالقافة إلا حكم بقرينة الشبه؟ وكذلك اللوث في القسامة؛ حتى إن مالكًا وأحمد في إحدى الروايتين؛ يقيدان بها؛ وهو الصواب الذي لا ريب فيه، وكذلك الحكم بالنكول إنما هو مستند إلى قوة القرينة الدالة على أن الناكل غير محق.

وبالجملة فالبينة: اسم لكل ما يبين الحق، ومن خصها بالشاهدين؛ فلم يوف مسماها حقه.

ولم تأت البينة في القرآن قط مرادًا بها الشاهدان؛ وإنما أتت مرادًا بها: الحجة، والدليل، والبرهان: مفردة، ومجموعة.

وكذلك قول النبي ﷺ: «البينة على المدعي»[1] المراد به بيان ما يصحح دعواه.

والشاهدان من البينة، ولا ريب أن غيرهما من أنواع البينة؛ قد تكون أقوى منهما كدلالة الحال على صدق المدعي؛ فإنها أقوى من دلالة إخبار الشاهد.

والبينة والحجة والدلالة، والبرهان والآية، والتبصرة؛ كالمترادفة، لتقارب معانيها.

والمقصود أن الشرع لم يلغ القرائن ولا دلالات الحال؛ بل من استقرأ مصادر الشرع وموارده؛ وجده: شاهدا لها بالاعتبار، مرتبًا عليها الأحكام.

وقول ابن عقيل: ليس هذا فراسة.

يقال: ولا ضير في تسميته فراسة؛ فإنها فراسة صادقة.

وقد مدح الله ﷻ الفراسة وأهلها، في مواضع من كتابه قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥] وهم المتفرسون الذين يأخذون بالسيما، وهي العلامة، ويقال: توسمت فيك كذا، أي: تفرسته، كأنك أخذت من السيما، وهي فعلاً

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٦/ ١٩٨ رقم ١١٨٩٢) والترمذي (رقم ١٣٤١، ١٣٤٢) والدارقطني (٤/ ١٥٧ رقم ٨) والشافعي في مسنده (ص ١٩١) وانظر: فتح الباري (٥/ ٧٩) وتحفة الأحوذي (٤/ ٤٧٥-٤٧٦).

من السمة، وهي العلامة.

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ [محمد: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. وفي الترمذي مرفوعًا: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[1]، والله أعلم.

...[2]وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: القرآن لم يذكر الشاهدين، والرجل والمرأتين في طرق الحكم التي يحكم بها الحاكم، وإنما ذكر هذين النوعين من البينات في الطرق التي يحفظ بها الإنسان حقه.

فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فأمرهم سبحانه بحفظ حقوقهم بالكتاب، وأمر من عليه الحق أن يملي الكاتب، فإن لم يكن ممن يصح إملاؤه، أملى عنه وليه.

ثم أمر من له الحق أن يستشهد على حقه برجلين، فإن لم يجد، فرجل وامرأتان.

ثم نهى الشهداء المتحملين لشهادة عن التخلف عن إقامتها؛ إذا طُلِبُوا بذلك.

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٢٧) والطبراني في الأوسط (٣/ ٣١٢ رقم ٣٢٥٤) وفي الكبير (٨/ ١٠٢ رقم ٧٤٩٧) وفي مسند الشاميين (٣/ ١٨٣-١٨٤ رقم ٢٠٤٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٨٧ رقم ٦٦٣) وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٦٨).

(٢) ٧١ الطرق الحكمية.

ثم رخص لهم في التجارة الحاضرة: أن لا يكتبوها.

ثم أمرهم بالإشهاد عند التبايع.

ثم أمرهم إذا كانوا على سفر - ولم يجدوا كاتبًا - أن يستوثقوا بالرُّهُن المقبوضة.

كل هذا نصيحة لهم، وتعليم وإرشاد لما يحفظون به حقوقهم، وما تحفظ به الحقوق شيء، وما يحكم به الحاكم شيء، فإن طرق الحكم أوسع من الشاهدين والمرأتين، فإن الحاكم يحكم بالنكول واليمين المردودة، ولا ذكر لهما في القرآن؛ فإن كان الحكم بالشاهد الواحد واليمين مخالفًا لكتاب الله؛ فالحكم بالنكول والرد أشد مخالفة...

[(١)]الطريق الثامن من طرق الحكم: الحكم بالرجل الواحد والمرأتين.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فإن قيل: فظاهر القرآن يدل على أن الشاهد والمرأتين؛ بدل عن الشاهدين؛ وأنه لا يقضي بهما إلا عند عدم الشاهدين.

قيل: القرآن لا يدل على ذلك، فإن هذا أمر لأصحاب الحقوق بما يحفظون به حقوقهم، فهو سبحانه أرشدهم إلى أقوى الطرق، فإن لم يقدروا على أقواها؛ انتقلوا إلى ما دونها، فإن شهادة الرجل الواحد أقوى من شهادة المرأتين، لأن النساء؛ يتعذر غالبًا حضورهن مجالس الحكام، وحفظهن وضبطهن؛ دون حفظ الرجال وضبطهم، ولم يقل سبحانه: احكموا بشهادة رجلين، فإن لم يكونا رجلين؛ فرجل وامرأتان.

وقد جعل سبحانه المرأة على النصف من الرجل في عدة أحكام:

أحدها: هذا، والثاني: في الميراث، والثالث: في الدية، والرابع: في العقيقة، والخامس: في العتق.

---

(١) ١٤٩ الطرق الحكمية.

كما في الصحيح عنه ﷺ، أنه قال: «من أعتق امرءًا مسلمًا أعتق الله بكل عضو منه عضوًا من النار[١]، ومن أعتق امرأتين مسلمتين أعتق الله بكل عضو منهما عضوًا من النار»[٢].

وقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ فيه دليل على أن الشاهد إذا نسي شهادته فذكره بها غيره؛ لم يرجع إلى قوله حتى يذكرها؛ وليس له أن يقلد، فإنه سبحانه قال: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ولم يقل: فتخبرها، وفيها قراءتان: التثقيل والتخفيف، والصحيح: أنهما بمعنى واحد من «الذكر».

وأبعد من قال: فيجعلها ذكرًا؛ لفظًا ومعنى، فإنه سبحانه جعل ذلك علة للضلال الذي هو ضد الذكر، فإذا ضلت أو نسيت؛ ذكرتها الأخرى فذكرت.

وقوله: ﴿أَن تَضِلَّ﴾ تقديره عند الكوفيين: لئلا تضل إحداهما، ويطردون ذلك في كل ما جاء من هذا، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦] ونحوه.

ويرد عليهم نصب قوله: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ إذ يكون تقديره: لئلا تضل، ولئلا تذكر.

وقدره البصريون بمصدر محذوف، وهو: الإرادة والكراهة والحذر، ونحوها. فقالوا: يبين الله لكم أن تضلوا، أي: حذر أن تضلوا، وكراهة أن تضلوا ونحوه.

ويشكل عليهم هذا التقدير في قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ فإنهم إن قدروه: كراهة أن تضل إحداهما؛ كان حكم المعطوف عليه ـ وهو: فتذكر ـ حكمه، فيكون مكروهًا،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥١٧) ومسلم (رقم ١٥٠٩) وانظر: فتح الباري (٥/ ١٤٧) وعمدة القاري (١٣/ ٧٧-٧٨).

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٣/ ١٣٣-١٣٤ رقم ٩٣٥) والنسائي في الكبرى (٣/ ١٦٩-١٧٠ رقم ٤٨٨١، ٤٨٨٣)، وأبو داود (رقم ٣٩٦٧) وابن ماجه (رقم ٢٥٢٢) والترمذي (رقم ١٥٤٧) والطبراني في الكبير (١/ ١٣٣ رقم ٢٧٩) وقال الترمذي: حسن صحيح، وانظر: فتح الباري (٥/ ١٤٧) وشرح النووي (١٠/ ١٥١).

وإن قدروها: إرادة أن تضل إحداهما؛ كان الضلال مرادًا.

والجواب عن هذا: أنه كلام محمول على معناه، والتقدير: أن تذكر إحداهما الأخرى؛ إن ضلت، وهذا مراد قطعًا، والله أعلم.

وقال شيخنا ابن تيمية رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فيه دليل على أن استشهاد امرأتين مكان رجل؛ إنما هو لإذكار إحداهما الأخرى؛ إذا ضلت، وهذا إنما يكون فيما يكون فيه الضلال في العادة، وهو النسيان وعدم الضبط، وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ حيث قال: «**أما نقصان عقلهن: فشهادة امرأتين بشهادة رجل**»[(١)] فبين أن شطر شهادتهن؛ إنما هو لضعف العقل، لا لضعف الدين، فعلم بذلك؛ أن عدل النساء بمنزلة عدل الرجال، وإنما عقلها ينقص عنه، فما كان من الشهادات لا يخاف فيه الضلال في العادة؛ لم تكن فيه على نصف رجل، وما يقبل فيه شهادتهن منفردات؛ إنما هو أشياء تراها بعينها، أو تلمسها بيدها، أو تسمعها بأذنها من غير توقف على عقل: كالولادة والاستهلال، والارتضاع، والحيض، والعيوب تحت الثياب، فإن مثل هذا لا ينسى في العادة، ولا تحتاج معرفته إلى كمال عقل، كمعاني الأقوال التي تسمعها من الإقرار بالدين وغيره، فإن هذه معان معقولة، ويطول العهد بها في الجملة.

...[(٢)]والمنافع التي يجب بذلها نوعان:

ومنها: ما هو حق المال، كما ذكرنا في الخيل، والإبل، والحلي.

ومنها: ما يجب لحاجة الناس.

وأيضًا: فإن بذل منافع البدن تجب عند الحاجة: كتعليم العلم، وإفتاء الناس،

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٩) وانظر: شرح النووي (٢/ ٦٦).

(٢) ٢٦١ الطرق الحكمية.

وأداء الشهادة، والحكم بينهم، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من منافع الأبدان.

وكذلك من أمكنه إنجاء إنسان من مهلكة؛ وجب عليه أن يخلصه، فإن ترك ذلك - مع قدرته عليه -؛ أثم، وضمنه.

فلا يمتنع وجوب بذل منافع الأموال للمحتاج، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ وقال: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾.

وللفقهاء في أخذ الجعل على الشهادة أربعة أقوال، وهي أربعة أوجه في مذهب أحمد: أحدها: أنه لا يجوز مطلقًا، والثاني: أنه يجوز عند الحاجة، والثالث: أنه لا يجوز إلا أن يتعين عليه، والرابع: أنه يجوز، فإن أخذه عند التحمل؛ لم يأخذه عند الأداء.

***

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

...[1] الشهادة المتعينة حق على الشاهد، يجب عليه القيام به، ويأثم بتركه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وهل المراد به: إذا ما دعوا للتحمل، أو للأداء؟ على قولين للسلف، وهما روايتان عن أحمد، والصحيح: أن الآية تعمهما، فهي حق عليه، يأثم بتركه ويتعرض للفسق والوعيد، ولكن ليست حقًّا تصح الدعوى به، والتحليف عليه؛ لأن ذلك يعود على مقصودها بالإبطال، فإنه مستلزم: لاتهامه، والقدح فيه بالكتمان.

---

(١) ١٤٨ الطرق الحكمية.

[(١)]وعبارات السلف في «شهد» تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار، قال مجاهد: حكم، وقضى، وقال الزجاج: بين. وقالت طائفة: أعلم وأخبر، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها؛ فإن «الشهادة» تتضمن: كلام الشاهد، وخبره، وقوله، وتتضمن: إعلامه، وإخباره، وبيانه، فلها أربع مراتب:

فأول مراتبها: علم، ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به، وثبوته.

وثانيها: تكلمه بذلك، ونطقه به، وإن لم يعلم به غيره؛ بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها.

وثالثها: أن يعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط؛ تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهدًا بما لا علم له به. قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦]. وقال النبي ﷺ: «**على مثلها فاشهد**»[(٢)] وأشار إلى الشمس.

---

(١) ٤٥٠ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٥٥ رقم ١٠٩٧٤) قال ابن الملقن: وهو غريب بهذا اللفظ، انظر: كشف الخفاء (٢/ ٩٣-٩٤) وضعف الحافظ ابن حجر إسناده في تلخيص الحبير (٤/ ١٩٨ رقم ٢١٠٧) فقال: وفي إسناده محمد بن سليمان بن مشمول وهو ضعيف، ونقل ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (٢/ ٤٣٩ رقم ٢٨٩٨) تصحيح الحاكم وتضعيف البيهقي، وقال الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٨٢): قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي في مختصره فقال: بل هو حديث واه، فإن محمد بن سليمان بن مشمول ضعفه غير واحد، قلت [أي الزيلعي]: رواه كذلك ابن عدي في الكامل والعقيلي في كتابه وأعلّاه بمحمد بن سليمان بن مشمول، وأسند ابن عدي تضعيفه عن النسائي ووافقه، وقال: عامة ما يرويه لا يتابع عليه إسنادًا ولا متنًا، وقال الصنعاني في سبل السلام (٤/ ١٣٠) أخرجه ابن عدي بإسناد ضعيف، وصححه الحاكم فأخطأ.

وأما مرتبة التكلم والخبر: فمن تكلم بشيء وأخبر به؛ فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥٠] وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝ ﴾ [الزخرف: ١٩].

فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم.

قال النبي ﷺ: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله»(١) وشهادة الزور هي قول الزور. كما قال تعالى: ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [الحج: ٣٠-٣١]. وعند نزول هذه الآية؛ قال رسول الله ﷺ: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله» فسمى قول الزور شهادة، وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة.

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النساء: ١٣٥]. فشهادة المرء على نفسه: هي إقراره على نفسه، وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز الأسلمي: «فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله ﷺ»(٢) وقال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا ـ وأضعافه ـ يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره؛ لا يشترط في قبول شهادته؛ أن يتلفظ بلفظ الشهادة، كما هو مذهب مالك، وأهل المدينة، وظاهر كلام

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٥٩٩) والترمذي (رقم ٢٢٩٩، ٢٣٠٠) وقال في الأول: وهذا حديث غريب وقال في الثاني: هذا عندي أصح، وابن ماجه (رقم ٢٣٧٢) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٢١ رقم ٢٠١٧٠) وفي شعب الإيمان (٤/ ٢٢٣ رقم ٤٨٦١) والطبراني في الكبير (٤/ ٢٠٩ رقم ٤١٦٢) وأحمد (٤/ ١٧٨)، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢٠١) وانظر: عمدة القاري (١٣/ ٢١٧-٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٢٧٠، ٥٢٧١) ومسلم (رقم ١٦٩١) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٢٢-١٢٥) وعمدة القاري (٢٠/ ٢٥٢-٢٥٩).

أحمد، ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك. وقد قال ابن عباس: «شهد عندي رجال مرضيون ـ وأرضاهم عندي عمر ـ أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح؛ حتى تطلع الشمس، وبعد العصر؛ حتى تغرب الشمس»[١].

ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، والعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة؛ بل قال: «**أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة**»[٢] الحديث.

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال: «**لا إله إلا الله، محمد رسول الله**» فقد دخل في الإسلام، وشهد شهادة الحق، ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة، وأنه قد دخل في قوله: «**حتى يشهدوا: أن لا إله إلا الله**»[٣]، وفي لفظ آخر: «**حتى يقولوا: لا إله إلا الله**»[٤]. فدل على أن مجرد قولهم: لا إله إلا الله شهادة منهم.

وهذا أكثر من أن تذكر شواهده من الكتاب والسنة، فليس مع من اشترط لفظ الشهادة؛ دليل يعتمد عليه. والله أعلم.

...[٥]وقبول شهادة العبد: هو موجب الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة، وصريح القياس، وأصول الشرع، وليس مع من ردها: كتاب ولا سنة، ولا إجماع، ولا قياس.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٨١)، ومسلم (رقم ٨٢٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٥٨) (٣/ ١٠٥) وعمدة القاري (٥/ ٧٦).

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٣/ ١٠٢ رقم ٩٠٣) وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٤٦٣ رقم ٧٠٠٢) والنسائي في الكبرى (٥/ ٥٦ رقم ٨١٩٣) وأبو داود (رقم ٤٦٥٠) وابن ماجه (رقم ١٣٣) والترمذي (رقم ٣٧٤٧) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٦٧ رقم ٨٦٩) وفي الصغير (رقم ٦٢) وأبو يعلى (٢/ ١٤٧ رقم ٨٣٥) وأحمد (١/ ١٨٧) والبزار (٣/ ٢٣١ رقم ١٠٢٠) وانظر: تحفة الأحوذي (١٠/ ١٧١-١٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٥) ومسلم (رقم ٢٢) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٦١).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٢) ومسلم (رقم ٢١) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٩٧) وشرح النووي (١٢/ ٥).

(٥) ١٦٦ الطرق الحكمية.

عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والوسط: العدل الخيار، ولا ريب في دخول العبد في هذا الخطاب، فهو عدل بنص القرآن، فدخل تحت قوله: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق: ٢].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ [النساء: ١٣٥] وهو من الذين آمنوا قطعًا؛ فيكون من الشهداء لذلك.

وقال تعالى: ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ولا ريب أن العبد من رجالنا.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ ﴾ [البينة: ٧] والعبد المؤمن الصالح من خير البرية؛ فكيف ترد شهادته؟ وقد عدله الله ورسوله، كما في الحديث المعروف المرفوع: «**يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[1] والعبد يكون من حملة العلم، فهو عدل بنص الكتاب والسنة، وأجمع الناس على أنه مقبول الشهادة على رسول الله ﷺ، إذا روى عنه الحديث، فكيف تقبل شهادته على رسول الله ﷺ ولا تقبل شهادته على واحد من الناس؟

...[2]ثم ذكر العادل في آية التداين فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٩ رقم ٢٠٧٠٠) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٤٤ رقم ٥٩٩) وتمام في فوائده (١/ ٣٥٠ رقم ٨٩٩) والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص ١١، ٢٨) وابن عدي في الكامل (٣/ ٣١) والعقيلي في الضعفاء (١/ ٩-١٠) (٤/ ٢٥٦ رقم ١٨٥٤) وصححه أحمد كما في تاريخ مدينة دمشق (٧/ ٣٩) (٥٩/ ١٠) وقال النووي رحمه الله في تهذيب الأسماء (١/ ٤٥): وهذا إخبار منه ﷺ بصيانة العلم وحفظه وعدالة ناقليه، وأن الله تعالى يوفق له في كل عصر خلفا من العدول يحملونه وينفون عنه التحريف وما بعده فلا يضيع، وهذا تصريح بعدالة حامليه في كل عصر، وهكذا وقع ولله الحمد. وهذا من أعلام النبوة، ولا يضر مع هذا كون بعض الفساق يعرف شيئًا من العلم، فإن الحديث إنما هو إخبار بأن العدول يحملونه، لا أن غيرهم لا يعرف شيئًا منه، والله أعلم.

(٢) ٣٧٨ طريق الهجرتين.

بِدَيْنٍ﴾ [البقرة: ٢٨٢] الآية، ولولا أن هذه الآية تستدعي سفرًا وحدها؛ لذكرت بعض تفسيرها، والغرض إنما هو التنبيه والإشارة.

وقد ذكر أيضًا العادل، وهو آخذ رأس ماله من غريمه لا بزيادة ولا نقصان.

ثم ختم السورة بهذه الخاتمة العظيمة، التي هي من كنز تحت عرشه، والشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه، وفيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام وأصول الإيمان ومقامات الإحسان؛ ما يستدعي بيانه؛ كتابًا مفردًا.

والمقصود ذكر طبقات الخلائق في الدار الآخرة، ولنعد إلى المقصود: فإن هذا من سعي القلم، ولعله أهم مما نحن بصدده: فهذه الطبقات الأربع من طبقات الأمة هم؛ أهل الإحسان والنفع المتعدي وهم: العلماء، وأئمة العدل، وأهل الجهاد، وأهل الصدقة وبذل الأموال في مرضاة الله، فهؤلاء ملوك الآخرة، وصحائف حسناتهم متزايدة، تملى فيها الحسنات وهم في بطون الأرض، ما دامت آثارهم في الدنيا، فيا لها من نعمة ما أجلها! وكرامة ما أعظمها! يختص الله بها من يشاء من عباده.

***

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾.

(١) لما نزل قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] أشكل ذلك على بعض الصحابة، وظنوا أن ذلك من تكليفهم بما لا يطيقونه، فأمرهم ﷺ، أن يقابلوا النص بالقبول، فبين الله سبحانه بعد ذلك: أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأنه لا يؤاخذهم بما نسوه أو أخطؤوا فيه، وأنه لا يحمل عليهم إصرًا كما حمله على الذين من قبلهم، وأنه لا يحملهم ما لا طاقة لهم به، وأنهم إن قصروا في بعض ما أمروا به أو نهوا عنه ثم

---

(١) مختصر الصواعق جـ١.

استغفروا: عفا الله عنهم، وغفر لهم، ورحمهم، فانظر ماذا أعطاهم الله تعالى لما قابلوا خبره: بالرضا والتسليم، والقبول الانقياد، دون المعارضة والرد...

***

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾.

[(١)]قال سبحانه ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦] يعني: من السيئات؛ لأن الذنوب يوصل إليها بواسطة: الشهوة، والشيطان، والهوى، والحسنة تنال؛ بهبة الله من غير واسطة شهوة، ولا إغراء عدو، فهذا الفرق بينهما على ما قاله السهيلي.

وفيه فرق أحسن من هذا وهو: أن الاكتساب يستدعي التعمل والمحاولة والمعاناة؛ فلم يجعل على العبد؛ إلا ما كان من هذا القبيل الحاصل بسعيه ومعاناته وتعمله، وأما الكسب، فيحصل بأدنى ملابسة؛ حتى بالهمِّ بالحسنة، ونحو ذلك.

فخص الشر بالاكتساب والخبر بأعم منه؛ ففي هذا مطابقة للحديث الصحيح: «إذا هم عبدي بحسنةٍ فاكتبوها، وإن هم بسيئة فلا تكتبوها»[(٢)].

وأما حديث الواسطة وعدمها؛ فضعيف؛ لأن الخير أيضًا بواسطة: الرسول، والملك، والإلهام، والتوفيق، فهذا في مقابلة وسائط الشر، فالفرق ما ذكرناه، والله أعلم.

[(٣)]وفي الصحيحين: عن أبي مسعود الأنصاري، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ بهاتين الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[(٤)].

---

(١) ٧٤ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٢٨) وانظر: عمدة القاري (١/ ٢١٢) وفيض القدير (٤/ ٤٧٤).

(٣) ٢٠٧ الوابل الصيب.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٠٨) ومسلم (رقم ٨٠٧، ٨٠٨) وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٦) وشرح النووي (٦/ ٩١) (٩/ ٢٩) والديباج على مسلم (٢/ ٤٠٢) وفيض القدير (٦/ ١٩٦).

الصحيح: أن معناها: كفتاه من شر ما يؤذيه، وقيل: كفتاه قيام الليل: وليس بشيء. وقال علي بن أبي طالب: ما كنت أرىٰ أحدًا يعقل، ينام قبل أن يقرأ الآيات الثلاث الأواخر من سورة البقرة[١].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة البقرة

والحمد لله رب العالمين[٢]

❁❁❁

(١) أخرجه الدارمي (رقم ٣٣٨٤) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٣٨) إلى الدارمي ومحمد بن نصر وابن الضريس وابن مردويه عن علي. وعزاه أيضًا إلى مسدد عن عمر، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٤٢).

(٢) قال عبد الله وفقيره وابن عبده وابن أمته/ صبري بن سلامة بن شاهين آل حسين: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، فلقد أتممت تحقيق هذا الجزء المبارك من هذا الكتاب الطيب في يوم عرفة سنة ١٤٢٩هـ بمدينة الرياض، فأسأله سبحانه أن يمن علي في هذا اليوم المبارك، فيتقبل مني عملي هذا ولا يحرمني الأجر، فإنه الكريم الجواد الكثير العطاء، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، كما أسأله ﷻ أن يتقبل من الحجاج حجهم ودعاءهم، وألا يحرمني أجر الحج فإنه سبحانه المان بفضله، وأسأله ﷻ أن يكتب لهذا الكتاب القبول والنفع والبركة لمؤلفه وجامعه ومحققه وناشره والناظر فيه المتعلم منه.

٩ ذي الحجة ١٤٢٩هـ، الموافق ٧/ ١٢/ ٢٠٠٩م

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة التحقيق.
١٠	مقدمة الواقف
١٦	ترجمة فضيلة الشيخ علي الصالحي رحمه الله.
٣١	مقدمة الجامع فضيلة الشيخ علي الصالحي رحمه الله.
٣١	ملاحظات حول إحالات ابن القيم.
٣٤	اعتذار عنه حول الإحالات.
٣٦	طريقة المؤلف في الإحالة على الكتب.
٣٩	مقدمة في آداب قراءة القرآن.
٤٤	فائدة التأمل في القرآن.
٤٦	هدي الرسول ﷺ في سجود القرآن.
٥٢	بحث في سجود الشكر.
٥٤	سُورَةُ الفَاتِحَةِ
٥٤	فصل في التوبة وفيه بحوث
٦٠	فصل في جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الألوهية.
٦٢	فصل كل عمل أصله المحبة والإرادة الفرق بين الحمد والمدح.
٦٦	الفرق بين الثناء والمجد وتقسيم هذه المعاني الأربعة.
٦٧	قاعدة عظيمة القدر.
٧٢	الفاتحة اشتملت على أمهات المطالب وفيه بحوث قيمة.
٨٠	ذكر الصراط معرفًا بتعريفين.
٨٤	الصراط المستقيم هو صراط الله.

الصفحة الموضــــوع
٨٧ صراط الله قليل سالكوه.
٨٨ أجل المطالب سؤال الهداية من الله.
٩٠ الفاتحة مشتملة على أنواع التوحيد.
٩٣ دلالة الأسماء مبنية على أصلين.
٩٤ نفي معاني أسماء الله إلحاد، والإلحاد أنواع.
٩٧ اسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى.
٩٩ ارتباط الخلق والأمر بالأسماء الثلاثة: الله، والرب، والرحمن.
١٠٠ فصل في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد.
١٠٢ فصل في مراتب الهداية الخاصة والعامة، وهي عشر مراتب.
١١٦ فصل في اشتمال الفاتحة على الشفاءين: شفاء القلوب وشفاء الأبدان.
١١٩ شهادة قواعد الطب.
١٢١ في الفاتحة الرد على جميع المبطلين.
١٢٣ الرد على الرافضة.
١٢٤ سر الخلق انتهى إلى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.
١٣١ قسم من له عبادة بلا استعانة.
١٣٣ انقسام الناس إلى أربعة أقسام.
١٤٢ منفعة العبادة ومقصودها.
١٤٩ العارفون بالله هم الطائفة الإبراهيمية.
١٤٩ سر العبودية بمعرفة صفات الرب.
١٥٢ قواعد ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ أربع.
١٥٣ جميع الرسل دعوا إلى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.
١٥٣ العبودية وصف أكمل خلق الله.

الصفحة الموضوع
١٥٦ لزوم العبادة إلى الموت.
١٥٧ العبودية خاصة وعامة.
١٦٠ مراتب ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ علمًا وعملاً.
١٦٠ العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة.
١٦١ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فيها عشرون فائدة: اشتملت على علم عظيم.

سُورَةُ البَقَرَةِ

١٩٧ أعمال القلب والجوارح سبب الهداية والإضلال.
٢٠٠ ذكر الله ـ سبحانه ـ أن الكافرين مصرون على الكفر فعاقبهم ... إلخ.
٢٠٥ ذكر المنافقين وصفاتهم.
٢٠٦ ذكر أمراض القلوب.
٢٠٩ الأمراض متولدة من الجهل، ودواؤها.
٢١٠ عود على صفات المنافقين.
٢١٦ بحث في أسرار المناظرات وتقرير الحجج الصحيحة وإبطال الشبه الفاسدة.
٢٣٠ القسم الرابع: قوم يكتمون إيمانهم... إلخ.
٢٣٢ اشتمل المثالان على حكم عظيمة.
٢٣٧ ذهاب نور المنافقين يوم القيامة.
٢٣٧ فهم المعاد وما يجري فيه.
٢٣٨ سمى الله كتابه: روحًا، في عدة مواضع.
٢٣٨ وسماه نورًا... إلخ.
٢٣٩ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ الآيات، فيها إثبات الصانع وصفات كماله، وإثبات النبوة وغيرها.
٢٤٥ قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الآية. اشتملت على ما رزق الله أهل الجنة من النعيم.

الصفحة الموضـــوع
٢٥٢ أهل هذه البشرى: المؤمنون المتقون المخلصون.
٢٥٢ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ ﴾ الآية. فيها رد اعتراض الكفار والحكمة في ضرب الأمثال.
٢٥٥ قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾ الآية. فيها تقرير الإيمان بالله فيما خلقه وقدره.
٢٥٦ قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ إلى قولـــه: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ فيها الجواب عن سؤالهم والحكمة في خلق آدم وذريته وفضله، وفضل العلم من وجوه.
٢٦١ الحكمة في إبقاء إبليس إلى آخر الدهر.
٢٦٣ الحكمة في إخراج آدم من الجنة.
٢٦٧ ذكر مناظرة عدو الله في شأن آدم.
٢٧١ كل من عارض النصوص فهو من حلفائه.
٢٧٢ من اتبع هدى الله لا خوف عليه.
٢٧٣ تلاوة القرآن تلاوة لفظه ومعناه.
٢٧٤ هل يدخل مسلمو الجن الجنة.
٢٧٩ أمر الله بالاستعانة بالصبر والصلاة وفوائد الصلاة في حفظ القلب والبدن.
٢٨١ تلاعب الشيطان ببني إسرائيل.
٢٨٣ اختلاف الناس في الصابئة.
٢٨٥ تقسيم الأمم قبل مبعث النبي ﷺ.
٢٨٧ الأديان ستة واحد للرحمن وخمسة للشيطان.
٢٨٧ لما بعث ﷺ استجاب أكثر أهل الأديان.
٢٨٩ أمر الله بأخذ أوامره بالعزم والجد .

الصفحة الموضوع
٢٨٩ قصة أصحاب السبت.
٢٩٢ قصة القتيل الذي تدافعوا فيه.
٢٩٤ تقسيم قول الله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ الآيات.
٢٩٦ تفسير قول الله: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾.
٢٩٧ تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ الآية.
٢٩٨ تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ﴾ الآية.
٢٩٨ تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ الآية.
٣٠٠ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الآية
٣٠٢ تفسير قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ الآية.
٣٠٣ تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ الآية.
٣٠٥ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآية.
٣٠٦ تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ الآية مناظرة ومعجزة.
٣١٠ التوطيئات لنسخ القبلة وسياق الآية الدالة على غش اليهود وخيانتهم وكذلك النصارى وبيان أن من تولى الكفار فهو منهم.
٣١٧ قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ الآية.
٣١٩ بحث يعود على قول الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.
٣٢٣ تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ إلى قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.
٣٢٨ البحث في الذرية وذكر الخلاف فيها.
٣٣٠ ذكر خصائص إبراهيم خليل الله الكريم وذريته.

الصفحة الموضـــوع
٣٣٧ تفسير قول الله: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾ الآية وما بعدها.
٣٤٠ حكمة الختان وفوائده.
٣٤١ خصال الفطرة.
٣٤٤ ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الآيات. ذكر في طيها استطرادًا مفيدًا.
٣٥٣ ذكر محاجة أهل الباطل للمسلمين ونصر الله لهم في أمر القبلة.
٣٥٤ ذكر نظائر في عدة مسائل قيمة جدًّا.
٣٥٩ ذكر أصناف المنكرين للقبلة.
٣٦٠ ذكر أن قبلة اليهود وأتباعهم لا أصل لها في الشرع.
٣٦٣ الحجة في كتاب الله نوعان، ثم عود على تفسير آيات ذكر القبلة.
٣٦٤ تأريخ تحويل القبلة وذكر إمامة إبراهيم وفي ضمنه أن البيت إمام.
٣٦٧ مبنى الدين على قاعدتين: الذكر والشكر ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ الآية.
٣٦٨ ذكر واجب الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٣٦٩ الذكر عبودية القلب واللسان غير مؤقت وهو في القرآن على عشرة أوجه مفصلة.
٣٧١ بحث في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ .
٣٧٤ الصبر في القرآن نحو سبعين موضعًا وهو واجب بالإجماع.
٣٧٨ حد الصبر لغة وأنواعه الثلاثة.
٣٨٠ علاج المصيبة بالصبر وفوائد في الدين والدنيا.
٣٨٣ بحث في قول من قال: الصلاة من الله بمعنى الرحمة.
٣٨٥ بحث في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ الآيات.
٣٨٦ بحث في قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ الآيات.
٣٩٣ أنواع المحبة وخاتمة البحث فيها.

الصفحة المـوضـوع
٣٩٧ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ الآية. مناظرة بين الكفار والمسلمين.
٣٩٨ قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ ﴾ الآية.
٤٠٠ قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ الآية.
٤٠١ الرد على المعترض على شرعية القصاص، بحث موسع.
٤١١ الرد على المعترض على شرعية حد السارق والزاني وتنصيف الحد على الرقيق.
٤١٦ البحث في الجنايات الثلاث على الأنفس والأموال والأعراض.
٤٢١ قاعدة الشريعة لا يجوز هدمها ودلائل هذه القاعدة.
٤٢٤ شروط الواقفين أربعة أقسام، الضرار نوعان.
٤٢٦ الإنكار على من أفتى بغير الشرع أو وصى خلا ف الشرع.
٤٣٠ بحث الصيام وتفسير الآيات الواردة فيه، والحكمة منه.
٤٣٢ هديه ﷺ الإكثار من العبادات في الصيام.
٤٣٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾.
٤٣٦ بحث عن مرض الأبدان والأشياء التي يؤذي انحباسها والحمية، وأصول الطب.
٤٣٩ الأشياء المفطرة وغير المفطرة.
٤٤١ وقت الإفطار والدعاء عنده.
٤٤٢ حكم الصيام في السفر وأسباب الفطر.
٤٤٤ تنازع الناس في كثير من الأحكام ولم يتنازعوا في الصفات.
٤٤٥ بحث في قوله: ﴿ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ ﴾.
٤٤٦ هديه ﷺ في الاعتكاف وأحكامه.
٤٥٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ .
٤٥٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾.

الصفحة المـوضـوع
٤٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.
٤٥٣ هديه ﷺ في حجه وعمره والاختلاف في عدد عمره ووقتها.
٤٦١ حكم حلق الرأس وأنواعه وما ابتدع فيه.
٤٦٥ بحث في قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾.
٤٧١ حكم الحج والعمرة للنساء وحكم فسخ نية الحج إلى العمرة.
٤٧٢ بحث حول العمرة المكية وحكم رمي الجمرة الأولى ووقتها.
٤٧٥ هديه ﷺ في الوقوف عند المشعر الحرام والندب إلى كثرة ذكر الله.
٤٧٦ مواطن النحر وحكم البناء بمنى.
٤٧٧ بحث في قول الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الآية.
٤٧٨ يجوز للمفتي أن يعدل عن الجواب إلى ما هو أنفع للمستفتي.
٤٧٩ بحث في قول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ الآية وفيها حكم وأسرار.
٤٨٣ المحبوب قسمان: محبوب لنفسه ومحبوب لغيره.
٤٨٥ ذكر قصة سرية عبد الله بن جحش وما نزل فيها من قرآن وإيضاح موارد الفتنة.
٤٩٠ بحث في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الآية وحكم الجهاد والهجرة.
٤٩١ الفرق بين الرجاء والتمن
٤٩٤ بحث في قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ وبحث خلطة اليتامى.
٤٩٤ بحث في أحكام الحيض في القرآن وأحكام الوطء.
٤٩٩ بحث في أحكام الأيمان وحكم طلاق المكره والسكران.
٥٠٥ بحث في أحكام الإيلاء ومدة التربص وحكم مجامعة الرجل لزوجته.

الصفحة الموضـــوع

٥٠٩ بحث أحكام الخطبة قبل انتهاء العدة وذكر ختم الآيات بأسماء الله وفائدتها.
٥١٢ تقسيم الألفاظ إلى صريح وكناية واختلافه باختلاف الأشخاص... إلخ.
٥١٣ حكم الطلاق ووقته وحكم الطلاق الثلاث مجموعة وذكر الخلاف فيها.
٥٢٠ ذكر حكم الفدية في الخلع برضاهما والخلاف إذا تم الخلع هل له رجعة برضاهما.
٥٢٦ حكم التحليل المحرم والجائز وحكم العضل من الزوج.
٥٣٠ حكم تفريق الشرع بين عدة الموت والطلاق وغيرهما، والجواب عنه بوضوح.
٥٣٨ الحكمة في منع نكاح المطلقة ثلاثًا حتى تنكح زوجًا غيره وذكر الفرق بين شريعة الإسلام والتوراة والإنجيل.
٥٤١ ذكر حكم الله في العدد بتفصيل.
٥٤٦ البحث في الأقراء هل هي الحيض أو الأطهار.
٥٥٣ حكم النفقات على الزوجات والأقارب.
٥٥٨ بحث أي القيام والسجود أفضل، بحث القنوت.
٥٦١ معاني العزة واستلزامها الوحدانية.
٥٦٢ بحث السكينة وأصلها وما هي؟
٥٦٦ بحث في الصبر والثناء على أهله.
٥٦٧ ما ورد في آية الكرسي وبحث في قول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ وتقدم البحث.
٥٦٩ بحث في قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.
٥٧٢ بحث في قول الله تعالى: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ الآية.
٥٧٥ بحث في قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الآية وما بعدها.
٥٧٧ بحث ما يعرض للأعمال الصالحة فيبطلها... إلخ.

الصفحة الموضــوع

٥٧٨ بحث من ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله ومضاعفته.
٥٨٠ المقصود في الزكاة أمور عديدة.
٥٨١ الحث على إخراج الطيب من الكسب ومما أخرج الله من الأرض.
٥٨١ بحث في مطالعة أصول النعم وما لله على أوليائه منها.
٥٨٣ بحث مقادير الزكاة على أكمل الوجوه وأنفعها وتناسبها.
٥٨٨ بحث يدور على فضل الحكمة وخيريتها والامتنان بها وأنواعها والخلاف فيها.
٥٩٠ بحث حول مستحقي الزكاة والوعد لمخرج الزكاة بالمغفرة وتكفير السيئات.
٥٩٤ ذكر الله أحكام الناس في الأموال ثلاثة: عدل وظلم وفضل.
٥٩٥ العقل تحت حجر الشرع فيما يأمر به وفيما يحكم به.
٥٩٦ بحث معارضي الشرع تبعًا لقائدهم إبليس لعنه الله.
٥٩٧ السابعة أهل الإيثار والصدقة والإحسان إلى الناس.
٥٩٩ بحث حول طلب الله الفرض من عباده لمصلحتهم في الربح عليه.
٦٠١ المن نوعان: من بالقلب ومن باللسان، والله حرم المن، واختص به نفسه... إلخ.
٦٠٢ المن معارضة من المان لمعطي الفضل في الحقيقة ومحبط للعمل.
٦٠٣ بحث في قول الله ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ والخلاف في ذلك.
٦٠٦ تمثيل المنفق في مرضاة الله بالجنة كثيرة الأشجار والثمار.
٦٠٧ الخلاف في الضعفين.
٩٠٨ بحث في قول الله ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ ﴾ الآية. والخلاف في هل النخل أفضل أم العنب أفضل؟.
٦١٢ بحث في قول الله ﴿ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ الآية. والتحذير من طاعة الشيطان.
٦١٥ ذكر أقسام الأغنياء ومجمل البحوث في آيات الإنفاق استعراض مفيد.

الصفحة الموضـــوع
٦١٩ استعراض آيات النهي عن الربا والتحذير منه.
٦٢٠ بحث آية المداينة في إرشاد الله لعباده بطرق حفظ حقوقهم.
٦٢١ ذكر البينة ونصاب الشهادات.
٦٢٣ السياسة نوعان: عادلة وظالمة.
٦٢٤ البينة اسم لكل ما يبين الحق شهود وقرائن ومدح الفراسة.
٦٢٧ طرق الحكم والبحث حول قول الله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ الآية.
٦٢٩ المنافع التي يجب بذلها نوعان.
٦٣٠ الخلاف في أخذ الجعل على الشهادة.
٦٣٠ مدار لفظ شهد على الحكم والقضاء والإعلام والبيان... إلخ.
٦٣٣ قبول شهادة العبد وأدلة ذلك.
٦٣٥ ذكر فضل خاتمة سورة البقرة.
٦٣٨ الفهرس.

انتهى فهرس الجزء الأول